أعمال القلوب

تأليف

خالد بن عثمان السبت

الجزء الأول

مؤسسة العلم والتأصيل

أَعْمَالُ الْقُلُوبِ

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

ⓒ فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السبت، خالد عثمان

أعمال القلوب. / خالد عثمان السبت .

الدمام، ١٤٤٢هـ

٨٠٠ ص ؛ ..سم

ردمك: ١-٢-٩١٤٩٥-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد ٢- الأخلاق الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٢/٤١٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤١٥

ردمك: ١-٢-٩١٤٩٥-٦٠٣-٩٧٨

مؤسسة العلم والتأصيل

٠٥٠٤٩٢٠١٢٠

elm.taasel@gmail.com

الدمام ـ المملكة العربية السعودية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢١م

تطلب جميع كتبنا من:

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام ـ حي الريان ـ شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ ـ ٨٤٦٧٥٩٣ ـ ٨٤١٢١٠٠

ص.ب. واصل: ٨١١٤ الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض ـ ج: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥ ـ ج: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

جدة ـ ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩ ـ ج: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

aljawzi@hotmail.com +966503897671

aljawzi aljawzi.net

التنفيذ الطباعي والصف والتنسيق والإخراج آفاق

٠٠٩٦٦٥٩٥٦٢٩٥٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمةُ الطّبْعَةِ الثّانِيَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فهذه الطَّبْعَة الثانية، أُقَدِّمُها للقرّاء الكرام، بعد أن أعدتُ النَّظر في الكتاب على مُكْث ومَهَل، وبذلت في مراجعته وضبطه وتصحيحه وتهذيبه ما استطعته من جهد ووقت؛ كما تميّزت هذه الطبعة عن سابقتها بزيادات تجدها في تحرير بعض المعاني، وإضافة بعض الفوائد مما يَحْسن نقْله والاستشهاد به. وثمّت جُهْد صامتٌ قد لا يظهر في الهوامش والتعليقات، وإنما يتبيّنه القارئُ بالتأمل والمقارنة.

وإنْ مدَّ الله في العُمر ذيّلتُ الكتاب بفهارس موضوعية، تنتظم شيئًا من مسائله، وتكشف عن بعض لطائفه وفوائده.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل بِقَبُول حَسَن، وأن ينفع به من كَتَبَه أو قَرَأَه، أو أَسْهَم في العمل فيه، وفي إخراجه، إنه سميع مُجِيب.

المُؤَلِّف

٢٦/٥/١٤٤١هـ

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الأُولَى

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسَلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعدُ:

فإنَّ القلوب تفتقِرُ إلى تعاهُدٍ وتربيةٍ وإصلاح؛ ذلك أن هذه القلوب إذا استقامَتْ وصَلَحَتْ، فإنها تستقيم أحوال الإنسان وتصلُحُ أعمالُه، ويحصُلُ له من الانشراح واللذَّة والسرور والبَهْجة ما لا يقادَرُ قَدْرُه، فيكون في جَنَّةٍ «مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جَنَّةَ الآخرة»(١)، وهذه الجنة لا تحصُلُ للإنسان إلّا بصلاح قلبه.

ولا يخفى أن جِنْسَ الأعمال القلبيَّة أشرف من جِنْس أعمال الجوارح؛ يكفيك أن العمل لا يُقبَل إلَّا إذا كان خالصًا لله ﷻ، ومعلومٌ أن الإخلاص عمَلٌ مِن أعمال القلوب.

والإنسان الذي يَعمَل الأعمال الصالحة - وإن عَظُمَتْ - قد يعتريه من المقاصد الفاسدة والزَّهْو والتعاظُم ما يصير عَمَلُه به مردودًا.

وقد قال الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

---

(١) قال ابن القيِّم: «سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة - قدَّس الله رُوحه - يقول: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جنةَ الآخرة». «مدارج السالكين» (٤٥٢/١)، و«الوابل الصيب» (ص١٠٩). وذكره في «الداء والدواء» (ص١٨٧، ٢٨١)، غيرَ منسوب.

أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّهم: «الَّذِينَ يَصُومُونَ، ويُصَلُّونَ، ويَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ»(١).

فنحن بحاجة ماسَّة إلى التعرُّف على ما يُصلِحُ هذه القلوبَ التي طالما اعترَاها مِن ألوان الكَدَرِ الذي يلقاه الإنسان، ما ينغِّصُ عَيْشَه، ويُذْهِب عليه لَذَّتَه؛ فلا يجد قلبَهُ في تلاوة القرآن، ولا في مناجاة الله ﷻ في الصلاة، ولا في غير ذلك مِن أحواله.

تلازمُ أعمالِ القلوبِ وترابُطُها:

ثم إنَّ هذه الأعمال القلبية متلازِمةٌ مترابِطة؛ فحينما نتحدَّث مثلًا عن الإخلاص، فإن هذا الحديث لا بد أن يرتَبِط بقضيَّة الخوف والرجاء مثلًا:

فلو سألنا: لماذا يُخْلِص الإنسان عمله لله ﷻ؟

فالجواب: لأنه يحبُّه ويرجوه ويخافُه.

وهذا الإنسان الذي يتوكَّل على ربه، لا بد أن يكون واثقًا بهذا المعبود الذي توكَّل عليه؛ فهو على يقين أنه قادِر على تخليصِهِ من كل المخاوف، وإعانته على كل الأمور التي يحتاج فيها إلى عَوْنِهِ ونُصْرَته وألطافه.

وحينما نتحدَّث عن الإنابة والتوبة، نجد أن الإنسان إنما يتوب؛ لأنه يخاف الله ﷻ، ويحبُّه، ويرجو ما عنده من الثواب.

وهكذا حينما نتحدَّث عن الرجاء والخَوْف والمحبَّة، وغيرها من أعمال القلوب.

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٤١٩٨)؛ من حديث عائشة ﵂. وصحَّحه الحاكم (٢/٤٢٧)، والذهبي، وابن العربي في «عارضة الأحوذي» (١٢/٣٩)، والألباني في «الصحيحة» (١٦٢).

قال ابن القيِّم: «والمحبَّة ما لم تَقترِن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضُرُّه»[(١)]؛ وذلك أن المحبَّة إذا انفرَدَتْ، أوجَبَتْ لصاحبها لونًا من الإدلال والانبساط، وربما آلَتْ بكثيرٍ مِن الجُهَّالِ المغرورِينَ إلى الاستغناء بها عن الواجبات؛ حيث زعَموا أن المقصود من العبادات هو عبادة القلب، وإقامة اللُّبِّ، وإقبالُه على الله ﷻ ومحبَّته، فإذا حصل المقصود بهذا على حدِّ زَعْمهم، قالوا: «إن الاشتغال بالوسيلة باطل لا يَنفَع!».

وقال: «ولقد حدَّثني رجُل أنه أنكَر على رجُل من هؤلاء في خَلْوة له، ترك فيها حضور الجُمُعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء مِن ماله، فإن الجُمُعة تسقُط عنه؟ فقال له: بلى، فقال له: فقلب المُرِيد أعزُّ عليه من ضياع عشَرة دراهم» - أو كما قال - وهو إذا خرَج، ضاع قلبه؛ فحِفْظُه لقلبِهِ عُذْرٌ مُسقِط للجمعة في حقِّه، فقال له: هذا غرور؛ بل الواجب عليه: الخروج إلى أمر الله، وحفظ قلبه مع الله...

فتأمَّل هذا الغُرُور العظيم؛ كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جُمْلة؛ فإن مَن سلَكَ هذا المسلك، انسلَخ عن الإسلام العامِّ، كمسلاخ الحَيَّةِ من قِشْرِها، وهو يظن أنه من الخاصَّة...

ولهذا قال بعض السلف: «مَن عبَدَ اللهَ تعالى بالحبِّ وحدَهُ، فهو زنديق، ومَن عبَدَهُ بالخوفِ وحدَهُ، فهو حَرُوريٌّ، ومَن عبَدَهُ بالرجاءِ وحدَهُ، فهو مُرجِئٌ، ومَن عبَدَهُ بالحُبِّ والخَوْف والرَّجاء، فهو مؤمن»[(٢)].

وهذا -الأخير- هو الطريق الذي سار عليه أهل السُّنَّة والجماعة - رضي الله عنهم وأرضاهم - وقد جمَعَ الله ﷻ هذه المقامات الثلاثة - المحبَّة، والخوف، والرجاء - في قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ

(١) «بدائع الفوائد» (٣/٨٥٠).

(٢) المصدر السابق (٣/٨٥٠- ٨٥١).

﴿أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]؛ فابتغاء الوسيلة هو محبَّته، الداعية إلى التقرُّب إليه، ثم ذكَرَ بعدها الرجاء والخوف؛ فهذه طريقة عبادِه وأوليائِه.

وبهذا نعلم: أن هذه الأعمال الثلاثة مترابِطةٌ غاية الارتباط، فإذا اقتصَر الإنسان على واحد منها، وقع في المَعَاطِب، وإذا اجتمَعَت في القلب، كانت الطريق إلى عبادتِه ووَلَايته:

فإن الخوف: يَجْمَعُهُ على الطريق، ويرُدُّه إليه، فكلَّما انصرَفَ، أو التَفَتَ بمحبَّته أو سَيْرِه، أو حاد عن الطريق، ردَّه سوط الخوف؛ فهو كالسَّوْط الذي يَضْرِب به مَطِيَّتَهُ التي تسير به؛ لئلا تخرُج عن الدَّرْب.

«وأما الرجاء: فهو حادٍ يَحدُوهَا، يطيِّب لها السير.

وأما الحُبُّ: فهو قائدُها وزِمَامها الذي يسوقها.

فإذا لم يكن للمَطِيَّة سَوْطٌ ولا عصًا تردُّها إذا حادت عن الطريق، وتُرِكَتْ تركب التَّعاسِيف، خرَجَتْ عن الطريق، وضلَّت عنها؛ فما حُفِظَتْ حدود الله ومحارِمُه، ووصل الواصلون إليه: بمثل خوفِهِ ورجائِهِ ومحبَّتِه.

فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة، فسَدَ فسادًا لا يُرجَى صلاحه أبدًا، ومتى ضعُف فيه شيء من هذه، ضعُف إيمانه بحَسَبه»[١].

فهذا الذي يزعُم: «أنه بخروجه إلى الجُمُعة، وتَرْكِ هذه الخَلْوةِ: يفسُدُ قلبُه، وأنَّ حِفْظ القلب من الضياع والفساد أولى!» لم يعلم أن صلاح قلبه بخروجه لحضور ذِكْر الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

فإن القلب لا يُمكِن أن يصلُح إلّا على الطريق الذي رسَمَه له اللطيف

---

(١) «بدائع الفوائد» (٣/٨٥٢ - ٨٥٣)؛ بتصرُّف يسير.

الخبير، ولا يكون ذلك بتجاوز الحدود التي حدَّها الله - تبارك وتعالى - فهذا ولا شك مِن أعظم الغرور والجهل بالله سبحانه.

والمقصود: التنبيه على أن الأعمال القلبيَّةَ في غاية الارتباط والاتصال، وأنه لا يُغْنِي بعضها عن بعض، بل إن بعضها متوقِّفٌ على بعضها الآخر، والعبد بحاجة إلى أن يستكمِلَها، وأن يربِّيَ قلبه عليها، بل لا أعلمُ شيئًا يمكن أن يَتشاغَلَ به العبد - مع الفرائض - أفضلَ مِن الاشتغال بأعمال القلوب؛ فإن الكلام على هذه المعاني ضروريٌّ لحياة القلب وسعادته في الدَّارَيْن.

كما أن التعرُّف على معاني أسماء الله ﷻ وصفاته أمرٌ جليلٌ يعظُمُ به الإيمان في قلب العبد؛ فيحيا به، ويرتبِط بالله وحده لا شريك له، دُونَ التفات إلى أحدٍ سواه؛ فيزداد العبد إيمانًا، ويمتلئ قلبه نورًا، ويكون مُتَحَقِّقًا بمحبَّة الله، وخوفِهِ، ورجائِهِ، والإقبالِ عليه؛ فتَهُونُ عليه المشقَّات التي يَلقَاها في هذا الطريق، بل يَلْتَذُّ بها؛ كما قال سفيان الثوري: «ليس بفقيهٍ مَن لم يَعُدَّ البلاءَ نِعْمة، والرخاءَ مصيبة!»(١).

فهؤلاء قوم قد تعلَّقت قلوبُهم بالله ﷻ، وعرَفُوه معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته؛ فصارت تصوُّراتُهم مختلفة عن تصوُّرات غيرِهم ممن لم يُدرِكوا هذه المعاني، ولم تَلْتَفِت إليها قلوبهم.

إن الاشتغال بهذه الأمور يوصِّلُنا إلى معانٍ جليلةٍ نحن في أمسِّ الحاجة إليها؛ لتحقيق المطالب، والنجاة مِن المخاوف؛ بخلاف ما يشتغِلُ به كثير من الناس؛ مِن القِيل والقال، والانشغالِ بأمور لا تعنيهم بحال؛ فيحصُلُ بذلك من الرَّزَايا والبَلَايا ما يُفسِد القلب ويضُرُّه، حتى يبقى خاويًا منشغِلًا بأمورٍ لا تزيده مِن الله ﷻ إلّا بُعدًا؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٥٥)، (٨/٢٤٢).

قيحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا»[(١)]؛ فإذا كان هذا في الشِّعْر، فكيف بامتلائِهِ بأمورٍ يُظْلِم منها قلب العبد؟! كالنظر في كتب الكلام والفلسفة مما يثيرُ الشكوك والشُّبُهات، أو النظرِ في الكتب التي تحرِّكُ الغرائِزَ والشَّهَوات، وكالإعراض عن عُيُوب النفس وتهذيبها، والاشتغال بالناس وتتبُّع عَوْراتهم، ونَشْرِ قَالَةِ السوء بينهم، وما إلى ذلك مما يدور في كثير من المجالس.

كما أن فساد القلوب ومرَضَها يُورِث الحرمان، ويمنع مِن الإقبال على الربِّ الرحيم الرحمن، ويَهوِي بصاحبِهِ في الدركات، ويَحرِمُه بلوغ الدرجات.

فتحتَّم أن نتعاهد قلوبنا بما يُصلِحُها؛ مِن ذكرِ الله، وقراءة القرآن، وبما تقوم عليه من مقامات العبوديَّة، التي من أهمِّها تلك الأعمال القلبيَّة التي قامت عليها قلوبُ المتَّقِينَ، وصلَحَ بها حال المخلِصِين الصادقين، خاصَّةً في هذا العصر الذي غلَبَت فيه النزعة المادِّية، وصارت طاغية على الكثيرين؛ إلّا مَن رَحِمَ الله.

ومِن هنا: جاء الكلام على هذا الموضوع الذي لا غِنَى لأحدٍ عنه، لا سيَّما مع كثرة التخليط فيه مِن قِبَلِ بعض الطوائف، وقد يكون لبعضهم مَزِيدُ عنايةٍ واشتغال به، لكنْ على غير هُدًى وبصيرة، فيقع بسبب ذلك ألوان مِن الانحِرَافات في القول والاعتقاد، والعمَلِ والسلوك.

فأردتُّ الكتابة فيه على نَهْجٍ صحيح، وسَنَنٍ واضح مستقيم؛ موافِقًا لما عليه أهل السنة المَحْضَة - أسأل الله أن يجعلنا مِن أهلها قولًا واعتقادًا، وعملًا وسلوكًا - مع رَبْطِ هذه الأعمال بالأصل الذي تتفرَّع عنه، وهو الإيمان؛ حيثُ إنها من شُعَبِه، والناسُ يتفاضَلون فيها كما يتفاضَلون في الإيمان والدِّين؛ على نحوِ ما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٥٥)؛ واللفظ له؛ من حديث ابن عمر، وأبي هريرة ﭫ، ومسلم (٢٢٥٧)؛ من حديث أبي هريرة وغيره ﭬ.

مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

وأمّا منهجي في هذا الكتاب:

١ - فقد اقتصرتُ على (١٦ موضوعًا) مِن أعمال القلوب، وذلك بعد مقدِّمة مفصَّلة تتحدَّثُ عن القلب، والأعمال القلبية عمومًا، وما يتفرَّعُ عن ذلك من مسائل وقضايا تدعو الحاجة إلى بيانها.

وهذه الموضوعات هي: (الإخلاص، واليقين، والتفكُّر، والخشوع، والمراقبة، والوَرَع، والتوكُّل، والمحبَّة، والرَّجاء، والخَوْف، والصبر، والرضا، والشُّكْر، والغَيْرة، والحَيَاء، والتوبة)، وهي الأهمُّ مِن الأعمال القلبية.

٢ - حوى هذا الكتاب مادَّةً وافرةً من نصوص الوحيَيْن، والآثار المنقولة عن الصحابة ﷺ، ومَن بعدَهم من العلماء رحمهم الله جميعًا؛ مما لا يكون مخالفًا للكتاب والسنة، وما كان عليه أصحاب النبي ﷺ.

وكان ذلك مقصودًا مِن أَجْل أن يَجِدَ فيه القارئُ بُغْيَته؛ سواءٌ كان محاضِرًا، أو خطيبًا، أو واعظًا، أو معلِّمًا، أو باحثًا.

٣ - كُتِبَتِ الآيات بالرسم العثماني، مع عَزْوها إلى سورها، وذِكْر أرقام الآيات بعدها مباشَرة.

٤ - كان التخريج للأحاديث على النحو الآتي:

أ - ما كان في الصحيحَيْنِ أو أحدِهما، فإنه يُكتفَى بذلك في تخريجِه.

ب - إنْ لم يكن فيهما، فيخرَّج مِن بقيَّة السنن الأربع.

ت - إنْ لم يكن في شيء من الكتب الستة، فمِن بقيَّة الكتب التسعة.

ث - فإنْ لم يكن في شيء منها، فمِن المصادر الأخرى.

٥ - الاقتصار على إيراد الأحاديث الصحيحة والحَسَنة دون غيرها، مع نَقْل أحكام العلماء عليها في الهامش بعد تخريجها.

٦ - الإعراض عن الأقوال التي تَتَّسِم بالغَرَابة، أو التي لا تخلو من مبالَغة، أو التي تَحمِلُ مخالَفة للشرع.

وإنما المعوَّلُ في ذلك على نصوص الكتاب والسنة، وما ثبَتَ عن أصحاب رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فالعلم المشروع والنُّسُك المشروع، مأخُوذٌ عن أصحاب رسول الله ﷺ، وأمَّا ما جاء عمَّن بعدَهم، فلا ينبغي أن يُجعَل أصلًا، وإنْ كان صاحبه معذورًا بل مأجورًا؛ لاجتهادٍ أو تقليد؛ فمَن بنى الكلام في العلم - الأصول، والفروع - على الكتاب والسُّنَّة والآثار المأثورة عن السابِقِينَ -: فقد أصاب طريقَ النبوَّة، وكذلك مَن بنى الإرادةَ والعبادة، والعمَلَ والسَّمَاعَ المتعلِّقَ بأصولِ الأعمالِ وفروعِها - مِن الأحوال القلبيَّة، والأعمال البدنيَّة - على الإيمانِ والسُّنَّةِ والهَدْيِ الذي كان عليه محمَّد ﷺ وأصحابُه -: فقد أصاب طريق النبوَّة؛ وهذه طريق أئمَّة الهدى»[١].

وقال ابن القيم: «حال النبي ﷺ وحال أصحابه مَحَكّ الأحوال وميزانها؛ بها يُعْلَم صحيحها من سقيمها»[٢].

٧ - تَمَّ بَذْل الوُسْع في توثيق المادَّة العِلْميَّة في هذا الكتاب؛ وذلك بمراجعة الأصول، ومطابَقَتها عليها، والإحالة في الهامش إلى المصادر، وتمييز المنقول بحروفِه من المتصرَّف في نَقْله.

وفي الختام: فهذا «جُهْدُ المُقِلّ، وقُدْرَةُ المُفْلِس؛ حذَّر فيه من الداء وإنْ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٦٢-٣٦٣).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٣٥).

كان من أهلِهْ، ووصَفَ فيه الدواء وإنْ كان لم يَصبِرْ على تناوُله لِظُلْمِهِ وجَهْلِهْ»[١].

واللهَ أسأل أن يُجْزِلَ الأجرَ والمَثُوبةَ لي ولكلِّ مَن كان له فيه سعي؛ مِن مشارَكة في جمع مادَّته العلمية، أو توثيقِها، أو مراجعتِها وتصحيحِها، أو تنسيقِها، أو طباعتِها؛ كما أسأله تعالى أن يتقبَّلَ هذا العمل، ويجعَلَهُ صوابًا، خالصًا لوجهه الكريم، مُدنيًا إلى محبَّته، ومقرِّبًا إلى مرضاته، وأن يَغفِرَ لي ولوالديَّ ولإخواني المسلمين؛ إنه سميع مُجِيب.

وكتب: خالد بن عثمان السبت
١٤٣٦/١١/٢٨هـ.
khaled2224@gmail.com

(١) «عدة الصابرين» (ص١١).

مُقَدِّمَة
فِي بَيَانِ مَنْزِلَةِ القَلْبِ
وَأَهَمِّيَّةِ الأَعْمَالِ القَلْبِيَّة

تَوْطِئَة

لا يخفى أن لأعمال القلوب منزِلة وقَدْرًا وجَلَالة، ومَكَانة عظيمة في دين الله ﷻ؛ فإنها تتعلَّق برُكْن شريف؛ ألا وهو القَلْب، وهو مَلِكُ الجوارح والأعضاء، وهي خَدَمُهُ وجنوده؛ ولا شك أن شَرَف العلمِ بشَرَفِ متعلَّقه؛ فالعلم الذي يتعلَّق بالقلب أشرَفُ مِن العلم الذي يتعلَّق بغيره.

وحديثنا في هذا الكتاب سيكون - بحَوْل الله - عن القَلْب والأعمال المتعلِّقة به.

وهذا الموضوع الجليل العظيم يُعَدُّ مِن المقاصد، لا مِن الوسائل، ونحن إنما ندرُسُ بعض العلوم - كأصول الفقه، ومصطلح الحديث، والنحو، وما إلى ذلك - ليكون مِرْقاةً للفقه في الدين؛ أصولًا وفروعًا، وإنَّ مِن أعظَم الفقه في الدين وأجلّه الفقه المتعلِّق بالأعمال القلبيَّة؛ فإن قلوبنا إن صلَحَتْ، صلَحَت أعمالنا، واستقامتْ أحوالنا، وزال كثيرٌ مِن مشكِلاتنا، وإن فسَدَتْ هذه القلوب، فسَدَتْ أعمال العبد، واضطرَبَتْ عليه أحواله، ولم يَعُدْ يتصرَّف التصرُّفَ الرشيد الذي يُرْضِي ربه ومولاه؛ فيَخسَرُ الدنيا والآخرة.

* * *

مَعْنَى القَلْبِ وَحَقِيقَتُهُ

القلب في اللغة له معنيان[١]:

الأول: خالصُ الشيء وشريفُه؛ فالشيء الخالص الشريف يقال له: قَلْب.

الثاني: رَدُّ شيء على شيء، مِن جهة إلى جهة؛ كما يقال: قَلَّبَ الثوبَ مثلًا ونحوَه، وقلَبَ الشيءَ وقَلَّبَهُ: حَوَّلَهُ ظهرًا لبطن.

فعلى المعنى الأوَّل: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لأنه أخلَصُ شيء فيه وأرفَعُه، وهو العُضْوُ المسؤولُ عن التأثُّر والاستجابة الشعوريَّة؛ وهو المحلُّ الذي يحصُلُ به التعقُّلُ والتفكيرُ والفَهْم، والإخباتُ والتوكُّلُ والثقة، وغيرُ ذلك مِن الأمور التي نجدها في قلوبنا؛ سواءٌ كانت أمورًا علميَّةً، أو أمورًا عمليَّةً وجدانيَّة ذوقية.

وعلى المعنى الثاني: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لكثرةِ تقلُّبه[٢]؛ فهو كثير التقلُّب بالخواطِر والواردات، والأفكار والعقائد، ويتقلَّبُ على صاحبِهِ في النيات والإرادات كثيرًا؛ كما أنه كثير التقلُّب مِن حال إلى حال، فهو يتقلَّب مِن هدى إلى ضلال، ومِن إيمان إلى كفر، ومِن إخلاص إلى نفاق؛ ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[٣].

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (١٧/٥)، (ق ل ب)، و«لسان العرب» (٢٦٩/١١)، (ق ل ب)، وزاد في الكليات: (ص٧٠٣) «ولأنه مقلوب الخِلْقَة والوضع، كما يشهد به علم التشريح».

(٢) انظر: «لسان العرب» (٢٦٩/١١)، (ق ل ب).

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) (واللفظ له)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، بلفظ: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ =

وعن أبي موسى ﷺ؛ قال: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ بِالْفَلَاةِ، تَعَلَّقَتْ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ تُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ»(١).

وقال أبو عُبَيْدة بن الجرَّاح ﷺ: «مثَلُ قلب المؤمِن مثلُ العصفور؛ يَتَقَلَّب كل يوم كذا وكذا مرَّةً»(٢).

وقال الشاعر(٣):

مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ وَالرَّأْيُ يَصْرِفُ بِالإِنْسَانِ أَطْوَارَا

ولا يَظهَرُ: أنَّ هناك تعارُضًا بين المعنى الأوَّل والثاني، بل هما متوافِقان؛ فإنَّ ما كان خالصًا شريفًا، فإنَّه يُعتنَى بثباتِهِ وتقلُّبِهِ أكثرَ مما ليس كذلك.

ولذلك: فإن القلب يقالُ له أيضًا: الفؤاد؛ وذلك لكثرة تفؤُّده(٤)؛ أي: كثرةِ توقُّده بالخواطر والإرادات والأفكار، والإنسانُ قد يستطيع أن يُصِمَّ أذنه

= أن يقول: «اللَّهُمَّ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فقال رجل: يا رسول الله، تخافُ علينا وقد آمَنَّا بك، وصدَّقناك بما جئتَ به؟ فقال: «إِنَّ القُلُوبَ بينَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ﷻ يُقَلِّبُهَا»؛ من حديث أنس ﷺ، وصحَّحه الحاكم (٧٠٦/١)، والذهبي، والضياء (٢٢٢٢)، والألباني في «ظلال الجنة» (٢٢٥) وحسَّنه الترمذي. وفي الباب: عن عبد الله بن عمرو، والنوَّاس بن سمعان، وعائشة، وأم سلمة، وجابر ﷺ. انظر: «سنن الترمذي» (تحت ٢١١٤)، و«إتحاف المهرة» لابن حجر (١٧٨/٣).

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٨)، وأحمد «في الزهد» (ص١٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٣/١)، هكذا موقوفًا.
وقد أخرجه أحمد (٤٠٨/٤، ٤١٩)، وابن ماجه (٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٧)؛ واللفظ له، وصحَّح رفعه الصدر المناوي في «شرح المناهج والتناقيح» (٨١)، والألباني في «ظلال الجنة» (٢٢٧، ٢٢٨)، و«صحيح الجامع الصغير» (٢٣٦٥)، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤٦/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧٦٦/١٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٢/١)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٦)، وقد رُوِيَ مرفوعًا؛ ولا يصح.

(٣) انظر: «تاج العروس» (٧٠/٤)، (ق ل ب).

(٤) انظر: المصدر السابق.

فلا يسمع، كما يستطيع أن يُغمِضَ عينه فلا يُبصِر، ولكنه لا يستطيع أن يَمنَعَ قلبَهُ من التفكير في الواردات والخواطر؛ فهي تَعرِضُ له شاء صاحبه أم أبى؛ ولهذا قيل له: فُؤَادٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وأما القلبُ في الاصطلاح، فيُطلَق على أمرَيْن[(١)]:

الأول: العضو الصَّنَوبَريُّ الشكل، المُودَع في الصدر.

الثاني: أنه لَطِيفة ربانيَّة، لها بذلك العضو تعلُّق وَثِيق.

وقد ورَدَ المعنيان في حديث النبي ﷺ، ففي حديث النُّعْمان بن بَشِير رضي الله عنه: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(٢)].

وفي حديث أنَس بن مالك رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ...»، قال أنس: وقد كنتُ أرى أثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صدره[(٣)].

فهذا واضحُ الدَّلَالة على أن المرادَ بالقلب هو القلبُ الذي في الصدر، وأنَّ الهدى والضلال يتعلَّقان بهذا القلب.

وقد ذكَرَ جماعة من المفسِّرين هذه الحادثة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

(١) «التعريفات» للجرجاني (ص١٧٨)، و«التعريفات الفقهيَّة» (ص ١٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦١، ١٦٢)؛ واللفظ له.

نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١]، وفسَّروه بشَقِّ صدرِ النبيِّ ﷺ، واستخراج ذلك من قلبه[١].

وهذا الذي فعَلَهُ جبريل عليه الصلاة والسلام يَدُلُّ دَلَالةً واضحةً على أن هذا العضو في الإنسان به لطيفة غَيْبِيَّة تؤثِّر في أفعاله.

وقد يَرِدُ القلب بمعنى العَقْل؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ لأن العَقْلَ محلُّهُ القلب؛ كما دلَّت على ذلك الآيات القرآنيَّة والأحاديث النبويَّة؛ خلافًا للفلاسفة مِن القدماء وأكثرِ الأطبَّاء في هذا العصر -إلّا من رَحِمَ الله ﷻ - فإنهم يقولون: إنَّ العقل في الدماغ[٢][٣].

«وجمَعَ بعض العلماء بين قول أهل السُّنَّةِ وقول الفلاسفة: بأن قال: إن أصلَ العقلِ في القَلْب؛ كما في الكتاب والسنة، إلّا أن نُورَهُ يتصِلُ شُعَاعُهُ بالدماغ؛ واستدلُّوا على هذا... بالعادةِ المُطَّرِدَةِ والاستقراء: أنك لا تَجِدُ رجلًا طويل العُنُقِ طولًا مُفرِطًا إلّا كان في عقلِهِ بعض الدَّخَل؛ لبُعْدِ ما بين طَرَفَيِ شُعَاعِ نور عقلِه»[٤].

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/٤٢٩)، و«الدر المنثور» (١٥/٤٩٥-٤٩٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/٥٤٦)، و«روح المعاني» (٣٠/١٦٥-١٦٧).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٢/٦٤)، و«مجموع الفتاوى» (٩/٣٠٣ - ٣٠٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢/٣٠)، و«العَذْب النمير» (١/ ١٥٩ - ١٦١)، (٢/٥٠٢ - ٥٠٤)، (٤/ ٤٠ - ٤٣)، (٥/ ٢٩٤- ٢٩٥).

(٣) وقد قيل: إنَّ الدماغَ هو مَعدِنُ العقل، ومنه يتفرَّق العصَبُ الذي فيه الحِسّ، وبه قِوَامُ البَدَن، ولولا أنه كذلك، لما ذهَبَ العقلُ مِن الضَّرْبَةِ تصيب الرأسَ؛ وأنشدوا:

إذا ضَرَبُوا رَأْسِي وَفِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي ... وغُودِرَ عِندَ المُلتَقَى ثَمَّ سَائِرِي

انظر: «البخلاء» للجاحظ (ص ١٠٧).

وهذا وأمثاله ليس بقائم في الدلالة؛ لتضمُّنه المخالَفة لصريح الآية: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، مع قوله: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

(٤) «العذب النمير» (١/١٦٠).

ومِن النصوص الدالَّة على أن العقل في القلب:

١ - قول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ولم يَقُلْ: «ولكنْ تَعمَى القلوبُ التي في الأَدْمِغة».

٢ - قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]؛ فجعَلَ القلب مَحَلًّا للعقل.

٣ - قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)].

فقوله ﷺ: «مُضْغَةً» نصٌّ في القلب الحِسِّيِّ اللَّحْميِّ المعروف، والمُضْغة: هي القطعة من اللَّحم على قَدْرِ ما يُمضَغ[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: «ويستدَلُّ به - أي: الحديث - على أن العقل في القلب»[(٣)].

٤ - حديث أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا؛ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا»[(٤)]، ويشير إلى صدرِهِ ثلاث مرَّات.

فالنبي ﷺ أشار إلى صدرِهِ، ولم يُشِرْ إلى دماغه؛ كما يَفعَلُ كثير مِن الناس إذا أراد أن يشير إلى كمالِ عقلِهِ، أشار إلى رأسه.

ومعلومٌ أن المرء بأَصْغَرَيْهِ: قلبِهِ ولسانه[(٥)]، ولا يقالُ: «لسانِهِ ودماغِه»، وإنما يقال: قلبُهُ الذي هو مَحَلٌّ للعقل.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/٣٣٩)، (م ض غ).

(٣) «الفتح» (١/١٥٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(٥) معناه: أن المرء يعلو الأمورَ ويَضبِطها بجَنانِهِ ولسانه. «تاج العروس» (١٢/٣٢٤)، (ص غ ر).

أما الطِّبُّ الحديث، فلم يتوصَّل إلى حقيقة هذه القضيَّة، ولن يتوصَّلَ إليها إطلاقًا؛ لأنها من الأمور الغَيْبِيَّة، وقد يتوصَّل إلى ما يُشْبِهِ العلم بما أخبَرَت به الرسلُ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فما الذي يؤثِّر على أعمال الإنسان المعنويَّة وإرادتِه؟! وأين وكيف يحصل له الخوف والرجاء، والمحبَّة والكراهية، والرضا والسَّخط، والسرور والحُزْن والانقباض، وغير ذلك مِن الأمور؟!

إن الطِّبَّ لا يستطيع أن يحدِّد ذلك، وإنما غاية ما يقرِّره الطِّبُّ: أن المكان الذي يؤثِّر على الأفعال الحسِّيَّة هو الدماغ، وهذا لا يمنع أن يكون للقَلْبِ تعلُّق بهذه الأمور، لكنَّ الطِّبَّ لم يتوصَّلْ إلى معرفة هذا التعلُّق وكيفيَّته، ومعلوم أن الطبَّ لا يمكنه أن يَصِل إلى الأمور الغيبيَّة؛ لأنه مما لا يُطلِعُ الله عليه أحدًا من بني آدم إلّا من شاء عن طريق الوحي.

ولما كانت حياة الإنسان الظاهِرة متعلِّقة بالقلب والدماغ معًا على نحوٍ ظاهر؛ فيُمكِن أن تتعلَّق إراداته وأحاسيسه بالقلب والدماغ معًا؛ فإن الإنسان لا يستطيع أن يَعِيشَ على نحوٍ سَوِيٍّ إلّا بسلامة قلبه ودِمَاغه.

فما المانع أن يكون بين قلبِهِ ودماغِهِ تعلُّقٌ وثيقٌ مؤثِّرٌ على أفعالِهِ وتصرُّفاتِهِ المعنويَّة، ومنها ما نسمِّيه بالأمراض القلبيَّة، والإحساساتِ والمشاعِرِ الداخليَّة؟!

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «قيل: إنَّ العقل في الدماغ؛ كما يقوله كثير مِن الأطباء، ونُقِلَ ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة مِن أصحابه: إن أصل العقل في القلب، فإذا كَمُلَ، انتهى إلى الدماغ. والتحقيق: أن الرُّوح - التي هي النَّفْس - لها تعلُّق بهذا وهذا، وما يَتَّصِفُ مِن العقل به يتعلَّقُ بهذا وهذا، لكنَّ مَبدَأَ الفكر والنظَرِ في الدماغ، ومَبْدَأَ الإرادة في القلب. والعقل يرادُ به العلم، ويرادُ به العمل؛ فالعلم والعمل الاختياري أصلُهُ الإرادة، وأصل

الإرادة في القلب، والمريدُ لا يكون مريدًا إلّا بعد تصوُّرِ المراد؛ فلا بد أن يكون القلب متصوِّرًا؛ فيكون منه هذا وهذا»(١).

ويقول الحافظ ابن كَثِير: «الأفئدة هي العقول التي مَرْكِزُها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ»(٢).

والمقصود: أن القلب هو محلُّ الإرادات والخواطر، وما يقع للإنسان مِن محبَّة وبغض، ورضًا وسُخْط، وإنابةٍ وتوكُّل، وغير ذلك، وهذا لا يَمنَع أن يكون له اتصالٌ بالدماغ.

ويَدُلُّ على هذا: أن الإنسان إذا ضُرِبَ على دماغِه، فربَّما فقَدَ عقلَهُ، لكنْ ليس معنى هذا: أن مَحَلَّ العقل هو الدماغ فحَسْبُ، فالقلب هو مستقَرُّ الإراداتِ، وهو محلُّ هذه الأعمال التي نتحدَّث عنها.

وقد يتساءَلُ بعضنا: إذا كان القلب محلَّ التوحيدِ والإيمان والتقوى، أو الشركِ والكُفْرِ والنفاق، وما إلى ذلك؛ فهل إذا استُؤْصِلَ قلب امرئ مسلم، ووُضِعَ له قلبُ امرئ كافر، سيتحوَّل المسلِمُ إلى عقيدة ذلك الكافر؛ فيكون بذلك كافرًا مثلَه؟:

الجوابُ: أنَّ الطبَّ الحديث له تجارِبُ في ذلك، لكنْ مع التتبُّع وسؤال أهل الاختصاص، لم أجدْ في ذلك إجابةً علميَّةً دقيقةً عن دراسةٍ معتبَرة؛ مِن ثَمَّ: فإنه لا يُعْرَف كثيرًا مدى التغيُّر الذي يحصُلُ له بسبب تغيُّرِ هذا القلب، ومدى التأثُّرِ الذي يناله مِن صاحب ذلك القلبِ الذي نُقِلَ إليه.

لكنْ هذا لا يعني - والله تعالى أعلم- أنَّ الإنسان يتحوَّل مِن الإيمان إلى الكفر، أو العكس؛ إلّا أنه لا يبعُدُ أن يتأثَّر صاحبُهُ بعض التأثُّر؛ كيف لا والإنسان يتأثَّر بالمخالَطة والنظر، ويتأثَّر بما يسمع، وبما يَشَمُّ وبما يأكُل؟!

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/٣٠٣ - ٣٠٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٩٠)؛ بتصرف.

فأكلُ الحلال يؤثّر في قلب الإنسان، كما يؤثّر فيه أكلُ الحرامُ؛ بل إنَّ اللغة أيضًا تؤثِّرُ في عقله وقلبه[١].

وقد جاء في ترجمة إمام الحرمَيْنِ الجُوَيْنيِّ: أنَّ والده أمَرَ أمَّه ألا تدَعَ أحدًا يُرْضِعُهُ غيرها، فاتفَقَ أنَّ امرأةً دخَلَتْ عليها، فأرضَعَتْهُ مرَّة، فأخذه أبوه فنكَّسَهُ، ووضَعَ يده على بطنه، ووضَعَ إصبَعَهُ في حَلْقه، ولم يَزَلْ به حتى قاء ما في بطنه. وكان إمام الحرمَيْنِ ربما حصَل له في مجلسه في المناظَرةِ فُتُورٌ ووَقْفة، فيقول: هذا مِن آثار تلك الرَّضْعة[٢].

فانظر كيف تؤثِّرُ رَضْعةٌ في سلوك الإنسان، وربما في عَقْله، فكيف إذا نُقِلَ إليه قلبٌ بكامله؟!

فهذا خلاصةُ ما أظنُّه في هذه المسألة التي طالما سأل الناسُ عنها؛ وهذا يَدُلُّ على أن القضية تَرتبِط بهذا العضو الصنوبري، الذي يتعلَّق به أمر معنويٌّ تعلُّقًا مباشِرًا؛ ولهذا قال بعضهم عن العقل: «هو نُورٌ وضَعَهُ الله طَبْعًا وغريزةً، يُبصِرُ به، ويعبِّر به؛ فهو نُورٌ في القلب، كالنُّور في العَيْن؛ الذي هو البصر»[٣].

وبغضِّ النَّظَرِ عن عبارةِ هذا القائل، إلّا أنه لا شكَّ أن هذه المضغةَ يتعلَّقُ بها أمرٌ معنويٌّ، والدليل عليه: هو الواقعُ الذي نُشاهِد، مع ما تقدَّم مِن صريح الدلائل الشرعيَّة.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٥٢٧).

(٢) انظر: «وَفَيات الأعيان» (٣/١٦٩)، و«البداية والنهاية» (١٦/٩٦)، و«شذرات الذهب» (٥/٣٤٠-٣٤١)، وانظر أيضًا: «المقاصد الحسنة» (ص ٢٢٧)، و«كشف الخفا» (١/٥١٩) تحت حديث: «الرَّضَاع، يُغَيِّرُ الطِّبَاع».

(٣) «غرر الخصائص»؛ بتصرف واختصار (ص ١٠٨).

مَنزِلَةُ القَلبِ

«اعلَمْ: أن أشرَفَ ما في الإنسان قلبُه؛ فإنه العالِم بالله، العامِلُ له، الساعي إليه، وإنما الجوارِحُ أتباعٌ وخَدَم له، يستخدِمُها القلب استخدامَ الملوك للعبيد.

وأكثَرُ الناس جاهِلون بقلوبِهم ونفوسِهم، والله يَحُولُ بين المرء وقلبه؛ وذلك بأن يَمنَعَهُ من معرفتِهِ ومراقبتِه؛ فمعرِفةُ القلبِ وصفاتِهِ أصلُ الدين، وأساسُ طريق السالكين»[(١)].

وذلك أن القلب مَلِك الجوارح وقائدُها وسائسُها؛ وهو كما يقول العز بن عبد السلام: «مبدأ التكاليف كلِّها ومَحَلُّها أو مصدرُها: القلوب... وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(٢)]؛ أي: إذا صلَحَتْ بالمعارِف، ومحاسِن الأحوال والأعمال، صلَحَ الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذا فسَدَتْ بالجهالات، ومَسَاوِئ الأحوال والأعمال، فسَدَ الجسد كله بالفسوق والعصيان»[(٣)]. والتمرُّدُ على طاعة الله ﷻ، وتسخيرُ الجوارح وتعبيدُها لغير الله تبارك وتعالى؛ كل ذلك يكون نتيجةً طبيعيَّةً لفساد هذا القلب وتبدُّل أحواله.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٩٣)؛ بتصرف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «قواعد الأحكام» (١/ ١٩٨).

ويقول ابن رَجَب، في شرح هذا الحديث: «فيه: إشارة إلى أن صلاح حَرَكات العبد بجوارحه، واجتنابَهُ المحرَّمات، واتقاءه للشبهات، بحَسَب صلاح حركة قلبه:

فإذا كان قلبه سليمًا ليس فيه إلّا محبة الله، ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله، وخشية الوقوع فيما يكرهه -: صلَحَتْ حَرَكات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتنابُ المحرَّمات كلها، وتوقٍّ للشبهات؛ حَذَرًا من الوقوع في المحرَّمات.

وإنْ كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطَلَبُ ما يحبُّه ولو كرهه الله -: فسَدَتْ حَرَكات الجوارح كلها، وانبعَثَتْ إلى كل المعاصي والمشتبِهات؛ بحَسَب اتِّباع هوى القلب»[(١)].

ويُروَى في هذا المعنى عن سَلْمان الفارسي ﷺ؛ أنه قال: «لكل امرئ جَوَّانِيٌّ وبَرَّانِيٌّ؛ فمن يُصلِحْ جَوَّانِيَّهْ، يُصْلِحِ الله بَرَّانِيَّهْ، ومَن يُفسِدْ جَوَّانيَّهْ، يُفسِدِ اللهُ بَرَّانِيَّهْ»[(٢)]؛ جَوَّانِيَّه: سِرَّه، وبَرَّانيَّه: علانيَتَه[(٣)].

وهذا شيءٌ مشاهَد؛ فإنك تَجِدُ الموعظة تَطرُق الأسماع، فتجدُ آثارها في الناس متفاوِتة غاية التفاوُت، كالمطَرِ يَنزِل على الأرض:

فمنها: ما يُخرِجُ ألوان النباتات والثمار والأزهار؛ فتغدو تلك الأرض طيِّبةً، مُعشِبةً، مُرْبِعةً.

ومنها: أرضٌ أخرى؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلَأً.

ومنها: ما يُمسِكُ ماء، لكنها لا تَنتفِع به، وإنما يَنتفِعُ غيرها.

وهكذا الناس؛ يسمعون القرآن والمواعظ:

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٤).

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٧٢)، وأبو داود في «الزهد» (٢٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٠٣)؛ واللفظ له.

(٣) انظر: «لسان العرب» (٢/٤٣٠)، (ج وا).

فمنهم: مَن يتأثَّر ويَظْهَر ذلك في سَمْتِهِ وهَدْيِهِ وأخلاقِهِ وسائر أعماله؛ فيُثمِر ذلك في قلبه خشوعًا وخضوعًا، وألوانًا من العبوديَّات، كما يُثمِر عملًا صالحًا في جوارحه.

ومنهم: مَن لا يَظْهَر عليه أثر ذلك؛ سواءٌ حَفِظَهُ، فنقَلَهُ إلى الناس، فانتفَعُوا به، أو لم يحفظ شيئًا من ذلك فضيَّعه؛ ولذا تجد الكلمة الطيِّبة يَسمَعها اثنان، فيصلُحُ بها حال أحدهما دون الآخر.

وكم مِن أقوام طرَقَ أسماعَهم القرآنُ، وسَمِعُوا النبيَّ ﷺ يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، فلم يستجيبوا؛ فكبَّهم الله ﷻ في النار على وُجُوهِهم!

وكم مِن أقوامٍ سَمِعوا كلمةً واحدةً أنارت بصائِرَهم، فتحوَّلت أمورهم وأحوالهم، وتبدَّلت شؤونهم، وتركوا الملذَّات والشَّهَوات التي حرَّمها الله ﷻ عليهم؛ وما ذلك إلّا لصلاح القلب أو فساده؛ فحُقَّ لهذا المحلِّ الشريف أن يُعتَنَى به غاية العناية.

يقول الحسن البصري: «دَاوِ قَلْبَك؛ فإن حاجة الله إلى عباده صلاحُ قلوبهم»[1].

قال ابن رجَب: «يعني: أنَّ مراده منهم ومطلوبه: صلاح قلوبهم؛ فلا صلاح للقلوب حتى تستقِرَّ فيها معرِفة الله وعظَمَتُهُ ومحبَّته، وخشيتُهُ ومهابَتُهُ ورجاؤه، والتوكُّلُ عليه، وتمتلئ مِن ذلك؛ وهذا هو حقيقة التوحيد»[2].

وقال سعيد بن يَزِيد: سمعت أبا خُزَيْمة يقول: «القصد إلى الله بالقلوب أبلَغُ مِن حَرَكات الأعمال في الصلاة والصيام ونحوهما»[3].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٥٤/٢).
(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٥).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣١١/٩).

وقال غيره: «العمل بحَرَكات القلوب، في مطالَعات الغيوب، أشرَفُ مِن العمل بالجوارح»(١).

وقال وُهَيْب بن الوَرْد: «لا يكن هَمُّ أحدكم في كَثْرة العمل، ولكنْ لِيَكُنْ هَمُّهُ في إحكامه وتحسينِه؛ فإن العبد قد يصلِّي وهو يعصي الله في صلاته، وقد يصوم وهو يعصي الله في صيامه»(٢).

وفي هذا المعنى قال أبو الدرداء ﷺ: «يا حبَّذا نَوْمُ الأكياس وإفطارُهم! كيف يَغْبِنُون سَهَرَ الحمقى وصيامهم، ولمثقال ذرَّة مِن صاحب تقوَى ويَقِينٍ أعظَم وأفضَل وأرجَح مِن أمثال الجبال عبادةً من المغترِّين؟!»(٣).

قال شيخ الإسلام تعليقًا على قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة: ١١] «فَرَفْع الدرجات والأقدار على قَدْر مُعامَلة القلوب بالعلم والإيمان، فكم ممن يَخْتِم القرآن في اليوم مرة أو مرتين، وآخر لا ينام الليل، وآخر لا يُفْطِر، وغيرهم أقل عبادة منهم، وأرفع قَدْرًا في قلوب الأمة»(٤).

فمحلُّ نَظَر الله ﷻ هو قَلْب العبد؛ فإذا صلَحَ قلبه، صلَحَتْ أعماله، وكان مقبولًا عند الله تعالى، وإذا كان القلب فاسدًا، فلربما سجَدَ صاحبه وركَعَ مع رسول الله ﷺ، وهو في الدَّرْك الأسفل من النار؛ كعبد الله بن أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ ومَن معه من المنافقين؛ فقد كانوا يَخرُجون مع رسول الله ﷺ في الغَزَوات،

---

(١) المصدر السابق (١٠/١٠٩).

(٢) المصدر السابق (٨/١٥٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (٧٣٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢١١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/١٧٥). وفي سنده انقطاع.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/٤٨).

ولربما قدَّموا شيئًا من أموالهم دفعًا للتُّهْمةِ عنهم، أو حياءً من الناس، ومع ذلك لم تَزْكُ نفوسهم، ولم تصلُحْ قلوبهم ولا أعمالهم؛ لأن هذه القلوب قد انطوت على معنى سيِّئ أفسَدَها، وعلى نجاسةٍ كبرى لا تطهِّرها مياه البحار؛ وهي النفاق.

وقد كان الحسن البصري يَجلِس في مجلسٍ خاصٍّ في منزله لا يتكلَّم فيه عن شيء إلّا في معاني الزُّهْدِ والنُّسُك، والقضايا المتعلِّقة بالأعمال القلبية؛ فإنْ سُئِلَ سؤالًا يتعلَّق بغيرها في ذلك المجلس، تبرَّم، وقال: «إنما خَلَوْنا مع إخواننا، نتذاكَر»[1].

فينبغي على الإنسان ألا يغفُلَ، وألّا يكون شاردًا في زَحْمة الأعمال - حتى الأعمال الدعويَّة - بل ينبغي أن يكون له مجالِسُ يتذاكَرُ فيها مع إخوانه أحوال القلوب، ويرقِّق فيها قلبه، ويُصلِحُ ما فسَدَ منه في زحمة الأشغال: بزيارة القبور، وذِكْرِ الموت، وغيرِ ذلك من الأمور التي سيأتي ذكرها؛ إن شاء الله تعالى.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «قوت القلوب» (١/٢٥٧)، و«تاريخ الإسلام» (٧/ ٦٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/٥٧٩).

الموازنة بين القلب والسمع والبصر

وهي مقايسَةٌ بين هذا المَحَلِّ الشريف - وهو القلب - وأشرَفِ حَاسَّتَيْنِ في الإنسان؛ وهما: السمع، والبصر؛ وهي الثلاث التي ذكرها الله ﷻ في آية الإسراء في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ وهي منافذ العلمِ والمعرِفة.

مع أن الإنسان يُسأَلُ عن جميع جوارحِهِ ومنافعه، وعن نِعَم الله ﷻ عليه؛ كيف صرَّفها؟! وماذا عمل بها؟! ولكن الله ﷻ خص هذه الأعضاء الثلاثة هنا؛ لأنها الأشرف والأكمل، وهي أشرَفُ المَحَالّ، وأعظَمُ المنافع عند الإنسان، لكنْ أيُّ هذه الثلاثة أشرَف: السمع، أو البصر، أو القلب؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «إن العين تَقصُرُ عن القلب والأُذُن وتُفارِقُهما في شيء، وهو أنها إنما يَرَى صاحبُها بها الأشياء الحاضرة، والأمور الجِسْمانية؛ مثلُ الصور والأشخاص»[(١)].

ومعنى هذا: أن العين أقل الثلاثة شَرَفًا؛ وذلك لأمور:

منها: أن المرء لا يَرَى بها إلّا الأمور الشاخِصة؛ فيرى الإنسان الحاضِر أمامه، ويرى الشجرة كذلك، ولكنه لا يرى الهواء والأمور غير الشاخصة؛ لأنه لا يُدرِكُها نَظَر العَيْن.

وأيضًا: فإنَّه لا يرى الأشياء البعيدة عنه جِدًّا، ولكنه قد يسمع صوتًا لا يرى مصدَرَهُ؛ فإنا قد نسمع صوت الطائرة ولا نراها.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/٣١٠).

وأيضًا: فإن الإنسان لا يُبْصِر إلّا من جهة واحدة؛ وهي الأمام.

وأما السمعُ: فإن الإنسان يسمع ما أمامه وما خلفه، وما فوقه وما تحته، كما يسمع عن يمينه وعن شماله، ولا يحتاج مع ذلك إلى الْتِفات.

ويقول: «فأما القلب والأُذُن: فيَعلَم الإنسان بهما ما غاب عنه، وما لا مَجَال للبَصَر فيه من الأشياء الرُّوحانيَّة، والمعلومات المعنويَّة، ثم بعد ذلك يفترقان[(١)]:

فالقلب: يَعْقِل الأشياء بنَفْسِه؛ إذْ كان العلم هو غذاءه وخاصِّيَّته.

أما الأُذُن: فإنها تحمل الكلام المشتَمِل على العلم إلى القلب؛ فهي بنفسها إنما تحمل القول والكلام، فإذا وصل ذلك إلى القلب، أخَذَ منه ما فيه من العلم»[(٢)]؛ أي: أن الأُذُن مجرَّد وسيلة يحصُلُ بها المسموع في القلب، فيَعقِلُه، فالأُذُن واسطة بين الكلام والقلب.

ثم يقول: «فصاحب العلم في حقيقة الأمر: هو القلب، وإنما سائر الأعضاء: حَجَبةٌ له، تُوصِل إليه مِن الأخبار ما لم يكن لِيأخُذَهُ بنفسه... فمدار الأمر على القلب، وعند هذا: تَستبِينُ الحِكْمةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]؛ حتى لم يذكُرْ هنا العَيْن، كما في الآيات السوابق؛ فإن سياق الكلام هنا في أمور غائبة، وحكمةٍ معقولةٍ مِن عواقب الأمور لا مجال لنظَرِ العين فيها، ومثله قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان: ٤٤]، وتتبيَّن حقيقة الأمر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]»[(٣)].

---

(١) أي: القَلْب والأُذُن.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق (٩/٣١٠-٣١١).

ويقول خالد بن مَعْدانَ: «ما مِن عبد إلّا وله أربَعُ أعيُن: عينانِ في وجهِهِ يُبصِر بهما أمور الدنيا، وعينانِ في قلبِهِ يُبصِر بهما أمور الآخرة؛ فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا، فتح عينيه اللتَيْنِ في قلبه، فيُبصِر بهما ما وُعِدَ بالغيب... وإذا أراد بعبد غيرَ ذلك، ترَكَهُ على ما هو عليه؛ ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]»(١).

وبهذا نعلم أن القلب هو الأشرَفُ بإطلاق؛ وإنما البصر والسمع مِيزَابان يَصُبَّانِ فيه، وهما وسيلتان لنقل المشاهَدات والمسموعات إلى هذا القلب، ثم تستقِرُّ فيه، ويحصُلُ بعد ذلك مِن آثار هذه الأمور المسموعة أو المُبصَرة؛ مِن العلوم والمَعارِف، والأحوال والمقامات، ما لا يَعلَمُهُ إلّا الله ﷻ:

فقد يُبصِرُ الإنسان مَشهَدًا يكون له عِبْرةً يَعتبِر بها؛ فيكونُ ذلك سببًا لإنابتِهِ وتوبتِه، وحياةِ أعمال القلوب في قلبه، وقد يسمع خبرًا يكون له عِبْرةً مثل ذلك.

كما أنه قد يُبصِرُ مَشهَدًا يُفسِدُ عليه قلبه، فتُعرَضُ عليه هذه الصورة دائمًا، تَتَراءَى له كأنه ينظُرُ إليها، فتُفسِدُ عليه قلبه؛ فيبقى مشغولًا مشوَّشًا بهذا المَنظَر، ويجد من أَلَمِ ذلك ومَغَبَّتِهِ ما لا يقادِرُ قَدْرَهُ إلّا الله تبارك وتعالى.

وقُلْ مثل ذلك في سماع الموسيقى والغناء المحرَّم، والغِيبة والنَّمِيمة، وغيرِ ذلك مما حرَّم الله على العبد سماعَه، وكذلك أخبارُ أهلِ الفجور والخنا.

* * *

(١) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢١٢- ٢١٣)؛ واللفظ له.

مُصْلِحَاتُ القَلْبِ

وهي الأمورُ التي يكونُ بها صلاحُ القَلْب، ومنها:

١ - التوجُّهُ الخالص إلى الله؛ بحيثُ لا يكون قلبُهُ متعلِّقًا إلّا بربِّهِ ومعبودِهِ:

فمتى تعلَّق القلب بالمخلوق، عُذِّبَ به أيًّا كان؛ سواءٌ أكان حَجَرًا، أم رجلًا، أم امرأة، أم مَرْكَبًا، أم عقارًا، أم مالًا، أم غير ذلك.

فالله ﷻ خلَقَ هذا القلبَ، وركَّبه تركيبًا؛ بحيث لا يصلُحُ بحال من الأحوال إلّا إذا تعلَّق بربِّه ومَلِيكه، فإذا تعلَّق بغير الله، تعذَّب بهذا التعلُّق؛ ولذلك تجد كثيرًا من الناس يسألون عن قضايا تتعلَّق بروابطَ ووشائِجَ مع بعض إخوانهم، ويَختلِط عليهم الأمر كثيرًا؛ فهم يظنُّون ذلك لله وفي الله، وأن ذلك يقرِّبهم إليه سبحانه، مع أنهم يَجِدُون ألمه في قلوبهم، ويَجِدون له حسرةً تَعصِف بهذه القلوب:

فالعلائِقُ والأعمال، والأحوال والارتباطات، والمجالس والأقوال، إذا كانت صحيحةً، مع صحة قَصْد صاحبها، فإنها تُورِث في القلب نُورًا وانشراحًا، وإذا كانت على غير الجادَّة، انعصَرَ القلب وتألَّم.

فمَن كان يؤاخي أحدًا من الناس في الله ولله، فإن ذلك يَشرَح صدره، ويقوِّي قلبه، وأمَّا إذا كان لمعنى آخر - وقد لا يشعُرُ به هو أو لا يُدرِكُه - فإنه يجد ألمًا وحَسْرة لهذه الصُّحْبة تؤثِّر فيه دائمًا، وربما تكدِّرُ عليه عَيْشَه، وتنغِّصُ عليه حاله.

فتعلُّقُ القلبِ بالله ﷻ هو الذي يُصلِحُه، وتعلُّقُهُ بغيره مِن المخلوقات يُفسِدُه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «كلما ازداد القلب حُبًّا لله، ازداد له عبوديَّةً، وكلما ازداد له عبوديَّةً، ازداد له حُبًّا وفضَّله عما سواه، والقلب فقير بالذاتِ إلى الله مِن وجهَيْن:

مِن جهة العبادة؛ وهي العلَّة الغائيَّة.

ومِن جهة الاستعانة والتوكُّل؛ وهي العلَّة الفاعليَّة.

فالقلبُ لا يصلُحُ ولا يُفلِح، ولا يلتذُّ ولا يُسَرّ، ولا يَطِيبُ ولا يسكُن، ولا يطمئِنُّ، إلّا بعبادة ربِّه وحبِّه والإنابة إليه، ولو حصَلَ له كلُّ ما يلتذُّ به من المخلوقات، لم يطمئِنَّ ولم يسكُن؛ إذْ فيه فقرٌ ذاتيٌّ إلى ربِّه؛ مِن حيثُ هو معبودُهُ ومحبوبُهُ ومطلوبه؛ وبذلك يحصُلُ له الفرح والسرور، واللَّذَّةُ والنعمة، والسكونُ والطمأنينة»[١].

ولهذا كان ابن القيِّم يقول: «ففي القلبِ شَعَثٌ لا يَلُمُّهُ إلّا الإقبالُ على الله، وفيه وَحْشَةٌ لا يُزِيلها إلّا الأُنْس به في خَلْوتِه، وفيه حُزْنٌ لا يُذهِبُهُ إلّا السرورُ بمعرفتِهِ وصِدْقُ معاملتِه، وفيه قَلَقٌ لا يُسْكِنُهُ إلّا الاجتماع علَيْه، والفِرَارُ منه إلَيْه، وفيه نِيرانُ حَسَراتٍ لا يُطْفِئُها إلّا الرضا بأمرِهِ ونَهْيِهِ وقضائِه، ومعانَقةُ الصبرِ على ذلك إلى وقتِ لقائِه، وفيه طَلَبٌ شديدٌ لا يَقِفُ دون أن يكون هو وحدَهُ مطلوبَه، وفيه فاقةٌ لا يَسُدُّها إلّا محبَّتُهُ والإنابة إليه ودوام ذِكْره، وصِدْقُ الإخلاص له»[٢].

٢ - استعمالُ القلبِ فيما خُلِقَ له:

هذا القلب خُلِقَ ليكون عبدًا لله، خُلِقَ ليعمل أعمالًا جليلة؛ هي الأعمال

---

(١) «العبوديَّة» (ص٨٢-٨٣)؛ وهو في «مجموع الفتاوى» (١٠/١٩٣-١٩٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/١٦٤).

القلبيَّة الصالحة، فإذا أُشغِلَ بغيرها، تكدَّر وفسَدَ حاله؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ثم إن الله سبحانه وتعالى خلَقَ القلب للإنسان يَعلَمُ به الأشياء، كما خلَقَ له العَيْنَ يرى بها الأشياء، والأذن يَسْمَعُ بها الأشياء... وكذلك: سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة:

فإذا استعمَلَ الإنسان العُضْو فيما خُلِقَ له، وأُعِدَّ لأجله، فذلك هو الحق القائم، والعدل الذي قامت به السموات والأرض، وكان ذلك خيرًا وصلاحًا لذلك العُضْو، و[إرضاءً] لربِّه، و[صلاحًا](١) للشيء الذي استُعمِلَ فيه؛ وذلك الإنسانُ الصالحُ هو الذي استقام حالُه، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وإذا لم يُستَعْمَلِ العضو في حقِّه، بل تُرِكَ بَطَّالًا، فذلك خُسْران، وصاحبُهُ مغبون.

وإن استُعمِلَ في خلافِ ما خُلِقَ له، فهو الضلال والهَلَاك، وصاحبُهُ من الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا.

ثم إن سيِّد الأعضاء ورأسَها، هو: القلب...

وإذ قد خُلِقَ القلبُ لِأَنْ يُعلَمَ به، فتوجُّهُهُ نحو الأشياء ابتغاءَ العِلْمِ بها هو الفِكْرُ والنَّظَر؛ كما أن إقبال الأُذُن على الكلام ابتغاء سَمْعِهِ هو الإصغاء والاستماع، وانصرافَ الطَّرْفِ إلى الأشياء طلبًا لرؤيتها هو النظر؛ فالفكر للقلب كالإصغاء للأُذُن، ومثلُهُ نَظَرُ العينَيْنِ، فيما سبق...

فصلاحُ القلبِ وحقُّه والذي خُلِقَ من أجله، هو أن يَعْقِلَ الأشياء، لا أقول: أن يَعلَمَها فقطْ؛ فقد يعلم الشيء مَن لا يكون عاقلًا له، بل غافلًا عنه، مُلغِيًا له،

---

(١) ما بين المعقوفَيْنِ زيادةٌ مِن جامع «مجموع الفتاوى»؛ قال: «أُضِيفَتَا حسَبَ مفهومِ السياق».

والذي يَعقِلُ الشيء هو الذي يقيِّدُهُ ويَضبِطُهُ ويَعِيه، ويثبِّته في قلبه؛ فيكون وقتَ الحاجة إليه غَنيًّا، فيُطابِقُ عملُهُ قولَه، وباطنُهُ ظاهِرَه؛ وذلك هو الذي أُوتِيَ الحكمةَ؛ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]»(١).

٣ - الأعمال الصالحة، الظاهِرة والباطِنة؛ مِن الواجِبات والمستحَبَّات:

قال ابن القيِّم: «وقد جعَلَ الله سبحانه للحسَنات والطاعات آثارًا محبوبة لذيذة طيِّبة، لَذَّتُها فوق لَذَّة المعصية بأضعافٍ مضاعَفةٍ لا نسبة لها إليها... قال ابن عبَّاس: «إن للحَسَنةِ نُورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وقوةً في البدن، وزيادةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسَّيِّئةِ سوادًا في الوجه، وظُلْمةً في القلب، ووَهْنًا في البدن، ونَقْصًا في الرزق، وبِغْضةً في قلوب الخلق»(٢).

٤ - ذِكْر الله ﷻ وقراءة القرآن:

والحديث عن هذا يطول، ولكن يكفي مِن القِلَادة ما أحاط بالعُنُق، وقد قال إبراهيم الخَوَّاص: «الذِّكْر للقلب، بمنزِلة الغذاء للجسد؛ فكما لا يجد الجسد لَذَّة الطعام مع السَّقَم، فكذلك القلب لا يجد حلاوة الذِّكْر مع حُبِّ الدنيا»(٣).

وقال: «دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء: قراءةُ القرآنِ بالتدبُّر، وخَلَاءُ البطن، وقيامُ الليل، والتضرُّعُ عند السَّحَر، ومجالَسةُ الصالحين»(٤).

وقد أحسَنَ مَن جمَعَها؛ فقال(٥):

دَوَاءُ قَلْبِكَ خَمْسٌ عِنْدَ قَسْوَتِهِ ... فَادْأَبْ عَلَيْهَا تَفُزْ بِالخَيْرِ وَالظَّفرِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٩/٣٠٧- ٣٠٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٤٢٤).

(٣) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٩/٣١٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٢٧).

(٥) القائل: شهاب الدين بن رَسْلان. انظر: «الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع» (١/٢٨٦).

خَـلَاءُ بَـطْـنٍ وَقُـرْآنٌ تَـدَبَّـرُهُ كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَرِ
ثُمَّ التَّهَجُّدُ جُنْحَ اللَّيْلِ أَوْسَطَهُ وَأَنْ تُجَالِسَ أَهْلَ الخَيْرِ وَالخَبَرِ

٥ - مجالَسَةُ الصالحين الذين يذكُرُونَ الله ﷻ، ويذكِّرُونَ به سبحانه:

فمِن الناس: مَن إذا نظَرْتَ إلى وجهِهِ، انشرَحَ صدرُك، وذهَبَتْ عنك الأوهام والهموم والمخاوف.

قال ابن القيِّم: «كنا إذا اشتَدَّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه - يعني: شيخ الإسلام ابن تيميَّة - فما هو إلَّا أنْ نراه، ونَسمَعَ كلامَهُ، فيَذهَبَ ذلك كله، ويَنقلِب انشراحًا وقوَّةً ويقينًا وطمأنينةً»[١]؛ وذلك لِمَا يرون في وجهه من الضياء والإنارة، والأمارات الدالَّة على انشراح الصدر، وثبات القلب، والخَوْفِ مِن الله ورجائه؛ فإن الوجه مِرْآةٌ للقلب؛ وقد رُوِيَ عن عثمان ﷺ؛ أنه قال: «ما أَسَرَّ عَبْدٌ بسَرِيرَةٍ إلَّا ردَّاه الله رِدَاءَ مِثْلَها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ»[٢].

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ١١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٠)؛ واللفظ له، وابن المبارك (٢/ ١٧)؛ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي شيبة (٥٥٨/١٣)، وعبد الله بن أحمد في «فضائل عثمان» (٦٦)، وابن جرير في «تفسيره» (٦٤٤/١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢١٥/١٠)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٦٥٤٢)، وقال البيهقي: «هذا هو الصحيح عن عثمان، وقد رفَعَهُ بعض الضعفاء»، وقال البُوصِيرِيُّ في «إتحاف الخِيَرة» (٣٨٥/٧): «رواته ثقات».

ورُوِيَ عن جندب مرفوعًا بلفظ: «ما أَسَرَّ عبدٌ سَرِيرةً إلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها؛ إنْ خيرًا فخَيْرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ»؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٩٠٦)، و«الكبير» (١٧٠٢)، وقال الألباني في «الضعيفة» (٢٣٧): «ضعيف جدًّا».

وأخرجه أبو نُعَيْم في «الحلية» (٥/ ٣٦ - ٣٧)، عن ابن مسعود مرفوعًا، بلفظ: «أَسِرُّوا مَا شِئْتُمْ، فواللهِ، ما أَسَرَّ عبدٌ ولا أَمَةٌ سَرِيرةً إلَّا أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَها؛ خيرًا فخيرٌ، وشرًّا فشرٌّ، حتى لو أنَّ أحدَكُمْ عَمِلَ خيرًا مِن وراءِ سَبْعِينَ حجابًا، لأَظْهَرَ اللهُ ذلك الخيرَ حتى يكونَ ثناؤُهُ في الناسِ خيرًا، ولو أنَّ أحدَكم أَسَرَّ شرًّا مِن وراءِ سَبْعِينَ حجابًا، لأَظْهَرَ اللهُ ذلك الشرَّ حتى يكونَ ثناؤُهُ في الناسِ شرًّا».

ومِن الناس: مَن إذا رأيتَهُ، أحببتَهُ قبل أن يتكلَّم.

ومِن الناس: مَن إذا رأيتَهُ، وجدتَّ انقباضًا قبل أن يتكلَّم.

وما ذلك إلّا أن هذه الأوجُهَ والأعيُنَ صفحاتٌ يُنقَش فيها ما تُكِنُّه القلوب.

يقول جعفر بن سليمان: «كنتُ إذا رأيتُ مِن قلبي قسوةً، نظرتُ إلى وجه محمد بن واسع، وكان وجهُهُ كأنه وجهُ ثَكْلَى»[1]؛ وذلك من آثار خوفه من الله ﷻ؛ فآثار الإشفاق بادية عليه؛ فإذا نظروا إلى وجهه، رَقَّت قلوبهم قبل أن يتكلم.

ومِن الناس: مَن إذا نظرتَ إلى وجهه، أظلَمَ قلبُك، وكَرِهَتْ رؤيتَهُ عينُك؛ لما في قلبه من الظُّلْمة؛ فإنَّ النظر إلى هؤلاء وأمثالهم يؤثِّرُ في القلب، وقد يُعَدُّ مِن العقوبات؛ كما في حديث جُرَيْجٍ الراهِبِ حين دَعَتْ عليه أُمُّهُ، وقالت: «اللَّهُمَّ، لَا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ المُومِسَاتِ؛ فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ! فَأَتَوْهُ، فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ...»؛ الحديث[2].

وإذا كان هذا في النظر إلى مُومِسٍ، فكيف بالذي يقلِّب بصَرَهُ صباحَ مساءَ، وقد شخَصَ بصرُهُ أمام القنوات الفاسدة وغيرها يرى وجوه المُومِسَات؟!

كم نَجني على قلوبنا، فنُفسِدُها بأيدينا؟! كم يَجني الإنسان على نفسه؛ حينما يقلِّبُ طَرْفَهُ ويسخِّرُ نظرَهُ في المواقع الإباحيَّة في الشبكة العنكبوتية وغيرها؟!

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٤٧)، (٦/٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٠٦)، ومسلم (٢٥٥٠)؛ واللفظ له.

كم تؤثِّرُ فيه هذه النظرات؟! فالنظر في وجوه الصالحين يؤثِّرُ في القلب نفعًا وصلاحًا، والنظر في وجوه الفاسِدِينَ قد يكون عقوبة.

وقد قال عبد الله بن المبارَك: «إذا نَظَرْتُ إلى فُضَيْل بن عِيَاض، جدَّد لي الحزنَ، ومَقَتُّ نَفْسِي»، ثم بكى[1]؛ أي: طرَدَ عنه الفكاهة والغفلة، فجدَّد في قلبه الحزن والإشفاق مِن الآخرة؛ فكَرِهَ نفسه.

وهذه المسائلُ قَلَّ مَن يتكلَّم فيها؛ مع أننا في أَمَسِّ الحاجة إليها؛ فقلَّ مَن يَسعَى إلى مجالس الصالحين الذين يَنتَقُونَ أطايِبَ الكلام، ويجدِّدُونَ الإيمان في قلوب الناس، وقَلَّ مَن يزورُ القبورَ؛ معتبِرًا بها، متذكِّرًا الآخرة.

وقد مضى قول إبراهيم الخَوَّاص: «دواءُ القلبِ خمسةُ أشياء» وذكر منها: «ومجالَسةُ الصالحين»[2].

٦ - الإكثار من رُؤْية المحتضَرِين، وزيارةِ القبور، وذِكْرِ الموت:

فإنها اللَّحَظات التي يخرُجُ الإنسان فيها من الدنيا، ويُفارِق سائر الشهوات واللذات، ويُفارِق الأهل والمال الذي أتعَبَ نفسَهُ في جمعه؛ إنها لحظات يَنكسِرُ فيها الجبَّارون، ويَخضَع فيها المتكبِّرون، ولا يحصُلُ فيها للعبد تعلُّق بالدنيا، أو انشغالٌ بحُطَامها؛ ولهذا يكثُرُ من الناس التصدُّق في تلك الأحوال، وربما كتَبَ الواحد منهم في حال صِحَّته وعافيته وصيَّةً يوصي فيها بالتصدُّق مِن ماله؛ إذا مات وانقطَعَتْ علائقه من الدنيا.

فذِكْرُ الموت يُحيِي القلب، ويُلِين ما فيه من القَسْوة؛ فاجعَلْ لنفسك وقتًا تتفكَّر فيه في هذا المعنى، وتَزُور فيه المقابر؛ فقد كان سعيد بن جُبَيْر يقول:

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨٩/٤٨). وانظر: «تهذيب التهذيب» (٢٦٥/٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٢٧/١٠).

«لو فارَقَ ذِكْرُ الموت قلبي، خَشِيتُ أن يَفْسُدَ عليَّ»[(١)]؛ فَذِكْر الموت ملازِمٌ لقلبه، يذكُرُهُ في كل أحواله.

وكان صَفْوان بن سُلَيْم يأتي البَقِيع، فيَمُرُّ بمحمد بن صالح التمَّار، وقد تَبِعَهُ ذات يوم، فقال محمد: والله، لأَنْظُرَنَّ ما يَصْنَع، فجاء صفوان على قَبْرٍ من القبور في البَقِيع، فلم يزل يبكي حتى رَحِمْتُهُ من كثرة البكاء، وظننت أنه قبر بعض أهله، ومَرَّ مَرَّةً أُخرى، فتَبِعْتُه، ففعل مثل ذلك، فذكَرْتُ ذلك لمحمد بن المنكَدِر، فقال: «كلهم أهله وإخوته؛ إنما هو رجل يحرِّك قلبَهُ بذِكْرِ الأموات كلَّما عرَضَتْ له قَسْوة»[(٢)].

٧ - المجاهَدةُ بفعلِ مُصلِحاتِ القَلْب، وتركِ مفسِداتِه:

يحتاجُ الإنسانُ إلى مجاهَدةٍ دائمةٍ ومستمرَّة، وإلى مكابَدة؛ يقول ابن المُنْكَدِر: «كابَدتُ نفسي أربعين سنةً، حتى استقامت»[(٣)]، وكان يقول: «إني لأدخُلُ في الليل، فيَهُولُني، فأُصبِحُ حين أُصبِحُ، وما قَضَيْتُ منه أَرَبي»[(٤)]؛ أي: إذا أقبَلَ الليل، ودخَلْتُ فيه، وبادرتُ إلى الصلاة، وخلوتُ بربي؛ فإذا بالليل قد انقضى، وتصرَّمت ساعاته، ولم أشعُرْ بذلك، ولم يحصُلْ ما كنت أؤمِّلُهُ مِن طول المناجَاة، فهي قصيرة في نَظَره؛ لشدَّة شَغَفِه وتعلُّقِهِ بذلك!

فيا للهِ! كيف نَصِلُ إلى هذه المرحلة، ونحن إذا صلَّى الإمام، فأطال قليلًا،

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٧١)، وأبو نُعَيْم في «الحلية» (٢٧٩/٤). وروى نحوه أبو نعيم في «الحلية» (١١٦/٢)؛ من كلام الربيع بن خُثَيْم، ورُوِيَ نحوه أيضًا عن الربيع بن أبي راشد، وعمر بن عبد العزيز. انظر: «حلية الأولياء» (٧٥/٥)، و«الزهد» للبيهقي (٢٤٧)، و«العاقبة في ذكر الموت» (ص٣٩).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣٢/٢٤). وانظر: «السير» للذهبي (٣٦٧/٥)، و«أهوال القبور» لا بن رجب (ص٢٥٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤٧/٣). وانظر: «تذكرة الحفاظ» (١٢٧/١).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/٥٦).

تَمَلْمَلْنا وضَجِرْنا؟! فترى بعضَنا يتنحنح، وبعضَنا يحرِّك أصابعه ويُفرقِعُها، وربما عاتَبْنا الإمامَ بعد الصلاة! وترى الواحد منا وهو يصلِّي كأنه طائر في قَفَصٍ يبحث عن حِيلَةٍ يتخلَّص بها، ولو كانت قلوبُنا عامرةً بمحبَّة الله والإقبال عليه، لَمَا شَبِعْنا من صلاتِنا وعبادتِنا؟!

بل ومِن الناس مَن يَعجَبُ مِن الرجلِ يبكي في القراءة في الصلاة السريَّة! وأيُّ عَجَبٍ في هذا وهو يُناجِي ربَّه؟! وأي مقام هو أعظَمُ مِن مقام العبد بين يَدَيْ ربه وخالقه يُناجِيهِ ويَنطَرِحُ بين يديه في أذلِّ الصُّوَرِ التي يعبِّدُ بها العبد نفسه، ويذلِّلُ جبهته في السجود لمولاه؟! وهل هناك تذلُّلٌ أعظم مِن مناجاةِ الله ﷻ والخضوع بين يدَيْهِ والجبهةُ على الأرض؟! ليس هناك صورةٌ في الذلِّ أعظم من هذه، لكنَّنا أَلِفْناها، فما عادت تؤثِّر في قلوبنا! فما أحوَجَنا إلى كثير من المجاهَدةِ لإصلاحِ هذه القلوب!

يقول أبو حفص النيسابوري: «حَرَسْتُ قلبي عشرين سنة، ثم حَرَسَني قلبي عشرين سنة، ثم ورَدَتْ حالةٌ صِرْنا فيها محروسَيْنِ جميعًا»(١).

ومعنى هذا الكلام: أنه كان في مكابَدةِ عشرينَ سنةً حتى استقام قلبُهُ، فحرَسَهُ عشرين سنة، ثم مَرَّتْ عليه أحوال، صار قلبُهُ فيها محروسًا، وصارت جوارحُهُ محروسةً؛ حينما تَرَوَّضَتْ على طاعة الله ﷻ؛ فأصبَحَت عينه لا تنظُر إلَّا إلى ما يُرضِي الله، وصار قلبُه يَنْفِرُ من السماع المحرَّم الذي يَعشَقُهُ كثير من الناس، وتميل إليه قلوبهم، وصارت أُذُنُه تَمُجُّه؛ فلا يجد له لذَّةً ولا حلاوة، كما يجدها أولئك الذين مَرِضَتْ قلوبهم.

ولهذا إذا أردتَّ أن تُرَبِّيَ نفسك، فعليك أن تَحرُسَ قلبك في الحال؛ فإنه يحرُسُك في المآل، ثم تكون بعد ذلك محروسًا معه؛ فلا بد أن نُرَبِّيَ القلوب على الإخبات والخوف والخشية، والمجاهَدة والمحبَّة، والصبر واليقين،

---

(١) «صفة الصفوة» (١٢٠/٤).

وغير ذلك مِن المعاني، غيرَ مكتفِينَ بمعرفةِ بعض الآداب والأحوال الظاهرة، وإنْ كانت مطلوبةً.

فحيث استقام قلبُ العبدِ، استقامَتْ أقوالُه وأعمالُه وجوارحُه، فإذا جاءه الشيطان بخاطرةٍ مِن الخواطر قبل أن يستقيم قلبُهُ، ويثبُتَ على الطاعة، فإن القلب يحتاج إلى مدافَعةٍ عظيمة، فإذا صار في القلب قوَّة وصلابة في الإيمان، واستقام لصاحبه، فروَّضه على طاعة الله ﷻ والإقبال عليه، فإنه يحرُسُ صاحبه، فإذا رأى شيئًا تلتفِتُ إليه كثير من النفوس الضعيفة، ويتطلَّعُ إليه أصحاب القلوب المريضة، فيَطمَعُ الذي في قلبِهِ مرض -: انصرَفَ قلبه عن هذه الأمور المَشِينة، ولم يلتفت إليها، مستحضِرًا عَظَمةَ الله وجلاله، وجميلَ فضلِه وثوابِه، عالمًا بمراقَبةِ الله ﷻ له؛ فلا تتحرَّكُ نفسه للمعصية، أو الوقوع في الرِّيبَة.

أمَّا إذا خَلَتِ القلوب مِن ذلك مع صلاح الظاهر، فإنَّ أمراض القلوب وعِلَلَها تَظهَرُ في مناسباتٍ كثيرة:

تَظهَرُ في حال المنافَسات؛ فيتصارَعُ الأقران، ويحصُلُ التباغُضُ والتشاحن، وتحصُلُ العداوة والشقاق؛ كما تظهر في المواطن التي تتطلَّع النفس فيها إلى الظهورِ والعُلُوِّ في الأرض.

وهذه النَّفْسُ توَّاقةٌ إلى ذلك؛ فتحتاج إلى مجاهَدة، وأن يأخُذَ العبدُ بزِمَامِها، فلا تَنفَلِتَ عليه؛ وإلا فإنه إذا سرَّحها، سرَحَتْ به في أودية الهَلَكة؛ طلبًا للرياسةِ والشُّهْرة، وتحصيلِ شهوات معنوية؛ كطلب الظهور في الأرض، والعلوِّ على الخلقِ؛ لينال شرفًا في أعينهم، ويحصِّلَ قَدْرًا في نفوسهم.

فهذه الأمور قد لا يستطيع الإنسان أن يتخلَّص منها؛ إذا لم يكنْ له التفاتٌ كبيرٌ إلى قلبه، ومجاهَدةٌ عظيمة لتلك الوارداتِ التي تَرِدُ عليه؛ فأنت تَجِدُ من يتربَّى سنواتٍ طويلةً على كثير من الآداب، ثم بعد ذلك ترى منه أشياءَ عجيبةً

يَخْجَلُ العاقل من ذِكْرِها، وربما ذهَبَتْ بعمله الصالح الذي عَمِلَهُ؛ مِن دعوة، أو صلاة، أو صيام، أو غير ذلك.

* * *

مُفسِدَاتُ القَلْبِ

وهي خلافُ ما يَتِمُّ به صلاح القلب، ومَن تأمَّل عوامل صلاحه، تعرَّف على عوامل فساده؛ وإذا فسد القلب، قسا ومرض، أو مات وهلك، وسيأتي الحديثُ عما يَتبَعُ فساد القلب، ومِن أعظم ما يُفسِدُ القلب:

١ - ألَّا يخلُصَ القلب لله؛ بحيث يتعلَّق القلبُ بغير الله ﷻ:

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «كلُّ مَن علَّق قلبَهُ بالمخْلُوقين أن ينصُرُوهُ أو يرزقوه أو أن يَهْدُوه، خضَعَ قلبه لهم، وصار فيه من العبوديَّة لهم بقَدْرِ ذلك، وإنْ كان في الظاهر أميرًا لهم، مدبِّرًا لأمورهم، متصرِّفًا بهم؛ فالعاقل ينظُرُ إلى الحقائق، لا إلى الظواهر.

فالرجل إذا تَعلَّق قلبه بامرأة - ولو كانت مُبَاحةً له - يبقى قلبه أسيرًا لها؛ تحكُمُ فيه وتتصرَّف بما تريد، وهو في الظاهر سيِّدها؛ لأنه زوجها أو مالكها ولكنه في الحقيقة هو أسيرُها ومملوكها، لا سيما إذا عَلِمَت بفقرِهِ إليها وعِشْقِه لها، وأنه لا يَعْتاضُ عنها بغيرها؛ فإنها حينئذ تَتَحَكَّمُ فيه تَحَكُّم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاصَ منه بل أعظم؛ فإنَّ أَسْرَ القلب أعظم مِن أَسْرِ البدن، واستعبادَ القلبِ أعظَمُ مِن استعبادِ البدن؛ فإنَّ مَن استُعبِدَ بدنُه واستُرِقَّ، لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا مِن ذلك مطمئنًا...

وأما إذا كان القلب - الذي هو مَلِك الجِسْم - رقيقًا مُسْتَعْبَدًا متيَّمًا لغير الله، فهذا هو الذلُّ، والأَسْرُ المَحْض، والعبوديَّةُ الذليلة لِمَا استعبَدَ القلب، وعبوديَّةُ القلبِ وأَسْرُهُ هي التي يترتَّب عليها الثواب والعقاب؛ فإن المسلم لو

أَسَرَهُ كافر، أو استرَقَّهُ فاجِر بغير حقٍّ، لم يَضُرَّهُ ذلك؛ إذا كان قائمًا بما يَقدِرُ عليه مِن الواجبات...

وأما مَن استُعبِدَ قلبه، فصار عبدًا لغير الله، فهذا يضُرُّهُ ذلك ولو كان في الظاهر مَلِكَ الناس؛ فالحرِّيَّة حرية القلب، والعبوديَّة عبوديَّة القلب؛ كما أن الغنى غنى النفس»(١).

وإنَّ أعظَمَ تلك التعلُّقات إفسادًا للقلب: الشِّرْكُ بالله ﷻ، وتوجُّهُ القلب بعبوديَّته إلى غير فاطِرِهِ وخالِقِهِ الذي يَملِك النفع والضُّرّ، وله كل شيء.

وقد ضرَبَ الله تعالى مثَلَ هؤلاء بقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ❁ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ❁ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣]، وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ❁ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

٢ - الفضول مِن كلِّ شيء:

الفضولُ مِن الأكل والشرب، والنوم والكلام، والمخالَطة والمجالَسة، والضحك؛ فكلُّ شيء إذا زاد مِن هذه الأشياء، فإنه يؤثِّرُ على قلب صاحبه بالفساد:

فالذي يأكل كثيرًا يَقْسُو قلبه، والذي ينام كثيرًا يتبلَّد قلبه، وتحصُلُ له الغفلة، والذي يَضحَكُ كثيرًا يموت قلبه، والذي ينظُرُ كثيرًا فيما يَحِلُّ وما لا يَحِلّ، لا تَسأَلْ عن شرودِ قلبِهِ ومعاناته، وهكذا في كثرة المخالَطة؛ لأنَّ

(١) «العبودية» (ص ٨٧-٨٨)، وهو ضمن «مجموع الفتاوى» (١٠/١٨٥-١٨٦).

المخالَطة - كما ذكر ابن القيم[(١)] - لِقَاح، وإنما يُحتَاجُ إليها لشَحْذِ النَّفْس، وتجديد العزيمة، ودَفْع السآمة، والتقاط أطايب الكلام، وأمَّا الإكثار من ذلك، فإنه يضُرُّ ولا ينفع.

فكل شيء من هذه الأشياء إذا أكثَرْتَ منه ضرَّك، إلّا العبادة؛ فكلما أكثَرْتَ منها، زاد ذلك في صلاح قلبك.

يقول الفضيل بن عِيَاض: «خَصْلتانِ تقسِّيانِ القلب: كَثْرةُ الكلام، وكَثْرةُ الأكل»[(٢)].

ويقول أبو سليمان الداراني: «لِكُلِّ شيء صَدَأ، وصَدَأ القلب الشِّبَع»[(٣)].

وقال مكحول: «أفضَل العبادة بعد الفرائض: الجُوعُ والظَّمَأ»، قال بكر: «وكان يقال: الجائِعُ الظمآن أفهَمُ للموعظة، وقلبُهُ إلى الرِّقَّة أسرع، وكان يقال: كَثْرةُ الطعام تَدْفَعُ كثيرًا من الخير»[(٤)].

وكان عمرو بن الأسود يَدَع كثيرًا من الشِّبَع؛ مخافةَ الأَشَر[(٥)].

وقال الشافعي: «الشِّبَع يُثْقِل البدن، ويقسِّي القلب، ويُزِيل الفِطْنة، ويَجلِب النوم، ويُضْعِف صاحبه عن العبادة»[(٦)].

فإذا كان الإنسان يَشْبَع في أول النهار، ويَشْبَع في وسطه وفي آخره، فإن هذا الأكل الكثير لا يورِّثُ إلّا بلادةً وتُخَمةً وكسلًا عن عبادة الله ﷻ، وقسوةً

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/٨٢٠-٨٢٣).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٨/٤١٥)، وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣١٥)، و«الزهد» (٤١٢)؛ وفيها: «كَثْرَة النَّوْم»، بدل: «كَثْرَة الكلام»، وأخرجه أبو نُعَيْم في «الحلية» (٨/٣٥٠)، عن بِشْر الحافي.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٠/١٨٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٨١).

(٥) المصدر السابق (٥/١٥٦).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/١٢٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/٣٩٤).

في القلوب؛ فيُقْرَأُ القرآن من أوله إلى آخره في صلاة التراويح، وقد لا تَجِدُ قلبَكَ خاشعًا! وإنما يرجع ذلك إلى هذه التُّخَمة؛ فينبغي أن نتفطَّنَ لهذا.

وقد كان السلف ﭫ يجوع الواحد منهم الأيَّام الطويلة وما ضَرَّهُمْ ذلك، والنبي ﷺ كان يَمُرُّ الهِلَالُ والهلالانِ والثلاثة وما يُوقَدُ في بيته نارٌ[(١)]، ولربما خرَجَ عليه الصلاة والسلام مِن بيتِهِ، وما أخرَجَهُ إلّا الجُوع[(٢)]، ولربما عصَبَ بطنه بعِصَابةٍ مِن شِدَّةِ الجُوع[(٣)]، وهكذا كان أصحابه الذين فتَحُوا الدنيا ومَلَؤُوها عِلْمًا وحِكْمَة ونُورًا وهدايةً، وبَلَّغوا دين الله للعالمين.

قال البَدْر بن جَمَاعة: «ولم يُرَ أحد مِن الأولياء والأئمَّة العلماء يَصِفُ أو يُوصَفُ بكَثْرة الأكل ولا حُمِدَ به، وإنما يُحمَدُ كثرةُ الأكل مِن الدوابِّ التي لا تَعْقل... والذِّهْنُ الصحيح أشرف من تبديدِهِ وتعطيلِهِ بالقَدْرِ الحقيرِ من طعام يَؤُولُ أمرُه إلى ما قد عُلِم، ولو لم يكنْ مِن آفات كثرة الطعام والشراب إلّا الحاجةُ إلى كثرةِ دخول الخَلَاء، لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يَصُونَ نَفْسَهُ عنه.

ومن رام الفلاحَ في العلمِ وتحصيلَ البُغْيةِ منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم، فقد رام مستحيلًا في العادة»[(٤)].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٥٦٧)، ومسلم (٢٩٧٢)؛ من حديث عائشة ﭬ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨)؛ من حديث أبي هريرة ﭬ.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠١)؛ من حديث جابر ﭬ، ومسلم (٢٠٤٠)؛ من حديث أنس ﭬ.

(٤) «تذكرة السامع والمتكلِّم، في أدب العالم والمتعلِّم» (ص ٧٤).

كَثْرَةُ مُفْسِدَاتِ القَلْبِ

والأمورُ التي تُفْسِدُ القلب كثيرةٌ جدًّا؛ لكنْ نقول على سبيل الإجمال: إنَّ جميع المعاصي تُفْسِد القلب، وكل ما حرَّم الله ﷻ إذا تعاطاه العبد، مِن نَظَر، أو سَمَاع، أو أكل، أو غير ذلك، فإنه يفسُدُ به قلبه.

قال محمد بن واسع: «أربعٌ يُمِتْنَ القلب: الذنب على الذنب، وكَثْرة مُثَافَنة النساء وحديثِهِنّ، ومُلاحَاة الأحمق - تقول له، ويقول لك - ومجالَسةُ الموتى، قيل: وما مجالَسةُ الموتى؟ قال: مجالَسةُ كلِّ غَنِيٍّ مُتْرَفٍ، وسلطانٍ جائر»[(١)].

وقال مكحول: «أرَقُّ الناس قلوبًا، أقلُّهم ذنوبًا»[(٢)].

وقال ابن المبارك[(٣)]:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وَقَـدْ يُـورِثُ الـذُّلَّ إِدْمَـانُـهَـا
وَتَـرْكُ الـذُّنُـوبِ حَـيَـاةُ الْـقُـلُـوبِ وَخَـيْـرٌ لِـنَـفْـسِـكَ عِـصْـيَـانُـهَـا

وقال مجاهِد: «القلب بمنزِلة الكَفّ؛ فإذا أذنَبَ الرجل ذنبًا، انقبَضَ إصبَعٌ، حتى تَنقبِضَ أصابعه كلها إصبَعًا إصْبَعًا، قال: ثم يُطبَعُ عليه، فكانوا

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٥١).

(٢) المصدر السابق (٥/١٨٠).

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٧٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣٦/٦- ٣٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٧٩).

يرون أنَّ ذلك الرَّان؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[١].

وقال محمد بن علي التِّرْمِذي: «إذا شُغِلَ القلب عن ذِكْر الله بذِكْر الشهوات، كان بمنزلة شجرة؛ إنما رطوبتها ولِينها من الماء، فإذا مُنِعَتِ الماء، يَبِسَتْ عروقُها، وذَبُلَتْ أغصانُها، وإذا مُنِعَتِ السَّقْيَ، وأصابها حَرُّ القَيْظ، يَبِسَتِ الأغصان، فإذا مَدَدتَّ غصنًا منها، انكسر، فلا يصلُحُ إلّا للقطع، فيصير وَقُودَ النار، فكذلك القلبُ إذا يَبِسَ وخَلَا من ذكر الله، فأصابته حرارة النَّفْس، ونار الشَّهْوة، وامتنَعَتِ الأركان من الطاعة[٢]، فإذا مَدَدتَّها، انكسَرَتْ، فلا تصلُحُ إلّا أن تكون حَطَبًا للنار»[٣].

وهكذا اللَّغْوُ في المَجالِس، والإغراق في الدنيا، والإكثار مِن ارتياد أماكن اللهو؛ كأنْ يكون الإنسان مِن أوَّل نهاره إلى آخره في الأسواق؛ فإنَّ ذلك يؤثِّرُ على قلبه، فيحتاجُ إلى صَقْلِه، وكيف يصقُلُ قلبه، وهو بمجرَّدِ أن يصلِّيَ ينصرِفُ مباشَرةً بعد السلام، ولا يُمكِنُ أن يتمهَّلَ ليسمع كلمةً تنفعُهُ أو موعظةً تُرشِدُه؟! متى يَنصلِحُ قلب هذا الإنسان؟! أينصَلِحُ في السوق، أو في المَتجَرِ، أو عند مشاهَدة القنوات؟!

وقد قال إبراهيم بن أَدْهَم: «كَثْرةُ النَّظَر إلى الباطل تَذْهَب بمعرِفة الحقِّ مِن القلب»[٤].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٨٢).

(٢) كذا في «الحلية»، والصواب: «أصابته حرارةُ النَّفْس»؛ بحذف الفاء، أو: «امتنَعَتِ الأركان مِن الطاعة»؛ بحذف الواو.

(٣) المصدر السابق (١٠/٢٣٤).

(٤) المصدر السابق (٨/٢٢).

أَحْوالُ القَلْبِ

قَسْوة القلب ومَرَضُه:

قال مالك بن دِينار: «إنَّ لله تعالى عقوباتٍ؛ فتعاهَدُوهُنَّ مِن أنفُسِكم في القلب والأبدان: ضَنْكًا في المَعِيشة، ووَهْنًا في العبادة، وسَخْطَةً في الرزق»(١).

علامات قَسْوة القلبِ ومَرَضِه:

قال الغزاليُّ: «اعلم أنَّ كل عُضو من أعضاء البدن خُلِق لفِعْل خاصٍّ به، وإنما مَرَضُه أن يَتَعَذَّر عليه فِعْله الذي خُلِق له، حتى لا يَصدُر منه أصلًا، أو يَصدُر منه مع نَوْع من الاضطراب، فمرض اليد أن يَتَعَذَّر عليها البَطْش، ومَرَض العين أن يَتَعَذَّر عليها الإبصار، وكذلك مَرَض القلب أن يَتَعَذَّر عليه فِعْله الخاصّ به الذي خُلِق لأجله؛ وهو العِلْم والحكمة والمعرفة، وحُبّ الله تعالى وعبادته، والتَّلَذّذ بذِكْره، وإيثاره ذلك على كل شَهْوة سواه...

فلو عَرَف كل شيء ولم يعْرِف الله ﷻ فكأنه لم يَعْرِف شيئًا، وعلامة المعرفة المحبة، فمن عَرَف الله تعالى أحبه، وعلامة المحبة أن لا يُؤْثِر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات... فمن عنده شيء أَحَبّ إليه من الله فقلبه مريض...

ومرض القلب مما لا يَعْرفه صاحبه، فلذلك يَغْفل عنه، وإن عَرَفه صَعُب

---

(١) المصدر السابق (٢/٣٦٤)، وأورده في موضع آخر (٦/٢٨٧)، بلفظ: «إنَّ لله عقوباتٍ في القلوبِ والأبدانِ: ضَنْكٌ في المعيشة، ووَهْنٌ في العبادة، وما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أظلَمَ مِن قسوةِ القلب».

عليه الصبر على مَرَارة دوائه؛ فإن دواءه مُخَالفة الشهوات»[1]؛ وهذا شديدٌ على أصحاب الأهواء.

أنواع القلوبِ مِن حيثُ الثباتُ والتردُّدُ في الخير والشر:

قال الغزاليُّ: «اعلم أن القلوب في الثبات على الخير والشَّرِّ والتردُّد بينهما ثلاثة:

القلب الأول: قَلْبٌ عُمِّرَ بالتقوى، وطُهِّرَ من خبائث الأخلاق، فتَنقدِح فيه خواطر الخير؛ فعند ذلك يمدّه الله بجنود لا تُرَى، ويهديه إلى خيرات أخرى.

القلب الثاني: القلب المخذول، المشحُون بالهوى، المُدَنَّس بالأخلاق المذمومة والخبائث، فيَقْوى سلطان الشيطان لاتِّساع مكانه بسبب انتشار الهوى، ويضعُف سلطان الإيمان، ويمتلئ القلب بدُخَان الهوى، حتى تَنْطَفِئ أنواره، فيصير كالعين التي ملأ الدُخَان أجفانها، لا يُمكِنها النَّظَر، ولا يؤثِّر فيه زَجْرٌ ولا وَعْظ.

القلب الثالث: قَلْب تبدو فيه خواطر الهوى فتدعوه إلى الشَرّ، فيَلْحَقه خاطر الإيمان فيدعوه إلى الخير.

ومثاله: أن يحمل الشيطان حَمْلةً على العقل، فيُقَوِّي داعي الهوى ويقول: ما هذا التَّحَرُّج البارد؟! ولِمَ تَمْتَنِع عن هواك فتُؤْذِي نفسك؟! وهل ترى أحدًا من أهل عَصْرك يُخالِف هواه أو يَتْرك غَرَضه؟! أفتَتْرك لهم مَلاذ الدنيا يَتَمَتَّعون بها وتُحْجِر على نفسك؛ حتى تبقى محرومًا شَقِيًّا مَتْعُوبًا يضحك عليك أهلُ الزمان؟! أفتُريد أن يزيد مَنْصِبك على فلان وفلان وقد فَعَلُوا مثل ما اشتهيتَ ولم يمتنعوا؟ أما ترى العالِم الفلاني ليس يحترز من مثل ذلك ولو كان ذلك شَرًّا لامْتَنَع منه؟! فتَمِيل النَّفس إلى الشيطان، وتَنْقَلِب إليه، فيَحْمِل المَلَك

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٣).

حَمْلَةً على الشيطان، فعند ذلك تَمْتَثِل النفس إلى قول الملك، فلا يزال يَتَرَدَّد بين الجندين مُتَجَاذَبًا بين الحزبين إلى أن يَغْلِب على القلب ما هو أولى به»(١).

وقد قال بعضهم: «القلوبُ ثلاثة: قلبٌ مثلُ الجَبَل لا يُزِيلُهُ شيء، وقلبٌ مثل النخلة، أصلها ثابت والريح تُمِيلها، وقلبٌ كالريشة يَمِيل مع الريح يمينًا وشمالًا»(٢).

أنواع القلوب بالنَّظَر إلى ما يقوم بها مِن إيمان أو كُفْر أو نفاق:

عن أبي البَخْتَرِيِّ، عن حُذَيْفة؛ قال: «القلوب أربعة: قَلْبٌ أغلَف؛ فذلك قلب الكافر، وقلبٌ مُصْفَح؛ فذلك قلب المنافق، وقلبٌ أَجْرَد، فيه سِرَاجٌ يُزْهِر؛ فذاك قلب المؤمن، وقلبٌ فيه نفاق وإيمان؛ فمثَلُ الإيمان كمثَلِ شجرة يمُدُّها ماء طيب، ومثَلُ النِّفَاقِ مثَلُ القُرْحة يمُدُّها قَيْحٌ ودَم؛ فأيُّهُما غَلَب عليه غَلَب»(٣).

أحوال القلب سِتَّة:

قال أبو بكر الورَّاق: «للقلب سِتَّةُ أشياء: حياةٌ وموت، وصِحَّة وسَقَم، ويَقَظة ونوم؛ فحياته: الهدى، وموته: الضلالة، وصِحَّتُهُ: الطهارة والصفاء، وعِلَّتُهُ: الكُدُورة والعَلَاقة، ويَقَظته: الذِّكْر، ونَوْمه: الغفلة؛ ولكل واحد من ذلك علامة؛ فعلامة الحياة: الرغبة والرهبة والعمل بها، والميت: بخلاف ذلك، وعلامة الصِّحَّة: اللذة، والسَّقَمُ: بخلاف ذلك، وعلامة اليقظة: السمع والبصر، والنائم: بخلاف ذلك»(٤).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٤٦ - ٤٧) بتصرف واختصار. وللاستزادة: انظر «إغاثة اللهفان» (٤١/١- ١٩٥)، ما يتعلَّق بأنواع القلوب وأمراضِها.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٢٤/١٠)؛ مِن قول السَّرِيِّ.

(٣) المصدر السابق (٢٧٦/١).

(٤) المصدر السابق (٢٣٥/١٠، ٢٣٦).

علاقة القلب بالجَسَد:

عن سَلْمان رضي الله عنه، قال: «مثَلُ القلب والجَسَد مثَلُ أعمى ومُقعَد، قال المُقعَد: إني أرى ثمرة ولا أستطيع أن أقوم إليها فاحمِلْني، فحَمَلَه، فأكَلَ وأطعَمَه»(١).

قوَّة المؤمِن في قلبه:

قال شُمَيْط: «إن الله ﷻ جعَلَ قوَّة المؤمن في قلبه، ولم يجعلها في أعضائه؛ أَلَا تَرَوْنَ أن الشيخ يكون ضعيفًا يصوم الهواجر، ويقوم الليل، والشابَّ يعجز عن ذلك؟!»(٢).

* * *

---

(١) المصدر السابق (١/٢٠٥).

(٢) المصدر السابق (٣/١٣٠).

المُرَادُ بِأَعْمَالِ القُلُوب

أعمال القلوب: هي تلك الأعمال التي يكون محلُّها القلب، وأعظَمُها الإيمان بالله ﷻ الذي يكون في القلب منه التصديقُ الانقياديُّ والإقرار؛ هذا بالإضافة إلى المحبَّة التي تقع في قلب العبد لربِّه ومعبوده، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، والصبر واليقين، والإخبات والإشفاق والخشوع، وما إلى ذلك.

فهذه هي الأعمال القلبيَّة المطلوبة مِن العبد لصلاح قلبه وسلامته؛ وبهذا نَعرِفُ الفرق بينها وبين أعمال الجوارح واللسان؛ فأعمال اللسان: أقواله، وأعمال الجوارح: أفعالها؛ كالركوع، والسجود، وغير ذلك مما يَفعَلُه الإنسان ببدنِه وجوارحه وأعضائه.

❊ ❊ ❊

أَحْكَامُ الأَعْمَالِ القَلْبِيَّةِ مِنْ حَيْثُ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ

أعمال القلوب كأعمال الأبدان مِن هذه الجهة، مع أنَّ أعمال القلوب أشرَف - كما سيأتي - فالثواب والعقاب فيها آكَد؛ فالعبدُ آثِمٌ متعرِّضٌ للعقوبة إذا اغتاب أحدًا بلسانه؛ وكذلك: إذا نقص من إيمانه الواجب؛ فإنه يتعرَّض للعقوبة، وأما إذا توكَّل على غير الله، أو دعا غير الله، أو خاف غيرَهُ خوفًا لا يصلُحُ إلّا لله ﷻ؛ فإنه سيواجِهُ أشد العقوبات إن لم يَتُبْ إلى الله ﷻ.

وهكذا ما يقع في القلب مِن الأعمال القلبيَّة الفاسِدة؛ كالعِشْق المحرَّم، والمحبَّة المحرَّمة، وما يقع في قلبه مِن الشِّرْكِ وسوء الظنِّ بالله ﷻ، أو بإخوانِهِ المؤمنين، وغير ذلك[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «زاد المعاد» (١٨٥/٤، وما بعدها).

أَهَمِّيَّةُ أَعْمَالِ القُلُوب وَالمُفَاضَلَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْمَالِ الجَوَارِح [١]

قال ابن القيِّم: «فعمَل القلب هو رُوح العبودية ولُبُّها، فإذا خلا عمل الجوارح منه، كان كالجسد المَوَات بلا روح، والنيَّة: هي عمل القلب الذي هو مَلِكُ الأعضاء، والمقصودُ بالأمر والنهي؛ فكيف يسقُطُ واجِبهُ، ويُعتَبَر واجِبُ رعيته وجُنده وأتباعه اللاتي إنما شُرِعَتْ واجِبَاتُها لأجله ولأجل صلاحه؟!... فإذا بعَثَ جنودَهُ ورعيَّته، وتغيَّب هو عن الخِدْمة والعبودية، فما أجدر تلك الخدمة بالرد والمَقْت...»[٢].

وقال: «ومَن تأمَّل الشريعة في مصادرها ومواردها، عَلِمَ ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أَفْرَض على العبد من أعمال الجوارح؛ وهل يميِّز المؤمن عن المنافق إلّا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟!... وهل يمكن أحدًا الدخولُ في الإسلام إلّا بعمَل قلبه قبل جوارحه، وعبوديَّةُ القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم؛ فهي واجبة في كل وقت؛ ولهذا كان الإيمانُ واجبَ القلب على الدوام، والإسلامُ واجبَ الجوارح في بعض الأحيان؛ فمَركَب

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٨٤-١٨٥)، (٢٦/٢٥)، و«مدارج السالكين» (١/١٠١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/١١٤٦- ١١٤٧).

الإيمان القلب، ومَركَب الإسلام الجوارح... وحَرْف المسألة: أنَّ أعمال الجوارح إنما تكون عبادة بالنيَّة»(١).

ويمكن تفصيل هذه الجُمْلة - في بيان فضل عبادات القلوب وأعمالها - مِن وجوه متعدِّدة:

الأوَّل: أن أعمال القلوب أساسُ النجاةِ مِن النار والفَوْزِ بالجنة:

كالتوحيد؛ فهو عبادة قلبيَّة مَحْضة، وعليه قيام الأمر كله، وسلامةُ الصدر للمسلمين عبادة قلبيَّة عظيمة الشأن، وفيها يُروَى حديث أنس ﷺ قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ، فقال: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فطلَعَ رجلٌ من الأنصار تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِن وَضُوئِه، قد تعلَّق نَعْلَيْهِ في يده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي ﷺ مثلَ ذلك، فطلَعَ ذلك الرجُلُ مثلَ المرَّة الأولى، فلما كان اليومُ الثالث، قال النبي ﷺ مثلَ مقالتِهِ أيضًا، فطلَعَ ذلك الرجل على مثلِ حالِهِ الأولى، فلما قام النبي ﷺ، تَبِعَهُ عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إنِّي لَاحَيْتُ أبي، فأقسَمْتُ أَلَّا أدخُلَ عليه ثلاثًا، فإنْ رأيتَ أن تُؤْوِيَنِي إليك حتى تَمضِيَ، فعَلْتُ، قال: نعم.

قال أنس: وكان عبد الله يحدِّث أنه بات معه تلك الليالِيَ الثلاثَ، فلم يره يقوم من الليل شيئًا؛ غيرَ أنه إذا تَعَارَّ وتقلَّب على فراشه، ذكَرَ الله ﷻ وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر، قال عبد الله: غيرَ أني لم أسمَعْهُ يقول إلَّا خيرًا، فلما مضت الثلاث ليال، وكِدتُّ أن أَحْقِرَ عمله، قلت: يا عبد الله، إني لم يكن بيني وبين أبي غضَبٌ ولا هَجْرٌ ثَمَّ، ولكنْ سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»، فطلَعْتَ أنت الثلاث مرار؛ فأَرَدتُّ أن آوي إليك لأنظُر ما عملك فأقتدي به، فلم أَرَكَ تعمَلُ كثيرَ عمَل، فما الذي بلَغَ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلَّا ما رأيتَ،

---

(١) «بدائع الفوائد» (١١٤٨/٣).

قال: فلما وَلَّيْتُ دعاني، فقال: ما هو إلّا ما رأيتَ، غيرَ أني لا أَجِدُ في نفسي لأَحَدٍ مِن المسلِمِينَ غِشًّا، ولا أحسُدُ أحدًا على خيرٍ أعطاه اللهُ إياه، فقال عبد الله: «هذه التي بلَغَتْ بك، وهي التي لا نُطِيقُ!»(١).

لاحِظْ - يا عبد الله - إخلاصَ السلف؛ فلم يقل: إني صاحب أعمال كثيرة، ويصعُبُ أن أُحصِيَها لك الآن، ولا أريد أن أُظهِرَ عملي، وكأن عنده أعمالًا عظيمةً لم يعلمها، وتأمَّل قول عبد الله بن عمرو ﵄: «هذه التي بلَغَتْ بك!»؛ فإن قائلها عالم عابد، مِن أعبَدِ الناس، زوَّجه أبوه امرأةً مِن أشراف قريش، ثم جاءه بعد سبعة أيَّام، فسأل عنه زوجته، فقالت: «نِعْمَ الرَّجُلُ مِن رجل؛ لم يطَأْ لنا فراشًا، ولم يُفتِّشْ لنا كنفًا منذُ أتيناه»(٢).

ومع ذلك يقول لهذا الرجل: «هذه التي بلَغَتْ بك، وهي التي لا نُطِيق!»؛ فهذا يدل على عِظَمِ هذا المعنى، وأنه يبلُغُ بالإنسان أعلى الدرجات وإن لم يكن له عمل كثير، ويدُلُّ على أنه من أصعب الأمور؛ فقد يكون المرء ذا حَظٍّ من العلم والعبادة كبير، ومع ذلك لا يستطيع أن يسيطِرَ على قلبه، ولكنْ بالمجاهدة مع كثرة الدعاء والإلحاح على الله ﷻ يصلُحُ حال العبد.

ومِن أعظم ما يُعِينُ على ذلك: إسقاط حظوظ النفس؛ فإذا خرَجْتَ من بيتك، فاجعل حظ النفس خلف ظهرك؛ بحيث لا ترى لك على أحدٍ حقًّا، فتنشغل بالناس؛ فتشكو من هذا، وتَعْتِب على هذا، ولسانُ حالك ومَقَالِك يقول: هذا لم يقدِّرْني، وهذا لم يقم إليَّ حين سلَّمْتُ عليه، وقام إلى فلان،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٦٦)، وصحَّحه الضياء، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٨٦٢)، والمنذري في «الترغيب» (٣/٥٤٨-٥٤٩)، وأعله الدارقطني في «العلل» (١٢/٢٠٣)، والكناني؛ كما في «تحفة الأشراف» (١/١٩٥)، والعراقي؛ كما في «إتحاف السادة المتقين» (٨/٥١)، بخلاف تخريجه الذي بهامش «الإحياء»، وابن كثير في «تفسيره» (٨/٧٠)، و«تاريخه» (١١/٢٩٠)، والألباني في «ضعيف الترغيب» (١٧٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٢).

وهذا لم يَزُرْني حين مرضت، وهذا لم يُعَزِّني في فلان، وما إلى ذلك؛ دَعْ عنك الاشتغال بهؤلاء وارتَبِطْ بالله ﷻ.

الثاني: أن أعمال القلوبِ سببٌ لنيل المراتِب العالية في الجَنَّة:

فالحُبُّ في الله عبادة قلبيَّة مَحْضة؛ وقد صحَّ مِن حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ للهِ جُلَسَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ - وَكِلْتَا يَدَيِ اللهِ يَمِينٌ - عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، وُجُوهُهُمْ مِنْ نُورٍ، لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ وَلَا صِدِّيقِينَ»، قيل: يا رسولَ الله، مَنْ هُمْ؟ قال: «هُمُ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللهِ تَعَالَى»(١).

وهكذا أيضًا: الأخلاق الحسَنة؛ كالحَيَاء والرضا والصبر وغير ذلك مِن الأخلاق الطيِّبة الكاملة؛ وهي من أعمال القلوب؛ فعن أبي الدَّرْداء رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني (١٢/١٠٤/١٢٦٨٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٧٧): «رجاله وُثِّقُوا»، وقال المنذري في «الترغيب» (٤/١٩): «إسناده لا بأس به»، وصحَّحه الألباني بشواهده في «صحيح الترغيب» (٣٠٢٢)، وفي الباب: عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي مالك الأشعري، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢)؛ واللفظ له، وغيرُهما، وفي سنده اختلاف بيَّنه الدارقطني في «العلل» (٦/٢٢١)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٤٨١، ٥٦٩٣، ٥٦٩٥)، والدارقطني، وابن حجر في «الفتح» (١٠/٤٧٣)، والألباني في «الصحيحة» (٥١٩، ٨٧٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠١٨)، وقال: «حسن غريب»، وفي الباب: عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن سمرة، وغيرهم رضي الله عنهم؛ ساقها الحافظ في «الفتح» (١٠/٤٧٣، ٤٧٤)، والألباني في «الصحيحة» (٧٩١).

الثالث: أن أعمال القلوب محرِّكةٌ ودافعةٌ لأعمال الجوارح:

فكلَّما عَظُمَ الإيمان والتوحيد، وعَظُمَتْ محبَّة الله في القلب، كان ذلك دافعًا للعبادات الظاهرة.

يقول عُتْبَة الغُلَام: «مَن عرَفَ الله أحبَّه، ومن أحبَّ الله أطاعه»(١)، فإذا وُجِدَ الإقبال والمحبَّة في قلب العبد، أقبَلَتْ جوارحه طوعًا، وهان عليها التعب في الطاعة والعبادة.

يقول الشافعي: «إذا ثبَتَ الأصل في القلب، أخبَرَ اللسان عن الفروع»(٢).

الرابع: أنَّ اختلال أعمال القلوب، قد يَهدِم أعمال الجوارح:

ومِن أمثلة ذلك:

١ - الإخلاص: فإن إخلاص النية لله تعالى عمل قلبي؛ فإذا زال الإخلاص مِن قلب العبد، فوقَعَ في الشرك، أو في النفاق الأكبر، فإن إيمانه يبطُل، وإذا وقع في الرياء، فإن إيمانه يَختَلّ، وعمله الذي خالطه الرياء يكون باطلًا؛ فالله طَيِّبٌ لا يقبل إلّا طيِّبًا؛ كما قال الله تبارك وتعالى في الحديث القُدْسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٣).

فالله تعالى لا يقبل الأعمال التي يُخالِطها الإشراك؛ سواءٌ كان ذلك في أول العمل، أو كان في أثنائه واسترسَلَ العبد معه؛ فإن ذلك يُبطِل العمل في هاتَيْنِ الصورتَيْن؛ فصارت عبادة العبد الظاهرة - كالركوع والسجود والصيام وغيرها - ليس له منها إلّا التعب والنَّصَب، ثم يُعاقَب عليها؛ لأنه صرَفَها لغير الله ﷻ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٣٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/١٢٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال ابن القيِّم: «ولما كان طلب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه مِن عمَل القلب والجوارح، كان مِن أفضل الأعمال، ومنزلتُهُ - يعني: طلب العلم وتعليمه - من عمل الجوارح، كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكُّل، والمحبَّة والإنابة، والخشية والرضا، ونحوها من الأعمال الظاهرة»[(١)].

٢ - **التواضع**: وهو عمَلٌ قَلْبيٌّ يظهر أثره على الجوارح، ويُبطِلُه الكِبْر الذي هو تعاظُمٌ في القلب، يَظهَرُ أثره على جوارح العبد؛ فيدلُّ ظهوره على انتفاء التواضع مِن قلبه، ومعلوم أنَّ الكبر مانعٌ مِن دخول الجنة.

٣ - **الحسَد**: وهو داءٌ عُضَال، وعلة من علل القلوب يُفسِد القلب، ويُذهِبُ ما يجب أن يكون عليه المؤمن من صفاء القلب لإخوانه المسلمين؛ فهذا الإنسان الحسود يتمنَّى أن تزول النعمة عن إخوانه؛ سواءٌ وصَلَت إليه هو أم لم تصل، وهو لا يحب - قطعًا - لإخوانه ما يحب لنفسه؛ وهذا يدل على اختلال في العمل القلبي الواجب من محبَّة الخير للمسلمين.

الخامس: أن أعمال القلوب أشَقُّ مِن أعمال الجوارح:

وهذا ظاهرٌ في حديث أنس رضي الله عنه المتقدِّم؛ يقول يونس بن عُبَيْد - وقد كتَبَ إليه أحد إخوانه يسأله عن مسائل -: «أتاني كتابُكَ تسألني أن أكتُبَ إليك بما أنا عليه، وأُخبِرُكَ أنِّي عَرَضْتُ على نفسي أن تُحِبَّ للناس ما تُحِبُّ لها، وتكرَهَ للناس ما تَكرَهُ لها؛ فإذا هي مِن ذلك بعيد، ثم عَرَضْتُ عليها مرةً أخرى ترك ذِكْرِهم إلّا مِن خير؛ فوَجَدتُ الصومَ في اليومِ الحارِّ الشديدِ الحَرِّ بالهواجرِ بالبَصْرة أيسَرَ عليها مِن ترك ذكرهم»[(٢)].

وهذا يدل على أن للإنسان هوًى في الكلام في أعراض الناس؛ مما

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/١٨).

يحتاج معه إلى خَطْم النفس عن أهوائها، ومَنْعِها من تلك الرغبة الجامحة المسيطرة عليها، وما يُفسِد علينا أمرَنا في هذا الباب إلّا كثرة التأويلات؛ يقول: «ما قصدتُ بهذا الكلام إلّا النصح، ما قصدتُ إلّا كذا»، ثم يقع فيما حرَّم الله ﷻ من الغِيبَة وغيرها.

وهذا يبيِّن لك: أن عبادات القلوب وأعمالها شاقَّة حتى تُروَّضَ النفوس عليها ابتغاء وجه الله؛ وقد قال أبو سُلَيْمان الداراني: «أفضل الأعمال: خلاف هوى النفس»[1].

السادس: أن أعمال القلوب أعظَمُ أجرًا ومثوبةً مِن أعمال الجوارح:

فقد كان كثير من السلف يفضِّلون عبادات القلب على الإكثار من عبادة الجوارح، مع عدَم إهمالهم لعبادات الجوارح؛ لأنها تَمُدُّ وتزيد في عبادات القلوب:

فقد كان أبو الدرداء ﵁ يقول: «تفكُّرُ ساعة خيرٌ مِن قيام ليلة»[2].

وقيل لأمِّ الدرداء ﵄: ما كان أفضَلَ عمَلِ أبي الدرداء؟ قالت: «التفكُّر والاعتبار»[3].

ووُصِفَ لسعيد بن المسيَّب عبادةُ قَوْم؛ أنهم يصلُّون بعد الظهر إلى العصر، فقال: «إنما العبادة التفكُّر في أمر الله، والكَفُّ عن محارم الله»[4]؛ وهو لا يقصد أن يزهِّد في صلاة النافلة، وإنما أراد أن يَلْفِتَ أنظارهم إلى عبادةٍ يغفُلُونَ عنها كثيرًا؛ وهي: التفكُّر.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه». وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/١٨٣).

(٢) أخرجه ابن المبارك (٩٤٩)، وهَنَّاد (٩٤٣)، وأحمد (ص ١٣٩)، وأبو داود (٢٠٩)؛ كلُّهم في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٠٩).

(٣) أخرجه ابن المبارك (٢٨٦)، ووكيع (٢٢٤)، وأحمد (ص ١٣٥)، وأبو داود (٢٠٥)؛ كلُّهم في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٠٨)، وابن عساكر بنحوه في «تاريخه» (٤٧/١٤٩).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/١٣٥).

وفي هذا المعنى يقول الحسَنُ البصري: «أفضَلُ العبادة: التفكُّر والورَع»(١).

وقال إبراهيم بن أدهَم: «رأس العبادة: التفكُّر والصمت»(٢).

السابع: أن أعمال القلوب تعظِّم أعمال الجوارح:

ومعلوم أن المرء قد يَعمَل عملًا من الأعمال ويَعمَلُه غيره، وبينهما كما بين السماء والأرض؛ وقد قال شُفَيُّ بن ماتِع الأصبَحي: «إن الرَّجُلَيْنِ ليكونان في الصلاة مَناكِبُهما جميعًا، وَلَمَا بينهما كما بين السماء والأرض، وإنهما ليكونان في بيتٍ صيامُهُمَا واحد، وَلَمَا بين صيامِهما كما بين السماء والأرض»(٣).

وقد يتصدَّق الإنسان، وهو يَعُدُّ هذه الصدقة مَغرَمًا، ولربَّما أخرجها كارهًا مُحرَجًا، وآخَرُ: أخرجها رغبة، لكنه أخرجها مُدِلًّا على ربِّه، وثالثٌ: أخرجها وفي قلبه الحياء من الله، والخوف منه، والإشفاق ألَّا تُقْبَل، وأنَّ هذا قليل من كثير مما أعطاه الله ﷻ، وأن الله هو الذي وفَّقه وهداه وسدَّده إلى هذه الصدقة والعمل الصالح، وأنه بحاجة إلى المزيد من العبوديَّة ليشكُرَ الله على هذا الإنعام.

قال أبو حازم: «إنَّ العبدَ لَيَعمَلُ الحسَنةَ تَسُرُّهُ حين يَعمَلُها، وما خلَقَ الله من سيئةٍ أضَرَّ له منها، وإنَّ العبد لَيَعمَلُ السيِّئةَ حتى تسوءه حين يَعمَلُها وما خلَقَ الله مِن حسنةٍ أنفعَ له منها؛ وذلك أنَّ العبدَ لَيَعمَلُ(٤) الحسَنةَ تَسُرُّهُ حين يعملها، فيتجبَّرُ فيها، ويرى أن له بها فضلًا على غيره، ولعلَّ الله تعالى أن يُحبِطَها ويُحبِطَ معها عملًا كثيرًا، وإنَّ العبد حين يَعمَلُ السيِّئةَ تسوءه حين

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٣٧).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٧/٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢٦٤/٤).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٩٧)؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٧/٥).

(٤) كذا في «الحلية»، والجادَّة: «وذلك أنَّ العبدَ يعمَلُ» بحذف اللام؛ لانفتاح همزة: «أنَّ».

يَعمَلُها، ولعلَّ الله تعالى يُحدِثُ له بها وَجَلًا يلقى الله تعالى، وإنَّ خوفها لفي جَوْفِهِ باقٍ»[١].

وهكذا النية في طلب العلم: فقد يطلُبُ الإنسان العلم لدنيا يُصِيبُها، وقد يطلبه ليَعرِفَ ربَّه ومعبوده، ويتقرَّبَ إليه؛ فتكون له نية صحيحة؛ فكم بينهما من الفرق، وهما في مجلس واحد، وفي مكان واحد؟! وإنما كان ذلك بسبب النِّيَّة.

يقول ابن المبارَك: «رُبَّ عمَلٍ صغيرٍ تعظِّمه النيَّة، ورُبَّ عمَلٍ كبيرٍ تصغِّره النيَّة»[٢].

وهذا كما يقال في الطاعات، يقال في المعاصي؛ فقد يعمل رجلٌ معصيةً واحدةً وهو مستهتر، مستخِفّ، متبجِّح، يتباهى بعَمَلها، ويجاهِر بها، وكأنها ذباب جاء على وجهه، فقال به هكذا، وآخر: يَعمَلُها وهو خائف من الله، مُستَحٍ منه، يستشعر أن الله يراه ويراقبه؛ لكنه غُلِبَ في حال ضَعُفَتْ نفسه فيها، ثم لا يَلبَث أن يراجع نفسه؛ فشتان بين هذا وهذا!

فالأوَّل: تهوي به معصيته في دَرَكات الغَيِّ وأوحاله؛ إنْ لم يتدارَكْهُ الله ﷻ بلُطْفه ورحمته.

والآخر: تصغُرُ معصيته وتتضاءل بما قام في قلبه من الخوف والحياء من الله؛ فهو في غاية الوَجَل، وإذا تذكَّرها، خاف وأشفق منها.

فكم من الفرق بين هذا وهذا؟!

الثامن: أن أعمال القلوب أجمَل أثرًا من أعمال الجوارح، وهي مجمِّلةٌ لها:

فأعمال الجوارح على غاية الأهمِّية؛ وهذا أمر لا يُنازَع فيه؛ لأنها تؤثِّر على أعمال القلب وتزيدها؛ ولذلك فإنَّ أعمال القلب - مع كونها أعظَمَ أجرًا

---

(١) أخرجه أبو نعيم «الحلية» (٣/٢٤٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

- فهي أحلى مذاقًا، وأجمل أثرًا؛ وهذا ما يجده الإنسان في نَفْسِه؛ إنْ كان قلبه موصولًا بالله ﷻ.

ولقد كان بعض السلف يقول: «مساكينُ أهلُ الدنيا، خرَجُوا من الدنيا وما ذاقوا أطيَبَ ما فيها»، قالوا: وما أطيَبُ ما فيها؟ قال: «محبَّة الله، والأُنْس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه»[١].

وقال إبراهيم بن أدهَم: «لو عَلِمَ الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم، لَجَالَدُونا عليه بالسيوف!»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لم يدخُلْ جنةَ الآخرة»[٣].

ومراد إبراهيم بن أدهَم وشيخ الإسلام: عباداتُ القلوب وأعمالُها؛ من الإخلاص لله تعالى ومحبَّته والإنابة إليه، والاستعانة به والتوكُّل عليه؛ فتلك جَنَّةُ الدنيا، وسرورها ونعيمها.

التاسع: أن أعمال القلوب تقوم في بعض الأحيان مقام أعمال الجوارح:

ومِن أمثلة ذلك: الجهاد في سبيل الله ﷻ؛ فقد أتى رجالٌ إلى النبي ﷺ لِيَحمِلَهم، فقال: لا أَجِدُ ما أَحمِلُكم عليه، فرجَعَ الواحدُ منهم، وعينُهُ تَفِيضُ مِن الدمعِ؛ حَزَنًا أَلَّا يَجِدَ ما يُنفِق؛ فهؤلاءِ حُكْمُهم كما قال النبي ﷺ: «إن بالمدينة أقواما مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ؛ قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حَبَسَهم العُذر»[٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٥٤).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٧/٣٧٠).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/٤٥٢)، وتقدَّم بقية توثيقه أول الكتاب.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) من حديث أنس ﷺ. وأخرجه مسلم (١٩١١)؛ من حديث جابر ﷺ بنحوه.

فالإنسان قد لا يستطيع أن يعمل بعض الأعمال، ولكنه يبلُغُ مَبلَغ العاملين لها بنيَّته؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»(١).

فهذا يدلُّ على أن الإنسان إنْ لم يقُمْ بالغزو ببَدَنِهِ وجوارحه، فعليه أن يستحضِرَ النيَّة؛ ولهذا قال ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»(٢).

فالنيَّة الصادقة تكون عوضًا عن العمل عند العَجْز عن القيام به؛ وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ؛ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»(٣).

العاشر: أن أعمال القلوب يستمِرُّ بعضها في أحوال تنقطِعُ فيها أعمال الجوارح أو تَقِلّ:

فالعبد إذا مات، انقطَعَ عملُهُ الذي كان يباشره بنَفْسه إلّا مِن صَدَقة جارية، أو علمٍ يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له؛ كما جاء في الحديث(٤)؛ ولكن الأمور القلبية؛ كالتوحيد ومسائله؛ مِن الخوف والرجاء والمحبَّة، والأنس بالله والشوق إليه، وغيرِ ذلك تَبقَى معه، أو يبقى كثير منها، ويسأله المَلَكانِ في قبره فيجيب، وهو بين الخوف والرجاء، ولا يزال قلبه متعلِّقًا بمولاه؛ هذا هو حال المؤمن، وأهل الجنة أيضًا: يحبُّون الله، ويعظِّمونه، ويُجِلُّونه، ويقدِّسُونه؛ وهذه أعمال قلبية.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢٥)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومسلم (١٨٦٤)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه مِن حديث ابن عباس رضي الله عنهما (١٣٥٣)، دون قوله: «بعدَ الفَتْح».

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٩)؛ من حديث سهل بن حُنَيْف رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (١٦٣١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكنهم لا يُصَلُّونَ في الجنة ولا يصومون ولا يُزَكُّون؛ فليست الجنة مَحَلًّا لهذه التكاليف.

أما الأمور القلبية، فهي باقية، أو يبقى كثير منها.

وأما التسبيح، فإن أهل الجنة يُلْهَمُونَهُ إلهامًا، كما يُلْهَمُونَ النَّفَس؛ فلا يَرِد على هذا.

الحاديَ عشَرَ: أن أعمال القلوب لا حد لها ولا وقت، ومِن ثَمَّ فهي تُضَاعَف بلا حَدّ، بخلاف أعمال الجوارح[1]:

وذلك لأنَّ أعمال الجوارح مهما كَثُرَتْ وعَظُمَتْ، فإنَّ لها وقتًا معلومًا، وحَدًّا محدودًا؛ فالصلاة لها وقت، والزكاة لها وقت، والصيام له وقت، والحج له وقت.

أما أعمال القلب: فإنها تكون حالًا ملازِمة للعبد في صَحْوِهِ ونومه، وصحَّته ومرضه، وصفائه وكَدَره، وفي جميع أموره؛ ولهذا تُضاعَف أضعافًا.

يقول ابن القيِّم: «إن أعمال الجوارح تُضاعَف إلى حَدٍّ معلوم محسوب، وأما أعمال القلب، فلا ينتهي تضعيفها؛ وذلك لأن أعمال الجوارح لها حَدٌّ تنتهي إليه، وتقف عنده؛ فيكون جزاؤها بحسَبِ حدِّها، وأما أعمال القلوب، فهي دائمة متصِلة؛ وإنْ تَوارَى شهود العبد لها»[2].

ولنأخُذْ على ذلك مثالَ: المحبَّة؛ فمحبَّة الله ﷻ مستقرَّة في قلب المؤمن لا تفارِقُه؛ قائمًا وقاعدًا، نائمًا ويقظانَ، مسافرًا ومقيمًا، مسرورًا ومغتمًّا.

وكذلك: التعظيم والإخلاص، والشوق إلى لقاء الله، وغير ذلك.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٢٢٨).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٢٨).

فإذا تمكَّنَتْ هذه الأمور في قلب العبد، واستحكَمَتْ؛ فإنها تُلازِمه، ولا تفارِقُه.

وهذا يدل على سموِّ الأعمال القلبية على أعمال الجوارح.

الثانيَ عشَرَ: أن أعمال القلوب هي الأصل، وأعمال الجوارح فرع عنها:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان»(١).

ومعلوم من أصول أهل السنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح؛ فالقلب يصدِّق، واللسان يَشهَد، والقلب يعمل عمله؛ مِن توكُّل، ومحبَّة، وإخبات، وما إلى ذلك، واللسان يعمل ذِكْرًا، وقراءة للقرآن، وقولًا للحق، والجوارح تَسجُد، وتَركَع، وتَعمَلُ الصالحات التي تقرِّب إلى الله ﷻ.

يقول الشافعي: «إذا ثبَتَ الأصل في القلب، أخبَرَ اللسان عن الفروع»(٢).

فعمَلُ القلب هو الأصل، ولو انتفى التصديق الانقيادي من القلب، وهو الإقرار، لم يُقْبَلْ عمَل من أعمال العبد البتَّة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة عن أعمال القلوب: «هي من أصول الإيمان وقواعِد الدين؛ مثلُ محبَّة الله ورسوله، والتوكُّل على الله، وإخلاص الدِّين له، والشُّكْر له، والصَّبْر على حكمه، والخوْف منه، والرجاء له... هذه

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٥٥). والمراد بكمال الإيمان من أعمال الجوارح: بعضُ آحادِها، لا جِنْسُها؛ فإن جنس أعمال الجوارح أصل في الإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى؛ كما أن بعض آحاد أعمال الجوارح هو أيضًا أصل في الإيمان؛ كنطق الشهادتَيْن، والصلاة، ونحو ذلك، وأكثَرُ آحاد أعمال الجوارح فَرْع، وهي من الكمال الواجب والمستحَبّ، ومراد شيخ الإسلام: أن الأصل العامَّ: أن ما في القلب أصل، وما في الجوارح فرع، والله أعلم.

(٢) تقدم تخريجه.

الأعمال جميعها واجبة على جميع الخَلْق؛ كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات: ظالمٌ لنفسه، ومقتصِد، وسابق بالخيرات»[١].

ويقول: «إن أصل الدِّين في الحقيقة هو الأمور الباطنة مِن العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تَنفَع بدُونها؛ كما قال النبي ﷺ، في الحديث الذي رواه أحمد في «مسنده»: «الْإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، وَالْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ»[٢]؛ ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه، عن النُّعْمان بن بَشِير، عن النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[٣]، وعن أبي هريرة؛ قال: «القلبُ مَلِكٌ، والأعضاءُ جنودُهُ؛ فإذا طاب المَلِك، طابت جنوده، وإذا خَبُثَ المَلِكُ، خَبُثَتْ جنودُه...»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٥- ٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٨١) عن أنس ﷺ، وفيه رجل اختُلِفَ فيه؛ قال الهيثمي في «المجمع» (٥٢/١): «رجاله رجال الصحيح، ما خلا علي بن مَسْعَدة، وقد وثَّقه ابن حبان، وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم، وابن مَعِين، وضعَّفه آخرون». وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٢٨٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «جامع معمر» (٢٠٣٧٥)، ومن طريقه: أبو نعيم في «الطب النبوي» (٩٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٨)، وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (٥٧٠)، كلهم عن أبي هريرة ﷺ موقوفًا. وأخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٦٩) عن كعب الأحبار.
وقد رُوِي مرفوعا ولا يصح:
فقد أخرجه ابن المبارك -كما في «شعب الإيمان» (١٠٩)- عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا. قال الألباني (٤٠٧٤): «فيه من لم أعرفه».
وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢١٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٣٠/٥) عن أبي سعيد ﷺ مرفوعًا.
قال ابن عدي: «وهذا الْحَدِيث لا أعلم يرويه عَن عطية غير الحكم بن فَصِيلٍ، والحكم هَذَا قد روى عَن غير عطية مثل خالد الحَذَّاء وغيره، وَهو قليل الرواية، وما تَفَرَّد به لا يُتابِعه عَلَيْهِ الثقات».
وأخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٧٣٨) عن عائشة ﷺ مرفوعًا. =

وهذه الأعمال الباطنة؛ كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكُّل عليه، والرضا عنه، ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حقِّ الخاصَّة والعامَّة، لا يكون تركها محمودًا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه»[(١)].

ويقول ابن القيِّم عن أعمال القلوب: «هي الأصل المُرَاد المقصود، وأعمال الجوارح تَبَعٌ ومُكمِّلة ومُتمِّمة، وأن النيَّة بمنزلة الرُّوح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الرُّوح فمَوَات، وكذلك العمل إذا لم تَصحَبْهُ النية، فحرَكَة عابث؛ فمعرفة أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح؛ إذْ هي أصلها، وأحكام الجوارح مُتفرِّعة عليها»[(٢)].

ويقول: «وعمل القلب: كالمحَبَّةِ له، والتوكُّل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدِّين له، والصبر على أوامِره وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذُّلِّ له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغيرِ ذلك من أعمال القلوب التي فَرْضُها أفرضُ من أعمال الجوارح، ومستحبُّها أحبُّ إلى الله من مستحَبِّها، وعمَلُ الجوارح بدونها إما عديمُ المنفعة، أو قليلُ المنفعة»[(٣)].

❊ ❊ ❊

= قال العراقي في «مغني الأسفار» (٢/ ٧١٠- ٧١١): «أخرجه أبو نعيم في «الطب النبوي»، والطبراني في «مسند الشاميين»، والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة نحوه... ولا يَصِحُّ منها شيء».

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٥- ١٦).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣/١١٤٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/١٠١).

لُزُومُ العِنَايَةِ بِأَعْمَالِ القُلُوبِ وَأَعْمَالِ الجَوَارِح وَأَحْوَالُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ

إنَّ بيان أهمية أعمال القلوب، وأنها أشرَف من أعمال الجوارح، لا يعني إهمال أعمال الجوارح، والناس في ذلك على ثلاثة أحوال؛ كما ذكر ابن القيِّم(١):

الأولى: مَن اشتغَلُوا بالأمور القلبيَّة، وإصلاح القلب، ومراقبة الخَطَرات، وقصَّروا في الأعمال الظاهرة؛ وهذا غلط؛ لأن الدِّين لا قوام له إلّا بالشريعة؛ إذ أعمال القلوب لا تتم إلّا بأعمال الأبدان(٢).

الثانية: مَن اشتغَلُوا بالأعمال الظاهرة؛ كالصيام والصلاة، وتركوا إصلاح القلوب؛ فامتلأت قلوبهم بالأحقاد، وحُبِّ التنافس على الرياسات؛ حتى قست تلك القلوب، وصار فيها مِن تعظيم المخلوقين، أو الخوفِ منهم ما لا يُقادَرُ قَدْرُه.

الثالثة: وهم الوسَط، وهم الذين اعتنَوْا بالأمور القلبية وأعمال الجوارح معًا؛ فهذا سبيل المرسَلين عليهم الصلاة والسلام.

إذَنِ: التربية الصحيحة هي التي تُعنَى بقلب الإنسان، كما تُعنَى بجوارحه، ولمَّا سأل هِرَقْل أبا سفيان: هل يَرجِع أحدٌ منهم سَخْطةً عن دِينِه

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص ١٢٤)، و«إغاثة اللهفان» (١/٢٢٥- ٢٢٦)، و«بدائع الفوائد» (٣/١١٤٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥- ٢٦).

بعد دخوله؟ قال: لا، قال: وهكذا الإيمان إذا خالَطَتْ بَشَاشَتُهُ القلوبَ، لا يَسخَطُهُ أحد[١].

وقد ذكر شيخ الإسلام مِن خصائص أهل السُّنَّة والجماعة الأخلاقيَّة: أن الواحد منهم لا يَرجِع عن دِينه؛ ولو أُوذِيَ وعذِّب وفُتِن؛ فقال: «وأمَّا أهل السنة والحديث، فما يُعلَمُ أحدٌ مِن علمائهم، ولا صالح عامَّتهم رجَعَ قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظَمُ الناس صبرًا على ذلك، وإنِ امتُحِنوُا بأنواع المحن، وفُتِنوا بأنواع الفتن»[٢].

فيجب أن نربِّي الناس على العناية بقلوبهم، مع العناية بالشرائع الظاهرة؛ لأن صلاحهم وفلاحهم مرتَبِط بذلك ومتوقِّف عليه.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)؛ مِن رواية ابن عبَّاس، عن أبي سفيان بن حرب ﷺ.
(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/٥٠).

تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي أَعْمَالِ القُلُوبِ

الناس في هذا الباب على ثلاث دَرَجات:

١ - الظالم لنَفْسِه؛ وهو مَن ترَكَ الواجب، أو فعَلَ المحرَّم.

٢ - المقتصِد؛ وهو مَن أتى بالواجب، وترَكَ المحرَّم فحَسْبُ.

٣ - السابق بالخيرات؛ وهو مَن ترَكَ المحرَّم والمكروه، وفعَلَ الواجب والمستحَبّ.

فكلُّ مَن كان معه إيمان حقيقي، فلا بد أن يكون معه مِن هذه الأعمال القلبيَّة بقَدْر إيمانه، وإنْ كان له ذنوب، وأمَّا مَن ترَكَها بالكلية، فهو إمَّا كافر أو منافق؛ كالذي يترُكُ أعمال الجوارح بالكليَّة؛ كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٨٤-١٨٥).

التَّلَازُمُ بَيْنَ أَعْمَالِ القُلُوبِ وَأَعْمَالِ الجَوَارِحِ(١)

لمَّا كان القلب مَلِكًا لسائر الأعضاء، كان صلاحُهُ سببًا لصلاحها ولا بُدَّ، وكما أن فساد أعمال العبد تُنبِئُ عن فساد في قلبه، فكذلك أيضًا تكون مؤثِّرةً على قلبه؛ فإذا تكاثَرَتِ الذنوب، نتجَ عن ذلك طمسُ القلب، وتكوَّنت عليه طبقةٌ تغطِّيه وتغلِّفه، يقال لها: الرَّانُ؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وفي حديث حُذَيْفَةَ مرفوعًا: «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا؛ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ: أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا؛ لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(٢).

والمقصودُ: أنَّ «الظاهر والباطن متلازِمان، لا يكون الظاهِرُ مستقيمًا إلّا مع استقامة الباطن، وإذا استقام الباطن، فلا بد أن يستقيم الظاهر؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً؛ إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الْجَسَدُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٣)»(٤)، «فبَيَّنَ: أنَّ صلاح القلب مستلزِمٌ لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح، دَلَّ على

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٩٢).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٤).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٨/٢٧٢).

أن القلب غير صالح، والقلب المؤمِن صالح؛ فعُلِمَ أنَّ من يتكلَّم بالإيمان، ولا يعملُ به، لا يكون قلبه مؤمنًا؛ حتى إن المكرَه إذا كان في إظهار الإيمان، فلا بدَّ أن يتكلَّم مع نفسه وفي السرِّ مع مَن يأمَنُ إليه، ولا بدَّ أن يَظهَر على صَفَحات وجهه، وفَلَتات لسانه؛ كما قال عثمانُ. وأمَّا إذا لم يظهر أثَرُ ذلك - لا بقوله، ولا بفعله - قطُّ؛ فإنه يدُلُّ على أنه ليس في القلب إيمان؛ وذلك أن الجسَد تابعٌ للقلب؛ فلا يستقِرُّ شيء في القلب إلّا ظهَرَ مُوجَبُهُ ومقتضاه على البدن؛ ولو بوجه من الوجوه»(١).

«فإن ما في القلب من النُّور والظُّلْمة، والخير والشر، يسري كثيرًا إلى الوجه والعَيْن، وهما أعظم الأشياء ارتباطًا بالقلب؛ ولهذا يُرْوَى عن عثمان أو غيره؛ أنه قال: «ما أَسَرَّ أحدٌ بسريرةٍ إلّا أبداها الله على صَفَحاتِ وَجْهِه، وفَلَتاتِ لسانِه»(٢).

والله قد أخبر في القرآن: أن ذلك قد يظهر في الوجه؛ فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]؛ فهذا تحت المشيئة، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ فهذا مُقسَمٌ عليه محقَّق، لا شرطَ فيه، وذلك أنَّ ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظَمُ مِن ظهوره في وَجْهه؛ لكنه يبدو في الوجه بُدُوًّا خَفِيًّا يعلمه الله، فإذا صار خُلُقًا، ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السوادُ والقَسَمةُ حتى يظهر لجمهور الناس، وربما مُسِخَ قِرْدًا أو خنزيرًا؛ كما في الأمم قبلنا، وكما في هذه الأمة أيضًا»(٣).

هذا آخر ما قصدنا إيراده مِن المُقَدِّمات المُتَعَلِّقة بالقلب، ونذكر بعدها الأعمال القلبية.

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٤/١٢١).

(٢) رُوِي عن عثمان بلفظ: «ما أَسَرَّ عَبْدٌ بسريرةٍ إلّا رَدَّاهُ اللهُ رِداءَ مِثْلها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ»؛ وقد تقدَّم تخريجه.

(٣) «الاستقامة» لابن تيمية (١/٣٥٥).

الأخلاص

تَوْطِئَة

لا بد للأفعال الإراديَّة من محرِّكات تدعو الإنسان إلى فِعْلها وتحقيقها، وهذه المحرِّكات مِن حيث هي بواعثُ وتصوُّراتٌ، تكون علَّة فاعلة تطلُبُ مرادها، ومِن حيث إنها شيء خارجي يسعى الإنسان إلى تحقيقه ونَيْلِه، تُصبح هدفًا وغاية.

ومن هنا: فإنه لا بد للمسلم أن يحدِّد ويوحِّد غايته، حينما يَهمُّ بعمل مما يتقرَّب به إلى الله؛ بحيث تكون غايته من عمله طَلَبَ مرضاة الله تعالى وحده؛ وهذا هو الإخلاص.

* * *

مَعنَى الإخلَاص وَحَقِيقَتهُ

الإخلاص في اللغة: مأخوذ مِن الخَلَاص؛ وهو الصفاء والنقاء؛ تقول: «خَلَصَ الشيءُ يخلُصُ خُلُوصًا وخَلَاصًا، فهو خالص: إذا صفا وزال عنه ما يَشُوبُه».

يقول ابن فارس: «الخاء واللام والصاد: أصل واحد مطَّرِد، وهو: تَنْقِية الشيء وتهذيبه»[(١)].

وأخلَصَ لله دِينَهُ: أمحَضَهُ، وقصَدَ وجهَه، وترَكَ الرياء، والمُخلِص: هو الذي وحَّد الله خالصًا، والمخلَّص: هو الذي خَلَّصه الله وطَهَّرَهُ من الدَّنَس؛ فاختاره واصطفاه.

وكلمة الإخلاص: هي كلمة التوحيد، والإخلاص في العبادة والطاعة: تَرْك الرياء.

فهذا هو معنى هذه اللَّفْظة في كلام العرب؛ حيث تدور حول تنقيةِ الشيءِ مِن الشوائب، وتخليصِهِ من الأكدار ومما يُداخِله.

وأما الإخلاص في معناه الشرعي: فعبارات العلماء فيه متقارِبة:

فقيل: هو إفرادُ الحقِّ سبحانه بالقصد والطاعة.

وقيل: أن يكون العمَلُ لله سبحانه، لا نَصِيبَ لغير الله فيه.

وقيل: هو تجريد القصد طاعةً للمعبود.

وقيل: هو استواء عمل الظاهر والباطن.

---

(١) «المقاييس في اللغة» (٢/٢٠٨)، (خ ل ص).

ويقول سَهْل التُّسْتَرِي: «نَظَرَ الأكياسُ في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حَرَكاته وسُكُونه في سرِّه وعلانِيَتِهِ لله وحده لا شريك له، لا يمازِجُهُ شيء: لا نَفْسٌ، ولا هوًى، ولا دُنيا»(١).

وقال بعضهم: «الإخلاص: ألَّا تطلُبَ على عمَلِك شاهدًا غير الله، ولا مُجازِيًا سواه»(٢).

فالإخلاص - كما ذكر ابن القيِّم - هو: تصفية العمل من كل شائبة؛ بحيث لا يمازِجُهُ شيء من إرادات النَّفْس: إما بطَلَب التزيُّن في قلوب الخَلْق، وإمَّا بطلب مدحِهم، والهروب من ذمِّهم، أو بطلب تعظيمهم، أو بطلب أموالهم، أو خِدْمتِهم، أو محبَّتهم، أو قضاء حوائجه على أيديهم، أو غير ذلك من العِلَلِ والشوائب والإرادات الفاسدة التي تَجتمِع على شيء واحد، وهو: إرادةُ ما سوى الله ﷻ بهذا العمل أو بعضه.

وعليه: فالإخلاص: هو توحيد الإرادة والقَصْد؛ حتى يكون الله هو مرادَكَ وَحْدَه؛ فلا تَلْتفِتْ إلى شيء معه سبحانه(٣).

* * *

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٦٨)، و«السنن الصغرى» (٨).
(٢) «مدارج السالكين» (٩٢/٢).
(٣) المصدر السابق (٩٣/٢).

الفَرْقُ بَيْنَ الإِخْلَاصِ وَالصِّدْقِ وَبَيْنَ الإِخْلَاصِ وَالنُّصْحِ

قيل: إن الفَرْق بين الإخلاص والصدق: أن الصِّدْق هو الأصل، والإخلاص متفرِّع عنه.

وقيل: الإخلاص لا يكون إلّا بعد الدخول في العَمَل، وأما الصِّدْق فيكون بالنية قبل الدخول فيه[1].

قال ابن القيِّم: «وقيل: - أي: في معنى الإخلاص-: التوقِّي من ملاحظة الخَلْق حتى عن نَفْسِك، والصدق: التنقِّي من مطالَعة النفس؛ فالمخلِصُ لا رياء له، والصادق لا إعجاب له، ولا يَتِمُّ الإخلاص إلّا بالصدق، ولا الصدق إلّا بالإخلاص، ولا يَتِمّان إلّا بالصبر»[2].

ويمكن أن يعبَّر عن الفَرْق بينهما بعبارة أخرى؛ فيقال: الإخلاص: أن تُفْرِدَ الله ﷻ بقَصْدِك، وأما الصدق: فهو الموافَقة بين الظاهر والباطن في الأعمال وفي الأحوال وفي الأقوال جميعًا:

ففي الأعمال: لا يُظهِر أعمالًا صالحةً، وقلبُهُ خالٍ.

وفي الأحوال: لا يُظهِر خشوعًا أو صلاحًا، وقلبُهُ ينطوي على خلاف ذلك.

فهذا غير صادق.

---

(١) انظر: «التعريفات» للجرجاني (ص١٢-١٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٩١).

وكذا لو أظهَرَ من ذلك ما ليس بقلبه منه إلّا مقدارٌ لا يكافئ ما ظهَرَ؛ فهو غير صادق بمقدار تفاوُتِ المقدارَيْن.

وكذلك في الأقوال؛ فالصدق فيها بمقدارِ توافُقِ القول وما في القلب؛ فمَن قال قولًا ولو كان مطابِقًا للواقع، ولكنه يُخالِفُ ما في مكنونِه؛ فإنه يُعتَبَر كاذبًا بذلك، فلو سُئِلَ عن فلان أين هو؟ فقال: مسافِر، وهو يَظُنُّ أنه موجود، ولكن صادَفَ أن قوله وقَعَ على الحقيقة؛ بحيث إنَّ فلانًا كان مسافِرًا فعلًا، ولكنه لا يَعلَم، فإنه يكون بذلك كاذبًا؛ ولذلك قالوا: لو جامَعَ في ظُلْمةٍ مَن يظُنُّها أجنبيَّةً، فبانت زوجتَهُ أو أَمَتَهُ، أَثِمَ على ذلك بقصده(١).

وكذلك أيضًا: يكون كاذبًا إذا خالَفَ ما في الواقع، وإن لم يَقْصِدْ ذلك؛ كما هو استعمال السَّلَف كثيرًا، وهو استعمال عربي معروف لكلمة «الكَذِب» التي تقابل الصدق، فإذا قال مثلًا: فلان مسافِر، وهو يعتقِد أنه مسافِر، فطابق قولُهُ ما في مكنونه، ولكن تبيَّن أن فلانًا لم يُسَافِر.

فإطلاق الكذب في مثل ذلك وارد معروف، وليس هو مِن الكذب المذموم الذي يُعاقَبُ عليه صاحبه، وإنما يُطلِقون ذلك على كل ما خالف الواقع والحقيقة؛ سواءٌ كان بسبب فسادٍ في العدالة، أو فسادٍ في الضبط.

ويؤيِّده مِن وجهٍ: قول الله ﷻ لملائكته ﷺ: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]؛ فإنهم لم يتعمَّدوا الكذب، وحاشاهم.

وقد ذكر ابن مَنْظُور في «اللسان» جملة من الشواهد على هذا الاستعمال(٢).

قال الخَطَّابي: «والعرَب تضَعُ «الكذب» مَوضِعَ «الخطأ» في كلامها؛ فتقول: «كذَبَ سَمْعِي، وكذَبَ بَصَرِي»؛ أي: زَلَّ ولم يُدْرِكْ ما رأى وما سَمِع، ولم يُحِطْ به»(٣).

---

(١) انظر: «إعلام الموقِّعين» (٥٢١/٤).
(٢) انظر: «لسان العرب» (٥١/١٢)، (ك ذ ب).
(٣) «معالم السنن» (١٣٥/١).

ولا بد أن يُعرَفَ: أن الصدق والإخلاص معنيان مُتلازِمان، وليست المفارَقةُ بين المتلازِمَيْنِ مِن حيثُ التعريفُ مما يستلزِمُ النُّفْرةَ بينهما، ولكنه مزيدُ البيان؛ لتقرير المعارف، وتحديدِ الأوصاف.

وقد يُعبَّر بالصدق، ويُرَاد به الإخلاص؛ فيقال: فلانٌ يعامِلُ ربَّه بصدق؛ يعني: بإخلاص.

وأما الفَرْق بين الإخلاص والنُّصْح: فيمكن أن يُقَال في عبارة مختصَرة: إن الإخلاص- كما سبق -: إفرادُ الله ﷻ بالقصد، وأما النُّصْح: فهو استِفْراغُ الوُسْع، وبَذْلُ الجُهْدِ في أداء العمل[1]؛ فتقول: فلانٌ ناصحٌ في عمله، فلان ناصح لتلامذته، وناصح في صُحْبته، وناصح لفلان؛ أي: يستفرِغُ جهدَهُ في إيصال النَّفْعِ له بكل وجه مُسْتطاع، ولا ريب أن هذا يتضمَّن الإخلاص وزيادة.

ورُبَّما عُبِّرَ بالإخلاص عن النُّصْح، فقيل: فلان يعمل بإخلاص في كذا وكذا؛ أي: يعمل بنُصْح، فإنْ كان المراد أنه يعمل ابتغاء وجه الله فقطْ، كان ذلك من باب توحيد القصد والإرادة، فهو يَعمَلُ بإخلاص؛ أي: يريدُ وجه الله، لا يريد شيئًا آخر.

ويمكن أن يقال: فلان يعمل بإخلاص؛ أي: أنه يبذُلُ طاقتَهُ ووُسْعَهُ وجُهْده، ولا يَتَوَانى في القيام بالمهمَّة التي وُكِلَتْ إليه.

وبهذا يُعرَفُ الفرقُ بين الإخلاص والنُّصْح، وبين الإخلاص والصدق، وما بين هذه الأمور من المُلازَمة.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «الفوائد» لابن القيم (ص٢٧٢).

أَهَمِّيَّةُ الإِخْلَاصِ وَمَنْزِلَتُه

وهذا يتبيَّن من وجوه مختلِفة:

أولًا: أن الإخلاص هو حقيقة الإسلام الذي بعَثَ الله ﷻ به المرسَلين ﷺ:

كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ فقال: «إذِ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]؛ فمَن لم يستسلِمْ لله، فقد استكبَر، ومَن استسلَمَ لله ولغيرِهِ، فقد أشرَكَ؛ وكلٌّ مِن الكِبْرِ والشركِ ضِدُّ الإسلام، والإسلام ضِدُّ الشرك والكِبْر»[١].

وقال: «إخلاص الدِّين لله هو الدِّين الذي لا يَقْبَلُ الله سواه؛ فهو الذي بعَثَ به الأوَّلين والآخِرين من الرسل، وأنزَلَ به جميع الكتب، واتفَقَ عليه أئمَّة أهل الإيمان؛ وهذا هو خُلَاصةُ الدعوة النبويَّة، وهو قُطْبُ القرآنِ الذي تَدُورُ عليه رَحَاه»[٢].

ثانيًا: أنَّ الإخلاص هو الفِطْرة التي فطَرَ اللهُ الناسَ عليها، وبه قِوَامُ الأمَّة[٣]:

فإنَّ اللهَ تعالى لم يَفطُرِ الناس على الرياء، ولا المقاصِد السيئة، وإنما فطَرَهم على التوحيد الذي هو إخلاص العمل لله، مع إفراد القَصْد إليه؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤).

(٢) المصدر السابق (١٠/٤٩).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٨/٣٧٤).

عَزَّ من قائل: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ...﴾ الآية [البيِّنة: ٥]، وقال سبحانه في الحديث القُدْسي: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ»(١)؛ فهو سبحانه ما خلَقَهم إلّا حنفاء، وما خلَقَهم إلّا ليعبدوه، ولا بد أن يعبدوه مخلِصِين له الدِّين.

ورُوِيَ أن عمر بن الخطاب ﷺ مَرَّ على مُعَاذ بن جَبَل، فسأله: «ما قِوَامُ هذه الأمَّة؟ قال مُعَاذ: ثلاثٌ، وهُنَّ المُنجِيات: الإخلاص؛ وهو الفِطْرة: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠]. والصلاة؛ وهي المِلَّة. والطاعة؛ وهي العِصْمة؛ فقال عمر رضى الله عنه: صدَقْتَ»(٢).

ومِن هنا نَعلَمُ شأن الإرادات والمقاصد والنيَّات، وخطَرَها، وعظيم أَثَرها، وفي الحديث: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ الله وما وَالَاه، أو عَالِمًا أو مُتَعَلِّما»(٣).

ولهذا قال يحيى بن أبي كَثِير: «تعلَّموا النِّيَّة؛ فإنها أبلَغُ مِن العمل»(٤)؛ وذلك لأنها تبلُغ بصاحبها ما لا يبلغُهُ عمله؛ كما سيأتي إن شاء الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)؛ ضمن حديث طويل عن عِيَاض بن حِمَار ﷺ.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٨/٤٩٣-٤٩٤)؛ بسند صحيح، عن أبي قِلَابة، ويزيد بن أبي نُعَيم؛ كلاهما عن عمر ﷺ؛ وهذا منقطِع؛ كلاهما لم يسمع من عمر ﷺ. انظر: «تهذيب الكمال» (١٤/٥٤٣)، (٣٢/٢٤٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وقد حسَّنه ابن مُفلِح في «الآداب» (٢/١٢٥)، والمنذري في «الترغيب» (١/٥٥)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٩٧).
وأخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (١٢٧)، والطبراني في «مسند الشاميِّين» (٦١٢)؛ من حديث أبي الدرداء ﷺ، بلفظ: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ الله». قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢٢٢): «فيه خِدَاش بن المهاجِر؛ ولم أعرِفْه، وبقيَّة رجاله ثقات»، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٨)، ورُوِي من حديث جابر بلفظ: «الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها؛ إلّا ما كان منها لله»؛ أخرجه أبو نُعَيْم في «الحلية» (٣/١٥٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٠٠٣١)، وصحَّحه السيوطي، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠١٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٧٠).

ويقول ابن أبي جَمْرة - وهو أحد شرَّاح «الصحيح» -: «وَدِدتُّ أنه لو كان من الفقهاء مَن ليس له شُغْلٌ إلّا أن يعلِّمَ الناس مَقاصِدَهم في أعمالهم، ويَقْعُدَ إلى التدريس في أعمال النيات ليس إلَّا؛ فإنه ما أُتِيَ على كثير من الناس إلّا من تضييع النيَّات»[1].

ثالثًا: أن الإخلاص هو رُوحُ العمل:

فعمَلٌ لا إخلاص فيه، كجَسَد لا رُوح فيه؛ فالإخلاص من العمَل بمنزِلة الرُّوح من الجسد.

يقول ابن القيِّم: «ومِلاك ذلك كله: الإخلاصُ والصِّدْق؛ فلا يَتعَبُ الصادق المُخلِص؛ فقد أُقِيمَ على الصراط المستقيم، فيُسَارُ به وهو راقد، ولا يَتعَبُ من حُرِمَ الصدقَ والإخلاص؛ فقد قُطِعَتْ عليه الطريق واستهوَتْهُ الشياطين في الأرض حيرانَ؛ فإن شاء فليَعمَل، وإن شاء فليَترُك؛ فلا يزيدُهُ عملُهُ مِن الله إلّا بُعْدًا، وبالجملة: فما كان لله وبالله، فهو من جُنْدِ النفس المطمئنَّة»[2].

ويقول ابن الجوزي: «الإخلاص: مِسْكٌ مَصُونٌ في مَسْكِ القلب، ينبِّهُ رِيحُهُ على حامِلِه؛ العمل صورة، والإخلاص رُوح؛ إذا لم تُخْلِصْ، فلا تَتْعَب، لو قَطَعْتَ سائر المنازل - في الحج - لم تكن حاجًّا إلّا بشهود المَوْقِف»[3].

وهو يريد بهذا: أن الإخلاص محفوظ في هذا الوِعَاءِ الذي هو القَلْب، وأن مَنزِلةَ الإخلاص مِن الأعمال كمَنْزِلةِ الوقوف بعَرَفةَ مِن أعمال الحج؛ فلو أنَّ الإنسان أَتَمَّ أعمال الحج، ولكنه لم يَقِفْ بعَرَفة، لم يَصِحَّ حجُّه؛ كما هو معلوم.

---

(١) «المدخل» لابن الحاج العبدري (١/٣).

(٢) «الروح» (٢/٦٨١-٦٨٣).

(٣) «اللطف في الوعظ» (ص ٢٧). وانظر: «المدهش» (ص ٤٣٤).

وتأمَّلْ قوله: «ينبُّهُ رِيحُهُ على حامِله»؛ فالإخلاص لا يحتاج منك إلى إظهار وإعلام بأنك مُخلِص، وإنما يَظْهَر ذلك في حَرَكات الإنسان وسَكَناته، وتَظهَر آثارُهُ عليه، وأمَّا الذي يتصنَّع للناس، ويسعى لإعلامهم بعمله وصلاح قلبه؛ فهذا الذي يُفسِد قلبَهُ ولا يزيده ذلك إلّا شَيْنًا في قلوب الخلق.

وبهذا نَعلَمُ: أن الإخلاص هو عمودُ الأمر وذِرْوةُ سَنَامه؛ لأن العامل بدون إخلاص كَادِحٌ مُتْعِب نفسه، لا أجر له، مع ما عليه من الإثم والعقوبة؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ويقول: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يَقُلْ: ليبلوكم أيُّكم أكثر عملًا؛ فليست العِبْرة بالكثرة، إنما العِبْرة بالصواب مع حُسْن القصد، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١).

قال الفُضَيْل بن عِيَاض في قوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]؛ قال: «أَخْلَصُهُ وأصوَبُهُ؛ قال: إن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكن صوابًا، لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا، لم يُقْبَلْ؛ حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السُّنَّة»(٢).

ويقول ابن القيِّم: «العمل بغير إخلاص ولا اقتداء، كالمسافر؛ يَمْلَأُ جِرابَهُ رملًا يُثْقِلُهُ ولا يَنْفَعُه»(٣).

ويقول أيضًا: «النية: سِرُّ العبودية، وهى من الأعمال بمنزلة الرُّوح من الجسد، ومحالٌ أن يكون في العبوديَّة عَمَلٌ لا رُوحَ فيه؛ إذْ هو بمنزلة الجسد الذي لا رُوحَ فيه، وهو جَسَدٌ خراب»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١)؛ واللفظ له، ومسلم (١٩٠٧)؛ من حديث عمر ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٥٦)؛ مختصرًا.

(٣) «الفوائد» (ص ٦٦).

(٤) «بدائع الفوائد» (٣/١١٤١)؛ بتصرف.

وعن الأحنف بن قيس؛ قال: «رأس الأدب: آلة المَنْطِق؛ لا خير في قول إلّا بفِعْل، ولا في مَنظَر إلّا بمَخبَر، ولا في مالٍ إلّا بجُود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فِقْهٍ بلا وَرَع، ولا في صدقةٍ إلّا بنيَّة، ولا في حياة إلّا بصحة وأمن»(١).

رابعًا: أنه لا سبيل إلى الخلاص والانفكاك من التَّبِعات إلّا بالإخلاص:

فالإنسان يُحاسَب على أعماله، كما يُحاسَب على نيَّاته وإراداته، وإذا نُصِبَتِ الموازين، ونُشِرَتِ الصحف، أبصَرَ العبد عند ذلك عمله، وعرَفَ حاله ومنزلته عند الله ﷻ.

يقول ابن القيِّم: «قال بعض السلف: ما من فِعْلةٍ وإن صَغُرَتْ إلّا يُنشَر لها ديوانان: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ أي: لم فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلْتَ؟

فالأول: سؤال عن عِلَّةِ الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حَظٌّ عاجل من حظوظ العامل، وغَرَضٌ من أغراض الدنيا؛ من محبَّة المدح من الناس، أو خوف ذَمِّهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دَفْع مكروه عاجل؟! أم الباعث على الفِعْل القيامُ بحَقِّ العبوديَّة، وطلَبُ التودُّد والتقرُّب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاءُ الوسيلة إليه؟! ومحلُّ هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تَفعَلَ هذا الفعل لمولاك، أم فعلتَهُ لحَظِّكَ وهواك؟!

والثاني: سؤال عن متابَعةِ الرسول ﷺ في ذلك التعبُّد؛ أي: هل كان ذلك العمل مما شَرَعْتُهُ لك على لسان رسولي، أم كان عملًا لم أَشرَعْهُ ولم أَرْضَهُ؟!

فالأوَّل: سؤال عن الإخلاص، والثاني: عن المتابَعة؛ فإن الله سبحانه لا يَقبَلُ عملًا إلّا بهما؛ فطريق التخلُّص من السؤال الأوَّل: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلُّص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابَعة.

---

(١) أخرجه ابن العَدِيم في «بغية الطلب» (١/٤٥٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٤/٣٣٩)، وأورده الذهبي في «السير» (٤/٩٣)؛ واللفظ له.

وسلامة القلب: مِن إرادةٍ تعارِضُ الإخلاص، وهوًى يعارِضُ الاتِّباع؛ فهذه حقيقة سلامة القلب التي ضَمِنَتْ له النجاة والسعادة»[١].

ولهذا كان مَعرُوفٌ الكَرْخي يَحُثُّ نفسَهُ دائمًا، ويردِّد عليها: «يا نفسُ! أَخلِصي تَتَخَلَّصي.. يا نفسُ! أخلصي تَتَخَلَّصي»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٤٢-٤٣).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٧٨)، و«صفة الصفوة» (١/٤٧٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٩/٣٤١).

الإِخْلَاصُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

ورَدَ الإخلاصُ في كتاب الله تعالى في مواطِنَ كثيرةٍ:

فتارةً: يأمُرُ الله ﷻ به؛ كقولِه: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وتارةً: يُخبِرُ أنه دعوةُ الله لخلقه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وتارةً: يُخبِرُ أنَّ الجنةَ لا تصلُحُ إلّا لأهلِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ(١) * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٠-٤٣].

وتارةً: يُخبِرُ أنه المَنْجاةُ مِن شرِّ الشيطانِ وشركِهِ وغَيِّه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ الواردةِ في كتاب الله تعالى.

وأمَّا ما ورَدَ في السُّنَّةِ، فكثيرٌ أيضًا، ومِن ذلك:

حديثُ أبي أُمامةَ الباهليِّ ﷺ؛ قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: أرَأَيْتَ رَجُلًا غزا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»... ثُمَّ قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِن الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(٢).

---

(١) بكسر اللام، وهي قراءة متواترة، قرأ بها: ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر. ينظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص ٢٤٦).

(٢) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، وقال ابن رجب في «شرح الأربعين» (ص ٣٨)، والمنذري في =

وعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١)؛ فالأعمالُ التي تختلِطُ فيها الإراداتُ، ويريدُ أصحابُها وجهَ اللهِ وغيرَه، ويُشرِكُون في قصدهم بين اللهِ وخلقِه؛ فهذه أعمالٌ اللهُ غنيٌّ عنها، وسيُحبِطها يومَ القيامة، ولن يُقِيمَ لها وزنًا.

وعنه أيضًا ﷺ، عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(٢)، وفي روايةٍ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ»(٣).

وعن عبد الرحمن بن أَبْزَى ﷺ؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ إذا أصبَحَ وإذا أمسى: «أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»(٤).

وحديثُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...»(٥) شاهدٌ واضحٌ في الدلالة على هذا المعنى.

* * *

= «الترغيب والترهيب» (١/٥٧)، والحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/٣٤): «إسناده جيِّد»، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/٣٨٤)، والألباني في «الصحيحة» (٥٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤/٣٤)؛ ضمنَ حديثٍ طويل.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٤٠٦، ٤٠٧)، وصحَّحه النووي في «الأذكار» (ص ١٢٥)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢/١٠٥٨)، والألباني في «الصحيحة» (٢٩٩٠)، وحسَّنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/٣٨٠).

(٥) تقدم تخريجه.

مَرَاتِبُ الإِخْلَاصِ(١)

إنَّ العمل الذي يكون خالصًا مقبولًا على مرتبتَيْنِ، إحداهما أعلى مِن الأخرى:

المرتبةُ الأولى: أن يتمحَّضَ القصدُ لإرادةِ وجه الله ﷻ وما عنده من الثواب والجزاء؛ فلا يَشُوبُهُ شيءٌ آخَرُ وإن كان مباحًا؛ فهو يجاهِدُ يريدُ ما عند الله فحَسْبُ، لا يريدُ غنيمةً، فضلًا عن المقاصدِ السيئة؛ كالرياء والسُّمْعة؛ فهو بصومِهِ يريد ما عند اللهِ ﷻ، ولا يلتفِتُ إلى أمرٍ يجوزُ الالتفات إليه؛ كتخفيف الوزن، أو تحسين صِحَّة البَدَن، أو غير ذلك، وكالذي يَمشِي إلى المسجد؛ ليكثِّرَ الخطا التي يتقرَّبُ بها إلى مولاه، ولا يلتفِتُ إلى معنًى آخر؛ فهذا أعلى المراتب.

ولا يَبْعُد أن يُلحق بهذه المرتبة ما كانت تَوَابِعُه مَقْصُودة للشارع، كالاستشفاء بالقرآن من عِلَل القلوب والأبدان، ومُلاحَظَة ما للأذكار المُتنوعة من الآثار التي نص الشارع عليها، كأذكار الصباح والمساء، وعند النوم، وكذا نزول المنزل، إلى غير ذلك مما يكون سببًا لِحِفْظِه من الشياطين والجن، وغير ذلك مِن الآفات.

وآثار هذا النوع على ثلاثة أقسام:

الأول: ما يكون في الآخرة، مِن الأجر، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، وما يُغْرَسُ في الجنة، إلى غير ذلك، فَطَلَب هذا لا أَثَر له في الإخلاص.

---

(١) ينظر «إحياء علوم الدين» (٣٨٤/٤)، و«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١٥١/١)، و«الفروق» للقرافي (٢٢/٣، ٣٦)، و«الموافقات» (١٣٩/٣) فما بعدها، و«مقاصد المكلفين» (ص٤٥٢) فما بعدها.

الثاني: ما يكون في الدنيا مما يكون عَوْنًا على استقامة العبد، وصِحَّة سَيْرِه إلى مولاه، كحِفْظِه مِن الشيطان وإغوائه، ونحو ذلك، فهذا كالذي قبله.

الثالث: ما يكون في الدنيا، كحِفْظِه مِن الآفات وما يَضُرّه ويُؤذِيه في بدنه أو ماله، ونحو ذلك مما نص عليه الشارع، فمُلاحظة ذلك لا يُخِل بالإخلاص إن شاء الله، مع استحضار نية العبادة. والله أعلم.

المرتبةُ الثانية: أن يَقصِدَ العبدُ بالعملِ وجهَ الله ﷻ، ولكنه يلتفِتُ إلى معنًى يجوزُ الالتفات إليه؛ كالذي يَحُجُّ يريدُ وجهَ الله، ويريدُ أيضًا التجارة؛ فهذا لا مانعَ منه؛ فاللهُ ﷻ يقولُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]؛ وهي التجارةُ في مواسمِ الحجّ، وكالذي يصومُ لله، ولِيَصِحَّ بَدَنُه، وكالذي يحضُرُ لصلاة الجماعة؛ تلبيةً لأمر الله، وطاعةً وعبوديَّةً له، ومع ذلك يلتفِتُ إلى أمرٍ آخَرَ يجوزُ الالتفاتُ إليه؛ كأن تثبُتَ عدالتُهُ، وتُقبَلَ شهادتُهُ؛ ولا شكَّ أنَّ المسلم مطالَبٌ بتحصيل الأمور التي تثبُتُ بها عدالتُه - وهذا غير الرياء والسُّمْعة - فهذا أمرٌ يجوزُ الالتفاتُ إليه، ولكن مَن التفَتَ إليه أو إلى ما يُشبِهُهُ؛ فهو في إخلاصه وعملِهِ دون مَن لم يلتفِتْ إلى شيءٍ غيرِ الله ﷻ.

ويدل لذلك قول النبي ﷺ: «ما مِنْ غَازِيةٍ تَغْزُو في سبيل الله فَيُصِيبُون الغنيمة، إلّا تَعَجَّلُوا ثُلثي أجرهم مِن الآخرة، ويبقى لهم الثُّلُث، وإن لم يُصيبوا غنيمه، تَمَّ لهم أجرهم»(١).

وفي رواية: «ما مِنْ غَازِية أو سَرِيَّة، تَغزو فتغنَم وتَسْلَم إلّا كانوا قد تَعجَّلوا ثُلثي أجورهم، وما من غَازِية، أو سَرِيَّة، تُخفِق وتُصاب، إلّا تَمَّ أُجورُهم»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٦).

(٢) المصدر السابق.

دِقَّةِ الإِخْلَاصِ

الإخلاصُ أمرٌ شاقٌّ على النفسِ؛ ويحتاجُ العبدُ في معالجتِهِ إلى مجاهدةٍ عظيمة؛ مِن مراقَبةٍ للخَطَرات والحَرَكات، وكلِّ ما يَرِدُ على قلبه، ويصدُرُ منه، حتى يَتِمَّ له أمرُه، فإذا تَمَّ، كان الإخلاصُ أفضلَ شيءٍ لديه، وأحبَّ شيءٍ إليه.

يقول أُوَيْسٌ القَرَنيّ: «إذا قُمْتَ، فادْعُ اللهَ أن يُصلِحَ لك قلبَكَ ونِيَّتك؛ فلن تُعالِجَ شيئًا أشدَّ عليك منهما»[١].

وأُوَيْسٌ هذا هو الذي أمَرَهُ عمرُ رضي الله عنه أن يستغفِرَ له، وذُكِرَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال له في شأنِهِ: «فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ، فَافْعَلْ»؛ فما زال عُمَرُ رضي الله عنه يسأَلُ عنه كلَّما أتى عليه أمدادُ أهلِ اليمنِ حتى أتى على أُوَيْسٍ وأخبَرَهُ، وأمرَهُ أن يستغفِرَ له، فاستغفَرَ له[٢].

ولمَّا رأى أنَّ الناسَ قد فَطِنُوا له، انطلَقَ على وجهِه، واختفى في أجنادِ المسلمين، وخرَجَ غازيًا، ولم يُوقَفْ عليه بعدَها، وهو مع هذا كلِّه يقول: «لن تُعالِجَ شيئًا أشدَّ عليك مِن قلبِكَ ونِيَّتِكَ»!

وقال يوسُفُ بنُ أَسْباطٍ: «تخليصُ النيةِ مِن فسادِها أشدُّ على العامِلِينَ من طول الاجتهاد»[٣]؛ فقد يجاهِدُ العبدُ نفسه طويلًا في مراقبةِ خَطَراته، ومحاسبةِ نفسِهِ على أقوالِهِ وأفعالِه، وحَرَكاتِهِ وسَكَناتِه، ثم يَعجِزُ آخِرَ الأمر، أو يَشُقُّ عليه

(١) «صفة الصفوة» (٣/٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤٢)؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٩٤٦).

طُولُ المُكْث في التنقير وشِدَّةِ المحاسبة، وقد يستطيعُ أن يقوم ليلًا طويلًا، ويسرُدَ الصومَ، ولكنه يصعُبُ عليه أن يَضبِطَ قصدَهُ، ويجرِّدَ إخلاصَه.

ومما يدل على هذا المعنى ما سيأتي من الأحاديث الدالة على أن الشرك أخفى مِن دبيب النَّمل، وأن الشرك الأصغر هو أَخْوف ما تَخَوَّفَه النبي ﷺ على أُمّته، وأن الشرك الخَفِي أَخْوف عنده على أُمَّته من المسيح الدَّجَال، إلى غير ذلك ما يُؤَكِّد هذا المعنى.

فلماذا كانت هذه المشقَّةُ في أصل العبادة، وفي سِرِّ القَبُول؟! ولماذا احتاج إلى هذه المجاهَدة الكبيرة الطويلة حتى آخِرِ اللحظات؛ حينما يفارِقُ الإنسانُ هذه الحياة؟!

أسبابُ ما في الإخلاص من مَشَقَّة، وشيءٌ من طرقِ المُعَالَجة لذلك:

كلُّ ذلك كان لأسبابٍ منها:

أولًا: أنَّ الإخلاص لا نصيبَ للنفس فيه[1]؛ فكثيرٌ من الأعمال التي للنفس فيها حَظٌّ عاجلٌ قد لا تضطرِبُ على الإنسان فيه نيَّته، أما الإخلاصُ: فالإنسانُ يجرِّدُ فيه نفسَهُ في قصدها مِن كلِّ إرادة والتفات؛ فلا يلتفِتُ إلى حظٍّ عاجلٍ مِن حظوظِ الدنيا مما للنفسِ إليه مَطْمَع؛ كتعظيمِ الناسِ له، والثناءِ عليه، وغيرِ ذلك؛ ومِن ثَمَّ: كان الإخلاصُ شَاقًّا على النفسِ؛ لتنزُّهها عن إرادةِ ما لها حظٌّ فيه؛ في جملةِ أعمالها، واختلافِ أحوالها.

ثانيًا: أنَّ الخواطِرَ التي تَرِدُ على القلب لا تتوقَّف؛ فالقلبُ - كما تقدَّم - إنما سُمِّيَ قَلْبًا؛ لكثرةِ تقلُّبه، وقيل له: الفؤادُ أيضًا؛ لكثرةِ تفؤُّده؛ فهو متوقِّدٌ بالوارداتِ والخواطر.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

فلمَّا كان الإخلاصُ بتلك المَثَابةِ، شَقَّ على العبد أن يلاحِظَهُ في كلِّ حَرَكاته، وأن يَضبِطَهُ في كلِّ لَحظاتِه.

ولهذا قال سفيان الثوريُّ: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نيَّتي؛ إنَّها تَقلَّبُ عليَّ»(١).

وقال بعضُهم: «اثنتانِ أنا أُعالجُهما منذ ثلاثينَ سنةً: تَرْكُ الطَّمَع فيما بيني وبين الناس، وإخلاصُ العمل للهِ ﷻ»(٢).

ويقول يوسف بن الحسين: «أعزُّ شيءٍ في الدنيا: الإخلاصُ، وكم أجتهِدُ في إسقاطِ الرياءِ عن قلبي؛ فكأنه ينبُتُ على لونٍ آخر!»(٣)؛ أي: يجاهِدُهُ من هذه الناحية، ويَسُدُّ هذا الباب، فينبُتُ له من ناحيةٍ أخرى، فقد يُثنِي عليه بعضُ الناس، فيَرُدُّ الثناء، ويتنقَّص نفسه، ويَصِفُها بالمعايب، ثم يقومُ فيتكلَّم وهو يحتقِرُ النفس، فينقدِحُ في قلبِه إبرازُ جانب التواضع والإخبات، وعدمِ الالتفات للنفس، وأنه ليس من أهل العُجْب.

وقد يقولُ مثلًا: البارحةَ في ساعةٍ متأخِّرةٍ من السَّحَر سمعتُ كذا وكذا، ثم يقولُ: لكنِّي لم أكن في قيام، وإنما قُمْتُ لحاجة، فهذا يطرُدُ الرياء؛ كما جاء عن حُصَيْن بن عبد الرحمن؛ قال: «كنتُ عند سعيد بن جُبَيْر، فقال: أيُّكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحةَ؟ قلتُ: أنا، ثم قلتُ: أمَا إني لم أكن في صلاةٍ، ولكني لُدِغتُ»(٤)؛ فهذا قالها لدفعِ الرياء من قلبه، ولكنَّ الإنسان قد يقولها خالصًا، فينقدِحُ له عند ذلك معنى؛ وهو أن يَظهَرَ في أعين الناس غيرَ مُرَاءٍ؛ فأمرٌ بهذه المَثَابة كيف نستطيعُ أن نَضبِطَهُ في كلِّ لحظةٍ مِن لحظاتِنا، وفي كل حركة من حركاتِنا؟!

---

(١) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٦٩٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٦٢)، وفيها: «نفسي»، بدل: «نيَّتي».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٧١).

(٣) أخرجه القشيري في «رسالته» (٢/٣٦٢)، وأورده ابن عساكر في «تاريخه» (٧٤/٢٢٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٠)، وأصله في البخاري (٥٧٠٥)؛ مطوَّلًا دون محل الشاهد.

فالإنسانُ قد يذكُرُ أشياءَ من جهودٍ طيِّبة، ومشاريعَ خيِّرةٍ، وقد يَفهَمُ منه السامعُ أنه هو الذي قام به، ثم يستدرِكُ ويقول: «عِلْمًا بأن هذه الأمور ليس لي منها شيء، ولم أصنعْ منها شيئًا»؛ فهذا كلامٌ جيد، فهو يَدفَعُ عن النفس الرياء، لكنْ قد ينقدِحُ في نفسِهِ وهو يقولُ هذا الكلام ما يُفسِدُ عليه أمره؛ وهو أنه ليس ممن يتشبَّعُ بما لم يُعْطَ ونحو ذلك.

ولا نعني بهذا المَلحَظِ تركَ التنزُّهِ عن الرياء في كلِّ حال، وإنما المرادُ التنبيهُ إلى عظيمِ شأن الإخلاص، وأنَّ تنقيةَ القلبِ مما يشوبه يحتاجُ إلى جهدٍ كبير، ومعاناةٍ حتى آخِرِ العمر، وأنَّ هذه المجاهَدةَ يحتاجُها العبدُ في كل حال من أحواله، ولا يجوزُ له إهمالُها، ولا يحسُنُ به تركُها؛ فيحتاجُ إلى بَصَرٍ نافذٍ في خطراتِهِ وحركاتِهِ وسَكَناتِه، وكما أنَّ للنفسِ حظوظًا في كلِّ حالٍ رافع؛ فإن لها أيضًا حظوظًا في غيرِ حالٍ تضع منها؛ فكم لها مِن حظٍّ عند ذكرها بالتنقُّصِ والمعايب، وغَضِّ الطَّرْفِ عن مَدْحِها وإبرازِ المثالب!

ثالثًا: ما جُبِلَ عليه الإنسانُ من حبِّ الشهوات؛ قال الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

فأخبَرَ الله تعالى: «أنَّ الناسَ زُيِّنَتْ لهم هذه الأمورُ، فرمَقُوها بالأبصار، واستحلَوْها بالقلوب، وعكَفَتْ على لَذَّاتِها النفوس، كلُّ طائفة من الناسِ تميلُ إلى نوعٍ من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبَرَ همِّهم، ومبلغَ عِلْمِهم، وهي مع هذا متاعٌ قليلٌ مُنقَضٍ في مُدَّةٍ يسيرة»(١).

وبدأ اللهُ تعالى بالنساء؛ لأنَّ الفتنةَ بهنَّ أشدُّ، ثم ذكَرَ البنين، وهم من يُتقوَّى بهم، ويُفتخَرُ بهم ويُعتَزّ، ثم المالَ الذي قد يَجمَعُهُ للفخرِ والخُيَلاء، والتكبُّرِ على الضعفاء، والتجبُّرِ على الفقراء.

---

(١) من كلام ابن سعدي في «تفسيره» (١/ ٢١٠).

ثم ذكَرَ المراكبَ الحسَنة من الخيل المسوَّمة، ثم ما أنعَمَ به على الناسِ من بهيمة الأنعام، والأرضِ المتخَذةِ للزراعةِ والغَرْس.

فهذا مِن أعظم ما تَطْمَحُ إليه نفوسُ الناسِ من زينة الحياة الدنيا، ولكنَّ الشهواتِ لا تقتصِرُ على ذلك، والنفوسُ لا تتعلَّق بهذا وحده، وإنما هناك أمورٌ خفيَّةٌ أعظمُ من هذا، يبذُلُ لها العبدُ ماله، بل ونفسَهُ، فضلًا عن مراكبه وحُرُوثه، من أجلِ أن يحقِّقَ شهوةً هي أكبرُ وأجلُّ في نفسه، وهي لذةُ الرياسة والشهرة، والمنزلةِ في قلوب الخلق، والمَحمَدةِ في نفوسهم.

فهي لذةٌ تُبذَلُ في سبيلها الأموالُ والمُهَج؛ فربَّما أنفَقَ الرجلُ ماله ليقال: جَوَادٌ، وربما قاتل الأبطالَ ونازل البُسَلاءَ ليقالَ: شُجَاعٌ؛ فهذا أبو الهيثمِ العَيَّارُ قد ضُرِبَ ثمانيةَ عشَرَ ألفَ سوطٍ بالتفاريق على اللُّصُوصيَّة وغيرها، وكان يقولُ: «صبَرْتُ في ذلك على طاعةِ الشيطانِ لأجلِ الدنيا»[١].

ولما قال له الخليفةُ المتوكِّلُ: ما بلَغَ مِن جَلَدِك؟ قال: املأْ لي جرابي عَقَارِب، ثم أدخِلْ يدي فيه، وإنه ليؤلمني ما يؤلمك، وأَجِدُ لآخِرِ سوطٍ من الألمِ ما أجدُ لأوَّلِ سوط، ولو وَضَعْتَ في فمي خِرْقةً وأنا أُضرَبُ، لاحتَرَقَتْ مِن حرارةِ ما يخرُجُ من جوفي، ولكنني وَطَّنْتُ نفسي على الصبر، فقال له الفَتْحُ: وَيْحَكَ مع هذا اللسانِ والعقلِ ما يدعوك إلى ما أنت عليه من الباطل؟ فقال: أُحِبُّ الرياسةَ!

---

(١) قال ذلك للإمام أحمد؛ يقولُ عبد الله بن أحمد بن حنبل: «كنتُ كثيرًا أسمعُ والدي يقولُ: رَحِمَ اللهُ أبا الهيثم! غفَرَ اللهُ لأبي الهيثم! عفا الله عن أبي الهيثم! فقلت: يا أبة! مَن أبو الهيثم؟ قال: لا تعرفه؟ قلتُ: لا، قال: أبو الهيثمِ الحدَّاد، اليوم الذي أُخرِجْتُ للسياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين، إذا أنا بإنسانٍ يجذِبُ ثوبي مِن ورائي ويقولُ لي: تعرفني؟ قلتُ: لا، قال: أنا أبو الهيثم العَيَّار، اللصُّ الطَّرَّار، مكتوبٌ في ديوان أمير المؤمنين: أني ضُرِبْتُ ثمانيةَ عشَرَ ألفَ سوطٍ بالتفاريق، وصبَرْتُ في ذلك على طاعةِ الشيطانِ لأجلِ الدنيا؛ فاصبِرْ أنت في طاعةِ الرحمنِ لأجلِ الدِّين»؛ أخرجه ابن الجوزي في «المناقب» (ص٤٥٠).

قال داودُ بن عليٍّ: لما قُدِمَ بخالدٍ - وهو اسمُ أبي الهيثم - اشتهَيْتُ أن أراه، فمضَيْتُ إليه فوجدتُّهُ جالسًا غير متمكِّنٍ لذَهَابِ لحمِ أَلْيَتَيْهِ مِن الضرب، وإذا حوله فتيانٌ، فجعلوا يقولون: ضُرِبَ فلان، وفُعِلَ بفلان كذا، فقال لهم: لا تتحدَّثوا عن غيرِكم، افعَلُوا أنتم حتى يتحدَّثَ عنكم غيرُكم[١]!

قال ابنُ الجوزيِّ تعليقًا على ذلك: «فانظُروا إلى الشيطانِ؛ كيف يتلاعَبُ بهؤلاءِ؛ فيصبرونَ على شدَّة الألم ليحصُلَ لهم الذِّكْرُ، ولو صبَرُوا على يسيرِ التقوى لحصَلَ لهم الأجْرُ»[٢].

وآخَرُ - وهو ممن أسَّس مُلْكًا في الأندلس - «أُهدِيَتْ إليه جاريةٌ جميلة؛ فنظَرَ إليها، وقال: إنَّ هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغَلْتُ عنها بهمَّتي فيما أطلُبُهُ، ظلمتُها، وإن اشتغَلْتُ بها عمَّا أطلُبُهُ، ظلمتُ همتي، ولا حاجة لي بها الآن، وردَّها على صاحبها»[٣].

وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى تلك الفتنةِ العظيمةِ مبيِّنًا عظيمَ أثرها الفاسد على دِين العبد بقوله: «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ والشَّرَفِ لِدِينِهِ»[٤]، فذكَرَ حُبَّ الرياسة والتطلُّع إلى الناس، وطلَبِ المَحمَدة.

وقد قيل: «حُبُّ الرياسةِ آخِرُ ما يخرُجُ من قلوب الصِّدِّيقين»[٥].

---

(١) انظر: «تلبيس إبليس» (ص ٤٤٤-٤٤٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «نفح الطِّيب» (٣/٤٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦)؛ من حديث كعب بن مالك ﷺ. وفي الباب: عن ابن عمر، وأبي هريرة، وابن عباس، وأسامة بن زيد، وأبي سعيد، وجابر، وعاصم بن عدي ﷺ، وأبي جعفر؛ مرسلًا؛ كما في «ذم الجاه والمال» لابن رجب، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٣٢٢٨)، والمنذري في «الترغيب» (٤/١٧٧)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٥٠)، وحسَّنه البغوي في شرح السنة (٤٠٥٤).

(٥) أورده في «نفح الطِّيب» (٥/٢٦٠)، منسوبًا إلى عبد الرحمن بن عفَّان الجُزُولي.

وقال سفيانُ الثوريُّ: «ما رأيتُ الزهدَ في شيءٍ أقلَّ منه في الرياسة؛ ترى الرجلَ يزهدُ في المطعم والمشرب، والمال والثياب؛ فإذا نُوزِعَ في الرياسة، حامى عليها وعادى»[1].

وقال أبو العَتَاهِيَة[2]:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ أَطْغَى مَنْ عَلَى الأَرْضِ ... حَتَّى بَغَى بَعْضُهُمْ مِنْهَا عَلَى بَعْضِ
إِنَّ القُنُوعَ لَزَادٌ إِنْ رَضِيتَ بِهِ ... كُنْتَ الغَنِيَّ وَكُنْتَ الْوَافِرَ العِرْضِ

وقيل[3]:

حُبُّ الرِّيَاسَةِ يَا لَهُ مِنْ دَاءِ ... كَمْ فِيهِ مِنْ مِحَنٍ وَطُولِ عَنَاءِ
طَلَبُ الرِّيَاسَةِ فَتَّ أَعْضَادَ الْوَرَى ... وَأَذَاقَ طَعْمَ الذُّلِّ لِلْكُبَرَاءِ
إِنَّ الرِّيَاسَةَ دُون مَرْتَبَةِ التُّقَى ... فَإِذَا اتَّقَيْتَ عَلَوْتَ كُلَّ عَلَاءِ

فهذه الأمورُ التي جُبِلْنا عليها تؤثِّر على الإخلاص؛ فيكونُ شديدًا عسيرًا على النفس؛ ورَحِمَ اللهُ أبا سليمانَ الدَّارَانيَّ إذ يقول: «أفضلُ الأعمالِ خلافُ هوى النفس»[4].

قال ابنُ القيِّم: «وقد اتفقَ السالكون إلى اللهِ على اختلافِ طُرُقهم، وتبايُنِ سلوكِهم: على أنَّ النفسَ قاطعةٌ بين القلبِ وبين الوصولِ إلى الربِّ، وأنه لا يُدخَلُ عليه سبحانه ولا يُوصَلُ إليه إلّا بعد إماتتِها، وتركِها بمخالَفَتِها والظَّفَر بها.

فإنَّ الناس على قسمَيْن:

قسمٌ: ظَفِرَتْ به نفسُهُ فملَكَتْهُ وأهلَكَتْهُ، وصار طَوْعًا لها تحت أوامرها.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٩/٧).
(٢) «ديوان أبي العتاهية» (ص ٢٤٢).
(٣) القائل: ابن ليون التُّجِيبي. «نفح الطِّيب» (٥٨٢/٥).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٢٧/٣٤).

وقسمٌ: ظَفِروا بنفوسِهم فقهَرُوها، فصارت طوعًا لهم، منقادةً لأوامرهم.

قال بعضُ العارفين: انتهى سَفَرُ الطالبين إلى الظَّفَرِ بأنفسِهم؛ فمَن ظَفِرَ بنفسه، أفلَحَ وأنجح، ومَن ظَفِرَتْ به نفسُهُ، خَسِرَ وهَلَك؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧- ٤١]؛ فالنفسُ تدعو إلى الطغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدنيا، والربُّ يدعو عبده إلى خوفِهِ ونَهْيِ النفس عن الهوى، والقلبُ بين الداعيَيْنِ، يميلُ إلى هذا الداعي مرةً، وإلى هذا مرةً؛ وهذا موضعُ المِحْنةِ والابتلاء»[١].

وقد نبَّه أبو حامد الغزالي[٢] إلى معنى دقيق، وهو أن النفس إذا فُطِمَت من شهواتها في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فإنها حينئذ تَتَسَلَّل مُسْتَرْوِحَة، بإظهار العلم والعمل والعبادة لتحصل على لذة أخرى أعظم مما فاتها، وذلك ما تجده من تعظيم الخلق، ونَظَرهم إليه بالتَّوقير والإجلال، وما يحصل له مِن الجَاه والمدح، وتقديم الناس له، وتَلَقِّيهم رَأْيه وفُتياه بالقبول والإذعان، وتواضعهم وتَصَاغُرِهم بين يديه، وإيثارهم إياه في المراكب والمساكن والمطاعم، مع عرض الخدمة والتسهيل في المُعاملة والبيع، إلى غير ذلك فيحصل للنفس بذلك أعظم اللذَّات، مما يُحْتَقَر عنده ما ترك مِن لذة المعاصي الظاهرة، كما تَهُون وتَسهُل عليه أعظم المَشَقَّات في بذل العلم، وطول التَّعَبُّد، وهو بذلك يظن أن حياته لله وبالله، والواقع أن حياته بهذه الشهوة الخفية، والداء الدَّفِين في صدره، والله المستعان.

والمقصود مِن إيراد ذلك كله: أن يُجاهِد المؤمن نفسه ليكون عمله خالصًا لله تعالى، وليس المُراد أن الإخلاص عزيز المَرَام، فإن الله جعله شرطًا لقبول الأعمال، ولا يكون ذلك إلّا فيما يكون مقدورًا للمُكلفين وفي وُسْعهم.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٧٥).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/٢٧٥).

ثَمَرَاتُ الإِخْلَاصِ وَآثَارُهُ السُّلُوكِيَّة

وهذه الآثارُ على قسمَيْن:

- آثارٌ معجَّلةٌ تحصُلُ للعبد في الدنيا.
- وآثارٌ مؤجَّلةٌ يجدُها في آخرتِه.

❊ ❊ ❊

الآثارُ المُعجَّلةُ للإخلاصِ

وهي كثيرةٌ جِدًّا، ومنها:

أولًا: أنَّ الإخلاصَ هو أصلُ القَبُول عند الله ﷻ:

بحيثُ إنه إذا أُلبِسَهُ أيُّ عملٍ - ولو كان مِن المباحات والعادات - تحوَّل إلى عبادةٍ وقُرْبة، فإذا قام العبدُ بشيءٍ من الأمورِ المباحة؛ كالنوم، أو الأكل، أو الشرب، أو المَشْي، أو غير ذلك، يريدُ به التقرُّب إلى الله ﷻ؛ كأن يقوِّيَ بدنَهُ ليُجاهِدَ في سبيلِ الله، أو ينامَ في النهارِ ليقومَ مِن الليل، أو يأكُلَ ليتقوَّى على الطاعة -: صارت تلك المباحاتُ في حقِّه قُرُبات؛ وعلى هذا كان السلف.

قال زُبَيْدٌ اليامِيّ: «يَسُرُّني أن يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ حتى في الأكل والنوم»[١]؛ وسيأتي في ذكر حال السلف ما يتعلَّقُ بهذا المعنى.

وهذا الأثر هو أعظم ثمرات الإخلاص وأجلُّها، وهو روح القُرْبى، ولباس التقوى.

ثانيًا: إلقاءُ القَبُولِ لصاحبِهِ في الأرض، مع وفور المَهَابة في قلوب الخَلْق:

قال ابن القيِّم: «وقد جَرَتْ عادةُ اللهِ التي لا تبدَّلُ، وسنتُهُ التي لا تحوَّلُ: أن يُلبِسَ المخلِصَ - مِن المهابة والنُّور والمحبَّة، في قلوب الخَلْق وإقبال قلوبهم إليه - ما هو بحَسَبِ إخلاصه ونيَّته ومعامَلته لربِّه، ويُلبِسَ المرائِيَ اللابسَ ثَوْبَي الزُّور - مِن المقت والمهانة والبِغْضة - ما هو اللائقُ به؛ فالمخلِصُ: له المهابةُ والمحبَّة، وللآخَرِ: المقتُ والبغضاء»[٢].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٩٥)، والفسوي في «تاريخه» (٢/٧١٤)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٨٩)، والخطيب في «الجامع لآداب الراوي» (٦٩٦).

(٢) «إعلام الموقعين» (٦/١٠٦).

ولذلك: فمَن كان مِن أصحاب الإخلاص، فإنَّ الله يَجعَلُ له في عمله القَبُولَ، ويَعُمُّهُ بالخير والبَرَكة.

فقد قيل لحَمْدون بن أحمد القَصَّار: «ما بال كلام السلف أنفَع مِن كلامنا؟ قال: لأنهم تكلَّموا لِعِزِّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلَّم لعِزِّ النفس، وطلب الدنيا، وقَبُول الخلق»(١).

وحينما ألَّف الإمام مالك «الموطَّأ»، قيل له: «شَغَلْتَ نَفْسَكَ بعمل هذا الكتاب، وقد شرَكَكَ فيه الناس، وعَمِلوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عَمِلوا، فأُتِيَ بذلك، فنظَرَ فيه، ثم نبذه، وقال: لَتَعْلَمُنَّ أنه لا يرتفِعُ مِن هذا إلّا ما أريد به وجهُ الله»(٢).

وذكر ابن عَقِيل الحنبلي: أن أبا إسحاق الفيروزآبادي كان: «لا يُخرِجُ شيئًا إلى فقيرٍ إلّا أحضَرَ النيَّة، ولا يتكلَّم في مسألة إلّا قدَّم الاستعانةَ بالله، وإخلاصَ القصد في نصرة الحق، دون التزيُّن والتحسين للخلق، ولا صنَّف مسألة إلّا بعد أن صلى ركعات؛ فلا جرَمَ شاع اسمه، واشتهَرَتْ تصانيفه شرقًا وغربًا؛ هذه بَرَكات الإخلاص»(٣).

وعن ابن السَّمَّاك؛ قال: «قال ذَرٌّ لأبيه عمر بن ذَرٍّ: ما بالُ المتكلِّمين يتكلَّمون فلا يبكي أحد، فإذا تكلَّمْتَ يا أبتِ، سمعتُ البكاء مِن ههنا وههنا؟! فقال: يا بُنَيَّ! ليستِ النائحةُ المستأجَرَةُ، كالنائحةِ الثَّكْلَى»(٤).

ثالثًا: أنَّ الإخلاصَ هو الطريقُ إلى مَحَبَّةِ الله ﷻ ونصرِهِ ورعايتِه:

فالله ﷻ يقول عن أهل بَيْعة الرضوان: ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٣١).

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (١/٨٦).

(٣) «بدائع الفوائد» (٣/١١٢٢).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٥٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١١٠)؛ واللفظ له.

يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]؛ فرتَّب إنزال السكينة عليهم وإثابَتَهم فتحًا قريبًا، على عِلْمِهِ بما في قلوبِهم من إخلاص وصدق وصِحَّة إرادة وقَصْد، ومعلوم: أن الحكم المرتَّب على وصفٍ يزيدُ بزيادته، وينقُصُ بنقصانه؛ فكلما زاد إخلاص العبد، زادت هذه الأمور التي تتنزَّل عليه من نَصْر الله ﷻ، وطمأنينة القلب، وسكينة النَّفْس.

والتعقيب بالفاء في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، بعد قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، يَدُلُّ على أن سبب نزول السكينة عليهم، وسبب إثابتهم هذا الفتحَ القريبَ: هو عِلْمُهُ بما في قلوبِهم من إخلاص؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الإخلاص سببٌ للانتصار على العَدُوّ، ونزولِ السكينة في قلوب المؤمنين؛ سواءٌ عند القتال، أو عندما يُرجِفُ بهم الناس من كلِّ جانب، ويخوِّفونهم بالذين مِن دونه ﷻ.

وفي الحديث: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا؛ بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»(١).

ولهذا ينبغي للمجاهِدين أن يُخبِتوا لله ﷻ، ويُراقِبوا مقاصِدَهم ونيَّاتهم، وألَّا يصدُرَ منهم قولٌ ولا فِعْلٌ ينافي الإخلاص؛ لأنهم قد يُهزَمُون بسبب هذه المقاصد والإرادات السيِّئة؛ فإياك يا عبد الله، أن يَشتَدَّ بأسُك ووعيدُك وتهديدُك على العدو، مِن أجل معنًى فاسدٍ في نفسك، وإياك أن تُهرولَ إلى ساحات الوغى، وتُلقِيَ بنَفْسك إلى تلك الأهوال، وليس لك في ذلك نيَّةٌ حَسَنة.

---

(١) أخرجه النسائي (٣١٧٨)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٤٠٩/٢)، وقال: «على شرط الشيخَيْن»، وأصله في البخاري (٢٨٩٦) مختصرًا، بلفظ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟!».

رابعًا: بالإخلاصِ يكثُرُ العملُ ويتعاظَمُ:

فالإخلاصُ يكثُرُ به قليلُ العمل، ويعظُمُ به حقيرُهُ وصغيره؛ لأنَّ الله ﷻ ينمِّيه لصاحبِه ويبارِكُ له فيه، حتَّى إنه لَيَجِدُ ذلك العملَ يوم القيامة فوق ما يَحتسِب.

ويدلُّ لذلك: حديثُ أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الجَبَلِ؛ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ»(١).

وهذا مع زكاةِ الصدقةِ وطِيبِها فلتمامِ الإخلاص؛ ولذلك تجدُ أكثرَ آفات التصدُّق من الرياء.

وتجد بعض الناس يَعمَلون أعمالًا هي في أعيُنِ أصحاب الهِمَم حقيرة، ثم ما تَلبَثُ أن تَحِلَّ بها من بَرَكات الله ما يعظُمُ بها حقيرُها، ويكثُرُ بها قليلُها، وتُحمَدُ بها آثارُها، فليست العِبْرةُ بالكَثْرة؛ قال أبو بكر بن عيَّاش: «ما سبَقَكم أبو بكرٍ بكَثْرةِ صوم ولا صلاة، ولكنْ بشيءٍ وقَرَ في قلبِه»(٢).

وتجدُ آخَرِينَ يعملونَ أعمالًا كبيرةً، ويُنفِقُونَ لأجلِها أموالًا كثيرةً، ولا يكادُ ينتفِعُ بها أحدٌ؛ لأنَّ الله لم يبارِكْ فيها؛ فإنَّ مِن أَطَمِّ الرزايا سُوءَ النية.

ولهذا يقولُ ابنُ المبارَك: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيَّة، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيَّة»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤)؛ واللفظ له.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٣٠٢/١)، و«المنار المُنيف» (ص١١٥)، وأخرجه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٨)، وأورده الحكيم الترمذي في «النوادر» (ص٢٦١، ٣٤٥)، والسَّفَّاريني في «غذاء الألباب» (٤٨/١)؛ من قول بكر المُزَني. ويُروَى مرفوعًا، ولا أصل له؛ قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢٣/١): «لم أجده مرفوعًا». وانظر: «غاية النهاية» (١٣٢٧)، و«الضعيفة» (٩٦٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

وكان أحدُ السلفِ يُوصي بعضَ إخوانه فيقولُ: «أَخلِصِ النيةَ في أعمالِكَ يَكْفِكَ القليلُ مِن العمل»(١).

وقد أخبرَنا ربُّنا ﷻ عن المجاهِدِينَ الصادِقين، فقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فأعمالُ المجاهِدِينَ لا يُكتَبُ منها ما زاولوه عند مواجَهةِ العدِّو فقطْ، وإنما يُكتَبُ لهم كلُّ عملٍ عملوه بمجرَّدِ الخروجِ مِن بيوتِهم حتى يَرجِعوا، بل يُكتَبُ لهم كلُّ شيءٍ زاولوه وعملوه ولو لم يَلْقَوْا عدوًّا، أو يُشهِرُوا سلاحًا.

وهكذا: كلُّ مَن خرَجَ في طاعةِ الله ﷻ؛ كمَن خرَجَ حاجًّا أو معتمِرًا؛ فكلُّ نفقةٍ أنفقَها، وكلُّ خُطْوةٍ خطاها تُكتَبُ له في صحيفةِ أعمالِه.

وكذا: مَن توجَّه إلى مسجِدِه، أو إلى مدرستِه، أو إلى أيِّ مكانٍ للدعوة إلى الله ﷻ؛ فإنه يُؤجَرُ على ذلك، ويُكتَبُ له مَمشَاهُ، وتُكتَبُ له نفقَتُهُ وكلُّ ما فعله على أصل نيَّته ومَخرَجِهِ هذا.

ويبيِّن ذلك قول النبي ﷺ: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَانًا بِاللهِ وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: فَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَلِرَجُلٍ وِزْرٌ؛ فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَيُعِدُّهَا لَهُ؛ فَلَا تُغَيِّبُ شَيْئًا فِي بُطُونِهَا إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ أَجْرًا، وَلَوْ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣٧٨/٤)، وقد رُوِيَ مرفوعًا من حديث معاذ ﷺ؛ أخرجه الحاكم (٣٠٦/٤)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٦٤٤٣، ٦٤٤٤)، وصحَّحه الحاكم، وضعَّفه البيهقي، والألباني في «الضعيفة» (٢١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٣)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

رَعَاهَا فِي مَرْجٍ، مَا أَكَلَتْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا أَجْرًا، وَلَوْ سَقَاهَا مِنْ نَهْرٍ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ قَطْرَةٍ تُغَيِّبُهَا فِي بُطُونِهَا أَجْرٌ -حتى ذكَرَ الأجرَ في أبْوَالِها وأَرْوَاثِها- وَلَوِ اسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا أَجْرٌ»(١).

وقال داود الطائي: «رأيتُ الخيرَ كلَّه إنما يَجمَعُهُ حُسْنُ النيَّة، وكفاك بها خيرًا وإن لم تَنصَبْ»(٢).

خامسًا: صاحب الإخلاص يثبُتُ على العمل، ولا ينقطِع عن دَأبِهِ فيه:

فالإخلاص يَمُدُّ أصحابه بقوَّة الاستمرار؛ لأن الذي يَعمَلُ لغير الله سَرْعانَ ما ينقطِعُ إذا لم يجد ما يَسُدُّ شهوته، ويحصِّلُ به بغيته، وأمَّا الذي يَعمَلُ لوجه الله، فوجهُ الله باقٍ إذا غابت الوجوه؛ ولهذا قيل: «ما كان لله دام واتصَلْ، وما كان لغير الله انقطَعَ وانفصَلْ».

ونكتة المسألة: أن المُخلِصَ مُوقِنٌ بالعطاء، راضٍ بالنَّسَاء، محتسِبٌ عند البلاء، وأمَّا العاملُ لطلَبِ نَوْلٍ ينقطِع؛ فإنه ينقطِعُ بانقطاعه، أو لإقبال وجه ينصرِف؛ فإنه ينصرِفُ بانصرافه؛ فأين هذا ممن يَعمَلُ لوجهٍ لا ينصرِفُ حين تنصرِفُ الوجوه، ولنَوْلٍ لا ينقطِعُ حين ينقطِعُ النَّوال؟!

سادسًا: ما يجده صاحبُهُ مِن إجابةِ الدعاء، وانشراحِ الصدر، والسعادةِ الغامرة، واللَّذَّةِ التي لا تدانيها لَذَّة:

يقول شيخ الإسلام - وهو يذكُرُ درجاتِ الناس فيما يجدونه من ثَمَراتِ التوحيدِ والإخلاصِ والتوكُّل -: «ومنهم: مَن وجَدَ حقيقة الإخلاص، والتوكُّل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقَطْعِ التعلُّقِ بما سواه، وجرَّب مِن نفسه: أنه إذا تعلَّق بالمخلوقين ورجاهم وطَمِعَ فيهم أن يَجلِبُوا له

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٦٤).

منفعةً أو يَدفعُوا عنه مضرَّة، فإنه يُخذَلُ مِن جهتهم، ولا يحصُلُ مقصوده، بل قد يبذُلُ لهم من الخِدْمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقتَ حاجته إليهم فلا ينفعونه؛ إمَّا لِعَجْزِهم، وإمَّا لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجَّه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدِّين، أجاب دعاءه، وأزال ضَرَره، وفتح له أبواب الرحمة؛ فمِثْلُ هذا قد ذاق من حقيقة التوكُّل والدعاء لله ما لم يَذُقْ غيره.

وكذلك: مَن ذاق طعم إخلاصِ الدِّين لله، وإرادةِ وجهه دون ما سواه، يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده مَن لم يكن كذلك، بل مَن اتبع هواه في مثل طلب الرياسة والعُلوّ، وتعلُّقِهِ بالصور الجميلة، أو جمعِهِ للمال، يَجِدُ في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبَّرُ عنه، وربما لا يطاوِعُهُ قلبه على ترك الهوى، ولا يحصُلُ له ما يَسُرُّه، بل هو في خوف وحزن دائمًا، إنْ كان طالبًا لما يهواه، فهو قبل إدراكه حزينٌ متألِّمٌ؛ حيث لم يحصُلْ، فإذا أدركه، كان خائفًا مِن زواله وفِرَاقه.

وأولياءُ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنُون؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوةَ الإخلاص لله والعبادة، وحلاوةَ ذكرِه ومناجاتِه وفهمِ كتابه، وأسلَمَ وجهه لله وهو محسِن؛ بحيث يكون عمله صالحًا، ويكون لوجه الله خالصًا؛ فإنه يَجِدُ من السرور واللذَّة والفَرَح ما هو أعظَمُ مما يَجِدُهُ الداعي المتوكِّلُ الذي نال بدعائه وتوكُّله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفَعَ عنه ما يَضُرُّه؛ فإن حلاوة ذلك هي بحَسَب ما حصل له من المنفعة، أو اندفَعَ عنه من المضرَّة، ولا أنفَعَ للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أَضَرَّ عليه من الإشراك، فإذا وجَدَ حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، مع حقيقة التوكُّلِ التي هي حقيقة: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كان هذا فوقَ ما يجده كلُّ أحد لم يَجِدْ مثلَ هذا، والله أعلم»[(١)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٥٠-٦٥٢).

ويقول ابن حَزْم: «إذا تعقَّبْتَ الأمور كلها، فسَدَتْ عليك، وانتهَيْتَ في آخر فِكْرَتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا إلى أن الحقيقة إنما هي العملُ للآخرة فقطْ؛ لأنَّ كل أملٍ ظَفِرْتَ به، فعقباه حُزْن؛ إمَّا بذَهَابه عنك، وإمَّا بذَهَابك عنه، ولا بد من أحد هذَيْنِ الشيئين، إلّا العمَلَ لله ﷻ؛ فعقباه على كل حالٍ سرورٌ في عاجل وآجل؛ أمَّا العاجل: فقلَّة الهَمِّ بما يهتَمُّ به الناس، وإنك به معظَّمٌ من الصديق والعدو، وأما في الآجل: فالجَنَّة»[١].

وهذا أمر يجده كلُّ أحدٍ مِن نفسه؛ فالذي يَعمَلُ وهو يتطلَّع للآخرين، فإن قلبه يَحترِق؛ لأنهم قد يَرضَوْنَ عن فعله، وقد لا يَرضَوْنَ؛ فلا يزال قلبه معلَّقًا بهم، يراقِبُ حركاتِهم وسكناتِهم، وينظُرُ في ألفاظهم، ويستغرِقُ في فكره متسائلًا: هل هم راضون عنه، أو أنهم ساخطون عليه؟ ومعلوم: أن رضا الناس غاية لا تُدرَك، فيبقى العبد وقلبه يتماوَجُ في قَلَقِه، فإذا حصَّل بغيَتَهُ أبْأَسَتْهُ مخاوفُ الانقطاع، وأقلقته هواجسُ النفس: هل يستمِرُّ له هذا الرضا والقَبُول؟ وهل يَدُومُ ذلك التقدير والإكرام، أو أنه سينقطع ويزول؟!

ولا أروَحَ لقلب العبد من أن يتعلَّق بالله ﷻ؛ فيكون الله هو مقصوده، وتَنشغِلَ همَّته في طلب مرضاته؛ فحينئذٍ: يستريحُ القلب من عَنَت تلك الوجوه؛ بمَن عَنَتْ له تلك الوجوه؛ فهذا اللهُ غايةُ مُبتغاه؛ وبهذا تحصُلُ له السعادة والطمأنينة؛ فلا يَقلَقُ إذا قَلِقَ الناس، ولا يَحزَنُ إذا حَزِنَ الناس؛ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

سابعًا: استقامة أحوال المجتمَعات، وصلاح الراعي والرعيَّة:

فإذا صلَحَتْ نيات الناس، صلَحَتْ أمورهم، واعتدَلَتْ أحوالهم؛ كما قال شيخ الإسلام: «ومِلَاكُ ذلك كلِّه: صلاحُ النيَّة للرعيَّة، وإخلاصُ الدِّينِ كلِّه لله، والتوكُّلُ عليه؛ فإن الإخلاص والتوكُّل جِمَاعُ صلاح الخاصَّة والعامَّة»[٢].

---

(١) «الأخلاق والسير» (ص ٧٥- ٧٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٣٦١).

ثامنًا: صاحبَ الإخلاصِ يكفيه الله ﷻ من وجوهٍ عِدَّةٍ؛ ومن ذلك:

١ - أن الله ﷻ يكفيه أَمْرَ الناس؛ فلا يَصِلُهُ شيء منهم يكرهه:

قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

ولفظُ «عَبْد»: مفرَدٌ أضيفَ إلى معرفة، وهو الضمير، والمفرَدُ إذا أضيفَ إلى معرِفةٍ، أكسَبَتْهُ العموم، والمعنى: أليس الله بكافٍ عبادَهُ، وهي قراءة سبعيَّة أيضًا[(١)].

والمقصود: أن الله ﷻ ذكَرَهُ هنا بالعبوديَّة التي أضافها إلى نفسه، ولم يَقُلْ: أليس الله بكافٍ خَلْقَهُ، أو أليس الله بكافٍ محمدًا، وإنما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؛ ليَدُلَّ ذلك على أن سِرَّ الكفاية هو تحقيق العبوديَّة، ولا تتحقَّق العبوديَّة إلّا بتمام الإخلاص، ثم اللهُ يعجِّلُ لعبده ألوان الكفاية بقَدْرِ ما عنده من تحقيق العبوديَّة؛ لأن الحُكْمَ المرتَّب على وَصْفٍ يزيدُ بزيادته، وينقُصُ بنقصانه كما تقدَّم، فكلما ازدادت عبوديَّة العبد لله، ازدادت كفاية الله ﷻ له.

وعن عامر الشَّعْبي؛ قال: كتب عمر إلى أبي موسى ﵄: «مَن خَلُصَتْ نيَّته في الحقِّ ولو على نَفْسِه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن لهم بما ليس في قَلْبه، شانه الله»[(٢)].

قال ابن القيِّم: «هذا شَقِيقُ كلامِ النبوَّة، وهو جدير بأن يخرُجَ من مِشْكاةِ

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/٢٨٠)، و«الكشف عن وجوه القراءات» (٢/٢٣٩)، و«حجة القراءات» (ص٦٢٣).

(٢) أخرجه هنَّاد في «الزهد» (٨٥٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/٥٠)، وأخرجه البيهقي في «الكبرى» (١٠/١٥٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/٧١)؛ واللفظ لهما، وابن عبد البر في «الاستذكار» (٢٢/٣٢)؛ من طرق كلِّها منقطِعة، لكن قال ابن عبد البر: «وهذا الخبر رُوِيَ عن عمر بن الخطاب ﵁ من وجوه كثيرة؛ من رواية أهل الحجاز، وأهل العراق، وأهل الشام ومصر؛ والحمد لله».

المحدَّثِ المُلْهَم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومَن أحسَنَ الإنفاقَ منهما، نفَعَ غيره، وانتفع غاية الانتفاع.

فأما الكلمة الأولى: فهي مَنبَعُ الخير وأصله.

والثانية: أصل الشر وفَصْلُه.

فإن العبد إذا خَلُصَتْ نيَّته لله تعالى، وكان قصده وهمُّه وعمله لوجهه سبحانه، كان الله معه؛ فإنه سبحانه: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، ورأسُ التقوى والإحسان: خلوصُ النيَّة لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له؛ فمَن كان معه، فمن ذا الذي يَغْلِبُهُ أو يناله بسوء؟! فإنْ كان الله مع العبد، فمَن يخاف؟! وإنْ لم يكن معه، فمَن يرجو؟! وبمَن يَثِق؟! ومَن ينصُرُهُ مِن بعده؟! فإذا قام العبد بالحقِّ على غيره، وعلى نَفْسه أولًا، وكان قيامه بالله ولله، لم يَقُمْ له شيء، ولو كادته السموات والأرض والجبال، لكفاه الله مُؤْنتَها، وجعَلَ له فَرَجًا ومَخرَجًا.

وإنما يُؤتَى العبدُ مِن تفريطِهِ وتقصيره في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنَيْن منها، أو في واحد:

فمَن كان قيامه في باطل، لم يُنصَر، وإنْ نُصِرَ نصرًا عارضًا، فلا عاقبةَ له، وهو مذموم مخذول.

وإنْ قام في حق، لكنْ لم يَقُمْ فيه لله، وإنما قام لطَلَبِ المَحمَدةِ والشكورِ والجَزَاءِ من الخَلْق، أو التوصُّلِ إلى غَرَض دنيوي كان هو المقصودَ أولًا، والقيامُ في الحق وسيلةً إليه -: فهذا لم تُضْمَنْ له النُّصْرة؛ فإنَّ الله إنما ضَمِنَ النُّصْرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه؛ فإنه ليس من المَتَّقِين، ولا من المحسِنين، وإن نُصِرَ فبحَسَب ما معه من الحق؛ فإن الله لا ينصُرُ إلّا الحق، وإذا كانت الدَّوْلة لأهل الباطل فبحَسَب ما معهم من الصبر، والصبرُ منصور أبدًا، فإنْ كان صاحبه محقًّا، كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مُبطِلًا، لم يكن له عاقبة.

وإذا كان العبد في الحقِّ للهِ، ولكنْ قام بنفسِهِ وقوَّته، ولم يَقُمْ بالله مستعينًا

به، متوكِّلًا عليه، مفوِّضًا إليه، بريًّا من الحول والقوة إلّا به -: فله من الخِذْلان وضعفِ النصرة بحَسَب ما قام من ذلك.

ونكتةُ المسألة: أن تجريدَ التوحيدَيْنِ في أمر الله لا يقوم له شيء ألبتَّةَ، وصاحبه مؤيَّد منصور، ولو توالت عليه زُمَرُ الأعداء»(١).

وعن عَوْن بن عبد الله؛ قال: «كان الفقهاء يتواصَوْنَ بينهم بثلاث، ويكتُبُ بذلك بعضُهم إلى بعض: مَن عَمِل لآخرته، كفاه الله دنياه، ومَن أصلَحَ سريرتَهُ، أصلَحَ الله علانيته، ومَن أصلَحَ ما بينه وبين الله، أصلَحَ الله ما بينه وبين الناس»(٢).

فإيَّاك أن تَعبأَ بالناس، أو تلتفِتَ إليهم، أو تتجمَّل لهم بعملك؛ فاللهُ يكفيك شأن الناس؛ إن أنت وَثِقْتَ به ولم تَعمَلْ إلّا لوجهه سبحانه.

٢ - أن الله يُنجِي صاحبَ الإخلاصِ عند الشدائد والكروب، ويَجعَلُ له مِن بعد كربِهِ فَرَجًا، ومِن بعد حزنِهِ فَرَحًا:

ففي خبر عِكْرِمة بن أبي جَهْل ﷺ، لما فتح النبي ﷺ مكة؛ أنه فَرَّ إلى اليمن، فركِبَ البحرَ، «فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلِصُوا؛ فإنَّ آلهتكم لا تُغني عنكم شيئًا ها هنا، فقال عِكْرِمة: واللهِ، لئن لم ينجِّني من البحرِ إلّا الإخلاصُ لا ينجِّيني في البَرِّ غيره، اللهم، إنَّ لك عليَّ عهدًا إنْ أنت عافَيْتَني مما أنا فيه: أنْ آتي محمدًا ﷺ، حتى أضع يدي في يده؛ فلأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كريمًا، فجاء فأسلَمَ»(٣).

فمَنِ الذي أنجاهم؟! وما الذي كان يستقِرُّ في نفوسهم؟! لقد ضَلَّ عنهم ما

---

(١) «إعلام الموقِّعين» (٣/٤٣٠-٤٣١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨٤٨/١)؛ واللفظ له، وأخرجه وكيع في «الزهد» (٥٢٥) مختصرًا.

(٣) أخرجه أبو داود مختصرًا دون الشاهد (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٦٧)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص ﷺ، وصحَّحه الضياء في «المختارة» (١٠/١٠٥٤)، وشيخ الإسلام في «الصارم المسلول» (٢/٢٢٥)، والألباني في «الصحيحة» (١٧٢٣).

كانوا يَدْعُونه من قبلُ، وعلموا أن شدائد المِحَنِ وأهوالَ الكروب ليس لها إلّا الله؛ فاضطرَّتْ قلوبهم لخالقها، وانكشَفَ السِّتْر عن فقرٍ لا بد منه إلى ألطاف الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وهذا إبراهيم ﷺ لما اعتزَلَ قومه وهَجَرهم في الله، قال الله تعالى في حقِّه: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]، فكان كما قال النبي ﷺ: «إنَّك لَنْ تَدعَ شَيْئًا لله إلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»(١)؛ فإبراهيم ﷺ تركَ الوطنَ والعشيرةَ لله وفي الله، فعوَّضه الله ﷻ من الذُّرِّيَّة ما تَقَرُّ به عينه مما يُنسِيهِ الوطن والعشيرة(٢).

فالعبد إنْ كان له خبيئةٌ مِن عمل صالح؛ من صلاة أو صَدَقة أو معروف لا يَطَّلِعُ عليها إلّا الله ﷻ، فإنها تبلِّغُهُ رضوانه سبحانه؛ كما أنها تكون سببًا لنجاته من كثير من الكروب، وسببًا لتثبيته عند الشدائد ومَوَاطِن الابتلاءات؛ فقد يُمْشَطُ بأمشاط من حديد، ومع ذلك يَثْبُت، فيعوِّضه الله ﷻ ألوانًا من اللذَّات وانشراح الصدر؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُسْتاني في صدري؛ إنْ رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقُني، إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بَلَدي سِيَاحة»(٣)، وكان يقول في مَحبَسِهِ في القلعة: «لو بَذَلْتُ مِلْءَ هذه القلعةِ ذهبًا، ما عدلَ عندي شكرَ هذه النعمة»(٤).

وقد يكون العبد في الظاهر من الصالحين والأتقياء، أو الدعاة والآمِرين

---

(١) أخرجه أحمد (٧٨/٥، ٧٩، ٣٦٣)؛ من حديث رَجُلٍ من أهل البادية ﷺ، وصحَّحه الألباني في «الضعيفة» (٦٢/١). وفي الباب: عن ابن عمر مرفوعًا، وأُبَيّ بن كعب موقوفًا، وغيرهما. انظر: «الضعيفة» (٥)، و«حاشية المسند» (٣٤/٣٤٢-٣٤٣).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٣٦/٥-٢٣٧)، و«القواعد الحسان» (ص١٣٦ - ١٣٧).

(٣) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩).

(٤) المصدر السابق.

بالمعروف والناهِين عن المنكَر، أو له أعمال صالحة كثيرة، لكن ليس له خبيئة حَسَنة، أو إخلاصُهُ قليل، أو له خبيئة سيِّئة مِن عمل سيِّئ بالسِّرّ، فإذا ابتُلِيَ وامتُحِنَ، سقَطَ وخُذِل، ولربما انكَسَر، أو ترَكَ الطريق التي كان يسير عليها لِيَصِلَ بها إلى الله ﷻ، فيَرجِع ويَنتكِس أحوَجَ ما يكون إلى لُطْفِ الله ورعايته وحفظه، وكم مِن إنسان خُذِل! وكم مِن جيوش هُزِمَتْ بسبب المقاصد والخبايا السيئة!

ولهذا قال عبد الله بن داود الخُرَيْبي: «كانوا يَستحِبُّونَ أن يكون للرجل خبيئةٌ مِن عمل صالح لا تَعلَمُ به زوجتُهُ ولا غيرها»[(١)].

وقال الزُّبَيْر بن العوَّام رضي الله عنه: «مَن استطاع منكم أن تكونَ له خبيئةٌ مِن عملٍ صالح، فلْيَفْعَلْ»[(٢)].

وقال نُعَيْم بن حماد: سمعتُ ابن المبارَك يقول: «ما رأيتُ رجلًا ارتفَعَ مثلَ مالك بن أنس، ليس له كثير صلاة، ولا صيام، إلّا أن تكونَ له سريرةٌ»[(٣)].

وقال أبو حازم سَلَمة بن دينار: «لا تُعَادِيَنَّ رجلًا ولا تُنَاصِبَنَّهُ حتى تنظُرَ إلى سريرتِهِ بينه وبين الله ﷻ؛ فإنْ تكن له سريرة حَسَنة، فإنَّ الله تبارك وتعالى لم يكن يَخذُلُهُ بعَدَاوَتِك له، وإنْ كانت له سريرةٌ رديئة، فقد كفاك مَساوِئَه، ولو أردتَّ أن تَعمَلَ به أكثَرَ من معاصي الله، لم تَقدِرْ»[(٤)].

---

(١) «تهذيب الكمال» (١٤/٤٦٤).

(٢) أخرجه ابن الجعد (٧٠١)؛ واللفظ له، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (١٣/٣٦٣)، وأحمد في «الزهد» (ص ١٤٤)، ووكيع (٢٥٢)، والمروزي (١١٠٩)، وأبو داود (١١٩-١٢٠)، وهنَّاد بن السري (٨٧٨)؛ كلُّهم في «الزهد»، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٢٤٠)، والضياء (٣/٧٧/٨٨٣) موقوفًا، وصحَّحه الدارقطني موقوفًا في «العلل» (٤/٢٤٥)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٧٦)، وقد رُوِيَ مرفوعًا؛ أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١١/٢٦٣)، والضياء (٣/٧٨/٨٨٤)، وصحَّحه الذهبي في «تلخيص العلل» (٨٩٩)، وصحَّحه الألباني مرفوعًا في «الصحيحة» (٢٣١٣) بشاهد له من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٣٠).

(٤) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٠٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/٦١)؛ واللفظ له.

قال ابن الجوزي: «واللهِ، لقد رأيتُ من يُكثِرُ الصلاة والصوم والصَّمْت، ويتخشَّع في نَفْسه ولباسه، والقلوبُ تنبو عنه، وقَدْرُهُ في النفوس ليس بذلك، ورأيتُ مَن يلبس فاخر الثياب، وليس له كبيرُ نَفْل، ولا يتخشَّع، والقلوبُ تَتهافَتُ على محبَّته، فتَدَبَّرْتُ السبب، فوجدتُّه السريرة؛ كما رُوِيَ عن أنس بن مالك[١]: أنه لم يكن له كبير صلاة وصوم، وإنما كانت له سريرة؛ فمَن أصلَحَ سريرته، فاح عَبِيرُ فضله، وعَبِقَتِ القلوب بنَشْرِ طِيبه، فاللهَ اللهَ في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادِها صلاح ظاهر»[٢].

٣ - أن الله ﷻ يَصرِفُ عنه الخواطرَ المُرْدِية، والوساوسَ المسلَّطة:

كما قال أبو سُلَيْمان الدَّارَاني: «إذا أخلَصَ العبد، انقطَعَتْ عنه كثرةُ الوساوس والرياء»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «فقد تبيَّن: أن إخلاص الدين لله يمنع مِن تسلُّط الشيطان، ومِن وَلَايةِ الشيطان التي توجب العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإذا أخلص العبدُ لربه الدِّين، كان هذا مانعًا له مِن فِعْلِ ضدِّ ذلك، ومِن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يُخلِصْ لربه الدِّينَ، ولم يَفعَلْ ما خُلِقَ له وفُطِرَ عليه، عُوقِبَ على ذلك، وكان مِن عقابه: تسلُّطُ الشيطان عليه، حتى يزيِّنَ له فِعْلَ السيِّئات، وكان إلهامُهُ لفجوره عقوبةً له على كونه لم يَتَّقِ الله»[٤].

---

(١) الصواب: مالك بن أنس؛ كما تقدَّم.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٢٢٠).

(٣) «الرسالة القُشَيْرية» (٢/٣٦٢)، ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٤/٣٣٢-٣٣٣).

٤ - أن المخلِصَ يُكْفَى الغِلَّ والحسَدَ والغِشَّ لإخوانِهِ المسلمين:

فيكونُ قلبه نَقِيًّا طاهرًا سليمًا لإخوانه؛ والقلب كثير الشواغل، يَنصرِف عن الخير لأدنى مُلابَسة، والإخلاصُ كفيلٌ بأن يصفِّيَ القلب، ويُمِيلَهُ إلى مولاه؛ يقول النبي ﷺ: «ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يُغَلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ العَمَلِ للهِ...»؛ الحديثَ(١).

قال ابن القيِّم: «أي: لا يَحمِلُ الغِلَّ، ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغِلَّ، والغِشّ؛ وهو فساد القلب وسَخَائِمه؛ فالمخلِصُ لله إخلاصه يمنعُ غِلَّ قلبه، ويُخرِجه ويُزيلُهُ جملةً؛ لأنه قد انصرَفَتْ دواعي قلبه وإرادته إلى مَرْضاة ربه، فلم يبقَ فيه مَوضِعٌ للغِلِّ والغِشّ؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فلما أخلَصَ لربه، صرَفَ عنه دواعي السوء والفحشاء؛ فانصرَفَ عنه السوء والفحشاء؛ ولهذا لما عَلِمَ إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص، استثناهم من شَرْطَتِهِ التي اشترطها للغوَاية والإهلاك؛ فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام هو مَرْكَبُ السلامة، والإيمان خاتَمُ الأمان»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨٣/٥)، وابن ماجه بنحوه (٢٢٩)؛ من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وأخرجه الترمذي (٢٦٥٨)؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٦٧)، والألباني في «الصحيحة» (٤٠٤)، وقوَّاه العلائي في «جامع التحصيل» (ص٥١)، وأصل الحديث مذكور ضمن الأحاديث المتواترة. انظر دراسة للشيخ العَبَّاد لهذا الحديث، وهي مفرَدة مطبوعة. وفي الباب: عن أنس، وجُبَيْر بن مُطعِم، ومعاذ بن جَبَل، وأبي سعيد الخدري، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٧٧/١).

٥ - أن الله يَصرِفُ عنه السوءَ والفحشاءَ بإخلاصِه:

يقول شيخ الإسلام: «وكلَّما حقَّق العبدُ الإخلاصَ في قول: لا إله إلّا الله، خرَجَ من قلبه تألُّهُ ما يَهْوَاه، وتُصرَفُ عنه المعاصي والذنوب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فعلَّل صَرْفَ السوء والفحشاء عنه بأنَّه من عباد الله المخلَصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣].

وقد ثبَتَ في الحديث، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ»[1]؛ فإنَّ الإخلاص ينفي أسباب دخول النار؛ فمَن دخَلَ النار مِن القائلين: لا إله إلّا الله، لم يحقِّقْ إخلاصها المحرِّمَ له على النار، بل كان في قلبه نوعٌ مِن الشرك الذي أوقعه فيما أدخَلَهُ النار، والشرك في هذه الأُمَّة أخفى من دبيب النَّمْل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والشيطان يأمر بالشرك، والنفس تُطِيعُهُ في ذلك؛ فلا تزالُ النفس تَلتفِتُ إلى غير الله؛ إما خوفًا منه، وإما رجاءً له؛ فلا يزال العبدُ مفتقِرًا إلى تخليصِ توحيده من شوائب الشرك»[2].

ويقول ابن القيِّم: «أصول المعاصي كلُّها كبارها وصغارها ثلاثة:

- تعلُّقُ القلبِ بغير الله.
- وطاعةُ القوَّة الغضبيَّة.
- والقوةِ الشَّهوانية.

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٦٠)؛ من حديث معاذ رضي الله عنه، وصحَّح إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣/٢٩٩)، وأخرج نحوه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٦٣)؛ من حديث عِتْبان بن مالك رضي الله عنه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٦٠-٢٦١).

وهي: الشرك، والظلم، والفواحش؛ فغاية التعلُّق بغير الله: الشرك، وأن يُدْعَى معه إله آخر، وغاية طاعة القوَّة الغضبيَّة: القتل، وغاية طاعة القوَّة الشهوانية: الزِّنَا؛ ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]؛ وهذه الثلاثة يدعو بعضُها إلى بعض؛ فالشركُ يدعو إلى الظلم والفواحش؛ كما أن الإخلاص والتوحيد يَصرِفُهما عن صاحبه؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فالسُّوء: العِشْق، والفحشاء: الزِّنَا»[١].

ثم يقول: «فهذه الثلاثة يَجُرُّ بعضُها إلى بعض، ويأمُرُ بعضُها ببعض؛ ولهذا كلما كان القلب أضعَفَ توحيدًا، وأعظَمَ شركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعشقًا لها»[٢].

ويقول في موضع آخر: «وعِشْقُ الصورِ إنما تُبتلَى به القلوبُ الفارغة من محبَّة الله تعالى، المُعرِضةُ عنه، المتعوِّضةُ بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفَعَ ذلك عنه مرضَ عِشْقِ الصور؛ ولهذا قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فدل على أن الإخلاص سببٌ لدَفْعِ العشق وما يترتَّب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثَمَرَتُهُ ونتيجته؛ فصَرْفُ المسبَّب صَرْفٌ لسَببه»[٣].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ومعلوم: أنَّ الزانِيَ حين يزني إنما يزني لحبِّ نَفْسِهِ لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشيةُ اللهِ التي تَقهَرُ الشهوة، أو حُبُّ اللهِ الذي يَغلِبها -: لم يَزْنِ؛ ولهذا قال تعالى عن يوسف ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فمَن كان مخلِصًا لله حق الإخلاص، لم يَزْنِ، وإنما يزني لخُلُوِّهِ عن ذلك»[٤].

---

(١) «الفوائد» (ص ١١٦-١١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «زاد المعاد» (٤/٢٤٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/٣٠٦).

ويقول في موضع آخر: «وذلك أن القلب إذا ذاقَ حلاوةَ عبوديَّته لله ومحبَّته له، لم يكن شيءٌ أَحَبَّ إليه من ذلك حتى يقدِّمه عليه؛ وبذلك يُصرَفُ عن أهل الإخلاص لله السوءُ والفحشاء؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فإن المخلِص لله، ذاق مِن حلاوة عبوديَّته لله ما يمنعه عن عبوديَّته لغيره، ومِن حلاوة محبَّته لله ما يمنعه عن محبَّة غيره؛ إذْ ليس عند القلب لا أحلى ولا أَلَذُّ ولا أطيَبُ ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان، المتضمِّنِ عبوديتَهُ لله، ومحبتَهُ له، وإخلاصَهُ الدِّينَ له، وذلك يقتضي انجذابَ القلب إلى الله، فيصيرُ القلب منيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا، راهبًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]»(١).

ويقول أيضًا: «فالله يَصرِفُ عن عبده ما يسوؤُهُ من المَيْلِ إلى الصورِ والتعلُّقِ بها، ويَصرِفُ عنه الفحشاء بإخلاصه لله؛ ولهذا يكون قبل أن يَذُوقَ حلاوة العبوديَّة لله والإخلاص له، تَغلِبُهُ نفسه على اتِّبَاع هواها، فإذا ذاق طَعْمَ الإخلاص وقَوِيَ في قلبه، انقهَرَ له هواه بلا علاج»(٢).

فإذا امتلأ القلب بالإخلاص، لم يتلذَّذ العبد إلّا بالتقرُّب إلى الله ﷻ، ولم يَعُدْ له بغير الله تعلُّق، ولم يَعُدْ لغير الله بقلبه مَحَلّ، وبذلك يُصرَفُ عنه السوءُ والفحشاءُ بإخلاصِه، ويَتِمُّ خلاصُهُ من شوائب الشرك وعلائق الدنيا.

٦ - أن الإخلاص يَرُدُّهُ إلى أصلِهِ مِن البِرِّ والطاعة، ويَصرِفُهُ عن المعاصي والتعلُّقِ بالدنيا:

وذلك أن العبد إذا تقلَّبَتْ عليه نيَّته، أو تعلَّقَتْ جوارحُهُ بالدنيا، فإنْ كان من أهل الإخلاص، مراقِبًا لخَطَراتِه وسَكَناته؛ فإنه سَرْعانَ ما يُفِيقُ ويَرجِعُ ويُحسِنُ الأَوْبة.

---

(١) المصدر السابق (١٠/٢١٥).

(٢) المصدر السابق (١٠/١٨٨).

والأمر كما قال داود الطائي: «البِرُّ هِمَّةُ التقيّ، ولو تعلَّقَتْ جميع جوارحه بحُبِّ الدنيا، لَرَدَّتْهُ يومًا نيَّته إلى أصله»[١].

وقال الذهبي: «فقد كان السلف يطلُبُونَ العِلْمَ لله، فنَبُلُوا، وصاروا أئمَّةً يُقتدَى بهم.

وطلَبَهُ قومٌ منهم أولًا لا لله، وحصَّلوه، ثم استفاقُوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العِلْمُ إلى الإخلاص في أثناء الطريق؛ كما قال مجاهدٌ وغيره: «طَلَبْنا هذا العلمَ وما لنا فيه كبيرُ نيَّة، ثم رزَقَ الله النيةَ بعدُ»[٢]، وبعضهم يقول: «طَلَبْنا هذا العلمَ لغير الله، فأبى أن يكون إلّا لله»[٣]؛ فهذا أيضًا حسَنٌ، ثُمَّ نشَرُوهُ بنيَّة صالحة»[٤].

ومِن الناس: مَن إذا أدار ظهره، وترَكَ الطريق، فإنه لا يَرجِع، ولا يعرِّجُ بعدها أبدًا إلّا أن يشاء الله تعالى، فعَثْرَتُهُ ليس بعدها إفاقة وانتباهة، وإنما هي غَفْلةٌ مستحكِمةٌ، تَطمِس على قلبه بما له من سوء القَصْد، وفساد النيَّة؛ ولا حول ولا قوَّة إلّا بالله.

تاسعًا: التحرُّرَ من العبوديَّة لغير الله ﷻ[٥]:

فهذا الذي يَهتَمُّ بأمر الخَلْق، ويبذُلُ لهم مِن ألوان العبوديَّات ما يسعى به

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٩).

(٢) أخرجه الدارمي (٣٧١) بإسناد حسن.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «جامع معمر بن راشد» (٢٠٤٧٥)؛ ومن طريقه: الإمام أحمد في «الأسامي والكنى» (١٤٠)، وابن أبي خيثمة في «تاريخه» (١٢٠٤)، والبيهقي في «المدخل» (٥١٩)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٩/٤١٧)، كلهم عن معمر بن راشد أنه كان يقال: «إن الرجل ليَطْلب العلم لغير الله فيأبى عليه العلم حتى يكون لله». وأخرجه الدارمي (٣٧٢) عن الحسن قال: «لقد طَلَب أقوام العلم ما أرادوا به الله تعالى، ولا ما عنده، فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده».

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/١٥٢).

(٥) انظر: «مقاصد المكلَّفين» للأشقر (ص ٣٧٢).

لجلب مَحْمَدَتهم، والوقوف عند مَرَاضيهم، يكون معبَّدًا قلبه ونفسه لهؤلاء، مسخَّرًا جوارحه في خِدْمتهم، والقيام بحوائجهم وشؤونهم.

ولا سبيل إلى تحرير النفس من رِبْقة تلك العبوديَّة إلَّا بتوجيهها إلى معبودها سبحانه؛ فإذا عُبِّدَتْ لله تعالى حقيقةً، تحرَّرت؛ لأن العبد إذا حقَّق العبودية لله، تخلَّى عن عبوديَّة ما سواه، وكلما نقَصَتْ عبوديتُهُ لله ﷻ، كان ذلك أدعى إلى عبوديَّته للمخلوقين؛ فإنَّ هذا القلب مجبولٌ على العبوديَّة؛ فإمَّا أن يُعبَّدَلله ﷻ، وإما أن يُعبَّدَ لغيره.

وبالعبوديَّة لله ﷻ يتحرَّر الإنسان من أهوائه ونَزَواته وشَهَواته؛ فالهوى شرُّ وَثَنٍ يُعبَدُ من دون الله ﷻ؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، فقد يَتَّخِذُ العبد هواه إلهًا من دون الله؛ فلا يصدُرُ إلَّا عن هذا الهوى، ولا يسعى إلَّا لتحقيق مرغوباتِهِ ومطلوباتِهِ بمقتضى ذلك الغَيِّ الذي يُمْلِيهِ عليه هواه؛ فخضوعُ النفس لأهوائها من أعظم ما حرَّم الله، بل هو مِن عبوديَّة غيره سبحانه.

أما الترفُّع عما تدعو إليه النَّفْس من ذلك - وإن كانت مجبولةً على محبَّته - فتلك هي الحرِّية حقًّا، وبها يتخلَّص العبد من إسار الهوى.

والذين يَزْعُمون ويتوهَّمون أن الحرِّية إنما هي التخلُّص مِن كل قيد حتى مِن قيد العبوديَّة لله، فالواقع: أنهم يَفِرُّونَ من عبوديَّة المَلِكِ الديَّان، إلى عبوديَّة النفس والهوى والشيطان، ومِن عبوديَّة ربِّ العالمين، إلى عبوديَّة المخلوقين، وكان شيخ الإسلام يقول: «المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربِّه تعالى، والمأسورُ: مَن أسَرَهُ هواه»(١).

وهكذا يعجِّلُ الإخلاصُ آثارًا يَجِدُها صاحبُهُ في الدنيا قبل الآخرة.

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩).

الآثارُ الأُخرويّةُ للإخلاصِ

وأما الآثارُ المؤجَّلةُ للإخلاص، وهي التي تكونُ في الآخرة، فهي كثيرةٌ أيضًا؛ ومنها:

أولًا - وهو أعظمُها -: دخولُ الجنَّة، والنجاةُ مِن النار، وتحصيلُ رضا الربِّ تبارك وتعالى:

وقد جاء في حديث أبي هُرَيْرةَ ﵁؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ: بِأَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ»(١).

وعن عِتْبانَ بنِ مالكٍ الأنصاريِّ ﵁؛ قال: غَدَا عَلَيَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ القِيَامَةِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ النَّارَ»(٢).

وصحَّ من حديث عُثْمان بن عفَّان ﵁؛ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقًّا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حُرِّمَ عَلَى النَّارِ»، فقال له عمرُ بنُ الخطَّاب ﵁: «أنا أحدِّثُكَ ما هي، هي كلمةُ الإخلاصِ التي أعزَّ اللهُ تبارك

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٣)؛ واللفظ له، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٣)؛ واللفظ له، ومسلم (٦٥٧).

وتعالى بها محمَّدًا ﷺ وأصحابَهُ، وهي كلمةُ التقوى التي أَلَاصَ[1] عليها نبيُّ اللهِ ﷺ عَمَّهُ أبا طالبٍ عند الموتِ: شهادةُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ»[2].

ثانيًا: الإخلاص يبلُغُ بصاحبه في درجات الجنَّة ما لا يبلغه بعمله:

فعن سَهْل بن حُنَيْف ﷺ؛ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[3].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: أخبرنا من شَهِد مُعاذًا حين حَضَرَتْه الوفاة يقول: اكشفوا عنِّي سَجْف القُبَّة أُحَدِّثكم حديثًا سَمِعته من رسول الله ﷺ، وقال مرة: أخبركم بِشَيءٍ سَمِعته من رسول الله ﷺ، لم يمنعني أن أُحَدِّثَكُموه إلّا أن تَتَّكِلُوا، سَمِعته يقول: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ يَقِينًا مِنْ قَلْبِهِ، لَمْ يَدْخُلِ النَّارَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ». وَقَالَ مَرَّةً: «دَخَلَ الْجَنَّةَ وَلَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ»[4].

وعن عمير الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ أُمَّتِي صَلَاةً مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَرَفَعَهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ»[5].

---

(١) أي: أراده عليها، وراوده فيها.

(٢) أخرجه أحمد (١/٦٣)، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٤٤٧)، والألباني في «صحيح الترغيب» (١٥٢٨). وانظر: «العلل» للدارقطني (٢/٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٤)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٧٣)؛ من حديث سعيد بن عمير الأنصاري عن أبيه، وابن أبي عاصم في «الصلاة على النبي ﷺ» (٤٢)، والبزار (٣٥٦٧)، والنسائي في «الكبرى» (٩٨٠٩)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/١٩٥)، والبيهقي في «الدعوات» (١٧٦)؛ من حديث سعيد بن عمير الأنصاري عن عمه: أبي بردة بن نِيَار.
والحديث قال عنه ابن حجر في «الفتح» (١١/١٧٢): «رجاله ثقات»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٦٥٩).

ومِن لطائف ما يُذكَرُ في هذا: أنَّ عمرَو بنَ الليثِ لمَّا مات، رُئِيَ في المنام، فقيل له: ما فعَلَ اللهُ بك؟ فقال: «أَشْرَفْتُ يومًا مِن جبلٍ على جيوشي، فأعجَبَتْني كَثْرَتُهم، فتَمَنَّيْتُ أنني كنتُ حضَرْتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ، فنَصَرْتُهُ وأَعَنْتُهُ، فشكَرَ اللهُ لي، وغفَرَ لي»(١).

ثالثًا: أنَّ أعمالَ صاحبه تفضُلُ أعمالَ الآخَرين:

وذلك أنَّ الأعمال تتفاضَلُ بالإخلاص، فتَرجَحُ في الموازينِ إذا كان الإخلاص فيها تامًّا كاملًا وافيًا.

يقول ابنُ القيِّم: «والأعمالُ تتفاضَلُ بتفاضُلِ ما في القلوب من الإيمان والمحبَّة، والتعظيم والإجلال، وقصدِ وجه المعبود وحدَهُ دون شيء من الحظوظ سواه؛ حتى لَتَكُونُ صورةُ العملَيْنِ واحدةً، وبينهما في الفضل ما لا يُحصِيه إلّا الله تعالى، وتتفاضَلُ أيضًا بتجريد المتابَعة؛ فبين العملَيْنِ من الفضل بحسَبِ ما يَتفاضَلان به في المتابَعة، فتتفاضَلُ الأعمالُ بحسَبِ تجريد الإخلاص والمتابَعة تفاضُلًا لا يُحصِيه إلّا اللهُ تعالى»(٢).

رابعًا: الظَّفرُ برحمةِ اللهِ ﷻ:

إنَّ أحقَّ الناس برحمة الله ﷻ هم أهلُ التوحيد والإخلاص؛ فكلُّ مَن كان أكمَلَ في تحقيقه إخلاصَ (لا إله إلّا الله) عِلْمًا وعقيدةً، وعملًا وبراءةً، وموالاةً ومعاداةً، كان أحقَّ برحمة الله ﷻ؛ كما صرَّح بذلك غيرُ واحد من أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيميَّة(٣).

خامسًا: غفرانُ الذنوب:

قال ابنُ تيميَّة: «والنوع الواحد مِن العمل قد يَفعَلُه الإنسان على وجهٍ

---

(١) «الشفا، بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/٥٨٥)؛ بتصرف.

(٢) «المنار المُنيف» (ص ١٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٤/٤١٤).

يكمُلُ فيه إخلاصه وعبوديَّته لله؛ فيغفِرُ الله له به كبائرَ ...»، وذكَرَ حديث البطاقة[١]، ثم قال: «فهذه حالُ مَن قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص؛ وإلا فأهلُ الكبائر الذين دخَلُوا النارَ كلُّهم كانوا يقولون: لا إلَهَ إلّا الله»[٢].

سادسًا: السعادةُ بنيل شفاعة النبي ﷺ:

فقد أخرج البخاريُّ في «صحيحه»، عن أبي هريرةَ ﷺ؛ أنه قال: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَلَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: «ووقَعَ في رواية أحمد، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ من طريق أخرى، عن أبي هريرةَ: نحوُ هذا الحديث، وفيه: «وَشَفَاعَتِي لِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا، يُصَدِّقُ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، ولِسَانُهُ قَلْبَهُ»[٤]، والمراد بهذه الشفاعةِ المسؤولِ عنها هنا: بعض أنواع الشفاعة، وهي التي يقول ﷺ فيها:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)؛ من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وحسَّنه الترمذي، والبغوي في «شرح السنة» (١٣٤/١٥-١٣٥)، وابن بلبان في «المقاصد السنية» (٦)، وصحَّحه ابن حبان (٢٢٥)، والحاكم (٥/١)، والذهبي، والزَّبِيدي في «إتحاف السادة المتقين» (٥٦٢/١٠)، وأحمد شاكر في التعليق على «المسند» (٦٩٩٤)، والألباني في «الصحيحة» (١٣٥). وقد رُوِيَ الخبر موقوفًا، والمرفوع أصح.

(٢) «منهاج السنة» (٢١٨/٦-٢١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٩٩).

(٤) أخرجه أحمد (٣٠٧/٢، ٥١٨)، وصحَّحه ابن حبان (٦٤٦٦)، والحاكم (٦٩/١-٧٠)، وحكم الألباني بنكارته في «ضعيف الترغيب» (٢١١٣)، و«ضعيف موارد الظمآن» (٣٣٧).

«أُمَّتِي أُمَّتِي»، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ؛ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا»[١]؛ أي: من النار.

فأسعَدُ الناس بهذه الشفاعة: مَن يكونُ إيمانُهُ أكمَلَ ممن دونه. وأمَّا الشفاعةُ العظمى في الإراحة من كَرْبِ المَوقِفِ، فأسعَدُ الناس بها: مَن يَسبِقُ إلى الجَنَّة، وهم الذين يدخُلُونها بغير حساب...

والحاصل: أنَّ في قوله: «أَسْعَد» إشارةً إلى اختلاف مَرَاتبهم في السَّبْق إلى الدخول، باختلاف مَرَاتبهم في الإخلاص»[٢].

يقول شيخ الإسلام - معلِّقًا على هذا الحديث -: «فتلك الشفاعةُ هي لأهل الإخلاص بإذن اللهِ، ليست لمن أشرَكَ بالله، ولا تكونُ إلّا بإذن الله، وحقيقتُهُ: أنَّ الله هو الذي يتفضَّلُ على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفِرُ لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أَذِنَ له أن يشفَعَ لِيُكْرِمَهُ بذلك»[٣].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣/٣٢٦)؛ واللفظ له؛ من حديث أنس ﷺ.

(٢) «فتح الباري» (١١/٤٥١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧/٧٨).

عَاقِبَةُ النِّيَّاتِ وَالمقَاصِدِ السَّيِّئَة

إذا أصلَحَ العبدُ ظاهره بالعمل الصالح، وأفسَدَ باطنه بالنيَّة الفاسدة، فتصنَّع بالظواهر إرادةً لما عند الناس؛ مِن حسن الثناءِ أو الجاه أو المال أو غير ذلك مِن المطالب السافلة: عُوقِبَ على سُوءِ قصده بأنواع العقوبات التي منها:

١ - التعرُّضُ لمَكْرِ الله ﷻ:

يقول حمَّاد بن سَلَمة: «مَن طلَبَ الحديثَ لغير الله، مُكِرَ به»(١).

وصدَقَ؛ فإنَّ العبدَ قد يستقيمُ - فيما يبدو للناس - مُدَّةً من الزمان طالبًا للعلم، قائمًا بالأعباء والأعمال، منشغِلًا بأمر دينه، ثم ما يَلبَثُ أن يتغيَّرَ حالُه، ويترُكَ ما كان عليه، ويصيبَهُ الحَوْرُ بعد الكَوْر، والإدبارُ بعد الإقبال، والانتكاسةُ بعد الاستقامة، وقد يكون ذلك بسبب سُوءِ نيَّته.

وعن جعفرٍ الخُلْدِي؛ قال: «مَن أراد أن يستكتِمَ سِرًّا، فليستكتِمْ، كما فعَلَ رُوَيْمٌ؛ كتَمَ حبَّ الدنيا أربعين سنةً، فقيل له: كيف؟ قال: كان يتصوَّفُ أربعينَ سنةً، فوَلِيَ بعد ذلك إسماعيلُ بنُ إسحاقَ القضاءَ - قضاء بغداد - وكان بينهما مودَّةٌ مؤكَّدةٌ، فجذَبَهُ إليه، وجعَلَهُ وكيلًا على بابه، فترَكَ التصوُّف، ولَبِسَ الخزَّ والقَصَبَ والدِّيبَقيَّ... وبنى الدُّورَ، وإذا هو كان يكتُمُ حبَّ الدنيا لمَّا لم يَجِدْها، فلمَّا وجَدَها، أظهَرَ ما كان يكتُمُ من حُبِّها»(٢).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٥١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١١٥٣).

(٢) أخرجه التنوخي في «نشوار المحاضرة» (٣/١٢٠)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «المنتظم» (١٣/٦٢)؛ واللفظ له.

ولو أن العبد صدَقَ في إقباله على الله ﷻ، وأحسَنَ اللجوء إليه؛ فإن الله ﷻ يحفظه ويَكْلَؤُه، ويرعاه ويُدنيه، ويثبِّتُهُ على القول الثابت حتى يلقاه.

٢ - ذَهَابُ بَرَكة العمل، وتلاشيه واضمحلالُه:

فلا يكون لعَمَله كثيرُ بَرَكة؛ فكم من تصانيفَ أُقعِدَتْ عن أن تسير بها الركبان، ويَنتفِعَ بها الناس، مع ما فيها من العلم! وكم مِن أعمال أُنشِئَتْ وأُنفِقَتْ عليها أموال طائلة، وبُذِلَتْ لأجلها جهودٌ عظيمة، ثم لم يكن من وراء ذلك كبيرُ شيء من تحصيل نفعٍ أو دفع ضُرّ!

والسبب: قد يكون ضعفَ الإخلاص، فكلَّما ضَعُفَ الإخلاص في قلب العبد، كان ذلك سببًا لاضمحلال بَرَكة عمله وتلاشيه، مهما أنفَقَ عليه من الأموال؛ لأنه إنما أنفَقَ عليه ليتحدَّث الناسُ ويقولوا: فلانٌ فعَلَ وفعَلَ! وتلك عقوبة عاجلة.

قال ابن المبارَك: «رُبَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيَّة، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيَّة»[(١)].

ويقول محمد بن الحنفيَّة، والربيع بن خُثَيْم رحمهما الله تعالى: «كلُّ ما لا يُبتغَى به وجه الله يَضْمَحِلّ»[(٢)].

٣ - إعراضُ القلبِ عن الله، واشتغالُهُ بغيره:

فيصيرُ عبدًا لذلك الذي توجَّه قلبه إليه.

يقول ابن القيِّم: «وأصلُ الغيِّ: من الحُبِّ لغير الله؛ فإنه يضعُفُ الإخلاص به، ويَقوَى الشركُ بقوَّته؛ فأصحابُ العشق الشيطاني لهم مِن تولِّي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٧٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٣٥)؛ ومن طريقه الفَسَوي في «تاريخه» (٥٦٧/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤٨٦)؛ من كلام الربيع بن خُثَيْم؛ وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٧/٢)؛ من طريق آخر، وأخرجه أيضًا من كلام محمد بن الحنفيَّة: في «الحلية» (١٧٦/٣).

الشيطان والإشراك به بقَدْرِ ذلك؛ لِمَا فيهم من الإشراك بالله، ولِمَا فاتهم من الإخلاص له؛ ففيهم نصيبٌ من اتخاذ الأنداد؛ ولهذا ترى كثيرًا منهم عبدًا لذلك المعشوق، متيَّمًا فيه، يصرُخُ في حضورِهِ ومَغِيبه: أنه عبده؛ فهو أعظم ذكرًا له مِن ربه، وحبُّه في قلبه أعظَمُ من حبِّ الله فيه، وكفى به شاهدًا بذلك على نفسه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥].

فلو خُيِّرَ بين رضاه ورضا الله، لاختار رضا معشوقِهِ على رضا ربه، ولقاءُ معشوقِهِ أحبُّ إليه من لقاء ربه، وتمنِّيه لقربه أعظَمُ من تمنِّيه لقرب ربِّه، وهَرَبُهُ من سخطِهِ عليه أشدُّ من هربِهِ من سخط ربِّه عليه، يُسخِطُ ربَّه بمَرْضاة معشوقه، ويقدِّم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه.

فإنْ فضَلَ من وقته، وكان عنده قليلٌ من الإيمان، صرَفَ تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرَقَ الزمانُ حوائجَ معشوقِهِ ومصالحه، صرَفَ زمانه كله فيها، وأهمَلَ أمر الله تعالى، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويَجعَلُ لربِّه مِن ماله - إنْ جعَلَ له - كلَّ رذيلة!»(١).

ويؤيِّدُ ذلك: ما ذكَرَهُ ابن الجوزي، بإسناده عن أبي عبد الله محمد بن الحسن المَذْحِجِيِّ؛ قال: «كنتُ أختلِفُ في النحو إلى أبي عبد الله محمد بن خَطَّابٍ النحويِّ في جماعة أيَّام الحَدَاثة، وكان معنا أسلم بن أحمد بن سعيد، وكان من أجملِ مَن رَأَتْهُ العيون، وكان معنا عند محمد بن خطَّاب: أحمد بن كُلَيْب، وكان مِن أهل الأدب والشعر، فاشتَدَّ كَلَفُهُ بأَسْلَم، وفارَقَ صبره، وصرَفَ فيه القولَ مستترًا بذلك، إلى أن فَشَتْ أشعاره فيه، وجرَتْ على الألسنة، وتُنُوشِدَتْ في المحافل، فلمَّا بلَغَ هذا المبلَغَ، انقطَعَ أسلَمُ عن جميع مجالس الطلب، ولَزِمَ بيتَهُ والجلوس على بابه، وكان أحمد بن كُلَيْب لا شُغْلَ له إلّا المرورُ على باب دار أسلم سائرًا أو مقبِلًا نهارَهُ كلَّه، فانقطع أسلم

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/٨٦٩-٨٧٠).

عن الجلوس على باب داره نهارًا، فإذا صلَّى المغرب، واختلَطَ الظلام، خرَجَ مستروِحًا، وجلس على باب داره، فعِيلَ صبرُ أحمد بن كُلَيْب، فتحيَّل في بعض الليالي، ولَبِسَ جُبَّةَ صُوف، وأخذ بإحدى يديه دجاجًا، وباليد الأخرى قَفَصًا فيه بَيْض، كأنه قَدِمَ من بعض الضِّيَاع، وتحيَّن جلوسَ أسلَمَ عند اختلاط الظلام على بابه، فتقدَّم إليه وقبَّل يَدَه، وقال: يا مولاي! مَن يَقبِضُ هذا؟ فقال له أسلم: مَن أنت؟ قال: أَجِيرُكَ في الضَّيْعة الفلانيَّة، وقد كان يَعرِف أسماء ضِيَاعِهِ والعاملين فيها، فأمَرَ أسلَمُ غلمانه بقَبْض ذلك منه على عادتهم في قَبُولِ هدايا العامِلِين في ضِيَاعِهم، ثم جعَلَ يسأله عن أحوال الضَّيْعة، فلما جاوبه، أنكَرَ الكلام، فتأمَّله فعرَفَهُ، فقال له: يا أخي! إلى ها هنا تَتبَعُني؟! أَمَا كفاك انقطاعي عن مَجَالِسِ الطَّلَب، وعن الخروج جُمْلةً، وعن القُعُودِ على بابي نهارًا حتى قَطَعْتَ عليَّ جميع ما لي فيه راحة؟! واللهِ، لا فارَقْتُ بعد هذه الليلةِ قَعْرَ منزلي، ولا جَلَسْتُ بعدها على بابي لا ليلًا ولا نهارًا، ثم قام وانصرَفَ أحمد بن كُلَيْبٍ حزينًا كئيبًا.

قال محمد: واتصل ذلك بنا، فقلنا لأحمد بن كُلَيْب: خَسِرْتَ دَجَاجَكَ وبَيْضَك! فقال: هاتِ كلَّ ليلةٍ قُبْلةَ يدِهِ وأخسَرُ أضعاف ذلك.

قال: فلما يئس من رؤيته البتَّة، نَهَكَتْهُ العِلَّة، وأضجَعَهُ المَرَض.

قال محمد بن الحسن: فأخبَرَني شيخنا محمد بن خَطَّاب؛ قال: فعُدتُّهُ فوَجَدتُّهُ بأسوَإِ حال، فقلت له: ولِمَ لا تتداوى؟ فقال: دوائي معروف، وأمَّا الأطبَّاء، فلا حِيلَةَ لهم فيَّ البتَّة، فقلتُ له: وما دواؤك؟ قال: نظرةٌ مِن أسلم، فلو سَعَيْتَ في أن يَزُورَني لَأَعْظَمَ اللهُ أجرَكَ بذلك وأجرَهُ.

قال: فرَحِمْتُهُ، وتقطَّعت نَفْسي له حسرةً، فنَهَضْتُ إلى أسلَمَ، فاستأذَنْتُ عليه، فأَذِنَ لي، وتلقَّاني بما يَجِبُ، فقلتُ له: لي حاجة، فقال: وما هي؟ قلتُ: قد عَلِمْتَ ما جمَعَكَ مع أحمد بن كُلَيْب مِن ذِمَامِ الطَّلَب عندي، فقال:

نعم، ولكن قد تَعلَم أنه شَهَرَ اسمي وآذاني، فقلتُ له: كل ذلك يُغتفَرُ في مثل هذه الحال التي هو فيها، والرجلُ يموت، فتفضَّلْ بعيادته، فقال لي: واللهِ، ما أَقدِرُ على ذلك، فلا تكلِّفْنِي هذا، فقلتُ: لا بُدَّ من ذلك، فليس عليك فيه شيء، وإنما هي عيادةُ مريض، ولم أَزَلْ به حتى أجاب، فقلتُ له: فقُمِ الآن، فقال: لستُ واللهِ أفعلُ، ولكنْ غدًا، فقلتُ له: ولا خُلْفَ؟ قال: نعم.

فانصرَفْتُ إلى أحمد بن كُلَيْب، فأخبَرْتُهُ بوعده بعد تأبِّيه، فسُرَّ بذلك، وارتاحت نفسه، فلما كان من الغد، بَكَّرْتُ إلى أسلَمَ، وقلتُ له: الوَعْدَ، قال: فوجَمَ، وقال: واللهِ، لقد تَحمِلُني على خُطَّةٍ صعبةٍ عليَّ، وما أدري كيف أُطِيقُ ذلك؟ قال: فقلتُ له: لا بد أن تَفِيَ بوعدك لي، قال: فأخذ رداءه، ونَهَضَ معي راجلًا، قال: فلما أتينا مَنزِلَ أحمد بن كُلَيْب - وكان يسكُنُ في دَرْب طويل - وتوسَّط الزُّقَاق، وقَفَ واحمرَّ وخَجِلَ، وقال لي: يا سيِّدي! الساعةَ والله أموتُ، وما أستطيعُ نَقْلَ قَدَمي، ولا أستطيعُ أن أَعرِضَ هذا على نفسي، فقلتُ: لا تَفعَلْ، بعد أن بلَغْتَ المَنزِلَ تَنصرِفُ؟! قال: لا سبيل إلى ذلك والله، قال: ورجَعَ هاربًا، فاتَّبَعْتُهُ، وأخذتُ بردائه، فتمادى وتمزَّق الرداء، وبَقِيَتْ قطعةٌ منه في يدي لشدة إمساكي له، ومضى ولم أُدرِكْه، فرجَعْتُ ودخَلْتُ على أحمد بن كُلَيْب، قال: وقد كان غلامُهُ دخَلَ عليه إذْ رآنا من أولِ الزُّقَاقِ مبشِّرًا، قال: فلما رآني، تغيَّر وجهه، وقال: وأين أبو الحسن؟ قال: فأخبَرْتُه بالقصة، فاستحال مِن وقته واختلَطَ، وجعَلَ يتكلَّم بكلام لا يُعقَلُ منه أكثَرُ من الاستِرجَاع، فاستبشَعْتُ الحال، وجعَلْتُ أتوجَّعُ وقُمْتُ، قال: فثاب إليه ذِهْنُه، وقال لي: يا أبا عبد الله! قلتُ: نعم، قال: اسمَعْ مني واحفظْ عني، ثم أنشأ يقول:

أَسْلَمُ يَا رَاحَةَ الْعَلِيلِ ... رِفقًا عَلَى الهَائِمِ النَّحِيلِ
وَصْلُكَ أَشْهَى إِلَى فُؤَادِي ... مِنْ رَحْمَةِ الخَالِقِ الجَلِيلِ

قال: فقلتُ له: اتَّقِ الله؛ ما هذه العظيمة؟! فقال: قد كان.

قال: فخَرَجْتُ عنه، فواللهِ، ما توسَّطْتُ الزُّقَاقَ حتى سمعتُ الصراخَ عليه وقد فارَقَ الدنيا!»[١].

٤ - صاحبُ القَصْدِ السَّيِّئِ يَخسَرُ نصيبَهُ في الآخرة، ولا يجدُ ثمرَةَ عمله:

فعن شُفَيٍّ الأصبَحيِّ؛ أنَّه دخل المدينة؛ فإذا هو برجلٍ قد اجتمَعَ عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، قال: فدنوتُ منه حتَّى قعَدتُ بين يديه، وهو يحدِّثُ الناس، فلما سكتَ وخَلَا، قلتُ له: أسألك بحقٍّ وبِحَقٍّ لَمَا حدَّثْتَني حديثًا سمعتَهُ من رسول الله ﷺ، عَقَلْتَهُ وعَلِمْتَهُ، فقال أبو هريرة: أَفْعَلُ، لَأُحَدِّثَنَّكَ حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ، عَقَلْتُهُ وعَلِمْتُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشْغَةً[٢]، فمَكَثْنا قليلًا، ثم أفاق، فقال: لَأُحَدِّثَنَّك حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَةً شديدة، ثم أفاق، فمسَحَ وجهه، فقال: أَفْعَلُ لَأُحَدِّثَنَّك حديثًا حدَّثنيه رسول الله ﷺ، وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيرُهُ، ثم نَشَغَ أبو هريرةَ نَشْغَةً شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، فأسندتُّهُ عليَّ طويلًا، ثم أفاق، فقال: حدَّثني رسول الله ﷺ: «أنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ؛ فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ: رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ المَالِ:

فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ،

---

(١) رواها ابن حزم في «طوق الحمامة» (ص١١٣)، وعنه ابن نصر الحُمَيْدي في «جذوة المقتبس» (ص١٣٤)؛ ومن طريقهما ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ٥٥٩ - ٥٦٠).

(٢) أي: شَهِقَ وغُشِيَ عليه.

فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ المَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ المَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدتَّ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ».

ثم ضرَبَ رسولُ الله ﷺ على رُكْبتي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

وزاد الترمذي، عن العلاء بن أبي حَكِيم؛ أنه كان سَيَّافًا لمعاوية، فدخَلَ عليه رجل، فأخبَرَهُ بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: «قد فُعِلَ بهؤلاءِ هذا؛ فكيف بمَن بَقِيَ من الناس؟! ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشَرٍّ، ثم أفاق معاوية، ومسَحَ عن وجهه، وقال: صدَقَ اللهُ ورسولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥- ١٦]».

وعنه أيضًا ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٣)، وأصله في «صحيح مسلم» (١٩٠٥).

(٢) تقدم تخريجه.

ويَدُلُّ على ذلك أيضًا: ما صَحَّ عن النبيِّ ﷺ في الحديث الآخر؛ حيث قال: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ؛ فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ»(١).

والله ﷻ يقول: «أَنَا خَيْرُ شَرِيكٍ؛ فَمَنْ أَشْرَكَ مَعِي شَرِيكًا، فَهُوَ لِشَرِيكِي، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ للهِ ﷻ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا أُخْلِصَ لَهُ، وَلَا تَقُولُوا: هَذَا للهِ وَلِلرَّحِمِ؛ فَإِنَّهَا لِلرَّحِمِ، وَلَيْسَ للهِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَلَا تَقُولُوا: هَذَا للهِ وَلِوُجُوهِكُمْ؛ فَإِنَّهَا لِوُجُوهِكُمْ، وَلَيْسَ للهِ مِنْهَا شَيْءٌ»(٢).

وقد صح عنه ﷺ؛ أنه قال: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، قالوا: وما الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قال: «الرِّيَاءُ؛ يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا؛ فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟!»(٣).

كما ثبت عنه ﷺ؛ أنه قال: «إِذَا جَمَعَ اللهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ؛ فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٤/٥)؛ من حديث أُبَيّ بن كعب ﵁. واختلف الرواة في هذا الحديث على وجهَيْن، تراهما في «علل ابن أبي حاتم» (٩١٧)، وقد صحَّحه ابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٣١٨/٤)، والذهبي، والضياء في «المختارة» (٣٥٩/٣)، والألباني في «أحكام الجنائز» (ص٧٠)، و«صحيح الموارد» (٢١١٨).

(٢) أخرجه البزَّار (٣٥٦٧) «كشف الأستار»، والدراقطني (١٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٤١٨)؛ ومن طريقه الضياء في «المختارة» (٩٢/٩٠/٨)؛ من حديث الضحَّاك بن قيس ﵁، وضعَّف الهيثمي إسناده في «المجمع» (٢٢١/١٠)، وصحَّحه الضياء، وقوَّاه المنذري في «الترغيب» (٥٥/١)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٦٤).

(٣) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥)؛ من حديث محمود بن لَبيد ﵁، وصحَّحه المنذري في «الترغيب» (٦٩/١)، والألباني في «الصحيحة» (٩٥١).

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٠٣)؛ واللفظ له؛ مِن حديث أبي سعيد بن أبي =

وفي حديث آخر: «مَنْ سَمَّعَ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرائِي، يُرَائِي اللهُ بِهِ»(١).

وفي حديث آخر: «مَنْ قَامَ مَقَامَ رِيَاءٍ وسُمْعَةٍ، رَاءَى اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وسَمَّعَ»(٢).

وفي حديث آخر: «مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ»(٣).

وجاء عن ابن عبَّاس ﵄؛ أنه قال: «مَنْ راءى بشيءٍ في الدنيا مِنْ عَمَلٍ، وَكَلَهُ اللهُ إليه يَوْمَ القيامة، وقال: انظُرْ هل يُغْنِي عنك شيئًا؟!»(٤).

وعن إبراهيم التَّيْمِي، عن أبيه؛ قال: قال حُذَيْفَةُ لأبي موسى: أرأيتَ لو أنَّ رجلًا خرَجَ بسيفه يَبتغِي وَجْهَ الله، فضُرِبَ، فقُتِلَ، كان يدخُلُ الجنَّة؟ فقال له أبو موسى: نعم، فقال حُذَيْفَةُ: لا، ولكنْ إذا خرَجَ بسيفه يَبتغِي به وَجْهَ الله، ثم أصاب أَمْرَ الله، فقُتِلَ، دخَلَ الجَنَّة(٥).

وعن أبي النضر؛ أن عُمَر بن عُبَيْد الله سأل عبد الله بن عمر، فقال: أصلَحَكَ الله؛ أُنشِئُ الغَزْوَ، فأُنفِقُ ابتغاءَ وجه الله، وأخرُجُ لذلك، فإذا كان عند القتال، ابتغَيْتُ أن يُرَى بأسي ومَحْضَرِي؟ قال: «أَسْمَعُكَ رجلًا مُرَائيًا»(٦).

= فَضَالة، وقال الترمذي: «حديث غريب» - وفي بعض النسخ: «حسَن غريب» - وقال ابن المَدِيني: «إسناد صالح يَقبَلُهُ القلب... وزياد بن مِيناء مجهول»؛ نقله ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦٦/٦٦)، والمِزّيّ في «تهذيب الكمال» (٣٤٣/٣٣) - ووقع في نقل ابن عساكر تصحيف - وصحَّحه ابن حبان (٤٠٤)، وحسَّنه الألباني في «المشكاة» (٥٣١٨).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٧)؛ من حديث جندب العَلَقي ﵁.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٠/٥)، والدارمي (٢٧٤٨)؛ من حديث أبي هند الداري ﵁، وقال المنذري في «الترغيب» (٦٥/١): «إسناده جيد»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٢/١، ١٩٥، ٢١٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو ﵄، وصحَّحه المنذري في «الترغيب» (٦٥/١)، وأحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٦٥٠٩)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٢١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٩).

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٤٦)؛ بسند صحيح.

(٦) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٤٢)؛ بسند صحيح.

وقال عبد الرحمن بن أَنْعُم: «لكلِّ شيءٍ آفةٌ تُفْسِده؛ فآفةُ العبادة: الرياء، وآفةُ الحِلْم: الذُّلّ، وآفةُ الحياءِ: الضَّعْف، وآفةُ العلم: النِّسْيان، وآفةُ العَقْل: العُجْبُ بنفسه، وآفةُ الحِكْمة: الفُحْش، وآفةُ اللُّبّ: الصَّلَف، وآفةُ القَصْد: الشُّحّ، وآفةُ الزَّمَانة: الكِبْر، وآفةُ الجُود: التبذير»(١).

وعن الفُضَيْل؛ قال: «إنَّ لله عبادًا لا يُرفَعُ لهم إلى الله عمل، وهم أصحاب الرياء، الذين يكون حبُّهم في غير حبِّ الله؛ إنْ أُعطُوا رَضُوا، وإن مُنِعُوا سَخِطُوا؛ فمَن كان كذلك، ورَّثه اللهُ العَمَى»(٢).

وقال الحسن بن سفيان الحافظ: «حدَّثنا أبو ثَوْر، قال: ما رأيتُ ولا رأى الراؤونَ مثلَ الشافعي ﷺ وغفَرَ له، سأله رجل عن الرياء: ما هو؟ فقال له مُسرِعًا: الرياءُ فتنةٌ عَقَدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء، فنظروا إليها بسُوءِ اختيارِ النفوس، فأحبَطَتِ الأعمال»(٣).

ومما تقدَّم من الأخبار والآثار: يتبيَّن عظيمُ شأن الإخلاص، وخَطَرُ شأن الشرك والرياء بما لا يجوز معه التهاوُنُ في هذا الجانب في كثير الأعمال أو قليلها، كبيرها أو صغيرها.

***

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٢٩).

(٢) «تاريخ دمشق» (٤٤٦/٤٨).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣٤/٥١).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ الإِخْلَاصِ وَدَفْعِ الرِّيَاءِ

إذا عَرَفْتَ شَأْنَ الإخلاص ودِقَّتَه، فيحسُنُ بنا أن نذكُرَ جملةً من الأمور التي يُمكِنُ للعبد معها أن يقوِّيَ إخلاصَهُ، ويَدفَعَ أضدادَهُ من قَلْبه:

١ - أن يستعينَ بالله ﷻ على تحقيقِه:

وأن يتعوَّذ بالله تبارك وتعالى من الرياء، وأن يراقِبَ ربَّه، وأن يحاسِبَ نفسه، وقد جاء عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ؛ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»؛ فقال له مَنْ شاء اللهُ أن يقولَ: وكيف نَتَّقِيهِ وهو أخفى مِن دَبِيبِ النَّمْلِ يا رَسُولَ اللهِ؟! قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شيئًا نَعْلَمُهُ، ونَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»(١).

وقال الجُنَيْدُ: سمعتُ السَّرِيَّ يقول: خَفِيَتْ عليَّ عِلَّةٌ ثلاثين سنةً؛ وذلك أنَّا كنَّا جماعةً نبكِّرُ إلى الجمعة، ولنا أماكنُ قد عُرِفَتْ بنا، لا نكاد أن نخلُوَ عنها، فمات رجلٌ مِن جيراننا يومَ جمعة، فأحبَبْتُ أن أشيِّعَ جنازته، فشَيَّعْتُها، وأضحيتُ عن وقتي، ثم جِئْتُ أُرِيدُ الجمعة، فلما أن قَرُبْتُ من المسجد، قالتْ لي نفسي: الآنَ يَرَوْنَكَ وقد أَضْحَيْتَ وتَخَلَّفْتَ عن وَقْتِكَ؛ فشَقَّ ذلك عليَّ، فقلتُ لنفسي: «أَرَاكِ مُرَائِيَةً منذ ثلاثينَ سَنَةً، وأنا لا أدري!»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٤٠٣/٣)؛ من حديث أبي موسى الأشعري ﵁، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٦). وفي الباب: عن أبي بكر الصديق، وعائشة ﵄.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٢٥).

فالعبد لا غِنَى له عن ربِّه ومولاه جل جلاله في صرف هذه النيَّات الفاسِدة والمقاصِد السيِّئة عن نفسه، وقَلَّ أن يتخلَّص منها أحد، وكان مِن دعاء علي بن الحسين زَيْن العابدين: «اللَّهُمَّ، إني أعوذُ بك أن تحسِّنَ في لوامعِ العيونِ علانيتي، وتقبِّحَ في خَفِيَّاتِ العيونِ سريرتي، اللَّهُمَّ، كما أسَأْتُ وأحسَنْتَ إليَّ، فإذا عُدتُّ، فَعُدْ عَلَيَّ»(١).

وكان من دعاء مطرِّفِ بن عبد الله: «اللَّهُمَّ، إني أستغفِرُكَ مما تُبْتُ إليك منه، ثم عُدتُّ فيه، وأستغفِرُكَ مما جعلتُهُ لك على نفسي، ثم لم أَفِ لك به، وأستغفِرُكَ مما زعَمْتُ أني أَرَدتُّ به وجهَكَ، فخالَطَ قلبي فيه ما قد عَلِمْتَ»(٢).

فتوجَّهْ إلى الله بتمام الفقر إليه، والذلِّ بين يديه، واسأَلْهُ أن يصحِّح قصدك ونيَّتك؛ فإنه لا بلاغ إلّا بإعانته وتسديده وتوفيقه، وإذا تخلَّى الربُّ عن العبد، خُذِلَ العبد أحوَجَ ما يكون إلى الإعانة، ومَن التفَتَ إلى نفسه وقوَّته وطاقته، أو إلى عمله وجهده وتحصيله، خُذِلَ أيضًا.

٢ - أن يعبِّدَ قلبَهُ وجوارحَهُ لله ﷻ:

فهذا القلبُ لا بد أن يُمْلَأَ بالإرادات والخواطر، ولا بد له مِن أحد يتوجَّهُ إليه؛ فإما أن يتوجَّه إلى الله ﷻ، وإما أن يتوجَّه إلى المخلوقين، وهذه الجوارح كذلك لا بد لها من عبوديَّة - شاء الإنسان أم أبى - فإما أن يسخِّر جوارحَهُ في مرضاة الله ﷻ؛ فيكون عبدًا لله، وإما أن يسخِّرها في تحقيق شهواته وتحصيل مطلوباته القريبة العاجلة؛ فيكون عبدًا لها، وإما أن يسخِّرها في طلب ثناء الناس، والمنزلة في قلوبهم؛ فيكون عبدًا لهم.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/١٣٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤١/٤٠٩)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٠٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/٣٢٧)؛ واللفظ له.

يقول ابن القيِّم: «قطعُ العلائق والأسباب التي تدعُوهُ إلى موافقة الهوى، وليس المراد ألا يكون له هوًى، بل المراد: أن يصرِفَ هواه إلى ما يَنفَعُه، ويستعمِلَهُ في تنفيذ مراد الربِّ تعالى؛ فإنَّ ذلك يَدفَعُ عنه شرَّ استعماله في معاصيه؛ فإنَّ كل شيء من الإنسان يستعملُهُ لله، فإن الله يَقِيهِ شرَّ استعماله لنفسه وللشيطان، وما لا يستعملُهُ لله، استعمَلَهُ لنفسه وهواه ولا بدَّ؛ فالعلمُ إنْ لم يكن لله، كان للنَّفْس والهوى، والعملُ إنْ لم يكن لله، كان للرياء والنفاق، والمالُ إنْ لم يُنفَقْ في طاعة الله، أُنفِقَ في طاعة الشيطان والهوى، والجاهُ إنْ لم يستعمِلْهُ لله، استعمَلَهُ صاحبه في هواه وحظوظه، والقوَّةُ إنْ لم يستعمِلْها في أمر الله، استعمَلَتْهُ في معصيته، فمَن عوَّد نفسَهُ العمل لله، لم يكن عليه أشقُّ مِن العمل لغيره، ومن عوَّد نفسه العمل لهواه وحظِّه، لم يكن عليه أشقُّ من الإخلاص والعمل لله»(١).

وهذه الجملة الأخيرة في غاية النَّفَاسة؛ لبيان مَنزِلة الإخلاص، وحقيقةِ مقامه، وصفة تنزُّله في قلب العبد.

فالذي تعوَّد أن يعمل في المناسَبات وفي حضور الجموع الغفيرة، فإنه يصعُبُ عليه أن يَجُودَ بنَفَقة، أو يقومَ بعمَل؛ إن غابت هذه الجموع، والذي عوَّد نفسه العملَ لله ﷻ، لم يكنْ شيءٌ أبغَضَ إليه ولا أشَقَّ عليه ولا أسوَأَ لديه من كَشْفِ المستور، وإبراز المخبوء.

وهذا تراه لو قيل له: إنَّ مِن المصلحة أن يراك الناس ليقتدوا بك؛ فإنه لا يزال مشفِقًا على نفسه مِن هذا الذي لم يعوِّدْ قلبه عليه؛ فالمخلِص الذي تعوَّد على الإخلاص، وأَلِفَهُ قلبه، لا يَقدِرُ قلبه على خلافه، وأما غير المخلِص، فهو لا يعمل إلّا إذا شاهَدَهُ الآخرون!

---

(١) «عدة الصابرين» (ص ١٠٧).

٣ - أن يتعرَّف على ما يضادُّ الإخلاصَ من آفات القلوب؛ ليتحرَّز منه:

فإن العبد مطالَبٌ بمعرفة عدوِّه، ومعرفة الأدواء التي تنفُذُ إلى قلبه، وقد حَذَّرَنا النبي ﷺ من تلك الآفات؛ فعن محمود بن لَبِيد رضي الله عنه؛ قال: خرجَ النبي ﷺ، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ!»، قالوا: يا رَسُولَ الله، وما شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ فقال: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»(١).

فالمسألة عظيمة الشأن؛ فكم من متعبِّد يتعبَّدُ لغير الله وهو يَظُنُّ أنه لله؛ وذلك لأن اليسير من الرياء شِرْك، والشِّرْكُ أخفى من دَبِيب النمل(٢).

ويقول عليه الصلاة والسلام مبيِّنًا خَطَرَ الرياء: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، قالوا: وما الشركُ الأَصْغَرُ؟ قال: «الرِّيَاءُ؛ يقولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»(٣).

ومعلوم أن جِنْس الشرك أعظَمُ من جِنْس الكبائر.

قال ابن رجب: «وإنما زاد عذابُ أهل الرياء على سائر العُصَاة؛ لأن الرياء هو الشِّرْكُ الأصغر، والذنوبُ المتعلِّقةُ بالشرك أعظَمُ من المتعلِّقة بغيره»(٤).

والعبد إذا أراد أن يتخلَّص، فعليه أن يخلِّص قلبه مِن هذا الإشراك، وقد يَعمَلُ العبدُ معصيةً ظاهرة، فتكون أخف وأهون عليه في الحساب من صلاةٍ

---

(١) أخرجه أبو سعيد الأشج في «جزئه» (١١٦)؛ ومن طريقه ابن خزيمة (٩٣٧)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/٢٩٠)، و«الشعب» (٢٨٧٢)، وغيرهم، وصحَّحه ابن خزيمة، والمنذري في «الترغيب» (١/٦٨)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١). وفي الباب: عن جابر رضي الله عنه، لكنه لا يثبُتُ؛ كما في «الشعب» (٥/٤٢٨-٤٢٩).

(٢) كما جاء من حديث أبي موسى رضي الله عنه، وقد تقدَّم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «التخويف من النار» (ص ٢٨٣).

طويلةٍ يُرَائي بها، أو صيامٍ في يوم طويل شديد الحَرِّ يتزيَّن به أمام المخلوقين، وقد خرجَ النبي ﷺ يومًا على أصحابه وهم يتذاكرون الدجَّال، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟»، قال: قلنا: بلى، فقال: «الشِّرْكُ الخَفِيُّ؛ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنَ صَلَاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[(١)].

فهذا يخافه النبي ﷺ على أمَّته أعظم من خَوْفه عليهم من الدجَّال؛ وهذا يَدُلُّ على عِظَمِهِ مِن جهة، ودِقَّتِهِ حيث يخفى على الكثيرين مِن جهة أخرى.

وأيضًا: لأن النفوس قد أُشرِبَتْ حُبَّ المَحمَدة، فيصعُبُ تخليصها من ذلك؛ فهو أمرٌ يكاد يكون لازمًا لها، كامنًا فيها كمون النار في الزِّناد.

فينبغي على العبد أن يتبصَّر في نفسه، وفيمن حوله، وأن يكون شغله في إصلاح قَلْبِهِ قبل كل شيء؛ فإنه قد يُرَائِي في أمور لا يتفطَّنُ لها كثير من الناس[(٢)]؛ فقد يُرَائِي بإظهار الإشفاق والحُزْن والخوف من الله ﷻ، وقد يُرائي بضَعْف الصوت، وغَوْر العينَيْن، وذُبُول الشفتَيْن؛ ليستدل الناس بذلك على أنه صائم - مثلًا - وقد يَحرِصُ على إبراز أثر السجود، وإظهارِهِ في وجهه ليبدو للناس، وربما حسَرَ قَلَنْسُوَتَهُ عن جبهته ليبدو ذلك الأثر؛ فتلك أمور قد تخفى على الناس، والله ﷻ لا يخفى عليه شيء.

وقد يُرائي العبد بتزيين القول وتحسينه وتنميقه وتسجيعه؛ مِن أجل أن يحوز رضا الناس وإعجابهم، وقد يُرائي بالبكاء وإظهار التأثُّر في مَجَامِع الناس؛ كالذي يصلي بالناس، ويتكلَّف البكاء أو النَّشِيج؛ فأين هذا من فِعْلِ السَّلَف وما كانوا عليه مِن إخلاص العمل لله، وتوقِّي الرياء؟!

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحَّحه الحاكم (٤/٣٢٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠).
(٢) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٤٢).

لقد كان أبو وائل إذا صلَّى في بيته يَنشِجُ نَشِيجًا لو جُعِلَتْ له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه، ما فعَلَهُ[(١)].

وصَحَّ عن حمَّاد بن زيد؛ أنه قال: «كان أيُّوب ربما حدَّث الحديث، فيَرِقُّ، فيَلْتَفِتُ فيتمخَّط، فيقول: ما أَشَدَّ الزُّكَامَ!»[(٢)].

أما تكلُّف البكاء في الصلاة، فإنما يكون حينما يُغلِق الإنسان عليه بابه، ولا يَطَّلِع عليه أحد؛ أما أن يتكلَّف الإنسان ذلك في جموع المصلِّين، فهذا أمر لا يَسُوغ، لكن مَن غلبه البكاء، فهذا شأن آخر، وقد مَرَّ بك من حال السلف ما يُرشِدُك إلى حقيقة الأمر.

وقد يُرَائِي العبد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فيقوم مقامًا يُنكِر فيه بعض ما لا يجوز بنيَّة مَشُوبة برياءٍ أو عُجْبٍ أو نحو ذلك، فيسلَّط عليه من يُؤذِيه؛ لسوء قصده.

قال الذهبيُّ: «فكم من رَجلٍ نَطق بالحق، وأمَر بالمعروف فيُسلِّط اللهُ عليه من يُؤذيه لسوء قَصده، وحُبِّه للرئاسة الدينية، فهذا داءٌ خفيٌّ سارٍ في نفوس الفقهاء»[(٣)].

وقد يُظْهِرُ الأسف على حال الناس وانحرافهم، أو يُظْهِر الزهد في الدنيا.

وهذه ونحوها أمور قد يَفعَلُها من يَحترِق قلبه على الخلق محبَّةً لهم، وشفقةً عليهم؛ لقوَّة إخلاصه وتقواه، وقد يَفعَلُها من يُرِيد بذلك معنًى رديئًا، والله ﷻ وحده الذي يعلم ما في القلوب.

يقول ابن القيِّم: «فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السُّنَّة؛ وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٥٨)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠١/٤)؛ واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٢).

(٢) أخرجه أحمد في «العلل» برواية ابنه (٤٠٥/١)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٣).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٩٢/١٨).

﴿أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فهذا هو العمَلُ المقبول الذي لا يَقبَلُ الله مِن الأعمال سواه، وهو أن يكون موافِقًا لسُنَّة رسول الله ﷺ، مرادًا به وجه الله، ولا يتمكَّنُ العاملُ من الإتيان بعمل يَجمَع هذَيْن الوصفَيْن إلّا بالعلم؛ فإنه إنْ لم يعلم ما جاء به الرسول، لم يُمكِنْهُ قصده، وإنْ لم يَعرِفْ معبوده، لم يُمكِنْهُ إرادتُهُ وحده، فلولا العِلْمُ، لما كان عمله مقبولًا؛ فالعلم هو الدليل إلى الإخلاص، وهو الدليل على المتابَعة؛ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]؛ وأحسَنُ ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبَّل عمَلَ من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه: أنْ يكون لوجهه، على موافَقة أمره، وهذا إنما يحصُلُ بالعلم، وإذا كان هذا منزِلةَ العلم وموقعَهُ، عُلِمَ أنه أشرَفُ شيء وأجلُّه وأفضله»[١].

وهذا يعني: أن العبد يحتاج إلى علم وبصيرة؛ ليَعرِفَ كيف يتخلَّص من الرياء، ومن الشوائب التي تَشُوب عمله، وكيف يتوجَّه إلى ربه ومولاه، فيُخلِصُ سائر الأعمال لله تعالى.

٤ - أن يقطَعَ الطمعَ في المخلوقين، ولا يلتفِتَ إلى مدحِهم:

وهذا لا يتحقَّقُ - مع الصبر واليقين - إلّا بأمرَيْن:

الأول: أن يَعرِفَ ربَّه معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته؛ فيعرِفَ عظمتَهُ وجلاله، وأنَّ بيده النفعَ والضرَّ، والعطاءَ والمنع؛ فيتوجَّهُ إليه قلبُهُ بكلِّيَّته، ويُقبِلُ عليه.

الثاني: أن يَعرِفَ ضعفَ الخَلْق وعجزَهم عن أن يحصِّلوا لأنفسِهم نفعًا أو يدفعوا ضرًّا، فضلًا عن غيرهم؛ وبذلك ينقطِعُ طمعُهُ فيهم.

وقد سُئِلَ بعضُهم عما يُنالُ به الإخلاصُ؟ فقال: يُنالُ بثلاث خِلَال:

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٠٣-٣٠٤)؛ بتصرف.

فأعلاها التي يكونُ بها المخلِص أقوى المخلِصين، والخَطَراتُ عليه أقلَّ وأضعفَ: تعظيمُ قدرِ الربِّ وإجلالُه، واستصغارُ قَدْرِ المخلوقين: أنَّهم لا يستأهِلُونَ أن يُتقرَّبَ إليهم بطاعةِ الربِّ، فإنْ لم يَقْوَ على هذه الخَلَّة.

فالخَلَّةُ الثانية: أن يذكُرَ اطلاعَ اللهِ على ضميره، وهو يريد بطاعتِه حَمْدَ مملوكٍ ضعيفٍ يتحبَّب إليه بالمَقْت إلى مولاه، ويتقرَّب إليه بالتباعُد من سيِّده، ويحظى في عينِ عبدٍ مملوكٍ ضعيفٍ، ويموت بالسقوطِ مِن عَيْن الإله الذي لا يموتُ؛ فإنه حينئذٍ يستكِينُ عقله، ويخشعُ طَبْعُهُ مِن قَبُول كلِّ خَطْرة تدعوه إلى إرادة المخلوقين بطاعة ربِّه، فإنْ لم يَقْوَ على هذه الخَلَّة.

فالخَلَّةُ الثالثة: أن يرجعَ إلى نفسِهِ بالرحمة لها، والإشفاق عليها من حَبْطِ عملِهِ في يومِ فاقتِهِ وفقره، فيبقى خاسِرًا قد حَبِطَ إحسانُهُ وخَسِرَ عملَه[1].

والإنسانُ بحاجةٍ إلى أن يتأمَّل فيما حوله مِن أحوال المخلوقين، يتأمَّل حالَ هذا المخلوق إذا جاع أو عَطِشَ؛ كيف يكونُ شأنُهُ وحالُه؟! ويتأمَّل حاله إذا أصابه مَرَضٌ أو أَلَم؛ كيف تتحوَّلُ قوَّته وجَبَرُوته إلى ضعفٍ وعَجْز؛ فيكون أسيرًا لهذا المرض بطلب البُرْء، ويسأل عن الدواء، ويتأمَّله حينما يكونُ في قوَّته ونشاطه وحَيَويَّته؛ فيحتاج إلى النوم - ولا بدَّ له منه - كيف يتحوَّلُ هذا النشاطُ إلى ضعفٍ وخمولٍ وعَجْز، فإذا غلبه النومُ واستسلَمَ له، ظهَرَ بمَظهَرٍ يَجلِبُ الشفقة، طريحًا على فراشه، لا يسمعُ ولا يُبصِرُ، ولا يتكلَّم ولا يَعقِل.

فإذا انقضَتْ أيَّامُهُ، ووافاه أجلُهُ، تحوَّل إلى جِيفةٍ مُنْتِنة، ولو أنه نُسِيَ في بيته أو لم يَعرِفْ بموتِهِ أحدٌ، لَدَلَّتْ عليه رائحتُهُ المُنتِنةُ التي تُفسِدُ الأجواء، وتَضِيقُ بها الأنفاس! ومَن كان هذا حالَهُ وأصلَهُ من نُطْفةٍ مُستقذَرة، فكيف يُلتفَتُ إليه عند العبادة، وتُنفَقُ في رضاه الأموال؟!

---

(١) انظر: «الحلية» (١٠/٩٨).

ثم ماذا تُرِيدُ من مدحِ الناس؟! إذا أعجَبْتَهُمْ، بالغوا في مدحِكَ غالبًا وكذَبُوا، وإذا أبغضُوكَ، بالغوا في ذمِّكَ وتنقُّصِكَ، ورمَوْكَ بأقبحِ الأوصاف! فأيُّ خيرٍ في توجيهِ الأعمالِ إليهم؟! وأيُّ خيرٍ في تعلُّق القلب بهم؟!

أما المَلِكُ الديَّان - سبحانه - فبيدِهِ ملكوتُ كلِّ شيء، وهو مالكُ خزائِنِ السموات والأرض؛ فهو العظيمُ الذي يستحِقُّ أن يُعبَدَ وحده؛ فدَعْ عنك الالتفات إلى المخلوقين.

ويكفي قُبْحًا ومَذَمَّةً في ذلك: أن الناس إذا عَلِموا ذلك منك، أَطْرَوْكَ ومدَحُوك، وأثنَوْا عليك وعلى أعمالك؛ لأنهم يَعلَمون أنك تَطرَبُ لذلك؛ فيتوصَّلون إلى تحصيل مقاصدهم منك، أو كَفِّ شرِّك عنهم بمدحِك، والثناءِ عليك زُورًا وكذبًا؛ فأيُّ خير في هذا أن يُثنِيَ الناسُ عليك لأنَّك تُحِبُّ المدحَ؟!

قال الفُضَيْلُ: «تزيَّنْتَ لهم بالصُّوفِ ولم تَرَهُمْ يرفعونَ بك رأسًا، تزيَّنْتَ لهم بالقرآنِ فلم تَرَهُمْ يرفعونَ بك رأسًا، تزيَّنْتَ لهم بشيءٍ بعد شيءٍ كلُّ ذلك إنما هو لحبِّ الدنيا»[(١)].

وقال لرجلٍ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ كلمةً هي خيرٌ مِن الدنيا وما فيها: واللهِ، لَئِنْ عَلِمَ اللهُ منك إخراجَ الآدميِّين من قلبك، حتى لا يكونَ في قلبك مكانٌ لغيره، لم تَسأَلْهُ شيئًا إلّا أعطاك»[(٢)].

وعن بلال بن سَعْدٍ؛ قال: «لا تَكُنْ وليًّا لله في العَلَانِيَة، وعَدُوَّهُ في السَّرِيرَة»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٩٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإشراف» (٤٨٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر (٤٨/٤٠٣).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٨٥)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٢٨)، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٦)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٦٥٤٨).

وقال: «لا تكُنْ ذا وَجْهَيْنِ، وذا لسانَيْن؛ تُظهِرُ للناسِ لِيَحْمَدُوكَ، وقلبُكَ فاجرٌ»(١).

وفي هذا المعنى، يقولُ ابن القيّم: «لا يجتمِعُ الإخلاصُ في القلبِ ومحبَّةُ المدح والثناء والطَّمَع فيما عند الناس، إلّا كما يَجتمِع الماء والنار، والضبُّ والحُوت، فإذا حَدَّثَتْكَ نفسُكَ بطلب الإخلاص، فأَقبِلْ على الطمع أولًا، فاذبَحْهُ بسِكِّينِ اليأس، وأَقبِلْ على المدح والثناء، فازهَدْ فيهما زُهْدَ عُشَّاقِ الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذَبْحُ الطَّمَع، والزهدُ في الثناء والمَدْح، سَهُلَ عليك الإخلاص.

فإنْ قلتَ: وما الذي يسهِّل عليَّ ذبحَ الطَّمَعِ والزهدَ في الثناء والمَدْح؟

قلتُ: أما ذبحُ الطمع، فيسهِّله عليك: عِلْمُكَ يقينًا أنه ليس من شيء يُطْمَع فيه إلّا وبيد الله وحده خزائنُهُ لا يملكها غيره، ولا يُؤتِي العبدَ منها شيئًا سواه، وأمّا الزهد في الثناء والمَدْح: فيسهِّله عليك عِلْمُكَ أنه ليس أحد يَنفَعُ مدحُه ويَزِينُ، ويَضُرُّ ذمُّه ويَشِينُ إلّا الله وحده؛ كما قال الأعرابي للنبي ﷺ: «إنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وإنَّ ذَمِّي شَيْنٌ»، فقال النبيُّ ﷺ: «ذَاكَ اللهُ ﷻ»(٢).

فازهد في مدحِ مَن لا يَزِينُك مَدْحُه، وفي ذمِّ مَن لا يَشِينُكَ ذمُّه، وارغَبْ في مدحِ مَن كلُّ الزَّيْن في مَدْحِه، وكلُّ الشَّيْن في ذَمِّه.

ولن تَقدِر على ذلك إلّا بالصبر واليقين؛ فمتى فقَدتَّ الصبر واليقين، كنتَ كمن أراد السفر في البحر في غير مَرْكَب؛ قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنيَّة» (٢٨)، وقد جاء أيضًا عن محمد بن أبي عائشة بنحوه؛ كما أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٥٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧)؛ من حديث البَرَاء بن عازب رضي الله عنه، وحسَّنه، وقال ابن كَثير في «التاريخ» (٧/٢٤٤): «إسناده جيد متصل»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٠٥). وفي الباب: عن الأقرع بن حابس، وجابر، وعن قتادة والحسن: مرسَلًا.

وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]»[(١)].

وذكر في مَعْرِض ذِكْر أقسام الناس في الإخلاص والمتابَعة القِسْمَ الأول، وهم: «أهلُ الإخلاصِ للمعبود والمتابَعةِ، وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] حقيقةً؛ فأعمالهم كلها لله وأقوالهم: لله، وعطاؤهم لله، ومَنْعُهم لله، وحُبُّهم لله، وبُغْضُهم لله؛ فمعامَلَتُهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يُرِيدون بذلك مِن الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلَبَ المَحمَدةِ والمَنزِلةِ في قلوبهم، ولا هَرَبًا من ذمِّهم، بل قد عَدُّوا الناس بمنزِلة أصحاب القبور؛ لا يَملِكون لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

فالعمَلُ لأجل الناس، وابتغاءُ الجاه والمنزِلة عندهم، ورجاؤهم للضرِّ والنفع منهم، لا يكون مِن عارِفٍ بهم البتَّةَ، بل مِن جاهل بشأنهم وجاهل بربِّه؛ فمَن عرفَ الناس، أنزَلَهم منازلهم، ومَن عرفَ اللهَ، أخلَصَ له أعماله وأقواله، وعطاءَهُ ومَنْعَه، وحُبَّه وبُغْضَه، ولا يعامِلُ أحدٌ الخَلْقَ دون الله، إلّا لجهله بالله وجهله بالخلق؛ وإلا فإذا عرَفَ الله وعرَفَ الناس، آثَرَ معامَلة الله على معامَلتهم»[(٢)].

وعن فُضَيْل بن عِياض؛ قال: قيل لسليمان التَّيْمي: أنتَ أنت، ومَن مِثْلُك؟! قال: لا تقولوا هكذا؛ ما أدري ما يبدو لي مِن ربِّي ﷻ، سمعتُ الله ﷻ يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧][(٣)].

وكان نِظَامُ المُلْكِ الوزيرُ الحسن بن علي بن إسحاق مِن خيار الوزراء:

---

(١) «الفوائد» (ص ٢١٩- ٢٢٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٨٣).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٣٠).

«كان مجلسُهُ عامرًا بالفقهاء والعلماء؛ بحيث يقضي معهم غالب نهاره، فقيل له: إنَّ هؤلاء شَغَلُوكَ عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلَسْتُهُمْ على رأسي، لما استكْثَرْتُ ذلك، وكان إذا دخَلَ عليه أبو القاسمِ القُشَيْريُّ، وأبو المَعَالِي الجُوَيْنيُّ، قام لهما وأجلَسَهما معه في المِقْعَد، فإذا دخل أبو عليٍّ الفَارَمْذِيُّ، قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعُوتِبَ في ذلك، فقال: إنهما إذا دخلا عليَّ، قالا: أنتَ أنت، يُطْرُوني، ويعظِّمُوني، ويقولون فيَّ ما ليس فيَّ، فأزداد بهما ما هو مركوزٌ في نَفْسِ البَشَر، وإذا دخَلَ عليَّ أبو عليٍّ الفارَمْذِيُّ، ذكَّرني عيوبي وظُلْمي فأنكَسِرُ، فأَرجِعُ عن كثيرٍ مِن الذي أنا فيه»(١).

٥ - أن يُخْفِيَ عمَلَهُ:

ولهذا كان الصوم من أجلِّ الأعمال؛ لأنه يَخفَى على الناس، ويحتاج إلى الصَّبْر، وكانت صدقةُ السرِّ في الجملة أفضلَ مِن صدقة العلانية، وكانت الصلاة في جَوْف الليل أفضلَ الصلاة بعد المكتوبة.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا أصبحتم صيامًا، فأَصْبِحوا مُتَدَهِّنين»(٢).

وقال سفيان الثوري: «بلغني أن العبد يَعمَلُ العملَ سِرًّا، فلا يزالُ به الشيطان حتى يَغلِبَه، فيُكتَبَ في العلانية، ثم لا يزالُ الشيطان به حتى يُحِبَّ أن يُحمَدَ عليه؛ فيُنسَخَ من العلانية، فيُثبَتُ في الرياء»(٣).

ويقول بِشْر الحافي: «لا تَعمَلْ لِتُذكَر؛ اكتُمِ الحَسَنة كما تكتُمُ السيِّئة»(٤).

إلا أن صَدَقة العلانية قد تكون أحيانًا أفضل من صدقة السِّرّ، وقد ذكر

---

(١) «البداية والنهاية» (١٦/١٢٦). وانظر: «المنتظم» لابن الجوزي (١٦/٣٠٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٥٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٤٧٦)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٤٦) بنحوه. ورُوِيَ نحوه =

الطبري وغيره: أن الإعلان في صَدَقة الفرض أفضل من الإخفاء، وصدقة التطوُّع على العكس من ذلك(١).

قال أبو إسحاق الزجَّاج في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]: «هذا كان على عهد رسول الله ﷺ، فكان الإخفاء في إيتاء الزكاة أحسَنَ، فأما اليوم، فالناس يُسِيئُونَ الظنَّ؛ فإظهار الزكاة أحسَن، فأما التطوُّع، فإخفاؤه أحسن؛ لأنه أدَلُّ على أنه يُرِيدُ الله به وحده»(٢).

قال ابن عطيَّة: «ويُشْبِهُ في زمننا: أن يَحسُنَ التستُّر بصدقة الفرض؛ فقد كَثُرَ المانع لها، وصار إخراجها عُرْضةً للرياء»(٣).

وقال الزَّيْن بن المنيِّر: «لو قيل: إنَّ ذلك يَختلِف باختلاف الأحوال، لَمَا كان بعيدًا، فإذا كان الإمام مثلًا جائرًا، ومالُ مَن وجَبَتْ عليه مخفيًّا، فالإسرار أولى، وإنْ كان المتطوِّع ممن يُقتدَى به ويُتَّبَعُ وتَنبَعِثُ الهِمَم على التطوُّع بالإنفاق، وسَلِمَ قصدُهُ، فالإظهار أولى، والله أعلم»(٤).

ويؤيِّده: ما رواه مسلم(٥)؛ من حديث جرير بن عبد الله ؓ؛ قال: جاء ناسٌ مِن الأعراب إلى رسول الله ﷺ، عليهم الصُّوفُ، فرأى سُوءَ حالهم، قد أصابَتْهم حاجة؛ فحَثَّ الناسَ على الصدقة؛ فأبطؤوا عنه حتى رُئِيَ ذلك في وجهه، قال: ثم إنَّ رجلًا من الأنصار جاء بصُرَّة من وَرِق، ثم جاء آخر، ثم

= عن أبي حازم؛ أخرجه الفَسَويُّ في «تاريخه» (٦٧٩/١)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٦٤٩٦)، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٨/٢٢).

(١) «تفسير الطبري» (٥٨٤/٥).

(٢) «معاني القرآن» (٣٥٤/١).

(٣) «تفسير ابن عطيَّة» (٣٦٥/١).

(٤) «فتح الباري» (٣٤٠/٣).

(٥) برقم (١٠١٧).

تتابَعُوا، حتى عُرِفَ السرورُ في وَجْهِه، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ...»، الحديثَ.

٦ - أن يحاسِبَ نفسه على الخطَرَات والإرادات والنيَّات:

فيسأَلُ نفسَهُ دائمًا ويُحاسِبُها: ماذا أَرَدتَّ بهذه الكلمة؟ ماذا أَرَدتَّ بهذه الصدقة؟ ماذا أَرَدتَّ بهذا العمل؟

قال الحسن: «المؤمِنُ قَوَّامٌ على نفسه، يُحاسِب نفسه لله ﷻ، وإنما خَفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسَبُوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحساب يوم القيامة على أقوام أَخَذُوا هذا الأمر من غير محاسَبة»[١].

فالمؤمن يراقِبُ خواطره وإراداته، وأقواله وأفعاله دائمًا؛ لئلا يقع في الرياء، وقد قال عَبَدة بن أبي لُبَابة: «إنَّ أقرَبَ الناس مِن الرياء آمَنُهُمْ له»[٢].

وقال ابن القيِّم: «ومحاسَبةُ النفس نوعان: نوعٌ قبل العمل، ونوع بعده؛ فأمَّا النوع الأوَّل: فهو أن يَقِفَ عند أول هَمِّهِ وإرادته، ولا يُبادِرَ بالعمل حتى يتبيَّن له رُجحانُه على تَرْكه؛ قال الحسن: «رَحِمَ الله عبدًا وقَفَ عند هَمِّه؛ فإنْ كان لله مضى، وإنْ كان لغيره تأخَّر»[٣].

وشرَحَ هذا بعضهم، فقال: إذا تحرَّكَتِ النفس لعمل من الأعمال، وهَمَّ به العبد، وقَفَ أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدورٌ له أو غير مقدورٍ ولا مُسْتَطاع؟ فإنْ لم يكن مقدورًا، لم يُقدِم عليه، وإنْ كان مقدورًا، وقَفَ وقفةً أخرى ونظر: هل فِعْلُهُ خيرٌ له من تَرْكه، أو تَرْكُهُ خير له من فِعْله؟ فإنْ كان

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٧، ١٤٩)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٠٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٥٧/٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١١٣/٦).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٨٩٤).

الثاني، تركَهُ، ولم يُقدِمْ عليه، وإنْ كان الأوَّل، وقَفَ وقفةً ثالثةً ونظر: هل الباعثُ عليه إرادةُ وجه الله ﷻ وثوابِه، أو إرادةُ الجاه والثناء والمال مِن المخلوق؟ فإنْ كان الثاني، لم يُقدِمْ وإنْ أفضى به إلى مطلوبه؛ لئلا تعتاد النفس الشِّرْك، ويَخِفَّ عليها العمل لغير الله، فبِقَدْرِ ما يَخِفُّ عليها ذلك يَثقُلُ عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقَلَ شيء عليها»(١).

ويقول: «محاسَبةُ النَّفْس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسَبَتُها على طاعة قصَّرت فيها من حق الله تعالى؛ فلم تُوقِعْها على الوجه الذي ينبغي.

وحق الله في الطاعة ستة أمور... وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابَعة الرسول فيه، وشهودُ مَشْهَدِ الإحسان فيه، وشهودُ مِنَّةِ الله عليه فيه، وشهودُ تقصيرِهِ فيه بعد ذلك كله؛ فيُحاسِب نفسه: هل وفَّى هذه المقاماتِ حقَّها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يُحاسِبَ نفسه على كل عمل كان تركُهُ خيرًا له من فِعْله.

الثالث: أن يُحاسِبَ نفسه على أمرٍ مباح، أو معتادٍ: لِمَ فَعَلَه؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؛ فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدنيا وعاجِلَها؛ فيَخسَرَ ذلك الربح، ويَفُوتَهُ الظَّفَرُ به؟»(٢).

قال الذهبي: «ينبغي للعالم أن يتكلَّم بنية وحُسْنِ قَصْد؛ فإنْ أعجبه كلامه، فليَصْمُت، فإنْ أعجبه الصَّمْت، فليَنْطِق، ولا يَفتُرْ عن محاسَبة نفسه؛ فإنها تُحِبُّ الظهور والثناء»(٣).

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/١٦٢-١٦٣).
(٢) المصدر السابق (١/١٦٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/٤٩٤).

٧ - أن يجاهِدَ العبدُ نفسَهُ وهواه، وشيطانَهُ ودنياه:

والله ﷻ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ فعلَّق الهداية بالجهاد؛ وذلك - كما ذكرتُ سابقًا - أن الحكم المعلَّق على وصفٍ يزيد بزيادتِه، وينقُصُ بنقصانِه؛ فالحكم هو الهداية، والوَصْفُ هو المجاهَدة؛ فكلما ازدادت مجاهَدة العبد، ازدادت هدايته، وكلما قَلَّت مجاهَدته، قلَّت هدايته.

يقول ابن القيِّم: «أكمَلُ الناس هدايةً: أعظمهم جهادًا، وأفرَضُ الجهاد: جهادُ النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا؛ فمَن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سُبُلَ رضاه المُوصِلةَ إلى جَنَّته، ومن ترَكَ الجهاد، فاته من الهدى بحَسَب ما عطَّل من الجهاد؛ قال الجُنَيْد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ أهواءهم ﴿فِينَا﴾ بالتوبة، ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ سُبُلَ الإخلاص، ولا يتمكَّنُ من جهاد عدوِّه في الظاهر إلّا مَن جاهَدَ هذه الأعداء باطنًا؛ فمَن نُصِرَ عليها، نُصِرَ على عدوِّه، ومَن نُصِرَتْ عليه، نُصِرَ عليه عدوُّه»(١).

٨ - أن يتباعَدَ العبدُ جهدَهُ عن المواطن التي يحتاجُ فيها إلى التكلُّف والتصنُّع للمخلوقين:

وقد قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]؛ فالتكلُّف غير محمود؛ ومن ثَمَّ فإنه يَتباعَدُ عن الأمور التي تستدعي منه هذا التكلُّف.

وفي هذا قال عليُّ بن بَكَّار: «لَأَنْ أَلْقَى الشيطانَ أحبُّ إليَّ من أن ألقى فلانًا؛ أخاف أن أتصنَّعَ له فأسقُطَ من عَيْن الله»(٢).

وعن علي بن الحسن؛ قال: «بلَغَ فُضَيْلًا أن جريرًا يريد أن يأتيه، قال:

---

(١) «الفوائد» (ص ٨٢-٨٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٧٠)، (٩/٣١٨-٣١٩)؛ بتصرف.

فأقفلَ البابَ من خارج؛ قال: فجاء جرير، فرأى الباب مُقفَلًا، فرجَع، قال عليٌّ: فبلغني ذلك، فأتيتُهُ، فقلتُ له: جرير، فقال: ما يصنع بي؟! يُظْهِرُ لي محاسِنَ كلامه، وأُظْهِرُ له محاسِنَ كلامي! فلا يتزيَّن لي، ولا أتزيَّن له: خيرٌ له!»[١].

وعن الفَيْض بن إسحاق؛ قال: سمعتُ فضيلًا يقول: «لو قيل لك: يا مُرَائي، لَغَضِبْتَ، ولَشَقَّ عليك، وتشكو فتقول: قال لي: يا مُرَائي! عساه قال حقًّا؛ مِن حبِّك للدنيا تزيَّنْتَ للدنيا وتصنَّعْتَ للدنيا، ثم قال: اتَّقِ (الله؛ لا)[٢] تكن مرائيًا، وأنت لا تشعُرُ، تصنَّعْتَ وتهيَّأْتَ حتى عرَفَك الناس، فقالوا: هو رجل صالح، فأكرَمُوك، وقضَوْا لك الحوائج، ووسَّعوا لك في المجالس، وإنما عَرَفُوك بالله، ولولا ذلك لَهُنْتَ عليهم»[٣].

وكان يقول: «ما دخَلَ عليَّ أحدٌ إلّا خِفْتُ أن أتصنَّعَ له أو يتصنَّعَ لي»[٤].

قال المَرُّوذِيُّ: «ذُكِرَ لأحمد أن رجلًا يُرِيدُ لقاءه، فقال: أليس قد كَرِهَ بعضُهم اللقاء؟ يتزيَّنُ لي، وأتزيَّنُ له!»[٥]. فخيرٌ للعبد أن يُخالِط ويُجالِس مَن لا يتكلَّف لهم، فيكون معهم على سَجِيَّته، وتكون له نيَّة في كلامه، وفي كل أفعاله: إنْ صلَّى، فنيَّته خالصة، وإنْ تكلَّم، فكذلك، وإنْ تصدَّق، فكذلك، وكذلك إنْ قام لِخِدْمَتِهم.

٩ - أن يَجتنِبَ العبدُ أسبابَ الشُّهْرة قَدْرَ الإمكان:

وكلَّما تأمَّل العبد هذا المعنى، وكلام السلف فيه، ومُجانَبَتهم لأسباب

(١) «صفة الصفوة» (٢/٢٤٠)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٩٠) بنحوه.

(٢) ما بين القوسين من «تاريخ دمشق»، وهي في «الحلية» و«صفة الصفوة» بلفظ مغاير.

(٣) «صفة الصفوة» (٢/٢٤٠). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٩٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/٤٠٥) بنحوه.

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٤١)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/٤٠٤).

(٥) «تاريخ الإسلام» (١٨/٨٢).

الشُّهْرة والرياسة، دعاه ذلك إلى التفكير الطويل، والوقوف مع نفسه، والنظر في عمله وحاله.

وهذا لا يعني أن يَجلِس الواحد منا في بيته ويُغلِق عليه بابه، ويقولَ: لا أُحِبُّ الظهور، إني أخاف الشُّهْرة! فالمتقدِّمون مع مدافَعَتهم لتلك الآفات وإعراضهم عنها، ومَنْعِ أنفسهم من تعاطي أسبابها، كانوا يُظهِرون العلم للناس، ويُجاهِدون في سبيل الله، ويَفعَلون ما أمر الله ﷻ به، ولم يكن الواحد منهم يَجلِس في بيته، ويَترُك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونَشْرَ العلم وتعليم سُنَّة رسول الله ﷺ، وحضورَ الجُمَعِ والجماعات، والجهادَ في سبيل الله، ولكنه - مع التفاته إلى إصلاح قلبه - لا يَلتفِت إليه معرِضًا عما أمره به ربُّه، ولا يترُكُ الناس جاهلين تَعبَثُ بهم الشياطين، وتُورِدُهم مَوَارِدَ الهَلَكة.

وسيأتي من كلام السلف شيء كثير من هذا.

١٠ - أن يربِّيَ العبدُ نفسَهُ على إصلاح السريرة، بالإخلاص وإخفاء العمل:

فعلينا أن نربِّيَ أنفسنا ومَن تحت أيدينا على الإخلاص، وإخفاء العمل، وإصلاح السريرة؛ حتى يتهيَّأ لنا ولهم في أمر الآخِرة صحَّة القَصْد، وأسباب التشمير، غيرَ ملتفِتِين إلى طلب الثناء وحسن الإطراء.

وقد قيل: «مثَلُ العَلانِيَةِ مع السريرةِ كمَثَلِ ورق الشجر مع عِرْقِها؛ العَلانِيَةُ ورَقُها، والسريرةُ عِرْقُها، إنْ نُخِرَ العِرْقُ، هلَكَتِ الشجرة كلها: ورَقُها وعُودُها، وإنْ صلَحَتْ، صلَحَتِ الشجرة كلُّها: ثمَرُها وورَقُها؛ فلا يزال ما ظهر من الشجرة في خير ما كان عِرْقُها مستخفِيًا لا يُرَى منه شيء.

كذلك: الدِّينُ لا يزال صالحًا ما كان له سريرةٌ صالحةٌ يصدِّق الله بها عَلَانِيَته؛ فإن العَلانِيَةَ تَنفَعُ مع السريرة الصالحة، كما يَنفَع عِرْقَ الشجرة صلاحُ فَرْعِها، وإنْ كان حياتُها من قِبَلِ عِرْقها؛ فإنَّ فَرْعَها زِينَتُها وجمالها، وإنْ كانت

السريرة هي مِلَاكَ الدِّين؛ فإن العَلَانِيَةَ معها تزيِّنُ الدين وتجمِّله؛ إذا عملها مؤمن لا يريد بها إلّا رضاء ربه ﷻ»(١).

قال سفيان: «كان يقالُ: مَن كانت سريرتُهُ أفضَلَ مِن عَلانِيَته، فذلك الفضل، ومَن كانت سريرته شَرًّا مِن عَلانِيَتِهِ، فذلك الجَوْر»(٢).

وللأسف: فإنَّ العالَم الماديَّ الذي نَعِيشُ فيه اليوم لا يُعِينُ على تحقيق هذا المطلوب؛ وهو الإخلاص؛ حيث أصبحت الحوافز الماديَّة والمعنويَّة هدفًا لدى كثير مِن الناس، ولا ريب: أن الحوافز تقوِّي النفس، وتجدِّد النشاط، ولكنْ حينما تتحوَّلُ هذه الحوافز إلى هدَفٍ، فهذا أمر سيِّئ؛ بحيث يكون لا هَمَّ للإنسان إلّا جِدُّهُ واجتهادُه: أن يحصِّل ترقيةً أو يَسمَعَ مَدْحًا.

١١ - أن ينظُرَ العبدُ في عاقبة الرياء في الدنيا:

وقد كتَبَتْ عائشةُ إلى معاوية ﵄: «أمَّا بَعْدُ، فإن العبد إذا عَمِلَ بمعصية الله، عاد حامِدُهُ مِن الناس ذامًّا»(٣)؛ ويتأكَّد مثل هذا فيمن يَعمَلُ لحمد الناس وثنائهم؛ فإنه يُعامَلُ بنقيض قَصْده، والجزاءُ من جنس العمل.

ورُوِيَ عن عمر ﵁: «من خَلُصَتْ نيَّته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومَن تزيَّنَ لهم بما ليس في قلبه، شانَهُ الله»(٤)؛ فهو لا يزيد حاله عند الناس إلّا انحطاطًا وسفولًا.

١٢ - أن ينظُرَ في عواقب الإخلاص، وعواقب الرياء في الآخرة:

وقد ذكرتُ طَرَفًا من ذلك عند الكلام على عاقبة المقاصِد السيِّئة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٧٠)؛ من كلام وَهْب بن منبِّه.

(٢) المصدر السابق (٧/٣٠).

(٣) أخرجه وكيع (٥٢٣)؛ ومن طريقه أحمد (ص ١٦٥)، وأبو داود (٣٣٧)؛ كلُّهم في «الزهد»، وقد رُوِيَ الحديثُ مرفوعًا، ولكنْ ضعَّفه العقيلي في «الضعفاء» (٣/٣٤٣)، والدارقطني في «العلل» (١٤/١٨٢)، وغيرهما.

(٤) تقدم تخريجه.

مَسألةٌ هَلْ يكونُ إظهارُ العَمَلِ مُنافِيًا للإخْلاصِ ؟

والجواب: لا نستطيع أن نحكُمَ على عمل أحد بأنه رياء؛ لأن هذا بينه وبين الله ﷻ، وقد يُظهِرُ الإنسان عملًا يريد به وجه الله؛ فإظهار العمل لا يعني بالضرورة الرياء، والتحدُّثُ بالعمل لا يعني بالضرورة السُّمْعة، وإنما الرياء والسمعة شيء لا يعلمه إلّا الله ﷻ؛ فكم من مُظهِرٍ عَمَلَهُ كان إظهار عمله أحبَّ إلى الله من إخفائه.

قال الجُنَيْد: «الإخلاصُ: سِرٌّ بين الله وبين العبد»(١).

وقال مكحول: «رأيت رجلًا يصلي، وكلما ركَعَ وسجَدَ، بكى، فاتَّهَمْتُهُ أنه يُرائي ببكائه، فحُرِمْتُ البكاءَ سنةً»(٢).

يقول ابن قُدَامة؛ في بيان الرُّخْصة في قَصْد إظهار الطاعات: «وفي الإظهار: فائدةُ الاقتداء، وترغيب الناس في الخير، ومِن الأعمال: ما لا يُمكِنُ الإسرارُ به؛ كالحجِّ والجهاد، والمُظهِرُ للعمل ينبغي أن يُراقِبَ قلبه حتى لا يكون فيه حُبُّ الرياءِ الخَفِيِّ، بل يَنوِي الاقتداء به، ولا ينبغي للضعيف أن يَخدَعَ نفسه بذلك»(٣).

ويقول شيخ الإسلام: «ومَن كان له وِرْدٌ مشروع من صلاة الضُّحَى، أو قيام ليل، أو غير ذلك، فإنه يصلِّيه حيث كان، ولا ينبغي له أن يَدَعَ وِرْدَهُ

(١) «مدارج السالكين» (٢/٩٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٨٤).
(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٨٦).

المشروع؛ لأجل كونه بين الناس؛ إذا علم الله مِن قلبه أنه يَفْعَلُهُ سرًّا لله، مع اجتهاده في سلامته من الرياء، ومُفْسِدات الإخلاص»(١).

وكان مِن السلف: مَن يُظهِرُ عمله ويُخبِرُ به؛ فهذا أبو بكر بن عيَّاش لما حضرته الوفاة، بَكَتْ أخته، فقال لها: «ما يُبكِيكِ؟ انظُرِي إلى تلك الزاوية التي في البيت، قد ختَمَ أخوك في هذه الزاوية ثمانيَ عَشْرةَ ألفَ خَتْمةٍ»(٢).

وهكذا نُقِلَ عن جماعة من السلف: أنهم أخبَرُوا عن بعض الأعمال الصالحة التي عَمِلُوها؛ فلا يُمكِنُ أن يقالَ في مثل ذلك: إنه شِرْك، أو رياء.

وخلاصةُ ما يقالُ في هذا الباب:

أنَّ الطاعات على ثلاثة أقسام(٣):

القسم الأوَّل: ما شُرِعَ مجهورًا؛ كالجهاد، والأذان، والإقامة، وحضور الجمعةِ والجماعة، والتكبير في العيدَيْن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرِ ذلك من العبادات التي يُشرَعُ الجَهْرُ بها؛ فهذه لا إشكال في عَمَلِها علانيةً.

القسم الثاني: ما يكونُ إسرارُهُ أفضَلَ من إعلانِه؛ مثل: القراءة في الصلاة لغير الإمام، وإسرار الدعاء، وغير ذلك.

القسم الثالث: ما يُظهَرُ تارةً، ويُخفَى تارَةً؛ مثل الصدقة؛ فإذا خاف على نفسه الرياء، أو عرَفَ ذلك من عادته، فيتعيَّنُ إخراجها سرًّا؛ ليسُدَّ على نفسه باب الرياء والشُّبْهة، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ومَن أَمِنَ الرياء، فله حالان:

الأولى: أن يكون في مَوضِعِ القدوة؛ فهذا إذا أَمِنَ على نفسه الرياء، فقد يحسُنُ أن يُظهِرَ ذلك؛ من أجل أَن يقتدِيَ به الناس.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧٤/٢٣).

(٢) «تاريخ بغداد» (٣٨٥/١٤).

(٣) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١٥٢/١).

والثانية: إنْ لم يكنْ مَوضِعَ قدوةٍ؛ فالأفضل: أن يَعمَل هذا العمل سِرًّا، وإنْ أَمِنَ على نفسه الرياء، والله أعلم.

تنبيه:

ورَدَتْ عبارةٌ مشهورة عن الفُضَيْل بن عِيَاض؛ أنه قال: «تَرْكُ العملِ لأجلِ الناسِ رياء، والعمَلُ مِن أجل الناس شرك، والإخلاص: أن يعافِيَكَ الله منهما»[١].

وجاء عن ابن المبارَك؛ أنه قال: «لو أن رجلَيْنِ اصطحَبَا في الطريق، فأراد أحدُهما أن يصلِّيَ ركعتَيْنِ، فتركهما لأجل صاحبه، كان ذلك رياءً، وإنْ صلَّاهما مِن أجلِ صاحبه، فهو شِرْك»[٢].

وفي ذلك نَظَر؛ وقد تكلَّم العلماء في معناها[٣]، وخلاصةُ ذلك: أنَّ كون (العمل مِن أجلِ الناس شرك) هذا واضح، وأمَّا أنَّ (تَرْكَ العمل لأجل الناس رياء)، فليس على إطلاقه.

وهذا الكلام ليس بدقيق؛ والعبارة ليست عن معصوم، ولولا أنها قولة مشهورةٌ لَمَا ذكَرْتُها؛ فالعمل من أجل الناس وقصدهم هو من الشرك نعم، لكنّ تَرْك العمل أو الإحجام عنه من أجل الناس غايته أنه خطأ، وليس من الرياء في شيء؛ فينبغي للإنسان ألَّا يترُكَ عمله، وإنما يصحِّحُ قصده ونيَّته، بل إن الحارث بن قَيْس يقول: «إذا أتاك الشيطانُ وأنت تصلِّي، فقال: إنك تُرائِي، فزِدْها طُولًا»[٤]، ولو أنه دخَلَ عليه داخل، وهو يقرأ في المصحف، فترَكَ القراءة، ونشَرَ ثوبَهُ على المصحف؛ فمثلُ هذا لا يقالُ: إنه أشرك، وإنما يقالُ: كان ينبغي عليه أن يواصِلَ عمَله.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦٤٦٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٠٢/٤٨) بنحوه مختصرًا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٧١/٨).

(٣) ينظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (المجموعة الأولى) (٧٦٨/١).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٦٠)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٢/٤).

وقد ذكر بعض أهل العلم مَحْمل قول الفُضيل: «تَرْك العمل لأجل الناس رياء» أن ذلك باعتبار أن عمله لو كان لله لم يَضُرّه اطلاع الناس عليه(١)؛ لأنه لا يُبالي بنَظَرهم واطّلاعهم، لكن لما كان مُلْتَفِتًا إليهم صار مُرائِيًا.

وقد قالوا: إن مقصود المُرائي بعمله ثلاثة أشياء: تعظيم الخَلْق له، وجَلْب المنافع الدُّنيوية له، ودَفْع المَضَار الدُّنيوية عنه(٢).

فإذا نظرنا إلى حال هذا الذي ترك العمل لئلا يُظَنَّ به الرياء، فإنه يُلَاحِظ هذه المطالب الثلاثة.

وقد عرفتَ ما فيه.

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: «روح البيان» (٤/١٠٩)، و«الدرر السنية» (٤/٣٧٧).

(٢) ينظر: «الفروق» للقرافي (٣/٢٢)، و«شرح البخاري» للسفيري (المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ﷺ من صحيح البخاري) (١/١٢٤).

الأمور التي تنافي الإخلاص

إن الذي ينافي الإخلاصَ هو الشِّرْكُ بجميع أنواعه:

فالشرك الأكبر: يكون معه حبوط الأعمال؛ فلا يُقبَلُ مِن صاحب الشرك الأكبر صَرْفٌ ولا عَدْل؛ قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال عزَّ من قائل: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ [النور: ٣٩]؛ فليس لهم حظٌّ عند الله ﷻ ولا نَصيب.

والشرك الأصغر كالرياء أيضًا؛ فإنه ينافي الإخلاص كذلك، وإنْ كان لا يُحبِطُ جميع العمل، وإنما يُحبِطُ ذلك العمَلَ الذي اقترَنَ به.

وهؤلاءِ الذين يُشرِكُونَ مع الله ﷻ غيرَهُ، قد أخلُّوا بأحد أركان قَبُول العمل الثلاثة، وهي: الإخلاص، والمتابَعة، والإيمان[1]؛ كما قال الله ﷻ في آخر سورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال في أولها: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢]، فذكَرَ الإيمان، وذكر العمل الصالح، والعملُ لا يكون صالحًا إلّا إذا كان خالصًا وصوابًا على وَفْقِ ما شرَعَ الله ﷻ.

والآياتُ الدالَّةُ على ذلك كثيرة؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]؛ فقوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾، هو أن يكون خالصًا صوابًا، وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هو الشرطُ الثالثُ مِن شروط قَبُولِ العمل؛ حيثُ لا يقبل الله مِن كافر عملًا أصلًا.

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» (٢/٨٢-٨٣، ٤٤٠-٤٤١)، (٣/٨١-٨٢، ١٩٦-١٩٧).

أَنْوَاعُ العَمَلِ المَقْبُول

تقدَّم أن العمل المقبول في جانب الإخلاص على مرتبَتَيْن(١):

المرتبة الأولى - وهي أعلاهما -: أن يعمل العمل يريد به وجه الله، ولا يَلتفِتَ إلى شيء آخر. (وقد يلحق بهذه المرتبة ما ذكرتُ سابقًا).

المرتبة الثانية: أن يَلتفِتَ إلى أمر آخر يجوز أن يَلتفِتَ إليه؛ كالذي يجاهِدُ يريد وجه الله ﷻ، ويريد الغنيمة، وكالذي يَحُجُّ وهو يريد وجه الله ﷻ، ويريد أيضًا أن يتاجِرَ في الحج.

فهذا المقبول من العمل، وأمَّا ما سواه، فهو العمل المردود؛ وهو أنواع كما سيأتي:

* * *

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣٨٤/٤)، و«قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١٥١/١)، و«الفروق» للقرافي (٢٢/٣ - ٢٣)، و«مقاصد المكلفين» (ص ٤٥٢).

أَنْوَاعُ العَمَلِ المَرْدُودِ(١)

النوع الأول: مَن تمحَّضَتْ إرادتُهم لغير الله تبارك وتعالى؛ وهم على قسمَيْنِ:

أوَّلهما: من تمحَّض قصدُهُ للرياء والسُّمْعة؛ فهم لا يريدون ما عند الله ﷻ، إنما يفعلون الشيء نفاقًا أو رياءً أو سُمْعةً؛ فمثل هؤلاء لا نَصِيبَ لهم عند الله ﷻ.

القسم الثاني: وهم أولئك الذين تمحَّضت إرادتُهم للدنيا، لكنْ لا للرياء والسُّمْعة؛ كمَن يصومُ لِيَصِحّ، ويَصِلُ الرحمَ لِيُنسَأَ له في أثره، ويزكِّي ماله لينمُوَ ويبارَكَ له فيه، وكالذي يغزو وهو لا يريد وجه الله، وإنما يريد الغنيمة فقطْ؛ فأولئك لا نَصِيبَ لهم في الآخرة على هذه الأعمال.

وأما أصحاب القسم الأول: فإنْ كان رياؤهم في أصل الإيمان، فإنَّ ذلك يجعلهم ممن توعَّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥- ١٦]؛ فحكَمَ عليهم بحبوط الأعمال، ودخول النار؛ كما قال تعالى أيضًا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]؛ قال مطرِّفٌ: «إن أقبحَ ما طُلِبَتْ به الدنيا: عَمَلُ الآخرة»(٢).

---

(١) ينظر: المصادر السابقة.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٠٨).

وهكذا مَن كان بكل حال مريدًا للدنيا لا يريد سواها: فهي غايةُ هَمِّه، ومَجمَعُ عَزْمه، وهي طَلِبَتُهُ التي مِن أجلها يقومُ ويَقعُد، ومِن أجلها يعمل؛ فليس له مطلوب سواها؛ فمثلُ هذا متوعَّدٌ بهذه العقوبة.

النوع الثاني: وهو أن يريدَ وجه الله ﷻ، ويَلتفِتَ مع ذلك إلى أمر لا يجوزُ الالتفات إليه؛ كمَن يَحُجُّ يريد وجه الله ﷻ، ويريدُ مع ذلك أن يقالَ: فلان حاجٌّ، ويجاهِدُ يريد وجه الله ﷻ، ويريدُ مع ذلك أن يقالَ: فلانٌ مجاهِدٌ، أو شجاع، ويتصدَّقُ يبتغي وجه الله ﷻ، ويريدُ أن يقالَ: فلانٌ جَوَادٌ، وهكذا.

فهؤلاء لا نَصِيبَ لهم عند الله ﷻ على هذا العمل، وفي الحديث القُدْسي الصحيح: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

وبهذا الاعتبار صار التشريك في النيَّة على نوعَيْن:

- **نوعٌ**: يُشرِكُ فيه العامل بأمر يجوز التشريك فيه؛ وهو أمر مباح يجوز أن يلتفِتَ إليه المكلَّف، ويحصُلُ على سبيل التَّبَع.

- **وأمَّا الثاني**: فهو المحرَّم؛ وهو أن يلتفِتَ - مع إرادة وجه الله ﷻ - إلى أمرٍ يحرُمُ الالتفات إليه؛ وهو الرياءُ والسُّمْعة.

فصار الالتفات على نوعَيْن:

نوعٌ محرَّم.

ونوعٌ جائز.

وصار التمحُّض في الإرادة على نوعَيْن:

- أنْ يريدَ وجه الله فقط؛ وهو الإخلاص.

- أنْ يريدَ غيرَ وجه الله ﷻ؛ وهو قسمان:

---

(١) تقدم تخريجه.

الأوَّل: أنْ يريدَ الدنيا فقطْ غير الرياء والسُّمْعة.

الثاني: أنْ يريدَ رياءً وسمعةً خالصةً، ولا يريدَ وجه الله ﷻ مع ذلك.

فهذه مراتِبُ العامِلين وأنواعُهم مِن جهة الالتفات الذي يجوز والذي لا يجوز.

وبعد هذا العَرْضِ يحسُنُ الكلام على هاتَيْنِ العِلَّتَيْنِ: (الرياء والسمعة) بشيء من التفصيل.

* * *

الرِّيَاءُ والسُّمْعَة

معنى الرياء:

الرياء: مَصدَرٌ مِن: راءى يُرَائِي مُرَاءاةً، ورِيَاءً، فهو مُرَاءٍ، وحقيقتُهُ في كلام العرب: أن يُرِيَ غيرَهُ خلافَ ما هو عليه؛ فيُظهِرَ الخشوع وليس بخاشع، ويُظهِرَ التقوى وليس بتقي، وهكذا حينما يتزيَّن بأعماله التي يُظهِرُ أنه يريدُ بها وجه الله ﷻ؛ ليحصِّلَ منزلةً في قلوب المخلوقين لِيُطْرُوهُ، ويُثْنُوا عليه، ويَرْفَعُوه، وما إلى ذلك[١].

وعبارات العلماء في معنى «الرياء» متفاوِتةٌ، مع تقارُبها في المعنى[٢]:

فقيل: هو أن يقوم العبد بالعبادة التي يُتقرَّبُ بها لله، لا يريدُ الله ﷻ، بل يريدُ عَرَضًا دنيويًا. (وهذا أعم من الرياء).

وقيل: هو إرادة العبد العباد بالعبادة.

وقيل: هو التشبُّه بذوي الأعمال الفاضلة؛ طلبًا للسُّمْعة والمفاخَرة.

وقيل: هو إظهار عمل العبادة لينالَ مُظهِرُها عرضًا دنيويًا: إما بجَلْب نَفْعٍ دنيوي، أو تعظيم، أو إجلال. (وهذا أعم من الرياء).

وقيل: هو طلَبُ ما في الدنيا بالعبادة؛ وأصلُهُ: طَلَبُ المنزِلةِ في قلوب الناس.

وقيل: الرياءُ أن يَفعَلَ شيئًا مِن العبادات التي أمَرَ الله بفِعْلِها لغيره.

وقيل: هو إظهار العبادة لقصد رؤية الناس؛ فيَحْمَدوا صاحبَها.

---

(١) انظر: «تاج العروس» (٣٨/١٠٥)، (ر أ ى).

(٢) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٣٦).

وهذا أدقُّ التعريفات، وهو الذي اختاره ابن حَجَر[(١)]؛ فصار الرياء يتعلَّق بأمرٍ مُظهَرٍ لقصدِ رؤية الناس؛ لأن الرياء يتعلَّق بحاسَّة البصر؛ فهو يريدُ بهذا أن يحصِّل منزِلةً في قلوب الناس، لا يريدُ أمرًا مباحًا يحصُلُ على سبيل التَّبَع؛ كما قلنا في الذي يَحُجُّ ويريدُ التجارة، ونحوه.

وقد فرَّق بعضهم بين الرياء والإخلاص؛ بـ «أن المرائي يَعمَلُ لِيُرَى، والمخلِصَ يَعمَلُ لِيَصِل»[(٢)].

وأما الفَرْقُ بين الرياء والسُّمْعة[(٣)]:

فإن الرياء: يتعلَّق بحاسَّة البصر؛ كأن يقوم أمام الناس يصلي ويُظهِرُ الخشوع، ويُخرِجُ الصدقة ليراه الناس؛ فيقولوا: متصدِّق، أو جَوَاد...

وأما السُّمْعة: فتتعلَّق بحاسَّة السمع؛ وعليه فالتسميع لا يكون إلّا بالعبادات التي تُسمَع؛ كقراءة القرآن، وذكر الله تعالى.

ويُلحَقُ بها: ما يفعله الإنسان من العبادات التي تُرَى؛ كالصلاة والجهاد والصَّدَقة، وغير ذلك مما لم يَطَّلِعْ عليه أحد، ولكنه تحدَّث به وأخبَرَ عنه لِيُذْكَرَ بحسن الثناء؛ فصار بذلك مسمِّعًا.

ومنها أيضًا: أن يَطلُبَ من الناس أن يتحدَّثوا عن أعماله، أو يطلُبَ أن يُكتَبَ ذلك عنه، ونحو ذلك.

وعلى هذا: فالرياء لا يدخُلُ في العبادات القلبيَّة التي لا يطَّلع عليها الناس؛ كالخوف، والرجاء، والمحبَّة، والتقوى، والتوكُّل، والإشفاق، وتعظيم الله ﷻ، وغير ذلك؛ فهذه أمور لا يَطَّلِعُ عليها الناس؛ ومِن ثَمَّ: فإن الرياء لا يتعلَّق بها، ولكن تَدخُلُها السُّمْعة.

---

(١) «فتح الباري» (١١/٣٤٤-٣٤٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٨١)، عن جعفر بن محمد الخُلْدِي.

(٣) انظر: «فتح الباري» (١١/٣٤٤)، و«مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٣٧).

فإن قيل: إذا قام العبد يصلِّي، وهو يُظهِرُ الخشوع على جوارحه؛ أليس ذلك مِن الرياء؟[١]:

فنقول: هذا الذي أظهَرَهُ ليس هو الخشوع، بل هو أثرٌ من آثار الخشوع؛ فإنَّ السكون الظاهر، وانكسار العبد في صلاته: انعكاس لخشوع قلبه.

قال شيخ الإسلام: «خشوع الجسَد تَبَعٌ لخشوع القلب؛ إذا لم يكن الرجُلُ مرائيًا يُظهِرُ ما ليس في قلبه»[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) قال ابن القيِّم: «والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق: أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوَقَار والمَهَابة والحياء؛ فيَنكسِر القلب لله كَسْرَةً مُلتئِمةً من الوجل والخجل والحُبِّ والحياء وشهود نعم الله وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة، فيَتبَعُهُ خشوع الجوارح. وأما خشوع النفاق: فيبدو على الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا والقلب غير خاشع، وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرَى الجسد خاشعًا والقلب غير خاشع». «الرُّوح» (٢/٦٩٤). وينظر: «الإحياء» للغزالي (٤/٣٣، ٣٨٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/٢٩).

أقسام التسميع

والتسميع ينقسِم إلى قسمَيْن[1]:

١ - تسميعٌ بعمل قد حصَل.

٢ - تسميع بعمل لم يُوجَدْ أصلًا.

وكلاهما باطل، وصاحبُهُ متوعَّد بالعقوبة، وعمله مردود:

أما الأوَّل: فهو أن يعمل العمل حيث لا يراه الناس، فإذا جالسهم، حدَّثهم به؛ كالذي يصلي بالليل، فإذا أصبَحَ، تحدَّث بعمله، وأنه صلى كذا وكذا ركعةً، وفعَلَ كذا وكذا؛ يريدُ منزِلةً في قلوبهم له، وإقبالًا مِن وجوههم عليه.

وأما الثاني: فصاحبُهُ كلابس ثوبَيْ زُور، متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، وهو أقبح من الأول؛ يقول: فَعَلْتُ، ولم يَفعَلْ، وقلتُ، ولم يَقُلْ؛ كالذي يُخبِرُ عن نفسه: أنه يصلِّي بالليل وهو لا يصلي، أو يصوم الاثنَيْنِ والخميسَ وهو لا يصوم، فهذا متشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، مسمِّعٌ بالأكاذيب.

وقد يجمع بين الرياء والسُّمْعة، كما لو أنه عَمِلَ أعمالًا أمام الناس يرائي بها، ويشرِّكُ فيها بالنيَّة تشريكًا محرَّمًا، ثم ينقلِبُ إلى آخرين يحدِّثهم بها؛ فهذا يَجمَعُ بين الرياء والسُّمْعة؛ حيث راءى بعمَله الظاهر أمام الناس، ثم سمَّع به في آخرين.

---

(١) انظر: «قواعد الأحكام» للعز بن عبد السلام (١/١٤٧- ١٤٨).

الفَرْق بين الرياء والعُجْب(١):

العُجْبُ من أدواء العاملين، وآفات غير المُخبِتين، أمَّا المؤمنون، فخاشعون منكسِرُونَ؛ ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

والعُجْبُ آفةٌ تُحبِطُ العمل؛ يقول النووي: «اعلَمْ: أنَّ الإخلاص قد يَعرِضُ له آفةُ العُجْب؛ فمَن أُعجِبَ بعمله، حَبِطَ عملُه، وكذلك مَن استكبر، حَبِطَ عملُه»(٢).

ورُوِيَ من حديث أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ، خَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ: العُجْبَ، العُجْبَ»(٣).

وقال مطرِّف بن عبد الله: : «لَأَنْ أَبِيتَ نائمًا وأُصبِحَ نادمًا، أَحَبُّ إليَّ مِن أن أَبِيتَ قائمًا وأُصبِحَ معجَبًا»(٤).

والفَرْقُ بين الرياء والعُجْب: أن الرياءَ مِن باب الإشراك بالخَلْق، وأمَّا العُجْبُ، فإنه من باب الإشراك بالنَّفْس؛ بحيث يَلتفِتُ إلى نفسه، وأنه بذَلَ

---

(١) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٣٨).

(٢) «شرح الأربعين» للنووي (ص٧).

(٣) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٩٦٦/٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣٠٥/٣)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٦٨)؛ واللفظ له، والقضاعي في «الشهاب» (١٤٤٧)، والبزَّار (٦٩٣٧)، وذكره ابن حِبَّان في «المجروحين» (٤٣١/١)، ولم يُسنِدْه، وغيرهم. وأورده الذهبي في «الميزان» (١٨٠/٢)، وابن حجر في «اللسان» (١٠٠/٤)، في منكَرات سلام بن أبي الصهباء، وقد انفرد به؛ كما قال العُقَيْلي والبزَّار، وقال الذهبي في «الميزان»: «ما أحسنه من حديث لو يصح»، وضعَّفه ابن طاهر في «ذخيرة الحفاظ» (٤٦١٢)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣٧٠/٣)، وحسَّنه ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٢١٩٢)، والمناوي في «فيض القدير» (٣٣١/٥)، وجوَّد المنذري إسناده في «الترغيب» (٥٧١/٣)، والهيثمي في «المجمع» (٢٦٩/١٠)، والألباني في «الصحيحة» (٦٥٨). انظر: «فتح الوهاب» (٨٦٥).

(٤) أخرجه ابن المبارك (٤٤٨)، وأحمد (ص٢٤١)؛ كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٠/٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٠٠/٥٨).

وقدَّم وعَمِلَ، وأنه جاد بهذه الأعمال الصالحة، وبهذه الصدقات؛ فتعاظَمَ في نفسه.

قال شيخ الإسلام: «كثيرًا ما يَقرِنُ الناس بين الرياء والعُجْب؛ فالرياءُ مِن باب الإشراك بالخَلْق، والعُجْبُ مِن باب الإشراك بالنَّفْس؛ وهذا حال المستكبِر، فالمرائي لا يحقِّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والمعجَبُ لا يحقِّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فمَن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، خرَجَ عن الرياء، ومَن حقَّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، خرَجَ عن الإعجاب»(١).

دواعي الرياء وأسبابه(٢):

ربما يتساءل البعض: ما الذي يَحمِل العبد على ركوب هذه الأخطار، وعلى هذه التضحيات الجِسَام؛ فيقوم الليل الطويل، ويصوم النهار الحارّ، ثم يَذهَبُ ويتحدَّث؛ فلا يَرجِعُ إلّا بعمل مردود، ووِزْر مكتوب؟!

والجواب: قد تقدَّم أن الإخلاص شاقٌّ على النفوس؛ وذلك لقوَّة داعي الرياء، وضَعْف النفوس بما جُبِلَتْ عليه من حبِّ الشهوات، وحبِّ الترؤُّس والظهور، واعتبِرْ ذلك في الصبي؛ فإنك إن أَثْنَيْتَ عليه، سرَّه ذلك، ورأيت أثره على وجهه وجوارحه، وإنْ أنت ذَمَمْتَهُ، كَرِهَ ذلك منك وأعرَضَ عنك، واحمَرَّ وجهُهُ خَجَلًا أو ضَجَرًا مما يَسمَع من عَيْبه وتنقُّصه.

وعلى ذلك: جُبِلَتِ النفوس؛ فهي تحبُّ المدح، وتَكرَهُ الذمّ، وكثير من الناس يعادي من ذمَّه وإن كان محقًّا؛ ولذلك تجد كثيرًا من الناس يتحاشَوْنَ ذكر عيوب الآخرين لهم، والقيام بواجب النصيحة؛ لئلا يتغيَّر هؤلاء عليهم، فترَكُوا ما أمر الله به مِن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى لا يَسخَطَ الناس.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٧٧).

(٢) انظر: «مقاصد المكلفين» (ص ٤٣٩).

ولكنك إذا ذكَّرْتَهم بما تهوى أنفسُهم، سرَّهم ذلك؛ سواءٌ كان ما ذكَرْتَ متحقِّقًا فيهم أم لم يكن كذلك.

وقد قيل(١):

يَهْوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزٌ وَمُقَصِّرٌ   حُبُّ الثَّنَاءِ طَبِيعَةُ الإنْسَانِ

ولا نكون قد بالغنا لو قلنا: إن الداعي إلى الرياء والسُّمْعة أعظَمُ من الداعي إلى الشِّرْك الأكبر؛ لأن النفوس مجبولة على التوحيد، والشرك الأكبر منافٍ للفِطْرة؛ كيف يُعبَدُ الحجَرُ والشجر؟! كيف تُعبَدُ هذه المخلوقات الأرضيَّة من دون الله تبارك وتعالى؟! هذا أمر ينافي الفِطْرة السليمة.

ولذلك أنكَرَ بعض من عاش في أزمان الجاهليَّة على المشرِكين تلك المعبودات؛ لأنها تخالِفُ العقل والفِطْرة.

لكنَّ محبَّة الحمد والثناء من الناس متمكِّنة من النفوس؛ فيصعُبُ على الإنسان أن يتخلَّص منها؛ فنفسُهُ تميل إليها ميلًا شديدًا، ولا تزالُ نفسه تحدِّثُهُ حتى يتحدَّث بأعماله، ويرائِيَ بها؛ يقول الله ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]، ويقول: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠- ٢١].

والعبدُ قد يُخلَقُ مطبوعًا على حبِّ الرياسة، أو الشُّحّ، أو الجُبْن، أو العَجَلة، إلى غير ذلك من الصفات الذميمة، لكنه لا يُمكِنُ أن يُخلَقَ مطبوعًا على الكفر وبغض الإيمان؛ فأصله شريف، وهو يعالِجُ به تلك العيوبَ التي طُبِعَ عليها، والأصل: أن صحة الأصل أصل في صحة الفرع؛ فإنه إنْ طابقه، فذاك، وإنْ خالفه، دَعَتْهُ دواعي استقامة أصله إلى تثقيف اعوجاجه.

ولذلك فإنَّ كلَّ صالح من قول أو عمل، فهو من شُعَب الإيمان، وكلَّ طالح من قول أو عمل، فهو من شُعَب الكفر؛ كما حقَّقه شيخ الإسلام وابن

(١) القائل: ابن نُبَاتة السعدي؛ كما في «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٧٩).

القيِّم رحمهما الله[١]؛ ولذلك فإن دواعي الرياء والسُّمْعة أكثر وأعظم من دواعي الشرك والكفر.

فحبُّ الثناء والمدح، وبغضُ الذم، والطمع فيما في أيدي الناس، ومخافة الضَّيْعة في الدنيا، كلُّ ذلك يدعوه إلى إظهار عمَلِهِ ليرتفع به.

ويمكِنُ أن يقالَ بعد ذلك: إن الرياء يَجمَعُهُ حبُّ المَحمَدة، وكراهيةُ المَذَمَّة؛ فهو يحاوِلُ أن يتنزَّه عن الأعمال التي لا تليقُ ولو كان يُواقِعها؛ وهذا أحَدُ نوعي الرياء؛ وهو الرياء الكاذب.

وهو أيضًا: يُظهِرُ أنه يُحِبُّ الأعمال الصالحة، ويأتيها؛ كتفقُّد الأرامل، والإنفاق على الفقراء والمساكين، وغير ذلك؛ فإنْ كان صادقًا، فرياء، وإنْ كان كاذبًا، فمتشبِّعٌ بما لم يُعْطَ، مع كونه مرائيًا.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: «جامع الرسائل» لابن تيميَّة (٢/٢٩٢)، و«كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص ٨٥-٨٦).

مِنْ أَخْبَارِ المُرَائِين

قال ابن الجَوْزي: «وقد كان دخَلَ إلينا إلى بغداد بعض طلبة الحديث، وكان يأخُذُ الشيخَ، فيُقعِدُهُ في الرَّقَّة - وهي البستان الذي على شاطئ دجْلَة - فيقرأ عليه، ويقول في مجموعاته: حدَّثني فلان وفلان بالرَّقَّة، ويُوهِمُ الناس أنها البَلْدةُ التي بناحية الشام؛ ليظنُّوا أنه قد تَعِبَ في الأسفار لطلب الحديث. وكان يُقْعِدُ الشيخ بين نهر عيسى والفرات، ويقول: حدَّثني فلان مِن وراء النهر؛ يُوهِمُ أنه قد عبَرَ خراسان في طلب الحديث، وكان يقول: حدَّثني فلانٌ في رحلتي الثانية والثالثة؛ لِيَعلَمَ الناسُ قَدْرَ تعبه في طلب الحديث؛ فما بُورِكَ له، ومات في زمان الطَّلَب؛ قال - ابن الجوزي -: وهذا كله من الإخلاص بمَعْزِل، وإنما مقصودُهم الرياسة والمباهاة»[(١)].

قال: «وأمَّا الرياء، فلا عُذْرَ فيه لأحد، ولا يصلُحُ أن يُجعَلَ طريقًا لدعاية الناس، وقد كان أيُوبُ السَّخْتِيانيُّ إذا حدَّث بحديث، فرَقَّ، مسَحَ وجهه، وقال: «ما أشدَّ الزُّكَامَ!»»[(٢)].

وبعد هذا: فالأعمال بالنيَّات، والناقد بصير، وكم من ساكت عن غِيبة المسلمين، إذا اغتِيبُوا عنده فَرِحَ قلبه، وهو آثِمٌ بذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: الفرَح؛ فإنه قد حصَلَ بوجود هذه المعصية من المغتاب.

(١) «تلبيس إبليس» (ص ١٢٧-١٢٨).

(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «الرِّقَّة والبكاء» (١٥٨)، عن حماد بن زيد؛ قال: «ذكر أيوب يومًا شيئًا، فرَقَّ؛ فالتفتَ كأنه يتمخَّط، ثم أقبَلَ علينا، فقال: إن الزكام شديد على الشيخ»، وقد تقدَّم نحوه.

والثاني: لسروره بثَلْب المسلمين.

والثالث: أنه لم يُنكِر.

وقد لبَّس إبليس على الكامِلِين في العلوم؛ فيَسهَرون ليلهم، ويَدأَبُون نهارهم في تصانيف العلوم، ويُرِيهم إبليس أن المقصود نَشْرُ الدين، ويكونُ مقصودهم الباطن: انتشار الذِّكْر، وعلو الصِّيت، والرياسة، وطَلَب الرِّحْلة من الآفاق إلى المصنِّف... وقد قال بعض السلف: «ما مِن عِلْمٍ عَلِمْتُهُ إلّا أحببتُ أن يَستفِيدَهُ الناس مِن غير أن يُنسَبَ إليَّ»(١).

«ومنهم: مَن يَفرَحُ بكثرة الأتباع، ويلبِّس عليه إبليس: بأن هذا الفرَحَ لكثرة طلّاب العلم، وإنما مرادُهُ: كثرةُ الأصحاب، واستطارةُ الذكر، ومِن ذلك: العُجْبُ بكلماتهم وعلمهم.

وينكشِفُ هذا التلبيس: بأنه لو انقطَعَ بعضهم إلى غيره ممن هو أعلَمُ منه، ثَقُلَ ذلك عليه، وما هذه صفةَ المخلِص في التعليم؛ لأن مثَلَ المخلِص مثَلُ الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى، فإذا شُفِيَ بعض المرضى على يَدِ طبيب منهم، فَرِحَ الآخر»(٢).

وقال أيضًا: «وقد لبَّس إبليس على جماعة مِن قُوَّام الليل، فتحدَّثوا بذلك بالنهار، فربما قال أحدهم: فلان المؤذِّن أذَّن بوقت؛ ليَعلَم الناس أنه كان منتبِهًا؛ فأقلُّ ما في هذا - إنْ سَلِمَ من الرياء - أن يُنقَلَ من ديوان السرِّ إلى ديوان العَلانِيَةِ، فيَقِلُّ الثواب...»، وقال: «وقد لبَّس على قوم من المتعبِّدين، وكانوا يبكون والناس حولهم، وهذا قد يقَعُ عليه، فلا يُمكِن دَفْعُه؛ فمَن قدَرَ على سَتْرِهِ، فأظهره، فقد تعرَّض للرياء»(٣).

---

(١) انظر: «آداب الشافعي» لابن أبي حاتم (ص ٣٢٦).

(٢) «تلبيس إبليس» (ص ١٤٣).

(٣) المصدر السابق (ص ١٥٨).

قال: «ومِن أعجب ما رأيت فيهم - يعني: القرَّاءَ -: أن رجلًا كان يصلي بالناس صلاة الصبح يوم الجمعة، ثم يَلتفِتُ، فيقرأ المعوِّذتين، ويدعو دعاء الخَتْمة؛ ليعلم الناس أنه قد ختَمَ الخَتْمة، وما هذه طريقة السلف؛ فإن السلف كانوا يستُرُونَ عبادتهم، وكان عمل الرَّبِيع بن خُثَيْم كله سرًّا، فربما دخَلَ عليه الداخل، وقد نشَرَ المصحف، فيغطِّيه بثوبه[1]، وكان أحمد بن حنبل يقرأ القرآن كثيرًا، ولا يُدرَى متى يَختِمُ!»[2].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٣٢)

(٢) «تلبيس إبليس» (ص ١٦٠).

العَلَامَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ إِخْلَاصِ العَبْدِ[١]

مِن العلامات الدالَّة على إخلاص العبد أمور:

أولًا: أن يكون هَمُّهُ انتشار الخير وظهور الحق، وتديُّنَ الناس بهذا الحق الذي جاء به الرسول ﷺ؛ سواءٌ كان ذلك ظاهرًا على يده، أم ظاهرًا على يد غيره؛ فالمقصود: تكثير الخير، وتقليل الشرّ.

قال الربيع بن سليمان المُرَادي: «دخلتُ على الشافعيِّ وهو مريض، فسألني عن أصحابنا، فقلتُ: إنهم يتكلَّمون، فقال لي الشافعي: ما ناظَرْتُ أحدًا قَطُّ على الغَلَبة، وبوُدِّي أن جميع الخلق تعلَّموا هذا الكتاب - يعني: كُتُبَه - على ألَّا يُنسَبَ إليَّ منه شيء؛ قال هذا الكلام يوم الأحد ومات هو يوم الخميس»[٢].

وكان يقول وهو يَحلِف: «ما ناظَرْتُ أحدًا قطُّ إلّا على النصيحة»[٣].

وقال أيضًا: «ما ناظَرْتُ أحدًا، فأحببتُ أن يخطئ إلّا صاحبَ بِدْعة؛ فإني أحبُّ أن ينكَشِفَ أمره للناس»[٤].

وقال: «ما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلّا أحببتُ أن يوفَّقَ ويسدَّدَ ويُعَان، ويكونَ عليه رعاية من الله تعالى وحِفْظ»[٥].

---

(١) انظر: «مقاصد المكلَّفين» (ص ٤٧٣).

(٢) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/٤٣٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥١/٤٣٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/١١٨)؛ واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/٣٨٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/١١٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥١/٣٨٤)؛ واللفظ له.

(٥) «الإحياء» (١/٢٦).

ولهذا ما ناظَرَ الشافعي رجلًا إلّا غلَبَه؛ وهذا بسبب إخلاصه وحسن قصده.

يقول محمد بن عبد الله بن عبد الحَكَم: «كنتُ إذا رأيتُ مَن يُناظِرُ الشافعيَّ، رَحِمْتُه»، وقال: «لو رأيت الشافعيَّ يناظِرُك، لظننتَ أنه سَبُعٌ يأكُلُك»، وقال: «الشافعيُّ علَّم الناس الحُجَج»[(١)].

فكان يُورِدُ على الخَصْم الحُجَج من هنا وهناك، والآخَرُ لا يدري كيف يُجِيب؛ ولا يَفعَل ذلك إلّا لإظهار الحق وإعلاء كلمته.

وقد ذكَرَ بعض أهل العلم مثلًا يوضِّح ذلك[(٢)]: وهو أن الواعظ، أو المحاضِر، أو الداعي إلى الله ﷻ؛ إذا وجَدَ في مكانه رجلًا، أو حَلَّ البَلَدَ أحدٌ هو أفقهُ منه، وأعلَمُ منه، وأبلَغُ منه، واستمال قلوبَ الناس حتى أذعَنُوا له، وتاب على يدَيْهِ خلقٌ أكثَرُ من الذين تابوا على يد الأول:

فإنْ كان مخلصًا، فإنه لا يتبرَّم، بل يَفرَحُ أنْ قد كُفِيَ، وأنَّ هذا الخير قد ذاع وانتشر، وانتفَعَ الخلق بهذا الهدى.

أمَّا إذا كان في إخلاصِه نظَرٌ، فإنه يتبرَّم بذلك، ويَغضَب، وربما حاول أن ينتقِصَهُ؛ كأن يقول: فلانٌ واعِظ، لكنه ليس من أهل العلم، فلانٌ لا فِقْهَ له، أو يدعوه باسمه المجرَّد على خلاف عادة الناس؛ لِيَضَعَ مِن قدره، ويَحُطَّ مِن منزِلته؛ فأين مثل هذا مِن سبيل المخلِصين، وعمل المتقين؟!

ثانيًا: أنه لا يبالي بثناء الناس ومَدْحهم وإطرائِهم:

وقد سُئِلَ ذو النُّون عن علامة الإخلاص؟ فقال: «إذا لم يكن في عمَلك محبَّةُ حَمْدِ المخلوقين، ولا مخافةُ ذمِّهم، فأنت مُخلِصٌ إن شاء الله»[(٣)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/٢٠٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥١/٣٧٦).
(٢) انظر: «ميزان العمل» (ص ٢٤٢)، و«تلبيس إبليس» (ص١٣٦-١٣٧).
(٣) «حلية الأولياء» (١٠/٢٤٣).

وقال: «ثلاثةٌ مِن أعمال الإخلاص: استواءُ المَدْحِ والذمِّ من العامَّة، ونِسْيانُ رؤيتهم في الأعمال نظرًا إلى الله، واقتضاءُ ثوابِ العمل في الآخرة بحسن عفو الله في الدنيا بحسن المِدْحة»[١].

وأما غير المخلِص: فإنَّ الكلمة التي فيها تعظيمه تُرضِيه ولو كانت باطلًا، والكلمةَ التي فيها تنقُّصُهُ تُسخِطُهُ ولو كانت حقًّا، بينما المخلِص حقًّا يَفرَح بالنصح، فالمؤمِن مِرْآةُ أخيه، وإنما يصانُ المرءُ بعد توفيق الله ﷻ بإخوانه الذين يَنصَحونه ويبيِّنون له عَوَارَهُ واعوجاجه؛ فيعمل على إقامة ما اعوَجَّ، وإصلاح ما فسَدَ.

وقد رُوِيَ عن عمر ﵁؛ أنه قال: «رَحِمَ الله مَن أهدى إليَّ عيوبي»[٢].

وقال الحافظ ابن كَثِير: «وقد صنَّف الحافظ عبد الغني - يعني: الأَزْدِيَّ - كتابًا فيه أوهامُ الحاكم، فلما وقف الحاكم عليه، جعَلَ يقرؤه على الناس، ويَعترِف لعبد الغنيِّ بالفضل ويشكُرُه، ويَرجِعُ فيه إلى ما أصاب فيه من الردِّ عليه؛ رحمهما الله»[٣].

ثالثًا: أنه لا يبالي لو خرَجَ كلُّ قَدْرٍ له في قلوب المخلوقين؛ فسواءٌ عنده أحبوه أم أبغضوه، أكرموه أم أهانوه، قرَّبوه بالولاء أم نابذوه بالعداء:

وإنما همُّه: إصلاح القلب، وإصلاح العمل، وتصحيح القَصْدِ والإرادة؛ ومِن ثَمَّ: فهو لا يُحِبُّ أن يطَّلع أحد من الخلق على عمَلِ عمله، بل يُحِبُّه مخبوءًا مستورًا.

قال بعضهم: «رأيتُ في الطواف رجلًا بين يدَيْهِ شَاكِرِيَّةٌ[٤] يمنعون الناس

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٦١- ٣٦٢).

(٢) أخرجه الدارمي في «سننه» (٦٧٥)؛ في رسالة عبَّاد الشامي، وإسناده معضَل.

(٣) «البداية والنهاية» (١٥/٥٧٨)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/١٠٤٨).

(٤) شاكرية: كلمة معرَّبة؛ بمعنى: الخَدَمِ أو المماليك.

لأجلِهِ عن الطواف، ثم رأيتُهُ بعد ذلك بمدَّة على جسر بغداد يسأل شيئًا، فتعجَّبت منه، فقال لي: إني تكبَّرْتُ في موضعٍ يتواضَعُ الناس فيه؛ فابتلاني الله بالذلِّ في موضعٍ يترفَّعُ الناس فيه»[١].

أما غير المخلِصين: فقد جعلوا دِينهم غرضًا لأهوائهم؛ فعالِمُهم مع كل طائفة على ما يريدون؛ إذا كان في مَجلِس التجار، رخَّص لهم في معامَلاتِهم بأنواع التراخيص، وأحَلَّ لهم ما حُرِّمَ عليهم بأدنى الحِيَل، وإذا كان في مَجلِسِ العوامِّ، فما أهونَ دِينَهُ عليه في مجلسهم! وهكذا هو مع كل طائفة بحَسَبِ ما يَرُوقُ لهم؛ حتى لا يَفقِدَ القاعدة الجماهيريَّة التي تشاهِدُ نَدَوَاتِه ومحاضَراتِه، عبر القنوات الفضائية، أو عبر مواقع التواصُلِ الاجتماعي، في الشبكة العنكبوتيَّة، أو غير ذلك، وكما يقول بعضهم: «المحافَظةُ على الشُّهْرة أصعَبُ مِن تحصيل الشهرة»؛ حِكَمٌ ودُرَرٌ للغافلين والمعرِضِينَ عن الله ﷻ وعن الدار الآخرة!

وما حاجتُهُ إلى تحصيل الشُّهْرة حتى يحتاج إلى المحافَظة على الشهرة؟! وما وجه الصعوبة في زَعْمهم؟! ربما أنه قد يصدُرُ منه تصرُّفٌ يَنفِرُ منه الناس، ورضا الناس غايةٌ لا تُدرَك؛ ومِن ثَمَّ: فهو دائمًا في تيقُّظ؛ إذا مال الناس، مال معهم، وإذا استفتَوْهُ، أفتاهم بما يُرضِيهم؛ يَتَّقِي سَخَطهم بالتعرُّض لسخط الله، متقلِّبًا ظهرًا لبطن على هواه، لا يبالي أأسخَطَ الله عليه أم أرضاه!

وأما عاملُ الآخرة: فإنه قَوَّالٌ بالحق، لا يَكترِثُ بالناس وإن سَخِطوا جميعًا؛ فليس رضاهم بمرغوبِه، ولا سَخَطُهم بمرهوبِه، الرضا لديه رضا الله فهو يأتيه، والسَّخَطُ سخطُ الله فهو يَتَّقِيه، وليس يُنجِيه رضاهم من عذاب الله؛ إنْ سَخِطَ عليه مولاه.

وقد قرأتُ في بعض التقارير عن بعض كبار القساوسة: أن الذين يتابِعُونَ

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٣١).

برامجهم في بعض القنوات في أوروبا وأمريكا، قد يبلُغُ في بعض الإحصائيَّات عشرات الملايين، ويبني أحدهم مدينةً كاملةً - مدينةً دعويَّةً - بأكثر من ثلاثين مليارًا، هذه المدينة تستوعِبُ عددًا مَهُولًا من الحضور الذين يتابِعُونَ هذه الدروس وتلك المحاضَرات والمؤتمرات التنصيريَّة، وهو نصرانيٌّ ضالٌّ يعبُدُ ثلاثة آلهة؛ ماذا يغني عنه هؤلاء وهو يُضِلُّهم؟!

ناهيك عن أعداد المتابِعِين في وسائل التواصل لبعض المغنين الغربيين، أو مَن له شهرة في جانب من جوانب اللهو، فإن هذه المتابعات تزيد أكثر وأكثر، وقد تربو على مئات الملايين، فما قيمة هذا كله؟!

أما المؤمِن الذي يبلِّغُ كلمة الله ﷻ، وينشُرُ الهدى بين الناس، ويقومُ على أمر الله، وهو لا يخشى في الله لائمة، فهو مُشفِقٌ على حاله، يخشى على حَسَنَتِهِ أن يَنطفِئَ نُورُها، ويخشى من سيِّئته أن يقوم خطِيبُها، يخشى أن يقوم بغير الحق خطأً فيَزِلّ، فيتَّبِعه الناس؛ فتبقى عليه التَّبِعة.

رابعًا: أنه إذا عرَضَ له أمران؛ أحدُهما: يُرضِي الله ويُسخِط الناس، والثاني: يُرضِي الناس ويُسخِط الله، قدَّم رضا الله تبارك وتعالى على رضا الناس، ولم يَضُرَّه ما يُصِيبه في جَنْب الله مِن أذاهم:

فإن أرادوا قَتْلَهُ، قال[1]:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي اللهِ مَصْرَعِي

وإن أرادوا نَفْيَهُ قال:

«ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبستاني في صدري؛ إنْ رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقني»[2].

وإن حَبَسُوهُ، قال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

---

(١) القائل: هو خُبَيْب بن عَدِيّ رضي الله عنه؛ قاله قبل مقتله؛ وقصَّة مقتله أخرجها البخاري (٣٠٤٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص١٠٩).

فله من كلِّ همٍّ فَرَج، ومِن كلِّ ضِيقٍ مَخرَج، ومع كلِّ عُسْرٍ يُسْر.

وقد كان شيخ الإسلام يقول: «المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربِّه تعالى، والمأسورُ: مَن أسَرَهُ هواه»، وكان يقول في مَحبَسِهِ بالقلعة: «لو بَذَلْتُ مِلْءَ هذه القَلْعةِ ذهبًا، ما عدَلَ عندي شُكْرَ هذه النعمة»، أو قال: «ما جَزَيْتُهم على ما تسبَّبُوا لي فيه مِن الخير»، ونحو هذا[1].

وذلك لمَّا حصَلَ له من المعاني الإيمانيَّة، والمَعَارِف الربانيَّة، والأحوال القلبيَّة؛ فهذا يقوله مع أنه حِيلَ بينه وبين الناس، ووُضِعَ في سِجْنٍ لا يأتيه الناس ولا يزورونه؛ حتى إنَّ الأقلام والوَرَق مُنِعَ عنه؛ فصار يكتب بالفَحْمِ على الجُدْران، وكان هذا أشدَّ الأشياء عليه؛ أنه مُنِعَ من الكتابة[2].

ولما أُدخِلَ في سجنٍ آخرَ، فيه عُتَاةُ المجرِمِينَ، تحوَّل السجنُ إلى مكانٍ للعبادةِ والعلم؛ حتى إنهم خافوا على هؤلاء منه أن يَتَّبِعُوهُ ويُناصِرُوهُ، فأخرجوه مِن السِّجْن...

هكذا يكون المخلِص الذي يريد وجه الله ﷻ؛ لا يَهُمُّهُ أن يتبوَّأ شيئًا من المَرَاتِبِ العالية في الدنيا، إنما هَمُّهُ في مَرْضاة الله ﷻ.

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص ١٨٥، ٢٦١، ٤٨١).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الإِخْلَاص

أختِمُ هذا الموضوع بالعَيْش مع أهل الإخلاص بالتعرُّف على أحوالهم، وذِكْرِ بعض أخبارهم؛ في مقام الإخلاص والنُّفْرة من إشاعة الذِّكْر؛ وهو حديث شَيِّقٌ يَجذِب النفوس، وتَرِقُّ له القلوب، وفيه عِبْرةٌ لمن يعتبر.

ونحن في حاجة شديدة إلى النظر دائمًا في أحوال الصالحين في عبادتهم، وتقواهم، ووَرَعهم، وخَوْفهم، وإيمانهم، وفي إخفائهم للعمل الصالح، نحتاج لمعرفة أحوالهم في كلِّ شأنٍ من شؤونهم.

قد يتقاصر الإنسان أمام الأنبياء والمرسَلين عليهم الصلاة والسلام، ويقولُ: هؤلاء أيَّدهم الله ﷻ بالوَحْي، ولا سبيل للشيطان عليهم، ولا حاجة لهم بالدنيا، ولكنَّ هؤلاء ممن نذكُرُ أخبارَهم، لم يكونوا من النبيِّين، ولكنْ من ورَثَتهم مِن العلماء والصِّدِّيقين.

أولًا: حِرْصُهم على استصحاب النيَّة في كلِّ شيء:

فقد كان الإمام أحمد يقول لابنه رحمهما الله: «يا بُنَيَّ، انوِ الخير؛ فإنك لا تزالُ بخيرٍ ما نَوَيْتَ الخير»(١).

وقيل لنافع بن جُبَيْر: «أَلَا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت؛ حتى أنوي»(٢)؛ أراد أن يُحدِثَ نيَّة، وليس معنى ذلك أن يَنطِقَ بها، فيقول: نَوَيْتُ أن أشهَدَ الجنازة، أو أصلِّي على الجنازة؛ كما يفعله بعض العوامِّ.

---

(١) نقله ابن مُفلِح في «الآداب الشرعيَّة» (١/١٣٣).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٣٥٣٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦١/٤٠٧).

وقال زُبَيْد اليامي: «انْوِ في كلِّ شيءٍ تريده الخيرَ، حتى خروجِك إلى الكُنَاسَة[(١)]»[(٢)].

وقال إبراهيم النَّخَعي: «لم يكنْ عبد الرحمن بن يزيد يَعمَلُ شيئًا إلّا بنيَّة؛ حتى إنْ كان يَشرَبُ الماء بنيَّة»[(٣)].

وربما قيل لإبراهيم التَّيْمي: تكلَّم، فيقول: «ما تحضُرُني نيَّة»[(٤)].

وقال محمد بن أبي حاتم وَرَّاقُ البخاري: «ورأيته - يعني: البخاري - استَلْقَى على قفاه يومًا، ونحنُ بفَرَبْرَ في تصنيف التفسير، وكان أتعَبَ نفسه في ذلك اليوم في كثرة إخراج الحديث، فقلت له: يا أبا عبد الله، سمعتُكَ تقول يومًا: إني ما أتيتُ شيئًا بغير علم قطُّ منذ عَقَلْتُ؛ فأيُّ علم في هذا الاستلقاء؟ فقال: أتعبنا أنفسنا في هذا اليوم، وهذا ثَغْرٌ من الثغور؛ خشيتُ أن يحدُثَ حدَثٌ مِن أمر العدو، فأحببتُ أن أستريح وآخُذَ أُهْبةَ ذلك؛ فإنْ غافصنا العدو، كان بنا حَرَاك»[(٥)].

وكان يحيى بن عيسى الأنباري الواعظ عابدًا جليل القَدْر، قال ابن الجوزي: «كان يَبكِي على المنبر مِن حين صعوده إلى حين نزوله، وتعبَّد في زاويته نحو خمسين سنة، وكان وَرِعًا، حتى إنه عَطِشَ مرَّةً، فجيء بماء بارد من بعضِ دُورِ الحكام، فلم يَشرَبْ، وكان لا يفعل شيئًا إلّا بنيَّة»[(٦)].

وكان نُور الدين زِنْكي - الملك المجاهد - يُكثِرُ اللعب بالكُرَة، فعاتبه

---

(١) الكُنَاسة: موضع إلقاء القمَامة.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٦٣)؛ ومن طريقه الدينوري في «المجالسة» (٣٥٣٣)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (١/٢٧٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٢١١).

(٥) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/١٤).

(٦) «المنتظم» (١٨/١٢٣)؛ بتصرُّف، و«تاريخ الإسلام» (٣٨/١٠٨).

رجل من كبار الصالحين في ذلك؟ فقال: «إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما أريد بذلك تمرينَ الخَيْلِ على الكَرِّ والفَرِّ، وتعليمَها ذلك، ونحن لا نتركُ الجهاد»[(١)].

وروى ابن عساكر عن أبي الحسين النُّورِيِّ؛ أنه اجتاز بزَوْرَقٍ فيه خمر مع ملَّاح، فقال: «ما هذا؟! ولمن هذا؟! فقال له: هذه خمر للمعتضِد؛ فصَعِدَ أبو الحسين إليها، فجعَلَ يَضرِبُ الدِّنَانَ بعمود في يده حتى كسَرَها كلَّها سوى واحد تركه، واستغاث الملَّاح، فجاءت الشرطة، فأخذوا أبا الحسين، فأوقَفُوه بين يدي المعتَضِد، فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا المحتسِب، فقال: ومَن ولَّاك الحِسْبة؟ فقال: الذي ولَّاك الخلافة يا أمير المؤمنين! فأطرَقَ رأسه، ثم رفَعَها، فقال: ما الذي حمَلَكَ على ما فعَلْتَ؟ فقال: شفقةً عليك؛ لدفع الضرر عنك؛ فأطرَقَ رأسه، ثم رفعه، فقال: ولأي شيءٍ ترَكْتَ منها دَنًّا واحدًا لم تَكسِره؟ فقال: لأني إنما أقدَمْتُ عليها فكسَرْتُها إجلالًا لله تعالى، فلم أبالِ أحدًا، حتى انتهيتُ إلى هذا الدنِّ، دخل في نفسي إعجابٌ مِن قَبِيلِ أني قد أقدَمْتُ على مثلك، فتركتُهُ، فقال له المعتضِد: اذهب؛ فقد أطلقتُ يدك، فغَيِّرْ ما أحببتَ أن تغيِّرَهُ من المنكر، فقال له النُّورِيُّ: الآن انتقَضَ عَزْمِي عن التغيير، فقال: ولِمَ؟ فقال: لأني كنتُ أغيِّرُ عن الله، وأنا الآن أغيِّرُ عن شرطي، فقال: سَلْ حاجتك، فقال: أُحِبُّ أن تُخرِجَني من بين يديك سالمًا، فأمَرَ به فأُخرِجَ، فصار إلى البصرة، فأقام بها مختفِيًا؛ خشيةَ أن يشقَّ عليه أحد في حاجته عند المعتضِد؛ فلما توفِّي المعتضِد، رجع إلى بغداد»[(٢)].

وعن أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ؛ قال: سمعتُ أبا سلمان يقول: «سمعتُ أبا جعفر المنصور يبكي في خطبته يوم الجمعة، فاستقبلني الغضب، وحضرتني

(١) «البداية والنهاية» (١٦/٤٨٢).

(٢) «تاريخ دمشق» (٧١/٢١١)، و«البداية والنهاية» (١٤/٧٠٤)، و«تنبيه الغافلين» (ص٦٦- ٦٧).

نيَّة أن أقوم فأَعِظَهُ بما أعرِف من فعله إذا نزَلَ، قال: فكَرِهْتُ أن أقوم إلى خليفة فأعظه، والناس جلوس يرمقونني بأبصارهم، فيَعْرِض لي تزيُّن، فيأمر بي، فأُقتَل على غير صحيح، فجلستُ وسكتُّ»(١).

ومن طريف ما ورد في ذلك: ما ذكره أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله؛ قال: «كنتُ يومًا في بيت عمَّتي، ولها بنونَ أكبَرُ مني، فلم أرهم، فسألتُ عنهم، فقالوا: قد مَضَوْا إلى عبد الله بن داود، فأبطؤوا، ثم جاؤوا يذمُّونه، وقالوا: طلبناه في منزله فلم نجده، وقالوا: هو في بُسَيْتِينةٍ له بالقرب، فقصدناه فإذا هو فيها، فسلَّمنا عليه وسألناه أن يحدِّثَنا، فقال: مُتِّعْتُ بكم، أنا في شغل عن هذا، هذه البُسَيْتينة لي فيها معاش، وتحتاج إلى أن تُسْقَى، وليس لي مَن يسقيها، فقلنا: نحن نُدِيرُ الدُّولَابَ ونسقيها، فقال: إنْ حضرتكم نيَّة، فافعلوا، قالوا: فتشلَّحنا وأدَرْنا الدولاب حتى سقينا البستان، ثم قلنا له: حدِّثْنا الآن، فقال: مُتِّعْتُ بكم، ليس لي نيَّة في أن أحدِّثكم، وأنتم كانت لكم نيَّة تُؤْجَرُونَ عليها»(٢).

ثانيًا: كِتْمانهم أعمالهم:

يقول الحسن البصري: «إنْ كان الرجل لقد جمَعَ القرآن، وما يشعُرُ به جاره، وإنْ كان الرجل لقد فَقِهَ الفقهَ الكثير وما يشعُرُ به الناس، وإنْ كان الرجل ليصلِّي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوَّار وما يشعُرُون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض مِن عَمَلٍ يَقدِرُونَ على أن يعملوه في سِرٍّ، فيكون علانيةً أبدًا»(٣).

(١) «تلبيس إبليس» (ص ١١٥).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/١١٩-١٢٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/٣١)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه ابن المبارك (١/١٤٠)، وأحمد مختصرًا (ص٢٦٢)؛ كلاهما في «الزهد».

وكان ابن مُحَيْرِيزٍ مِن أحرص الناس أن يكتُمَ مِن نفسِهِ أحسَنَ ما عنده[(١)].

وكان لشُرَيْح القاضي بيتٌ يخلو فيه كلَّ جمعة لا يدري أحدٌ من الناس ماذا يصنع فيه[(٢)].

وقال عبد الرحمن بن مَهْدِيّ: «قلت لابن المبارَك: إبراهيم بن أَدْهَم ممن سَمِع؟ فقال: قد سَمِعَ من الناس، ولكنْ له فضل في نفسه، صاحبُ سرائر، وما رأيته يُظهِرُ تسبيحًا، ولا شيئًا من الخير، ولا أكل طعامًا مع قوم قطُّ إلّا كان آخِرَ مَن يرفع يده»[(٣)]؛ أي: كان لا يُظهِرُ عملًا صالحًا مع قُدْرَته على إخفائه، وإذا جلس مع الناس على طعام، كان آخِرَ من يرفع يده؛ يريهم أنه ليس بزاهد، وأنه يأكل كما يأكل عامَّة الناس لا يقوم أَوَّلَهم، فيقول قائل: فلان يُقِيمُ صلبه بلُقْمة أو لقمتَيْنِ، ويكتفي!

ثالثًا: إخلاصُهم في جهادهم:

وفي مقام الجهاد تشتدُّ الحاجة إلى إخلاص النيَّة؛ وإلا فالموت والفوت؛ فهذا عبد الله بن المبارَك حينما خرَجَ في غزو بلاد الرُّوم، فالتقى المسلمون بالعدو، وخرَجَ عِلْجٌ من العدو يطلب المبارزة، ويجول بين الصَّفَّيْن، فخرَجَ له رجل من المسلمين، فما أمهله؛ قتله العِلْج، وخرج الثاني فقتله، وخرج الثالث فقتله، فبرَزَ له رجل آخر، فصاوله ثم قتَلَ العِلْجَ، فاجتمَعَ الناس عليه ينظرون مَن هو؟ فجعَلَ يغطِّي وجهه بكُمِّهِ لئلا يَعرِفه أحد، فجاءه رجلٌ يقالُ له: أبو عمرو، فرفع كمَّه عن وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارَك، فقال: «وأنتَ يا أبا عمرو! ممن يشنِّعُ علينا؟!»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/٣٣).

(٢) «تهذيب الكمال» (٤٤٢/١٢).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٨٩/٦).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٦٥/١٠).

قال ابن كَثِير: «وقد ذكر الشيخ أبو شَامَة[(١)] أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة، رأى في تلك الليلة التي أُجْلِيَ فيها الفرنج عن دِمْياط رسولَ الله ﷺ وهو يقول: سَلِّمْ على نُورِ الدين - يعني: نور الدين محمود البطل المجاهد المشهور - وبشِّره بأن الفرنج قد رحَلُوا عن دمياط، فقلت: يا رسول الله، بأي علامة؟ فقال: بعلامة ما سجَدَ يوم تل حارم، وقال في سجوده: اللهمَّ، انصُرْ دِينَك، ومَن هو محمود الكلب؛ فلما صلَّى نور الدين عنده الصبح، بشَّره بذلك وأخبره بالعلامة، فلما جاء إلى عند ذكر (من هو محمود الكلب)، انقبَضَ من قول ذلك، فقال له نُور الدين: قل ما أمرَكَ به رسول الله ﷺ، فقال ذلك، فقال: صَدَقْتَ، وبكى نُور الدين تصديقًا وفرحًا بذلك، ثم كُشِفُوا، فإذا الأمر كما أخبر في المنام»[(٢)].

وهذا رجلٌ مسلِم كان في الجيش حينما «حاصر مَسْلَمة بن عبد الملك حصنًا، وأصابهم فيه جَهْد عظيم، فندَبَ الناسَ إلى نَقْبٍ منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من الجند، فدخله، ففتَحَ الله عليهم، فنادى منادي مَسْلَمة: أين صاحب النَّقْب؟ فما جاء أحد حتى نادى مرتَيْنِ أو ثلاثًا أو أربعًا، فجاء في الرابعة رجل، فقال: أنا أيها الأمير صاحب النَّقْب، آخُذُ عهودًا ثلاثًا لا تسوِّدوا اسمي في صحيفة، ولا تأمُرُوا لي بشيء، ولا تشغلوني عن أمري، قال: فقال له مَسْلَمة: قد فعلنا ذلك بك، قال: فغاب بعد ذلك، فلم يُرَ، قال: فكان مَسْلَمة بعد ذلك يقول في دُبُرِ صلاته: اللهُمَّ، اجعَلْني مع صاحب النَّقْب»[(٣)].

رابعًا: إخلاصُهم في صَدَقاتهم:

كان علي بن الحسين زَيْن العابدين إذا كان الليل يَحمِل الصدقات

---

(١) انظر: «الروضتين» (١/٤٥٩).

(٢) «البداية والنهاية» (١٦/٤٤١)؛ بتصرف.

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٣٥٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/٣٦).

والجُرُب من الطعام على ظهره، ويُوصِلُ ذلك إلى بيوت الأرامل والفقراء في المدينة، ولا يعلمون مَن وضَعَها، وكان يقول: «إن الصدقة في سواد الليل تُطفِئ غضَبَ الربّ»[١]، وكان لا يستعين بخادم ولا غيره؛ لئلا يَطَّلِع عليه أحد، وبقي على ذلك مدةً، وما كان هؤلاء الفقراء والأرامل يَعلَمون كيف يأتيهم هذا الطعام وتلك النفقات، فلما مات، وجَدُوا في ظهره آثارًا مِن سواد، فعلموا أن ذلك بسبب ما كان يَحمِلُهُ على ظهره من الطعام إلى هؤلاء، فما انقطَعَتْ صدَقَةُ السِّرِّ في المدينة في ذلك الوقت حتى مات[٢].

وقال شَيْبة بن نَعَامة: «كان علي بن الحسين يبخَّل، فلما مات، وجدوه يَعُولُ مائة أهل بيت بالمدينة»[٣]، وإنما كانوا يبخِّلونه؛ لأنهم كانوا لا يرونه يتصدَّق علانيةً.

وكان حسَّان بن سعيد المخزومي لما وقع الغلاء بأهل ناحيته «يَنصِبُ القدور كل يوم، ويطبُخُ فيها، ويُحضِرُ زيادة على ألف مَنٍّ مِنَ الخبز، ويجمع الفقراء ويفرِّق عليهم، ويُوصِلُ إليهم صدقة السِّرِّ بحيث لا يعلم أحد»[٤].

وهذا ابن المبارَك كان «كثير الاختلاف إلى طَرَسُوس، وكان يَنزِل الرَّقَّة في خان، فكان شاب يَختلِف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، قال: فقَدِمَ عبد الله الرَّقَّةَ مرَّةً، فلم ير ذلك الشاب، وكان مستعجِلًا، فخرج في النفير، فلما قفَلَ من غزوته، ورجَعَ إلى الرَّقَّة، سأل عن الشاب، قال: فقالوا: إنه محبوس لِدَيْنٍ ركبه، قال: فقال عبد الله: وكم مَبلَغ دَيْنه؟ قالوا: عشرة آلاف

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٨٣/٤١)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٥/٣-١٣٦)؛ بلفظ: «إنَّ صَدَقة السر تُطفِئ غضَبَ الربّ».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٦/٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٨٣/٤١-٣٨٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٦/٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٨٤/٤١)؛ واللفظ له.

(٤) «المنتظم» (١٣٥/١٦).

درهم، فلم يزل يستقصي حتى دُلَّ على صاحب المال، فدعا به ليلًا، ووزن له عشَرة آلاف درهم، وحلَّفه ألَّا يُخبِر أحدًا ما دام عبد الله حيًّا، وقال: إذا أصبَحْتَ، فأخرِجِ الرجل من الحبس، وأدلَجَ عبدُ الله، فأُخرِجَ الفتى من الحبس، وقيل له: عبد الله بن المبارك كان هاهنا، وكان يذكُرُك، وقد خرَجَ، فخرج الفتى في أثره، فلَحِقَهُ على مرحلتَيْن - أو ثلاث - من الرَّقَّة، فقال: يا فتى، أين كنت؟ لم أرك في الخان، قال: نعم يا أبا عبد الرحمن! كنتُ محبوسًا بدَيْن، قال: فكيف كان سبب خلاصك؟ قال: جاء رجل فقضى ديني، ولم أعلَمْ به حتى خرجتُ من الحبس، فقال له عبد الله: يا فتى، احمَدِ اللَّهَ على ما وفَّق لك من قضاء دينك؛ فلم يُخْبِرْ ذلك الرجل أحدًا إلّا بعد موت عبد الله»[(١)].

ولهذا قال الإمام أحمد: «ما رفَعَ الله ابن المبارَك إلّا بخبيئة كانت له»[(٢)].

وذكر ابن كَثِير في «تاريخه» في ترجمة إسماعيل بن نُجَيْد السُّلَمي؛ أن شيخه أبا عثمان احتاج مرة إلى شيء، «فسأل أصحابه فيه، فجاءه ابن نُجَيْدٍ بكيس فيه ألفَا درهم، فقبَضَه منه، وجعل يشكُرُهُ إلى أصحابه، فقال له ابن نُجَيْد بين أصحابه: يا سيدي، إن المال الذي دفعتُهُ إليك كان من مال أمي، أخذتُهُ وهي كارهة؛ فأنا أُحِبُّ أن تَرُدَّهُ إليَّ حتى أردَّه إليها، فأعطاه إياه، فلما كان الليل، جاء به، وقال: أُحِبُّ أن تَصْرِفَها في أمرك ولا تذكُرْها لأحد»[(٣)].

خامسًا: إخفاؤهم لتأثُّرهم وبكائهم:

والأخبار عنهم في ذلك كثيرة موفورة:

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٥٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/٤٥٥)؛ واللفظ له.

(٢) «صفة الصفوة» (٤/١١٥).

(٣) «البداية والنهاية» (١٦/٣٧٧).

فعن الحسَن؛ قال: «إنْ كان الرجل لَيَجْلِسُ المجلِسَ فتجيئه عَبْرَتُه فيردُّها، فإذا خشي أن تسبقه، قام»(١).

وعن أبي السَّلِيل: «أنه كان يحدِّث أو يقرأ، فيأتيه البكاء فيَصْرِفُهُ إلى الضحك»(٢).

وعن محمد بن واسع؛ قال: «لقد أدركتُ رجالًا كان الرجل يكون رأسُهُ ورأسُ امرأته على وساد واحد، قد بَلَّ ما تحت خدِّه من دموعه لا تشعُرُ به امرأته، والله، لقد أدركت رجالًا كان أحدُهم يقوم في الصفّ فتَسِيلُ دموعُهُ على خدِّه لا يشعُرُ الذي إلى جنبه»(٣).

وعن عاصم؛ قال: «كان أبو وائل إذا صلى في بيته، يَنشِجُ نشيجًا، ولو جُعِلَتْ له الدنيا على أن يفعله وأحدٌ يراه، ما فعله»(٤).

وعن أبي التيَّاح؛ قال: «إنْ كان الرجل يتعبَّدُ عشرين سنةً، وما يعلم به جارُه»(٥).

وعن حمَّاد بن زيد؛ قال: «كان أيوب ربما حدَّث الحديثَ، فيَرِقُّ فيلتفِتُ فيتمخَّطُ، فيقول: ما أشدَّ الزكامَ!»(٦).

وهذا بكر بن أيوب السختياني يروي عن أبيه: «أنه كان إذا رَقَّ ودَمَعَتْ عيناه، حك أنفه، وقال: ما أشدَّ الزكامَ!»(٧).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٦)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣٤٧/٢).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٣٧).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) «الثقات» لابن حبان (١٤٦/٨).

فأين هذا ممن يتصنَّع البكاء أمام الناس في أماكن حافلة بالمصلِّين؟! لا أقول: يغلبه البكاء؛ فمَن غلبه البكاء، فسمع الناس بكاءه، فهو غير ملوم، لكنْ أن يتباكى ويتكلَّف البكاء في صلاته، والناس خلفه، وربما أحضر مَن يصوِّرون، فهذا أمر مذموم.

أمَّا ما صح عن أبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ أنهما قالا: «ابْكُوا؛ فإن لم تَبْكُوا فتَبَاكَوْا»[1]، فإنه محمول على فعله خاليًا؛ حيث لا يراه الناس، يقول: تباكَوُا اليومَ تَبْكُوا غدًا، أو تباكَوْا وتشبَّهوا بالبكَّائين.

وقال محمد بن زياد: «رأيت أبا أُمامَة أتى على رجل في المسجد وهو ساجدٌ يبكي في سجوده ويدعو ربه، فقال أبو أُمامَة: «أنتَ أنتَ؛ لو كان هذا في بَيْتِك»[2].

سادسًا: حِرْصُهم على كتمان صلاة الليل، والعبادة:

فقد كان الواحد منهم يدخُلُ في فراش زوجته، ثم يخادِعُها كما تخادِعُ المرأة صبيَّها، فينسَلُّ لصلاة الليل إذا نامت دون أن تشعُرَ به.

كما جاء في ترجمة حسَّان بن أبي سِنَان؛ تقول امرأته: «كان يجيء فيدخُلُ معي في فراشي، ثم يخادِعُني كما تخادِعُ المرأةُ صبيَّها، فإذا علم أني نِمْتُ، سَلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي»[3].

وكان أيوب السَّخْتِياني يقوم الليل كله، فيُخفِي ذلك، فإذا كان عند الصبح، رفَعَ صوته؛ كأنه قام تلك الساعة[4].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٩٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢٦١/١)؛ من كلام أبي موسى رضي الله عنه، وأخرجه الحاكم (٥٧٨/٤)؛ من كلام ابن عمرو رضي الله عنهما، وصحَّحه وأقرَّه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٣٢٨). وقد رُوِيَ مرفوعًا من حديث أنس وسعد رضي الله عنهما، ولا يثبُتُ. انظر: «الضعيفة» (٦٥١١، ٦٨٨٩).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٧/٢٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١١٧/٣).

(٤) انظر: «تذكرة الحفاظ» (١٣١/١)، و«صفة الصفوة» (٢٩٢/٣).

ورأى رجاء بن حَيْوَةَ رجلًا في المجلس بعد الفجر يداعِبُهُ النعاس، ويغالِبُهُ النوم، فقال له: «انتبهْ؛ لا يَظُنَّ ظانٌّ أن ذا عن تسهُّرٍ»[١]؛ أي: لا يتوهَّم أحد عليك أن هذا مِنْ طول السهر لصلاة الليل.

وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يصلِّي، فإذا دخل الداخل، نام على فراشه[٢].

وصَحِبَ رجل محمد بن أسلم، فقال: لازمته أكثر من عشرين سنةً لم أره يصلِّي - حيث أراه - إلَّا يوم الجُمُعة، وسمعته كذا وكذا مرة يحلف يقول: «لو قَدَرْتُ أن أتطوَّع حيث لا يراني مَلَكَايَ، لفعلتُ... خوفًا من الرياء»[٣].

وكان يدخل بيتًا له ويُغلِقُ الباب لا ندري ما يصنع، حتى سمعتُ ابنًا له صغيرًا يحكي بكاءه، فنَهَتْهُ أمُّه، فسألتُها، فقالت: إن أباه يدخُلُ هذا البيت، فيقرأ ويبكي، فيسمعه الصبي فيحكيه - أي: يقلِّده - وكان إذا أراد أن يخرُجَ من هذه الحجرة، غسَلَ وجهه واكتحَلَ لئلا يُرَى عليه أثر البكاء، وكان يَصِلُ قومًا بالصدقة، ويقول لمن يُرسِله: انظر ألَّا يَعلَموا مَن بعثه إليهم، ويأتيهم هو بالليل، فيَذهَب به إليهم ويُخفِي نفسه[٤].

وكان عمل الربيع بن خُثَيْم كله سرًّا، ولربما دخل عليه رجل وقد نشَرَ المصحف يقرأ فيه، فيغطِّيه بثوبه لئلا يراه[٥].

وعن الحسن؛ قال: «إنْ كان الرجل لتكون له الساعةُ يخلو فيها فيصلِّي فيوصي أهله، فيقول: إنْ جاء أحد يطلبني، فقولوا: هو في حاجة له»[٦].

---

(١) أخرجه الفسوي في «تاريخه» (٣٧١/٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١١٤/١٨) بنحوه.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٦٣).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٤٣/٩).
(٤) انظر: «صفة الصفوة» (١٢٦/٤).
(٥) تقدم تخريجه.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص» (٤٦).

وعن عبد المؤمن أبي عبد الله؛ قال: «كان لحسَّان بن أبي سِنَان في حانوته سِتْر، فكان يُخرِجُ سلَّة الحساب، وينشُرُ حسابه، ويصعِّدُ غلامًا على الباب، ويقول: إذا رأيتَ رجلًا قد أقبل ترى أنه يريدني، فأخبِرْني، ثم يقوم فيصلي، فإذا جاء رجل أخبره الغلام، فيجلس كأنه على الحساب»(١).

وعن عباس بن دِهْقان؛ قال: «قلت لبِشْر بن الحارث: أحبُّ أن أخلو معك، قال: إذا شئتَ، فبكَّرْتُ يومًا فرأيته قد دخَلَ قبَّةً، فصلى فيها أربع ركعات، لا أُحسِنُ أن أصلِّي مثلها، فسمعته يقول في سجوده: اللهُمَّ، إنك تَعلَمُ فوق عرشك: أن الذُّلَّ أحبُّ إليَّ من الشَّرَف، اللهُمَّ، إنك تَعلَمُ فوق عرشك: أن الفقرَ أحبُّ إليَّ من الغنى، اللهُمَّ، إنك تَعلَم فوق عرشك: أني لا أُوثِرُ على حبِّك شيئًا؛ فلما سمعته، أخذَني الشهيق والبكاء، فلما سمعني، قال: اللهُمَّ، إنك تَعلَم أني لو أعلم أن هذا ههنا، لم أتكلَّم»(٢).

سابعًا: اجتهادُهُمْ في إخفاء الصيام:

عن ابن أبي عَدِيٍّ؛ قال: «صام داود -بن أبي هند- أربعين سنةً لا يَعْلَم به أهله، وكان خرَّازًا يحمل معه غداءَهُ مِن عندهم، فيتصدَّق به في الطريق، ويَرجِعُ عشيًّا، فيُفطِرُ معهم»(٣).

و«أقام عمرو بن قيس المُلَائي عشرين سنة صائمًا ما يَعلَمُ به أهله، يأخُذُ غداءه، ويغدو إلى الحانوت، فيتصدَّق بغدائه، ويصوم وأهله لا يدرون»(٤).

وقال ابن رجب: «ولما كان الصيام سِرًّا بين العبد وبين ربه، اجتهَدَ المخلِصون في إخفائه بكلِّ طريق؛ حتى لا يطَّلع عليه أحد»(٥).

---

(١) المصدر السابق (٤٧).

(٢) «صفة الصفوة» (٢/٣٣١، ٣٣٢)، وساقه الذهبي في «السير» (١٠/٤٧٣)؛ من طريق ابن أبي الدنيا، به؛ إلّا أنه قال: «حمزة بن دِهْقان».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٩٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٧/١٢٩).

(٤) «صفة الصفوة» (٣/١٢٤).

(٥) «لطائف المعارف» (ص ٨٥)

وصام أبو الحسين النُّورِيّ عشرين سنةً لا يَعلَمُ به أحد؛ لا مِن أهله، ولا مِن غيرهم[١].

واشتهر بعض الصالحين بكثرة الصيام، فكان يقوم يوم الجُمُعة في مسجد الجامع، فيأخذ إبريق الماء، فيضع بُلْبُلَتَهُ في فيه، ويمتصُّها والناس ينظرون إليه، ولا يدخُلُ حَلْقَهُ منه شيء؛ لينفي عن نفسه ما اشتهَرَ به من الصوم.

كم يستُرُ الصادقون أحوالهم ورِيحُ الصِّدْق تَنِمُّ عليهم؛ ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلّا ألبسه الله رداءها علانيةً.

كَمَ اكْتُمُ حُبَّكُمْ عَنِ الْأَغْيَارِ ... وَالدَّمْعُ يُذِيعُ فِي الهَوَى أَسْرَارِي

ريح الصائم أطيب عند الله مِن ريح المسك؛ فكلما اجتهد صاحبه على إخفائه، فاح رِيحُهُ للقلوب، فتستنشقه الأرواح، وربما ظهَرَ بعد الموت ويوم القيامة.

وَكَاتِمُ الحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ ... وَصَاحِبُ الْوَجْدِ لَا تَخْفَى سَرَائِرُهُ[٢]

ولما دُفِنَ عبد الله بن غالب، كان يفوح مِن تراب قبره رائحة المِسْك، فرُئِيَ في المنام، فسُئِلَ عن تلك الرائحة التي توجد مِن قبره؟ فقال: تلك رائحةُ التلاوة والظمأ[٣].

وَهَبْنِي كَتَمْتُ السِّرَّ أَوْ قُلْتُ غَيْرَهُ ... أَتَخْفَى عَلَى أَهْلِ الْقُلُوبِ السَّرَائِرُ
أَبَى ذَاكَ أَنَّ السِّرَّ فِي الْوَجْهِ نَاطِقٌ ... وَأَنَّ ضَمِيرَ الْقَلْبِ فِي العَيْنِ ظَاهِرُ»[٤]

ثامنًا: ذِكْرُ إشفاقهم على أنفُسِهم، مع شدَّة حذرهم في هذا الباب:

عن أبي الحسن ابن القطَّان؛ قال: «أُصِبْتُ ببصري، وأظنُّ أني عُوقِبْتُ

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/٣٣٩).

(٢) البيت لابن الرومي في «ديوانه».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٤٨).

(٤) «لطائف المعارف» (ص ٨٥-٨٦).

بكثرة كلامي أيَّام الرحلة»[١]؛ أي: لعله عُوقِبَ لكثرة كلامه؛ لأن كثرة الكلام فيه إظهار للعِلْم، وسعةِ الحفظ، وإنْ لم يقصدْ ذلك.

قال الذهبي: «صدَقَ والله؛ فقد كانوا مع حُسْنِ القصد وصحة النيَّة غالبًا، يخافون من الكلام، وإظهارِ المعرفة والفضيلة، واليومَ يُكثِرُونَ الكلام مع نَقْص العلم وسوء القصد، ثمَّ إن الله يفضحهم، ويَلُوحُ جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما عَلِموه؛ نسأل الله التوفيق والإخلاص!»[٢].

ولهذا كان هشام الدَّسْتَوائي يقول: «واللهِ، ما أستطيع أن أقول: إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلُبُ الحديثَ أريدُ وجه الله ﷻ»[٣].

وكان أحد العلماء[٤] قد ألَّف كتبًا كثيرةً، ولم يُخرِجْ واحدًا منها في حياته، فقال لبعض أصحابه: إذا حضَرَتْني الوفاة، فضع يدك في يدي، فإنْ رأيتَني في النزع، وضغَطْتُ على يدِكَ، فلا تُخرِجْ هذه الكتب - لأنه لقي ما يكره - وإنْ بسَطْتُ يدي، فأَخرِجْها؛ يقول: فوضَعْتُ يدي في يده، فلما كان في النزع، بسَطَ يده، فأخرَجْتُ كتبه جميعًا؛ أراد أن ينظُرَ هل قُبِلَ ذلك منه أو لا؟[٥].

وعن سفيان بن عُيَيْنة؛ قال: تقنَّع ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فجعَلَ يبكي، فقيل له: ما يُبكِيك؟ قال: «رياءٌ حاضِر، وشهوةٌ خفيَّة، والناس عند علمائهم كصِبْيان في حجور أمَّهاتهم؛ إنْ أمَرُوهم ائتمَرُوا، وإن نَهَوْهم انتهَوْا»[٦].

---

(١) «تذكرة الحفاظ» (٣/٨٥٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/٤٦٤-٤٦٥).

(٣) «تاريخ الإسلام» (٩/٦٥٥).

(٤) وهو: أبو الحسن الماوردي.

(٥) انظر: «تاريخ الإسلام» (٣٠/٢٥٤).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٦/٩٠).

يقول: لماذا لا أبكي وأنا أُعاني من عِلَل؟! وهو إمام كبير، جعل الله ﷻ له القبول، وتخرَّج عليه الإمامُ مالك وغيره.

واجتمَعَ الفُضَيْل بن عِيَاض وسفيان الثوري يومًا، فجلَسُوا يتذاكرون شيئًا من الرِّقاق، فرَقَّ كل واحد منهما وبكى، فقال سفيان الثوري: «يا أبا عليٍّ، إني لأرجو أن يكون هذا المجلِسُ علينا رحمةً وبَرَكةً، فقال له الفضيل: لكني أبا عبد الله، أخافُ ألَّا يكون هذا المجلِسُ جلَسْنا مجلسًا قطُّ هو أضرُّ علينا منه، قال: ولِمَ يا أبا علي؟! قال: ألستَ تخلَّصْتَ إلى أحسن حديثك، فحدَّثتني به، وتخلَّصْتُ أنا إلى أحسن حديثي، فحدَّثتك به، فتزيَّنت لي، وتزيَّنت لك، فبكى سفيان بكاءً أشدَّ من البكاء الأوَّل، ثم قال: أحييتني أحياك الله»[(١)]؛ فمَن يتفطَّن لمثل هذه المعاني اليوم؟!

وبكى محمد بن الحسن عند الاحتضار، فقيل له: أتبكي مع العلم؟ فقال: «أرأيتَ إنْ أوقفَني الله، وقال: يا محمد، ما أقدَمَكَ الري؟ الجهاد في سبيلي أم ابتغاء مرضاتي؟ ماذا أقول؟!»[(٢)].

وكان عبد الرحمن بن مَهْدي يجلس يوم الجُمُعة إلى سَارِيَة، ويتحدَّث للناس ويفقِّههم ويعلِّمهم، قال: فإذا كثر الناس، فَرِحْتُ، وإذا قلُّوا، حَزِنْتُ، فسألتُ بشر بن منصور[(٣)]، فقال: «هذا مجلسُ سُوءٍ؛ فلا تَعُدْ إليه، قال: فما عُدتُ إليه»[(٤)].

وهذا عَوْن بن عبد الله يقول: «إذا أعطيتَ المسكين شيئًا، فقال: بارَكَ الله فيك، فقل أنت: بارَكَ الله فيك؛ حتى تخلُصَ لك صدقتك»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٠٤/٤٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣٦/٩).
(٣) هو: بشر بن منصور السَّلِيمي أبو محمد البصري.
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٢/٩).
(٥) المصدر السابق (٢٥٣/٤).

وقال جرير بن عبد الحميد: «مرَّ بنا حمزة الزيَّات فاستسقى، فأتيتُهُ بماء، فقال: أنت ممن يحضُرُنا في القراءة؟ قلت: نعم، قال: لا حاجة لي في مائك»[١].

وقال الحسن بن الربيع: «كنتُ عند عبد الله بن إدريس، فلما قُمْتُ، قال لي: سَلْ عن سعر الأُشْنان، فلما مشيتُ، ردَّني، فقال: لا تسألْ؛ فإنك تكتب مني الحديث، وأنا أكره أن أسأل مَن يسمع مني الحديث حاجة»[٢].

أين هذا ممن لا يُقرِئُ حتى يُرهِقَ كواهل الطلبة بحاجاته الشخصيَّة؟! وأين هذا ممن لا يقرئ إلّا على مال يَشترِطُه؟!

وكان محمد بن يوسف الأصبهاني لا يشتري خُبْزَهُ من خبَّاز واحد، ولا بَقْلَهُ من بقَّال واحد، كان لا يشتري إلّا ممن لا يَعْرِفُه، يقول: «لعلَّهم يعرفوني فيحابوني؛ فأكون ممن أعيش بديني»[٣].

ودخل عبد الله بن مُحَيْرِيز حانوتًا، وأراد أن يشتري ثوبًا، فقال رجل قد عرفه: هذا ابن مُحَيْرِيز، فأحسِنْ بيعه، فلم يفرحْ ويقول: بارك الله فيك، أو جزاك الله خيرًا، لا خير في أمَّة لا تَعرِفُ لعلمائها قدرهم، بل غضب، وطرَحَ الثوب، وخرَجَ، وقال: «إنما نشتري بأموالنا، لسنا نشتري بديننا»[٤].

تاسعًا: كَرَاهِيَتُهُمْ للتشبُّع بما لم يُعْطَوْا:

قال ابن القاسم للإمام مالك: ليس بعد أهل المدينة أعلَمُ بالبيوع مِن أهل

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/١٥٦).

(٢) أخرجه الآجُرّي في «أخلاق حملة ا لقرآن» (٥٢)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٨٥٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٣١)، و«أخبار أصبهان» (٢/١٤٢).

(٤) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (٢/٣٦٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/١٩)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٨١)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٣٨-١٣٩).

مصر، فقال مالك: «مِن أين عَلِمُوها؟»، قال: منك، قال مالك: «ما أَعْلَمُها أنا؛ فكيف يَعْلَمُونها؟!»[١].

عاشرًا: كراهيتهم للشُّهْرة:

وأخبارهم في ذلك مستفيضة؛ فقد كانوا يَكرَهُونَها أشد الكراهية، حتى إنَّ إبراهيم بن أَدْهَم قال: «ما صدَقَ اللهَ عبدٌ أحبَّ الشهرة»[٢].

وقال بِشْر بن الحارث: «لا أعلم رجلًا أحَبَّ أن يُعرَفَ إلّا ذهَبَ دِينُهُ وافتضَحَ»[٣].

وقال: «لا يجدُ حلاوةَ الآخرة رجُلٌ يحبُّ أن يَعرِفه الناس»[٤].

وكان مورِّق العِجْلِي يقول: «ما أُحِبُّ أن يَعرِفَني بطاعته غيرُه»[٥].

ولما قَدِمَ عبد الله بن المبارَك المِصِّيصةَ، سأل عن محمد بن يوسف الأَصبَهاني، فلم يعرفه أحد، فلما لقيه، قال: «مِن فضلك لا تُعرَف»[٦]؛ رأى أن ذلك مَنْقَبة، وهو أنه مغمور لا يَعرِفه أهل البلد.

وقال أيوب: «ما صدَقَ عبدٌ إلّا سرَّه ألّا يُشْعَرَ بمكانه»[٧].

وكان الثوري يقول: «وجدتُ قلبي يصلُحُ بمكَّة والمدينة مع قوم غُرَباء، أصحابِ بُتُوت وعباء»[٨]؛ يعني: عليهم أَكسِيَة غليظة، غرباء لا يعرفونني؛

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/١٨٥)، و«الموافقات» (٥/٣٣٠).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٨٠)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٩-٢٠، ٣١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٥٧٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/٣١٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧٢).

(٤) المصدر السابق (٧٢).

(٥) المصدر السابق (٢٣).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٢٦)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٤).

(٧) المصدر السابق (٣٥).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٢٢)؛ واللفظ له، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/٩٥).

فأعيش وسطهم لا أُعْرَفُ كأنني رجل من فقراء المسلمين ومِن عامَّتهم؛ فقَلْبُهُ يصلُحُ هناك، لا يصلح في المكان الذي يعرفه الناس فيه، ويقولون: هذا سفيان؛ فيوسِّعون له الطريق، ويَتَّبِعونه إذا مشى.

ويقول الإمام أحمد: «أُرِيدُ أن أكون بشِعْبٍ في بعض تلك الشعاب بمكَّة حتى لا أُعرَف؛ قد بُلِيتُ بالشهرة، إني لأتمنَّى الموت صباحًا ومساءً»[(١)].

وكان خالد بن مَعْدانَ الكَلَاعيُّ إذا كَثُرَتْ حَلْقَتُه، يقوم ويترك الناس؛ مخافة الشهرة[(٢)].

وكان أبو العالية الرِّيَاحي إذا جلس إليه أكثر مِن ثلاثة، قام[(٣)].

وقال أبو بكر بن عيَّاش: «ما رأيتُ عند حبيب بن أبي ثابت غِلْمةً ثلاثةً قطُّ»[(٤)].

وقال: «سألت الأعمش: كم رأيتَ أكثَرَ ما رأيتَ عند إبراهيم النَّخَعي؟ قال: أربعةً، خمسةً»[(٥)].

وقال أيوب السختياني لأبي مسعود الجُرَيْري: «إني أخاف ألَّا تكون المعرِفةُ أبقَتْ عند الله حسنةً؛ إني لَأَمُرُّ بالمجلس، فأسلِّمُ عليهم، وما أرى أن فيهم أحدًا يعرفني، فيردُّون عليَّ، ويسألوني مسألةً كأنَّ كلهم قد عرفوني»[(٦)].

وقال حماد بن زيد: «كنا إذا مرَرْنا بالمجلس، ومعنا أيوب، فسلَّم، ردوا ردًّا شديدًا، قال: فكان يرى ذلك نِقْمةً»[(٧)].

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٨٢/١٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٤٦).
(٣) المصدر السابق (٤٧).
(٤) المصدر السابق (٤٩).
(٥) المصدر السابق (٤٨).
(٦) المصدر السابق (٥٦، ٥٧).
(٧) المصدر السابق (٥٨).

وخرَجَ مرَّة في سفر، فتَبِعَهُ أناس كثير، فقال: «لولا أني أعلم أن الله ﷻ يعلم مِن قلبي أني لهذا كارِهٌ، لخشيتُ المقتَ من الله ﷻ»[(١)].

وقال رجل لبِشْر الحافي: أوصني، قال: «أَخْمِلْ ذِكْرَك، وطَيِّبْ مَطْعَمَك»[(٢)].

وكان عطاء بن مسلم يقول: «كنت وأبو إسحاق ذات ليلة عند سفيان - الثوري - وهو مضطجِع، فرفَعَ رأسه إلى أبي إسحاق، فقال: إيَّاك والشهرة!»[(٣)].

وقال ابن مُحَيْرِيز: «اللهُمَّ، إني أسألك ذِكْرًا خاملًا»[(٤)].

وقال لفَضَالَة بن عُبَيْد رضي الله عنه: أوصني، قال: «احفَظْ عني ثلاث خصال، يَنفَعْكَ الله بهنَّ: إنِ استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعرَفَ، فافعل، وإنِ استطعتَ أن تَسمَعَ ولا تتكلَّم، فافعل، وإنِ استطعتَ أن تَجلِسَ ولا يُجلَسَ إليك، فافعل»[(٥)].

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: «مَن طلَبَ العلم لله، كان الخمولُ أَحَبَّ إليه من التطاوُل»[(٦)]، ويقصد بالخمول: عدَمَ الشهرةِ، لا الكسل.

وكتب محمد بن العلاء إلى محمد بن يوسف: «يا أخي، مَن أحبَّ الله، أحبَّ ألَّا يَعرِفه الناس»[(٧)].

---

(١) المصدر السابق (٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٦٩)، و«الورع» (١٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧١).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/١٤٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٣/١٨).

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٨٨)، والطبراني في «الكبير» (١٨/٢٩٩) (٧٦٨)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥/١٤١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/٣٠٥).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٧/٣٩٤).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٣٦).

وقال ابن عُيَيْنة: «قال لي بِشْر بن منصور: أَقِلَّ من معرِفة الناس؛ فإنه أقل لفضيحتك في القيامة»[1].

وعن إبراهيم: «أنه كان إذا كان في المسجد، فجاءه إنسان، فجلَسَ إليه، أوسَعَ إليه، فإذا اضطرَّه المكان إلى أُسْطُوانة، قام عنها إلى عَرْضِ الحَلْقة؛ كراهيةَ الشهرة»[2].

وعن أبي المحاسن عبد الواحد؛ قال: «الشهرةُ آفةٌ وكلٌّ يتحرَّاها، والخمولُ راحةٌ وكلٌّ يتوقَّاها»[3].

وعن عبد الصمد بن عبد الوارث؛ قال: «كان حَوْشَبٌ يبكي، ويقول: بلَغَ اسمي مسجد الجامع»[4].

وعن نُعَيْم بن عبد الله؛ أن عمر بن عبد العزيز قال: «إنه لَيمنَعُني مِن كثير من الكلامِ مخافةُ المباهاة»[5].

وعن الحسن البصري؛ قال: «لقد صَحِبْتُ أقوامًا إنْ كان أحدهم لتَعرِضُ له الحِكْمة لو نطق بها، نَفَعَتْهُ ونفَعَتْ أصحابه، فما يمنعه منها إلّا مخافةُ الشهرة، وإنْ كان أحدُهم ليمر فيرى الأذى على الطريق، فما يمنعه أن ينحِّيَهُ إلّا مخافةُ الشهرة»[6].

وقال ابن سيرين لثابت البُنَاني: «لم يكنْ يمنعني مِن مجالستكم إلّا مخافةُ الشهرة»[7].

---

(١) المصدر السابق (٣٧).

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٨٧٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٢١٩).

(٣) «طبقات الشافعية» لابن السبكي (٧/٣٢٦).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٧٠).

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٧).

(٦) المصدر السابق (١٣٨).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٧١).

ويقول مَعْمَر: «كان في قميص أيُّوب - السختياني - بعضُ التذييل، فقيل له، فقال: «الشهرة اليوم في التشمير»(١).

وقال شيخ الإسلام: «وتُكْرَهُ الشهرة من الثياب، وهو المترفِّعُ الخارج عن العادة، والمتخفِّضُ الخارج عن العادة؛ فإنَّ السلف كانوا يكرهون الشهرتَيْن: المترَفِّع والمتخفِّض»(٢).

وقال عبد الرحمن بن يزيد: قيل لعلقمة: ألَا تقعُدُ في المسجد، فيُجمَعَ إليك، وتُسألَ، ونَجلِسَ معك؛ فإنه يُسألُ مَن هو دونك؟! فقال علقمة: «إني أكره أن يُوطَأ عَقِبي؛ يقالُ: هذا علقمة، هذا علقمة»(٣).

ودخل على أحمدَ عمُّه، فقال: «يا ابن أخي، أَيْشٍ هذا الغَمّ؟! وأَيْشٍ هذا الحزن؟! فرفع رأسه، وقال: يا عمُّ، طوبى لمن أخمَلَ الله ذِكْرَه»(٤).

وقال الشافعي: «وَدِدتُّ أن الناس تعلَّموا هذا العلم - يعني: كتبه - على ألَّا يُنسَبَ إليَّ منه شيء»(٥).

وكان سُحْنون يقول: «كان بعض مَن مضى يريدُ أن يتكلَّم بالكلمة، ولو تكلَّم فيها، لانتفَعَ بها خَلْقٌ كثير، فيَحبِسُها، ولا يتكلَّم بها؛ مخافة المباهاة»(٦).

وليس معنى ذلك - كما سبق - أن نترُكَ الدعوة إلى الله ﷻ، والجهادَ في سبيله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس العلم، بحجَّة أننا نُؤثِرُ الخمول، ولا نريد الشهرة؛ فلقد كان السلف ﷺ - مع ما تقدَّم من

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٧).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/١٣٨).
(٣) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٢٤).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١١/٢٠٧)، وأخرجه ابن عساكر بنحوه في «تاريخه» (٥/٣٠٩).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٠/٢٩)، وقد مضى نحوه.
(٦) المصدر السابق (١٢/٦٦).

أحوالهم - يُجاهِدون في سبيل الله، ويعلِّمون الناس العلم، ويَجلِسون في مجالسهم للوعظ والإرشاد، ففتَحَ الله بهم البلاد، ونشَرَ بهم دِينَهُ في الأرض، وهدى بهم الخلق بصِدْقِهم وإخلاصهم الدين لله؛ لذا لا يجوز لأحد أن يقعُدَ في بيته، ويترُكَ الدعوة إلى الله ﷻ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الناس العلم، ويقول: كانوا يَستتِرُونَ بأعمالهم، ولا يحبُّون الظهور في الناس، ولا العلوَّ في الأرض؛ فهذا قولُ مَن لم يَعرِفْ حالهم.

❊ ❊ ❊

اليَقِينُ

تَوْطِئَة

إن العبد مفتقِر إلى يقينٍ راسخٍ يثبِّت به إيمانه حينما تَعصِف الشبهات المزلزلة، كما أن المؤمن بحاجةٍ إلى يقينٍ يحمله على البَذْل، والتضحية، والعمل، وإيثار ما عند الله تعالى على هذه الدنيا الفانية، وهكذا إذا لاح الطَّمَع، وتطلَّعت النفوس إلى مطلوباتها التي تهواها وتشتهيها؛ فإن اليقين يكون كابحًا لها عن الشهوات بإذن الله.

* * *

مَعْنَى اليَقِين وَحَقِيقَتُهُ

اليقين في اللغة: العِلْم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر؛ فاليقين نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل؛ تقول: عَلِمْتُهُ يقينًا[١].

وأما اليقين في معناه الشرعي: فهو سكونُ الفهم، مع ثبات الحُكْم[٢]؛ بحيث لا يحصُلُ لصاحبه تردُّدٌ وتشكُّكٌ وريبة وقلق في داخله، وإنما يكون مطمئنًّا إلى ما يعتقده؛ ولهذا قال الجُنَيْد: «اليقينُ هو استقرارُ العلم الذي لا ينقلب ولا يَحُولُ ولا يتغيَّر في القلب»[٣]؛ فهو شيءٌ ثابتٌ راسخٌ فيه، وهو بهذا الاعتبار يكون بمعنى طمأنينة القلب، وثباتِ واستقرارِ العلم فيه[٤].

وهذا اليقين ينتظِمُ به أمران:

أحدهما: عِلْمُ القلب.

والثاني: عَمَلُ القلب.

كما فصَّل ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيميَّة[٥].

فالعبد قد يَعلَمُ علمًا جازمًا بأمرٍ من الأمور، ومع هذا يكون في قلبه حركةٌ واختلاجٌ من العمل الذي يقتضيه ذلك العِلْم؛ فمقتضى العلم: إثمارُهُ وتأثيره

---

(١) انظر مادَّة: (ي ق ن)، من «العين» (٥/٢٢٠)، و«مقاييس اللغة» (٦/١٥٧)، و«لسان العرب» (١٥/٤٥٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/٥٧٠-٥٧١)، و«مفردات القرآن» للراغب (ص٥٥٢)، (ي ق ن).

(٣) «الرسالة القشيرية» (١/٣١٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/٣٢٩).

(٥) انظر: المصدر السابق.

في العبد تأثيرًا عمليًا؛ سواءٌ أكان ذلك في قلبه، أم كان في جوارحه، وربما وُجِدَ العلم في قلب المرء، لكنَّ صاحبه لم يَصِلْ به إلى مرتبة العمل.

فالعبد - مثلًا - يَعلَمُ أن الله ربُّ كلِّ شيء ومليكه، وأنه لا خالق غيره، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله تعالى، والتوكُّل عليه، وقد لا يصحبه العمل بذلك؛ لغفلة القلب عن هذا العلم التامِّ الذي يوجب الاستحضار الدائم لمعاني العبوديَّة؛ فصاحب هذه الغَفْلة يستسلِمُ للخواطر إذا غفَلَ عن الحقائق التي عَلِمَها، فتجد تلك الخواطرُ طريقَها إلى قلبه واعتقاده، وإلى ما يَدِينُ الله ﷻ به.

قال شيخ الإسلام: «ذِكْرُ الإنسان بقلبه ما أمَرَهُ الله به، واستحضارُهُ لذلك؛ بحيث لا يكون غافلًا عنه -: أكمَلُ ممن صدَّق به، وغفَلَ عنه؛ فإن الغفلة تضادُّ كمال العلمِ والتصديقِ، والذكرُ والاستحضارُ يُكمِلُ العلم واليقين»(١).

فإذا لم يطمئِنَّ القلب ويسكُنْ إلى معلومه، ذهَبَتْ معالمه، واندرَسَتْ رسومه، ولا بد أن تسري تلك الطمأنينة فيه في كافَّة العلوم حتى تَنزِل فيه في قرار مَكِين، وتدعوه إلى ما تقتضيه وتستلزِمُهُ من العمل، فيعمل عمَلَ عاملٍ يَعلَمُ أن الله يراه؛ فيخشى في التقصير عقابه، ويرجو بالتشمير رضاه.

فإذا أيقن العبد - مثلًا - بما يكون من أمور الآخرة؛ مِن البعث، والحساب، وتطايرِ الصحف، والعَرْضِ على الله، والمرور على الصراط، وحُسْنِ الجزاءِ أو سُوءِ العقاب -: صار قلبه بمنزلة المشاهِدِ لها كأنه يعايِنُها.

وهذه حقيقة اليقين التي وصَفَ الله تعالى بها أهل الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

قال ابن القيِّم: «لا يحصُلُ الإيمان بالآخرة حتى يطمئنَّ القلب إلى ما

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/٢٣٥).

أخبر الله سبحانه به عنها طمأنينتَهُ إلى الأمور التي لا يشُكُّ فيها ولا يَرْتاب؛ فهذا هو المؤمِن حقًّا باليوم الآخر»[(١)].

يقول ابن كثير - في تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] -: «يُقسِمُ تعالى بنفسِهِ الكريمة: أن ما وعَدَهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائنٌ لا محالة، وهو حقٌّ لا مِرْية فيه؛ فلا تشكُّوا فيه كما لا تشكُّوا في نطقكم حين تَنطِقون، وكان معاذ ﵁ إذا حدَّث بالشيء، يقول لصاحبه: إنَّ هذا لَحَقٌّ كما أنك هاهنا»[(٢)(٣)].

وقال بعضهم: «اليقين: مشاهَدَةُ الإيمان بالغيب»[(٤)]؛ فكما أن العَيْنَ تشاهِدُ الحقائق الماثلة أمامها في عالم الشهادة؛ فإن اليقين هو مشاهَدةُ الغيب بالقلب، فإذا وصَلَ القلبُ إلى هذه المرتبة، وصَلَ إلى أعلى المنازل، ونال أسمى الدرجات.

قال شيخ الإسلام: «اليقين: يتضمَّن اليقين في القيام بأمر الله، وما وعَدَ اللهُ أهلَ طاعته، ويتضمَّن اليقين بقدَرِ الله وخلقه وتدبيره، فإذا أَرْضَيْتَهم بسَخَطِ الله، لم تكن موقنًا؛ لا بوعده ولا برِزْقه؛ فإنه إنما يَحمِلُ الإنسانَ على ذلك: إمَّا ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترُكُ القيام فيهم بأمر الله؛ لما يرجوه منهم، وإمَّا ضعفُ تصديقٍ بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة؛ فإنك إذا أرضَيْتَ اللهَ، نصَرَكَ ورزَقَكَ وكفاك مؤنتهم؛ فإرضاؤهم بسَخَطِهِ إنما يكون خوفًا منهم ورجاء لهم؛ وذلك من ضعف اليقين»[(٥)].

---

(١) «الروح» (٢/٦٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/٤٢٠).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٢٤/٢٧٩).

(٥) «مجموع الفتاوى» (١/٥١).

الفَرقُ بينَ اليَقين، وَالعِلمِ وَالتّصديق وَالثِّقة

أولًا: الفرق بين اليقين والعلم[١]:

ذكر بعضُهم: أن اليقين يَحمِلُ صاحبه على العمل والامتثال، وقد لا يصير العبد بالعلم بمنزِلة المشاهِد للحقائق الغيبيَّة، فهو يعلم - مثلًا - أن الله سيبعثه بعد موته ويحاسبه، ولكنَّ هذا العلم قد يضعُفُ في قلبه، وقد تعتريه بعض الشكوك، وبعض الشبهات، فتؤثّر عليه، وأما إذا كان اليقين مستقِرًّا في القلب، فإنه لا طريق للشُّبَه، ولا الشكوك إليه، وإنما هو اعتقادٌ جازمٌ راسخ، لا يقبل التشكيك بحال؛ ولهذا قيل: «العلمُ تُعارِضُهُ الشكوك، واليقينُ لا شكَّ فيه»[٢]؛ وهذا الوجه في الفرق بينهما لا يخلو من إشكال.

فنحن نعلم في الجملة: أن العلم يتفاوَتُ، كما أنَّ الإيمان يتفاوت؛ فعلمك بخبر المخبِرِ الثِّقةِ بأنَّ فلانًا قد قَدِمَ مِن سفرِه، يُورِثُ علمًا في القلب، فإذا جاءك آخر ممن تثق به، وأخبَرَك بما أخبَرَك به الأول، فإن هذا العلم يزداد، مع أن العلم حصَلَ من أول مرَّة، فإذا صادَفْتَ العشرات، وأخبروك أن فلانًا قد قَدِمَ من السفر، صار ذلك راسخًا عندك، ولا يقبل التشكيك بحال من الأحوال.

وأما خبَرُ المخبِرِ الأول - مع أنه ثقة - فإنه قد يَقبَلُ التشكيك؛ إذْ لو جاءك إنسان آخر، وأخبَرَك بضد خبره، فإن ذلك يزعزع ما تقرَّر لديك، بخلاف ما

---

(١) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٣٩٧/٥).

(٢) «مدارج السالكين» (٣٩٨/٢).

لو وصَلَ هذا العلم في قلبك إلى مرتبة اليقين، فإنه حينئذٍ لا يقبل التشكيك؛ فهذا فرقُ ما بين العلم واليقين؛ فيما ذكر بعضهم.

والمقصود: أن العلم على دَرَجات؛ فمِن أعلى درجات العلم، وأكمَلِها، وأرفعها، وأثبتها: درجة اليقين؛ فالعلم عند أهل السنة والجماعة يتفاوَتُ، كما أنَّ الإيمانَ يتفاوَت.

ثانيًا: الفرق بين اليقين والتصديق:

لا يخفى أن بين التصديق واليقين تقارُبًا في المعنى؛ ولذا فإنَّ اليقين قد يفسَّرُ بالتصديق؛ كما ثبَتَ ذلك عن النبي ﷺ حينما سُئِلَ عن الإيمان، ففسَّره بالإخلاص، وسُئِلَ عن اليقين، ففسَّره بالتصديق(١).

وقد ذكر بعض العلماء: أن التصديق في حقيقته مبنيٌّ على معلوم الإنسان؛ سواءٌ أكان هذا المعلوم من قَبِيل الحق أم من قبيل الباطل، إلّا أن الفرق بينه وبين اليقين: أن التصديق أمر اختياري، واليقين أمر اضطراريٌّ يُوجَد في نَفْس الإنسان إذا وُجِدَ مُوجِبُهُ من غير اختيار؛ كالشِّبَع والرِّيّ، ونحو ذلك.

فإذا حصَلَتْ مُوجِباته، فإنه يوجد في القلب، ويرسُخُ فيه، ويثبُتُ من غير اختيار؛ ولهذا فإن الكفار، بل عتاة الكافرين - مع تمرُّدهم وعتوِّهم على الله ﷻ وعلى رسله - كانوا مُوقِنين بصِدْقِ ما أخبَرَتْ به الرسل؛ قال الله ﷻ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]؛ جحدوا بها وكذَّبوا بألسنتهم ظلمًا وعلوًّا، مع وجود اليقين في نفوسهم.

---

(١) أخرجه ابن بُشْران في «أماليه» (١٢٦٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٤٤٢)، عن أبي فِرَاس؛ رجل مِن أسلم، قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوني عمَّا شِئْتُم»، فنادى رجل: يا رسولَ اللهِ، ما الإسلام؟ قال: «إقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة»، قال: فما الإيمان؟ قال: «الإخلاص»، قال: فما اليَقِين؟ قال: «التصديقُ بالقيامة».

وأعلَّه المنذري بالإرسال في «الترغيب والترهيب» (٥٣/١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣).

فالتصديق: أمر اختياري باعتبار أن الإنسان يُقِرُّ به، ويُظهِره، فيصدِّق؛ فيكون مؤمنًا، وقد لا يصدِّق، فيَجحَدُ؛ فيكون كافرًا.

فمن جئتَ له بالأدلة المتنوِّعة المختلفة لتقرِّره بأمر من الأمور، وبيَّنْتَ له الحق بيانًا واضحًا لا لبس فيه، ولم يكن له حجة أصلًا -: فإنه بذلك قد يحصُلُ له اليقين، ومع ذلك قد لا يصدِّقُكَ، ويُعلِن تكذيبك.

ثالثًا: الفرق بين اليقين والثقة[1]:

الثقة في حقيقتها: هي أمنُ العبد مِن فَوْت المقدور، وانتقاض المسطور، فيَظفَرُ برَوْحِ الرضا، وإلا فبعين اليقين، فإنْ لم فبلُطْفِ الصبر.

قال ابن القيِّم: «وذلك أن مَن تحقَّق بمعرفة الله، وأن ما قضاه الله، فلا مَرَدَّ له البتة، أَمِنَ من فَوْت نصيبه الذي قَسَمَهُ الله له، وأَمِنَ أيضًا من نقصان ما كتبه الله له، وسطَّره في الكتاب المسطور، فيَظفَرُ برَوْحِ الرضا؛ أي: براحته ولذَّته ونعيمه؛ لأن صاحب الرضا في راحة ولذَّة وسرور...»، إلى أن قال: «فإنْ لم يقدر العبد على رَوْحِ الرضا، ظَفِرَ بعين اليقين، وهو قوة الإيمان ومباشَرَتُه للقلب، فإنْ لم يحصُلْ له هذا المقام، حصَلَ على لطف الصبر، وما فيه من حُسْن العاقبة»[2].

وخلاصة ذلك: أن يقال: الفرق بين الثقة واليقين: أن اليقين إذا وُجِدَ في القلب، وُجِدَتِ الثقة فيه؛ كأنها ثمرته، فإذا تيقَّن العبد أن هذه الشريعة من عند الله ﷻ، فإنه يطمئِنُّ إلى أحكامها، وأنه لا حَيْف فيها، ولا نقص ولا هَضْم لحق أحد، وإذا تيقَّنت المرأة ذلك أيضًا، علمتْ أن إعطاءها نصف الميراث هو الحق، وأنه كمال العدل والإنصاف، وأنه لا ظلم فيه ولا شَطَط.

وكذلك أيضًا: إذا وُجِدَ اليقين في قلب العبد، وُجِدَتِ الثقة في قلبه في

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٤٣).

(٢) المصدر السابق (٢/١٤٥).

أحكام الله ﷻ الكونيَّة والقدريَّة؛ فيَعلَمُ أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، له الحُكْمُ في الأولى والآخرة، لا يخرُجُ شيء عن تقديره وحِكْمته وعدله، بيده الخَلْق والأمر، وهو الحَكَمُ العَدْل السميع البصير.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ، اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا»(١).

وروى ابن أبي الدنيا، عن قيس بن مسلم؛ قال: كان عطاءٌ الخُرَاسانيُّ لا يقومُ مِن مَجلِسه، حتى يقول: «اللهُمَّ، هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهوِّن علينا مصيباتِ الدنيا، وحتى نَعلَمَ أنه لا يُصِيبُنا إلّا ما كُتِبَ لنا، ولا يأتينا مِن هذا الرزق إلّا ما قَسَمْتَ به»(٢).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)؛ واللفظ له، وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي في «الكبرى» (١٠١٦١)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ وحسَّنه ابن القطَّان في «بيان الوهم والإيهام» (٤/٦٥٧)، والمناوي في «فيض القدير» (٢/١٣٢)، والألباني في «صحيح الترمذي» (٣٥٠٢)، و«صحيح الجامع» (١٢٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢١).

أَهَمِّيَّةُ اليَقِينِ وَمَنزِلَتُه

اليقينُ من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وبه تفاضَلَ العارفون، وفيه تنافَسَ المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وقد خَصَّ الله سبحانه أهله بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح مِن بين العالمين؛ فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وأخبر عن أهل النار: أنَّهم لم يكونوا من أهل اليقين؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فاليقين رُوحُ أعمال القلوب، وهو حقيقة الصِّدِّيقِيَّة، وهو قُطْب هذا الشأن الذي عليه مداره[١].

وقد جاء عن بعض السلف: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»[٢].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٧).

(٢) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠٣)، وعنه البيهقي في «الشعب» (٤٧)، وذكره البخاري معلَّقًا (١/١٠)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ موقوفًا، وعلَّقه البيهقي في «الآداب» (١٠٨٦)، ووصله الطبراني في «الكبير» (٩/١٠٤/٨٥٤٤)، وصحَّح وَقْفَهُ البيهقي، والمنذري في «الترغيب» (٤/٢٧٧)، وابن حجر في «الفتح» (١/٦٣)، والألباني في «الضعيفة» (١/٧١٥). وأخرجه ابن أبي الدنيا في =

وهذا صحيح؛ فإن العبد قد يصبر، ولكنَّ قلبه يتحرَّك بالخواطر والإرادات، وتَرِدُ عليه أنواع الواردات، فهو يَمُوجُ بصاحبه، إلَّا أنَّ صاحبه يتحمَّل ويصبر، ويثبِّتُ نفسه مع مُقَاسَاته لألم المُصيبة.

وأمَّا صاحب اليقين، فإنه في مرتبة فوق ذلك، فهو يَعُدُّ البلاء نعمة أصلًا، ويَفرَحُ بالبلاء إن وقَعَ كما يفرح غيره بالعافية، ويَركَنُ إلى الله ﷻ، ويطمئِنُّ قلبه؛ فكان اليقين بهذا الإيمانَ كلَّه، وهو فوق الصبر.

قال ابن القيِّم: «اليقين والمحبَّة هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قِوَامُه، وهما يَمُدَّانِ سائر الأعمال القلبيَّة والبدنيَّة، وعنهما تصدُرُ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوَّتهما قوَّتها، وجميع منازل السائرين إنما تُفتَحُ بهما، وهما يُثمِرانِ كلَّ عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم»[(١)]؛ ولهذا قال أبو بكر الورَّاق: «اليقين مِلَاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عُرِفَ الله، وبالعقل عُقِلَ عن الله»[(٢)].

وقال الحسن: «باليقين طُلِبَتِ الجنَّة، وباليقين هُرِبَ من النار، وباليقين أُدِّيَتِ الفرائض، وباليقين صُبِرَ على الحق»[(٣)].

= «الشكر» (٥٨)؛ وعنه البيهقي في «الشعب» (٤١٣٤)، عن المُغِيرة بن عامر. وقد رُوِيَ مرفوعًا عن عبد الله بن مسعود ﷺ؛ أخرجه تَمَّام في «فوائده» (١٠٣٨)، وابن الأعرابي في «معجمه» (٥٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٤/٥)، وغيرهم. وقد حكَمَ بنكَارَتِهِ أبو علي النيسابوري - كما في «اللسان» (١٥٢/٥) - والذهبي في «الميزان» (٥٣٤/٣)، والألباني في «الضعيفة» (٤٩٩)، وضعَّفه ابن الجوزي في «العلل» (١٣٦٤)، وابن حجر في «الفتح» (٦٣/١)، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (١٨١/١).

(١) «مفتاح دار السعادة» (٤٧٧/١).

(٢) «مدارج السالكين» (٣٩٩/٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك (٥٥٨)، والإمام أحمد (ص ٢٨٢)؛ واللفظ له؛ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٣).

اليَقينُ في الكِتَابِ وَالسُّنَّة

قد ذكر الله تعالى اليقين في كتابه العزيز في مواضع متعدِّدة:

فتارَةً: يذكره صفة لأهل الإيمان؛ كقوله: ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وتارَةً: يذكُرُ أن أصحابه هم المنتفِعون بالقرآن؛ كما في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وتارَةً: يذكره حكمةً ربانيَّةً، ومرتبةً عليَّةً يبلُغُها من يصطفي من عباده؛ فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وتارَةً: يذكُرُ تصريفه للأمور، وتفصيله للآيات؛ لغاية اليقين بالغيبيَّات؛ كما في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وتارَةً: يذكره ثاني اثنَيْنِ تُنالُ بهما الإمامة في الدين؛ كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

يقول ابن تيميَّة: «الصبر واليقين، بهما تُنالُ الإمامة في الدِّين»[1].

وتارَةً: يَذُمُّ من لا يقين عنده؛ كقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وجاء عن النبي ﷺ عدة أحاديث صحيحة، يبيِّن فيها فضل اليقين ومنزلته وشرفه؛ كقوله ﷺ لأبي هريرة ﷺ: «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ؛ فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/٣٥٨).

هَذَا الحَائِطِ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ»[١]، وسمع النبي ﷺ بِلَالًا ينادي بالصلاة، فلمَّا سكَتَ، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ مِثْلَ هَذَا يَقِينًا، دَخَلَ الجَنَّةَ»[٢]؛ فدَلَّ ذلك على أن اليقين سببٌ لدخول الجنة.

وعن أبي بكر الصِّدِّيق ﵁؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على المِنْبَرِ، ثم بكى، فقال: «اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ والْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ»[٣].

والأحاديث في هذا كثيرة، وتتبُّعها أمر يطول، وحَسْبُكَ مِن القلادة ما أحاط بالعُنُق.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه مسلم (٣١)؛ من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه النسائي (٦٧٤)؛ من حديث أبي هريرة ﵁، وصحَّحه الحاكم (١/٢٠٤)، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٤٦)، و«صحيح الموارد» (٢٥٣)، وغيرهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٤٩)، وصحَّحه ابن حبان (٩٥٢)، والحاكم (٧١١)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٣/١٧٦).

مَرَاتِبُ اليَقِين(١)

لما كان العلم على مَرَاتِبَ ودَرَجات، وكان اليقين درجةً من درجاته، شابهه في هذه الصفة، فكان على ثلاث مراتب: أدناها: مرتبة «عِلْم اليقين»، وتليها: مرتبة «عَيْن اليقين»، وأعلاها: مرتبة «حَقِّ اليقين»، وقد ذكر الله ﷻ مرتبتَيْنِ من مراتبه في قوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥-٧]، وذكر المرتبة الثالثة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥].

فعلم اليقين: هو التصديق الكامل الجازم، الذي لا تردُّد فيه؛ بحيث لا يَعرِضُ له شكٌّ، ولا شُبْهة، ولا ريبٌ؛ بحالٍ من الأحوال، فينكشِفُ بذلك المعلومُ للقلب، فيصير بمنزلة المشاهَدِ له، فلا يَشُكُّ فيه كما لا يشكُّ الرائي بعينه فيما يراه ويشاهده، فيكون علم اليقين بالنسبة للقلب، كالمرئي بالعين بالنسبة للبصر؛ وذلك كعلمنا بالجنة، بوجودها ونعيمها؛ كما أخبرنا الله ﷻ، فنَعلَمُ أنها دار المتقين، وأنها مَقَرُّ المؤمنين؛ فهذه مرتبة علم اليقين.

ثم إذا كان اليوم الآخر، ورأينا الجَنَّةَ بأعيننا، فإن هذه المرتبة هي مرتبة عَيْنِ اليقين، والفرق بين هذه المرتبة والتي قبلها هو كالفرق بين العلم والمشاهَدة.

وقد جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ؛ إِنَّ اللهَ ﷻ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْقَى الأَلْوَاحَ، فَانْكَسَرَتْ»(٢).

---

(١) انظر: «التبيان، في أقسام القرآن» (ص٢٨٤ - ٢٨٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/٤٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/٢١٥، ٢٧١)؛ واللفظ له، وصحَّحه ابن حبان (٦٢١٣)، والحاكم =

وهذه المرتبة - مرتبة عين اليقين -: هي التي سألها إبراهيم ﷺ ربَّه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ فإبراهيم ﷺ كان كامل الإيمان، راسخ اليقين، لا تردُّد عنده ولا اشتباه ولا ريب، ولكنه أراد أن يَنتقِل من مرتبة من مراتب الكمال؛ وهي مرتبة علم اليقين، إلى مرتبة أعلى منها؛ وهي مرتبة عَيْن اليقين؛ فيرى ذلك بأُمِّ عينه، وقد سمى النبي ﷺ المسافة التي بين علم اليقين وعين اليقين: «شَكًّا»، فقال ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[(١)].

وأما المرتبة الثالثة، فهي مرتبة حَقِّ اليقين؛ وهي مباشَرةُ الشيء بالإحساس فعلًا، فإذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، كانوا بذلك قد بلغوا هذه المرتبة، وهكذا حينما يُخبِرُكَ مخبِرٌ أن لديه عسلًا، وتثق بخبره، فإنك تكون في هذه الحال متيقِّنًا بهذا الخبر، فإذا أحضَرَهُ أمامك، فإنَّ ذلك يكون عين اليقين، وهذه مرتبة أعلى؛ لأنه اجتمَعَ فيها العلم والمشاهدة، فإذا ذُقْتَهُ، فهذه هي مرتبة حق اليقين.

وهكذا إذا أخبَرَك مخبِرٌ بأن في هذا الوادي ماءً، فإن كان ثِقَةً، حصَلَ بخبره علم اليقين، فإذا شاهدتَ الماء، كان ذلك عين اليقين، فإذا بلَغْتَ الماء، واغترَفْتَ منه، وشربت، أو اغتسَلْتَ، فإن ذلك يكون حق اليقين[(٢)].

* * *

= (٣٢١/٢)، والذهبي، والزركشي في «المعتبر» (١٩٠)، و«اللآلي المنثورة» (٣٨)، وأحمد شاكر في تعليقه على «المسنَد» (٢٥٤/٣) و(١٤٧/٤)، والألباني في «صحيح الموارد» (١٧٥١)، وحسَّنه ابن حجر في «موافقة الخُبْر الخَبَر» (١٣٨/٢). وانظر: «المقاصد» (٩١٥).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢، ٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦٤٥/١٠-٦٤٧)، و«مدارج السالكين» (٤٠٣/٢)، و«التبيان في أقسام القرآن» (ص ٢٨٦)، و«مفتاح دار السعادة» (٤٦٣/١).

مَرَاتِبُ النَّاسِ فِي اليَقِين[1]

وإذا كان اليقين يتفاوَتُ في نفسه، فإنَّ هذا أيضًا يقتضي أن أهله يتفاوتون فيه:

فمنهم: مَن يكتمل يقينه، ويصير المعلوم بالنسبة إلى قلبه كالمُشاهَد الذي يشاهده بعينه سواءً بسواء.

ومنهم: مَن يصل إلى منزلة اليقين، ولكنه لا يبلُغُ هذه المرتبة.

ومِن ثَمَّ فإن الناس يتفاوتون بسبب ذلك في علمهم وجِدِّهم، وهمَّتهم ونشاطهم، وسعيهم للدار الآخرة، والعمل في مرضاة الله تبارك وتعالى؛ فعِلْمُ اليقين على مراتب:

تارَةً: يعلم العبد الحقيقة علمًا جازمًا لثقته بالمخبِر.

وتارَةً: يعلم صدقه، ويتيقَّنه، وتقوم الدلائل في قلبه عليه حتى يصير ذلك كالمُشاهَد لديه؛ وهذه مرتبة أعلى.

ومِن أهل العلم: مَن يقول: إن عَيْنَ اليقين أيضًا نوعان:

النوع الأول: يحصُلُ لقلب المؤمن في الحياة الدنيا؛ وهذا إذا ارتقى إيمان العبد، ورسَخَ اليقين في قلبه واستقَرَّ، وصار كأن حقائق الآخرة ماثلة بين عينَيْه؛ كأنه يشاهد عرش الرحمن، تَحُفُّ به الملائكة، وكأنه يرى الجنة والنار.

والنوع الثاني: في الآخرة: وذلك بمشاهَدَتِها بالعَيْنِ الباصِرة.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/٢٧٠)، و«الفوائد» (ص٥).

فما أخبَرَتْ به الرسل من الغيب يعايَنُ في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر؛ فهو عين يقين في المرتبتَيْن.

وكثير ممن يَنتسِبُ إلى الإسلام، ويصدِّق الرسول ﷺ بما جاء به، لا يَصِلُ به ذلك إلى درجة اليقين الكامل في القلب، وإنما يكون ذلك معلومًا له في الجملة، مع تعرُّضه - لعدم رسوخه - للشبهات والشكوك؛ فهم يؤمنون بالرسول ﷺ إيمانًا مجمَلًا؛ فهذا الإيمان يكفيهم وينجِّيهم عند الله ﷻ، ولكنه لا يصل بهم إلى درجة لا تقبل التشكيك؛ ولهذا قال بعضهم: «حظُّ الخَلْق من اليقين على قَدْرِ حَظِّهِم من الرضا، وحظُّهم من الرِّضَا على قدر رغبتهم في الله»(١).

والناس يتفاوتون في هذا:

فمِن الناس: مَن إذا تتابَعَتْ عليه النعم، واسترسَلَ عليه عطاء الله ﷻ مما يُحِبّ، فإنه يرضى ويطمئِنُّ ويسكُنُ إلى ذلك، وإذا أصابته البلايا والمحن، وفُتِنَ، تزعزع وتضعضع، ولربما نكَصَ على عقبيه؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

وقد قال بعضهم: «أنفعُ اليقين ما عظَّم في عَيْنِك ما به قد أيقَنْتَ، وصغَّر في عينك ما دون ذلك»(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٢٢)؛ ونسبه لسهل التستري.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٨٢).

اختبار اليقين

إن جَرَيان الأقدار على قلوب المؤمنين بداعية التمحيص لَمِنْ موفور الدلائل المتكاثِرة والأسباب المتوافِرة على حال تلك القلوب.

وللقلوب عمومًا مواقِفُ إذا تعرَّضت لها، تبيَّن بها حالها، فعُرِفَ بها المذبذبون والمستيقِنون؛ فمن تلك المواقف:

الموقف الأول: موقف التوبة:

فالعبد الذي قد كَمُلَ اليقين في قلبه، لا يتردَّد إذا وقع منه تقصير أو ذنب في المبادرة إلى التوبة، والرجوع إلى الله ﷻ، والإنابة إليه؛ لأنه يَعلَمُ أنه سيأتي عليه يوم يحاسَبُ فيه على القليل والكثير، والدقيق والجليل، وسيؤاخذ بجُرْمه؛ فلا تردُّد عنده في التوبة.

وأمَّا مَن ضَعُفَ يقينه، فإنه يحتاج إلى تحريك القلب بالوعظ والتذكير؛ ليَرِقَّ وتزول عنه تلك الغشاوة والغفلة؛ فيلين للتوبة، وربما احتاج صاحبه إلى نَوْعِ مداراة وطولِ صُحْبة، فقد تؤثِّر فيه الذكرى، فيَعِدُ بالتوبة، ثم يتراجع لأنسه بالعهد الأول، وخوفه من فَقْدِ الأصحاب أو الوظيفة أو المركز، ثم يبقى متردِّدًا متذبذبًا يقدِّمُ رِجْلًا، ويؤخِّرُ أخرى، وما ذلك إلَّا لضعف يقينه.

ولو اكتمَلَ اليقين عند العبد، فإنه لا يبالي بشيء، وإنما هِمَّتُهُ وطَلِبَتُهُ رضا الله ﷻ؛ فلا يحتاج إلى إقناع، ولا إلى كثير ملاطَفة حتى يلين.

وأما الآخر: فيحتاج إلى إقناعٍ بتذكيره بما عند الله ﷻ في الدار الآخرة من النعيم، وأنَّ مَن ترَكَ شيئًا لله، عوَّضه الله خيرًا منه؛ فحاله كحالِ مُسْتَغْنٍ،

وكأنَّ الله ﷻ هو المحتاج إليه، وكأنه يُدِلُّ على ربِّه تبارك وتعالى بتوبته واستقامته، وتركِهِ لهذه الذنوب والمعاصي التي فارقها!

وإلا فلماذا نتردَّد في التوبة إلى الله ﷻ والأَوْبة إليه؟! ولماذا يحتاج بعضنا إلى كثير من الملاطفة والمداراة؟! ولربما احتاج إلى شيء من المال من أجل أن يُتألَّفَ على الإيمان! إنما ذلك لقلة يقينه؛ ولهذا كان النبي ﷺ يُعطِي أقوامًا ويترك آخرين، وحينما يكلَّم في ذلك، فإنه يجيب بأنه يَكِلُ أقوامًا إلى إيمانهم، وأنه يُعطِي الرجلَ وغيرُهُ أحَبُّ إليه منه(١)؛ فمثل هؤلاء إنما أعطاهم لضعف يقينهم، وعدم رسوخ إيمانهم في قلوبهم؛ فالأولون: لا يُعطَوْنَ، ويُوكَلُونَ إلى إيمانهم، والآخَرُون: تؤلَّف قلوبهم بإعطائهم؛ فإذا المنعُ جزاء الرَّاسِخين، وإذا العطاءُ جزاء المتردِّدين، وإنما أَغْنَتْهم قناعة إيمانهم، فمُنِعُوا عن عطية سُفْلِيَّة، ووُعِدُوا بِالأَكْرَم لهم والأشرف؛ فإنه من يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومن يستَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ. وأما الآخَرون: فمحتاجون؛ لأن إيمانهم لم يسعفهم بالغَنَاء، وأحوَجَهُمْ ضعفُه إلى هذا العطاء.

فهذه حقيقةٌ يحتاج الإنسان أن يتأمَّلها مع نفسه، ومع غيره.

هذا الموقف الأوَّل الذي يُختبَرَ فيه اليقين.

الموقف الثاني: موقف المصيبة:

فكثير من الناس يُحسِنُ الكلام عن الصبر والثبات والإيمان، وعن الجزاء الذي يعطيه الله ﷻ للصابرين في الدار الآخرة، وما أعَدَّ لهم من النعيم المقيم، ولكنه إذا وقَعَتْ به المصيبة، اضطرَبَ قلبه، وجَزِعَ، ولم يثبُتْ، ولم يَصبِرْ، وإذا به متسخِّطٌ على ربه تبارك وتعالى، مُعرِضٌ عن الرضا بقضائه، معترِضٌ على أقداره، متناسيًا قول الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٩٢٣)؛ من حديث عمرو بن تغلب رضي الله عنه، ومسلم (١٥٠)؛ من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه.

أمَّا من كان متحقِّقًا باليقين، فإنه عند المصيبة رابِطُ الجأش، ثابت، صابر، حابس لسانَهُ عن التسخُّط، وجوارحَهُ عن فعل ما لا يليق؛ مِن شق جَيْبٍ، أو لطم خدٍّ، أو نحو ذلك مما يفعله مَن لا يقين عنده.

فهذه أمور قد لا تتبيَّن في حال الرخاء، وإنما تتبيَّن في حال الشدة والمصائب، ولربما ابتُلِيَ العبد المؤمن، فسَخِطَ على ربه؛ أن ابتلاه بهذا البلاء، والله ﷻ إنما ابتلاه لِيُمَحِّصَهُ ويرفعه من درجة إلى درجة، وليبلُغَ بهذا البلاء منازل عند الله ﷻ في الجنة ما كان لِيَبلُغَها بعمله.

الموقف الثالث: حال الحاجة:

إذا احتاج العبد وافتقَرَ إلى المخلوقين في أمور دنياه:

فإنْ كان قلبه يَلتفِتُ ويتطلَّع إليهم، ويتعلَّق بهم لينال ما عندهم، فإنَّ قلبه لم يتحقَّق باليقين بَعْدُ.

وأما إذا كان قلبه متوجِّهًا إلى الله وحده لا شريك له، لا يلتفِتُ إلى أحد من المخلوقين، ولا يتعلَّق بهم، فإن هذا هو اليقين الكامل.

الموقف الرابع: حال الغنى:

فمِن الناس مَن لا يشكُرُ إذا أغناه الله ﷻ، فيطغى ويكفُرُ، وينسى أن الله تعالى هو الذي أعطاه وأولاه، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منَعَ، وأن الكون ملكه بما فيه؛ فينسى هذا، ويقول: إنما أُوتِيتُهُ على علم عندي، إنما حصَّلته بجِدِّي واجتهادي وجهدي، وتحصيلي وذكائي وعلمي بوجوه المكاسب، وربما قال: حصَّلْتُهُ ووَرِثْتُهُ كابرًا عن كابر، إلى غير ذلك مما يكون فيه نسيان المُنعِم، والغَفْلة عن مقام استشعار إنعامه وإفضاله على العبد؛ فيكون بذلك كافرًا بنعمة ربِّه ﷻ.

❊ ❊ ❊

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ اليَقِينِ وَكَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ أَسْبَابِهِ

وهو طريق السالكين إلى إيمانٍ لا شك فيه، وخوفٍ لا يأس معه، ورجاءٍ لا اغترار به.

فكيف نسمو بأنفسنا إلى اليقين؟! وكيف نربِّي أنفسنا عليه، ونرتقي بإيماننا إلى هذه المرتبة الشريفة، والمنزلة الرفيعة المُنيفة؟!

أعظم ذلك: أن نعلم أن التوفيق والمواهب بيد الله ﷻ؛ فما على العبد إلَّا أن يلجأ إليه، وأن يصدُقَ في الإقبال عليه، فيسأل ربه قائمًا وقاعدًا أن يرزقه الإيمان الكامل، واليقين الجازم الراسخ الذي لا يتزعزع[١]، مع مَدِّ الأسباب الموصِّلة إلى هذه المرتبة؛ ومن هذه الأسباب:

١ - العلم:

فهو أول دَرَجات اليقين، كما قيل: «العلم يَستعمِلُك، واليقين يَحمِلُك»[٢]؛ فيندفع العبد للعمل، ويبادِرُ إليه، ويُنفِقُ ماله الذي يَحرِص عليه؛ لأنه يتيقَّن بالجزاء، ويعلم أن من أعلى المراتب والمنازل عند الله ﷻ مرتبةَ الشهداء؛ فيبذُلُ نفسه رخيصة في سبيل الله تبارك وتعالى:

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ[٣]

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٠٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٨).

(٣) «ديوان المتنبِّي» (ص٥٣١)؛ مع «العَرْف الطيِّب».

فالمال حبيب إلى النفوس، والنفوس عزيزة على أصحابها؛ فالعبد يَعلَمُ أن بذل المال سبيل إلى التقرُّب إلى الله ﷻ، وأن الله يربِّي الصدقة، ويعلم أيضًا: أن الشهيد يُغفَرُ له مع أول قَطْرة من دمه، ويشفَّع في سبعين من أهله، إلى غير ذلك من فضائله، ولكن العبد قد لا يُقدِمُ على العمل بمقتضى ما يعلمه؛ لأنه لم يصل إلى مرتبة اليقين.

وأما صاحب اليقين، فإنه يُحمَلُ على ذلك حَمْلًا، فلا يقف عند حد العلم، وإنما يحمله يقينه على الامتثال والإقدام والعمل، ولو كان في ذلك إزهاقُ رُوحِه، وإنفاقُ ماله؛ فإنه مُوقِنٌ بأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجَنَّة، وأنه لا أحد أوفى بعهده من الله، وأنه سيلقى عائدةَ ذلك في يوم هو أحوج ما يكون إليه؛ ولهذا فإن العلم إذا رسَخَ، أثمَرَ اليقين الذي هو أعظَمُ حياة القلب، وبه طمأنينته وقوَّته ونشاطه[(١)].

وهذا العلم الذي يحتاج إليه العبد لِيَصِلَ إلى مرتبة اليقين، يشمل أنواعًا؛ وهي العلمُ بالله، والعلمُ بالنفسِ، والعلم بالخلق:

أمَّا العِلْمُ بالله ﷻ: فيشمَلُ العلمَ بأنه المألوهُ المعبودُ وحده لا شريك له، وأنه لا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سواه؛ فلا يلتفِتُ قلبه إلى أحد من الخلق، ولا يتعلَّق بهم.

ويشمل العلمُ بالله أيضًا: العلمَ بربوبيَّته ﷻ للكائنات، وأن أَزِمَّة أمورهم بيده، وأنه مدبِّر هذا الكون ومصرِّفه، وأن الخلق عبيده، يربِّيهم ويتصرَّفُ فيهم كيف شاء؛ إذا علم العبد ذلك، اطمأنَّ إلى رزقه، واطمأنَّ إلى أجله، واطمأنَّ إلى أقداره، وإلى عطائه ومنعه؛ فلا يَعترِض على الله، وإنما يرضى؛ فإذا أصابته نعماء شكر، وإذا أصابته ضرَّاء صبر، مؤمِنٌ بربه، موقِنٌ بوعده ووعيده.

ويشمل العلمُ بالله أيضًا: العلمَ بأسمائه وصفاته؛ فيَعلَمُ أن الله ﷻ هو العظيم؛ فلا يعظُمُ أحد في عينه عظمةً لا تصلُحُ إلّا لله، ويعلم أن الله تعالى

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٦).

هو الجبَّار القاهر القادر القوي المتين؛ فلا يهاب المخلوقين، وإنَّما يعظُمُ الخوف من الله ﷻ في نفسه، ويعلم أن الله هو الرقيب؛ فلا تمتد عينه ولا يده إلى حرام، ولا تخطو رجله إليه؛ لأن يقينه راسخ بأن الله يراه، وأن ما يخفى على المخلوقين لا يخفى عليه؛ فتسكُنُ جوارحه، وتلتزِمُ طاعةَ ربِّها ومليكها؛ فلا يصدُرُ منه شيء ينافي هذا الإيمان وهذا اليقين الذي وقَرَ في قلبه بمعرفته بأوصاف الله ﷻ الكاملة، وإذا عرَفَ ربه قويًّا عزيزًا، عرَفَهُ قادرًا على أن يمنع عنه المخاوف، قادرًا على حفظه؛ فهو يلجأ إلى ركن شديد؛ فيفوِّض أموره إليه، ويُحسِن التوكُّل عليه.

فإذا عرَفَ العبد ربه معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته، فإن قلبه ينشرح بذلك، ويطمئِنُّ إلى ربه المتصف بصفات الكمال، ويُحسِنُ الإقبال عليه بتمام الافتقار والحاجة إليه؛ فيجد من ربه الإغناء والعطاء، والدفع والمنع، ويجد كل مطلوب له.

وإذا عرَفَ العبد هذه الحقائق، فإنه يرضى بالله ﷻ ربًّا، ويذوق حلاوة الإيمان بهذا الرضا: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا...»(١)، ويؤمن بقضاء الله وقدره، فتمر به الآلام والمصائب والمكاره وهو ساكن مطمئِنّ، لا يتزعزع، ولا يصدُرُ منه ما يصدر من السفهاء الذين لم يَعرِفُوا الله ﷻ حق معرفته.

وهذا العلم الذي يوصِّل العبد إلى اليقين - كما أنه علم بالرب المعبود - فإنه يشمل أيضًا **العلم بالنَّفْس والعلمَ بالخَلْق**: فيعلم قدر نفسه وضعفه وعجزه؛ فلا يَركَنُ إلى نفسه، ولا إلى أحد من المخلوقين؛ لعلمه أنهم مربوبون، وأن الله ﷻ يصرِّفُهم ويدبِّرُهم، وأنه بيده ملكوت كل شيء؛ ومِن ثَمَّ فلا يمتد طمعه إلى أحد غير الله ﷻ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «إذا أردتَ اليقين، فكن أفقرَ الخلق إلى الله».

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤)؛ من حديث العبَّاس ﷺ.

وعلى كلِّ حال: إذا أردتَّ أن تكون متحقِّقًا باليقين، وأن تَعرِفَ ذلك من نفسك، فلا تُمْسِ ولا تُصبِحْ وأحدٌ أحبُّ إليك من الله، ولا أخوَفُ منه عندك، ولا أرجى ولا أقدَرُ على العطاء والمنع منه سبحانه؛ فلا يتعلَّق قلبك بشيء سواه؛ محبةً وخوفًا، ورجاءً وطمعًا، فلا يَشغَلْكَ حبٌّ عن حبه، ولا خوفٌ من أحد عن الخوف منه، ولا رجاءٌ في مِنَّةٍ أو منحة عن الرجاء لوجهه الكريم؛ فبذلك يَرسُخُ الإيمان بقلبك، ويستقِرُّ اليقين فيه.

قال شَقِيق بن إبراهيم البَلْخي: «مَن أراد أن يَعرِفَ معرفَتَهُ بالله، فلينظُرْ إلى ما وعده اللهُ ووعده الناسُ؛ بأيهما قلبُهُ أوثق؟!»[(١)].

٢ - دفع الواردات والخواطر وغير ذلك من الأمور المنافية لليقين:

ومِن ثَمَّ كان جهاد الشيطان على مرتبتَيْن:

المرتبة الأولى: جهاده فيما يُلقِيهِ مِن الشبهات والوساوس، والخواطر المزعِزعة لليقين؛ وهذا لا يَسلَمُ منه العبد إلّا إذا دفَعَه، وجاهد شيطانه بدفع هذه الخواطر والوساوس والشُّبَه؛ فلا يقرأ في كتب الشُّبَه، ولا يجادِلُ أهلها، ولا يسمع منهم، ولا يجعَلُ قلبه عُرْضةً لكلِّ آسرٍ وكاسرٍ، وقاطع طريق، بل يَرْبَأُ بنفسه عن طَرْقِ منتَدَيات شبكة الإنترنت ومواقع تواصُلِها الاجتماعي التي تُلقِي بشِبَاك الشُّبَه على العقول مِن قِبَل أهل الضلالة؛ فلا يجعل قلبه عُرْضةً لسهام هؤلاء؛ فيصيبه منها ما لا يسلم منه أبدًا.

ولذلك فإنَّ مِن الأمور المهمَّة التي تُعِين العبد على الوصول إلى مرتبة اليقين: أن يدفع الخواطر والوساوس، ويقضي على أسباب الشكوك والشبهات؛ فإذا دفَعَ العبد ذلك عن قلبه، أورثه ذلك الدفعُ يقينًا صادقًا يجده من نفسه.

المرتبة الثانية: جهاده فيما يُلقِيهِ من الشهوات؛ فإنه إذا جاهد الشيطانَ في

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٦٤).

باب الشهوات، أورثَهُ ذلك صبرًا؛ كما قال ابن القيِّم[١]؛ ولهذا كانت الإمامة في الدين تُنَالُ بالصبر واليقين؛ فالصبر يدفَعُ الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقين يدفَعُ الشكوكَ والشبهات.

٣ - العزم الجازم على العمل بمرضاة الله ﷻ:

فيُقدِمُ العبد على ذلك من غير نظرٍ في الحسابات[٢]؛ بخلاف مَن يُحجِمُ عن عمل الصالحات مِن توبة وصَدَقة وصوم لأجلِ أنْ حسَبَ الأرباح والخسائر؛ فإنه تنقضي أيامه، ولم يتقرَّب إلى الله ﷻ كثيرًا؛ فالعبد بحاجة إلى الإقدام والجزم؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: «الاهتمام بالعمل يُورِثُ الفكرة، والفكرة تُورِثُ العِبْرة، والعِبْرة تُورِثُ الحَزْم، والحزم يُورِثُ العَزْم، والعزم يُورِثُ اليقين، واليقين يُورِثُ الغنى، والغنى يُورِثُ الحبّ، والحب يُورِثُ اللِّقاء»[٣].

٤ - مفارقة الشهوات والحظوظ النفسانية:

فإذا كان العبد منغمِسًا في شهواته، متَّبِعًا لنَزَواته، فأنَّى له باليقين؟!

يقول ابن القيِّم: «أصل التقوى مباينة النَّهي، وهو مباينة النَّفْس؛ فعلى قدر مفارقتهم النفس وصَلُوا إلى اليقين»[٤].

٥ - التفكُّر في الأدلَّة التي تُوصِلُ إلى اليقين:

فكلما تواردَتِ البراهين المسموعة، والمعقولة، والمشاهَدة، على قلب العبد، كان ذلك زيادةً في يقينه وإيمانه؛ وهذا شيءٌ مشاهَد؛ فكثير من الأشياء التي في حياتنا والتي نعايشها، وكثير من الأمور التي شاهدناها، والتي لم

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٣/١٠).

(٢) وهذا فيما كان فيه مصلَحة؛ بخلاف ما إذا تعارَضَتِ المصالح والمفاسد، أو تزاحَمَتِ المصالح أو المفاسد.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٢).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٩).

نشاهدها: تيقَّناها، مع أن الله ﷻ قد أخرَجَنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا؛ فكيف حصَّلنا اليقين فيها؟

حصَّلنا هذا اليقين: إمَّا بالمشاهَدة بعد أن كان ذلك معلومًا، أو بالمشاهَدة ابتداءً، أو بتوارُد الأدلَّة؛ فنعلم أن هذا الأمر حق لا يقبل الجدل، وأنه شيء ثابت لا يقبل التشكيك، مع أنه قد يكون في نفسِه باطلًا، وقد يكون لا حقيقة له.

على سبيل المثال: ما ذكرناه مِن قبلُ في مسألة العقل والقلب؛ فكثير من الناس عنده يقينٌ أن عقله في دماغه، مع أن الأدلة من الكتاب والسنة تدُلُّ على أن العقل في القلب، وإنما وُجِدَ هذا اليقين عند كثير من الناس بتوارُدِ ما توهَّموه أنه أدلَّة، حتى صار ذلك عندهم لا يقبل التشكيك؛ ولهذا تجد الواحد من هؤلاء يَعْجَب كل العجب، ويستنكِرُ سماع ما يخالِفُ هذه العقيدة التي رَسَخَتْ في نفسه.

* * *

ثَمَرَاتُ اليَقِين

متى غُرِسَتْ شجرة اليقين في القلب، آتت أُكُلَها كلَّ حِين بإذن ربها؛ فمِن ثمار اليقين:

١ - أنه إذا خالَطَ قلبَ الإنسان، أفاض على قلبه نورًا وإشراقًا:

ونفى عنه كِيرَ الشكوك والرَّيْب والشبهات التي تُقلِقُه؛ فيكون القلب مستريحًا مطمئنًا، ويرتفع عنه السَّخَط والهم والغم الذي يجلبه الشك والريب؛ فيمتلئ قلبه محبَّةً لله، وخوفًا منه، ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابةً إليه؛ فهو جِذْرُ جميع المقامات، والحامل عليها؛ كما قال ابن القيِّم[(١)]؛ بخلاف الريب والشك والتردُّد؛ فإنه يُورِثُ قلقًا في القلب، وضجرًا وألمًا؛ فالشك يُلْهِب في القلب حرارة، لا يطفئها إلّا بَرْد اليقين؛ ولهذا يقال: «ثَلَجَ صَدْرُه، وحصَلَ له بَرْدُ اليقين»[(٢)]؛ فتزول عنه هذه الأمور التي تَعْصِر القلب وتؤلمه، وتَعصِف به.

يقول ابن القيِّم - وهو يصف أثر اليقين على القلب، وما يُفِيضُه على الجوارح، بعد أن رآه رأي عَيْن في شيخه ابن تيميَّة -: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّة قدَّس الله رُوحَه يقول: إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها، لا يدخُلُ جنة الآخرة؛ وقال لي مرَّة: ما يَصنَعُ أعدائي بي؟! أنا جَنَّتي وبُسْتاني في صدري؛ أين رُحْتُ، فهي معي لا تُفارِقُني؛ إنَّ حبسي خَلْوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سِيَاحة.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/٦١).

وكان يقول في مَحبَسِهِ في القلعة: لو بَذَلْتُ لهم مِلْءَ هذه القلعة ذهبًا، ما عدَلَ عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزَيْتُهم على ما تسبَّبوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهُمَّ، أَعِنِّي على ذِكْرِك وشُكْرِك وحُسْنِ عبادتك»؛ ما شاء الله.

وقال لي مرَّةً: المحبوسُ: مَن حُبِسَ قلبُهُ عن ربه تعالى، والمأسورُ: مَن أَسَرَهُ هواه.

ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سُورِها، نظر إليه - أي: السُّور - وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيَبَ عيشًا منه قطُّ، مع ما كان فيه مِن ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدِّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو - مع ذلك - مِن أطيب الناس عيشًا، وأشرَحِهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسَرِّهم نَفْسًا؛ تلوح نَضْرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتَدَّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه؛ فما هو إلّا أن نراه ونَسمَعَ كلامه؛ فيذهب ذلك كلُّه، ويَنقلِبَ انشراحًا، وقوةً، ويقينًا، وطمأنينةً؛ فسبحان مَن أشهَدَ عباده جَنَّته قبل لقائه، وفتَحَ لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم مِن رَوْحِها، ونسيمها، وطِيبها ما استفرَغَ قواهم لطَلَبِها والمسابقة إليها»[1].

والمقصود: أن العبد إذا ارتقى إلى مرتبة اليقين، اندفَعَتْ عنه الشكوك والرِّيَب؛ ولهذا قال أحمد بن عاصم الأنطاكي: «يسيرُ اليقين يُخرِجُ كلَّ الشك من القلب»[2].

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩- ١١٠).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/٤١٠)، وأخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٩٥).

وصح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «إن الرَّوْحَ والفَرَج في اليقين والرضا، وإن الغَمَّ والحَزَن من الشكِّ والسَّخَط»[١].

كما أنه يُورِثُ صاحبه بصيرةً يفرِّق بها بين الحق وبين ما يلبِّسه الشيطان على الجُهَّال من العُبَّاد وغيرهم؛ فهذا أحمد بن نِزَار القَيْرَواني كان يختم كل ليلة في مسجده، فرأى ليلةً نُورًا قد خرَجَ من الحائط، وقال: تَمَلَّ من وجهي؛ فأنا ربُّك، فبصَقَ في وجهه، وقال: «اذهَبْ يا ملعون»، فطفئ النور[٢]؛ فهذا شيطان أراد أن يضلَّه، ولما كان راسخ الإيمان، ثابت اليقين لم يلتفت إليه، وإنما ازداد إيمانًا مع إيمانه.

وأمَّا مَن طبَعَ الله على قلبه، فلا أثر لليقين على قلبه، فسُدُفُ الريب والشبهات على قلبه مُرْخاة، وغِشَاوة الذنب على بصيرته مُلْقاة، وإنْ صَلُحَ ظاهرُه، وكَثُرَ ناصرُه.

وقد أورد ابن كَثِير في «تاريخه»، عن عبد الرحمن بن حسَّان؛ قال: «كان الحارث الكذَّاب من أهل دمشق، وكان مولًى لأبي الجُلَاس، وكان له أبٌ بالحُوْلَة[٣]، فعرَضَ له إبليس، وكان رجلًا متعبِّدًا زاهدًا، لو لَبِسَ جُبَّةً من ذَهَب، لَرُئِيَتْ عليه الزَّهَادة والعبادة، وكان إذا أخَذَ بالتحميد، لم يسمع السامعون مثل تحميده، ولا أحسَنَ من كلامه، فكتَبَ إلى أبيه وكان بالحُوْلَة: يا أبتاه! أَعْجِلْ عليَّ؛ فإني قد رأيت أشياء أتخوَّف أن يكون الشيطان قد عرَضَ لي، قال: فزاده أبوه غيًّا على غيِّه، فكتَبَ إليه أبوه: يا بُنَيَّ، أَقْبِلْ على ما أُمِرْتَ به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۞ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٤٣٨)، وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢٣)؛ واللفظ له.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/٣٩٦)، و«معالم الإيمان» (٣/٤١).

(٣) اسم لناحيتَيْن بالشام؛ إحداهما: من أعمال حمص، ثم من أعمال بَارِين بين حمص وطرابُلُس، والأخرى: كُورَة بين بانياس وصُور من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة. «معجم البلدان» (٢/٣٢٣).

أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢]، ولستَ بأفَّاك ولا أثيم؛ فامْضِ لما أُمِرْتَ به. وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلًا رجلًا، فيذاكِرُهم أمره، ويأخذ عليهم العهد والميثاق إنْ هو يَرَى ما يَرْضَى؛ وإلا كتَمَ عليه.

قال: وكان يُرِيهم الأعاجيب؛ كان يأتي إلى رُخَامةٍ في المسجد، فينقُرُها بيده فتسبِّح تسبيحًا بليغًا، حتى يَضِجَّ من ذلك الحاضرون.

قلتُ: وقد سمعتُ شيخنا العلَّامة أبا العبَّاس ابن تيميَّة يقول: كان ينقُرُ هذه الرُّخَامةَ الحمراء التي في المقصورة، فتسبِّحُ، وكان زنديقًا.

قال ابن أبي خَيْثمة في روايته:

وكان الحارث يُطعِمُهم فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وكان يقول لهم: اخرُجُوا أُرِيكُمُ الملائكة، فيخرُجُ بهم إلى دَيْرِ المُرَّان[١]، فيُرِيهم رجالًا على خَيْل؛ فيتبعه على ذلك بشرٌ كثير، وفشا أمره في المسجد، وكَثُرَ أصحابه وأتباعه، حتى وصَلَ الأمر إلى القاسم بن مُخَيمِرة، قال: فعرَضَ على القاسم أمره، وأخذ عليه العهد إنْ هو رضي أمرًا، قَبِلَهُ، وإنْ كرهه، كتَمَ عليه، قال: فقال له: إني نَبِيٌّ، فقال القاسم: كذَبْتَ يا عدوَّ الله! ما أنت بنبيّ، وفي رواية: ولكنَّك أحدُ الكذَّابين الدَّجَّالين الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ: «إنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يَخْرُجَ ثَلاثُونَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ»[٢]، وأنت أحدُهم، ولا عهد لك»[٣].

---

(١) هذا الاسم يقال لِدَيْرَيْن في الشام؛ أحدهما على الجبل المُشْرِف على كفرْ طاب، قُرب المَعَرَّة. والثاني: بالقرب من دمشق على تَلٍّ مُشْرِف على مزارع الزعفران. ينظر: «معجم ما استعجم» (٢/٦٠٢)، و«خطط الشام» (٦/٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم (١٥٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ بلفظ: «لا تَقُومُ السَّاعةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ؛ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ».

(٣) «البداية والنهاية» (١٢/٢٨٥-٢٨٧)، ويُنظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١١/٤٢٧ - ٤٣٠).

٢ - أنه سببٌ في الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة[١]:

الفلاحُ: تحصيلُ المطلوب، والنجاةُ من المرهوب؛ ولهذا قال الله ﷻ عن المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤- ٥]، وقد جاء عن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه مرفوعًا: «اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ والْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ العَافِيَةِ»[٢].

وفي ذلك يقول ابن القيِّم: «لا يتم صلاح العبد في الدارَيْنِ إلَّا باليقين والعافية؛ فاليقين يَدفَع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه»[٣].

ويقول شيخ الإسلام - مشيرًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] -: «وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يُمزَجُ من شراب عباده المقرَّبين؛ لأنهم مزَجُوا أعمالهم، ويَشرَبُهُ المقرَّبون صِرْفًا خالصًا؛ كما أخلصوا أعمالهم، وجعل سبحانه شراب المقرَّبين من الكافور الذي فيه من التبريد والقوَّة ما يناسب برد اليقين وقوَّته؛ لِمَا حصَلَ لقلوبهم، ووصَلَ إليها في الدنيا، مع ما في ذلك من مقابلته للسعير»[٤].

فالجزاء مِن جنس العمل؛ فإنهم لما سلَكُوا في الدنيا مِرْقاة اليقين حتى وصلوه، وحصَلَ لهم بَرْدُه، حصَلَ لهم أيضًا بَرْدُ هذا الشراب من الكافور في الجنة.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٣٩٧).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) «زاد المعاد» (٤/١٩٧).
(٤) «جامع الرسائل» (١/٧٠).

٣ - أنه يُورِثُ القلب الزهد في الدنيا وقِصَر الأمل:

فلا تتعلَّق نفسه بها، وإنما يكون زاهدًا فيها؛ لأنه يَعلَم أنها ليست موطِنًا له، وإنما هي دار ابتلاء، وأنه فيها كالمسافر يحتاج إلى مثل زاد الراكب، ثم بعد ذلك يجتاز ويَعبُرُ إلى دار المقام؛ فهو بحاجة إلى أن يشمِّر إليها، وأن يَعمَلَ لها؛ ولهذا لما قال النبي ﷺ لأصحابه: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»، فقال عُمَيْر بن الْحُمَام الأنصاري: يا رسول الله، جَنَّةٍ عَرْضُها السموات والأرضُ؟ قال: «نَعَمْ»، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ: بَخٍ بَخٍ؟»، قال: لا والله يا رسول الله، إلّا رَجَاءَةَ أن أكونَ مِن أهلها، قال: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فأخرَجَ تَمَراتٍ من قَرَنِه، فجعَلَ يأكُلُ منهنَّ، ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هذه، إنَّها لَحَيَاةٌ طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتَلَهُمْ، حتى قُتِلَ[(١)].

وقال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن، اعلموا أنكم تَعمَلون في أيام قصار لأيَّام طوال، في دار زوال لدار مقام، ودار حُزْن ونصب لدار نعيم وخُلْد، ومَن لم يَعمَلْ على اليقين، فلا يَتَعَنَّ»[(٢)].

وكان يقول: «كأنَّا قومٌ لا يعقلون، وكأنَّا قوم لا يُوقِنون»[(٣)].

وقد ذكر ابن القيِّم سببَ تشبُّث الإنسان بهذه الحياة الدنيا، فقال: «فما ضَعُفَ مَن ضَعُفَ، وتأخَّر من تأخَّر، إلّا بحبِّه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونُفْرَته من ذمِّهم له، فإذا زَهِدَ في هذَيْنِ الشيئَيْن، تأخَّرت عنه العوارض كلُّها»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١)؛ من حديث أنس ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين»؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/٤٩٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٣١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٧)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٠/٤٩٤)؛ واللفظ لهما، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٧٧).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٣٠٢).

ولهذا فإنه لا ينشغِلُ بالدنيا ويتكالَبُ عليها إلّا مَن كانت الغفلة غالبة على قلبه(١)، وكان اليقين مترحِّلًا عنه؛ قال الله ﷻ عن آل فرعون: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، ويقول النبي ﷺ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»(٢).

وما وُجِدَ هذا التكاثُرُ والإلهاء عما هو أَوْلى بالخَلْقِ منه من العمل للآخرة، والسعي لتحصيل دار الكَرَامة، إلّا لاختلال اليقين في النفوس، «وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريَّات التي لا يُشَكُّ ولا يُمارَى في صحَّتها وثبوتها، ولو وصَلَتْ حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشَرَتْه، لما ألهاه عن مُوجَبِه، وترتَّب أثره عليه؛ فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين، كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشدَّ، فإذا صار له عين يقين كجملةِ المشاهَدات، كان تخلُّفُ مُوجَبِهِ عنه مِن أندر شيء؛ وفي هذا المعنى قال حسَّان رضي الله عنه فيمن قُتِلَ من أهل بدر من المشركين(٣):

سِرْنَا وَسَارُوا إلى بَدْرٍ لِحَتْفِهِمُ ... لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينَ العِلْمِ مَا سَارُوا»(٤)

وعن سفيان بن عُيَيْنة؛ قال: دخل هشام بن عبد الملك الكعبة، فإذا بسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، فقال له: «يا سالم، سَلْني حاجةً»، فقال: «إني أستحيي من الله تبارك وتعالى أن أسأل في بيت الله غير الله»! فلما خرَجَ، خرَجَ في إِثْرِهِ، فقال له: «الآن قد خرَجْتَ، فسلني حاجةً»، فقال له سالم: «مِن حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟»، فقال: «مِن حوائج الدنيا»، فقال له سالم: «والله، ما سألتُ الدنيا مَن يَملِكُها؛ فكيف أسأل الدنيا مَن لا يَملِكها؟!»(٥).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/٥١٧-٥١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢١)؛ واللفظ له، ومسلم (٤٢٦)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/٦٦٤).

(٤) ما بين علامتي التنصيص من كلام ابن القيِّم في: «عدة الصابرين» (ص ٣٥٩).

(٥) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٨٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/٦٤).

وقال بعضهم: «أنفعُ اليقين ما عظَّم الحقَّ في عينك، وصغَّر ما دونه عندك، وثبَّت الرجاء والخوف في قلبك»(١).

٤ - أنَّه يُثمِرُ الانتفاع بالآيات والبراهين(٢):

قال الله ﷻ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

يقول القرطبي: «والموقِنون: هم العارِفون المحقِّقون وحدانيَّةَ ربِّهم، وصِدْقَ نبوَّة نبيهم؛ خَصَّهم بالذكرِ لأنهم المنتفِعون بتلك الآيات وتدبُّرها»(٣)؛ فالآيات إنما تؤثِّر وتحرِّك نفوس أصحاب اليقين، أما أهل الغفلة، فإنهم لا ينتفِعون بها؛ ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٥ - أنَّه يولِّد الصبر:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «لا يمكن العبدَ أن يَصبِرَ إنْ لم يكن له ما يطمئنُّ له، ويتنعَّم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين»(٤).

فالعبد إذا كان فارغ القلب من اليقين، لم يَصبِرْ، وكان كالكيس الفارغ في مَهَابِّ القلق والجزع، ولكنه إذا كان لديه ما يطمئنُّ إليه، ويلتذُّ به، فإنه يَرْكَنُ، ويصبر، ويسكن؛ فلا يصدُرُ منه شيء يخالف مقتضى الصبر.

قال ابن القيِّم: «وعلى حسَب يقين العبد بالمشروع، يكون صبره على المقدور؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]؛ فأمره أن يصبر ولا يتشبَّه بالذين لا يقين عندهم في عدم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥٣٦/١٤)، ورَوَى نحوه - عن أحمد بن عاصم الأنطاكي - أبو نعيم في «الحلية» (٢٨٢/٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣٩٧/٢).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤٨٤/١٩).

(٤) «الاستقامة» (٢٦١/٢).

الصبر؛ فإنهم لعدَم يقينهم، عُدِمَ صبرهم، وخَفُّوا واستخَفُّوا قومهم، ولو حصَلَ لهم اليقين والحق، لصبروا وما خَفُّوا ولا استخَفُّوا؛ فمَن قَلَّ يقينه، قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره، خَفَّ واستخَفَّ؛ فالموقن الصابر رزين؛ لأنه ذو لُبٍّ وعقل، ومَن لا يقين له ولا صبر عنده، خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات؛ كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف»(١).

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ»(٢).

شَبَّهَهُم بالفراش لخفَّتها، وسرعة حركتها وانتشارها، وهي صغيرة جاهلة بمصالحها، تتهافت في النار؛ فيكون سببًا لإحراقها.

يقول ابن القيِّم: «ولهذا يقال لمن أطاع مَن يُغوِيه: إنه استخفَّه، وقال الله عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، والخفيف لا يثبُتُ، بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت»(٣).

ويقول: «لذَّة الآخرة أعظم وأدوم، ولذَّة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا، والمعوَّلُ في ذلك على الإيمان واليقين، فإذا قوي اليقين، وباشر القلب، آثر الأعلى على الأدنى في جانب اللذَّة، واحتمَلَ الألم الأسهل على الأصعب»(٤).

ولهذا قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: «تَرِدُ عليَّ الأثقال - يعنى: من المصائب والآلام - ولو وُضِعَتْ على الجبال، تفسَّخَتْ، فأضع جنبي على الأرض، وأقول - مثبِّتًا لنفسه -: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦]، ثم أرفع رأسي، وقد انفرَجَتْ عني»(٥).

---

(١) «التبيان، في أقسام القرآن» (ص ١٣٧-١٣٨)؛ بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٦)، ومسلم (٢٢٨٤)؛ واللفظ له؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) «الفوائد» (ص٢٣١)، ط. دار الحياة، بتصرُّف. وسقط من ط. دار عالم الفوائد.

(٤) المصدر السابق (ص٢٩١).

(٥) «تاريخ الإسلام» (٩٦/٣٩).

والعبد يجب عليه أن يروِّض نفسه على الحد الأدنى وهو الصبر؛ لأنه ليس دون الصبر إلّا الجَزَعُ والسَّخَط؛ فيذهب الأجر، ولا يُستَرَدُّ المفقود؛ فإنَّ ما ذهب لا يرجع، وما فات لا يعود، فليس للعبد إلّا الصبر؛ ليُؤجَرَ على هذه المصيبة. وأما إذا تسخَّط، فإنه يأثم، ويفوته الأجر، ثم يسلو سُلُوَّ البهائم من غير احتساب.

ولهذا قال بعض خلفاء بني العبَّاس: «أَعْيَتِ الحِيلةُ في الأمر إذا أقبَلَ أن يُدبِر، وإذا أدبَرَ أن يُقبِل»[1]؛ يعني: ما قدَّره الله كائن لا محالة، ولا سبيل إلى دفعه؛ فعليك أن تستقبله بالرضا والتسليم.

٦ - الرضا بقضاء الله تعالى:

ف: «اليقينُ: أفضل مواهب الربِّ لعبده، ولا تثبُتُ قدَمُ الرضا إلّا على درجة اليقين؛ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هو الذي إذا أصابته مصيبةٌ، رضي وعرَفَ أنها من الله»[2]؛ فلهذا لم يحصُلْ له هداية القلب والرضا والتسليم إلّا باليقين»[3].

وقال ابن جَرِير في تفسير الآية: «يقول: ومَن يصدِّقْ بالله، فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلّا بإذن الله بذلك ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ يقول: يوفِّقِ الله قلبَهُ بالتسليم لأمره، والرضا بقضائه»[4].

وقال ابن كَثِير: «أي: ومَن أصابته مصيبة، فعَلِمَ أنها بقضاء الله وقدَرِه،

---

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/٢٣٨)، و«تاريخ الخلفاء» (٣٢٨)؛ ونسباه إلى المأمون.

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه»، كتاب التفسير، سورة التغابن (٣/٣٥٧)، عن علقمة، عن عبد الله، ووصَلَهُ الطبري في «تفسيره» (٢٣/١٢)؛ من كلام علقمة؛ بلفظ: «هو الرجُلُ تصيبُهُ المُصِيبَةُ، فيَعْلَمُ أنها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فيُسَلِّمُ ذَلِكَ وَيَرْضَى».

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٨).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٣/١١).

فصبَرَ، واحتسَبَ، واستسلَمَ لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوَّضه عمَّا فاته من الدنيا هُدًى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يُخلِفُ عليه ما كان أخَذَ منه أو خيرًا منه»(١).

وكان عطاء الخُرَاساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول: «اللهُمَّ، هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهوِّنَ علينا مصيبات الدنيا، وحتى نَعلَم أنه لا يصيبنا إلّا ما كُتِبَ لنا، ولا يأتينا من هذا الرزق إلّا ما قَسَمْتَ لنا به»(٢).

وقيل للحسَن بن عليّ: إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقرُ أحبُّ إليَّ مِن الغِنَى، والسَّقَم أحبُّ إليَّ مِن الصحَّة، فقال: «رحم الله أبا ذر، أمَّا أنا أقول: فمَنِ اتكَلَ على حُسْنِ اختيار الله له، لم يتمَنَّ أنه في غير الحالة التي اختار الله تعالى له؛ وهذا حَدُّ الوقوف على الرضا بما يَصرِفُ به القضاء»(٣).

وقال سفيان الثوري: قيل للربيع بن خُثَيْم: «لو تداوَيْتَ؟ فقال: لقد همَمْتُ به، ثم ذكَرْتُ عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ وقرونًا بين ذلك كثيرًا، كانت فيهم الأوجاع، وكانت لهم أطبَّاء، فما بقي المداوِي ولا المداوَى إلّا قد فَنِيَ»(٤).

وهذا سعيد بن جُبَيْر يقول: «لدَغَتْني عَقْرَب، فأقسَمَتْ عليَّ أُمِّي أن أَسترقِيَ، فأعطيتُ الراقي يدي التي لم تُلدَغ، وكَرِهْتُ أن أُحنِثَها»(٥).

وعن يونس بن عُبَيْد؛ قال: كان طاعون قِبَلَ بلاد ميمون -بن مِهْران- فكتَبْتُ إليه أسأله عن أهله، فكتب إليَّ: «بلَغَني كتابُك، وإنه مات من أهلي

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١٣٧/٨).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٢٠).
(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥٣/١٣).
(٤) أخرجه ابن المبارك (٢٥/٢٥)؛ واللفظ له، وأحمد (ص ٣٣١)؛ كلاهما في «الزهد»، وأخرجه من طريق آخر هنَّاد بن السَّرِيِّ في «الزهد» (٣٨٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٦/٢)، والدِّينَوَري في «المجالسة» (١٨٩).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٧٥/٤).

وخاصَّتي سبعةَ عشَرَ إنسانًا، وإني أكره البلاء إذا أقبَلَ، فإذا أدبَرَ، لم يَسُرَّني أنه لم يكنْ»[(١)]؛ فهو راضٍ بما قسَمَ الله ﷻ.

يقول أبو حازم: «وجدتُ الدنيا شيئَيْن: فشيءٌ منها هو لي؛ فلن أعجِّله قبل أجله، ولو طلبتُهُ بقوّة أهل السموات والأرض، وشيءٌ منها هو لغيري، فذلك ما لم أَنَلْهُ فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي؛ فيُمنَع الذي لي مِن غيري، كما يُمنَعُ الذي لغيري مني؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أُفنِي عمري؟! ووجَدتُّ ما أُعطِيتُهُ في الدنيا شيئَيْن: فشيء يأتي أجله قبل أجلي، فأُغلَبُ عليه، وشيء يأتي أجلي قبل أجله، فأموتُ وأخلِّفه لمن بعدي؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أعصي ربي؟!»[(٢)].

فلا حاجة للعبد أن يتسخَّط الأقدار، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن العبد يطلُبُهُ رزقه، كما يطلبه أجله؛ فعليه أن يتقي ربَّه، ويُجمِل في الطلب.

٧ - تحوُّلُ البلاء إلى نِعْمة، والمِحْنة إلى مِنْحة؛ في ميزان المُوقِن[(٣)]:

فعن سفيان الثوري؛ قال: «كان يقال: ليس بفقيهٍ مَن لم يَعُدَّ البلاءَ نِعْمة، والرخاءَ مصيبة»[(٤)].

وعن وهب بن منبِّه؛ قال: «لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يَعُدَّ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٩٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/٣٦٤).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٢)، وابن أبي الدنيا في «القناعة والعفاف» (٩٣)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/٥٠-٥٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٣٧) مختصرًا.

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٤٧٨).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢/٢٥)؛ ومن طريقه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٨١)، وأبو نُعَيْم في «الحلية» (٧/٥٥)، وأخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/٩٤)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/٦٦).

البلاء نعمة، ويَعُدَّ الرخاء مصيبة؛ وذلك أن صاحب البلاء ينتظِرُ الرخاء، وصاحب الرخاء ينتظِرُ البلاء»[١].

٨ - التوكُّل على الله ﷻ:

ولهذا قرَنَ الله بينه وبين الهدى، فقال: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]؛ وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ والحقُّ هنا هو اليقين؛ كما قال ابن القيِّم[٢].

يقول الحسن: «يا ابنَ آدم، إنَّ مِن ضَعْفِ يقينك أن تكون بما في يدك أوثَقَ منك بما في يد الله ﷻ»[٣].

وقال مسروق: «إن أحسن ما أكون ظنًّا لَحِينَ يقول الخادم: ليس في البيت قَفِيزٌ مِن قَمْحٍ ولا درهم»[٤].

وقال الإمام أحمد: «أسَرُّ أيامي إليَّ يومَ أُصبِحُ وليس عندي شيء»[٥].

ويقول أبو حازم: «كيف أخاف الفقر، ولمولاي ما في السموات والأرض وما فيهما وما تحت الثرى؟!»[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٩٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٩٢/٦٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٥٦-٥٧) بنحوه.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣٩٨/٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٤).

(٤) أخرجه هناد في «الزهد» (٥٩٢)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٩٧/٢)، والدِّينَوري في «المجالسة» (٢٧٤٤). والقَفِيْز: مِكْيَال قديم، يختلف مقداره في البلدان. ينظر: «القاموس الفقهي» (ص ٣٠٧).

(٥) «صفة الصفوة» (٣٤٥/٢).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (٩١)، وأخرجه بنحوه الدينوري في «المجالسة»؛ وعنه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٩/٢٢).

وقال الفضيل بن عِيَاض: «أصلُ الزهد: الرضا عن الله ﷻ»[١].

وقال: «القَنُوعُ هو الزاهد، وهو الغَنِيُّ»[٢]؛ «فمَن حقَّق اليقين، وَثِقَ بالله في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطَعَ عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك مِن طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومَن كان كذلك، كان زاهدًا في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس وإنْ لم يكن له شيء من الدنيا»[٣].

٩ - أنه يَحمِلُ صاحبه على مباشَرة الأهوال، وركوب الأخطار:

وهو يأمر بالإقدام دائمًا، فإنْ لم يقارنه العلم، فربما حمل على المعاطب[٤].

قال الجُنَيْد: «قد مشى رجال باليقين على الماء»[٥].

ولمَّا أراد سعد بن أبي وقَّاص ﷺ أن يعبُرَ دجلة إلى المدائن، وقطَعَ الفُرْسُ عليه الجسر، وحازوا السفن، نظر سعد في جيشه، فلما اطمأنَّ إلى حالهم، اقتحَمَ الماء، فخاض الناس معه، وعبَرُوا النهر، فما غَرِقَ منهم أحد، ولا ذهب لهم متاع، فعامت بهم الخيل وسعد يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل، واللهِ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ وليَّه، ولَيُظْهِرَنَّ الله دِينه، ولَيَهْزِمَنَّ اللهُ عَدُوَّهُ؛ إنْ لم يكنْ في الجيشِ بَغْيٌ أو ذنوبٌ تغلِبُ الحسنات»[٦].

ولما نزل خالد بن الوليد ﷺ الحِيرَة، فقيل له: احْذَرِ السمَّ لا يسقيكه الأعاجم، فقال: «ائتوني به»، فأُتِيَ به، فأخذه بيده، ثم اقتحَمَه، وقال:

(١) أخرجه ابن الأعرابي (١٠، ١١)، وابن أبي الدنيا (١٢٢)؛ كلاهما في «الزهد»، والدينوري في «المجالسة» (٩٦٠، ٣٠٤٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٤٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٥/٤٠٠).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٩).

(٦) «البداية والنهاية» (١٠/١٠-١١).

«باسم الله»؛ فلم يضرّه»[١]؛ قال الذهبي: «هذه والله الكَرَامة، وهذه الشجاعة»[٢].

فانظُرْ إلى هذه الأمور: لو أن العبد أقدَمَ عليها على غير بصيرة وصِحَّةِ توكُّل وحُسْن نظر وصلاح حال، لهلك لأوَّل وَهْلة، ولو أن عبدًا قَلَّ يقينه وإيمانه، وكثرت ذنوبه، فأراد أن يُغِيرَ على عدوِّه، فاقتحَمَ الماء، فإن مآله إلى الغرق والموت والهلاك؛ ولكنَّ سعدًا ﷺ حاز هذا اليقين بالعلم، فأمر بالنظر في أحوال الجيش، فلمَّا وجَدَهم على حالٍ مِن التقى، وخاف أن يفوت المسلمين تحصيلُ تلك الغنائم الهائلة العظيمة، ولم يَجِدْ شيئًا يَرْكَبُهُ إليهم إلّا الماء -: ركبه، وخاض البحر إليهم، فسلَّمه الله ﷻ.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيميَّة في مناظَرَتِهِ المشهورة للبطائحيَّة، وهم طائفة من الصوفيَّة، كانوا يَطْلُونَ أجسامهم بطِلَاءٍ معيَّن، ثم يدخلون في النار ولا يَحتَرِقون، فأضلُّوا طائفةً من المسلمين، ولبَّسوا عليهم؛ حيث زعموا أن هذا من الكرامات؛ قال شيخ الإسلام: «وسلَكْتُ سبيلَ عباد الله في مثل هذه المسالك، حتى أُلقِيَ في قلبي أن أدخُلَ النارَ عند الحاجة إلى ذلك، وأنها تكون بَرْدًا وسلامًا على مَن اتبَعَ مِلَّةَ الخليل، وأنها تُحرِقُ أشباهَ الصابئةِ أهلِ الخُرُوجِ عن هذه السبيل»[٣].

ولما حضر معهم أمام السلطان، وجلس شيوخهم بين يدَيْه، قال

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٧١٨٦)؛ واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٣٨٠٨)؛ بإسناد منقطِع، وله شاهد عند الطبراني في «الكبير» (٣٨٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه»، عن قيس بن أبي حازم؛ قال: «رأيتُ خالد بن الوليد أُتِيَ بِسُمٍّ، فقال: ما هذا؟ قالوا: سُمّ، قال: باسمِ اللهِ، وشَرِبَهُ»؛ وإسناده صحيح.
وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١/٣٧٦)، و«مجموع الفتاوى» (١١/٢٧٧-٢٧٨)، و«النبوَّات» (١/٤٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/٣٧٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١/٤٥٥).

للسلطان: «هؤلاءِ يَزعُمُون: أن لهم أحوالًا يدخُلُون بها النار، وأن أهل الشريعة - يعني: العلماء والفقهاء - لا يَقدِرون على ذلك، ويقولون: لنا هذه الأحوال التي يَعجِزُ عنها أهل الشَّرْع، وليس لهم أن يَعترِضوا علينا، بل ينبغي أن يسلِّموا لنا ما نحن عليه؛ سواءٌ وافَقَ الشرع أو خالفه، وأنا استخَرْتُ الله سبحانه أن أدخُلَ النار إذا دخلوها، ومَن احترَقَ منا ومنهم، فعليه لعنةُ الله، وكان مغلوبًا»؛ فاستعظَمَ الأمير هجوم الشيخ على النار، فقال له: أتَفعَلُ ذلك؟! قال: فقلتُ له: «نعم؛ قد استخَرْتُ الله في ذلك، وأُلقِيَ في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإنَّ خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد ﷺ، المتَّبِعين له باطنًا وظاهرًا، لحُجَّةٍ أو حاجةٍ؛ فالحجة: لإقامة دين الله، والحاجة: لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله.

وهؤلاء إذا أظهروا إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطِلُ دِين الله وشرعه، وجَبَ علينا أن ننصُرَ الله ورسوله ﷺ، ونقوم بنصر دين الله وشريعته بما نَقدِرُ عليه مِن أرواحنا، وجسومنا، وأموالنا؛ فلنا حينئذ أن نُعارِض ما يظهرونه من هذه المَخارِيق بما يؤيِّدنا الله به من الآيات»(١).

فلما رأوا عَزْمَهُ على ذلك، أَبَوْا أن يدخُلُوها، وقال كبيرُهم: بل نطلب المصالحة، فطلَبَ منهم شيخ الإسلام أن يترُكُوا هذه الأفعال التي تخالِفُ الشريعة، والتي تلبِّسُ على عوامِّ المسلمين؛ فأقرُّوا بذلك عند الأمير.

وهذا مقام لا يفعله إلّا مَن اكتمَلَ يقينه، وكان هذا اليقين مزمومًا بالعلم.

---

(١) انظر: المصدر السابق (١١/٤٥٩-٤٦٠)؛ بتصرف. وللاستزادة لمعرفة أحوال هذه الطائفة ينظر: «وفيات الأعيان» (١/١٧١)، و«تاريخ الإسلام» (٤٠/٢٤٨)، و«الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب...» (١/٢٦٦).

١٠ - أنَّ الصبر لِقَاح اليقين، فإذا اجتَمعا، أورَثَا الإمامة في الدين[١]:

كما قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

١١ - أن اليقين يَحمِلُ صاحبه على الجِدِّ في طاعة الله ﷻ:

يقول الحسن: «ما أيقَنَ عبدٌ بالجنة والنار حَقَّ يقينهما إلّا خشَعَ، ووَجِلَ، وذَلَّ، واستقام، واقتصر؛ حتى يأتيه الموت»[٢].

ولذلك: فإن أصحابه يَمتَطُونَ العزائم، ويَهجُرون اللذات، وكما قيل: «وما ليلُ المُحِبِّ بنائم، علموا طول الطريق، وقلَّة المقام في منزل التزوُّد؛ فسارَعوا في الجهاز، وجَدَّ بهم السير إلى منازل الأحباب، فقطَعُوا المراحل، وطَوَوُا المفاوز، وهذا كله من ثَمَرات اليقين؛ فإن القلب إذا استيقَنَ ما أمامه من كرامة الله، وما أَعَدَّ لأوليائه؛ بحيث كأنه ينظُرُ إليه من وراء حجاب الدنيا، ويعلم أنه إذا زال الحجاب، ورأى ذلك عيانًا، زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلِّفون، ولان له ما استوعَرَهُ المُترَفُون»[٣].

وانظر إلى الفرق بين من يتصدَّق وهو مُوقِن بموعود الله، وبين من يتردَّد في إخراجِ صدقته: أيُخرِجُها على كره أم يُبقِيها حرصًا؟ وترى الرجل يزداد حرصه كلَّما ازداد ماله؛ فلا شيء أحب إليه من تحصيله، ولا شيء أكره إليه من إخراجه، وإذا أُرِيدَ على الصدقة، فكَّر وتردَّد، ثم أدبر، بخلاف صاحب اليقين؛ فإنه يُنفِق من كرائم أمواله، ويَصُبُّ صبًّا، ويحثو حثوًا في سبيل الله، وما جعلهما على هذَيْنِ الحالَيْنِ المتضادَّيْنِ إلّا تفاوتهما في الإيقان، فكان البذل سيما الإيمان، وفي حديث الصادق المصدوق ﷺ: «والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»[٤].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٥٤، ٣٩٧)، و«الفوائد» (ص ٢٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٦).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٦٣).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣)؛ من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ.

قال ابن عُيَيْنة: قال بعض بني مَرْوان لأبي حازم: «ما مالك؟ قال: مالان، قال: ما هما؟ قال: الثقة بما عند الله، والإياس مما في أيدي الناس»(١).

ومن الناس: مَن يَقترِض أو يبيع بيته وجميع ما يملك؛ ليساهم بأكبر قَدْر من رأس المال في مشروع تجاري أو غيره، ولعلّه يدخُله بالتقحُّم ومن غير رويَّة؛ لما يغلب على ظنّه من ربحٍ مأمول، وكسبٍ مَهُول؛ فإذا قيل له: تصدَّقْ وأنفِقْ مما آتاك الله، تبرَّم، وأعاد حساباته، وذهب وجاء، ولعله ممن قرأ وعلم أن الصدقة تنمِّي المال، وأنه ما نقص مالٌ مِن صدقة، ولكنه ضعيف اليقين، غير راسخ الإيمان، وهي العلة نفسها التي تجعل بعض النساء يَسْأَلْنَ عن زكاة الحُلِيِّ المُعَدِّ للزينة: هل عليها زكاة فيه؟! وهل في المسألة خلاف بين العلماء؟! وهل لها أن تترخَّص؟!

وقل مثل ذلك في الغنيِّ؛ تجده يسأل عن زكاة ماله: أيكفيه عنها إسقاط تلك الدُّيُون عن غرمائه المُعسِرين أم يجب عليه إخراجها؟!

فلماذا إذا اهتَمَّ أحدهم بالأمر، هيَّأ نفسه من أجله، وأرصد له، وضبط حساباته ومواعيده، ثم لا تجد أمر الله لديه إلّا أهوَنَ ما يكون عليه؟!

لماذا إذا ارتبَطَتْ حاجته بميعاد، بكَّر إليها قبل ميعادها، فإذا نام عن الصلاة، وذُكِّرَ، قال: ليس في النوم تفريط، إنما التفريط في اليقظة؛ وهو في الحقيقة مفرِّط نائمًا ويقظانًا؟!

ولماذا إذا قال له الطبيب: افعل كذا، تَجنَّبْ كذا، قال: سمعنا وأطعنا، فإذا أمره الله، كان من الذين قالوا: سمعنا وهم لا يسمعون؟!

إنه ضعفُ اليقين الذي يحمل على حُبِّ الدنيا والزهد في الأخرى.

وفي ذلك يقول بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن، أمَّا ما وكَّلَكُم الله به،

---

(١) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (١/٦٧٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٤٠)، وأخرجه الدينوري في «المجالسة»؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/٢٦، ٥٦).

فتضيِّعونه، وأمَّا ما تكفَّلَ لكم به، فتَطلُبونه، ما هكذا نعَتَ الله عباده الموقنين؛ أَذَوُو عقول في طلب الدنيا، وبُلْهٌ عما خُلِقْتُم له؟! فكما ترجون رحمة الله بما تؤدُّونه من طاعة الله ﷻ، فكذلك أَشْفِقُوا من عذاب الله؛ مما تنتهكون من معاصي الله ﷻ»(١).

ويقول الحسن البصري: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبَهَ من شك لا يقين فيه؛ مِن أمْرِنا هذا!»(٢).

والمعنى: أننا نُوقِنُ بالموت، وبالجزاء والحساب، ولا نعمل لذلك، ولا نستعِدُّ له، نُوقِنُ بالنار، ولا نرى حَذِرًا خائفًا منها، وإنما نهجُمُ على معاصي الله ﷻ ومَسَاخِطه.

يقول سفيان الثوري مبيِّنًا هذا المعنى: «لو أن اليقين استقرَّ في القلب كما ينبغي، لطار فَرَحًا وحُزْنًا؛ شوقًا إلى الجنة أو خوفًا من النار»(٣).

١٢ - ثباتُ صاحبه على الحَقِّ الذي اتبعه وعرَفَه:

فأهل اليقين هم أكثر الناس ثباتًا على الحق؛ ولهذا لما سأل هِرَقْلُ أبا سفيان عن أصحاب محمد ﷺ: «أيرتدُّ أحدٌ سَخْطةً لِدِينِهِ بعد أن يدخُلَ فيه؟»، قال: لا، قال: «وكذلك الإيمانُ حِينَ تُخالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوب»(٤).

وأمَّا أصحاب العقائد الفاسدة، والجدل الباطل، فهم أكثر الناس تنقُّلًا من قول إلى قول، ومن مذهب إلى مذهب؛ بخلاف حال المؤمن الثابت.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة مقرِّرًا ما سبق: «تجد أهل الكلام أكثَرَ الناس

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٧)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٣١)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/٤٩٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٤١)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٣٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/٤٠٠)، عن أبي حازم، بنحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/١٧)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٧)؛ واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

انتقالًا من قول إلى قول، وجزمًا بالقول في موضع وجزمًا بنقيضه وتكفير قائله في موضع آخر؛ وهذا دليل عدم اليقين... وأما أهل السُّنَّة والحديث، فما يُعلَمُ أحد من علمائهم، ولا صالح عامَّتهم رجَعَ قطُّ عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرًا على ذلك، وإن امتُحِنُوا بأنواع المحن، وفُتِنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدِّمين؛ كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمَّة من الصحابة والتابعين، وغيرهم من الأئمَّة، حتى كان مالك يقول: لا تَغبِطُوا أحدًا لم يُصِبْهُ في هذا الأمر بلاء»[(١)].

١٣ - الثبات أمام الأعداء حتى النَّصْرِ أو الشهادة:

وأخبارُ أهل اليقين في هذه الأمة أمام عدوِّهم كثيرة جِدًّا[(٢)]، وهكذا أهل اليقين من قبلُ، فهذا نبي الله هود عليه السلام يقول لقومه بعد أن كذَّبوه: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

وهكذا ثبَّت الله نبيَّه وكليمه موسى وأخاه هارون عليهما السلام أمام فرعون، باليقينِ ورسوخ الإيمان.

ولما انحصَرَ بقومه بين البحر وفِرْعَوْنَ وجنوده، قال قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

وهذا هو ثبات اليقين؛ فإنهما لما قالا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥]، قال الله عز وجل: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛ فهذه المعيَّةُ مِن الله كانت أصلَ يقينه، لما قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/٥٠).

(٢) ستأتي الأمثلة في ذلك عند الحديث عن أخبار أهل اليقين في المبحث التالي.

١٤ - أن صاحبه لا يَعرِفُ اليأس مهما طال ليلُ الظالمين:

فإنَّ بَعْدَ الليل انفلاقَ الفجر ولا محالة؛ فالليل مهما طالت ساعاته، ومهما اشتدَّت ظُلْمَته، فإنه يزول وينفلِقُ عن بياض الصبح؛ فأهل اليقين لا يعرفون اليأس، ومهما حَلَّ بالأمة من مصائب ومحن ونكبات، وتسلُّط الأعداء، فإن أهل اليقين تَختلِف مواقفهم عن غيرهم من الناس؛ فمَن ضَعُفَ يقينه، رضي بالأمر الواقع، ودعا إلى التسليم، والانخذال للعدو.

وأما أهل اليقين: فيَصبِرون، ويَثبُتون، ويفعلون ما في وُسْعِهم وطاقتهم، والله ﷻ لا يكلِّف نفسًا إلّا وسعها، ثم بعد ذلك إذا أَقْدَرَهم الله ﷻ، ومكَّنهم من رقاب عدوِّهم، حكَمُوا فيهم بحكم الله؛ فلسان حال الواحد منهم - وقد أخذ العدوُّ بلده - يقول:

يَا دَارُ مَجْدُكِ لَنْ يَضِيعَ فَأَمِّلِي ... خَيْرًا وَلَا تَسْتَرْسِلِي بِبُكَاءِ
فَالحَاقِدُونَ سَيُغْلَبُونَ وَإِنْ هُمُ ... حَشَدُوا جُيُوشَ الْبَغْيِ وَالْإِفْنَاءِ
أَمْ أَلَّبُوا قَوْمًا عَلَى قَوْمٍ وَلَمْ ... يَدْعُوا سَبِيلَ المَيْنِ وَالْإِلْهَاءِ
فَلْتَصْبِرِي الصَّبْرَ الجَمِيلَ فَإِنَّهُ ... تَاجُ اليَقِينِ وَحِلْيَةُ الْعُظَمَاءِ(١)

وهؤلاء هم الذين يغيِّرُ الله على أيديهم وإنْ طال الزمان.

١٥ - أن أعمال أهله الصالحة تكون راجحة في الموازين عند الله ﷻ:

فصلاة صاحب اليقين ليست كصلاة غيره، وليس صيامه كصيامه، ولا صدقته كصدقته.

وبالجملة: فاليقين يُورِثُ صاحبه أمورًا جليلةً عظيمةً؛ فهو يزيد العبد قربًا من الله ﷻ، وحُبًّا، ورضًا بما قدَّره وقضاه، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعًا

---

(١) هذه الأبيات للأستاذ: مروان كجك، نشرتها مجلة البيان [عدد: (٩٤) جمادى الآخرة ١٤١٦هـ].

لربِّه وخالقه سبحانه، كما أنه يُكسِبُهُ رفعةً، وعزَّةً، ويُبعِده عن مواطن الذلِّ والضَّعَة.

وهو أيضًا باليقين يتبع النور، والحق المبين، ويسلك طريق السلامة المحقَّقة، فلا يحيد عنها بضعف يقينه؛ رغبةً أو رهبةً، كما أنه يَحمِلُ صاحبه دائمًا على الإخلاص والصدق، وتحرِّي ذلك في كل أعماله.

وهو أيضًا يَضبِطُ علاقة العبد بربِّه؛ فيُلزِمُه المراقبة، وفِعْلَ ما يليق، وترك ما لا يليق في تعامله مع ربه؛ لأنه يعلم أن ذلك يُوصِله إلى دار الأمان، ولا سبيل إلى الوصول إلّا بسلوك هذه الطريق.

* * *

الأُمُورالّتِي تُنَافِي اليَقِين

مِن أعظَمِ الأمور التي تنافي اليقين وتصادِمُهُ: تطلُّعُ القلب إلى غير الله ﷻ، وتعلُّقُهُ به، والتفاته إليه؛ ولهذا قال بعض المتقدِّمين: «حرامٌ على قلب أن يَشَمَّ رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله ﷻ، وحرامٌ على قلب أن يدخُلَهُ النُّور، وفيه شيء مما يكره الله ﷻ»[1].

وهكذا الشكوكُ والرِّيَبُ والأمور التي تجلب ذلك؛ كسماع الشُّبَه، وكلام المخذِّلِين، والمثبِّطِين لعزائم المؤمنين، فيوهِّنُونهم، ويحثُّونهم على القعود عن التزام صراط الله ﷻ المستقيم؛ فهؤلاء إذا أصغى العبد إليهم، أوهَنُوا دينه، وأضعفوا يقينه، فيُورِثُهُ ذلك قلقًا وتردُّدًا، وهو مما يخالف اليقين؛ لأن اليقين طمأنينة وثبات واستقرار.

قال ابن القيِّم: «الشك مُبْتَدأُ الرَّيْب، كما أن العلم مُبْتَدأُ اليقين»[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الخطيب في «المنتخب من الزهد» (٩)؛ وعنه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ٧٨).
(٢) «بدائع الفوائد» (١٤٨٩/٤).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ اليَقِين

وهي كثيرة، وقد ذكَرْتُ طائفةً منها في مضامين ما سلف، ونذكُرُ ههنا طائفة أخرى:

١ - هذه امرأةٌ مِن بني دينار عرَفَتْ معنى اليقين والثقة، فعبَّرت عنها بكلمات بَقِيَتْ تزيِّنُ صَدْرَ التاريخ؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه؛ قال: مر رسول الله ﷺ بامرأةٍ مِن بني دينار، وقد أُصِيبَ زوجُها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحُدٍ، فلما نُعُوا لها، قالت: «فما فعَلَ رسولُ الله ﷺ؟»، قالوا: خيرًا يا أُمَّ فلان؛ هو بحمدِ اللهِ كما تحبِّين، قالت: «أَرُونِيهِ حتى أنظُرَ إليه»، قال: «فأُشِيرَ لها إليه، حتى إذا رأته، قالت: «كُلُّ مصيبةٍ بعدك جَلَل»[(١)].

٢ - وهذه أمُّ حارثةٍ لما قُتِلَ ابنها مع رسول الله ﷺ، جاءت إلى النبي ﷺ، فقالتْ: يا رسول الله، قد عَرَفْتَ مَنزِلةَ حارثةَ منِّي، فإنْ يكنْ في الجَنَّةِ، أَصبِرْ وأَحتسِبْ، وإنْ تَكُ الأخرى، ترى ما أَصنَعُ، فقال: «وَيْحَكِ! أَوَهَبِلْتِ؟! أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟! إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»[(٢)].

٣ - وعن عامر بن عبد القَيْس؛ قال: «لو كُشِفَ الغطاء، ما ازدَدتُ يقينًا»[(٣)]؛ أي: أنه بلَغَ في اليقين غايته؛ فلو رأى الجنَّة والنار، ما ازداد يقينًا.

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/٤٣)؛ واللفظ له، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٥٠)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٠٣).

٤ - ويقول الآخر: «رأيت الجنَّة والنار حقيقةً»، قيل له: وكيف؟ قال: «رأيتُهما بعَيْنَيْ رسول الله ﷺ»[(١)].

فهو يَعتبِرُ عنده: أن ما أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ بمنزلةِ المرئيِّ المشاهَدِ الذي لا شك فيه، بل إن الخبر لديه آكد؛ فإنه قال: «ورؤيتي لهما بعينيه آثَرُ عندي من رؤيتي لهما بعيني؛ فإنَّ بصري قد يطغى ويزيغ، بخلاف بصره ﷺ»[(٢)].

٥ - وجاء عن حَيْوة بن شُرَيْح التُّجِيبيِّ الفقيهِ المحدِّثِ الزاهد؛ أنه كان يأخذ عطاءه في السنة ستِّين دينارًا، فلا يأتي منزله، حتى يتصدَّق بها، ثم يجيء إلى منزله، فيجدها تحت فراشه، فبلَغَ ذلك ابن عم له، فتصدَّق بعطائه جميعًا، وبادَرَ إلى تحت فراشه، فلم يجد شيئًا! فشكا إلى حَيْوة، فقال حَيْوة: «أنا أعطيتُ ربِّي بيقين، وأنت أعطيتَهُ تَجرِبة»[(٣)].

٦ - وجاء عن حُذَيْفة المَرْعَشي، وسليمان الخَوَّاص، ويوسف بن أسباط، وهم من الزهَّاد؛ أنهم اجتمعوا فتذاكروا الفقر والغنى، وسليمان الخَوَّاص ساكت، فقال بعضهم: «الغنيُّ: من كان له بيت يُكِنُّه، وثوب يستُرُه، وسدادٌ من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا»، وقال بعضهم: «الغنيُّ: من لم يحتج إلى الناس»، فقيل لسليمان: ما تقول أنت أبا أيوب؟! فبكى، ثم قال: «رأيت جوامع الغِنَى في التوكُّل، ورأيت جوامع الشرِّ من القُنُوط، والغنيُّ حقَّ الغنى: مَن أسكَنَ اللهُ قلبَهُ مِن غناه يقينًا، ومِن معرِفته توكُّلًا، ومِن عطاياه وقَسْمِهِ رضًا؛ فذلك الغنيُّ حقَّ الغنى، وإنْ أمسى طاويًا، وأصبح مُعْوِزًا؛ فبكى القوم جميعًا من كلامه»[(٤)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٠٠).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «تذكرة الحفاظ» (١/١٨٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٢/٢٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣٧).

٧ - وهذا الإمام البخاري لما ابتُلِيَ، وأُوذِيَ إيذاء شديدًا في مسألة اللفظ، كان يردِّد قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠][1].

٨ - ومن القادة المسلمين ممن تحلَّى باليقين: القائد المجاهد الزاهد، أبو عبد الله مَرْدَنِيش، قَاتَل الكفَّار من الرُّومَان، واستطاع أن يُحرِزَ غنائم عظيمةً، وكان مع طائفة من أصحابه لا يزيدون عن ثلاثمائة، فأحاط به من الرُّومَان أكثر من ألف فارس، فلما نظر إليهم، قال لأصحابه: ما تَرَوْنَ؟ قالوا: نترُكُ الغنيمة، وننطلِقُ، فينشغِلُوا بها عنا، فقال: ولكنَّ القائل يقول: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ ألم يقل القائل ذلك؟! فقال بعضهم: هذا قاله الله ﷻ! فقال: إذا كان الله قال ذلك، فكيف تقعُدُونَ عن لقائهم؟! فثَبَتُوا أمامهم، وقاتلوهم حتى هزَمُوهم، وفرُّوا مِن مواجَهَتهم[2].

٩ - نماذج من حال شيخ الإسلام ابن تيميَّة:

لقد لَقِيَ شيخ الإسلام في حياته ألوان المُعَانَاة من الخصوم، اجتمَعُوا على أذيَّته، تَؤُزُّهم عداوةٌ تعدَّدت أسبابها؛ فكانوا يُرجِفُونَ به وبأصحابه، ويُؤَلِّبون عليه السلطان، ويُغْرُونه بقتله أو حبسه، فنتَجَ عن ذلك ابتلاءات متنوِّعة لقيها في أيام عمره، فكان يتنقَّل من حبس إلى آخر، حتى مات في السجن، وما كان ذلك يؤثِّر فيه، ولا يَفُتُّ في عَضُدِهِ أو يَثْنِيه عن اتباع الحق والدعوة إليه، وأخبارُهُ في ذلك عجيبة مُسْتَفِيضَة، وإليك طَرَفًا منها:

- لما قيل له بأنهم سيَنْفُونَهُ إلى الإسكندرية، وأنهم يعملون كل ذلك حتى يُوافِقَهم، وأنهم عازمون على قتله أو نفيه أو حبسه، قال: «أنا إنْ قُتِلْتُ،

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢/٤٦١-٤٦٢).

(٢) المصدر السابق (٢٠/٢٣٢-٢٣٣).

كانت لي شهادة، وإنْ نَفَوْني، كانت لي هجرة، ولو نفوني إلى قُبْرُص، لدعوتُ أهلَها إلى الله وأجابوني، وإنْ حبَسُوني، كان لي مَعْبَدًا، وأنا مِثْلُ الغَنَمةِ كيفما تقلَّبَتْ، تقلَّبت على صُوف»؛ فيئسوا منه وانصرفوا(١).

يقول خادمه إبراهيم بن أحمد الغياثي: «فلما كان بعد العصر، وقفتُ أبكي؛ فقال لي الشيخ: لا تَبْكِ، ما بقيَتْ هذه المحنة تُبطئ...

فلما صلَّينا المغرب، بقي يدعو بدعاء الكَرْب، وأنزَلَ الله عليه من النُّور والبَهَاء والحال شيئًا عظيمًا، وأشرْتُ إلى المُحْبَسِين، كأن وجهه شَمْعٌ يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل، جاء نائب الوالي، فقال: باسم الله، فبَقُوا يودِّعونه، ويبكون، ويَدْعُون عليهم بدعاء مُخْتَلِف، أقلُّه أن يسلُبَهم الله نعمته.

ورَكِبَ على باب الحبس، فقال له إنسان: يا سيِّدي، هذا مقام الصبر، فقال له: بل هذا مقام الحمد والشُّكْر، والله إنه نَازِل على قلبي من الفرح والسرور شيء لو قُسِّمَ على أهل الشام ومصر، لَفَضَلَ عنهم، ولو أن معي في هذا الموضع ذهبًا وأنفقته، ما أدَّيْتُ عُشْرَ هذه النعمة التي أنا فيها.

وخرَجَ من باب سعادة، وركبنا في البحر إلى ذلك البر، فلَقِيَنا أمير يقال له: بدر الدين طبر... فمنَعَنا من السفر مع الشيخ، وقال: ما معي مَرْسُوم أن يجيء أحد مع الشيخ، فقال الشيخ: يا إبراهيم، انزل إلى الشام، وقل لأصحابنا: وحق القرآن - ثلاث مرَّات - ما بَقِيَتْ هذه المحنة تُبطئ، وتَنفرِج قريبًا فوق ما في النفوس، ويَقلِبُ الله مملكة بِيبَرْسَ أسفلها أعلاها، وليجعلَنَّ الله أعز مَن فيها أذلَّ مَن فيها.

فلما رجعنا بعد أن ودَّعْناه، انكسر في تلك الليلة البحر، ونقص الماء، وغلا الخبز، وغيره... وبقيت الناس تَلْعَنُهم، ويقولون: غرَّقوا ابن تيميَّة في البحر... فطلَعَ جماعة من أكابر إسكندرية وصلحائها التقوا الشيخ، وقعد في

(١) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص ١٤٨).

البُرْج الأخضر حتى طلع السلطان الناصر من الكَرَك، وهرب بِيبَرْسُ من السلطنة، وسيَّر بطلبه مكرَّمًا»[١].

«وفي يوم الاثنين بعد العصر، السادس من شعبان، سنة ست وعشرين، اعتُقِلَ بقلعة دمشق بعد ما حضرَ إليه الأمير بدر الدين أمير مسعود ابن الخطير الحاجب، بمرسوم السلطان بذلك، ومعه مركوب؛ فأظهر السرور، وقال: أنا كنتُ منتظِرًا لذلك، وهذا فيه خير كثير، ورَكِبَ وهو معه إلى القلعة»[٢].

- ولما قصد التَّتَر بلاد المسلمين، عاثوا فيها فسادًا، حتى وصلوا بلاد الشام، وتزلزل الناس، وأصابهم هَلَعٌ وخوف شديد، وفَرَّ مَن فَرَّ مِن الأمراء والتجار وغيرهم، لكنَّ شيخ الإسلام ثبَتَ ثباتًا عظيمًا، وثبَّت الناس، وكانت له مواقف مشكورة تدل على قوة يقينه بربه تعالى؛ فمن ذلك:

أنه خرج: «إلى نائب الشام وعساكِره بالمَرْج، فثبَّتهم، وقوَّى جأْشَهم، وطيَّب قلوبهم، ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]»[٣].

ومن ذلك أيضًا: أنه توجَّه «إلى العسكر الواصل من حَمَاة، فاجتمَعَ بهم في القُطَيِّفة، وأعلمهم بما تحالَفَ عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك، وحلَفُوا معهم، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيميَّة يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكَرَّةِ منصورون على التتار، فيقول له الأمراء: قل: إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله، تحقيقًا لا تعليقًا، وكان يتأوَّل في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]»[٤].

---

(١) المصدر السابق (ص١٤٩-١٥٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٣٩، ٥١١).
(٣) المصدر السابق (ص٤١٢).
(٤) المصدر السابق (ص٤١٥).

وكذلك أيضًا: «حُكِيَ من شجاعته في مواقف الحرب نَوْبة شَقْحَب، ونَوْبة كَسْرَوَان، ما لم يُسْمَعْ إلَّا عن صناديدِ الرجال، وأبطالِ اللقاء، وأحلاسِ الحرب؛ تارَةً يباشِرُ القتال، وتارَةً يحرِّضُ عليه. وركب البَرِيدَ إلى مهنَّا بن عيسى، واستحضره إلى الجهاد، وركب بعدها إلى السلطان واستنفَرَه، وواجه بالكلام الغليظ أمراءَهُ وعسكره، ولما جاء السلطان إلى شَقْحَب، لاقاه إلى قرن الحرَّة، وجعل يشجِّعه ويثبِّته، فلما رأى السلطانُ كثرة التَّتَار، قال: يا لخالد بن الوليد، فقال له: لا تقل هذا، بل قل: يا أَللهُ، واستغِثْ بالله ربِّك، ووَحِّدْهُ وَحْدَهُ تُنصَرْ، وقل: يا مالكَ يوم الدين، إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعين، ثم ما زال يُقبِلُ تارَةً على الخليفة، وتارَةً على السلطان، ويهدِّئهما ويَرْبِط جأشهما، حتى جاء نَصْرُ الله والفتح»(١).

وكان له موقف مشهور مع قَازَانَ ملك التَّتَر؛ فقد ذكر أبو العَبَّاس ابن صَصْرَى: «أنهم لمَّا حضَرُوا مجلس قازان، قُدِّمَ لهم طعام، فأكلوا منه إلّا ابن تيميَّةَ، فقيل له: لم لا تأكُلُ؟ فقال: كيف آكُلُ من طعامكم وكلُّه مما نهَبْتُم من أغنام الناس، وطَبَخْتُمُوهُ مما قطَعْتُم من أشجار الناس؟! ثمَّ إنَّ قَازَانَ طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللهُمَّ، إنْ كنت تعلم أنه إنَّما قاتَلَ لتكون كلمة الله هي العليا وجهادًا في سبيلك؛ فأنْ تؤيِّده وتَنْصُرَه، وإنْ كان للمُلْكِ والدُّنْيا والتكاثر؛ فأنْ تَفعَلَ به وتصنع، يدعو عليه، وقازانُ يُؤمِّن على دعائه، ونحن نَجمَعُ ثيابنا خوفًا أن يُقتَلَ فيُطَرْطَش بدمه، ثم لما خرَجْنا، قلنا له: كِدت تُهلكنا معك، ونحن ما نَصْحَبك من هنا، فقال: ولا أنا أَصْحَبُكم، فانطلَقْنا عُصْبةً، وتأخَّر في خاصَّة مَن معه، فَتَسَامَعَت [به] الخَواقين والأمراء، فأتوه من كلِّ فجٍّ عميق، وصاروا يتلاحقون به ليتبرَّكوا برؤيته، فأمَّا هو، فما وصَلَ

---

(١) «مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار» (ص٧٠١-٧٠٢)، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيميَّة» (ص٣٢٣، ٣٣٥).

إلّا في نحو ثلاثمائة فارس في رِكَابه، وأمَّا نحن، فخرج علينا جماعة، فسلخونا[(١)]»[(٢)].

- ومن كمال يقينه: ما يقع له من إجابة الدعاء، مع شدَّة وثوقه بالإجابة؛ فمِن ذلك: ما ذكره البزَّار؛ قال: «حدَّثني الشيخ المقرئ تقي الدين عبد الله بن أحمد بن سعيد؛ قال: «مَرِضتُ بدمشق مَرْضةً شديدة، فجاءني ابن تيميَّة، فجلس عند رأسي، وأنا مُثقَلٌ بالحُمَّى والمَرَض، فدعا لي، ثُمَّ قال: قُمْ، جاءت العافية، فما كان إلّا أنْ قام، وفارقني؛ وإذا بالعافية قد جاءت، وشُفِيتُ لِوَقْتِي»[(٣)].

- وكذا في علاج المصروع: فقد عافى اللهُ بسببِهِ أناسًا بمجرَّد تهديده للجِنِّيِّ، وجرت له في ذلك فصول، ولم يَفعَلْ أكثر من أن يتلوَ آياتٍ، ويقول: «إنْ لم تنقطِعْ عن هذا المصروع وإلَّا عَمِلْنا معك حكم الشرع، وإلَّا عملنا معك ما يُرضِي الله ورسوله»[(٤)].

- وفي الوقت الذي تتهافَتُ فيه كثير من النفوس على الدنيا، «كان يجيئه مِن المال في كلِّ سَنَةٍ ما لا يكاد يُحصَى، فينفقه جميعًا، آلافًا ومئين، لا يَلمَسُ منه دِرهَمًا بيده، ولا ينفقُهُ في حاجة له»[(٥)].

❊ ❊ ❊

---

(١) هكذا، ولعلها: شَلَّحُونا.

(٢) «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص ٣٢١).

(٣) المصدر السابق (ص٣٢٣).

(٤) المصدر السابق (ص٣٣٦).

(٥) المصدر السابق (٣٢٣)، وقد مضى ذكر طَرَف من أحواله تحت عنوان: «ثَمَرات اليقين».

التَّفَكُّرُ

تَوْطِئَة

لقد أمَرَ الله تعالى كثيرًا في كتابه العزيز بالتفكُّر، ومدَحَهُ ونحوه من أنواع العِلْمِ وأسبابه، كما ذمَّ ما يضادُّه؛ لما يُورِثُ التَّفَكُّرُ في القلب من أعمال جليلة، ورياضٍ من المعارف ظليلة، يَهدِيهِ بزمامه إليها تفكُّرُهُ في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا ودُنُوِّها وفنائها؛ فيقوده ذلك إلى الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما تفكَّر في قِصَر الأمل وقُرْب الأجل، أورَثَهُ ذلك الجِدَّ والاجتهاد وبذلَ الوُسْع في اغتنام الأنفاس واللحظات، ومِن شأن هذا النوع من التفكُّر أن يُعلِيَ همَّته ويُحيِيَها بعد موتها وسفولها(١).

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «الاستقامة» (٢/١٥٩)، و«الفوائد» (ص١٩٨).

مَعنَى التّفكُّر وَحَقِيقَتهُ

التفكُّر في اللغة: هو «تردُّد القلب في الشيء؛ يقال: (تفكَّر): إذا ردَّد قَلْبَهُ معتبِرًا»[١]، والفِكْرُ هو التأمُّل، وإعمال الخاطر في الشيء.

وأما التفكُّر في الاصطلاح: فهو كما قال المُنَاوي: «تردُّد القلب بالنظر والتدبُّر لطلب المعاني.

وقيل: هو ترتيب أمور في الذِّهْن، يُتوصَّلُ منها إلى مطلوب علمًا أو ظنًّا، والاعتبار؛ أي: الاستدلال والاتعاظ، والمعتبِرُ: المستدِلُّ بالشيء على الشيء»[٢].

فالتفكُّر إذَنْ: هو تصرُّف القلب في معاني الأشياء لإدراك المطلوب[٣].

* * *

(١) «مقاييس اللغة» (٤/٤٤٦)، (ف ك ر).

(٢) «فيض القدير» (٤/٣٦٧).

(٣) انظر: «روح المعاني» (٩/١٢٧).

الفَرْقُ بَيْنَ التّفكُّرِ والتّذكُّرِ

يفترِقُ التفكُّر عن التذكُّر من وجهَيْن:

الأول: أن الذِّكْرَ يتعلَّق بذات الله ﷻ، وأمَّا التفكُّر، فيكون في دلائل عظمته، وفي مخلوقاته؛ فالله ﷻ هو الحق، ولا يُمكِنُ لأحد أن يتفكَّر في ذات الله تعالى؛ لأن إدراك ذلك ممتنِعٌ عقلًا؛ فالعقول لا تحيط بخالقِها ﷻ، فهو أعظم من أن يُحَاطَ به، وإنما نتفكَّر في جوانب عظمته ودلائل قُدْرته، ونتفكَّر في آياته المشاهَدة والمتلوَّة، ونعتبِرُ بذلك، والله ﷻ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ وذلك أن التفكير والتقدير إنما يكونان في الأمثال المضروبة، والمقاييس المعقولة، والأمور التي تُدرِكُها العقول، وتَعرِف كُنهَها، فيتفكَّر فيها الإنسان بحسَبِ ما يراه ويسمعه ويُدرِكه عقله.

أما الله تبارك وتعالى، فلا شبيه له ولا نظير؛ ومِن ثَمَّ: فإن العقول لا تصل إلى إدراك كُنْهِه سبحانه وتعالى؛ لأن أصل التفكُّر إنما يُبنَى على ما يشاهده الإنسان، أو ما يشاهِدُ نظيرًا له، فنحن نتفكَّر في الأمور التي نَعرِف بها عَظَمةَ الله ودلائل وحدانيَّته وقدرته، والأمور التي نَعرِف بها أوصاف كماله ونعوت جلاله، وأمَّا ذات الرب سبحانه، فهي أعظم من أن نُحِيطَ بها[١].

الثاني: أن التذكُّر ثَمَرةُ التفكُّر، فهو نتيجته؛ فالتذكُّرُ أعلى من التفكُّر؛ لأن التفكُّر وسيلة له ودليل إليه، والمدلول أشرَفُ من الدليل في عادة

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٩/٤).

المعقولات غالبًا، ويكون ذلك بتحريك العقل وإجالته في الأمور، وقد يكون المحصول حاصلًا من قبلُ، وإنما اعترَتِ العبدَ غفلةٌ، فيكون استرداده بالتفكُّر، فيُعَدُّ استرداد المستردِّ تذكُّرًا.

والذكر يقابِلُهُ الغَفْلة والنِّسْيان، وحقيقة التذكُّر: حضور صورة المذكور العلميَّة في القلب؛ ولهذا يقال له: (تَذَكُّرٌ)، على زنةِ (تَفَعُّلٍ)؛ لأنه يحصُلُ بعد مهلة وتدرُّج؛ كما تقول: التبصُّر، والتعلُّم، والتفهُّم.

إذَنْ: يكون التذكُّر من التفكير بمنزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عنه.

قال ابن القيِّم: «ولهذا كانت آيات الله المتلوَّة والمشهودة ذِكْرَى؛ كما قال ﷻ في المتلوَّة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر: ٥٣- ٥٤]، وقال عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، وأمَّا الآيات المشهودة، فقال عنها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

فالتَّبْصِرةُ هي آلة البصر، والتَّذْكِرةُ هي آلة الذِّكْر، وقد قرَنَ الله ﷻ بينهما، وجعَلَهما لأهل الإنابة؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله، أبصَرَ مواقع الآيات والعِبَر؛ فاستدَلَّ بها على ما هي آيات له، فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة تُوجِبُ له حصول صورة المدلول في القلب بعد غَفْلتِهِ عنها، فترتُّبُ المنازل الثلاثة بهذه الطريقة يكون على أحسَن وجه.

ثم إنَّ كُلًّا منها يمُدُّ صاحبه ويقوِّيه ويثمِّره، والله ﷻ يقول في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦- ٣٧]؛ وذلك أن الناس ثلاثة:

الأول: رجلٌ قلبُهُ ميِّت، فذلك الذي لا قَلْبَ له؛ فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقِّه.

والثاني: رجلٌ قلبه حيٌّ مستعِدٌّ، لكنه غير مستمِعٍ للآيات المتلوَّة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إمَّا لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكنَّ قلبه مشغول عنها بغيرها؛ فهو غائب القلب ليس حاضرًا؛ فهذا لا تحصُلُ له هذه الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حيُّ القلبِ مستعِدٌّ، تُلِيَتْ عليه الآيات، فأَصْغَى بسمعه، وألقى السمع، وأحضَرَ قلبه ولم يَشغَلْه بغير فَهْم ما يسمعه؛ فهو شاهد القلب، مُلْقِ السمع؛ فهذا القِسْم هو الذي ينتفِعُ بالآيات المتلوَّة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصِر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصَرِهِ إلى غير جهة المنظور إليه.

فكلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدَّق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصَرَهُ، وقابله على توسُّط مِن البُعْدِ والقرب؛ فهذا هو الذي يراه»[1].

ولهذا قال الله ﷻ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فالحاصِلُ: أن التفكُّر إنما يكون بهذا الاعتبار: «طلَبَ القلبِ ما ليس بحاصل مِن العلوم، مِن أمرٍ هو حاصلٌ منها، هذا حقيقته؛ فإنه لو لم يكن ثَمَّ مرادٌ يكون مَورِدًا للفِكْر، استحال الفكر؛ لأن الفكر بغير متعلَّقٍ متفكَّرٍ فيه محال، وتلك الموادُّ هي الأمور الحاصلة، ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده، لم يتفكَّر فيه، فإذا عُرِفَ هذا، فالمتفكِّر ينتقِلُ من المقدِّمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده، فإذا ظَفِرَ به وتحصَّل له، تذكَّر به.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٤١ - ٤٤٣)؛ بتصرف.

فالتذكُّر إذَنْ: هو مقصود التفكُّر وثمرته، فإذا تذكَّر، عاد بتذكُّره على تفكُّره، فاستخرَجَ ما لم يكن حاصلًا عنده... فهو دائمًا سائر بين العلم والإرادة»[1].

* * *

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/٦٧ - ٦٨)؛ بتصرف.

أَهَمِّيَّةُ التّفكُّرِ وَفَضْلُه

إن التفكُّر هو أثمَن ما تُنفَقُ فيه الأنفاس، وتُبذَلُ فيه الأوقات، وتُشغَلُ به العقول؛ سواءٌ أكان ذلك في التفكُّر بآيات الله ﷻ وعجائب صُنْعِه، والانتقالِ منها إلى تعلُّق القلب والهِمَّة به دون شيء من مخلوقاته[١]، أم كان ذلك بالنظر في أحوال النفس - كما سيأتي - أو في غير ذلك من الأمور النافعة التي ينبغي للعبد أن يتبصَّر بها، وأن يتفكَّر فيها.

فالتفكُّرُ هو أصل الخير والشر؛ فالإنسان قد يتفكَّرُ في أمور تؤدِّي به إلى المهالك، وقد يتفكَّرُ في أمور يحصُلُ له بسبب تفكُّره فيها النجاة؛ وذلك أن الفكر هو مبدأ الإرادة والطلب، ومبدأ الزهد، ومبدأ الحبِّ والبغض؛ والإنسان إنما يعمل عادةً بعد أن يُعمِلَ فِكْره.

يقول ابن عُيَيْنة: «الفِكْرةُ نُورٌ تُدخِلُهُ قلبك»[٢].

ويقول عامر بن عبد القَيْس: «سمعتُ غير واحد، ولا اثنَيْن، ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنَّ ضياءَ الإيمان - أو نورَ الإيمان - التفكُّرُ»[٣].

وقد قيل لإبراهيم بن أَدْهَم: «إنك تطيل الفِكْرة؟ فقال: الفكرة مُخُّ (العقل)[٤]»[٥].

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٦٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «الدر المنثور» (٤/١٨٢). وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/١٨٥).

(٤) هكذا جاءت في «إحياء علوم الدين» (٤/٤٢٤)، و«مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٨)، وفي «الحلية» كُتِبَت: «العمل».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٠٩).

وقد رجَّحه بعضهم على عبادة البَدَن؛ كما صح عن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ أنه قال: «تفكُّرُ ساعةٍ خَيْرٌ مِن قيامِ لَيْلَةٍ»[١].

ويقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساه»[٢]؛ وهذا صحيح؛ لأن الإنسان ليس له مِن صلاته إلّا ما عقَلَ منها؛ كما قال سفيان الثوري: «يُكتَبُ للرجل مِن صلاتِهِ ما عقَلَ منها»[٣].

ويقول محمد بن كَعْب القُرَظي: «لَأَنْ أقرأَ في ليلة حتى أُصبحَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، و﴿القارعة﴾، لا أَزِيدُ عليهما، وأترَدَّد فيهما، وأتفكَّر؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أهُذَّ القرآن هَذًّا، أو قال: أَنْثُرَهُ نَثْرًا»[٤].

ويقول عمر بن عبد العزيز: «الفِكْرة في نِعَمِ الله أفضلُ العبادة»[٥].

وهذه الآثار بيَّن وَجْهَها ابن القيِّم بقوله: «وهذا لأن الفكرة عمَلُ القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح؛ فكان عمله أشرَفَ من عمل الجوارح»[٦].

ففسَّر ذلك وعلَّله: بأن المفاضلة باعتبار المتعلَّق، فالأعمال المتعلِّقة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (ص١٣٩)، وهنَّاد (٩٤٣)؛ كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٠٨-٢٠٩)، وغيرهم، وقد رُوِيَ مرفوعًا بلفظ: «خيرٌ مِن عبادةِ سِتِّينَ سَنَةً»، ولكنه لا يثبُت، فقد حكم بوضعه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٢٧)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص٤٢)، والألباني في «الضعيفة» (١٧٣)؛ وبمثل قول أبي الدرداء رضي الله عنه قال الحسن البصري؛ أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٣٧١)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص ٢٧٢).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨، ١١٤٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٤)؛ وهو صحيح عنه بطرقه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٦١)؛ بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢١٤ - ٢١٥)؛ واللفظ له.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٣١٤).

(٦) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٠).

بالعضو الشريف أشرف مِن غيرها؛ وعليه: فإن أعمال القلب أفضَلُ من أعمال الجوارح.

ويقال أيضًا: إنه لا يُوصَلُ إلى هذه الأمور من التشمير في طاعة الله ﷻ أصلًا إلّا بعد أن يتفكَّر الإنسان، ويتبصَّر، وينظُرَ، ويُعمِلَ عقله، أما الغافل، فإنه لا يفعل شيئًا من ذلك، فالتفكُّر أصل، والعمل فرع؛ والأصل أشرف.

وهذا كله باعتبار الجنس دون الأفراد؛ فجنس عمل القلب أفضل من جنس عمل الجوارح.

❊ ❊ ❊

التفكُّر في الكِتَاب والسُّنَّة

ورَدَتْ آيات وأحاديث كثيرة في التفكُّر:

تارَةً: بالأمر به، وتارَةً: بالتنبيه على فضله، والثناء على أهله، وتارَةً: بتوعُّد من نأى بجَنْبه عنه، وتنكَّب سبيله، فلم يقلِّب في الآيات بصيرةً ولا بصرًا، فانقلَبَ معرِضًا لا يلوي على عظات أو عِبَر؛ فالله يُرشِدُنا إلى النظر في خَلْق هذا العالم العلوي والسفلي؛ ومن ذلك:

قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠ - ١٧].

وقولـه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

ويأمُرُهم الله ﷻ بالنظر جماعاتٍ ووُحْدانًا؛ فيقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وإنما دعا الله ﷻ لذلك؛ لِيُطلِعَ خلقَهُ على حِكَمِهِ البالغة، التي فيها المصالح والمنافع، التي تُنْبِئُ عن عِلْم وخبرة، وقُدْرة وقوَّة وإرادة، وغير ذلك من أوصاف الكمال؛ فمَن نظر في هذا القرآن، وتدبَّره، وتفكَّر في آياته، عرَفَ أنه من عند الله ﷻ، وأنه لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خَلْفِه، وأنَّ الخلق لا يُمكِن أن يأتوا بمثل هذا القرآن(١).

ودلَّه التفكُّرُ على الطريق المُنجِية، والصراط المستقيم، وبه يَعرِفُ المعبود بأسمائه وصفاته الكاملة، وبه ينزِّه ربه عمَّا لا يليق؛ يقول الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨]، ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١].

ثم ذكَرَ أحوال المكذِّبين، وما وقَعَ بهم من النِّقَم، وما حلَّ بهم من المَثُلات؛ فهو يُرشِدُنا - كما قال ابن القيِّم -: «إلى النظر في العالم العُلْوِيِّ وبنائه وارتفاعِه، واستوائه وحُسْنِهِ والتئامِه، ثُمَّ إلى العالم السُّفْلِي؛ وهو الأرض، وكيف بسَطَها، وهيَّأها بالبسط لما يرادُ منها، وثبَّتها بالجبال، وأودَعَ فيها المنافع، وأنبَتَ فيها مِن كلِّ صنفٍ حَسَنٍ من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره، ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تَبصِرةٌ إذا

(١) انظر: «شفاء العليل» (٢/٥٦٠).

تأمَّلها العبد المنيب وتبصَّر بها، تذكَّر ما دلَّت عليه مما أخبَرَتْ به الرسل من التوحيد والمعاد:

فالناظِرُ فيها يتبصَّر أولًا، ثم يتذكَّر ثانيًا، وأنَّ هذا لا يحصُلُ إلّا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكُّر في مادَّة أرزاقهم وأقواتهم، وملابسهم ومَرَاكبهم وجنَّاتهم؛ وهو الماء الذي أنزله من السماء، وبارَكَ فيه حتى أنبت به جنات مختلِفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأصفر، وحلو وحامض، وبين ذلك، مع اختلاف منابعها، وتنوُّع أجناسها»(١).

ويقول: «الرب تعالى يدعو عبادَهُ في القرآن إلى معرفتِهِ من طريقَيْن:

أحدهما: النظر في مفعولاته.

والثاني: التفكُّر في آياته وتدبُّرها.

فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة.

فالنوع الأول: كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]؛ وهو كثير في القرآن.

والثاني: كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]؛ وهو كثير أيضًا.

فأمَّا المفعولات: فإنها دالَّةٌ على الأفعال، والأفعالُ دالَّةٌ على الصفات؛ فإن المفعول يدُلُّ على فاعلٍ فعَلَهُ، وذلك يستلزِمُ وجوده وقدرته، ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياريِّ من معدوم، أو موجودٍ لا قدرةَ له ولا حياة، ولا عِلْمَ ولا إرادة، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوِّعة دالٌّ على إرادة الفاعل، وأنَّ فعله ليس بالطبعِ بحيثُ يكون واحدًا غير

(١) «الفوائد» (ص٩-١٠).

متكرِّر، وما فيها من المصالح والحِكَم والغايات المحمودة دالٌّ على حِكْمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دالٌّ على رحمته، وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دالٌّ على غضبه، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دالٌّ على محبَّته، وما فيها من الإهانة والإبعاد والخِذْلان دالٌّ على بُغْضِه ومَقْته، وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف، ثم سَوْقِه إلى تمامه ونهايته، دالٌّ على وقوع المعاد، وما فيها مِن أحوال النبات والحيوان وتصرُّف المياه دليلٌ على إمكان المعاد، وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليلٌ على صحة النبوَّات، وما فيها من الكمالات - التي لو عَدِمَتْها كانت ناقصة - دليلٌ على أن معطي تلك الكمالات أحقُّ بها.

فمفعولاته مِن أدلِّ شيء على صفاته، وصِدْق ما أخبَرَتْ به رسله عنه؛ فالمصنوعات شاهدة، تصدِّقُ الآيات المسموعات، منبِّهةٌ على الاستدلال بالآيات المصنوعات؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ أي: أن القرآن حقٌّ، فأخبر أنه لا بد من أن يريهم من آياته المشهودة ما يبيِّن لهم أن آياته المتلوَّة حقٌّ»[١].

يقول عطاء: «دخلتُ أنا وعُبَيْد بن عُمَيْر على عائشة، فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تَزُورَنا، فقال: أقول: يا أُمَّهْ! كما قال الأول: زُرْ غِبًّا، تَزْدَدْ حُبًّا، قال: فقالت: «دَعُونا مِن رَطانَتِكم هذه»، قال ابن عُمَيْر: أخبرينا بأعجب شيء رأيتِهِ من رسول الله ﷺ، قال: فسكَتَتْ، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال: «يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي»، قلتُ: والله، إني لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وأُحِبُّ ما سرَّك، قالت: فقام فتطهَّر، ثم قام يصلِّي، قالت: فلم يَزَلْ يبكي حتى بَلَّ حجره، قالت: ثم بكى، فلم يَزَلْ يبكي حتى بَلَّ لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يَزَلْ يبكي حتى بَلَّ الأرض، فجاء بلال يُؤْذِنُهُ بالصلاة،

---

(١) المصدر السابق (١/٢٨-٢٩).

فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لِمَ تبكي وقد غَفرَ الله لك ما تقدَّم وما تأخَّر؟! قال: «أفَلَا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟! لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾» [آل عمران: ١٩٠][(١)].

وقد جاء عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ أنه قال: «بِتُّ عند خالتي ميمونة، فتحدَّث رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً، ثمَّ رَقَدَ، فلما كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ، قَعَدَ، فنظَرَ إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثُمَّ قَامَ فتَوَضَّأَ واسْتَنَّ فصَلَّى إحدى عَشْرةَ رَكْعةً، ثُمَّ أَذَّنَ بلالٌ، فصلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثم خرَجَ فصلَّى الصُّبْحَ»[(٢)].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخوان» (١٠٥)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٢٥٦)، وابن حبان (٦٢٠)؛ واللفظ له، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/٦١٣-٦١٤)، وصحَّحه ابن حبان، وقوَّاه العُقَيْلي من هذا الوجه، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/٥١٤)، وحسَّنه الألباني في «الترغيب» (٢/٢٢٠)، و«الصحيحة» (٦٨). وأما حديث: «زرْ غبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»، ففيه كلام كثير عند أهل العلم. انظر: «الفتح» (١٠/٥١٤)، و«المقاصد» (٥٣٧)، و«اللآلئ المنثورة» (ص٤٦). وجمع فيه الحافظ أبو نعيم جزءًا مفردًا، وكذا الحافظ ابن حجر؛ كما في «الفتح» (١٠/٥١٤)، و«المقاصد» (٥٣٧)، و«الجواهر والدرر» للسخاوي (٢/٦٧٤)، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٧٦٣).

مجالاتُ التّفكُّر

الحديث عن مجالات التفكُّر ينتظِمُ سبعَ وَقَفاتٍ:

الوَقْفة الأولى: في ذِكْرِ الأمور التي يجري فيها التفكُّر، ويتعلَّق بها لدى العقلاء.

وهي: إمَّا غايةٌ مطلوبةٌ مِن جَلْب نَفْع أو دَفْع ضرٍّ، أو وسيلةٌ موصِّلةٌ إلى تلك الغاية؛ وإنما يخرُجُ عن ذلك أهلُ الخيالات الفاسدة؛ كما سيأتي.

الوقفة الثانية: التفكُّر له محلَّان؛ فهو إمَّا أن يكون في أمور الدنيا، وإمَّا أن يكون في أمور الآخرة[1].

فأرباب الدنيا: إنما تفكُّرهم فيما هم فيه مِن مطالب دنياهم، ووسائل تحقيقها، مع مراعاة المضارِّ ووسائلها وكيفيَّة تلافيها.

فهو يفكِّر في المال، وكيف يجمعه من حِلِّه ومن غير حِلِّه، ويفكِّر في الفقر، وكيف يمنعه ويَكُفُّ عن نفسه شرَّه ووباله.

وأمَّا أهل الآخرة: فغايتُهم: رضا الله ومحبَّته وقُرْبه، وما يعقُبُ ذلك من دخول الجنَّة والتنعُّم بأطايب مَلَاذِّها.

فهذه قُصُودُهم، وتلك حاجاتُهم؛ فهم مشغولون بها وبأسبابها الموصِّلة إليها، كما أنهم مشغولون أيضًا بتلك المخاوف العظيمة، والمنازل الوبيلة الوخيمة، وذلك العذابِ الأليم الذي يعقُبُ سخَطَ الله ومقته، وأسباب وقوع ذلك بهم ووصوله إليهم، وكذا أسباب النجاة من مَعَرَّتِهِ وخِزْيِه، ووسائل الفرار من أليم ضَرَره، ولواحق أَثَره.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٢).

الوقفة الثالثة: ينبغي للعاقل أن يَصرِف همَّته في التفكُّر فيما يعنيه؛ وإذا فعَلَ ذلك، يكون قد دخل في أبواب التفكُّر المحمود الذي ينفعه وتحصُلُ به العواقب الطيِّبة الحميدة؛ سواءٌ كانت دنيوية، أو أُخْروية.

وأما إذا أشغل فِكْره وعَقْله بالتفكُّر في أمور تضرُّه، فإن ذلك يُؤذِنُ بخراب دنياه وآخِرَته؛ ولهذا يقول ابن القيِّم: «أنفعُ الدواء: أن تَشغَلَ نفسك بالفِكْرِ فيما يعنيك، دون ما لا يعنيك؛ فالفكر فيما لا يعني بابُ كل شَرّ، ومن فكَّر فيما لا يعنيه، فاته ما يعنيه، واشتغَلَ عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه؛ فالفكر والخواطر والإرادة والهمَّة أحقُّ شيء بإصلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصَّتك وحقيقتك التي تَبتعِد بها أو تَقترِب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلّا في قُرْبه ورضاه عنك، وكل الشقاء في بُعْدِك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطِرِه ومجالات فِكْره دنيئًا خسيسًا، لم يكن في سائر أمره إلَّا كذلك»(١).

فإذا انشغَلَ العبد بما يعنيه، سَلِمَ - بإذن الله - في دينه ودنياه من المتاهات المُضِلَّة، والعقائد الفاسدة، والخواطر الرديئة، والاسترسال مع وساوس الشيطان التي تكون أوَّلًا خاطرةً، فإنْ دافَعَها، وإلَّا صارت فكرةً، فإن دافَعَها، وإلا صارت عزيمةً، ثم تكون عملًا.

الوقفة الرابعة: التفكُّر إنما يكون في مخلوقات الله ﷻ، وليس في كُنْهِ ذاتِه، بل يكون في دلائل عظمته ووَحْدانيَّته وقُدْرته، والأمورِ التي يعرف العبد بها صفاتِ جلاله، ونعوتَ كماله.

يقول ابن عبَّاس ﷺ: «تفكَّرُوا في كُلِّ شيءٍ، ولا تفكَّرُوا في ذات الله»(٢).

---

(١) «الفوائد» (ص٢٥٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «العرش» (١٦)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢، ٢٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦١٨، ٨٨٧). وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٣/٣٨٣، ط. دار المعرفة).

وينظر «المقاصد الحسنة» (٣٤٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨)، و«صحيح الجامع» (٢٩٧٦)، و«ضعيف الجامع» (٢٤٧٠، ٢٤٧٢).

ويقول إسحاق بن راهويه: «لا يجوز الخوض في أمر الله؛ كما يجوز الخوض في فعل المخلوقين؛ لقول الله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولا يجوز لأحد أن يتوهَّم على الله بصفاته وفعاله بفهم، كما التفكُّر والنظر في أمر المخلوقين؛ وذلك أنه يُمكِن أن يكون الله ﷻ موصوفًا بالنزول كل ليلة إذا مضى ثلثاها إلى السماء الدنيا كما يشاء، ولا يُسْأَلُ: كيف نزوله؟ لأنه الخالق يَصنَعُ ما شاء كما يشاء»(١).

فإذا انشغَلَ بمثل ذلك، وحار في كُنْهِهِ وتأويلِه، وقع في الشبهات المضلَّة، فهذا وأشباهه مما لا يعنيه التفكير فيه، بل لا يجوز له أصلًا، لكنْ لو أنه فكَّر في هذا الأثر الوارد في نزول الربِّ ﷻ في ثلث الليل الآخر مِن جهة ما يعنيه، فإنَّ ذلك يَحمِلُه على قيام الليل، والابتهال إلى الله ﷻ والدعاء والتضرُّع إليه سبحانه.

الوقفة الخامسة: أنفع التفكُّر:

التفكُّر يتفاوت؛ فمنه: ما هو ضار، ومنه: ما هو نافع، وكل منهما متفاوِتٌ أيضًا؛ فأنفَعُهُ: التفكُّر في تحصيل ما ينفعه ويرفعه في آخرته، ودَفْعِ ما يضرُّ بآخرته، أو ينقُصُ مرتبَتَهُ فيها، مع النظر في أسباب كل منهما.

فهذا أجلُّ التفكُّر وأنفعه، ويليه: التفكُّر في مصالح الدنيا وسبل ذلك، والنظر فيما يضرُّ بدنياه، مع ملاحظة أسبابه ليتخلَّص منها.

وعلى هذا يدور فِكْرُ العقلاء.

أما الأوَّل؛ وهو ما ينفَعُ في الآخرة: «فرأسه: الفكر في آلاء الله ونِعَمه، وأمرِه ونهيه، وطرق العلم به، وبأسمائه وصفاته، من كتابه، وسنة نبيِّه ﷺ، وما والاهما.

وهذا الفكر يُثمِرُ لصاحبه المحبَّة والمعرفة، فإذا فكَّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخِسَّتها وفنائها، أثمَرَ له ذلك الرغبة في الآخرة،

(١) أخرجه أبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام» (١١٨٤).

والزهد في الدنيا، وكلما فكَّر في قِصَرِ الأمل، وضيق الوقت، أورثه ذلك الجِدَّ والاجتهاد، وبذل الوسع في اغتنام الوقت، وهذه الأفكار تُعلِي همته وتُحيِيها بعد موتها وسفولها، وتجعَلُهُ في وادٍ والناس في وادٍ»[١].

ومن المعلوم: أن مَن يطلب شيئًا، فهو محبٌّ له، مُؤثِرٌ لقربه، ساعٍ في طريق تحصيله، متوصِّلٌ إليه بجهده؛ وهذا دليل على تعلُّقه بهذا الشيء، وأنه يحبُّه ويقدِّمه ويُؤْثِره على غيره، وهذه المحبَّة هي التي تبعثه على العمل والجِدِّ لتحصيل هذا المطلوب، وهكذا كلَّما كان يُبغِضُ شيئًا، فإنه يَنفِرُ منه، ويَنفِرُ من الأسباب التي توصِّله إليه، ويتعاطى الأسباب التي تُباعِدُهُ عنه.

فالحاصل: أن الإنسان الذي قد ملأت محبَّة هذا المحبوب قلبه، لا يشغل فكره إلّا في الأمور التي تقرِّبه إليه، وفي النظر في الأمور التي تُباعِدُه عنه، وهو بهذا الاعتبار بالنسبة لله ﷻ يكون متفكِّرًا في أوصاف كمالاته سبحانه وتعالى.

«ويتفكَّر أيضًا في أفعال الربِّ ﷻ، وفي إحسانه وبرِّه ولطفه، وكذلك أيضًا إذا نظَرَ في حال نفسه، فهو يفكِّر في الأمور التي يَكْرَهُها ربه؛ فيتجنب ذلك، ويتفكَّر أيضًا في الصفات التي يحبُّها ربه؛ أن تُوجَدَ فيه، فيتصف بهذه الأوصاف:

فالفكرتان الأُولَيَان[٢] توجبان له زيادة محبَّته وقوتها وتضاعفها.

والفكرتان الأُخْرَيان[٣] توجبان له محبَّة محبوبه له، وإقباله عليه، وقُرْبه منه، وإيثاره على غيره.

فالمحبَّة التامَّة مستلزِمة لهذه الأفكار الأربعة.

---

(١) «الفوائد» (ص٢٨٧).

(٢) الفكرتان الأُولَيَان، هما: التفكُّر في أوصاف الربِّ وأفعاله.

(٣) الفكرتان الأُخرَيان، هما: تفكُّرُ العبد في الصفات التي يَكرَهُها الرب فيجتنبها، وفي الصفات التي يحبُّها الرب فيَفعَلُها.

فالفكرتان الأولى والثانية: تتعلَّقان بعلم التوحيد، وصفات الإله المعبود، وأفعاله سبحانه.

والثالثة والرابعة: تتعلَّقان بالطريق الموصِّلة إليها، وقواطعها وآفاتها، وما يمنع من السير فيها إليه؛ فتفكُّرُهُ في صفات نفسه يميِّز له المحبوب لربه منها مِن المكروه له.

وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور:

الأول: أن هذا الوصف: أهو مكروه مبغوض لله، أم لا؟

الثاني: هل العبد متصِفٌ به؟

الثالث: إذا كان متصفًا به فما طريق دفعه والتخلُّص منه؟ وإنْ لم يكن متصفًا به، فما طريق حفظ الصحَّة ببقائه على العافية من هذا الأمر، وكيف يَحترِز منه؟

وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور:

الأول: هذه الصفة: أهي محبوبة لله ﷻ مرضيَّة له، أم لا؟

الثاني: هل العبد متصف بها؟

الثالث: أنه لو كان متصفًا بها، فما طريق حفظها ودوامها؟ وإنْ لم يكن متصفًا بها، فما طريق التخلُّق بها وتحصيلها؟

ثم فكرة العبد في الأفعال أيضًا على هاتَيْن الوجهتَيْن، ومجاري هذه الأفكار ومواقعها كثيرة جِدًّا - كما يقول ابن القيِّم -: لا تكاد تنضبط؛ يقول: «وأنا أحصُرُها في ستة أجناس:

الطاعات الظاهرة والباطنة، والمعاصي الظاهرة والباطنة، والصفات والأخلاق الحميدة، والأخلاق والصفات الذميمة.

فهذه مَجَارِي الفكرة في صفات نفسه وأفعالها.

وأما الفِكْرةُ في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، فتُوجِب له التمييز بين

الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الرب عما لا يليق به، ووصفِهِ بما هو أهله من الإجلال والإكرام، ومجاري هذه الفكرة: تدبُّرُ كلامِه، وما تعرَّف به سبحانه إلى عباده على ألسنة رسله مِن أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتعالى، وتدبُّر أيَّامه وأفعاله، في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عباده، وأشهَدَهم إيَّاها؛ ليستدلُّوا بها على أنه إلههم الحق المُبِين، الذي لا تنبغي العبادة إلّا له، ويستدِلُّوا بها على أنه على كلِّ شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعَّال لما يريد»(١).

وبهذا نعلم: أن أعلى الأفكار وأنفعها هو ما كان لله وللدار الآخرة، ويُمكِن حَصْرُ ذلك في خمسة أمور؛ وهي:

١ - التفكُّر في آيات الله المنزلة، وفَهْمها، وفهم مراد الله ﷻ منها:

فالله ﷻ إنما أنزَلَها لنتدبَّرها ونتفهَّمها لا لمجرَّد التلاوة؛ فالتلاوة وسيلة لهذا المطلوب؛ ولهذا قال الحسَن البصري: «إنما نزَلَ القرآن ليُعمَلَ به؛ فاتخَذَ الناس قراءته عملًا»(٢).

قال ابن القيِّم: «وبالجملة: فلا شيءَ أنفعُ للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّرِ والتفكُّر؛ فإنه جامع لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِث المحبَّة والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكُّل، والرضا والتفويض، والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القَلْب وكَمَالُه.

وكذلك يزجُرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٥٠ وما بعدها)؛ بتصرف. وانظر: «الفوائد» (ص٢٨٧ فما بعدها).

(٢) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (١١٦).

فلو عَلِمَ الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر، لاشتغَلُوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرَأَهُ بتفكُّر حتى مر بآية وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه، كرَّرها ولو مائةَ مرَّة، ولو ليلةً؛ فقراءة آية بتفكُّر وتفهُّم خير من قراءة خَتْمة بغير تدبُّر وتفهُّم، وأنفَعُ للقلب، وأَدْعى إلى حصول الإيمان وذَوْق حلاوة القرآن؛ وهذه كانت عادة السلف؛ يردِّد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ؛ أنه قام بآية يردِّدُها حتى الصباح؛ وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][(١)].

فقراءةُ القرآن بالتفكُّر هي أصل صلاح القلب...

والتفكُّر في القرآن نوعان:

- تفكُّرٌ فيه؛ ليقع على مرادِ الربِّ تعالى منه.
- وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عباده إلى التفكُّر فيه.

فالأوَّل: تفكُّر في الدليل القرآني.

والثاني: تفكُّر في الدليل العِيَاني.

الأوَّل: تفكُّر في آياته المسموعة.

والثاني: تفكُّر في آياته المشهودة.

ولهذا أنزَلَ الله القرآنَ؛ ليُتَدَبَّرَ ويُتَفَكَّرَ فيه، ويُعْمَلَ به، لا لمجرَّد تلاوته مع الإعراض عنه»[(٢)].

٢ - التفكُّر في آيات الله:

المشاهَدة، والاعتبارُ بها، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته، وحكمتِهِ وإحسانِهِ وبِرِّهِ وجُودِه. وقد حثَّ الله ﷻ على ذلك، وذمَّ من غفَلَ عنه.

---

(١) أخرجه النسائي (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)؛ من حديث أبي ذر ﷺ، وصحَّحه الحاكم (٢٤١/١)، والذهبي، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢٣١/١)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (١٥٩/١)، والألباني في «تخريج صفة الصلاة» (٥٣٤/٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٥٥٣/١-٥٥٥).

٣ - التفكُّر في آلائِهِ وإحسانِهِ وإنعامِهِ على خلقِهِ بأنواع النعم، وبسَعَةِ مغفرته ورحمته وحِلْمه:

فهذه ثلاثة أنواع مِن أنواع التفكُّر إذا حصَلَتْ للعبد، حصَلَ له معرفة المعبود سبحانه وتعالى؛ فأحبَّه وخافَهُ ورجاه؛ ولذا قال ابن القَيِّم: «مَن عرَفَ اللهَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، أحبَّه لا محالةَ»[١]، وإذا داوَمَ العبد على هذا التفكُّر مع الذكر، فإنَّ قلبه ينصبغُ في المعرفة والمحبَّة صبغةً تامَّةً، فتستولي الرغبة في الآخرة على قلب هذا العبد.

٤ - التفكُّر في عيوب النفس وآفاتها، وفي نقائص عمله وتقصيره فيه:

فهذا يحتاجه العبد لِيَدفَعَ عن نفسه العُجْبَ والغرور والاسترسال في الخطأ، والتمادي في الضياع والضلال، والمعصية والبدعة، وما إلى ذلك؛ فإذا تفكَّر العبد في عمله ونقصه وعجزه وضعفه، أنكَرَ شموخه؛ فلا يحصُلُ له التعالي والكِبْر والعُجْب، وتنكسِرُ نفسه الأمَّارة بالسوء، فإذا انكسَرَتْ تلك النفس الأمَّارة بالسوء، قويت النفس المطمئنَّة، ونَشِطَتْ للعمل الصالح، وصار التدبير لها؛ فيحيا القلب، وينشغل العبد في الأمور الطيِّبة النافعة التي تقرِّبه إلى الله ﷻ.

٥ - التفكُّر في واجب الوقت ووظيفتِهِ، وجمعِ الهَمِّ عليه:

فالعارف ابن وقته، وفُرَصُ الخير قد لا تعود، والحياة دقائق وأنفاس تتردَّد، ثم لا ترجع إليه ثانيًا، فيحتاج العبد إلى أن يفكِّر في كل لحظة تمر به: ما هو الأجدى والأنفع في أن تنشغِلَ به؟ فإذا جاء موسم الحجِّ اتَّزَرَ وارتدى إحرامَهْ، وإذا دعا داعي الجهادِ لم تَرَ إلّا تلبيتَهُ وإقدامَهْ، وإذا دُعِيَ إلى الصدقةِ أرخى عن كِيسِهِ زِمَامَهْ، وهكذا؛ فهو في كل وقت يتبصَّر ويتفكَّر في الأمور التي هي أجدى وأنفع في هذا الوقت خاصَّة؛ لأن جميع المصالح إنما تنشأ من

---

(١) «مدارج السالكين» (١٨/٣).

الوقت - كما يقول ابن القيِّم - فمتى أضاع الوقت، لم يستدرِكْهُ أبدًا؛ ولهذا يقول النبي ﷺ: «نِعْمَتَان مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، والفَرَاغُ»(١).

فما كان مِن وقتك لله وبالله، فهو حياتك في الحقيقة وعُمْرُك، وأما ما عدا ذلك، فليس من الحياة؛ لأن الإنسان يعيش فيه عيش البهائم، فإذا قَطَعَ العبد وقته في الغفلة والشهوة والأماني الفارغة، وأقلُّ ذلك: أن يقطعه بالنوم والبَطَالة، فموته خير له من حياته - كما يقول ابن القيِّم - وذلك أن العبد إذا كان في صلاته، فليس له إلّا ما عقَلَ منها؛ فكذلك ليس له من العُمْر إلّا ما كان فيه بالله ولله.

وما عدا هذه الأقسام من الخَطَرات والأفكار، فهي إما وساوس شيطانيَّة، وإما أمانيُّ باطلة، وخُدَعٌ كاذبة، بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السُّكَارى والمحشوشين والمُوَسْوِسين، ولسانُ حال هؤلاء يقول عند اكتشاف الحقائق:

إِنْ كَانَ مَنْزِلَتِي فِي الحُبِّ عِنْدَكُمُ ... مَا قَدْ لَقِيتُ فَقَدْ ضَيَّعْتُ أَيَّامِي
أُمْنِيَّةٌ ظَفِرَتْ نَفْسِي بِهَا زَمَنًا ... وَالْيَوْمَ أَحْسِبُهَا أَضْغَاثَ أَحْلَامِ(٢)

وقد ركَّب الله سبحانه في الإنسان نَفْسَيْن: نَفْسًا أمَّارةً، ونفسًا مطمئنَّةً، وهما متعادِيَتان؛ فكلُّ ما خَفَّ على هذه، ثَقُلَ على هذه، وكل ما التذَّتْ به هذه، تألَّمت به الأخرى؛ فليس على النَّفْس الأمَّارة أشَقُّ من العمل لله وإيثارِ رضاه على هواها، وليس لها شيءٌ أنفَعُ منه، وكذا ليس على النَّفْس المطمئنَّة أشقُّ من العمل لغير الله وإجابةِ داعي الهوى، وليس عليها شيءٌ أضرُّ منه، والمَلَكُ مع هذه عن يمين القلب، والشيطانُ مع تلك عن ميسرة القلب، والحربُ مستمرَّة لا تضع أوزارها، إلى أن تستوفي أجلها من الدنيا، والحربُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) «ديوان ابن الفارض» (ص١١٩).

دُوَلٌ وسِجَال، والنصر مع الصبر، ومَن صبَرَ وصابر ورابط واتقى الله، فله العافية في الدنيا والآخرة[١].

فهذا ما يتعلَّق بأنفع الفِكْر، وهو الذي قصدنا إيضاحه أولًا.

وأما النوع الآخر من الفكر النافع: فهو التفكير فيما ينفعه في دنياه مما يسعى في تحصيله لنفعه، أو يَجتهِدُ في دفعه لضرره، وهذا دون الأول؛ كما لا يخفى.

الوقفة السادسة: تَفكَّرْ في كل ما حولك:

قال أبو سليمان الداراني: «إني لأخرُجُ من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلّا رأيتُ لله عليَّ فيه نِعْمة، أو لي فيه عِبْرة»[٢].

فاجعَلْ هذا خُلُقًا لك، وعَوِّدْ نفسك على التفكُّر في كل ما حولك، والاعتبار والنظر، وإعمال العقل، ولا تَكُنْ من الغافلين؛ فإذا جلَسْتَ على الطعام، ففكِّر في وصوله إليك، فلربَّما وصل من وراء البحار ألوان الفواكه والثمار التي لا يَعرِفُها أهل تلك البلاد لِفَقْرِهم وعجزهم عن تحصيلها، ومع مَن تُجْبَى إليك حتى تكون بين يديك!

ثم انظُرْ ما الذي يجب أن يكون لديك تُجَاهَ نعمة الله عليك؛ ألست ستُحاسَبُ عليها؟! وأن الذي أعطاكها وحَرَمَ الآخرين قادرٌ على أن يرفعها عنك، ويَجعَلَك تسمع بها ولا تراها؟! أليس في تعدُّدِها ما يوجب عليك أنواع العبوديَّات لله ﷻ؟!

يقول عبد الرزَّاق الصَّنْعاني: «قَدِمَ علينا الثوري صنعاء، فطَبَخْتُ له قِدْر سِكْبَاج[٣]، فأكل، ثم أتيته بزبيب الطائف، فأكل، ثم قال: يا عبد الرزَّاق،

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» (ص٣٦٠- ٣٦١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التفكُّر»؛ كما عزاه إليه ابن كثير في «تفسيره» (١٨٤/٢).

(٣) كلمة مُعَرَّبة عن (سركة باجه) وهو اللحم المطبوخ بالخَل. ينظر: «تاج العروس» (سكبج) (٤١/٦).

اعلِفِ الحمار وكُدَّهُ، ثم قام يصلِّي حتى الصباح»[١]؛ ليُقابِلَ هذه النعمة التي أنعَمَ الله ﷻ بها عليه، وكان يقول: «إنَّ الحمارَ إذا زِيدَ في عَلَفِه، زِيدَ في عَمَلَه»[٢]، فكان إذا أكَلَ، جَدَّ في العبادة.

وهكذا فَكِّرْ في كل شيء:

فإذا رَكِبْتَ الطائرة، وارتفَعَتْ بك إلى أجواء السماء، ورأيتَ السحب كالجبال، فتذكَّر عظمة الله ﷻ ووَصْفَهُ لها بأنها كالجبال، ثم انظر إلى الأرض مِن تحتك لترى بديع صنع الله.

وإذا ذهَبْتَ إلى المقابر، ففَكِّرْ في أمنيَّات أهلها، وأن أحدهم يتمنَّى أنْ لو أُعِيدَ ليعمل صالحًا؛ فهذا أنت في نعمة وعافية وستر؛ فاعمَلْ ما تمنَّاه هؤلاء لو أُعِيدُوا.

فكِّرْ في الصبي حينما يَشِبّ؛ كيف يتحوَّل ذلك الشباب بنضارتِهِ وحُسْنه، إلى ضعف وعجز وشَيْبة.

وَإِذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرًا ... فَانْظُرْ إِلَيْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أَنْتَ الَّذِي يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي الدْ ... دُنْيَا وَكُلُّ أُمورِهِ عِبَرُ
أَنْتَ المُصَرَّفُ كَانَ فِي صِغَرٍ ... ثُمَّ اسْتَقَلَّ بِشَخْصِكَ الْكِبَرُ
أَنْتَ الَّذِي تَنْعَاهُ خِلْقَتُهُ ... يَنْعَاهُ مِنْهُ الشَّعْرُ وَالْبَشَرُ
أَنْتَ الَّذِي تُعْطَى وَتُسْلَبُ مَا ... يُنْجِيهِ مِنْ أَنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أَنْتَ الَّذِي لَا شَيْءَ مِنْهُ لَهُ ... وَأَحَقُّ مِنْهُ بِمَالِهِ الْقَدَرُ[٣]

فَكِّرْ في حال الناس في دنياهم؛ كيف يَسْعَوْنَ في الأرض يبتغون من فضل الله، ثم يَأْوُونَ إلى بيوتهم؛ حتى إذا ما جاء أَجَلُ أحدهم، ترَكَ سَعْيَهُ الذي

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (١/٨٦)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١٥٩)؛ وإسناده صحيح إلى سفيان.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٧/١٨٧)؛ وعزاه لـ «التفكُّر» لابن أبي الدنيا.

كان يسعى، وبَيْتَهُ الذي كان فيه يَحْيَا، ذلك البيتُ الرحيبُ الفسيح، وأثاثُهُ الحسَنُ المليح، يتركه إلى بيت الوَحْشة، وبيت الدُّود.

وإذا رأيتَ الربيع، وأعجَبَكَ حُسْنُه، واستهواك نباتُهُ وخُضرَتُهُ ونضارته وأزهاره، ففَكِّرْ فيه بعد شهور؛ كيف يضمحِلُّ ويتلاشى، ويتحوَّل إلى هَشِيمٍ تَذرُوهُ الرياح؟!

وهكذا الحياة الدنيا؛ تُبهِجُ المرءَ غرورًا وخَتْلًا، وقد يبني فيها ويؤثِّثُ قَصْرَهُ بأحسن الأثاث، حتى إذا ما أعجبه قصره وأثاثه، ظهَرَتْ له من عوراته وعيوبه ما يزهِّدُهُ فيه ويبغِّضه إليه، ثم تَتُوقُ نفسه إلى شيء آخر جديد مستَحْسَن، حتى إذا مَلَّهُ، رام غيره، وهكذا بلا انقطاع، ولا يملأ عينَ ابنِ آدَمَ إلّا التراب، ومهما حصَّل من مَتَاع الدنيا، فسرْعان ما تَؤُولُ همته إلى مَلَالة وزهادة، وهكذا تمضي به الحياة الدنيا وقد أخلَدَ إلى الأرض بين الرجاء فيها وطُول الأمل.

وتأمَّل في لذَّاتك المنصَرِمة؛ كانت قريبًا جميلَ الأماني، فأضحى التنائي بديل التداني.

إنَّ هذا أمرٌ ينبغي أن نُخاطِبَ به أنفسنا، وأن نفكِّر فيه جيِّدًا؛ فإلى متى هذا التفريط؟! أين التشمير لتحصيل معالي الأمور من العلم النافع والعمل الصالح؟! كم مضى عليك مِن العُمْر وأنت فيما أنت فيه؟! لقد عاتب الله أولياءه؛ حيثُ استبطَأَهُمْ في القدوم إليه سراعًا خاشعين؛ فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

ثم أليس غدًا ستموت؟! أَيَسُرُّكَ أن يصحبك إلى القبر عملك الذي عَمِلْت، وجَنَاك الذي جَنَيْت؟!

فلا تغترَّ بما تراه من العَرَضِ الكثير؛ فهؤلاء لن يَحمِلوا شيئًا منه إلى قبورهم، ولا يستطيع أغنى الناس أن يأكل أكثر مما يأكل أفقر الناس، ولو فعَلَ، لأصابته التُّخَمة، ولتعرَّض لأمراض وعلل قد تُودِي به.

انظر إلى حال كثير ممن أُعطِيَ الغنى واعتَبِرْ بهم، انظر إلى ذاك الثوب الذي يلبسه ما الفرق بينه وبين ثوبك؟! فقد يكون الثوب الذي تلبسه أفضل منه.

وقد لا يكون لك من الدخل مِعْشار ما لغيرك، ولكنك في نعمة وعافية، وعندك من الملبوس والمأكول ما يكفيك ويكفي من تَعُول.

عن سَلَمة بن عُبَيْد الله بن مِحْصَن، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»(١).

فالفرق بينك وبين صاحب الدنيا: أنه يشقى بجمعها، ويُحاسَبُ عليها، ويُصِيبه ما يصيبه من الهموم والآلام والنَّكَد في التفكُّر في حفظها؛ ولذلك تجد مَن لا يملك من العَرَضِ إلّا القليل في راحة وسكينة، والذي يملك العَرَضَ الكثير مشتَّتَ الذهن؛ فتارَةً: في البورصة، وتارَةً: عند أبواب البنوك، وتارَةً: عند أسعار السُّوق العالمية والمحليَّة؛ فهؤلاء لا يَهْنَؤُونَ بحال؛ أفيسرُّك أن تكون بتلك المثابة، وهذا السبيل؟!

ولعلك مَرَرْتَ يومًا بأرض ذات زَرْعٍ مُونِق، وأشجار ذات ثمار وأزهار، والماءُ يجري مِن خلالها، فيسقي أصولَها، فتهتَزُّ فروعها، ثم مررتَ بعد ذلك بها؛ فإذا هي خاوية على عروشها، كأعجاز نخل لا ثمر بها ولا ظل لها؛ كم أنفق عليها أهلها؟! وكم كَدُّوا وتعبوا من أجلها؟! فهذا يسقيها، وهذا يحرُسُها، وهذا يقوم عليها ويعتني بها!

وإذا نازَعَتْكَ الشهوات، ودعتك النفس إلى معصية الله ﷻ، ففَكِّرْ في المفاسد المعجَّلة لهذه المعصية، وما تَجُرُّهُ عليك من الآلام والأوجاع والعلل؛ أيًّا كانت هذه المعصية.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٤١٤١)، وغيرهما، وحسَّنه الترمذي، وقال ابن السكن: «في إسناده نظر»؛ كما في «الإصابة» (٢/٤٣٩)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣١٧).

وفَكِّرْ أيضًا فيما تجرُّه عليك في الآخرة، واعلم أن الله مُطَّلِعٌ عليك؛ فلا تجعل ربَّك سبحانه أهون الناظرين إليك، ولا تكن من الذين يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم.

وفَكِّرْ في الدنيا وسُرْعة زوالها وانقضائها، واضمحلال لذَّاتها وشهواتها، وتذَكَّرْ ما عند الله ﷻ من العِوَضِ والنعيم المقيم الدائم؛ إذْ كيف تُؤْثِرُ شيئًا زائلًا سريعًا عاجلًا يفنى على شيء أبدي ثابت لا يزول ولا يحول؟! فلا أحد - كما يقول ابن القيِّم[(١)] - يقدِّمُ هذا العاجل الزائل على الدائم إلّا ساقط الهمَّة، دنيء المروءة، مَيِّت القلب، وهذا تكون حسرته عظيمة إذا عاين الحقائق؛ فإنه يُقدِمُ على الله ﷻ إقدام المَفَالِيس.

وهذا مِن أوضح صور الغَبْن الداخلة تحت قول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ [التغابن: ٩]؛ فكل إنسان عنده رأس ماله، وهو عُمْره؛ فهذا جَدَّ واجتَهَد، وصرَفَ رأس ماله، في الأمور التي تُبعِدُه عن الله ﷻ وتُورِثه النار؛ بذَلَ الأموال والجهود والأفكار في تحصيل منزل في نار جهنَّم، والآخَرُ بذَلَ نفسه وماله في تحصيل منزل في الجنَّة، ثم بعد ذلك يَقدَمُ هذا وهذا على الله ﷻ.

ومع ذلك: أهل الجنَّة يتوارثون منازل أهل النار في الجنَّة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنَّة في النار؛ نعوذ بالله مِن الخِذْلان، وذلك من التغابن!

هذا؛ واعلم أن التفكير طاقة ونِعْمة، فيجب صَرْفُها فيما يُجْدِي من النظر في عجائب آيات الله التي ندَبَ عباده إلى التفكُّر فيها، وهي آياته المتلوَّة، وآياته المجلوَّة، فإذا استولى ذلك على قَلْبِك، دفَعْتَ عنك الشيطان ووساوسه.

الوقفة السابعة: التفكُّر الضارُّ والمذموم[(٢)]:

وهو التفكُّر فيما لا يعنيه، ويدخُلُ في ذلك: اشتغال الفكر بغير الأمور

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص ١٠٨).

(٢) انظر: «الفوائد» (ص ٢٨٧ - ٢٨٨).

النافعة التي ينبغي أن يجري فيها التفكُّر من الغايات المطلوبة، والغايات المرهوبة، ووسائلهما، دنيويَّةً وأخرويَّة.

فمن التفكُّر المذموم: «التفكُّر في أمور خارجة عما سبق؛ بحيث يعيش الإنسان على الخيالات الرديئة، والأمانيِّ الباطلة؛ كالفقير الذي يتخيَّل نفسه من أغنى البشر، يُعطِي ويأخذ، ويُنعِم ويَحرِم، وكذلك العاجز المقهور الضعيف حينما يتخيَّل نفسه من أقوى الملوك، يتصرَّفُ في البلاد والرعيَّة، ويأمر وينهى، ويُرسِلُ الجيوش، ويَعقِد الأَلْوِيَة، وغير ذلك من أفكار القلوب البَطَّالة، التي هي من جنس أفكار السَّكْران، والمحشوش، وضعيف العقل؛ فهذه الأفكار الرديئة هي قُوتُ الأنفس التي هي في غاية الدناءة؛ فإنها قد قَنِعَتْ بالخيال، ورضيت بالمُحَال، ولا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتتزايد؛ حتى تُوجِبَ لها آثارًا رَدِيَّة، ووساوس وأمراضًا بطيئة الزوال»[(١)].

ومنه أيضًا: التفكُّر في الأمور التي لم نُكَلَّفْ بالبحث عنها والتفكُّر فيها؛ كالتفكُّر في ذات الله ﷻ، وكُنْهِ صفاته؛ فهذه أمور لا يمكن الوصول إليها، ولا يجوز للإنسان أن يفكِّر فيها.

وهكذا: التفكُّر في الأمور والصنائع التي لا تنفع بل تضُرّ؛ مثل الشِّطْرَنْج، والموسيقى.

وكذلك: التفكُّر في العلوم التي لم يحصِّل الفكرُ فيها كمالًا، ولم يحصِّلْ صاحبه شَرَفًا حين يحصِّلُها؛ كالتفكُّر في دقائق المنطق والفلسفة؛ فمهما بلَغَ الإنسان في هذه الأشياء، فإنه لا يحصِّلُ شَرَفًا، بل هي نقصٌ في حقِّه.

وهكذا: التفكُّر في الشهوات واللذَّات المحرَّمة، وطرق تحصيلها.

فهذه أمور عاقبتها سيئة في الدنيا قبل الآخرة، والأمورُ المنغِّصة فيها أضعاف اللذَّات التي يجدها مقترِفُها عند مقارَفتها.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٧) وما بعدها؛ بتصرف.

ومنه: التفكُّر بالفرضيَّات؛ كمن يقول: لو صِرْتُ مَلِكًا، كيف سأتصرَّف في كذا وكذا؟! أو يقول: لو عثَرْتُ على كنز، فكيف أنفقه؟! وماذا سأصنع بهذا المال كله؟! فهذا وأمثاله من أفكار سِفْلَةِ الناس الذين لا هِمَّةَ لهم إلّا في تخيُّل المُحَالات وأشباهها.

وهكذا: التفكُّر في أمور الناس الخاصَّة؛ كمن يفكِّر في فلان كم يتقاضى على عَمَلِه؟! وكم يحصِّلُ من غَلَّةِ ضَيْعَاتِه؟! وكم يكون رصيده في البنك؟! فهذا ونحوه مِن التفكير المذموم.

وهكذا: التفكُّر في الماضي - إلّا عند محاسبة النفس - فإنه حُمْقٌ وجنون؛ فهو مثل طَحْن الطحين، ونَشْر النُّشَارة، وإخراج الأموات من قبورهم.

وكذلك: التفكُّر في الحِيَل التي يُحتال بها على أحكام الشريعة؛ كحِيَلِ الربا ونحوها.

وكذا: التفكُّر في بعض الأمور المفضولة؛ كالتفكُّر في الشِّعْرِ وأوزانه وقوافيه، وأغراضه؛ كالمَدْح والهجاء، والغَزَل والمَرَاثي، ونحوها؛ فإنه يُشغِلُ الإنسان عن الفكر فيما فيه سعادته وحياته الدائمة.

وهكذا: في مسائل كثيرة تجدها في بعض كتب أصول الفقه وغيرها؛ مِن أمور لا ينبني عليها عمل، ولا يترتَّب عليها شيء من الأحكام؛ فتجد بعض الأصوليِّين - مثلًا - يُطِيلون الكلام على بعض المسائل، ويُفسِحُون فيها للجَدَل، ثم بعد ذلك يذكُرُونَ أن هذه المسألة مما لا ينبني عليها عمل(١).

تنبيه:

حينما قلنا: إن التفكُّر في ذات الله ﷻ وفي كُنْهِ صفاته يَضُرُّ؛ فليس المراد بذلك الخواطِرَ التي تخطُرُ للإنسان مما يوسوس الشيطان به ويَقذِفه في قلبه مِن

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص ٢٨٨ - ٢٨٩)، وللشاطبي كلام حسن في المسائل التي لا ينبني عليها عمل في كتابه «الموافقات». انظر منه: المقدمة الرابعة (١/٤١)، والخامسة (١/٤٣)، والتاسعة (١/١٠٧)، والحادية عَشْرةَ (١/١٣٧).

غير كَسْب منه، وقد صحَّ عن ابن عبَّاس رضي الله عنه؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّ أحدَنا يَجِدُ في نفسه - يعرِّض بالشيء - لَأَنْ يكونَ حُمَمَةً أحبُّ إليه مِن أن يتكلَّم به، فقال: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، الحَمْدُ للهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: جاء ناسٌ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ، فسألوه: إنا نَجِدُ في أنفُسِنا ما يَتَعاظَمُ أحَدُنا أن يَتَكَلَّمَ به، قال: «وَقَدْ وَجَدتُّمُوهُ؟!»، قالوا: نعم، قال: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»(٢).

قال ابن القيِّم: «واعلَمْ: أنَّ ورود الخاطر لا يَضُرّ، وإنما يضر استدعاؤه ومحادَثَتُه؛ فالخاطر كالمارِّ على الطريق، فإنْ لم تستدعه، مَرَّ وانصرَفَ عنك، وإنِ اسْتَدْعَيْتَهُ، سَحَرَك بحديثِهِ وخُدَعِهِ وغروره»(٣).

فحقُّ هذه الخواطر: أن تُعرِضَ عنها، ولا تتوقَّفَ عندها، ولا تَسترسِلَ مع التفكُّر فيها؛ فهذه الأشياء تُزعِجُ القلوب الحيَّة، أمَّا صاحب النفس الأمَّارة والقلب المريض، فهو سريع الانقياد للَذَّاته، كلَّما سنَحَ له خاطر من هذه الخواطر، ومَرَّ به، أَوْقَفَهُ وحادثه وناجاه، حتى يتحوَّل ذلك الخاطر إلى عقيدة راسخة، أو إلى شبهات مزعِجة مُقْلِقة، تُفسِد عليه آخرته.

والمقصودُ: أنَّ ما يَسنَحُ للفِكْرِ من عواجل الخَطَرات المفاجئة، فهذا لا يؤاخَذُ به، ولا يُلام عليه؛ إذا سنَحَ فلم يسترسِلْ معه بل دافَعَهُ واستعاذ بالله منه، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١١٢)، وصحَّحه ابن حبان (١٤٧)، وسكت عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٢٨٧/١٣)، وصحَّحه الألباني في «ظلال الجنة» (٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٢).

(٣) «الجواب الكافي» (ص ٣٦٠)؛ بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٤/١٣٤).

قال الحافظ ابن حجر: «أي: عن الاسترسال معه في ذلك، بل يَلْجَأُ إلى الله في دَفْعه، ويعلم أنه يريد إفساد دِينه وعقلِهِ بهذه الوسوسة؛ فينبغي أن يَجتهِدَ في دفعها بالاشتغال بغيرها»[١].

وقد حرَّر شيخ الإسلام ابن تيميَّة القول في هذا، فقال: «والذي أمَرَ به في دفع هذا الوسواس ليس هو الاستعاذة فقطْ، بل أمَرَ بالإيمان، وأمر بالاستعاذة، وأمر بالانتهاء، ولا طريق إلى نَيْل المطلوب من النجاة والسعادة إلّا بما أمَرَ به، لا طريق غير ذلك»[٢].

* * *

(١) «فتح الباري» (٦/٣٩٢).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٣/٣٠٩). وفيه تفاصيل مهمة، انظرها (٣/٣٠٩- ٣١٨).

مُعوِّقاتُ التّفكُّر

من الأمور التي تَعُوقُ هذا المطلب:

١ - انشغال الجوارح:

ببقاء الإنسان مشغولًا طِيلَة الوقت؛ فهو منذ أن يُصبِحَ إلى أن يُمسِيَ وهو في عمله، ثم إذا رجَعَ إلى بيته وقد أمسى مُرهَقًا مجهودًا، احتاج إلى الترفُّه والتنزُّه، فصاحَبَ رفقتَهُ إلى تلك الأماكن التي يرتادها أمثاله، ثم يعود وقد غلَبَهُ النوم فينام، وهكذا حاله كل يوم، لا وقت لديه يُحاسِبُ فيه نفسه، أو يتفكَّر في أمره، فإذا عاش عاش غارمًا، وإذا مات مات نادمًا.

٢ - كثرة مخالَطة الناس:

فلا يكاد يتفرَّغ لنفسه، ولا يخلو بها، وإنما هو في خِلْطة دائمة؛ فمثل هذا لا يحصُلُ له وقت للتفكير، فيفوت عليه الكثير، وإنما ينبغي أن يأخذ من الخِلْطة بقَدْر؛ فهي كالملح للطعام إذا زاد أفسَدَه.

٣ - انصراف هِمَّة العبد إلى النظر في ظواهر الأمور، والاغترار بها:

مُعرِضًا عمَّا ينبغي عليه النظر فيه، والتفكُّرُ به من مواطن التعقُّل ومواقع العِبَر؛ فإذا رأى ما ظاهرُهُ الحُسْن، بهَرَهُ مَنظَره ولو ساء مَخبَره؛ كمن رأى الغَرْب وقد أقاموا حضارةً ماديَّةً كبرى، فغرَّه ما رأى من زُخْرُف الحياة الدنيا، فاستحسَنَ حالهم، وتشبَّه بهم، وسعى سعيهم، واقتفى آثارهم، وظنَّهم القوم الذين يُؤتسَى بهم.

فهذا ينظُرُ إلى ظاهر من الحياة الدنيا، دون أن يسبُرَ غَوْرَها، أو يَعرِفَ حقائقها.

ومثله الذي يشتغِلُ عند قراءة القرآن بالأمور اللفظيَّة فقطْ، فتكون هِمَّتُهُ منصبَّةً إلى ما حُجِبَ به كثير من الناس عن حقائق القرآن؛ إمَّا بالوسوسة في مَخَارِج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها، والنطقِ بالمدِّ الطويل والقصير والمتوسِّط، وغير ذلك؛ فإنَّ هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه.

مثال ذلك: أن يكون كل همِّه تحقيق وجوه النطق بـ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، وضمِّ الميمِ من: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ووَصْلِها بالواو، وكسرِ الهاءِ أو ضمِّها، ونحو ذلك.

وكذلك: مراعاة النَّغَم وتحسين الصوت.

وكذلك: تتبُّع وجوه الإعراب، واستخراج التأويلات المستكرَهة، التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان[(١)].

وليس المقصود بذلك أن التجويد مذموم، وأنه ينبغي الزهد فيه، لكن المقصود ألَّا تُصرَفَ جميع الهمَّة لذلك، وألَّا يتنطَّع فيه الإنسان إلى حد يُبالِغُ فيه؛ فإن هذا مذموم.

وكذلك: لو أخَذَهُ بالحدِّ المعقول، ولم تكن هِمَّتُهُ منصرِفةً إلى التدبُّر، فليس له هَمٌّ إذا قرأ إلَّا أن يُخرِجَ الحروف من مخارجها، وأن يأتي بأحكام التجويد، ويُعرِضَ عما هو بصدده من تدبُّر القرآن وفَهْم معانيه؛ بل إن الشاطبي كان يرى ألَّا يشتغِلَ المفسِّر بالبحث عن الدقائق واللطائف، والنُّكَت البلاغيَّة، وإنما يذكر المعنى الأصلي الذي جاءت الآية لتقريره؛ لأن ذلك يفضي إلى ضياع المعنى المقصود الذي جاء القرآن لبيانه[(٢)].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٠).

(٢) انظر: «الموافقات» (٤/٢٦١ - ٢٦٢).

٤ - امتلاء القلب بالأمور الفاسدة، والأخلاق الرديئة:

فيُحرَمُ الإنسان نعمة التفكُّر؛ كما قال الحسن البصري، في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]؛ قال: «أَمْنَعُهم التفكُّر فيها»(١)، ورُوِيَ نحوه عن ابن جُرَيْج، والسُّدِّيّ(٢).

وقال قتادة: «سأمنعهم فَهْمَ كتابي»(٣)؛ وبه قال سفيان بن عُيَيْنة(٤).

قال ابن الجوزي: «أنزَلَ الله القرآن يحتوي على عجائب الحِكَم؛ فمن فتَّشه بيد الفهم، وحادَثَهُ في خَلْوة الفكر، استجلب رضا المتكلِّم به، وحَظِيَ بالزُّلْفَى لديه، ومَن كان ذهنُهُ مستغرِقَ الفهم بالحسيَّات، صُرِف عن ذلك المقام؛ قال الله ﷻ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾»(٥).

٥ - كثرة الأكل:

وقد قيل: «البِطْنة تُذهِبُ الفِطْنة»(٦)، وفي الحديث: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ»(٧)؛ قال المُنَاوي: «فإذا ملأ بطنه، انتكَسَتْ بصيرته، وتشوَّشت فكرته؛ لما يستولي على معادن إدراكه من الأَبْخِرة الكثيرة المتصاعدة من مَعِدته إلى دماغه؛ فلا يمكنه نظر صحيح، ولا يتفق له رأى صالح، وقد يقع في مَدَاحِض فيَرُوغ عن الحق؛ كما أشار إليه خبر: «لا تَشْبَعُوا؛ فَتُطْفِئُوا نُورَ

---

(١) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٩).

(٢) أما أثر السدي، فأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٥٦٧)، وأثر ابن جريج، أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/١١٣).

(٣) أورده القرطبي في «تفسيره» (٩/٣٣١).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/١١٢).

(٥) «صيد الخاطر» (ص ١٢٣)؛ بتصرف.

(٦) ينظر: «المقاصد الحسنة» (٢٩٥).

(٧) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)؛ من حديث المِقْدَام بن معدي كرب ﷺ، وقد صحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٧٤، ٥٢٣٦)، والحاكم (٤/١٣٢)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٢٢٦٥)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٩/٣٨).

المعرِفةِ مِن قلوبِكم»[١]، وغلَبَ عليه الكسل والنُّعَاس؛ فيمنعه عن وظائف العبادات، وقَوِيَتْ قوى البدن، وكثرت الموادُّ والفضول، فينبعث غَضَبه وشَهْوته، وتشتد مشقَّته لدفع ما زاد على ما يحتاجه بدنه؛ فيُوقِعُه ذلك في المحارم»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٢٤٧/٤)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرج نحوه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٤٧/١٩)، وقال ابن السبكي في «طبقات الشافعية» (٣٣٥/٦): «لم أجد له إسنادًا».

(٢) «فيض القدير» (٢٤٢/٤).

الطريق إلى تحقيق التفكر

هناك أربعة أمور تُعِين النفس على التفكُّر، وتروِّضُها عليه، حتى يصير سَجِيَّةً من سجاياها، وخُلُقًا مِن أخلاقها:

١ - الخَلْوة:

وذلك بأن يخلو الإنسان بنفسه في بعض الأوقات، ويفكِّر في حاله الذي هو عليه، وفي عمله الذي قدَّمه، وفي سَيْرِه إلى الله ﷻ، ويتعلَّم أن يتريَّث إذا أراد فعل شيء، فيجلس، ويتفكَّر، ويقلِّب الرَّأي.

وقد قال الحسن البصري: «طولُ الوَحْدة أَتَمُّ للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنَّة»(١).

٢ - التعوُّد على التفكُّر:

وهو: مزاوَلَتُهُ في كل أمر ذي بال بمقدار يمنع من الجهالة في المسائل العلميَّة، ومن التقليد المذموم في المسائل الاجتهاديَّة - لمن كان أَهْلًا للنَّظَر-، ومن عشوائية التصديق أو التكذيب في المسائل الخبريَّة؛ حتى لا يكون الواحد مِنَّا إِمَّعَةً؛ إنْ أحسن الناس أحسن، وإنْ أساؤوا أساء... وبممارسة التفكُّر والتعوُّد عليه تستقِلُّ الشخصية إلى حَدٍّ يَمنَعُ تلك المساوئ المتقدِّمة وأمثالها.

ولا بد مِن حسن النظر بالتروِّي في كل مسموع ومقروء ومشاهد؛ وإلَّا صار المرء كحاطب لَيْل؛ فما أكثَرَ مَن يُصَاب بالتقحُّم فيما لا يعنيه، وبالتسرُّع

(١) ذكره ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٩). وفي «إحياء علوم الدين» (٤/٤٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/١٨٤) جاء من كلام لُقْمان.

في الحكم على الناس؛ والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]؛ فقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هو المراد من التفكُّر، وقوله: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ عاقبةُ التسرُّع في الحكم من غير بيِّنة.

وكم طَرَقَتِ الأسماعَ أخبارٌ لا دليل عليها! وكم تَشَهَّتِ النفوس أمانيَّ لا سبيل إلى الوصول إليها! ولو أعمل الإنسان فِكْره في كل ما يسمعه ويقوله، لوجَدَ كثيرًا من ذلك يحمل برهان بطلانه وزيفه.

فعَوِّدْ نفسك على التفكُّر في كل شيء مما حولك؛ كما قال أبو سليمان الداراني: «عَوِّدُوا أَعْيُنَكُمُ البكاء، وقلوبَكُمُ التَّفَكُّر»(١) والأمر كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ»(٢).

فالذي يعوِّد نَفْسَهُ التفكُّر، يصير ذلك سجيَّة له، والذي يحيا غافلًا بلا فكر ولا نظر، لا يبالي الله ﷻ به في أيِّ وادٍ هلك.

٣ - مزاولة بعض الأمور التي تُعِينُهُ على الفكرة:

مثال ذلك: أن الشافعي: كان يَحمِل عصًا إذا مشى، فقيل له: ما لك بُدٌّ من إمساك العصا ولست بضعيف؟ فقال: «لأذكُرَ أني مسافر»(٣)، وجاء نحوه

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٧٤).

(٢) علَّقه البخاري في «صحيحه»، في كتاب العلم: باب العلم قبل القول والعمل (١/٤١)، ووصَلَهُ الطبراني في «الأوسط» (٢٦٦٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٥٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/٤١٠)؛ من حديث أبي الدرداء ﷺ، وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»؛ من حديث أبي هريرة ﷺ، وقد حسَّنه الحافظ في «الفتح» (١/١٦١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٤٢)، وصحَّح الدارقطني وقفه في «العلل» (١٠/٣٢٦)، وقد صح من قول ابن مسعود ﷺ أيضًا؛ أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/٢٨٤)، وأحمد في «الزهد» (ص١٦٣)، وأبو خيثمة في «العلم» (٢٨)، والبزار في «مسنده» (٥/٤٢٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/١٧٠).

عن بعض الزُّهَّاد[١]، فأخذه بعض الشعراء[٢]؛ فقال:

حَمَلْتُ الْعَصَا لَا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا ... عَلَيَّ وَلَا أَنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ

وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِيَ حَمْلَهَا ... لِأُعْلِمَهَا أَنَّ الْمُقِيمَ عَلَى سَفَرْ

وهكذا: زيارة المَقْبَرة؛ فإنها تذكِّرك الآخرة؛ وهذا مما يُعِين على التفكُّر.

وكذا: النظر في آيات الله الكونيَّة، وفى آياته المتلوَّة.

وأيضًا: النظر في التواريخ وأخبار الأمم والشعوب والأجيال التي انصَرَمَتْ، وما مرَّ عليها مِن بؤس وسعادة، وحروب طاحنة، وفتن وملاحم؛ تفكَّرْ في ذلك كله؛ فالعقل ينمو ويكبُرُ بما يحصِّله من التجارِب، والنظَرُ فيما أصاب الناس مَدْعاة للتحرُّز، وصيانة من الغَفْلة، وعصمة من الزَّلَل أن يقع فيما وقَعُوا فيه، فيصيبه ما أصابهم؛ فعلى العاقل أن يُعْمِلَ عقله، ويُدرِكَ بفكره حتى يَحسِمَ الداء قبل أن يُبتَلى به، ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه، أما مَن لا نظر له ولا فكر عنده، فهذا لا عقل له.

٤ - جَمْع الهَمّ على ما هو بصَدَده من العمل للآخرة، وعدَمِ تشتيت القَلْب بالصوارِف والعَوارِض المُشْغِلة:

فعن أبي العالية الرِّيَاحي؛ أنه سأله رجل: ما يفتح الفِكْر؟ قال: «اجتماعُ الهَمّ؛ فإنه إذا هَمَّ فكَّر، وإذا فكَّر أَبْصَر، وإذا أبصَرَ اعتبَر، ألا وإنه إذا تمَّت رغبة العبد، بَعُدَتْ فِكْرَته، وإذا بَعُدَت فكرته، فتَحَتْ له أبواب السداد، فصار ينتقِلُ في العمل، وصار يَعرِفُ الشيء بقلبه، فإذا كان كذلك، أخرَجَهُ ذلك إلى التعظيم لله ﷻ، فإذا كان كذلك، ردَّاه الله»، فقيل: يا أبا العالية، ما ردَّاه الله؟ قال: «البِرّ واللِّين، والخشوع والتواضع»[٣].

---

(١) «عيون الأخبار» (٢/٣٢٣).

(٢) نسبه ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٦/٣٢-٣٣) لمحمَّد بن وشاح الزينبي.

تنبيه: ليس المقصود من إيراد ذلك الترغيب في حَمْل العصا، وإنما لتوضيح المعنى بالمثال.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٣٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٤٣-١٤٤).

قال المُنَاوي: «إذا كانت القلوب كثيرة الالتفات، سريعة التقلُّب والحَرَكات، فلا بد للعبد مِن جَمْع هِمَّته على بعض الجهات، والإعراض عن غيرها؛ لئلا يتبدَّد همه؛ فمن جعَلَ همَّه الآخرة فاز... وكفاه الله مؤونة حاجاته المُتشعِّبة المُختلفة، فإذا قطَعَ العبدُ شُغْلَ جوارحه عن الدنيا في وقت فِكْرته وتقيُّده، ومنَعَ قلبَهُ مِن التشتُّت في ميادين الأمور الدنيويَّة، اجتمَعَ همُّه، وحضر عقله، فإذا حضر له ذلك، ثم تفكَّر بالتوكُّل على الرحمن لا على عقله، فتَحَتْ له الفِكرةُ بابَ الفهم لكلام ربه ومعرفته، ومواقع وَعْده ووعيده: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «فيض القدير» (٢/٤٧٥)؛ مع شيء من الاختصار والتصرُّف.

ثَمَرَاتُ التّفكُّر

للتفكر ثَمَرات كثيرة ومتنوّعة، ومن هذه الثمرات:

١ - أن التفكُّر مفتاح كل خير:

إذا حَسُنَ جَوَلان الفكر في آيات الله المتلوَّة، وآياته المشهودة، انفتح على العبد من أبواب معرفة الله ﷻ والأمور الجالبة للسعادة في الآخرة شيءٌ لا يُقَادَرُ قَدْره، وكذلك في أموره الدنيويَّة، فإنه بالتفكُّر يرسخ العلم، وتذهب مَعَرَّةُ الجهل، وتزول الغفلة، وتُسْتَجْلَبُ أمورٌ وأحوال لم تكن حاصلة من قبل؛ ولهذا قال الحسن البصري: «إنَّ أهل العقل لم يزالوا يَعُودُونَ بالذِّكْر على الفِكْر، وبالفِكْر على الذِّكْر، حتى استيقظت قلوبهم، فنطَقَتْ بالحكمة»[١].

فالتفكُّر والتذكُّر - كما يقول ابن القيِّم -: «بِذَارُ العلم، وسَقْيُهُ: مُطَارَحَتُه، ومذاكرته: تلقيحه؛ كما قال بعض السلف: «مُلَاحَاةُ الرجال تلقيح لألبابها»[٢]؛ فالمذاكرة بها لقاح العقل.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٩).

(٢) هذا القول يُنسَبُ للأحنف بن قيس، وقد جاء بألفاظ متقاربة؛ من ذلك: «محادَثةُ الرجال تلقيحٌ لألبابِها»؛ أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٥/١١٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٤/٣٤٠). وينسب أيضًا لعمر بن عبد العزيز. فقد أخرجه عنه ابن عساكر في «تاريخه» (١٨/١٦٠)، (٦٧/٢٣) بلفظ: «إن لقاء الرجال للرجال تلقيح لألبابها».
وذكره ابن أبي الحكم في «سيرته» (ص١١٠) عنه بنحوه.
وذكره عنه أيضًا ابن عبد البر في «الجامع» (٢/٩٧٢) بلفظ: «رأيت مُلاحاة الرجال تلقيحًا لألبابهم».
وأخرجه أبو الطاهر السِّلَفي في «الطيوريات» (٢/٥٩٤) عن موسى بن عقبة بلفظ: «مُلاقاةُ الرجال تلقِيحٌ لألبابها».

فالخير والسعادة في خِزَانةٍ مفتاحُها التفكُّر؛ فإنه لا بد من تفكُّر وعلم يكون نتيجته الفكر، وحالٍ يحدُثُ للقلب من ذلك العلم؛ فإنَّ كل مَن عمل شيئًا من المحبوب أو المكروه، لا بد أن يبقى لقلبه حالة، ويَنصبغَ بصبغة مِن علمه، وتلك الحالةُ تُوجِبُ له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل.

فهاهنا خمسة أمور: الفكر: وثمرته العلم، وثمرتهما: الحالة التي تحدُثُ للقلب، وثمرة ذلك: الإرادة، وثمرتها: العمل؛ فالفكر إذن: هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها؛ وهذا يكشف لك عن فضل التفكُّر وشَرَفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له»[١].

والإنسان لا بد له من التفكُّر؛ إمَّا بالخير، وإمَّا بالشر؛ فإذا صرَفَ هِمَّتَهُ في الخير، حصل له بسبب ذلك من المنافع والثمار العاجلة والآجلة شيء لا يقادَرُ قَدْرُه؛ ولهذا قال مَن قال مِن السلف: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلة»[٢]؛ لأنه ينقُلُ مِن موت الفِطْنة إلى حياةِ اليَقَظة، ومن المكاره إلى المحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلى الزُّهْد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سَعَة العلم، ومن مرض الشَّهْوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله تعالى والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصَّمَم والبَكَم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشُّبُهات إلى بَرْد اليقين وثَلَج الصدور؛ فهو أصل كل طاعة؛ كما أن أصل كل معصية التفكُّر السيِّئ المذموم؛ وذلك إذا وجَدَ الشيطان أرض القلب خالية خاوية فارغة، فإنه يُلقِي فيها بذور الوسواس، والأفكار الرديئة التي تُفسِدُ عليه قلبه، فتولَّد من ذلك الإرادات، وعزائم الأعمال التي لا يرضاها الله ﷻ، ولا تعمُرُ بها دنيا ولا آخرة.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٥- ٥٤٦).

(٢) تقدم تخريجه.

وأما إذا صادَفَ الشيطان أرض القلب مبذورةً مشغولةً بالأفكار الطيِّبة، والعقائد والأخلاق الحميدة؛ فإنه لا يجدُ فيها مَدخَلًا، ولا لِبَذْرِهِ موضعًا[1]، وإنما يكون غاية ما يحصِّله هو التشويش بالوساوس والخَطَرات.

وبهذا يتضح أن «رأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوامُ التفكُّر، وتدبُّرُ آيات الله؛ حيث تستولي على الفكر؛ وتشغلُ القَلْبَ.

فإذا صارت معاني القرآن مكانَ الخواطِرِ مِن قلبه، وهي الغالبة عليه؛ بحيثُ يصير إليها مَفْزَعُه وملجؤه -: تمكَّن حينئذ الإيمان من قلبه، وجلَسَ على كرسيِّه، وصار له التصرُّفُ، وصار هو الأمير المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سَيْرُه، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يُبارِي الريح: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]...»[2].

٢ - **أنه يُورِث تعظيمَ المعبود؛ ومِن ثَمَّ الكفَّ عما لا يليق:**

يقول بِشْر بن الحارث: «لو تفكَّر الناس في عَظَمة الله، لما عصَوُا الله»[3]؛ فإنَّ العبد إذا علم أن الله ينظُرُ إليه ويراقبه، لم يجترئ على معصية؛ لأنه إذا عَلِمَ عِلْمَ الخاشعين، وعرَفَ معرفة الصادقين المخبِتِين، أورَثَهُ ذلك الخوف من الله، وحُسْنَ مراقَبَته في السرِّ والعَلَن، والإنابة إليه، فيستوحِشُون من الخلق، ولا يأنسون إلّا به، ولا يتوكَّلون إلّا عليه، ولا يفرُّون إلّا إليه.

وذلك أن مَعرِفة الله نوعان:

الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترَكَ فيها الناس: البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٥ - ٥٤٦).

(٢) «الرسالة التبوكية» (ص٧٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٣٧).

الثاني: معرفةٌ تُوجِبُ الحياء منه، والمحبَّة له، وتعلُّق القَلْب به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، والإنابة إليه؛ فيأنَسُ به، ويَفِرُّ من الخلق إليه، وهذه المعرفة الخالصة، وتفاوُتُ الناس فيها، لا يحصيه إلّا الذي عرَّفهم بنفسه، وقد قال أعرف الناس بالله ﷻ؛ وهو النبي ﷺ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١)، كما يفتح على نبيِّه ﷺ في اليوم الآخر من المَحَامِدِ ما لا يُحسِنُه في الدنيا(٢).

قال ابن القيِّم: «ولهذه المعرفة بابان واسعان: بابُ التفكُّر والتأمُّل في آيات القرآن كلِّها، والفهمِ الخاصِّ عن الله ورسوله. والباب الثاني: التفكُّرُ في آياته المشهودة، وتأمُّلُ حكمتِهِ فيها وقدرتِهِ ولطفِه، وإحسانِهِ وعَدْلِهِ وقيامِهِ بالقسط على خلقه، وجماعُ ذلك: الفقهُ في معاني أسمائه الحسنى وجَلَالها وكمالها، وتفرُّدِهِ بذلك، وتعلُّقِها بالخلق والأمر؛ فيكون فقيهًا في أوامره ونواهيه، فقيهًا في قضائِهِ وقدرِهِ، فقيهًا في أسمائه وصفاته، فقيهًا في الحُكْم الديني الشرعي، والحكم الكَوْني القَدَري؛ وذلك فَضْلُ اللهِ يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»(٣).

٣ - أنه يُورِثُ الحِكْمة وحياة القلب:

كما قال بعضهم: «الفِكْرُ في الدنيا: حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الوَلَاية، والفِكْرةُ في الآخرة: تُورِث الحِكْمة، وتحيي القلوب»(٤).

يقول ابن القيِّم: «والتذكُّر والتفكُّر منزلان يُثمِرانِ أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكُّره على تذكُّره، وبتذكُّره على تفكُّره، حتى يُفتَحَ قُفْلُ قلبِه بإذن الفتَّاح العليم»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦)؛ من حديث عائشة ﵂.
(٢) انظر: «الفوائد» (ص٢٤٨ - ٢٤٩).
(٣) المصدر السابق (ص ٢٤٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٧٨).
(٥) «مدارج السالكين» (١/٤٤١).

ويقول الشافعي: «استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر»[١].

فمَن طال صمته، عَظُمَ عقله ورَجَح؛ ولذا يُستدَلُّ على رجاحة العقل بطول الصمت، أمَّا الثَّرْثَرة وكثرة الكلام، فدليل على خفَّة العقل.

قال الشافعي: «صحَّةُ النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزمُ في الرأي سلامة من التفريط والندم، والرويَّةُ والفِكْرُ يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاوَرةُ الحُكَماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة؛ ففَكِّرْ قبل أن تَعزِم، وتدبَّر قبل أن تَهجُم، وشاوِرْ قبل أن تُقدِم»[٢].

وكان يقول: «الفضائل أربع: إحداها: الحِكْمة، وقوامُها: الفكرة،...»[٣].

ويقول وهب: «ما طالت فكرةُ امرِئٍ قطُّ إلّا فهم، وما فهم امرؤٌ قطُّ إلّا علم، وما علم امرؤٌ قطُّ إلّا عمل»[٤].

٤ - أنَّه يُورِثه الاعتبار:

يقول سفيان بن عيينة: «الفكرة نُورٌ تُدخِلُه قلبَك»[٥]، وكان دائمًا يتمثَّل بهذا البيت[٦]:

إِذَا الـمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِـكْـرَة   فَـفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِـبْـرَة

وكان يقول: «التفكُّر مِفْتاح الرحمة؛ ألا ترى أنه يتفكَّر فيتوب؟!»[٧].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/٤٢٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٠٦).

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

وقال بعضهم: «الاهتمام بالعمل يُورِث الفكرة، والفكرة تُورِث العِبْرة، والعبرة تُورِث الحَزْم، والحزم يُورِث العَزْم، والعزم يُورِث اليقين، واليقينُ يُورِثُ الغِنَى، والغِنَى يُورِث الحُبّ، والحُبُّ يُورِث اللِّقَاء»[1].

٥ - البصر النافذ في الأمور الدنيويَّة والأخرويَّة:

فالذي يفكِّر يعرف الأمور معرفة صحيحة؛ بخلاف الذي يأتي الشيءَ كيفما اتفق، ويقع على الأمر كيفما حصَل؛ فإنَّ الذي يفكِّر يُوجِبُ له تفكُّره انكشافَ حقائق الأمور، وتميُّزَ مراتبها أمام عَيْنه في الخير والشر، ويَعرِفُ المفضول من الفاضل، والقبيح من الأقبح، ويَعرِف الأسباب الموصِّلة إليها، وما يقاوِم تلك الأسباب، وما يدفع مُوجَبَها، ويميِّز بين ما ينبغي السعي في تحصيله، وما ينبغي السعي في دفع أسبابه، ويفرِّق بين الوهم والخيال، والأمور المُمكِنة والفرضيَّة المستحيلة، وينتهِزُ الفُرَصَ في أوقاتها، ويشتغِلُ بما ينفعُهُ دائمًا، فتحصُلُ له سعادته وفلاحه[2].

فالله ﷻ أودَعَ الإنسان هذه القوَّة، فإذا استعملها فيما يُجدِي، فإنه يحصِّل أنواع المنافع، وكافَّة هذه الصنائع التي يَحتَرِفها الناس، وتلك العلومُ المختلِفة، والفنون المتنوِّعة؛ كالرياضيَّات والطِّبِّ والهندسة وغيرها، إنما يُتوصَّلُ إليها بطُول النظر والتفكُّر؛ ولذلك فإن هذه الأفكار إذا وُجِدَتْ واستقَرَّتْ ورسَخَتْ، ثم حُوِّلَتْ إلى واقع عملي، عُمِّرَتِ الحياة، وقامت الحضارة، وحصَّل الناس أنواع التسهيلات والمنافع.

ولولا التفكُّر - بعد الله ﷻ - لما توصَّل الإنسان إلى أنواع المنافع في حِرَاثَتِهِ وصناعتِهِ وطِبِّه، وفي كل شأن من شؤونه؛ ولذلك لما كان المجنون والبهيمة لا تفكير لهما، فإنَّهما لا يتصرَّفان تصرُّفًا ينفع ويرفع، ولا يتقدَّمان؛

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٢).

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٠).

فالتفكُّر بمنزلة الخيَّاط الذي يقدِّرُ الثوب، ويحسُبُ المقاسات، ثم يترجِمُ ذلك إلى عمل، فيقُصُّ هذا الثوب، ثم يخيط أطرافه، ثم ينتفع به(١).

وإليك مثالَيْنِ يتجلَّى بهما أثر التفكُّر على العبد في دَلَالتِهِ على أفضل الأمور وأحسَنِها، وأعظَمِها نفعًا:

الأول: عن ربيعة بن كَعْب ﷺ؛ أنه قال: كنتُ أخدُمُ رسولَ الله ﷺ، وأقومُ له في حوائجِهِ نَهَارِي أَجْمَعَ؛ حتى يصلِّيَ رسولُ الله ﷺ العشاءَ الآخِرةَ، فأَجلِسُ ببابِهِ إذا دخَلَ بيته؛ أقول: لعلَّها أن تحدُثَ لرسولِ اللهِ ﷺ حاجة، فما أزال أَسْمَعُهُ يقول رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»، حتى أَمَلَّ فأَرْجِع، أو تَغْلِبَني عيني فأَرْقُد، قال: فقال لي يومًا - لِمَا يَرَى مِن خِفَّتِي له، وخِدْمَتِي إيَّاه -: «سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ أُعْطِكَ»، قال: فقلتُ: أنظُرُ في أمري يا رسولَ اللهِ، ثم أُعْلِمُكَ ذلك، قال: ففَكَّرْتُ في نفسي، فعَرَفْتُ أنَّ الدنيا منقطِعةٌ زائِلة، وأنَّ لي فيها رِزْقًا سيكفيني ويأتيني، قال: فقلتُ: أسألُ رسولَ اللهِ ﷺ لِآخِرَتِي؛ فإنَّه مِن اللهِ ﷻ بالمَنْزِلِ الذي هو به، قال: فجِئْتُ، فقال: «مَا فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ؟!»، قال: فقلتُ: نَعَمْ يا رسولَ الله، أسألُكَ أن تَشْفَعَ لي إلى ربِّك، فيُعْتِقَني من النار، قال: فقال: «مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ؟»، قال: فقلتُ: لا واللهِ الذي بعثَكَ بالحقِّ، ما أمَرَني به أحدٌ، ولكنَّك لما قلتَ: سَلْني أُعْطِكَ، وكنتَ من الله بالمَنْزِلِ الذي أنت به، نَظَرْتُ في أمري، وعَرَفْتُ أنَّ الدنيا منقطِعةٌ وزائلة، وأنَّ لي فيها رزقًا سيأتيني، فقلتُ: أسأل رسولَ الله ﷺ لآخِرَتي، قال: فصَمَتَ رسولُ الله ﷺ طويلًا، ثم قال لي: «إِنِّي فَاعِلٌ؛ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»(٢).

فانظر ما أصاب مِن الخير بفِكْرَتِهِ ﷺ.

---

(١) انظر: «أقسام القرآن» لابن القيِّم (ص ٦١٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥٩/٤)، وصحَّحه أبو عَوانة (١٩٧/٢، ١٩٨، ٣٢٩)، وابن حبان (٢٥٩٤)؛ وأصله في مسلم (٤٨٩).

والثاني: عن موسى بن طَلْحة، عن أبيه طَلْحة بن عُبَيْد الله رضي الله عنه؛ أنه أتاه مالٌ مِن حَضْرَمَوْتَ؛ سبعُ مائةِ ألفٍ، قال: فبات لَيْلَتَهُ يَتمَلْمَلُ، فقالت له زوجتُهُ: يا أبا محمَّد، ما لي أراك منذ الليلةِ تَمَلْمَلُ، أَرَابَكَ منا أمرٌ فَنُعْتِبَكَ؟ قال: لا، لَنِعْمَ زوجةُ المرءِ أنت! ولكنْ تفكَّرْتُ منذ الليلة، فقلتُ: ما ظَنُّ رجلٍ بربِّه يبيتُ وهذا المال عنده في بيته؟ قالت: فأين أنت عن بعض أخلاقك؟ قال: وما هو؟ قالت: إذا أصبَحْتَ، دَعَوْتَ بِجِفَانٍ وقِصَاعٍ، فقسَّمْتَها على بيوت المهاجِرين والأنصار على قَدْرِ منازلهم، قال: فقال لها: يَرْحَمُكِ الله، إنَّك ما عَلِمْتُ موفَّقةٌ ابنةُ موفَّق - وهي أمُّ كلثوم بنت أبي بكر الصِّدِّيق - فلما أصبَحَ، دعا بِجِفَانٍ وقِصَاعٍ، فقسَّمها بين المهاجرين والأنصار[1].

٦ - العمل للآخرة:

كما قيل: «لو طالَعَتْ قلوبُ المتقين بفِكْرِها إلى ما قُدِّرَ في حُجُبِ الغَيْبِ مِن خير الآخرة، لم يَصْفُ لهم في الدنيا عيش، ولم تَقَرَّ لهم فيها عين»[2]؛ أي: فهم خُلِقُوا للآخرة.

يقول الحسن: «مَن لم يكن كلامه حِكْمة، فهو لَغْو، ومَن لم يكن سكوته تفكُّرًا، فهو سَهْو، ومَن لم يكن نظره اعتبارًا، فهو لَهْو»[3].

وكتب مَرَّةً لعمر بن عبد العزيز يعظه: «اعلم: أن التفكير يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه، وليس ما يفنى وإنْ كان كثيرًا يَعدِلُ ما يَبقَى وإنْ كان طلبه عزيزًا، واحتمالُ المؤونة المنقطِعة التي تُعقِبُ الراحةَ الطويلة خيرٌ من تعجيل راحة منقطِعة، تُعقِبُ مؤونةً باقية»[4].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٩٩/٢٥).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (٥٣٩/١).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التفكُّر»؛ كما في «إتحاف السادة المتقين» (١٦٤/١٠).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٤/٢ - ١٣٥).

وقد أحسَنَ مَن قال[١]:

تَفَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا فَأَبْصَرْتُ رُشْدَهَا ... وَذَلَّلْتُ بِالتَّقْوَى مِنَ اللهِ خَدَّهَا
أَسَأْتُ بِهَا ظَنًّا فَأَخْلَفْتُ وَعْدَهَا ... وَأَصْبَحْتُ مَوْلَاهَا وَقَدْ كُنْتُ عَبْدَهَا

ولإبراهيم بن المَهْدِيّ[٢]:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الحِرْصِ لَمْ يَشِبِ ... إِنَّ الحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ
مَا لِي أَرَانِي إِذَا طَالَبْتُ مَرْتَبَةً ... فَنِلْتُهَا طَمَحَتْ عَيْنِي إِلَى رُتَبِ
قَدْ يَنْبَغِي لِيَ مَعْ مَا حُزْتُ مِنْ أَدَبٍ ... أَلَّا أُخَوِّضَ فِي أَمْرٍ يُنَقِّصُ بِي
لَوْ كَانَ يَصْدُقُنِي ذِهْنِي بِفِكْرَتِهِ ... مَا اشْتَدَّ غَمِّي عَلَى الدُّنْيَا وَلَا نَصَبِي
أَسْعَى وَأَجْهَدُ فِيمَا لَسْتُ أُدْرِكُهُ ... وَالمَوْتُ يَكْدَحُ فِي زَنْدِي وَفِي عَصَبِي

وقال آخر[٣]:

الْمَرْءُ آفَتُهُ هَوَى الدُّنْيَا ... وَالمَرْءُ يَطْغَى كُلَّمَا اسْتَغْنَى
إِنِّي رَأَيْتُ عَوَاقِبَ الدُّنْيَا ... فَتَرَكْتُ مَا أَهْوَى لِمَا أَخْشَى
فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَجِدَّتِهَا ... فَإِذَا جَمِيعُ جَدِيدِهَا يَبْلَى
وَإِذَا جَمِيعُ أُمُورِهَا عُقَبٌ ... بَيْنَ الْبَرِيَّةِ قَلَّمَا تَبْقَى
وَبَلَوْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا فَإِذَا ... كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ يَسْعَى
أَسْمَى مَنَازِلِهَا وَأَرْفَعُهَا ... فِي الْعِزِّ أَقْرَبُهَا مِنَ المَهْوَى
وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى الْقُبُورِ فَمَا ... مَيَّزْتُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَالمَوْلَى
تَقْفُو مَسَاوِيهَا مَحَاسِنَهَا ... لَا شَيْءَ بَيْنَ النَّعْيِ وَالْبُشْرَى
وَلَقَلَّ يَوْمٌ ذَرَّ شَارِقُهُ ... إِلَّا سَمِعْتَ بِهَالِكٍ يُنْعَى

---

(١) «تاريخ بغداد» (٢/٧٤)؛ ونسبه لأبي حاتم الرازي.
(٢) المصدر السابق (٦/١٤٥).
(٣) مختصر من قصيدة لأبي العتاهية. انظر: «التدوين» للرافعي (٣/١٤٤)، و«أدب الدنيا والدين» للماوَرْدي (ص٤٦٧).

لَا تَعْتِبَنَّ عَلَى الزَّمَانِ فَمَا عِنْدَ الزَّمَانِ لِعَاتِبٍ عُتْبَى
يَا بَانِيَ الدَّارِ الْمُعِدَّ لَهَا مَاذَا عَمِلْتَ لِدَارِكَ الْأُخْرَى
وَمُمَهِّدَ الْفُرُشِ الْوَثِيرَةِ لَا تُغْفِلْ فِرَاشَ الرَّقْدَةِ الْكُبْرَى
أَتُرَاكَ تُحْصِي مَنْ رَأَيْتَ مِنَ الْـ أَحْيَاءِ ثُمَّ رَأَيْتَهُمْ مَوْتَى
فَلَتَلْحَقَنَّ بِعَرْصَةِ الْمَوْتَى وَلَتَنْزِلَنَّ مَحَلَّةَ الْهَلْكَى

والحاصل: أن الفكر يُثمِر حصول المطلوب تامًّا بحسب الإمكان، والعمَلُ بموجَبِهِ رعاية لحقه؛ فإن العقل حال التفكُّر كان قد كَلَّ بأعماله في تحصيل المطلوب، فلما حصَلَتْ له المعاني، وتخمَّرَتْ فيه ورسَخَتْ، واستراح العقل، عاد فتذكَّر هذه الأمور التي تفكَّر فيها وطالَعَها؛ فابتهج بها وفَرِح؛ ومِن ثَمَّ يصحِّح العمل والسير إلى الله ﷻ.

فهذا مقام شريف من مقامات العبد، وهذا تمامًا كالتاجر الذي يفكِّر كيف يحصِّل الأرباح في تجارته، ثم يَتْعَب في تحصيلها والسعي في جلبها، ثم إذا حصَّلها وطالعها بين يديه، ركَنَ إليها، وسُرَّ بها، ونسي ذلك التعب الذي تَعِبَهُ في سبيل تحصيلها؛ فتَبرُدُ نفسه، ويطيب خاطره(١).

٧ - أن التفكُّر يُورِث العبد القناعة والزهد في الدنيا:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ»(٢).

قال ابن بطَّال: «لا يكون المرء على حال خَسِيسة من الدنيا إلَّا وُجِدَ مِن أهلها مَن هو أخسُّ حالًا منه، فإذا تفكَّر في ذلك، عَلِمَ أن نعمة الله وصَلَتْ إليه دون كثير ممن فضِّل عليه بذلك من غير أمرٍ أوجَبَه، فيُلزِمُ نفسه الشكر؛ فيعظُمُ اغتباطُهُ بذلك في مَعَادِه»(٣).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٤٤٤- ٤٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٩/٢٩٦٣).

(٣) «شرح صحيح البخاري» (١٠/١٩٩)؛ بتصرُّف، ونسبه للطبري، ولم أجده فيما طُبع من كتبه.

وجاء رجل إلى يونس بن عُبَيْد، يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أَيَسُرُّكَ ببصَرِكَ هذا الذي تُبصِر به مائةُ ألف درهم؟ قال الرجل: لا، قال: فبيدَيْك مائة ألف؟ قال الرجل: لا، قال: فبِرجْلَيْكَ؟ قال الرجل: لا... فذكَّره بنعم الله عليه، وقال يونس: أرى عندك مِئِينَ ألوفًا وأنت تشكو الحاجة!»[(١)].

ودخل ابن السَّمَّاك يومًا على الرشيد، فدعا الرشيد بماء ليشربه، فأُتِيَ به، فلما رفعه ليشربه، قال له ابن السماك: على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين، لو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَةَ، بكم كنت تشتريها؟ قال: بنِصْفِ مُلْكِي، قال: اشْرَبْ هَنَّاكَ الله، فلما شرب، قال: لو مُنِعْتَ خروجَها مِن بَدَنِكَ، بماذا كنتَ تشتريها؟ قال: بنِصْفِ ملكي، قال ابن السماك: مُلْكٌ قيمته شربة ماء لجديرٌ ألَّا تُنافِسَ فيه؛ فبكى الرشيد[(٢)].

وقال فتح الموصلي: «مَن أدام النظر بقلبه، ورَّثه ذلك الفرَحَ بالمحبوب»[(٣)]؛ فلا يحزن على الدنيا، ولا يأسى على ما فاته منها.

٨ - التعرُّف على النفس وما لها وما عليها:

فإنَّ العاقل لا يزال يُعمِلُ عقله وفكره في كل ما أهمَّه من شأن الدنيا والآخرة؛ فإذا وقَعَ على عَوْرة ستَرَها، أو ثُلْمَة سَدَّها، أو عيب أصلحه، ولا يزال هذا حاله ودأبه حتى يستقيم له أمره، ولا يكون ذلك إلّا للعاقل الرشيد الذي يجول بفِكْره، وينظُرُ بعقله، يعلم أنه ليس بمعصوم؛ فيتوقَّع الخلل في عمله؛ فيُعِدُّ له ما يحتاجه في ترميمِهِ وإصلاحه، ويظُنُّ بنفسه العجز والتقصير؛ فيُحسِنُ الاستعانةَ بربِّه.

وأمَّا من يكبُرُ ذلك عليه، فإنه يرفع نفسه عن تصوُّر النقص بها، ويُجِلُّ عمله عن حصول التقصير فيه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٠٠)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤١٤٩) بنحوه.

(٢) أخرجه الطبري في «تاريخه» (٣٥٧/٨)، والرافعي في «تاريخ قزوين» (٤٥٦/٢ - ٤٥٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٩٣/٨).

وقد قال الفضيل: «الفِكْرُ مرآةٌ تُرِيكَ حسناتِك وسيئاتِك»(١).

وهذا مِن تمام طلَبِ استدامة المستقيم من الأعمال، والرغبة في استقامة المُعوَجِّ منها، ولا يحسُنُ إلّا بِحُسْنِ النَّظَرِ الذي يولِّدُهُ التفكُّر والتدبُّر بحُسْنِ سياسة العقل الرشيد.

٩ - تجديد الإيمان:

فالمؤمن إذا أحسَنَ التفكير، وأمعَنَ النظر، هداه الله وأحيا قلبه؛ فالإيمان - كما مثَّله الله ﷻ -: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤](٢).

وشجرة الإيمان: عروقُها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمَرَتُها ما تُوجِبُه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكيَّة، والسَّمْتِ الصالح، والهَدْيِ والدَّلِّ المَرْضِيّ؛ فيستدِلُّ الناظر على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور؛ فإذا كان العلم صحيحًا مطابِقًا لمعلومه الذي أنزَلَ الله كتابه به، والاعتقادُ مطابِقًا لما أخبَرَ به عن نفسه، وأخبَرَتْ به عنه رسله، والإخلاصُ قائمًا في القلب، والأعمالُ موافِقةً للأمر، والهديُ والدَّلُّ والسَّمْتُ مشابِهةً لهذه الأصول، مناسِبةً لها -: عُلِمَ أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس، عُلِمَ أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتُثَّتْ من فوق الأرض ما لها من قرار.

فالشجرة لا تبقى حيَّةً إلّا بمادَّةٍ تَسقِيها وتنمِّيها، فإذا قُطِعَ عنها السقي، أوشك أن تَيْبَس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب: إنْ لم يتعهَّدها صاحبها

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٤/٤٢٤)، ونسبها للفضيل، وقد أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٠٨ - ١٠٩) بسنده مِن طريق الفُضَيْل، عن الحسن البصري.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/٢٩٩ وما بعدها).

بسقيها كل وقت بالعلم النافع، والعمل الصالح، والعَوْدِ بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر؛ وإلا أوشَكَتْ أن تيبس.

وقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الخَلِقُ؛ فاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»(١).

وبالجملة: فالغَرْسُ إن لم يتعاهده صاحبه، أوشك أن يَهْلِك(٢).

١٠ - أنه سبيلٌ قويٌّ لمدافعة الهوى:

قال ابن الجوزي: «اعلَمْ: أن مُطْلَقَ الهوى يدعو إلى اللذَّة الحاضرة مِن غير فِكْرٍ في عاقبة، ويَحُثُّ على نيل الشهوات عاجلًا وإنْ كانت سببًا للألم والأذى في العاجل ومنعِ لَذَّاتٍ في الآجل.

فأمَّا العاقل، فإنه ينهى نَفْسَهُ عن لذَّةٍ تُعقِبُ ألمًا، وشهوةٍ تُورِثُ ندمًا، وكفى بهذا القدرِ مدحًا للعقل وذمًّا للهوى.

أَلَا ترى أنَّ الطفل يُؤثِرُ ما يهوى وإنْ أدَّاه إلى التلف، فيفضُلُ العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك، وقد يقع التساوي بينهما في الميل بالهوى؟!

وبهذا القدر فُضِّلَ الآدمي على البهائم؛ أعني: مَلَكَة الإرادة؛ لأن البهائم واقفةٌ مع طِباعها، لا نظَرَ لها إلى عاقبة، ولا فِكْرَ في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع مِن الغذاء إذا حَضَر، وتَفعَلُ ما تحتاج إليه من الروث والبول أيَّ وقت اتفق، والآدمي يَمتنِع عن ذلك بقهر عقله لطبعه.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٤/٦٩)؛ واللفظ له، والحاكم (١/٥٤) وصحَّحه، وقال الذهبي: «رواته ثقات»، وحسَّنه الهيثمي في «المجمع» (١/٥٢)، والألباني في «الصحيحة» (١٥٨٥). وفي الباب: عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه؛ أخرجه أحمد (٢/٣٥٩)، والحاكم (٤/٢٥٦)، وصحَّحه؛ إلَّا أنه لا يثبُت؛ فقد ضعَّفه الذهبي، والألباني في «الضعيفة» (٨٩٦).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/٣٠٢).

وإذا عرَفَ العاقل أن الهوى يصير غالبًا، فعليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل؛ فإنه سيُشِيرُ عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كَفِّ الهوى إلى أن يتيقَّن السلامة من الشر في العاقبة.

وينبغي للعاقل أن يَتمَرَّنَ على دفع الهوى المأمون العواقب؛ ليستمِرَّ بذلك على ترك ما تُؤذِي غايته، وليعلم العاقل أن مُدْمِني الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذُّونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تَرْكَها؛ لأنها قد صارت عندهم كالعَيْشِ الاضطراري؛ ولهذا ترى مُدمِنَ الخمرِ والجِمَاعِ لا يلتذُّ بذلك عُشْرَ التذاذ مَن لم يُدْمِن؛ غيرَ أن العادة تقتضيه ذلك، فيُلْقِي نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوُّدُه، ولو زال رَيْنُ الهوى عن بصر بصيرته، لرأى أنه قد شَقِيَ مِن حيث قدَّر السعادة، واغتمَّ من حيث ظنَّ الفرح، وأَلِمَ من حيث أراد اللذَّة.

فإنْ قال قائل: فكيف يَتخلَّصُ مِن هذا من قد نَشِبَ فيه؟

قيل له: بالعزم القوي في هِجْران ما يُؤذِي، والتدرُّج في ترك ما لا يُؤمَنُ أذاه؛ وهذا يفتقِرُ إلى صبر ومجاهدة يهوِّنهما سبعة أشياء:

أحدها: التفكُّرُ في أن الإنسان لم يُخلَقْ للهوى، وإنما هُيِّئَ للنظر في العواقب، والعمل للآجل؛ ويدُلُّ على هذا: أن البهيمة تُصِيب من لذَّة المَطعَم والمَشرَب والمَنكَح ما لا يناله الإنسان، مع عيش هَنِيٍّ خال عن فكر وهَمّ؛ ولهذا تُسَاقُ إلى مَنْحَرِها وهي مُنهَمِكةٌ على شهواتها لِفِقْدان العلم بالعواقب.

والآدمي لا ينال ما تناله؛ لقوَّة الفكر الشاغل، والهمِّ الواغل، وضعف الآلة المستعمَلة.

والثاني: أن يفكِّر في عواقب الهوى؛ فكم قد أَفَاتَ من فضيلة! وكم قد أوقَعَ في رذيلة! وكم مِن مطعم قد أوقع في مرض! وكم مِن زلَّة أوجَبَتِ انكسارَ جاه، وقُبْحَ ذِكْر، مع إثم؛ غيرَ أن صاحب الهوى لا يرى إلَّا الهوى!

فأقرَبُ الأشياء شَبَهًا به: مَن في المَدْبَغة؛ فإنه لا يجدُ رِيحَها حتى يخرُجَ فيعلم أين كان.

والثالث: أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصوَّر الأذى الحاصل عَقِيبَ اللذَّة؛ فإنه يراه يُرْبِي على الهوى أضعافًا؛ وقد أنشد بعض الحكماء:

وَأَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ لَمْ يَرْتَكِبْ سَبَبًا ... حَتَّى يُمَيِّزَ مَا تَجْنِي عَوَاقِبُهُ

والرابع: أن يتصوَّر ذلك في حق غيره، ثم يتلمَّح عاقبته بفِكْره؛ فإنه سيرى ما يعلم به عَيْبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكَّر فيما يطلُبُهُ من اللذَّات؛ فإنه سيُخبِرُهُ العقل أنه ليس بشيء؛ فعَيْنُ الهوى عَمْياء.

ويروى عن ابن مسعود ﷺ؛ قال: «إذا أعجَبَتْ أحدَكُمُ امرأةٌ، فلْيَذْكُرْ مَنَاتِنَهَا»(١).

وهذا أحسَنُ من قول أبي الطيِّب(٢):

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مُنْتَهَى ... حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

لأن ابن مسعود ذكر الحال الحاضرة المُلازِمة، وأبو الطيِّب أحال على أمور متأخِّرة، إلّا أن يكون أشار إلى هذا المعنى.

والسادس: أن يتدبَّر عِزَّ الغَلَبة وذُلَّ القهر، فإنه ما من أحد غلَبَ هواه إلّا أَحَسَّ بقوَّة عِزّ، وما من أحد غلبه هواه إلّا وجد في نفسِهِ ذُلَّ القهر.

والسابع: أن يتفكَّر في فائدة المخالفة للهوى من اكتساب الذِّكْرِ الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعِرْض، والأجر في الآخرة.

ثم يَعكِسُ فيتفكَّر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك على الأبَد»(٣).

---

(١) قال الألباني في «الإرواء» (١٧٨٩): «لم أقفْ على سنده إلى ابن مسعود»، وأخرجه أبو يوسف في «الآثار» (٨٩٤) عن إبراهيم النخعي؛ بلفظ: «إذا رأيتَ المرأةَ، فأعْجَبَتْكَ، فاذْكُرْ مَنَاتِنَهَا» وأخرجه كذلك ابن أبي شيبة (١٧٤٩٠) بنحوه.

(٢) «الأمثال السائرة، من شعر المتنبي» (ص٧٦).

(٣) «ذم الهوى» (ص ١٥)؛ باختصار وتصرُّف.

وعن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، عن عَمِّه؛ قال: قال لي الرشيد: ما حَدُّ العِشْق وصفته؟ فقلت: «أن تكون رِيحُ البَصَل مِن المعشوق أطيَبَ عند العاشِق من ريح المِسْك مع غيره»[١].

وقال الحكماء: «عَيْنُ الهوى عوراء»[٢].

قال ابن الجوزي: «بهذا السبب يُعرِضُ الإنسان عن زوجته، ويُؤثِرُ عليها الأجنبيَّة، وقد تكون الزوجة أحسن، والسبب في ذلك: أن عيوب الأجنبيَّة لم تَبِنْ له، وقد تكشفها المخالطة؛ ولهذا إذا خالط هذه المحبوبة الجديدة، وكشَفَتْ له المخالَطة ما كان مستورًا، مَلَّ وطلب أخرى، إلى ما لا نهاية له.

وقد بلغنا عن المتوكِّل أنه خرَجَ يومًا واجمًا، فسأله وزيره عن حاله، فقال: في الدار عشرون ومائة جارية ما فِيهِنَّ مَن تطلُبُها نفسي... فاستعمالُ الفِكْرِ في بدَنِ الآدمي وما يحوي من القذارة، وما تستُرُ الثياب من المُستقبَحِ يهوِّنُ العشق؛ ولهذا قال ابن مسعود: «إذا أعجَبَتْ أحدَكُم امرأةٌ، فلْيَذْكُرْ مَنَاتِنَها»[٣].

وقال بعض الحكماء: مَن وجد ريحًا كريهة من محبوبة، سَلَّاه؛ وكفى بالفكر في هذا الأمر دفعًا للعِشْق المُقْلِق.

ولقد بلَغَنا أن رجلًا عَشِقَ امرأة، فمَدَّ يده إليها مع طَيْش، فقالت له: تأمَّلْ أمرَكَ، أتدري ما تريد أن تصنع؟! إنما تريد أن تَبُولَ في بالوعةٍ لو شَاهَدتَّ داخلها لوجَدتَّهُ أنتن من الكَنِيف! فبرَدَ وسكَنَ ولم يعاوِدْ.

وقال أبو نَصْر ابن نُبَاتة:

مَا كُنْتُ أَعْرِفُ عَيْبَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ ... حَتَّى سَلَوْتُ فَصِرْتُ لَا أَشْتَاقُ
وَإِذَا أَفَاقَ الْوَجْدُ وَانْدَمَلَ الْهَوَى ... رَأَتِ الْقُلُوبُ وَلَمْ تَرَ الْأَحْدَاقُ»[٤]

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص ٦٥٣).
(٢) «ذم الهوى» (ص ٦٥٣).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «ذم الهوى» (ص٦٥٣).

وهناك أمور أخرى يُثمِرُها التفكُّر؛ فهو على كل حال يشرح الصدر، ويُورِث سكينة القلب، ويُورِث العبد الخوف والخشية، والمراقَبة لله ﷻ، وهو نعمة كبيرة؛ فمن الغَبْن أن يضيِّعها الإنسان، أو يجعلها في أمور مرذولة.

❊ ❊ ❊

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ التَّفكُّرِ

التفكُّر والاعتبار، خُلُقُ أهل الفَضْل والادِّكَار، ودُونَكَ طَرَفًا من أخبارهم:

١ - يقول شَقِيق البَلْخي: «أخَذْتُ الخشوع من إسرائيل بن يونس؛ كنا جلوسًا حوله لا يَعرِفُ مَن عن يمينه ولا مَن عن شماله مِن تفكُّرِهِ بالآخرة»(١).

٢ - ويقول يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان الثوري - وقد صلَّينا العشاء الآخرة -: نَاوِلْني المِطْهَرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خَدِّه، ونمت، فاستيقظتُ وقد طلع الفجر؛ فإذا المِطْهَرة بيمينه كما هي، فقلتُ: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناوَلْتَني المِطْهَرة أتفكَّر في الآخرة حتى الساعة»(٢).

٣ - وقال ابن المبارَك لبعض أصحابه، وقد رآه مفكِّرًا: «أين بلغتَ؟ قال: الصِّرَاط»(٣).

٤ - وعن محمد بن واسع: «أن رجلًا من أهل البصرة رَكِبَ إلى أم ذر بعد موت أبي ذر، يسألها عن عبادة أبي ذر... قالت: كان النهار أجمَعَ خاليًا يتفكَّر»(٤).

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/١٣٧- ١٣٨)، ووقع فيه: «مِن تفكُّرِ الآخرة».

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١٥٧).

(٣) نسبه الزَّبِيدي في «الإتحاف» (١٠/١٦٤) لأبي نعيم في «الحلية»، ولم أجده فيه، وهو في «الإحياء» (٤/٤٢٥)، و«مفتاح دار السعادة» (١/٥٣٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٦٤).

٥ - وعن عون بن عبد الله؛ قال: «سألنا أمَّ الدرداء، قلنا: ما كان أفضَلَ عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكُّر والاعتبار»[(١)].

٦ - وهذا السَّرِيُّ السَّقَطِيّ يقول: «إني لأنظُرُ إلى أنفي كل يوم مرارًا؛ مخافة أن يكون وجهي قد اسْوَدَّ»[(٢)].

ويقول: «ما أُحِبُّ أن أموت حيث أُعرَف، فقيل له: ولِمَ ذاك يا أبا الحسن؟ قال: أخاف ألَّا يَقْبَلَني قبري فأُفتضَح»[(٣)].

٧ - وعن أبي أسامة المصري؛ قال: بينا أبو شُرَيْحٍ يمشي إذْ جلس فتقنَّع بكسائه، فجعل يبكي، فقلنا: ما يبكيك؟ قال: «تفكَّرْتُ في ذَهَابِ عمري، وقِلَّةِ عملي، واقترابِ أجلي»[(٤)].

٨ - وبكى عمر بن عبد العزيز يومًا، فسُئِلَ عن ذلك، فقال: «فكَّرْتُ في الدنيا ولذَّاتها وشَهَواتها، فاعتبَرْتُ منها بها؛ ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدِّرَها مَرَارتُها، وإنْ لم يكن فيها عِبْرة لمن اعتَبَر، إنَّ فيها مَواعِظَ لمن ادَّكَر»[(٥)].

٩ - وعن فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز؛ أنها دخلت على عمر، فإذا هو جالس في مصلَّاه، معتمِدًا يده على خَدِّه، سائِلَةً دموعُهُ على لحيته؛ قالت: فقلت: يا أمير المؤمنين، أيُّ شيءٍ حدَث؟ قال: «يا فاطمة، إني تقلَّدتُ أَمْرَ أمَّة محمد ﷺ أحمَرِها وأسوَدِها، فتفكَّرْتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والغازي المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ

---

(١) أخرجه ابن المبارك (٢٨٦)، والإمام أحمد (١٣٥)؛ كلاهما في «الزهد»، وأخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٤٩/٤٧)؛ من طريق ابن المبارك؛ وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١١٦/١٠)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١١٦/١٠)، والبيهقي في «الشعب» (٨٩٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «العمر والشيب» (٢٢).

(٥) «تفسير ابن كثير» (١٨٥/٢).

الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباهِهم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعَلِمْتُ أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأنَّ خَصْمي دونهم محمَّد ﷺ، فخَشِيتُ ألَّا يثبُتَ لي حجة عند خصومته، فرَحِمْتُ نفسي فبَكَيْتُ»[١].

١٠ - وعن عبد السلام مولى مَسْلَمة بن عبد الملك؛ قال: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة - زوجته - فبَكَى أهل الدار، لا يدري هؤلاءِ ما أبكى هؤلاء، فلما تجلَّى عنهم العَبْر، قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين، مِمَّ بَكَيْتَ؟ قال: «ذكرت يا فاطمة مُنصَرَفَ القوم مِن بين يدي الله؛ فريق في الجنَّة، وفريق في السعير»[٢].

١١ - وكان داود الطائي في ليلة مُقْمِرة، فتفكَّر، فقام فمشى على السطح وهو شاخص حتى وقع في دار جار له، قال: فوثَبَ صاحب الدار عُرْيانًا من الفراش، فأخذ السيف - ظن أنه لِصّ - فلما رأى داود، رجع فلبس ثيابه، ووضع السيف، وأخذ بيده حتى رَدَّهُ إلى داره، فقيل لداود، فقال: «ما دَرَيْت، أو ما شَعَرْت»[٣].

١٢- وكان هشام الدستوائي إذا فقَدَ السراج من بيته، يتملمَلُ على فراشه، فكانت امرأته تأتيه بالسراج، فقالت له في ذلك، فقال: «إني إذا فَقَدتُ السراج، ذكَرْتُ ظُلْمةَ القبر»[٤].

١٣ - وعن يوسف بن أسباط؛ قال: «كان سفيان الثوري طويل الفكرة، وكان يفور الدَّمُ مِن حزنه وفكرته»[٥].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥/١٩٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٥)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٦٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٥٨).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٧/١٥٢).

(٥) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٦٠).

١٤ - وذكر محمد بن الصَّبَّاح الدولابي سيف بن هارون، فقال: «كان قد احتفَرَ في داره أو بيته قبرًا، فكان يدخُلُ فيه كل قليل، ثم يقول: أهيلوا عليَّ التراب، ثم يصيح: أرجعوني لعلي أعمل صالحًا فيما تَرَكْتُ»(١).

١٥ - وعن عاصم الرقاشي؛ قال: «انطلَقَ غَزْوان وحَمَمَة إلى عامر بن عبد الله، فوجداه مغلِقًا عليه بابه، فسمعاه يبكي، فجلسا ببابه يبكيان لبكائه، ثم أَذِنَ لهما، فرأى أثر البكاء على وجوههما، فقال: ما أبكاكما؟ قالا: سمعناك تبكي، فبكينا لبكائك، قال: أُخبِرُكما ما أبكاني، إني ذكَرْتُ الليلة التي صبيحتها يوم القيامة، قلت: إنها لَتَمَخَّضُ بأمر عظيم»(٢).

١٦ - وعن النضر بن إسماعيل؛ قال: «مَرَّ الربيع بن أبي راشد برجل به زَمَانَة، فجلس يحمد الله ويبكي، فمَرَّ به رجل، فقال: ما يبكيك رحمك الله؟ قال: ذكَرْتُ أهل الجنة وأهل النار، فشبَّهْتُ أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء؛ فذلك الذي أبكاني»(٣).

١٧ - وعن رُشَيْد بن حُبَاب؛ قال: «مرض حازم بن الوليد بن بُجَيْر الأزدي، فدعوتُ له طبيبًا، فنظر إليه، فقال: ما بصاحبك هذا إلّا الحُزْن، فقال حازم: إني ذكَرْتُ مواقف يوم القيامة، ففَزِعَ لذلك قلبي»(٤).

١٨ - وقالت أخت بشر بن الحارث: «دخل بِشْرٌ عليَّ ليلةً من الليالي، فوضَعَ إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارجها، وبقي كذلك يتفكَّر حتى أصبح، فلما أصبح، قلت له: في ماذا تفكَّرْتَ طول ليلتك؟ فقال: تفكَّرت في بِشْر النصراني، وبِشْر اليهودي، وبِشْر المجوسي، ونفسي واسمي بِشْر،

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣/٤٣٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢٩٩)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/٣٨-٣٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٧٨).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الهم والحزن» (١٤٦)، والبيهقي في «الشعب» (٩٢٨).

فقلت: ما الذي سَبَقَ منك إليه حتى خَصَّك؟! فتفكَّرْتُ في تفضُّلِهِ عليَّ وحَمِدَتُّهُ على أن جعلني من خاصَّته، وألبسني لباس أحبَّائه»(١).

١٩ - وعن أبي بكر الحربي؛ قال: سمعتُ السَّرِيَّ السَّقَطِيَّ يقول: «حَمِدتُّ الله مرَّة، فأنا أستغفِرُ الله من ذلك الحمد منذ ثلاثين سنة، قيل: وكيف ذاك؟ قال: كان لي دُكَّان، وكان فيه متاع، فوقع الحريق في سوقنا، فقيل لي، فخرجتُ أتعرَّفُ خبر دُكَّاني، فلقيت رجلًا، فقال: أَبشِرْ؛ فإنَّ دكَّانك قد سَلِمَ، فقلت: الحمد لله، ثم إني فكَّرْتُ فرأيتُها خطيئةً»(٢)؛ يعني: أنه كان يهتمُّ لنفسه.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/٤٣٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٠/٢٠٢).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٩/١٨٧)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٠/١٧٥).

الخُشُوع

تَوْطِئَة

الخشوع مِن صفات الأنبياء والصالحين، ومِن مراتب الصِّدِّيقِينَ ومنازل المقرَّبين، وهو حال القلب إذا تمكَّن خوف الله منه، فيُخبِتُ لربه، ويخضع لعظمته، ويَنكَسِرُ لهيبته، ويَذِلُّ لعِزَّته، ثم تظهر آثار هذا التمكُّن على الجوارح، فتنقاد لله رب العالمين.

فالله أسأل أن يَجعَلَنا له خاشعين؛ إنه سميع مجيب.

❊ ❊ ❊

مَعْنَى الخُشُوعِ وَحَقِيقَتُهُ

الخشوعُ في اللغة: يدور على معنى واحد ترجع إليه جميع استعمالات هذه الكلمة؛ وهو التواضُعُ والتَّطَامُن؛ ومن هنا قيل: «الخاشع: المُسْتَكِينُ والراكع»، وقيل: «المُتَضَرِّع»، وقيل: «المُتَخَشِّع: هو الذي طَأْطَأ رأسه وتواضَعَ»، وقيل غير ذلك مما يُقَارِبه[1].

وأما الخشوع في معناه الشرعي: فعبارات العلماء فيه مُتَقَارِبة أيضًا[2]:

فقيل: هو قيام القلب بين يَدَيِ الربِّ بالخضوعِ والذُّلّ.

وقيل: هو الانقياد للحق؛ وهو تفسيرٌ بالمُقْتَضَى واللازم؛ فالانقياد من مُوجَبات الخشوع.

وقيل: هو تذلُّل القلوب، لعلَّام الغيوب.

قال ابن القيِّم: «والحقُّ: أن الخشوع معنًى يَلْتَئِمُ من التعظيمِ والمحبَّة، والذُّلِّ والانكسار»[3].

وقال الحافظ ابن حجر: «والخشوعُ تارَةً يكون من فعل القَلْب كالخشية، وتارَةً من فِعْلِ البَدَنِ كالسكون، وقيل: لا بد من اعتبارهما؛ حكاه الفخر الرازِيّ في «تفسيره»[4]، وقال غيره: هو معنًى يقوم بالنَّفْس، يظهر عنه سكون في الأطراف، يلائِمُ مقصود العبادة»[5].

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٢/١٨٢)، (خ ش ع).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/٥٢١ - ٥٢٤).

(٣) المصدر السابق (١/٥٢٢).

(٤) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢٣/٢٥٩).

(٥) «فتح الباري» (٢/٢٦٤).

وقال ابن رجب: «وأصل الخشوع: هو لِينُ القَلْبِ ورِقَّتُهُ وسكونه، وخضوعه وانكساره وحُرْقَتُه، فإذا خشَعَ القلب، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له؛ كما قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً...»؛ الحديثَ[١]، وكان ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي»[٢]»[٣].

فهو يرى أن خضوع الجوارح ثَمَرَةٌ لخضوع القلب ولِينِه.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «والخشوع يتضمَّن معنيَيْن:

أحدهما: التواضُع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة.

وذلك مستلزِم لِلِينِ القلب المنافي للقسوة؛ فخشوع القلب يتضمَّن عبوديَّته لله وطمأنينته أيضًا؛ ولهذا كان الخشوع في الصلاة يتضمَّن هذا وهذا: التواضع والسكون»[٤].

فهو يرى أنَّ لِينَ القلبِ نتيجة وأَثَرٌ ولازم من لوازم الخشوع؛ كما أن خشوع الجسد تبع لخشوع القلب، وأن الخشوع هو التواضع والتذلل، والسكون والطمأنينة؛ ولهذا جاء عن عليٍّ ﷺ؛ أنه قال: «الخشوع في القلب، وأن تُلِينَ كَنَفَكَ للمرء المسلم، وألَّا تَلتفِتَ في صلاتك»[٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١)؛ من حديث علي ﷺ.

(٣) «الذل والانكسار» (ص٣٥-٣٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/٢٨-٣٠).

(٥) أخرجه وكيع (٣٢٨)، وابن المبارك (١١٤٨)؛ كلاهما في «الزهد»، وابن جرير في «تفسيره» (٩/١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٣٩٣)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الكبرى» (٢/٢٧٩)، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وفي إسناده ضعف. انظر: تخريج «الزهد» لوكيع بن الجراح (٣٢٨).

وهكذا جاء عن إبراهيم النَّخَعي(١)، وقتادة(٢)، وطائفة من السلف أيضًا: أنَّ الخشوعَ في القلب.

وكان ابن سِيرِين يقول: «كانوا يقولون: لا يُجاوِزُ بصرُهُ مصلَّاه»(٣).

وسُئِلَ الأوزاعي عن الخشوع، فقال: «غَضُّ البصر، وخَفْضُ الجَنَاح، وأَنِين القلب؛ وهو الحزن»(٤).

وقال بشر بن الوليد: «رأيت الأوزاعيَّ كأنه أعمى مِن الخشوع»(٥).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: «القنوت: الركوع، والخشوع، وغَضُّ البصر، وخَفْضُ الجَنَاح من رهبة الله تعالى»(٦).

والخلاصة: أن الخشوع معنًى ينتظِمُ خضوع القلب وذُلَّهُ وانكساره وعبوديَّته، وسكونه وتواضعه، وطمأنينته، مع التعظيم والمحبة والخشية لله تعالى، ويظهر أثره على الجوارح بسكونها، والتواضُع للخلق؛ فيكون القلب عامرًا بالسكون والطمأنينة، والتذلُّل والمحبَّة والتعظيم، مع خضوع الجوارح، وتواضع العبد، وسكون الجسم، وسكون الطَّرْف والنَّظَر.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٠/١٧).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨/١٧)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٩٠٠).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٤٣/٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٩٦/٣٥).

(٦) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٧٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢٨٢/٣)، وسعيد بن منصور في «التفسير» (٤٠٦)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٣٥/٥)، ومن طريق سعيد بن منصور أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٨٨٣). وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر؛ كما ذكر ذلك السيوطي في «الدر المنثور» (٩٦/٣- ٩٧).

الفَرْقُ بَيْنَ الخُشُوعِ وَبَيْنَ الإِخْبَاتِ وَالخُضُوعِ وَالضَّرَاعَة

أولًا: الفرق بين الخشوع والإخبات:

قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

وأصل الخَبْتِ في اللغة: المكانُ المنخفِضُ من الأرض.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]: «هم المتواضِعون»(١)، وكذا قال قتادة(٢)، وقال مجاهد: «المطمئنِّين إلى الله»(٣)، وقال الأخفش: «الخاشعين»(٤)، وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: «المخلِصين»(٥)، وقال الكلبي: «هم الرقيقة قلوبهم»(٦)، وقال عمرو بن أوس: «المخبِتون: الذين لا يَظلِمُون، وإذا ظُلِمُوا لم يَنتصِروا»(٧).

---

(١) «تفسير البغوي» (٥/٣٨٦)؛ بتصرف.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/٥٥١).
(٤) «تفسير البغوي» (٥/٣٨٦).
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.
(٧) أخرجه سعيد بن منصور (١٤٩٣ط.آل حميد)، وابن أبي شيبة (١٣/٥٧٨)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٦/٥٥١)؛ واللفظ له، والدينوري في «المجالسة» (٤١٦، ٣٠٣١)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٧٧٣٣).

وهذه الأقوال جميعًا - كما يقول ابن القيِّم -: «تدور على معنيَيْنِ: التواضُعُ والسكون إلى الله ﷻ»[(١)]؛ وبهذا نعرف أن الإخبات مقارِبٌ للخشوع، لكن الخشوع يصحبه ذُلُّ القلب وانكساره، مع المحبَّة والتعظيم.

ثانيًا: الفرق بين الخشوع والخضوع[(٢)]:

وأما الخشوع والخضوع، فهما متقارِبان أيضًا.

وقد قيل: إن الخضوع يكون بالبَدَن؛ فيقال: فلان خضَعَ لفلان، وإنْ كان قلبُهُ لم يَخضَعْ له.

وأمَّا الخشوع، فيكون في القلب، والبدن، والصوت، والبصر؛ فيظهر هذا على بصره وجوارحه[(٣)].

فأصلُ الخضوع: هو الذلُّ والانقياد، فإذا قيل: «خضوع القلب»، فهو ذُلُّهُ، وإذا قيل: «خضوعُ البَدَن»، فهو انقيادُهُ واستسلامه.

ثالثًا: الفرق بين الخشوع والضراعة[(٤)]:

وأما الفرق بين الخشوع والضَّرَاعة، فكذلك بينهما تقارُب.

وقد قيل: أكثر ما يستعمَلُ الخشوع فيما يُوجَدُ على الجوارح في الظاهر، وإنْ كان أيضًا يرتبِطُ بالقلب بلا شك، وأما الضَّرَاعةُ، فأكثر ما تستعمَلُ فيما يوجد في القلب[(٥)]، وأصل الضَّرَاعة في اللغة: الذُّلُّ والخضوع؛ وبهذا نعرف أنها معانٍ متقاربة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣).

(٢) للاستزادة: ينظر: «الفروق اللغوية» (ص ٢٤٨ - ٢٤٩)، و«المُحْكَم والمُحيط الأعظم» (١/١٢٩)، و«تفسير البيضاوي» (١/٧٨)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/٥٤١)، و«القاموس المحيط» (ص ٧١٣)، و«حاشية الشهاب على البيضاوي» (٢/١٥٤).

(٣) انظر: «لسان العرب» (٢/١١٦٥)، (خ ش ع).

(٤) للاستزادة: ينظر «بصائر ذوي التمييز» (٢/٥٤١)، و«حاشية الشهاب على البيضاوي» (٢/١٥٤).

(٥) «مفردات القرآن» للأصفهاني (ص ١٤٨)؛ بتصرف.

أَهَمِّيَّةُ الخُشُوعِ وَمَنزِلَتُه

الخشوع بلا شكٍّ في غاية الأهميَّة، ومَن فقَدَه، فقَدَ واجبًا من واجبات الإيمان؛ ومما يَدُلُّ على أهميَّته:

أولًا: أنه واجب من واجبات الصلاة؛ على قول طائفة من أهل العلم:

وممن اختار هذا القول: القرطبي صاحب «التفسير»[(١)]، وابن تيميَّة[(٢)]، وابن القيِّم[(٣)]، وطائفة من السلف والخلف، وقد استدَلَّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة على أن الخشوعَ واجبٌ من واجبات الصلاة بأدلَّة متعدِّدة، منها[(٤)]:

١ - أن الله ﷻ قال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ قال في بيان وجه الاستدلال: «وهذا يقتضي ذَمَّ غير الخاشعين؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]؛ فقد دَلَّ كتاب الله ﷻ على مَن كَبُرَ عليه ما يُحِبُّهُ الله، وأنه مذموم بذلك في الدين مسخوط منه، والذم أو السخط لا يكون إلّا لترك واجب، أو فعل محرَّم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين، دَلَّ ذلك على وجوب الخشوع، فمِن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] لا بُدَّ أن يتضمَّن

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/١٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٣ - ٥٥٧).

(٣) انظر: «الوابل الصيب» (ص ١٧ وما بعدها).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٣ وما بعدها).

الخشوع في الصلاة؛ فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة، لَفَسَدَ المعنى؛ إذْ لو قيل: إن الصلاة لكبيرةٌ إلّا على من خشَعَ خارجها، ولم يخشع فيها، كان يقتضي أنها لا تكبُرُ على من لم يخشع فيها، وتكبُرُ على من خشَعَ فيها، وقد انتفى مدلول الآية؛ فثبَتَ أن الخشوع واجب في الصلاة»[1].

٢ - قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٤]، إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]؛ يقول: «أخبَرَ سبحانه وتعالى: أنَّ هؤلاء هم الذين يَرِثُونَ فِرْدَوْسَ الجنَّة، وذلك يقتضي أنه لا يَرِثُها غيرهم، وقد دَلَّ هذا على وجوب هذه الخصال؛ إذْ لو كان فيها ما هو مستحَبٌّ، لكانت جنة الفردوس تُورَث بدونها؛ لأنَّ الجنة تُنَالُ بفعل الواجبات دون المستحَبَّات؛ ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلّا ما هو واجب»[2].

٣ - أن النبي ﷺ توعَّد تَارِكِيهِ؛ كالذي يرفع بصَرَهُ إلى السماء؛ فعن أنس بن مالك ﵁؛ قال: قال النبي ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ؟!»، فاشتدَّ قوله في ذلك حتى قال: «لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»[3]؛ وكذلك حديث جابر بن سَمُرة ﵁؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ»[4]؛ فدلَّ ذلك على وجوب الخشوع في الصلاة؛ وبهذا استدل أيضًا الحافظ العراقي[5].

---

(١) المصدر السابق (٢٢/٥٥٣-٥٥٤).

(٢) المصدر السابق (٢٢/٥٥٤).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠).

(٤) أخرجه مسلم (٤٢٨).

(٥) انظر: «طرح التثريب» (٢/٣٧٢).

وقد ذمَّ الله ﷻ قَسْوةَ القلوبِ المنافيةَ للخشوع في غير موضع من كتابه؛ ومن ذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

قال الزجّاج: «قستْ في اللغة: غَلُظَتْ ويَبِسَتْ وصَلُبت، فتأويل القسو في القلب: ذَهَابُ اللِّينِ والرحمةِ والخضوعِ والخشوعِ منه»(١)، والقلبُ القاسي والعاسي: الشديدُ الصلابة.

ويقول ابن تيميَّة: «وقوَّة القلب المحمودة غيرُ قسوته المذمومة؛ فإنه ينبغي أن يكون قويًّا مِن غير عُنْف، وليِّنًا مِن غير ضَعْف... وهذا كاليد؛ فإنها قويَّة ليِّنة، بخلاف ما يقسو من العَقِب، فإنه يابس لا لِين فيه، وإنْ كان فيه قوَّة»(٢).

ثانيًا: أن العبادة التي يُصاحِبها الخشوع تفضُلُ العبادة التي لا خشوع فيها:

وشتَّان بين اثنَيْنِ أحدُهما يصلِّي وهو خاشع، والآخر يصلِّي وهو أبعد ما يكون من الخشوع.

يقول حسَّان بن عطيَّة: «إن الرَّجُلَيْنِ ليكونان في صلاة واحدة وإن بينهما في الفضل لكما بين السماء والأرض»(٣).

ثالثًا: أن الخشوع أول ما يُفقَدُ من هذه الأمَّة:

فعن شدَّاد بن أَوْسٍ ؓ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ ما يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الخُشُوعُ»(٤).

---

(١) «معاني القرآن» للزجاج (١/١٥٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/٣٠).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٩٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٨٣)، و«مسند الشاميين» (٢٦٣٧) مرفوعًا، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٤٣)، وأشار ابن كثير إلى تضعيفه في «التفسير» (٨/٢٠)، وقد رُوِيَ موقوفًا عليه، أخرجه أحمد (٦/٢٦)، وصحَّحه ابن حبان (٤٥٧٢)، والحاكم (١٩٨)، والذهبي، ورجَّح المنذري الوقف في «الترغيب» (١/٣٥١).

وعن أبي الدرداء ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْخُشُوعُ؛ حَتَّى لَا تَرَى فِيها خَاشِعًا»(١).

ورُوِيَ عن حذيفة ﷺ؛ أنه قال: «أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ: الْخُشُوعُ، وآخِرُ ما تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمْ: الصَّلَاةُ»(٢).

رابعًا: أن الله استبطأ المؤمنين في تحقيق هذا الوصف:

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

يقول ابن تيميَّة: «فدعَاهُمْ إلى خشوع القلب لِذِكْرِهِ وما نزَلَ من كتابه، ونهاهم أن يكونوا كالذين طال عليهم الأمَدُ فقسَتْ قلوبهم، وهؤلاء هم الذين: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ والذين يَخشَوْنَ ربَّهم هم الذين إذا ذُكِرَ الله تعالى، وَجِلَتْ قلوبُهم.

فإن قيل: فخشوع القلبِ لذِكْرِ الله وما نزل من الحق واجب؟

قيل: نعم»(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٧٩)، وحسَّن إسناده الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/٢)، والمنذري في «الترغيب» (٣٥١/١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٦٩)، إلَّا أن ابن رجب أشار في «الذل والانكسار» (ص ٥٠-٥١) إلى إعلاله، ولم يجزم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨١/١٣)، والحاكم (٤٦٩/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨١/١)، وصحَّحه الحاكم، والذهبي.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٩/٧).

خامسًا: أن صلاة الظهر يُشرَع تأخيرها عن أول الوقت إلى حَدِّ الإبراد:

مع أن الصلاة في أول الوقت محبوبةٌ إلى الله ﷻ، وهو أفضل العمل؛ كما ثبَتَ عن النبي ﷺ[(١)]، ومع ذلك شرَعَ لنا النبي ﷺ الإبراد بالصلاة؛ وحِكْمةُ هذا التأخير: «أن الصلاة في شدَّة الحَرِّ تمنع صاحبها من الخشوع وحضور القلب والتأثُّر بها»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٦)؛ من حديث أم فَرْوة ﵂، والدارقطني في «سننه» (٩٦٧) من حديث ابن مسعود ﵁، وصحَّحه ابن خزيمة (٣٢٧)، والحاكم (١/١٨٨)، والألباني في «صحيح أبي داود» (٢/٣٠٥)، و«صحيح الجامع» (١٠٩٣)، إلّا أنه قد تُكُلِّمَ في صحَّتها. انظر: «نصب الراية» (١/٢٤١)، و«الفتح» (٢/١٣).

(٢) «الوابل الصيِّب» (ص ٢٧)؛ بتصرف يسير.

الخُشُوعِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

أولًا: الخشوع في القرآن الكريم:

تكرَّر ذكر الخشوع في كتاب الله ﷻ، وجاء في معان متعدِّدة، منها:

المعنى الأول: الذُّلُّ؛ قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]؛ أي: ذَلَّتْ، ويقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ [الحشر: ٢١]، أي: ذليلًا، وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]؛ أي: ذليلة.

المعنى الثاني: خضوع القلب وذله وسكونه وانكساره مع سكون الجوارح؛ قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

قال الحسن: «كان خشوعُهم في قلوبهم؛ فغَضُّوا بذلك البصر، وخفَضُوا به الجناح»(١).

وقال مجاهد: «السكون»(٢).

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنه: «إذا قاموا في الصلاة، أقبَلُوا على صلاتهم، وخفَضُوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعَلِمُوا أن الله يُقبِلُ عليهم؛ فلا يَلتَفِتون يمينًا ولا شمالًا»(٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/٨-٩).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٩)، وعبد الرزاق (٣٢٦٨)، والطبري في «تفسيره» (١٧/٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٢/٢٨٠).

(٣) أخرجه ابن مردويه؛ كما في «الدر المنثور» (١٠/٥٥٧- ٥٥٨).

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما في تفسيرها: «خائفون ساكنون»(١)، وبه قال طائفة من السلف؛ كقتادة(٢)، والزُّهْري(٣)، وإبراهيم النَّخعي(٤).

وقال سعيد بن جُبَيْر: «يعني: متواضعين، لا يَعرِفُ مَن عَن يمينه، ولا مَن عَن شِمَاله، ولا يَلتفِتُ مِن الخشوع لله ﷻ»(٥)؛ فهو ساكن الجوارح، مُنكسِرُ القلب، لا يرفع بصره(٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ومنه: خشوع البصر وخفضه وسكونه، ضد تقليبه في الجهات؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦ - ٨]، وقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤]... في هاتَيْن الآيتَيْن وصف أجسادهم بالحركة السريعة؛ حيث لم يصف بالخشوع إلّا أبصارَهم، بخلاف آية الصلاة؛ فإنه وصف بالخشوع جملة المصلّين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]... ومِن ذلك: خشوع الأصوات؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨]، وهو انخفاضُها وسكونُها»(٧).

ومما يدخل في هذا المعنى - وهو السكون - قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/١٠)، وابن المنذر، وعبد بن حميد؛ كما في «الدر المنثور» (١٠/٥٥٩).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٧/٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٥٥٣)، وابن جرير في «تفسيره» (١٧/٩).

(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٥/٤٠٨).

(٦) انظر هذه المعاني في: «مجموع الفتاوى» (٧/٢٨-٣٠)، (٢٢/٥٥٣ - ٥٥٧).

(٧) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٥٦-٥٥٧).

فقد جاء عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]؛ قال: «مِن القنوت: الركوع والخشوع، وغَضُّ البصر وخفض الجناح من رَهْبة الله، كان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة، يهاب الرحمن سبحانه وتعالى أن يَشُدّ نَظَره إلى شيء، أو يَلتفِت، أو يقلِّب الحصى، أو يَعبَث بشيء، أو يحدِّث نفسه بشيء من شأن الدنيا إلّا ناسيًا ما دام في صلاته»[١].

والمعنى الثالث: الخَوْف:

قال قتادة: «الخشوع في القلب: هو الخوف، وغَضُّ البصر في الصلاة»[٢].

قال الله ﷻ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ قال الحسَن: «هو الخوف الدائم في القلب»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ﴾ [الشورى: ٤٥].

قال عبد الرحمن بن زيد: «الخشوعُ: الخَوْفُ والخَشْية لله، وقرأ قول الله: ﴿خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ قال: قد أذلَّهم الخوف الذي نزَلَ بهم وخشَعُوا له»[٤].

«فهم ينظُرون إلى النار مِن طَرْفٍ خفي، متذلِّلين متضائلين مما دهاهم، يبتدئ نظَرُهم إلى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف؛ كالمصبور ينظر إلى السيف»[٥].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه عَبْد بن حُمَيْد، وابن المنذر؛ كما في «الدر المنثور» (١٠/٥٥٩)، وابن جرير في «تفسيره» (١٧/١٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١/٤١٤).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٦٨)، وروى أبو نعيم في «الحلية» (٧/٧٨) عن سفيان الثوري مثله.

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٠/٥٣٢).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٨/٧١-٧٢)؛ بتصرف.

والمعنى الرابع: التواضع:

وقد فُسِّرَ بذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وكذا قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ قال مجاهد: «الخشوع والتواضع»(١).

والمعنى الخامس: اليُبْسُ والجمود؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصِّلت: ٣٩]؛ يعني: هامدةً يابسةً لا نبات فيها(٢).

ثانيًا: الخشوع في السُّنَّة:

١ - عن عثمان بن عفَّان ﷺ؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً؛ وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ»(٣).

٢ - وعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ المُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ - كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الخَاشِعِ الرَّاكِعِ السَّاجِدِ»(٤).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٧٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٣٢٣/٢١)؛ وبه قال غير واحد. انظر: «تفسير ابن كثير» (٣٦١/٧)، و«تغليق التعليق» (٣١٣/٤-٣١٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٤٣٨/٢٠)، و«تفسير البغوي» (٣٦٧/٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٨).

(٤) أخرجه النسائي (٣١٢٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٢٠)، وأصل الحديث عند البخاري (٢٧٨٧)، دون قوله: «الخاشع الراكع الساجد». انظر للاستزادة: «السبيل الهاد إلى تخريج أحاديث الجهاد» للشيخ مساعد الحميد (٢٩، ٣٠، ٣٢١).

٣ - وعن علي بن أبي طالب ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي»(١).

وهذا الحديث يدلُّ على أن الخشوع ينتظِمُ جوارح العبد جميعًا، وأنه من الأعمال القلبيَّة التي تظهر على الجوارح وتؤثِّر فيها، وأن الخشوع في كل جارحة بحَسَبِها؛ فخشوع السمع غير خشوع البصر، والمُخّ، والعَظْم، وهكذا.

وتظهر ثَمَرة القول بالتلازُم في الأعمال القلبيَّة في مثل ذلك؛ ولذلك فإنه إذا كان خشوع الجارحة أثرًا من آثار خشوع القلب، كان ذلك أقوى من القول بأن الجارحةَ خشَعَتْ؛ لأن خشوع الجارحة مجرَّدًا يمكن أن يكون من خشوع النفاق، بخلاف ما لو اتصل خشوعها بخشوع القلب.

قال ابن الجَوْزي: «وإني لأعرف خَلْقًا يحضُرُون المجلس منذ سنين، ويبكون ويخشعون ولا يتغيَّر أحدهم عما قد اعتاده من المعامَلة في الربا، والغش في البيع، والجهل بأركان الصلاة، والغِيبَة للمسلمين، والعقوق للوالدَيْن، وهؤلاء قد لبَّس عليهم إبليس؛ فأراهم أن حضور المجلس والبكاء يدفع عنه ما يُلابِسُ من الذنوب»(٢).

٤ - وعن جابر بن عبد الله ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ بِجِبْرِيلَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالمَلَأِ الأَعْلَى، وَهُوَ كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﷻ»(٣).

٥ - وعن هشام بن إسحاق بن عبد الله بن كِنَانة، عن أبيه؛ قال: أرسَلَني أميرٌ من الأمراء إلى ابن عبَّاس أسأَلُهُ عن الصلاة في الاستسقاء، فقال ابن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «تلبيس إبليس» (ص ٤٤٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٢١)؛ ومن طريقه أبو القاسم الأصبهاني في «الحُجَّة» (٢٤٨). وقال فيه الهيثمي في «المجمع» (١/٧٨): «رجاله رجال الصحيح»، وصحَّحه السيوطي في «الخصائص» (١/١٥٨)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٩)، وفي الباب عن أنس ﷺ.

عبَّاس: ما منعه أن يسألني؟ قال: «خرَجَ رسولُ الله ﷺ: متواضِعًا متبذِّلًا متخشِّعًا مترسِّلًا متضرِّعًا، فصلى ركعتَيْن، كما يصلِّي في العيد، ولم يخطُبْ خُطْبَتَكُمْ هذه»(١).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٨، ٥٥٩)، والنسائي (١٥٢١)، وابن ماجه (١٢٦٦)؛ واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (١٤٠٥، ١٤١٩)، وابن حبان (٢٨٦٢)، والحاكم (١/٣٢٦ - ٣٢٧)، والنووي في «المجموع» (٥/٩٤)، والألباني في «الإرواء» (٦٦٥)، (٢/٩٥).

دَرَجَاتُ الخُشُوع

للخشوع ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التذلُّل لأمر الله ﷻ، مع الاستسلامِ لحُكْمه، والتواضُعِ لنظر الله تعالى له.

فالتذلُّل لأمر الله تبارك وتعالى: تَلَقِّيهِ بصدق العبودية من غير استنكاف، ولا نُفْرة، ولا تعالٍ عليه، وإنما يخضع العبد لأمر ربه ومولاه سبحانه، فيتقبَّل أمره، وينقاد له، ويتمثَّل لهذا التوجيه الرباني، مع موافقة باطنه لظاهره، وإظهار الضعف والافتقار لهداية الله ﷻ؛ فهو منقاد لأمر ربِّه بقلبه وجوارحه، متواضِع له سبحانه.

وأما الاستسلام لحكمِ الله ﷻ: فيشمل الحُكْمَ بنوعَيْه:

الحكم الشرعي: فلا يعترِضُ على شرائع الدين، وأحكام الله ﷻ الدينيَّة.

والحكم الكَوْني: فلا يعترِضُ على أحكام الله القدريَّة الكونيَّة.

فإذا نزَلَتْ به مصيبة أو بمن يُحِبُّ، تلقَّى ذلك بالصبر والرضا دون اعتراض بالتسخُّط؛ فهو لا يعارِضُ أمر الله الشرعي بشهوة ولا برأي، ولا يعارِضُ قدر الله بتسخُّط، أو تذمُّر.

وأما التواضُعُ لنظر الله ﷻ: فإنما يحصُلُ بدوام استشعاره مراقبة الله ﷻ له، فيَذِلُّ قَلْبُهُ، وتَنكَسِرُ نفسه، وتَخضَعُ جوارحه.

الدرجة الثانية: الرجوع إلى النفس باستشعار نَقْصِها وضعفها وعجزها، فيُورِثُه ذلك تواضعًا.

وأمَّا في نظره إلى الخلق، فإنه يرى فضائِلَهم ومحاسنهم.

فنظَرُهُ إلى النفس نَظَرُ انتقاص يزهِّده في مطالبة الخلق بحقِّه عليهم، فضلًا عن إكرامهم وإعظامهم له.

ثم إذا نظر إلى الناس، لم ير إلّا إفضالهم وإكرامهم، ومناقبهم ومحاسنهم؛ فيثني عليهم، ويشكُرُ معروفهم، ويَحفَظ صنائعهم، فلا تَضِيع ولا تُنسَى؛ وهذا لا شك أنه مِن أكمل المنازل، ومِن أحسن أحوال النفس.

الدرجة الثالثة: أن يصفِّي قلبه من النظر إلى المخلوقين؛ فلا يَلتفِت إليهم بعمله الصالح، ولا يَنشغِل بهم طلبًا لمدحهم، ورغبةً فيما عندهم، بل قد جعَلَ عمله كلَّه لله؛ فشغله ابتغاء مرضاته عن الانشغال بمن سواه[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٥٢٢ - ٥٢٤).

مَرَاتِبُ النّاسِ فِي الخُشُوع

فكما أن الخشوع يتفاوت في نفسه، فكذلك الناس يتفاوتون فيه؛ بحَسَب ما يقع في قلوبهم من معرفة الله ﷻ، ومعرفة صفات عظمته وجلاله، واستشعار مراقبته، وكذلك ما يكون في قلوبهم من معرفة النَّفْس ونقائصها وعيوبها، وكذلك بحَسَبِ فهمهم وتدبُّرهم لمعاني القرآن، فيتفاوَت الناس في ذلك تفاوُتًا كبيرًا، حتى يكون بين الرجل وصاحبه في الصلاة كالذي بين السماء والأرض؛ «هذا تُرفَعُ صلاته، تتوهَّج بالنور حتى تَخترِق السموات إلى عرش الرحمن ﷻ، وهذا تخرُجُ مُظْلِمةً لِظُلْمة قلبه، فتُغلَقُ أبواب السماء دونها، فتُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوب الخَلِق، فيُضرَبُ بها وجه صاحبها، وهذا يُكتَبُ له أضعافها وأضعاف مضاعفة، وهذا يخرُجُ منها وما كُتِبَ له إلّا نصفها إلّا ربعها إلّا ثمنها إلّا عشرها، وهذا يحضُرُها صورة ولم يُكتَبْ له منها شيء»(١).

فمن الناس: مَن يحقِّق هذا الخشوع؛ لقوَّة مطالعته لقرب الله ﷻ منه، واطلاعه على سِرِّه وضميره ومكنوناته؛ فيستحيي من الله، ويراقبه في حركاته وسكناته.

ومنهم: من يحقِّقه بمطالعته لكمال الله وجماله المقتضي الاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه.

وبعضهم: يخشع حين يستشعِرُ قوَّة الله ﷻ، وجبروته، وبطشه، وشدَّة أخذه، ونكاله بالظالمين المُجرِمين الخارجين عن حدوده وطاعته.

---

(١) «معارج القبول» (١٠١٦/٣).

والناس في هذا الباب ما بين ظالم لنفسه، أو مقتصِد، أو سابق بالخيرات بإذن الله[(١)]؛ لأن مراتب السالكين إلى الله ﷻ في العبوديَّة لا تخرُجُ عن هذه المراتب الثلاث؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالظالم لنفسه: هو المقصِّر في الواجبات، المرتكِب للمحظورات.

والمقتصِد: مَن اقتصَر على الأمر الواجب دون زيادة أو نقص، وترَكَ المحرَّم.

والسابق بالخَيْرات: من جاء بالواجب، وفارَق المحرَّم، مع مجانبته للمكروه، وفعله المستحبَّات.

فالخشوع: عمَلٌ من أعمال القلب التي تظهر على الوجه والجوارح، والناس يتفاوتون فيه على هذه المراتب؛ فالسابقون في هذا الباب: هم الأوَّلون، ثم يلي ذلك من هو مقتصِد، ثم يلي ذلك الظالم لنفسه، والظالم لنفسه متوعَّدٌ بالعقوبة.

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ بربه: «مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[(٢)]؛ فدَلَّ على أن تحقيق الخشوع وتحصيله من الواجبات في الحد الذي لا يرخَّص للمكلَّف في تركه والتقصير فيه.

وهكذا تتفاوَتُ أحوال العباد في صلاتهم من جهة الخشوع، وقد جعَلَهم ابن القيِّم على خمس مراتب[(٣)]:

الأولى: الظالم لنفسه المفرِّط، وهو الذي انتقَصَ من وضوئها ومواقيتها

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/٧ - ٣٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٢)؛ من حديث زيد بن أرقم ﷺ.
(٣) انظر: «الوابل الصيِّب» (ص ٤٩ - ٥١).

وحدودها وأركانها؛ ولا شك أن هذه الأمور تؤثِّر في خشوع العبد، بل إن الإمام يتأثَّر في خشوعه وإدراكه في صلاته بسبب إخلال بعض المأمومين بطهارتهم، أو في إقامة صلاتهم؛ كما جاء عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، عن النبي ﷺ؛ أنه صلَّى صلاة الصبح، فقرأ الرُّومَ، فالْتَبَسَ عليه، فلمَّا صلَّى، قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُصَلُّونَ مَعَنَا لَا يُحْسِنُونَ الطُّهُورَ؛ فَإِنَّمَا يُلَبِّسُ عَلَيْنَا الْقُرْآنَ أُولَئِكَ»(١).

قال ابن كَثِير، بعد أن ذكر الحديث: «وهذا إسناد حسن، ومتن حسن، وفيه سِرٌّ عجيب، ونبأ غريب، وهو أنه ﷺ تأثَّر بنقصان وضوء من ائتم به؛ فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلِّقة بصلاة الإمام»(٢).

الثانية: رجل يحافظ على المواقيت والأركان الظاهرة، ولكنه يضيِّع مجاهدة ما يَعرِضُ له من الوساوس والخواطر، فيسترسِلُ معها.

الثالثة: مَن حافَظَ على حدودها وأركانها، وجاهد نفسه بدفع الوساوس؛ فهو مشغول بين صلاة وجهاد، يحاول أن يستحضِر ويجاهِد؛ فهو مأجور على مجاهدته، ومأجور على صلاته؛ ولكنه لم يَعْتَلِ سَنَامَ المراتب.

الرابعة: وهذه فوق الثالثة؛ وهو مَن قام إليها، فأكمَلَ حقوقها وأركانها، واستغرق قلبه شأن الصلاة وعبوديَّة ربه فيها؛ فلا تشغله الوساوس، ولا ينشغل بمجاهدة النفس، وإنما شُغْلُه في تكميل صلاته، وهمه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي.

الخامسة: وهي أعلى المراتب، وأرفع درجات الخاشعين في الصلاة؛

---

(١) أخرجه النسائي (٩٤٧)، وحسَّنه ابن كثير في «تفسيره» (٣٢٩/٦)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (٤٣٢/١-٤٣٣)، وضعَّفه الألباني في «تمام المنة» (ص ١٨٠)، ثم تراجع إلى تحسينه في «أصل صفة الصلاة» (٤٤٠/٢)، و«صحيح سنن النسائي» (٣١٥/١). وفي الباب عن حذيفة ﷺ. انظر: «الضعيفة» (١٦٢٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٢٩/٦).

فهو مع تحقيق الشروط والواجبات والأركان، وحضور القلب، قد امتلأ قلبه محبَّةً لله، وإجلالًا له تعالى، يصلِّي وكأنه يَرَى ربه ﷻ؛ فتندفِعُ عنه تلك الوساوس والخطرات التي شغَلَتْ غيره، ولا تأتي إليه أصلًا؛ فهو مشغول بربه، قرير العين به.

فالأول: معاقَب، والثاني: محاسَب، والثالث: مكفَّرٌ عنه لمجاهَدته، والرابع: مُثَاب، والخامس: مقرَّبٌ إلى ربه في أعلى المنازل والدرجات.

* * *

أَنْوَاعُ الخُشُوع

للخشوع نوعان:

الأول: خشوع الإيمان: وهو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوَقَار والمهابة والحياء، فينكسِرُ القلب كَسْرةً مُلتئِمةً من الوَجَلِ والحبّ والحياء، وشهود نعم الله وجناياته هو؛ فيخشع القلب لا محالة، فيتبعه خشوع الجوارح.

والثاني: خشوع النفاق: وهو خشوع الظاهر دون مواطَأة الباطن؛ فيبدو على الجوارح تصنُّعًا وتكلُّفًا والقلب غير خاشع[(١)].

ومتى تكلَّف الإنسان تعاطِيَ الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه منه، فإنَّ ذلك يكون من قَبِيلِ خشوع النفاق، إلّا إذا أراد العبد بفعل ذلك تحقيق خشوع الإيمان، على ألَّا يكون ذلك بحضرة الناس، وإنما يفعله خاليًا.

وقد قال بعض السلف: «استعيذوا بالله مِن خشوع النفاق»، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ فقال: «أن ترى الجَسَدَ خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[(٢)].

وكان الفُضَيْل بن عِيَاض يقول: «كان يُكْرَهُ أن يُرِيَ الرجلُ من الخشوع أكثَرَ مما في قلبه»[(٣)].

---

(١) انظر: «الروح» (٢/٦٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٤٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦٥٦٧)، عن أبي الدرداء ﷺ، وقد جاء نحوه مرفوعًا من حديث أبي بكر الصديق ﷺ؛ أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٥٦٨)، والحكيم في «النوادر» (ص ٣١٧)، وقد ضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٩٤٢)، والألباني في «تحقيق الإيمان» لشيخ الإسلام (ص ٢٧).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٥٢١)؛ ولم أجده مسندًا.

وقد ذُكِرَ أن عمر بن الخطاب ﷺ رأى رجلًا طأطأ رَقَبَتَهُ في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرَّقَبة، ارفع رقَبَتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»(١).

ولما ذكر ابن القيِّم أنواع البكاء، قال: «والثامن: بكاءُ النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاس، فيُظهِرُ صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلبًا»(٢).

وقد رأى بعضهم رجلًا خاشع المَنْكِبَيْنِ والبدن، فقال: «يا فلان، الخشوع ها هنا»، وأشار إلى صدره، «لا ها هنا»، وأشار إلى مَنْكِبَيْه(٣).

وذُكِرَ أن عائشة ﷺ رأت أناسًا يتماوتون في مِشْيَتهم، فسألت عن هؤلاء، فقيل لها: نُسَّاكٌ؛ أي: عُبَّاد، فقالت: «كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا مشى أسرَع، وإذا قال أسمَع، وإذا ضرَبَ أوجَع، وإذا أطعَمَ أشبَع؛ كان هو الناسكَ حقًّا»(٤).

وعن محمد بن عُبَيْد الطَّنَافسي؛ قال: «سمعتُ سفيانَ - يعني: الثوري - يقول: يا معشَرَ القرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، لا تزيدوا التخشُّعَ على ما في القلب؛ فقد وضَحَ الطريق؛ فاتقوا الله، وأَجمِلوا في الطلب»(٥).

يقول ابن القيِّم: «فالخاشع لله: عَبْدٌ قد خمَدَتْ نيران شهوته، وسكَنَ دُخَانُها عن صدره؛ فانجلى الصدر، وأشرق فيه نور العظمة؛ فماتت شهوات

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٢١)، وروَى نحوه الدِّينَوري في «المجالسة» (١٦٩١، ٣١٩١).

(٢) «زاد المعاد» (١/١٧٨).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٥٢١).

(٤) «مدارج السالكين» (١/٥٢١)؛ ولم أجده عن عائشة ﷺ، وإنما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/٢٧٠)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٤/٢٨٨)، من كلام الشِّفاء بنت عبد الله. وفي إسناده الواقدي، قال عنه في اللسان (٧/٥٢١): «متروك مع سعة علمه».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٨٢).

النفس للخوف والوقار الذي خُشِيَ به، وخمَدَتِ الجوارح، وتوقَّر القلب، واطمأنَّ إلى الله وذِكْرِهِ بالسكينة التي نزَلَتْ عليه من ربه، فصار مخبِتًا له، والمخبِتُ: المطمئنُّ؛ فإن الخَبْتَ من الأرض: ما اطمأنَّ فاستنقَعَ فيه الماء؛ فكذلك القلب المُخبِت: قد خشع واطمأن كالبقعة المطمئنَّة من الأرض التي يجري إليها الماء فيستقِرُّ فيها، وعلامتُه: أن يسجُدَ بين يدي ربه إجلالًا وذلًّا وانكسارًا بين يديه سَجْدةً لا يرفع رأسه عنها حتى يلقاه.

وأما القلب المتكبِّر: فإنه قد اهتزَّ بتكبُّره وربَا، فهو كبُقْعة رابية من الأرض لا يستقر عليها الماء.

فهذا خشوع الإيمان.

وأما التماوُتُ وخشوع النفاق: فهو حالٌ عند تكلُّف إسكان الجوارح تصنُّعًا ومراءاةً، ونفسه في الباطن شابَّةٌ طَرِيَّة، ذاتُ شهوات وإرادات؛ فهو يَخشَعُ في الظاهر، وحيَّةُ الوادي وأسدُ الغابةِ رابِضٌ بين جنبَيْهِ ينتظِرُ الفريسة»[1].

* * *

١) «الروح» (٢/٦٩٤ - ٦٩٥).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ الخُشُوع

إليك بعضَ الوسائل الموصِّلة إلى الخشوع:

١ - استحضار نظر الله تعالى إليك:

في حَرَكاتك وسَكَناتك، في صلاتك وقراءتك، في قيامك وقعودك؛ فالخشوعُ لا يختصُّ بالصلاة، وإنما هو عبادة قلبيَّة يظهر أثرها على الجوارح في كل أحوال العبد؛ وإنما يفارِقُ الخشوع القلب إذا حصلت الغَفْلة عن استشعار نظر الله ﷻ ومراقبته.

قال ابن القيِّم: «الخشوع هو الاستسلام للحُكْمَيْنِ: الديني الشرعي: بعدم معارَضَته برأي أو شهوة، والقَدَرِيِّ: بعدم تَلَقِّيهِ بالتسخُّطِ والكراهِيَةِ والاعتراض، وهو الانقياد بالمَسْكَنة والذل لأمر الله وقضائه، والاتِّضَاعُ لنظر الحق، وهو اتِّضَاع القلب والجوارح وانكسارها لنظرِ الربِّ إليها، واطِّلاعِهِ على تفاصيل ما في القلب والجوارح، وخوفُ العبد الحاصل من هذا يُوجِب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشدَّ استحضارًا له، كان أشدَّ خشوعًا، وإنما يُفارِق الخشوع القلب إذا غفَلَ عن اطلاع الله عليه، ونظَرِه إليه»[(١)].

فهذا الذي أورَثَ قلوب القوم ما أورَثَها من خشية الله في السرِّ والعلن، بالليل والنهار، وعلى كل حال؛ فظهَرَ ذلك على جوارحهم، وقَسَمات وجوههم.

فعن عبد الله بن أبي سليمان؛ قال: كان علي بن الحسين زين العابدين إذا

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٢٢ - ٥٢٣)؛ بتصرف.

مشى لا تجاوِزُ يدُهُ فخذَيْه، ولا يَخطِرُ بيده، وكان إذا قام إلى الصلاة، أخذته رِعْدة، فقيل له: ما لك؟ فقال: «ما تدرون بين يَدَيْ مَن أقوم؟! ومَن أناجي؟!»(١)، وكان إذا توضَّأ للصلاة، اصفرَّ لونه من شدة الوَجَل، والحَيَاء، والخوف، واستشعار عظمة الله، والنظر إليه، فيُقدِمُ على صلاةٍ يُناجِي فيها ربه؛ فيظهر ذلك صُفْرةً في وجهه.

فعن عبد الرحمن بن حَفْص القُرَشي؛ قال: «كان علي بن حسين إذا توضَّأ، اصفرَّ، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك؟ فيقول: تدرون بين يَدَيْ مَن أريد أن أقوم؟!»(٢).

وكان خَلَف بن أيوب لا يطرُدُ الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر على ذلك؟ قال: «بلغني أن الفسَّاق يَصبِرُونَ تحت أسواط السلطان ليقال: فلان صبور، ويَفتخِرون بذلك، فأنا قائم بين يَدَيْ ربي؛ أفأتحرَّك لذبابة؟!»(٣).

٢ - ترقُّبُ آفات النَّفْس والعمل بالنَّقْد، ورؤيةُ فضل كل ذي فضل:

فارجِعْ إلى نفسك، وانظُرْ إلى عيوبها؛ فإن ذلك يُورِثُك انكسارًا، وأما الخَلْق، فلا تنظر إلى عيوبهم، بل انظر إلى محاسنهم، فيُورِثُك ذلك شعورًا بأنك أقلُّ من هؤلاء جميعًا، وأنك المقصِّر المذنب، المحتاج إلى عفو ربك ومسامحته، وإلى التشمير للتقرُّب إليه وطاعته(٤).

٣ - معرِفة الربِّ ﷻ معرِفةً صحيحةً تُورِثُ التعظيم:

فكلما كان العبد أعرَفَ بالله، كان له أخوَفَ وأشدَّ تعظيمًا؛ ولهذا قال الله

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٣/٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٧٨/٤١)؛ اللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٦٧).

(٣) «إحياء علوم الدين» (١٥١/١). وانظر: «إتحاف السادة المتقين» (٢٤/٣).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٥٢٣/١).

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَٰٓؤُا﴾ [فاطر: ٢٨]، فإذا عرَفَ العبدُ ربَّه بصفات كماله ونعوت جلاله، وعرَفَ نفسه بضَعْفها وعَجْزها وفَقْرها، انكسَرَ وتواضَعَ وخشَعَ لله رب العالمين(١).

قال ابن القيِّم: «الفقرُ فقران:

فَقْرٌ اضطراريّ؛ وهو فقر عام لا خروج لِبَرٍّ ولا فاجرٍ عنه؛ وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا، ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزِلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقرُ الثاني: فَقْرٌ اختياري، هو نتيجة عِلْمَيْنِ شريفَيْن:

أحدهما: معرفة العبد بربِّه.

والثاني: معرفته بنَفْسِه.

فمتى حصَلَتْ له هاتان المعرفتان، أنتجتا فقرًا هو عين غِنَاه، وعنوانُ فلاحه وسعادته. وتفاوُتُ الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتَيْن المعرفتَيْن؛ فمَن عرَفَ ربَّه بالغِنَى المطلق، عرَفَ نفسَهُ بالفقر المطلق، ومن عرَفَ ربه بالقدرة التَّامَّة، عرَفَ نفسه بالعجز التام، ومن عرَفَ ربه بالعِزِّ التام، عرَفَ نفسه بالمسكنة التامة»(٢).

فإذا حصَّل العبد هذا المقام، ونزَلَ بتلك المنزِلة، خضَعَ لله، وخشَعَ قلبه وجوارحه؛ سواءٌ كان في الصلاة أو كان خارجًا عنها، ولما كان القيام في الصلاة بين يَدَي الله أكمَلَ حال الخاشعين، جُعِلَت قُرَّةُ عينه فيها، فإذا تلبَّس بها، استكان لها، وإذا انصرَفَ عنها، اشتاق إليها.

٤ - أن يصلِّيَ صلاة رجل يظنُّ أنه لن يعود إليها أبدًا:

فإن ذلك أدعى أن يفرِّغ لها قلبه، وأن يستحضِرَ فيها عظمة ربه.

وقد جاء عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ؛

---

(١) انظر: «الخشوع في الصلاة» لابن رجب (٤٦-٤٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (١/١٣-١٤).

فقال: عِظْني وأَوْجِز، فقال: «إذا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ...»، الحديث[١].

وفي حديث أنس ﷺ مرفوعًا: «اذْكُرِ المَوْتَ فِي صَلَاتِكَ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ المَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنَّهُ يُصَلِّي صَلَاةً غَيْرَهَا...»، الحديث[٢].

وخطب علي بن أرطأة على منبر المدائن، فجعل يَعِظُ الناس حتى بَكَى وأَبْكَى، فقال: «كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه: يا بُنَيَّ، أُوصِيكَ لا تُصَلِّ صَلَاةً إلّا ظننتَ أنك لا تصلِّي بَعْدَها غيرها حتى تموت»[٣].

٥ - أن تستشعِرَ وتستحضِرَ أنك على الصراط فوق جهنَّم:

وكأنك تشاهد الجنة والنار أمام عينَيْك، وكأنك قمتَ بين يدي الله ﷻ في موقف الحساب؛ وكان بعض السلف إذا سَمِعُوا الأذان، تغيَّرت ألوانهم، وفاضت عيونهم، كانوا يَرَوْنَ أنه يذكِّرهم بالنداء يوم العرض الأكبر[٤]؛ كانوا يستشعرون هذه المعاني في كل شيء حولهم.

وهذا حاتم الأصم لما سُئِلَ عن صلاته، قال: «إذا حانت الصلاة، أسبَغْتُ الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعُدُ فيه حتى تجتمِعَ جوارحي، ثم أقوم إلى صلاتي، وأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي؛ أظنُّها آخر صلاتي»[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١)، وقد ضعَّفه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢٢٧/٤ ط. دار العربية)، ولكن له شواهد بها حسَّنه ابن حجر والسَّخاوي؛ كما في «المقاصد» (٢٧٥)، والألباني في «الصحيحة» (٤٠١).

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (١٧٥٥) - كما في «المقاصد» (٢٧٥) - وحسَّنه ابن حجر - كما في «المقاصد» (٢٧٥) - والألباني في «الصحيحة» (١٤٢١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٥).

(٤) انظر: «الرقة والبكاء» (١٤٠ - ١٤٧).

(٥) «الإحياء» (١٥١/١).

وقال أبو عبد الرحمن الأسدي: «قلت لسعيد بن عبد العزيز: يا أبا محمَّد، ما هذا البكاء الذي يَعرِضُ لك في الصلاة؟ فقال: يا ابن أخي، وما سؤالك عن ذلك؟ قلت: يا عم، لعل الله أن ينفعني، فقال سعيد: ما قمتُ في صلاتي إلّا مُثِّلَتْ لي جهنَّم»(١).

ومن استشعَرَ هذه المعاني في الصلاة، لم يتغيَّر حاله في النافلة عنه في الفريضة، ولا في السِّرِّيَّة عنه في الجهريَّة، ولكن قد تتفاوت درجات الخشوع بحسب حاله في كل صلاة.

وترى كثيرًا من الناس يتعجَّبون ممن يخشع في الصلاة السرية، وكيف لا يخشع وهو يقف بين يدي الله، ويستحضِرُ الجنة والنار، وأن الله يراه وينظُرُ إليه؟! ولكن الكثير من الناس لما قَسَتْ قلوبهم، ذهَبَتْ خشية الله منها، بينما لو قاموا لعظيم في الدنيا، قاموا خُشَّعًا صَامِتِينَ، ثم لا تراهم خاشعين لله رب العالمين.

قال مسلم بن يَسَار: «لو كنتَ بين [يَدَيْ] مَلِكٍ تطلُبُ حاجةً، لَسَرَّكَ أن تَخشَعَ له»(٢).

وقال ذو النُّون المِصْرِي: «لو رأيتَ أيها البَطَّالُ أحدهم وقد قام إلى صلاته وقراءته، فلما وقف في محرابه، واستفتح كلام سيده، خطَرَ على قلبه أن ذلك هو المقام الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين؛ فانخلَعَ قلبُه، وذهَلَ عقلُه»(٣).

وكان منصور بن صفيَّة - وهو منصور بن عبد الرحمن - يبكي في وقت كل صلاة؛ فكانوا يَرَوْنَ أنه يذكُرُ الموت والقيامة عند الصلوات(٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٧٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/٢٠٣).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٨١)؛ ومن طريقه أحمد في «الزهد» (ص٢٥١)، وابن أبي شيبة (٢/٢٦٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٤٠).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٤١).

٦ - أن تفرِّغَ قلبك للصلاة، وأن تُؤثِرَها على ما سواها:

قال ابن كَثير: «والخشوع في الصلاة إنما يحصُلُ بمن فرَّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها؛ وحينئذ تكون راحة له وقرة عَيْن؛ كما قال النبي ﷺ في الحديث الذي جاء عن أنس ﷺ، عن رسول ﷺ؛ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ الطِّيبُ والنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»[(١)]».

وكان ابن المنكَدِر يقول: «إني لأدخُلُ في الليل فيَهُولُني، فأُصبِحُ حين أصبح وما قضَيْتُ منه أَرَبِي»[(٢)]؛ أي: إذا أقبل الليل، ودخلْتُ فيه، وبادرت إلى الصلاة، وخلوت بربي؛ فإذا بالليل قد انقضى، وتصرَّمت ساعاته، ولم أشعُرْ بذلك، ولم يحصُلْ ما كنت أؤمِّله من طول المناجاة، فهي قصيرة في نظره؛ لشدة شَغَفه وتعلُّقه بذلك!

وقيل لعامر بن عبد القيس: أتحدِّثُ نَفْسَكَ بشيء في الصلاة؟ فقال: «أوَشَيْءٌ أحبُّ إليَّ من الصلاة أحدِّث به نفسي؟!»، قالوا: إنَّا لَنُحَدِّث أنفسنا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٦١/٥).

والحديث أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، و(٣٩٤٠)، بتقديم النِّسَاء على الطِّيب، وقد ضعَّفه العقيلي في «الضعفاء» (٥٣١/٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣٠٣/٣)، والدارقطني في «أطراف الأفراد» (٦٧٩)، وقد نقل ذلك عنه الضياء (١٧٣٧)، وقد صحَّحه جمع من أهل العلم؛ كالحاكم(١٦٠/٢)، والضياء، والذهبي في «الميزان» (١٧٧/٢)، وابن القيِّم في «زاد المعاد» (١٤٥/١)، و«الجواب الكافي» (٣٦٦)، والحافظ ابن حجر في «التلخيص» (١١٦/٣)، و«الفتح» (٣٥٣/١١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٢٩١)، وغيرهم.

وانظر: «تخريج الكشاف» للزيلعي (٢٠٦)، و«المقاصد» (٣٨٠)، والله أعلم.

تنبيه: ورد هذا الحديث في بعض التفاسير بلفظ: «حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكم ثلاث...»؛ ولكنْ لا يُعلَمُ له أصلٌ؛ كما ذكر ذلك ابن القيِّم في «الجواب الكافي» (ص٣٦٦)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٤٣١/٨)، وابن حجر في «التلخيص» (١١٦/٣)، والسخاوي في «المقاصد» (٣٨٠)، والمُناوي في «الفتح السماوي» (٢٧٥)، و«فيض القدير» (٣٧٠/٣)، والقاري في «المصنوع، في معرفة الحديث الموضوع» (١٠٦)، والزرقاني في «مختصر المقاصد» (٣٥٥)، والشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص١٢٥).

(٢) تقدم تخريجه.

في الصلاة! فقال: أبالجنة والحُور؟ قالوا: لا، بأهلينا وأموالِنا، فقال: «لَأَنْ تختلِفَ الأَسِنَّةُ فيَّ أحبُّ إليَّ من أن يكون هذا مِنِّي في صَلَاتِي»[1].

وقيل له: أما تسهو في صلاتك؟ قال: «أَوَحَدِيثٌ أحبُّ إليَّ مِن القرآن حتى أشغل به؟! هيهات، مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس»[2].

فينبغي على الواحد منا إذا أراد أن يدخُلَ في الصلاة أن يفرِّغ نفسه من شواغلها حتى يُحسِنَ مناجاةَ ربِّه؛ فكما أنه لا ينبغي أن يكون في مصلَّاه ما يشغل بصره، فكذا لا ينبغي أن يكون في نفسه ما يشغل قلبه.

ولما كَثُرَتْ شواغل الدنيا، وانصرَفَ كثير من الناس عن الاهتمام بأمر الآخرة، صار كثير منهم ينشغلون في صلاتهم بما أهمَّهم خارِجَها، حتى ذهب خشوع القلب وتذلُّلُهُ وهو بين يدي ربه، وإن الرجل ليقوم في صلاته وهو يعلم أن الله ينظر إليه، فما يمنعه ذلك من التفكُّر بما يشغله من أمر دنياه، ولو كان حقيرًا تافهًا، ولو كان محرَّمًا.

يقول الحسن: «إذا قُمْتَ إلى الصلاة، فقُمْ قانتًا كما أمرك الله، وإيَّاك والسهوَ والالتفات؛ أن ينظُرَ الله إليك وتنظُرَ إلى غيره، تسألُ الله الجنة وتعوذُ به من النار، وقلبك ساهٍ، ولا تدري ما تقول بلسانك؟!»[3].

٧ - تدبُّر القُرْآن:

فإن تدبُّر القرآن يفتح مغاليق القلوب، ويُشغِل النفس بأخباره وقصصه ومَوَاعِظِه، وأوامره ونواهيه؛ فتدمع العين، ويَرِقُّ القلب ويخشع، ويتذلَّل العبد بين يَدَيْ ربه منكسِرًا خائفًا وَجِلًا، فإذا مَرَّتْ به آيات الرحمة، سأل ربه

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٦٠٥)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٩٢)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/٢٣) مختصرًا.

(٢) «المُدْهِش» (ص٤٧٢).

(٣) أخرجه محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤٠).

من فضله، وإذا مَرَّتْ آيات العذاب، استعاذ بالله من عذابه؛ فهو في صلاته بين خوف ورجاء؛ يذهب به الخوف كل مَذْهَب، حتى لَيُوشِكُ قلبه أن يتفطَّر، ثم يسكُنُ برجائه عند حسن ظنّه بربه، وموفور الثقة به، وتمام التوكُّل عليه.

هنالك تنفتح مغاليق تلك القلوب، وتستهدي بهدي الله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وقد قيل: «الخشوع في الصلاة: هو جمعُ الهِمَّة، والإعراضُ عما سواها، والتدبُّر فيما يجري على لسانه من القرآن والذِّكْر»[(١)].

ومعلوم أن التدبُّر لا يقع إلّا إذا عُرِفَ المعنى.

يقول ابن جرير الطبري: «عَجِبْتُ لمن يقرأ القرآن ولا يَعرِفُ معانيه؛ كيف يَلتَذُّ بقراءته؟!»[(٢)].

فمعرفة معاني القرآن طريق للتدبُّر، والتدبُّرُ طريق للفهم والاتعاظ والاعتبار والخشوع؛ لذلك كان السلف ﷺ يقوم الواحد منهم بآيةٍ واحدة، يردِّدها إلى الفجر، مع الخشوع والبكاء[(٣)].

وكان مالك بن دِينار يقرأ قول الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ثم يقول: «أُقسِمُ لكم لا يُؤمِن عبدٌ بهذا القرآن إلّا صُدِعَ قلبه»[(٤)].

وقال أبو عمران الجَوْني: «والله، لقد صرَّف إلينا ربُّنا ﷻ في هذا القرآن ما لو صُرِّفَ إلى الجبال، لَحَتَّها وحَناها»[(٥)].

---

(١) «تفسير البغوي» (١٦١/٤).

(٢) «معجم الأدباء» (٢٤٥٣/٦)؛ بتصرف.

(٣) انظر: «الزهد» لأحمد بن حنبل (١٨٢)، و«الرقة البكاء» (٤٢٦ - ٤٢٨)، و«التهجد وقيام الليل» (٤٨ - ٥٤).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٧٨/٢).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣١١/٢).

ويقول الحسن: «يا ابن آدم، إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة، أو حَدَّثْتَ بها نفسَك، فاذكُرْ عند ذلك ما حمَّلك الله من كتابه مما لو حمَلَتْهُ الجبال الرواسي، لَخَشَعَتْ وتصدَّعت؛ أَمَا سمعتَهُ يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؟!»[١].

وقد وصف النبي ﷺ الخوارج الذين هم كِلَاب النار[٢]؛ بأنهم: «يَقْرَؤُونَ القُرْآن لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»[٣]، وقد كانوا من أكثر الناس قراءةً لكتاب الله، حتى إنه كان يُسمَعُ لهم في بيوتهم دَوِيٌّ كدَوِيِّ النَّحْلِ من قراءة القرآن، ولكنَّهم ما انتفَعُوا به، وكانت جباههم قَرِحةً من السجود، وأيديهم كأنها ثَفِنُ الإبل[٤]، عليهم قُمُصٌ مُرحَّضة[٥]، مُشَمِّرِينَ مُسْهَمَةً وجوهُهم[٦] من السَّهَر، قد خشَعَتْ أبدانهم، ولم تَخشَعْ قلوبهم؛ ولذلك لما جاءهم ابن عبَّاس يكلِّمهم قبل النَّهْرَوان، قال لهم: «جئتُ أحدِّثكم؛ على أصحاب رسول الله ﷺ نزَلَ الوحي، وهم أعلم بتأويله»[٧].

فكان خشوعهم كخشوع النفاق؛ ترى البدن خاشعًا والقلب ليس بخاشع؛ والسبب: أنهم يقرؤون القرآن ولا يُجاوِزُ تراقيهم.

---

(١) «الذل والانكسار» (ص٥٨).

(٢) قد جاء في وَصْفِهم بأنهم كلاب النار حديثٌ، أخرجه الترمذي (٣٠٠٠)، وابن ماجه (١٧٦)؛ من حديث أبي أُمَامة ﷺ، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم (٢/١٤٩-١٥٠)، والألباني في «صحيح الترمذي» (٣٠٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤)؛ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) أي: رُكَبها الغَلِيظة. والمراد: غِلَظ جلود أكُفِّهم لطول السجود.

(٥) أي: مغسولة.

(٦) أي: مُتغيرة ألوانها.

(٧) أخرجه عبد الرزَّاق (١٨٦٧٨)؛ ومن طريقه الطبراني (١٠٥٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٣١٨)؛ واللفظ له. والحاكم (٢/١٥٠ - ١٥١)، وصحَّحه على شرط مسلم؛ قال الهيثمي في «المجمع» (٦/٢٤١): «أخرجه الطبراني، وأحمد ببعضه، ورجالهما رجال الصحيح»، وصحَّح إسناده ابن تيميَّة في «منهاج السنة» (٨/٥٣٠).

٨ - تَرْكُ التكلُّف في كل الشؤون:

فالأفضل للمرء أن يصلِّي في مكان لا يتكلَّف لأحدٍ فيه، ولِينشغِلَ بمن يناجيه؛ فهو أقرب إليه، مطَّلِع عليه؛ فلا يكن أهون الناظرين إليه.

ولذلك من الأشياء التي تُذهِبُ الخشوع على الإمام والمأمومين: التكلُّف في الدعاء، فحينما يتكلَّف الإنسان في الدعاء على غير سجيَّته المعهودة فيه، يكون ذلك مدعاة لِذَهَابِ الخشوع من قلبه.

قال شيخ الإسلام: «وأمَّا مَن دَعَا الله مخلِصًا له الدِّينَ بدعاء جائز، سَمِعَهُ الله وأجاب دعاءه؛ سواءٌ كان مُعرَبًا أو ملحونًا، بل ينبغي للداعي إذا لم تكنْ عادته الإعرابَ: ألَّا يتكلَّف الإعراب، وقد قال بعض السلف: إذا جاء الإعراب، ذهَبَ الخشوع، فإذا وقَعَ بغير تكلُّف، فلا بأس به؛ فإن أصل الدعاء من القلب، واللسان تابع للقلب، ومن جعَلَ هِمَّته في الدعاء تقويم لسانه، أضعَفَ توجُّهَ قلبه؛ ولهذا يدعو المضطر بقلبه دعاءً يُفتَحُ عليه لا يحضُرُه قبل ذلك؛ وهذا أمر يجدُهُ كل مؤمن في قلبه.

والدعاء يجوز بالعربيَّة وبغير العربيَّة، والله سبحانه يعلم قصد الداعي ومراده وإنْ لم يقوِّم لسانه؛ فإنه يعلم ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تنوُّع الحاجات»(١).

وكذا الموعظة؛ فإنه إذا كان هَمُّ الواعظ توقِّيَ اللَّحْن - سواءٌ في الموعظة، أو الخطبة، أو المحاضرة - فإن ذلك يؤثِّر في وَقْعِها على القلوب؛ فقد يكون الكلام مؤثِّرًا في ذاته، ولكنْ لما كانت هِمَّةُ الخطيب في إصلاح لسانه وتقويمه مخافة اللحن، قَلَّ تأثير كلامه في الحاضِرين، وإنك لترى الناس يتأثَّرون كثيرًا ببعض المواعظ والخطب، ويَبكُونَ عند سماعها بأنفُس خاشعة، وقلوب ضارعة، وهي عند البلغاء ركيكة مُستهجَنة، تَمُجُّها

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٤٨٨ - ٤٨٩)؛ باختصار وتصرُّف.

أسماعُهم، وتنبو عنها قلوبُهم، قد جعَلَ صاحبُها الفاعلَ مفعولًا، والمفعولَ فاعلًا، ومع ذلك استقرَّت في قلوب الآخرين! فمَن كانت عنايته في إصلاح مَنطِقِهِ ولسانه، وتتبُّعِ وَحْشِيِّ اللغة وغريبها، كان هذا حظَّه منها، ومَن تكلَّم بغير كُلْفة، وهو على هُدًى مُخلِصًا، كان حظُّه منها مثل حظوظ المخلِصين.

والجزاء من جنس العمل؛ فمَن كان كلامه مِن لسانه، كان سمع الناس له بآذانهم، ومَن كان كلامه مِن قلبه، كان سمع الناس له بقلوبهم؛ وكأن القلوب يُلاحِظُ بعضها بعضًا، ويتأثَّر بعضها ببعض، وكما قيل: «ليست النائحة المستأجَرة كالنائحة الثَّكْلَى».

فعن سعيد بن عاصم؛ قال: «كان قاصٌّ يجلس قريبًا من مسجد محمد بن واسع، فقال يومًا وهو يوبِّخُ جلساءه: ما لي أرى القلوب لا تخشع، وأرى العيون لا تدمع، وما لي أرى الجلود لا تقشعِرّ؟! فقال محمد بن واسع: يا عبد الله، ما أرى القوم أُتوا إلَّا[١] مِن قِبَلِك؛ إنَّ الذِّكْر إذا خرج من القلب، وقع على القلب»[٢].

والتكلُّف يُفسِد الأعمال القلبية ببَهْرَجَته؛ فإنه لا يصلُحُ معها إلّا الإخلاص والصدق.

❊ ❊ ❊

---

(١) في «الحلية»: «إنّما»؛ وهو تحريف، والتصويب من «تحذير الخواصّ، من أكاذيب القصّاص» للسيوطي (ص١٨٦)، و«الأسرار المرفوعة» للقاري (ص٦٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٥١).

ثَمَرَاتُ الخُشُوع

للخشوع فوائد كثيرة، منها:

أولًا: طَرْد الشيطان، والقضاء على هواجس النَّفْس:

فالخَطَرات والوساوس التي تَعرِضُ للعبد من هواجس النَّفْس ووساوس الشيطان تشغل قلبه، والخشوع خضوع القلب بكليَّته؛ فصاحب القلب الخاشع لا يجد الشيطان طريقًا إليه؛ ولذلك قال بعض أهل العلم: «من خشَعَ قلبه، لم يقرُبْ منه الشيطان»[١].

ثانيًا: الرِّفْعة وعلوُّ المنزِلة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»[٢].

قال النووي: «فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبِّت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويُجِلُّ مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة، ورفعُهُ فيها بتواضُعه في الدنيا.

وقد يكون المراد الوجهَيْنِ معًا في الدنيا والآخرة»[٣].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٦/١٤٢)؛ باختصار.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَن تطاوَلَ تعظُّمًا، خفَضَهُ الله ﷻ، ومَن تواضَعَ لله تخشُّعًا، رفَعَهُ الله ﷻ»(١).

ثالثًا: حصول الفلاح:

قال الله ﷻ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون ١-٢]؛ فوصفهم بالفلاح المحقَّق، وجعَلَ أوَّل أوصافهم التي نالوا بها الفلاح: خشوعَهُمْ في صلاتهم. والفلاح: تحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب؛ قال رجل للحسن: أوصني، قال: «رَطِّبْ لسانَكَ بذِكْرِ الله، ونَدِّ جفونَكَ بالدموع من خشية الله؛ فقَلَّ مَن طَلَبْتَ لديه خيرًا، فلم تُدرِكْه»(٢).

فمَن كان بهذه المثابة، حصل له مطلوبه من ربِّه؛ فأكرمه وقرَّبه.

رابعًا: أنه يُورِثُ صاحبه محاسن الأخلاق:

قال ابن القيم: «أصلُ الأخلاقِ المحمودةِ كلِّها: الخشوعُ وعلوُّ الهمَّة، وأصل الأخلاق المذمومة كلِّها: الكِبْرُ، والمهانة والدناءة؛ فالفخرُ والبَطَر والأَشَر، والعُجْب والحسد، والبغي والخُيَلاء، والظلم والقسوة، والتجبُّر والإعراض وإباءُ قبول النصيحة، والاستئثار وطَلَب العلوّ، وحبُّ الجاه والرياسة، وأن يُحمَدَ بما لم يفعل، وأمثال ذلك؛ كلُّها ناشئة من الكِبْر.

وأمَّا الكذب والخِسَّة والخيانة، والرياء والمكر والخديعة، والطمع والفَزَع، والجبن والبخل، والعجز والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك؛ [فكلُّها] من المهانة والدناءة وصِغَر النَّفْس.

وأمَّا الأخلاق الفاضلة؛ كالصبر والشجاعة، والعدل والمروءة، والعِفَّة

(١) أخرجه وكيع (٢١٦)، وأحمد (١٥٦)؛ كلاهما في «الزهد»؛ واللفظ لأحمد، والطبراني في «الكبير» (٨٥١٢) مختصرًا.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٩).

والصيانة، والجُود والحلم، والعفو والصفح، والاحتمال والإيثار، وعزَّة النفس عن الدناءات، والتواضع والقناعة، والصدق والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زَلَّات الناس، وترك الانشغال بما لا يعنيه، وسَلَامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة، ونحو ذلك؛ فكلُّها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمَّة.

والله سبحانه أخبَرَ عن الأرض بأنها تكون خاشعة، ثم يُنزِلُ عليها الماء، فتهتزُّ وتربو، وتأخذ زينتها وبهجتها، فكذلك المخلوق منها: إذا أصاب حظَّه من التوفيق... فمَن عَلَتْ هِمَّتُه، وخشَعَتْ نَفْسُه، اتصف بكل خُلُقٍ جميل، ومَن دَنَتْ هِمَّتُه، وطغَتْ نَفْسُه، اتصف بكل خُلُقٍ رَذِيل»[1].

خامسًا: أنه يَرُدُّ العبد إلى حكم العبوديَّة:

والكِبْرُ يرفعه عن هذا المقام؛ ولذا كان الكِبْر لا يناسِبُ عبوديَّة القلب؛ فالكبرياء لله ﷻ؛ أمَّا المخلوق: فكماله في الخشوع والتواضُع والإخبات؛ فالعبد لو تُرِكَ لنَفْسِه، دعَتْهُ صفاته القبيحة الذميمة إلى التعالي على الخَلْقِ، والأَشَرِ والبَطَر، والخروجِ عن طَوْره، والتنكُّر لأصله، فيَثِبُ على حق ربه من الكبرياء والعظمة، فينازع ربه ذلك.

وقد أُمِرَ العبد بالسجود - كما قال ابن القيِّم -: «خضوعًا لعظمة ربه، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له؛ فيكون هذا الخشوع والخضوع والتذلُّل ردًّا له إلى حكم العبوديَّة، ويتدارك ما حصل له من الهفوة والغفلة والإعراض الذي خرَجَ به عن أصله، فتمثَّل له حقيقة التراب الذي خُلِقَ منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه؛ وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يَدَيْ ربه الأعلى، وخشوعًا له، وتذلُّلًا لعظمته، واستكانة لعزَّته.

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٠٩ - ٢١٠).

وهذا غاية خشوع الظاهر؛ فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذلَّلة للوَطْءِ بالأقدام، واستعمله فيها، وردَّه إليها، ووعَدَهُ بالإخراج منها، فهي أمُّه وأبوه، وأصلُهُ وفصلُه، فضمَّته حيًّا على ظهرها، وميِّتًا في بطنها، وجُعِلَتْ له طُهْرًا ومسجدًا، فأُمِرَ بالسجود؛ إذْ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبوديَّة لسائر الأعضاء، فيعفِّرُ وجهه في التراب؛ استكانةً وتواضعًا وخضوعًا وإلقاء باليدَيْن.

وقال مسروق لسعيد بن جُبَيْر: «ما بَقِيَ شيءٌ يُرغَبُ فيه إلّا أن نعفِّرَ وجوهَنا في التراب له»[1]، وكان النبي ﷺ لا يتقي الأرض بوَجْهِه قصدًا[2]، بل إذا اتفق له ذلك، فعَلَهُ؛ ولذلك سجد في الماء والطين[3]»[4].

سادسًا: ما يحصُلُ به مِن تفاضُلِ الأعمال وتفاوُتِها:

قال حسَّان بن عطيَّة: «إن الرجلَيْنِ ليكونان في صلاة واحدة، وإنَّ بينهما في الفضل لكما بين السماء والأرض»[5].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فإذا قيل إنَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] يَعدِل ثوابُها ثواب ثلث القرآن؛ فلا بد من اعتبار التماثُل في سائر الصفات؛ وإلا فإذا اعتُبِرَ قراءة غيرها، مع التدبُّر والخشوع بقراءتها، مع الغفلة والجهل، لم يكن الأمر كذلك، بل قد يكون قول العبد: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»، مع حضور القلب واتصافه بمعانيها

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٤٩)، وهناد في «الزهد» (٥٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٣)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢/٥٧)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (١٣٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٩)، ومسلم (١١٦٧)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) «كتاب الصلاة» لابن القيِّم (ص٣٦٣-٣٦٤).

(٥) تقدم تخريجه.

أفضلَ مِن قراءة هذه السورة مع الجهل والغفلة، والناس متفاضِلون في فهم هذه السورة وما اشتمَلَتْ عليه؛ كما أنهم متفاضِلون في فهم سائر القرآن»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/١٤٠).

الأُمُورُ المُنَافِيَةِ لِلْخُشُوعِ

للخشوع معوِّقات، ينبغي تجنُّبها؛ فمن ذلك:

أولًا: كثرة الحَرَكة:

فإنها تنافي السكينةَ والوَقَار، وخاصَّةً في الصلاة، وقلةُ الحركة تُنبِئُ عن تُؤَدَةٍ وخشوع، والله ﷻ يقول: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، والمراد به: أن يكون العبد ساكنًا مع طول القيام فيها، لا يَلتفِت، ولا يرفع بصره، ولا يتحرَّك، ولا ينشغل بشيء من جوارحه عما هو بصدده؛ لأن الخشوع يتضمَّن السكينة والتواضع جميعًا؛ ولهذا نُقِلَ عن سعيد بن المسيِّب: أنه رأى رجلًا يعبث بلِحْيته، فقال: «لو خشَعَ قلبُ هذا، لخشَعَتْ جوارحه»(١)؛ أي: لَسَكَنَتْ وخضَعَتْ.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]؛ فأخبر أنها بعد الخشوع تهتَزُّ، وتربو، والاهتزاز حركة، والربو: الارتفاع؛ فعُلِمَ أن الخشوع فيه سكون وانخفاض؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقول في حال ركوعه: «اللَّهُمَّ، لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٨٨)، وعبد الرزاق (٢٣٠٨)، والإمام أحمد في «مسائل صالح» (٧٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٨٦)؛ واللفظ له، ورُوِيَ مرفوعًا؛ أخرجه الحكيم في «النوادر» (ص ١٨٤) عن أبي هريرة ﷺ، ولا يثبُتُ؛ إذْ ضعَّفه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/١٠٥)، وحكم الألباني بوضعه في «الضعيفة» (١١٠)، و«الإرواء» (١٠٧٣).

أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي»(١)؛ فوصف نفسه بالخشوع في حال الركوع؛ لأن الراكع ساكنٌ متواضِع(٢).

ثانيًا: رفع البَصَر في الصلاة:

وهو منهيٌّ عنه؛ لأنه ينافي الخشوع المأمور به؛ فخشوع القلب يستلزِمُ خشوع البصر وذُلَّه، وذلك ينافي رفعه، والله ﷻ قد ذكر خشوع أهل الموقف؛ فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر: ٦ - ٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٣- ٤٤]، وقال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ أي: أنهم لا يحرِّكون أبصارَهُم يَمْنةً ويَسْرةً، وينظرون إلى أعلى، ولا يحرِّكون جوارحهم، وإنما ينظُرُونَ من طَرْفٍ خَفِيّ، يُسارِقون فيه النظر مسارَقةً(٣).

وعن العَوَّامِ بن حَوْشَب؛ قال: «ما رأيت رجلًا قَطُّ خَيْرًا من إبراهيم التيمي، وما رأيته رافعًا بصَرَهُ إلى السماء؛ لا في صلاة ولا في غيرها»(٤).

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «القواعد النورانيَّة» (ص ٨٢ - ٨٣).

(٣) انظر: «درء التعارض» (٢٤/٧)، و«مجموع الفتاوى» (٥٧٨/٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢١٣/٤).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ الخُشُوع

لما كان البكاء مِن خشية الله آيةَ الخشوعِ وأثرًا من آثاره، فإنا نذكُرُ بعض أخبارهم التي يُتعرَّفُ بها على أحوالهم، وهم قيام خاشعون بين يَدَيْ ربِّهم، تَسَّاقَطُ دموعهم في محاريبهم.

١ - فأولهم: سيِّدُهم وإمامُهم نبيُّهم ﷺ؛ فعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه؛ قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يصلِّي وفي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كأَزِيزِ الرَّحَى مِن البُكَاءِ»(١).

٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قلتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وعَلَيْكَ أُنزِلَ؟! قال: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأتُ عليه سورةَ النساء حتى بلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «أَمْسِكْ»؛ فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ(٢).

٣- وهذا أبو بكر رضي الله عنه، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: لما مَرِضَ النبيُّ ﷺ مرَضَهُ الذي مات فيه، أتاه بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصلاة، فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ»، قلتُ: إنَّ أبا بكرٍ رجُلٌ أَسِيفٌ، إنْ يَقُمْ مَقَامَكَ يَبْكِي، فلا يَقْدِرُ على القراءة(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٠٤)؛ واللفظ له، والنسائي (١٢١٤)، وصحَّحه ابن خزيمة (٩٠٠)، وابن حبان (٦٦٥، ٧٥٣)، والحاكم (١/٢٦٤)، والنووي في «الخلاصة» (١/٤٩٧)، والذهبي، وابن رجب في «فتح الباري» (٢/٢٠٦)، وابن حجر في «فتح الباري» (٢/٢٤٢)، والألباني في «مختصر الشمائل» (٢٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٥٠)؛ واللفظ له، ومسلم (٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٢)؛ واللفظ له، ومسلم (٤١٨).

٤ - وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامِنَا وبينَ أنْ عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، إلَّا أربعُ سِنِينَ»[١]؛ وأنت! كم مضى عليك وأنت تَسمَعُ القرآن، وتَشهَدُ مع الناس الصلاة، وقلبك لا يتحرَّك؟!

٥ - وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى حتى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ البكاءُ، ويقول: «بلى يا رَبِّ»[٢].

٦ - وحكى علي بن المحسِّن التَّنُوخي، عن أبيه: «أن جعفر بن حرب كان يتقلَّد كبار الأعمال للسلطان، وكانت نعمته تُقارِبُ نعمة الوزارة، فاجتاز يومًا راكبًا في موكب له عظيم، ونعمته على غاية الوفور، ومنزلته بحالها في الجلالة، فسَمِعَ رجلًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فصاح: اللَّهُمَّ بَلَى، يكرِّرُها دفعات، وبكى، ثم نزَلَ عن دابَّتِهِ، ونزَعَ ثيابه، ودخَلَ إلى دِجْلة، واستتَرَ بالماء، ولم يخرُجْ منه حتَّى فرَّق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه وردَّها، وتصدَّق بالباقي، ثم انقطَعَ إلى العلم والعبادة حتى مات»[٣].

٧ - وكان ابن المبارَك إذا قَرَأَ كتاب الرَّقائِقِ، كأنه بَقَرةٌ منحورة من البكاء[٤].

٨ - وجاء ناس إلى الفُضَيْل بن عِيَاض، واستأذنوا عليه عند بابه، فلم

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٧٧)؛ وإسناده جيد.

(٣) ذكرها المحسِّن التنوخي في كتابه «نِشْوار المحاضرة، وأخبار المذاكرة» (١/٢٢٣-٢٢٤)؛ وهي في «صفة الصفوة» (٢/٤٦٩)، و«المنتظم» (١٤/١٢٧ط. دار الكتب العلمية)، و«البداية والنهاية» (١٥/٢٤٣)؛ بتصرف.

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٦٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/٤٣٦).

يُؤذَنْ لهم، فقال قائل: إنه لا يخرُجُ إليكم إلّا إذا سَمِعَ القرآن، فكان معهم رجل مؤذِّنٌ حسَنُ الصوت، فقالوا له: اقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] فقرأ، ورفَعَ بها صوته، فأشرَفَ عليهم الفُضَيْل، وقد بكى حتى بَلَّ لحيته بالدموع، ومعه خِرْقةٌ ينشِّفُ بها الدموع من عينَيْهِ، ويقول:

بَلَغْتُ الثَّمَانِينَ أَوْ جُزْتُهَا   فَمَاذَا أُؤَمِّلُ أَوْ أَنْتَظِرْ؟!
أَتَى لِي ثَمَانُونَ مِنْ مَوْلِدِي   فَبَعْدَ الثَّمَانِينَ مَا يُنْتَظَرْ؟!
عَلَتْنِي السُّنُونَ فَأَبْلَيْنَنِي   ....

ثم انقطع وخنقته العَبْرة، وكان معهم علي بن خَشْرَم، فأتمَّه لهم:

عَلَتْنِي السُّنُونَ فَأَبْلَيْنَنِي   فَدَقَّتْ عِظَامِي وَكَلَّ الْبَصَرْ

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦][(١)].

٩ - يقول الحسن البصري: «إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله، صدَّقوا بها، وأفضى يقينها إلى قلوبهم، وخشَعَتْ لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم، وكُنْتُ واللهِ إذا رأيتُهُمْ، رأيتُ قومًا كأنهم رأي عين - يعني: للجنة والنار - فوالله، ما كانوا بأهل جدَل ولا باطل، ولا اطمأنُّوا إلّا إلى كتاب الله، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم عن الله أمر؛ فصدَّقوا به، فنعَتَهُمُ الله تعالى في القرآن أحسن نَعْت، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقًا من ربهم».

وقال: «لِأَمْرٍ مَّا سَهِروا ليلهم، لأَمْرٍ مَّا خَشَعُوا نَهَارَهُمْ، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

قال: «كلُّ شيء يصيب ابن آدم، ثم يزول عنه، فليس بغَرَام، إنما الغرامُ الملازِمُ له ما دامت السموات والأرْض، قال: صدَقَ القوم، واللهِ الذي لا إله

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٥١/٤٨)؛ بتصرف.

إلّا هو، فعملوا وأنتم تتمنَّوْن، فإياكم وهذه الأماني؛ فإن الله لم يُعْطِ عبدًا بأُمْنِيَّتِهِ خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرة».

وكان يقول: «يا لها مِن موعظة لو وافَقَتْ من القلوب حياة!»(١).

فِتْيَةٌ يُعْرَفُ التَّخَشُّعُ فِيهِمْ ... كُلُّهُمْ أَحْكَمَ الْقُرَانَ غُلَامَا
قَدْ بَرَى جِلْدَهُ التَّهَجُّدُ حَتَّى ... عَادَ جِلْدًا مُصَفَّرًا وَعِظَامَا
تَتَجَافَى عَنِ الْفِرَاشِ مِنَ الخَوْ ... فِ إِذَا الجَاهِلُونَ بَاتُوا نِيَامَا
بِأَنِينٍ وَعَبْرَةٍ وَنَحِيبٍ ... وَيَظَلُّونَ بِالنَّهَارِ صِيَامَا
يَقْرَؤُونَ الْقُرَانَ لَا رَيْبَ فِيهِ ... وَيَبِيتُونَ سُجَّدًا وَقِيَامَا(٢)

١٠ - وقال وكيع: حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب؛ قال: «رأيتُ ابن مسعود بكى حتى رأيتُ دموعَهُ في الحصى»(٣).

١١ - وكان سعيد بن عبد العزيز الدمشقي يُسمَعُ منه وَقْعُ دموعه على الحصير في الصلاة(٤).

١٢ - وقال بِشْر بن الحسين: «ما رأيتُ سعيد بن عبد العزيز قطُّ قام إلى صلاة مفروضة إلّا ودموعُهُ تَسِيلُ على لحيته»(٥).

١٣ - وجاء عن عبد الله بن عمرو ﷺ؛ أنه قال: «لو تعلمون ما أعلم، لضَحِكْتُمْ قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، ولو تعلمون حَقَّ العِلْمِ، لَصَرَخَ أحدكم حتى يَنقطِع صوته، ولسجد حتى يَنقطِع صلبه»(٦).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٠)، وذكره محمد بن نصر المروزي مختصرًا بلا إسناد في: «تعظيم قدر الصلاة» (٢/٧٦٠ - ٧٦١)، والسيوطي في «الدر المنثور» (١١/٢٠٦ - ٢٠٨) بنحوه.

(٢) «التهجد» لابن أبي الدنيا (٢٨٣)؛ وعزاه إلى عبَّاد بن تَمِيم التميمي.

(٣) في «الزهد» (٢٢).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/٢٠٢- ٢٠٣).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١/٢٠٣).

(٦) أخرجه وكيع في «الزهد» (٢٠)، والحاكم (٤/٥٧٨ - ٥٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٨٩)، وقال الذهبي: «على شرط البخاري ومسلم».

١٤ - وبات رجل عند الربيع بن خُثَيْم ذات ليلة، فقام يصلي، فمَرَّ بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ...﴾ الآية [الجاثية: ٢١]؛ فمكث ليلته حتى أصبح، ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد»[١].

لَهُمْ دُمُوعٌ مِنْ خُشُوعِ نُفُوسِهِمْ وَدُمُوعُهَا فَوْقَ الخدُودِ غِزَارُ[٢]

١٥ - وقال مسروق: «قال لي رجلٌ من أهل مكة: هذا مقام أخيك تميم الداري، صلى ليلة حتى أصبح أو كَرَبَ أن يصبح، يقرأ آيةً يردِّدها ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]»[٣].

بَكَى البَاكُونَ لِلرَّحْمَنِ لَيْلًا وَبَاتُوا دَمْعُهُمْ مَا يَسْأَمُونَا
بِقَاعُ الْأَرْضِ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهِمْ تَحِنُّ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجُدُونَا[٤]

١٦ - وكان إبراهيم النَّخعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، اضطرَبَ حتى تضطرِبَ أوصاله[٥].

واشتكى ثابت البُنَاني عينه، فقال له الطبيب: اضْمَنْ لي خصلة، تبرَأْ عيناك، قال: «وما هي؟»، قال: لا تَبْكِ، قال: «وما خيرٌ في عَيْنٍ لا تبكي»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٢٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١١٢/٢)؛ واللفظ له.

(٢) البيت من قصيدة لأحمد بن الحسن الخياط في رثاء ابن تيمية. ينظر: «العُقود الدُّرِّيَّة» (ص ٤٣٤).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٧٦/١١)، وأحمد في «الزهد» (ص١٨٢)، وابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٤٩)، وصحَّحه الحافظ في «الإصابة» (١٨٤/١).

(٤) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (١٢٢)؛ أخرجها عن صالح بن عبد الكريم.

(٥) أورده الغزالي في «الإحياء»، ونسبه مَرَّةً إلى إبراهيم النخعي (١٦٨/١)، ومَرَّةً إلى إبراهيم بن أدهم (٢٩٨/٢).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢١٠).

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرْ عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنَهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا بِالدُّمُوعِ تُعَارُ[(١)]

١٧ - وكان ابن الزُّبَيْر ﷺ يصلِّي يومًا في بيته، فسقطت حيَّة على ابنه هاشم، فصاحوا: الحيَّة! الحيَّة! ثم قتلوها، وما قطعَ صلاته، ولما سئل بعد الصلاة، قال: «ما شعَرْتُ بشيء من ذلك»[(٢)].

١٨ - وعن هشام بن عُرْوة؛ قال: قال لي محمَّد بن المُنكدِر: «لو رأيتَ عبد الله بن الزبير قائمًا يصلِّي، لَقُلْتَ: شجرةٌ تصفِّقها الرياح، وحجارة المنجنيق تقع هاهنا وهاهنا ما يَلْتفِت»[(٣)].

١٩ - يقول ثابت البُنَاني: «كنتُ أَمُرُّ بابنِ الزُّبَيْرِ وهو خلف المقام يصلِّي كأنه خَشَبة منصوبة لا يتحرَّك»[(٤)].

٢٠ - وقال مجاهد: «كان عبد الله بن الزبير إذا قام في الصلاة كأنَّه عُودٌ»، وكان يقول: «ذلك من الخشوع»[(٥)]، وكان إذا سجد، وقَعَتِ العصافير على ظهره، تَصعَدُ وتَنزِلُ لا تراه إلّا جِذْمَ حائط[(٦)].

ولقد مرَّت آجُرَّةٌ من رَمْيِ المنجنيق بين لحيته وصدره، فوالله ما خشَعَ لها بصره، ولا قطَعَ لها قراءته، ولا ركَعَ دون ما كان يركع، وكان إذا دخل في الصلاة، خرَجَ من كل شيء إليها[(٧)].

٢١ - قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق: «دُعِيَ محمد بن إسماعيل - يعني:

---

(١) البيتان للعباس بن الأحنف. ينظر: ذم الهوى (ص ٤٢١).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٧٤/٢٨).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٤٥).
(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٧٠/٢٨).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٣٥/١).
(٦) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٢٠٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٧٠/٢٨)؛ واللفظ له.
(٧) انظر: «تاريخ دمشق» (١٧٣/٢٨).

البخاري - إلى بستان بعض أصحابه، فلما حضَرَتْ صلاة الظهر، صلى بالقوم، ثم قام للتطوُّع، فأطال القيام، فلما فرَغَ من صلاته، رفَعَ ذَيْلَ قميصه، فقال لبعض مَن مَعَهُ: انظروا هل ترون تحت قميصي شيئًا؟ فإذا زنبورٌ قد أَبَرَهُ في ستةَ عشَرَ، أو سبعةَ عشَرَ موضعًا، وتورَّم من ذلك جَسَده، وكان آثار الزنبور في جسده ظاهرة، فقال له بعض القوم: كيف لم تخرُجْ من الصلاة في أول ما أَبَرَكَ؟ فقال: كنتُ في سورة، فأحببتُ أن أتمَّها»[(١)].

٢٢ - وهذا محمد بن يعقوب الأخرم؛ يقول: «ما رأيت أحسن صلاة من أبي عبد الله محمد بن نصر- يعني: المَرْوَزي - كان الذُّبَاب - يعني الزُّنْبُور[(٢)] - يقع على أذنه، فيسيل الدم ولا يَذُبُّهُ عن نفسه، ولقد كنا نتعجَّب من حُسْنِ صلاته وخشوعه وهيئته للصلاة، كان يضع ذَقَنَهُ على صدره، فيَنتصِبُ كأنه خشبة منصوبة»[(٣)].

ووصفه آخر؛ فقال: «ما رأيت أحسن صلاة منه، ولقد بلغني أن زُنْبُورًا قعَدَ على جبهته، فسال الدم على وجهه، ولم يتحرَّك»[(٤)].

٢٣ - وكان كُرْز بن وَبْرَة إذا دخل في الصلاة، لا يرفع طَرْفَهُ يَمْنَةً ولا يَسْرةً، وكان من المُخبِتِين، وربما كُلِّمَ خارج الصلاة، فلا يُجِيبُ إلَّا بعد مدَّة؛ من شدة تعلُّق قلبه بالله واشتياقه إليه[(٥)].

يقول الذهبي - معلقًا على ذلك -: «هكذا كان زُهَّادُ السلف وعُبَّادُهم، أصحابَ خوف وخشوع وتعبُّد»[(٦)].

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/١٢- ١٣)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٢/٨٠).

(٢) قال أبو حاتم: «الزنابير: الذِّبَاب؛ لأن النحل يُقال له: ذُباب العَسَل». ينظر: «الدلائل في غريب الحديث» (١/٣٥٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤/٥١٤)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/١١٤).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/٥٠٨)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/١١٣).

(٥) «تاريخ جرجان» (ص٣٤٠)؛ بتصرف.

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٦/٨٦).

٢٤ - ووقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين، وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول اللهِ، النار! يا ابن رسول الله، النار! فما رفع رأسه حتى أُطْفِئَتْ، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ قال: «أَلْهَتْني عنها النار الأخرى»[(١)].

٢٥ - وكان مسلم بن يَسَار إذا دخَلَ في صلاته في بيته، قال لأهله: «تحدَّثوا؛ فلستُ أسمع حديثكم»[(٢)].

وكان في المسجد، فانهدَمَ طائفة منه، فقام الناس وهو لم يشعُرْ أن أسطوانة المسجد قد انهدمت[(٣)].

٢٦ - وسُرِقَ رداء يعقوب الحضرمي عن كتفه، وهو في الصلاة، ولم يشعُرْ، ورُدَّ إليه ولم يشعُرْ[(٤)].

٢٧ - قال محمد بن عوف الحِمْصي: «رأيت أحمد بن أبي الحَوَارِيِّ عندنا بأنطرسوس، فلما صَلَّى العَتَمة، قام يصلي، فاستفتَحَ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ١]، إلى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فطفت الحائط كله، ثم رجعت، فإذا هو لا يُجاوِزُها، ثم نمت ومَرَرْتُ في السَّحَرِ وهو يقرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ فلم يزل يردِّدُها إلى الصبح»[(٥)].

٢٨ - وعن بَهْز بن حَكِيم؛ قال: «كان زُرَارَةُ بنُ أوفى قاضي البصرة، فكان يَؤُمُّ في بني قُشَيْر، فقرأ يومًا في صلاة الصبح: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨، ٩]، فخَرَّ ميتًا، فحُمِلَ إلى داره، فكنت فيمن احتمله إلى داره»[(٦)].

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٠/٣٨٨ - ٣٩٠)، و«صفة الصفوة» (٢/٩٤).

(٢) أخرجه ابن نعيم في «الحلية» (٢/٢٩٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/١٣٤).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٠٨٢)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/١٣٥)، وأخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٥١).

(٤) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠/١٧٣).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٨٧ - ٨٨).

(٦) أخرجه الترمذي (٤٤٥). وحسَّن إسناده الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٤٤٥).

٢٩ - وعن يعلى بن حَكِيم؛ قال: قال سعيد بن جُبَيْر: «ما رأيتُ أرعى لحرمة هذا البيت ولا أحرَصَ عليه من أهل البصرة، لقد رأيت جارية ذات ليلة تعلَّقت بأستار الكَعْبة، فجعَلَتْ تدعو وتبكي وتتضرَّع حتى ماتت»[(١)].

٣٠ - وعن ابن عَوْن؛ قال: «كان إذا دخَلَ محمد بن سِيرِين السوق، لا يراه أحد إلّا كَبَّرَ الله لصلاحه وخشوعه»[(٢)].

٣١ - وقال خلف: «كان محمد بن سِيرِينَ قد أُعطِيَ هَدْيًا وسَمْتًا وخشوعًا؛ فكان إذا رأوه، ذَكَرُوا الله»[(٣)].

٣٢ - وقال بكَّار السِّيرِيني، عن ابن عَوْن: «كان إذا جاء إخوانه، كأنَّ على رؤوسهم الطير؛ لهم خضوع وخشوع»[(٤)].

قال الذهبي معلِّقًا عليه: «لابن عَوْنٍ جَلَالةٌ عجيبة، ووَقْعٌ في النفوس؛ لأنه كان إمامًا في العلم، رأسًا في التألُّه والعبادة»[(٥)].

* * *

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٧٦)، وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٣٤): «إسنادها صحيح».

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١١٧٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/١٩٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٣١).

(٤) «تذكرة الحفاظ» (١/١٥٧).

(٥) المصدر السابق.

المُرَاقَبَة

تَوْطِئَة

المراقبة عمَلٌ من أعمال القلب، هو بِذْرُها وأُسُّها الذي تتفرَّع منه، وترتكِزُ عليه، متى أقامه العبد، صلَحَ قلبه واستقام، ومتى سيَّبه، تكالبت عليه الأسقام.

ثم إن مراقبة الله ﷻ صفة من صفات المؤمن الحق؛ فـ «العبد المؤمن متيقِّن باطِّلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه؛ فهو ناظرٌ إليه، سامع لقوله، مُطَّلِع على عمله في كل وقت، وفي كل لحظة، وكل نَفَس، وكل طَرْفة عَيْن: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]»(١).

هذا بالإضافة إلى أن الحديث عن مراقَبة الله تعالى في عَصْرنا هذا مما تَمَسُّ الحاجة إليه؛ وذلك لِمَا فُتِحَ على الناس من وسائل الاتصالات الحديثة؛ الأمر الذي صيَّر الوصول إلى المعصية في غاية السهولة؛ فأصبَحَ المرء يتمكَّن عبر تلك الوسائل المتنوِّعة أن يَطُوفَ بين ألوان المنكَرات وهو في داخل حجرته، لا يَطَّلِعُ عليه إلّا الله تعالى، فإذا لم يكن له وازعٌ من تقوى الله ومراقبته، فإن الشيطان سيقوده إلى الهَلَكة ولا بُدَّ!

ومِن هنا: فإنه يتعيَّن على المربِّين إحياء هذا المعنى في النفوس؛ كي يكون حاجزًا بينها وبين مَسَاخِطِ الله تعالى.

❊ ❊ ❊

(١) «المنهاج الأسنى» (٢/٥٢٥).

مَعْنَى المُرَاقَبَة وَحَقِيقَتُهُ

المُرَاقَبَة لغةً: مصدرٌ مِن قولهم: رَاقَبَ مُرَاقَبةً، وهو مأخوذٌ من مادَّة: (ر ق ب) التي تَدُلُّ على الانتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرَّقِيب؛ وهو الحافظ.

تقول: رَقَبْتُ الشيءَ أَرْقُبُهُ رُقُوبًا ورِقْبةً ورِقْبانًا ورَقَابةً: إذا رَصَدتَّهُ، والمَرْقَبُ والمَرْقَبة: الموضع المُشرِفُ العالي، يقف عليه الناظر، ومِن ذلك اشتقاق الرَّقَبة؛ لأنها مُنتصِبةٌ، ولأن الناظِرَ لا بدَّ أن ينتصِب عند نَظَره، ورَقَبَ الشيءَ يَرْقُبُهُ أيضًا: حَرَسَهُ.

ومن أسماء الله تعالى: الرَّقِيبُ، وهو الحافظُ الذي لا يغيب عنه شيء، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعل[1].

قال ابن القيِّم[2]:

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا ... حِظِ كَيْفَ بِالْأَفْعَالِ بالْأَرْكَانِ؟!

وأما المراقَبة في المعنى الشرعي: فقد عرَّفها ابن القيِّم بأنها: «دوامُ علمِ العبدِ وتيقُّنِهِ باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه؛ فاستدامتُهُ لهذا العلم واليقين هي المراقَبة، وهي ثَمَرة علمه بأنَّ الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مُطَّلِعٌ على عمله كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طَرْفَة عين...

---

(١) انظر: «الصحاح في اللغة» (١/١٣٧)، (ر ق ب)، و«لسان العرب» (٥/٢٧٩)، (ر ق ب)، و«القاموس المحيط» (١/٩٠)، فصل: (الراء).

(٢) «نونية ابن القيم» (٣٢٩٨).

والمراقَبةُ هي التعبُّدُ باسمه الرَّقِيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير.

فمن عقَلَ هذه الأسماء، وتعبَّد بمُقْتَضاها، حصَلَتْ له المراقَبة»[١].

وهذا المعنى جامع لما قيل في تعريف المراقَبة، وإليه تَرجِعُ عباراتُهم في بيان معناها.

«وقيل: المراقَبةُ: مراعاةُ القلبِ لملاحظة الحقِّ، مع كل خَطْرَة وخَطْوة.

وقيل: خلوص السر والعلانية لله ﷻ»[٢].

وقيل: «مراعاة القلب للرَّقِيب، واشتغالُه به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه»[٣].

وفي حديث جبريل عليه السلام؛ أنه سأل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[٤].

قال النوويُّ: «هذا من جوامع الكَلِمِ التي أُوتِيَها ﷺ؛ لأنَّا لو قدَّرنا أن أحدَنا قام في عبادة، وهو يعايِنُ ربَّه سبحانه وتعالى، لم يترُكْ شيئًا مما يَقدِرُ عليه؛ من الخضوع والخشوع وحُسْنِ السَّمْتِ واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها، إلّا أتى به؛ فقال ﷺ: اعبُدِ اللهَ في جميع أحوالك، كعبادتك في حال العِيَان[٥].

فإن التَّتْمِيم المذكور في حال العِيَان، إنما كان لعلم العبد باطِّلَاع الله سبحانه وتعالى عليه؛ فلا يُقدِمُ العبد على تقصيرٍ في هذه الحال للاطِّلاع عليه...

(١) «مدارج السالكين» (٢/٦٥ - ٦٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٦٦)؛ بتصرف يسير.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ضمن حديث طويل. وأخرجه مسلم أيضًا (٨)؛ من حديث عمر رضي الله عنه.

(٥) ليس هذا لفظ حديث النبي ﷺ إنما قاله النووي تفسيرًا؛ لما يظهر من السياق.

فمقصود الكلام: الحَثُّ على الإخلاص في العبادة، ومراقَبَةِ العبد ربه تبارك وتعالى؛ في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك»[١].

قال ابن القيِّم: «ومقام المراقبة جامعٌ للمعرِفة مع الخشية، فبحسبهما يصح مقام المراقبة»[٢].

* * *

(١) «شرح مسلم» (١/١٥٧-١٥٨).

(٢) «مدارج السالكين» (١/١٣٧).

مَنزِلَةُ المُرَاقَبَةِ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوب

قال ابن القيِّم: «فالمراقَبةُ أساس الأعمال القلبيَّة كلِّها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمةٍ واحدة، وهي قوله في الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[1]؛ فتأمَّل كلَّ مقام من مقامات الدِّين، وكل عمل من أعمال القلوب؛ كيف تجد هذا أصلَهُ ومَنْبَعَهُ؟!»[2].

فقوله: ««اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» فهذا مقام المراقَبة، الجامعُ لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»؛ فحطَّهُ عند العجز عن المقام الأول إلى المقام الثاني، وهو العلم باطِّلاع الله عليه، ورؤيته له، ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء»[3].

وهذا يعني: أن للإحسان مرتبتَيْنِ: «أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»؛ فهذه هي المرتبة العُلْيا، فإذا عجز العبد عن الارتقاء لتلك المرتبة؛ وهي عبادةُ الله كأنه يشاهده، وينظُرُ إليه، انحطَّ إلى المرتبة الثانية من مراتب الإحسان؛ وهي أن يستحضِرَ نظَرَ الربِّ تبارك وتعالى إليه: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

ومِن أهلِ العلم: مَن عَدَّ هاتَيْن المرتبتَيْن مرتبةً واحدةً، فقالوا: إن النبيَّ ﷺ يفسِّرُ قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، ويعلِّله ويوضِّحه ويُبرِزُ معنًى يحض العبد ويحثُّه عليه بقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «إعلام الموقعين» (٦/١١٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢١٧).

وهذان قولان معروفان لأهل العلم في هذا الحديث، ولعل القول بأنها منزِلة واحدة أقرَبُ للصواب؛ باعتبار أنه من قَبِيلِ التنبيه على ما يدعو إلى المراقَبة مِن استحضارِ نظَرِ الله إلى العبد بكل حال؛ لأن رؤية العبد لربه في الدنيا منتفية كما لا يخفى، والله أعلم.

فـ «مشهدُ الإحسانِ هو أصلُ أعمالِ القلوبِ كلِّها؛ فإنه يُوجِبُ الحياء والإجلال والتعظيم، والخشية والمحبَّة، والإنابة والتوكُّل، والخضوع لله سبحانه والذُّلَّ له، ويقطع الوَسْواسَ وحديث النفس، ويجمع القلب والهَمَّ على الله؛ فحَظُّ العبد من القُرْب من الله على قَدْرِ حظِّه من مقام الإحسان، وبحَسَبِهِ تتفاوت الصلاة؛ حتى يكون بين صلاة الرَّجُلَيْنِ من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامُهما وركوعُهما وسجودهما واحد»[(١)].

وقد سُئِلَ محمد بن المبارَك: ما علامة المحبَّة لله؟ فقال: «المراقَبةُ للمحبوب، والتحرِّي لمرضاته»[(٢)].

وسُئِلَ إسماعيل بن نُجَيْد: ما الذي لا بد للعبد منه؟ فقال: «ملازمة العبوديَّة على السُّنَّة، ودوامُ المراقَبة»[(٣)].

فالعبد متى لزم العبوديَّة على السُّنَّة، كان على الشريعة، ومتى داوم على المراقَبة، كان على الإخلاص؛ وبذلك يُحفَظُ بإذن الله ﷻ من الخروج عن الصراط المستقيم.

وقال بعضهم: «أفضل الطاعات: حفظ الأوقات؛ وهو ألَّا يطالِعَ العبد غير حَدِّه، ولا يراقِبَ غير ربِّه، ولا يقارِنَ غير وَقْتِه»[(٤)].

---

(١) «رسالة ابن القيِّم إلى أحد إخوانه» (ص ٤٥).
(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/٢٢٤).
(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٤٧٢).
(٤) «الرسالة القشيرية» (١/٣٣٢).

وسُئِلَ آخر: «ما أفضلُ الطاعات؟ فقال: مراقَبةُ الحق على دوام الأوقات»(١).

فينبغي للعبد أن يُعنَى بهذا الجانب غايةَ العِنَاية؛ ناظرًا للربِّ، غير مُلتَفِتٍ للخلق بحالٍ من الأحوال، والمشتغِلُ بالتعليم والتوجيه والخطابة والدعوة أحوَجُ من غيره إلى هذا المعنى.

وقد قال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: «إذا جلَسْتَ للناس، فكُنْ واعظًا لقلبك ولنفسك، ولا يَغُرَّنَّكَ اجتماعُهم عليك؛ فإنهم يراقِبُونَ ظاهرك، والله تعالى يراقِبُ باطنك»(٢).

وإذا غفَلَ العبد عن هذا المعنى، صار قلبه منجذِبًا إلى الناس؛ فيقع الخَلَلُ في كلامه وأفعاله وأحواله كلها، ويُرضِيهم ولو بسخط الله تعالى.

* * *

---

(١) المصدر السابق (١/٣٣١).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٢/٣٣١)، و«مدارج السالكين» (٢/٦٦).

المُرَاقَبَة فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّة

بين دفَّتي الكتاب العزيز والسنة المطهَّرة نصوصٌ جمَّة تحث على المراقبة، وتَغْرِسها في النفوس؛ تارَةً بالتلميح، وتارَةً بالتصريح:

فمن التلميح: تَضَافُر الأدلَّة على أن الله ﷻ محيطٌ بكلٍّ مخلوقاته، وأنه لطيفٌ خبير، وأنه بكل شيءٍ عليم، لا تَخفَى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وذلك من شأنه تنمية المراقَبة في قلوب العباد؛ لذا كثيرًا ما يختم بها الله تعالى آيات الأحكام والمواعظ في كتابه؛ كقوله تعالى عَقِبَ ترغيبه في النفقة: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وكقوله عقب ذكر أحكام المدايَنة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن التصريح: ما صرَّح فيها - سبحانه - باطِّلاعِهِ على أحوال خلقه، وإحاطة علمه بما يصدُرُ عنهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقولِه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: ٤]؛ أي: بعلمه وإحاطته، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقولِه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقولِه ﷻ في ذكر معيَّتِهِ الخاصَّة لموسى ﷺ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]؛ وهؤلاء الملائكة يكتبون كلَّ ما يتكلَّم به الناس مِن خَيْرٍ أو شَرّ.

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنه لَيُكتَبُ قوله: أَكَلْتُ، شَرِبْتُ، ذَهَبْتُ، جِئتُ، رأيتُ»(١). ومما جاء في السُّنَّة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ ﷻ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً - إلى أن قال -: قَالَتِ المَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْقُبُوهُ؛ فَإِنْ عَمِلَهَا، فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا، فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً؛ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»(٢).

والمعنى: أنه كان يراقِبُ الله ﷻ، فلمَّا لاحت له الشهوةُ والطمع، وكان قادرًا على مقارَفةِ ذلك، ترَكَهُ خوفًا من الله ﷻ؛ فكُتِبَتْ له حسنةً.

وفى حديث جبريل المشهور؛ أنه سأل النبيَّ ﷺ عن الإحسان، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٣).

وعن معاذ رضي الله عنه؛ أنه قال: يا رسولَ اللهِ، أَوْصِني؟ قال: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي المَوْتَى...»، الحديث(٤).

وفي حديث أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»(٥)، وإذا تأمَّلت هؤلاء السبعة، وَجَدتَّ أنَّ عامَّةَ أمرهم يرجع إلى المراقَبة:

---

(١) أورده ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/٣٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٩)؛ واللفظ له.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٢٥)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/١٧٥/٣٧٤)؛ قال المنذري في «الترغيب» (٤/١٢٢): «رواه الطبراني بإسناد جيد؛ إلّا أن فيه انقطاعًا»، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٧٦٩): «رجاله ثقات؛ وفيه انقطاع»، وأشار الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/٢١٨) إلى انقطاعه، وقال: «رجاله ثقات»، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٩٢٠)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٧٥).

وفي الباب: عن أبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عمر رضي الله عنهم.

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

فالإمام لا يَخَافُ الناس ولا يخافُ محاسَبَتهم، وإنما يقوم بالعدل بينهم إذا كان مراقبًا لله ﷻ.

والشابُّ الذي نَشَأَ في عبادة الله إنما صرَفَهُ عن المعصية مع قوَّة الداعي إليها، وفَوَران الشهوة، ودفَعَهُ للطاعة: مراقَبَتُهُ لله تبارك وتعالى.

والرجل الذي دَعَتْهُ امرأة ذات منصب وجمال، فقال: «إِنِّي أَخَافُ اللهَ»، لا شك أن الدافِعَ لتَرْكِهِ متابَعةَ هواه، مع قوة الداعي: ناتجٌ عن مراقبته لله ﷻ.

وكذلك أيضًا: الذي تصدَّقَ بصدقة، فأخفاها حتى لا تَعلَمَ شماله ما تُنفِقُ يمينه! فإن الذي دفَعَهُ إلى أن يُخفِيَ هذه الصدقة هذا الإخفاء الشديد، ويَحترِزَ هذا الاحتراز: مراقبةُ الله تعالى.

وقُلْ مثل ذلك في الذي ذكَرَ الله خاليًا، ففاضت عيناه؛ فإنَّ بكاءه خاليًا مِن خَشْية الله من مراقَبته لربه سبحانه.

ومن الأدلَّة أيضًا:

ما جاء عن أبي هريرة ؓ؛ أن النبي ﷺ قال: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهم - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ -: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»(١).

وهذا غَيْضٌ من فَيْض، وقليلٌ من كثير، وفيما أورَدْنا كفايةٌ للدَّلَالةِ على المراد، وهو تذكيره سبحانه لعباده بهذا الأصل؛ ليَحفَظُوا حدوده، ويتَّقوا مَحَارِمَهُ، ويفعلوا ما أمرهم به؛ ليبعثَ في نفوسهم الرقابة الذاتيَّة، التي تستحِثُّهم على التقوى، والخوف من الله، والقيام بأمره في كل مكان وزمان، في حضرةِ الخلقِ وفي غَيْبَتهم عن العِيَان.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)؛ واللفظ له.

مَرَاتِبُ المُرَاقَبَة

قسَّم بعض أهل العلم المراقَبة إلى ثلاث مراتب؛ وذلك باعتبار الحامل عليها، والدافع إليها:

المرتبة الأولى: ما كان الحامل عليه الخوفَ من الله.

والمرتبة الثانية: ما كان الحامل عليه الحياءَ من الله تبارك وتعالى.

المرتبة الثالثة: ما كان الحامل عليه المحبَّة.

فالخائفُ: مراقِبٌ لله ﷻ بالحَذَرِ وغَلَبة الفَزَع، والمستَحْيِي[1]: مراقِبٌ له بشدَّة انكسار وغَلَبة إخبات، والمُحِبُّ: مراقِبٌ له بشدَّة السرور وغَلَبةِ النَّشاط وسَخاءِ النَّفْس، فيُقبِلُ على العبادة بانشراح صدر[2].

وقسَّمها الهَرَويُّ إلى ثلاث مراتب أيضًا[3]:

الأولى: مراقَبة الله ﷻ في السَّيْرِ إليه على الدَّوَام، مع ملاحظة التعظيم الذي يمتلئ به القلب في حال سير العبد إلى ربه ﷻ:

فيكون هذا التعظيم الذي ملأ قلبه به شاغلًا له وصارفًا عن تعظيم المخلوقين، التعظيمَ الذي يزاحِمُ تعظيمَ المعبود تبارك وتعالى، وكذلك أيضًا: أن يكون مُجِدًّا مجتهِدًا في القرب منه تبارك وتعالى؛ فإنه كلما ازداد قُرْبًا من الله، ازداد تعظيمًا له، مع سرور وانشراح يَبعَثُهُ على العمل؛ فيَجِدُ لَذَّة

---

(١) هكذا في «الحلية»؛ وهي اللغة العالية لغة أهل الحجاز.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (١٠/٩٣ - ٩٤).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٦٦-٧٢).

في عمله الصالح، وتكون قُرَّةُ عينه في طاعة الله ﷻ؛ كما قال النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(١)، فيَجِد نعيمًا عند القيام بوظائف العبودية لا يدانِيهِ نعيم الدنيا بِأَسْرِها بمختلِفِ أنواعه، وهذا «حالٌ من أحوال أهل الجنَّة، حتى قال بعض العارفين: «إنه لَتَمُرُّ بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنَّة في مثل هذا، إنهم لفي عَيْشٍ طَيِّب»(٢).

قال ابن القيِّم: «ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله ﷻ، وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته، ومَن لم يجد هذا السرور، ولا شيئًا منه، فليتَّهم إيمانه وأعماله؛ فإن للإيمان حلاوة، مَن لم يذقها، فلْيَرْجِعْ، وليقتبسْ نورًا يجدُ به حلاوة الإيمان»(٣).

ونقَلَ عن شيخه ابن تيميَّة أنَّه قال: «إذا لم تَجِدْ للعملِ حلاوة في قلبك، وانشراحًا، فاتَّهِمْه؛ فإن الربَّ تعالى شكور؛ يعني: أنه لا بد أن يُثِيبَ العامل على عملِهِ في الدنيا مِن حلاوةٍ يجدها في قلبه، وقوَّة انشراح، وقرَّة عين؛ فحيث لم يجد ذلك، فعَمَلُهُ مدخول»(٤).

والثانية: مراقَبة نَظَرِ الحقِّ برفض المعارَضة:

«وهذه مراقَبة لمراقَبة الله ﷻ لك، وهذه المراقَبة تُوجِبُ للعبدِ صيانة الباطن والظاهر؛ فصيانةُ الظاهر: بحفظ الحَرَكات الظاهرة، وصيانةُ الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحَرَكات الباطنة، التي منها رفض معارَضة أمره وخبره، فيتجرَّدُ الباطن من كل شهوةٍ وإرادةٍ تعارِضُ أمره، ومن كُلِّ إرادة تعارِضُ إرادته، ومِن كل شبهة تعارِضُ خبَرَه، ومِن كلِّ محبَّة تزاحِمُ محبَّته؛ وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلّا من أتى الله ﷻ به»(٥).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٣١).

(٣) «مدراج السالكين» (٢/٦٧).

(٤) المصدر السابق (٢/٦٨).

(٥) المصدر السابق (٢/٦٦- ٦٨)؛ باختصار وتصرُّف.

فتكون المراقَبة بهذا الاعتبار دافعةً لكل مناوأةٍ وتشكُّكٍ واعتراض على أحكام الله القدريَّة، وأحكامه الشرعيَّة، فلا يَعترِضُ على أسمائه وصفاته، ولا على شرعِهِ وأمرِهِ ﷻ، ولا يكون متردِّدًا متشكِّكًا في الأخبار التي أخبر الله ﷻ بها، ولا يقدِّمُ على قول الله ﷻ قولًا لأحد مهما عَظُمَ وعَلَتْ مرتبته؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]؛ فلا يقدِّمُ عليه معقولًا، ولا فلسفة من الفلسفات، ولا سياسة من السياسات، وإنما يكون المقدَّمُ في قلبه هو أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

فأين مِن هذا أولئك الذين يصرِّحون بأن الدِّين الذي أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ لا يصلُحُ لهذا العصر على الفهم الذي فَهِمَهُ أصحاب النبي ﷺ؟! يريدون أن يأتوا بدِينٍ ممسوخٍ على أفهامهم المُعْوَجَّة؛ فهؤلاء لم يُراقِبوا الله ﷻ المراقَبةَ التي تنفي المعارَضة، فهم معارِضُونَ لله، معارِضُونَ لرسوله ﷺ، معارِضُونَ لشرعِهِ وحُكْمِهِ وكتابه[١].

والثالثة: الإيمان الصادق بـ «انفراد الحَقِّ بأزَلِيَّتِهِ وحده، وأنه كان ولم يكن شيءٌ غيرُهُ البتَّة، وكل ما سواه فكائن بعد عَدَمِهِ بتكوينه»[٢].

و«فوق ذلك درجة هي أعلى وأرفع مما تقدَّم؛ وهي: مراقَبة مواقع رضا الربِّ تبارك وتعالى ومَسَاخِطِهِ في كلِّ حَرَكة»[٣]؛ فيسعى في مرضاته، ويتجنَّب مساخطه.

وفي الحديث القُدْسي: «وَما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[٤].

---

(١) انظر: مقدِّمة الإمام أحمد لكتابه «الرد على الجهميَّة والزنادقة» (ص٥٥-٥٧).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/٧٢).
(٣) المصدر السابق (٢/٧٤)؛ بتصرف.
(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

وبعضهم جعل المراقبة على مرتبتَيْن:

الأولى: «مراقَبةُ الصِّدِّيقين المقرَّبين:

وهي مراقَبة التعظيم والإجلال، وهي مراقَبة تتعطَّل فيها الجَوَارِحُ عن المباحات، فضلًا عن المحظورات؛ وإذا تحرَّكَتْ بالطاعات، كانت كالمستعمَلة بها؛ فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سَنَنِ السَّدَاد.

والثانية: مراقَبةُ الوَرِعِينَ أصحابِ اليمين:

وهم قومٌ غلَبَ يقين اطِّلَاع الله على ظاهرهم وباطنهم، وعلى قلوبهم، قد غلب عليهم الحياءُ من الله؛ فهم يمتنعون عن كل ما يُفتضَحُون به يوم القيامة.

وإنما يُعرَفُ اختلاف الدَّرَجَتَيْنِ بالمشاهَدات؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطَى أعمالًا، فيحضُرُك صَبِيٌّ أو نحوه؛ فتَعلَمُ أنه مُطَّلِع عليك؛ فتستحيي منه؛ فتُحسِنُ جلوسك، وتراعِي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم، بل عن حياء؛ فإن مشاهدته وإنْ كانت لا تُدهِشُكَ، ولا تستغرِقُك، فإنها تهيِّجُ الحياء منك، وقد يدخُلُ عليك مَلِكٌ من الملوك، أو كبير من الأكابر، فيستغرِقُك التعظيم حتى تترُكَ كل ما أنت فيه شُغْلًا به لا حياء منه؛ فهكذا تختلِفُ مَرَاتِب العباد في مراقَبة الله تعالى.

ومن كان في هذه الدرجة، فيحتاج أن يراقب جميع حَرَكاته وسَكَناته وخَطَراته ولَحَظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نَظَرَان: نظَرٌ قبلَ العَمَل، ونظَرٌ في العَمَل؛ أمَّا قبلُ العمل: فلينظُرْ ما ظهر له وتحرَّك بفعله خاطِرُهُ: أهو لله خاصَّة، أو هو في هوى النَّفْسِ ومتابَعةِ الشيطان، فيتوقَّف فيه، ويتثبَّت حتَّى يَنكشِفَ له ذلك بنور الحقِّ؟ فإنْ كان لله تعالى، أمضاه، وإنْ كان لغير الله، استحيا من الله، وانكَفَّ عنه، ثمَّ لام نَفْسَهُ على رغبته فيه وهمِّه به ومَيْلِه إليه، وعرَّفها سوءَ فعلِها، وسَعْيَها في فضيحتها، وأنها عَدُوَّةُ نفسها إنْ لم يتداركها الله بعصمته»(١).

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٨ - ٤٠٠)؛ باختصار وتصرُّف.

وبذلك نعلم ما تتطلَّبُهُ المراقبة في جميع صورها ومراتبها من تمام الإخلاص لله تعالى في الفعل والتَّرْك، وتمامِ المتابَعة لرسوله ﷺ.

وقد قال بعض السلف: «ما مِن فَعْلَة، وإنْ صَغُرَتْ، إلَّا يُنشَرُ لها ديوانان: لِمَ؟ وكَيْفَ؟ أي: لِمَ فَعَلْتَ؟ وكيف فَعَلْتَ؟»[1].

وهكذا كان حال السلف:

يقول الحسن: «كان أحدهم إذا أراد أن يتصدَّقَ بصَدَقةٍ، تثبَّت؛ فإنْ كانت لله، أمضاها»[2].

وكان يقول: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا وقَفَ عند هَمِّه؛ فإنَّ أحدًا لا يعمل حتى يَهُمَّ: فإنْ كان لله ﷻ، مضى، وإن كان لغير الله، أمسك»[3].

وقال بعضهم: «إن المؤمن وَقَّافٌ متأَنٍّ، يَقِفُ عند همِّه، ليس كحاطِبِ لَيْل»[4].

وهذا لا يتحقَّق إلّا بالعلم المَتِين، والمعرِفة بالله ﷻ معرفةً تامَّة، والمعرِفة بالنَّفس وأغوارِها وكثرةِ شرودِ النِّيَّةِ على الإنسان، والمعرفةِ بالشيطان ومكايده.

«ولا يخلو العبد أن يكون إمَّا في طاعة، أو معصية، أو مباح:

فمراقَبته في الطاعة: بالإخلاص، والكمال، ومراعاة الأدب، وحراستها عن الآفات.

وإنْ كان في معصية: فمراقَبتُهُ بالتوبةِ والنَّدَمِ والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكُّر.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٤٢).
(٢) «مقاصد المكلَّفين» (ص٤٢٩).
(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩/٤١١).
(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/٤٠٠).

وإنْ كان في مباح: فمراقَبتُهُ بمراعاة الأدب، ثم بمعرِفة حق النعمة من الشُّكْرِ والحمد...

ففي الساعة التي يكون فيها مشغولَ الجوارح، بالطعام والشراب: فإنه لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو مِن أفضل الأعمال، وهو الذِّكْرُ والفِكْر؛ فإنَّ الطَّعَامَ الذي يتناوله مثلًا فيه من العجائب ما لو تفكَّر فيه وفَطِنَ له، كان ذلك أفضَلَ من كثير من أعمال الجوارح، ثُمَّ إن العبد ليس يخلو في جملة أحواله عن بليَّة لا بُدَّ له من الصبر عليها، ونِعْمة لا بدَّ له من الشُّكْرِ عليها؛ وكلُّ ذلك من المراقَبة»[(١)].

وهكذا: فإنه ينبغي على العبد أن يراقِبَ ربَّه فيما يصدُرُ عن لسانه، أثناء الكلام وقبله؛ ماذا يريد بهذا الكلام؟ أيريد به وجه الله ﷻ، أم يريد به شيئًا من الدنيا؟ وهل سيَرْضَى الله ﷻ به؟

فمراقَبةُ ذلك في الكلامْ أشدُّ مِن مراقَبةِ العمل؛ ولهذا قال بعض الصالحين: «عالجتُ الصَّمْتَ عمَّا لا يعنيني عشرين سنة؛ قَلَّ أن أَقدِرَ منه على ما أُرِيد»[(٢)]، وكان هذا الرجل نتيجة لذلك لا يَدَعُ أحدًا يَغتَابُ أحدًا في مجلسه، وكان يقول لجلسائه: «إنْ ذكرتم الله أعنَّاكم، وإنْ ذكرتم الناس تَرَكْناكم»[(٣)]؛ ولهذا قيل: «أشَدُّ الورع في اللسان»[(٤)].

وسيأتي الكلام على هذا في ذكر الوَرَع بمشيئة الله.

وكان الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيطي - كما حدَّثني أحد أبنائه - لا يمكِّنُ

(١) المصدر السابق (٤/٤٠٢ - ٤٠٣)؛ بتصرف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٥٢)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٩/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٥٢، ٥٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٩/٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩١/٨)؛ من كلام الفضيل بن عياض، ورُوِي نحوه عن ابن المبارك؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٦).

أحدًا في مجلسه أن يخوض في أعراض الناس؛ فكان ينهاهم عن ذلك، ويُسْكِتُهم، ويقول: أنا شايب قليل الحسنات؛ فلا تُذهِبوا حسناتِنا بغِيبَتِكُم للناس، فكان لا يسمح لأحد مهما كان قدرُهُ أن يَغتَابَ أحدًا بحضرته.

* * *

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المُرَاقَبَة

السبيل إلى نيل هذه المراقبة يَتَأَتَّى بأمور:

أولًا: أن يستحضِرَ العبد معاني الأسماء الحسنى التي تُؤثِّرُ في هذا المقام، وأن يتعبَّد لربِّه تبارك وتعالى بمُقْتَضَى هذه الأسماء:

الرَّقِيب، والشهيد، والحفيظ، والمُحيط، والعليم، والخبير، واللطيف، والسميع، والبصير، والمُهيمن، والقريب:

(١) أما الرقيب:

فقد قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]: «ويعني بقوله: (رقيبًا): حفيظًا مُحصِيًا عليكم أعمالكم، مُتفقِّدًا رِعَايَتَكُمْ حُرْمَةَ أرحامكم وصِلَتَكُمْ إياها، وقَطْعَكُمُوها وتضييعَكُمْ حُرْمَتَها»(١).

وقال في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]: «وكان الله على كل شيء ما أحَلَّ لك وحرَّم عليك، وغير ذلك من الأشياء كلها، حفيظًا، لا يَعْزُبُ عنه علم شيء من ذلك، ولا يَؤُوده حِفْظُ ذلك كلِّه»(٢).

وقال الزجاج: «الرقيب: هو الحافظ الذي لا يغيب عما يحفَظُه؛ يقال: رَقَبْتُ الشيءَ أَرْقُبُهُ رِقْبَةً، وقال الله تعالى ذكره: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]»(٣).

---

(١) «تفسير الطبري» (٧/٥٢٣).

(٢) المصدر السابق (١٩/١٥٧).

(٣) «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص٥١).

وقال الخطَّابي بعد أن نقَلَ قول الزجَّاج: «وهو - أي: الرقيب - في نعوت الآدميِّين: الموكَّل بحفظ الشيء، والمُتَرَصِّد له، المُتَحَرِّز عن الغفلة فيه»[(١)].

فالرقيب في أسماء الله ﷻ: بمعنى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يغفُلُ[(٢)]؛ فهو مُطَّلِعٌ على جميع الخلق، لا يعزُبُ عنه قليل ولا كثير من ذلك؛ يَرَى أحوالهم، ويُحصِي أعمالهم، فهو مُطَّلِع على الضمائر والسرائر، يَعلَم ويرى، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، «مُطَّلِعٌ على مكنونات الصدور، قائمٌ على كل نفس بما كَسَبَتْ، وهو الذي حَفِظَ المخلوقات وأَجْرَاها على أحسن نظام وأكمل تدبير»[(٣)]؛ كما أنه يراقِبُ الأشياء ويلاحظها؛ فلا تفوته لَفْتَةُ ناظر، ولا فَلْتَةُ خاطر، ولا تَغِيبُ عنه ذَرَّةٌ في السموات ولا في الأرض[(٤)]، رقيبٌ يُراقِبُ العِباد، يَعُدُّ الأنفاس، حفيظٌ لا يغفُل، حاضِرٌ لا يغيب.

وإنما يذكر الله ﷻ هذا الاسم الكريم المُقْتَضِي لهذه الصفة - وهي رَقَابته جَلَّ جلاله لخلقه - لِنَرْعَوِيَ ونَكُفَّ عما لا يليق.

فإذا تيقَّن العبد ذلك، وعَلِمَهُ، وآمَنَ به، وعَلِمَ أن ربَّه يراه ويشاهِدُهُ، وهو مطَّلِعٌ على أحوال العباد كلِّها، يراقِبُ حَرَكاتهم وسَكَناتهم وأقوالهم وأفعالهم، بل ما يجول في خواطرهم؛ فإنه يتأدَّب مع الله ﷻ الأدب اللائق، ولا يفعل شيئًا في سِرِّهِ يستحيي مِن إظهاره في علانيته؛ لأن الله ﷻ يراقِبُهُ ويشاهِدُه.

رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ الوُجُودِ مُهَيْمِنٌ ... عَلَى الْفَلَكِ الدَّوَّارِ نَجْمًا وَكَوْكَبَا
رَقِيبٌ عَلَى كُلِّ النُّفُوسِ وَإِنْ تَلُذْ ... بِصَمْتٍ وَلَمْ تَجْهَرْ بِسِرٍّ تَغَيَّبَا

---

(١) «شأن الدعاء» (ص ٧٢).

(٢) انظر: «الصحاح» (١/١٣٧)، (ر ق ب)، و«لسان العرب» (٥/٢٧٩)، (ر ق ب).

(٣) «تفسير السعدي» (١/٢٦)؛ بتصرُّف.

(٤) انظر: «النَّهج الأسمى» (١/٣٩٣ - ٤٠٠).

رَقِيبٌ تَعَالَى مَالِكُ المُلْكِ مُبْصِرٌ ... بِهِ كُلَّ شَيْءٍ ظَاهِرًا أَوْ مُحَجَّبَا(١)

فهذه الأحوال التي تحصُلُ للعبد إنما هي ثَمَرة لعلِمِه بمراقَبة الله تبارك وتعالى له.

وأنشد الإمام الشافعي، والإمام أحمد رحمهما الله(٢):

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى(٣) عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقال رجل لوُهَيْب بن الوَرْد: عِظْنِي؛ قال: «اتَّقِ أن يكون اللهُ أهوَنَ الناظِرِينَ إليك»(٤).

وقال عاصم الدِّمَشْقي: كان آدم بن أبي إِيَاس يجثو على ركبتَيْهِ قبل أن يُحدِّث في المجلس، ويقول: «والله الذي لا إله إلّا هو، ما من أحد إلّا وسَيَخْلُو به ربُّه، ليس بينه وبينه تَرْجُمان؛ يقول الله له: ألم أكُنْ رقيبًا على قلبك إذِ اشتهَيْتَ به ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكُنْ رقيبًا على عَيْنَيْكَ إذْ نظَرْتَ بهما إلى ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على سمعك إذْ أنصَتَّ به إلى ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على يَدَيْكَ إذْ بَطَشْتَ بهما إلى ما لا يَحِلُّ لك عندي؟! ألم أكن رقيبًا على قَدَمَيْكَ إذْ سَعَيْتَ بهما إلى ما لا يحلُّ لك؟! آستحييتَ من المخلوقين، وكنتُ أَهْوَنَ الناظرين إليك؟!»(٥).

وربما يستحيي الإنسان ويَنقبِضُ من صبي صغير؛ فلا يفعل بحضرته ما لا

---

(١) الأبيات للشاعر: أحمد مُخَيْمر.

(٢) «حلية الأولياء» (٩/٢٢٠)، و«شعب الإيمان» (٤/١٠٤)، و«تاريخ بغداد» (٥/٢٠٥)، و«تاريخ دمشق» (١٣/٤٥٥) (٥١/٤١٥).

(٣) أي: عن الخَلْق، أو الناس.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٤٢).

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٥/٢٩٤). والمُراد: أن العبد سيُحاسَبُ، مع صَرْفِ النظر عن خصوص هذه العبارات؛ فإنَّ ذلك إنما يُتَلَقَّى من الوحي، والنصوصُ الواردةُ في الحساب معلومة لا تخفى.

يليق، وربما ارعوى مِن أدنى الناس مرتبةً ممَّن لا يعظِّمه، ولكنه يفعل بخَلْوته أمورًا لا تَدُلُّ على أنه مستحضِرٌ لنظَرِ الله ﷻ ورقابته على أعماله، وأنَّ الله يشاهِده، وأنَّ الملائكة تكتُبُ ذلك جميعًا؛ فلو تيقَّن هذا، لكفَّ عن ذلك؛ خوفًا من ربِّه، أو حياءً منه، أو محبَّةً له؛ كما تقدَّم ذكره.

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرْعَى خَوَاطِرِي ... وَآخَرَ يَرْعَى نَاظِرِي وَلِسَانِيا[1]

فمِن أَدَبِ المؤمِن مع اسم الله «الرقيب»: أن يَعلَم أن الله هو رقيبه وشهيده في كل شيء، وأن يَعلَم أنَّ نفسه عدوَّة له، وكذلك الشيطان؛ فهما يَنتهِزَانِ كُلَّ فرصة ليحملاه على الغفلة.

وَغَفْلَةُ قَلْبِ الْمَرْءِ بُعْدٌ وَحَسْرَةٌ ... فَمَا نَالَ عُقْبَى رَبِّهِ غَافِلُ الْقَلْبِ

(٢) ومِن هذه الأسماء التي تُورِثُ المراقَبة: الشَّهِيد.

وهو مشتقٌّ من الشُّهُودِ بمعنى الحضور، ويستلزِمُ ذلك العلم؛ فالله ﷻ شهيد؛ أي: مطَّلِعٌ على كل الأشياء، يسمع جميع الأصوات، الخفيَّ منها والجليّ، يُبصِرُ جميع المخلوقات، الدقيقَ والجليل، الصغير والكبير، أحاط علمه بكل شيء... وهو شهيدٌ على الخَلْقِ يوم القيامة بما علم وشاهد من أفعالهم.

فهذه المعاني التي يذكُرُها السَّلَفُ ﷺ صحيحة، وهي تجتمِعُ تحت هذا الاسم الكريم، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣]، ويقول سبحانه: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩]، ويقول: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا﴾ [يونس: ٦١][2].

وإذا عَلِمَ العبد أن ربَّه مشاهِدٌ له، هان عليه كل ما يعانِيهِ في طلب مرضاته،

(١) أورده الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/٣٩٠).
(٢) انظر: «المنهاج الأسنى» (٢/٥٠٧ - ٥٠٨).

ولو كان ذلك من الأعمال التي تَشُقُّ على الأبدان وتُوهِنها؛ فإن العبد يتلذَّذ بهذا العمل؛ لأنَّ الله ﷻ مطَّلع عليه، ناظر إليه، وهو يتقرَّب بهذه القربات.

«والفرق بين الرقيب والشهيد: أن الرقيب: فيه زيادةُ حفظ؛ تقول: رَاقِبْ هذا؛ أي: احْفَظْه، فأنت تنظُرُ إليه، وتَطَّلِعُ عليه في كل حين.

أمَّا الشَّهِيدُ: فهو مطَّلِعٌ على جميع الأشياء، لا يغيب عنه شيء في الوجود، والرَّقِيب: مُطَّلِع عليها وحفيظ لها»[١].

(٣) ومن أسمائه المؤثِّرة في هذا الباب: الحفيظُ.

وله معنيان[٢]:

الأول: أنه قد حَفِظَ على العباد ما عملوه من خير وشر، وطاعة ومعصية؛ وهذا المعنى مِن حفظه يقتضي أن عِلْمَهُ محيط بأحوالهم الظاهرة والباطنة، وأنه قد كتَبَ ذلك في اللوح المحفوظ، وفى الصُّحُفِ التي بأيدي الملائكة، ويعلم مقاديرها، وما لها من الكمال، وما يَعْتَورُها من النقائص، ويعلم مقادير الجزاء والثواب والعقاب الذي يستحقُّه خلقه على تلك الأعمال؛ فيُجازِيهم بعدله سبحانه وتعالى.

والثاني: أنه الحافظ لعباده مِن كلِّ ما يَكْرَهون: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]؛ كما قال يعقوب ﷺ.

وقد ذكر المعنيَيْنِ الحافظ ابن القيِّم في «نونيَّتِهِ»، فقال[٣]:

وَهُوَ الحَفِيظُ عَلَيهِمُ وَهُوَ الْكَفِيـ ـلُ بِحِفْظِهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَانِي

ومِن آثار رقابتِهِ وحفظِهِ سبحانه وتعالى: أنْ جعل ملائكةً يكتُبُون ويسجِّلون أعمال العباد: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

يحفظ أعمالهم، وهو أيضًا يحفظهم من كل ما يكرهون ويتخوَّفون.

---

(١) المصدر السابق (٢/٥٠٧)؛ بتصرف يسير.

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/٥٠٨-٥٠٩).

(٣) «نونية ابن القيم» (٣٢٩٩).

جَلَّ الحَفِيظُ فَلَوْلَا لُطْفُ قُدْرَتِهِ ضَاعَ الْوُجُودُ وَضَلَّ النَّجْمُ وَالْفَلَكْ
حَتَّى القُطَيْرَةُ مِنْ مَاءٍ إِذَا نَزَلَتْ مِنَ السَّحَابِ لَهَا فِي حِفْظِهَا مَلَكُ(١)

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، فمَن عَلِمَ أن الله حفيظ، حَفِظَ جوارِحَه، وحفظ قلبه، وحَفِظَ عملَهُ ولسانَهُ مِن كلِّ ما لا يليق، وحفظ دينه من كل ما يُخِلُّ به، ويؤثِّر عليه من الشهوات، ولا تستهويه أهواء النفس ومطلوباتها، وما يدعوه إليه الشيطان ويَغُرُّهُ ويمنِّيه به، ثم إنَّ مَن حَفِظَ جَوَارِحَهُ، حفظ اللهُ عليه قلبه، ومَن حَفِظَ لله حقَّه، حفظ اللهُ له حقَّه.

«فهو سبحانه وتعالى رقيبٌ شهيدٌ حفيظ، يحفظ بانتظام وميزان ما في السموات والأرض، وما في البر والبحر، من رَطْب ويابس؛ فلا يغادِرُ صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها؛ فخالقُ هذا الكون يضبِطُ كلَّ شيء فيه ويرعاه، ويحفظه ولا ينساه...

وقد أثبت العلم الحديث إمكانيَّة استرجاع ما يصدُرُ عن الإنسان من الأصوات؛ ذلك أن كلام الإنسان يتحوَّلُ إلى موجات هوائية، وأن هذه الموجات تَبْقَى كما هي في الأثيرِ إلى الأبد بعد حدوثها، ومن الممكن سماعه مرة أخرى، ولكنَّ عِلْم البشر الآن قاصر عن إعادة هذه الأصوات، أو حِفْظِ تلك الموجات مرَّة أخرى، ولكنْ من ناحية علميَّة نظريَّة: من الممكن التقاط هذه الأصوات مرَّة أخرى، وسماع الأصوات القديمة؛ إذا ما نجَحَ الإنسان في اختراع آلة تقوم بذلك.

وهذا يجعل ما أخبَرَ به القرآن من تسجيل ما ينطق به الإنسان أمرًا سهلًا ميسورًا»(٢).

(١) «المنهاج الأسنى» (٢/٥١٤).
(٢) المصدر السابق (٢/٥١١-٥١٢).

(٤) ومن الأسماء التي تؤثِّر في هذا أيضًا: المحيط.

فالله ﷻ قد أحاط بكل شيء علمًا، فلا يَنِدُّ عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ومِن ذلك أعمال العباد[1].

وهذه الأسماء: الرقيب، والشهيد، والحفيظ، والمحيط، تَشترِكُ في صفة العلم؛ لكنَّ الرقيب يُفِيدُ العلمَ مع الحفظ - كما سبق - مثل اسمه: الحفيظ، والشهيدُ يفيدُ مع العلم: الحضورَ، والمحيطُ يفيد مع العلم: القُدْرةَ والشمول.

(٥) ومن الأسماء أيضًا: العليم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

يقول الحافِظ ابن القيِّم في «نونيَّته»:

وَالرَّبُّ فَوْقَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ لَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَوَاطِرُ الْإِنْسَانِ[2]

ومَن عَلِمَ أنَّ ربَّه تبارك وتعالى عالم بكلِّ شيء حتى بخَطَرات الضمائر، ووساوس الخواطر، فعليه أن يُراقِبه، ويستحيي منه، ويَكُفَّ عن معاصيه في السر والعلانية، ولا يَغترَّ بجميل ستر الله ﷻ عليه، بل يخشى مِن بَغَتات قَهْرِه، ومفاجآت مَكْرِه؛ قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣-١٤].

إِحَاطَةٌ بِجَمِيعِ الغَيْبِ عَنْ قَدَرٍ ... أَحْصَى بِهَا كُلَّ مَوْجُودٍ وَمُفْتَقَدِ
وَكُلُّهُمْ بِاضْطِرَارِ الفَقْرِ مُعْتَرِفٌ ... إِلَى فَوَاضِلِهِ فِي كُلِّ مُعْتَمَدِ
الْعَالِمُ الشَّيْءَ فِي تَصْرِيفِ حَالَتِهِ ... مَا عَادَ مِنْهُ ومَا يَمْضِي فَلَمْ يَعُدِ

---

(١) المصدر السابق (٢/٥٣٧)؛ والخلاف بين العلماء في ثبوت الاسم لله تعالى محفوظ.

(٢) «نونية ابن القيم» (٤٧٤٤).

وَيَعْلَمُ السِّرَّ مِنْ نَجْوَى الْقُلُوبِ وَمَا ... يَخْفَى عَلَيْهِ خَفِيٌّ جَالَ فِي خَلَدِ[(١)]

(٦) وَمِن هذه الأسماء أيضًا: الخبير.

وقد قال بعض السلف: «عليك بالمراقَبَةِ ممَّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرَّجَاء ممن يَملِكُ الوَفَاء»[(٢)].

والخبير: هو الذي يَعلَمُ بواطن الأشياء، فلا تَخفَى عليه خافية.

وبين هذه الأسماء: العليم والخبير والشهيد: ارتباطٌ لا يَخفَى، فإذا اعتُبِرَ العلم مطلقًا، فهو العليم، وإذا أُضِيفَ إلى الغيب والأمور الباطنة والخفيَّة، فهو الخبير، وإذا أُضِيفَ إلى الأمور الظاهرة، فهو الشهيد.

(٧) ومن هذه الأسماء أيضًا: اللَّطِيفُ[(٣)] - على بعضِ تفسيراته - وهو: العليمُ بدقائق الأشياء.

والاسم الواحد من أسمائه تعالى قد يتضمَّن أوصافًا متعدِّدة.

(٨-٩) ومن الأسماء كذلك: السميع والبصير.

فهو يسمع السِّرَّ والنجوى، وكلَّ الأصوات، وما تحت الثَّرَى، يسمع دَبِيبَ النَّمْلة السوداء، على الصَّخْرة الصماء، في اللَّيْلة الظلماء؛ فمَن عرَفَ أنَّ ربَّه بهذه الصفة، فإنه يتأدَّبُ بالمراقَبة، ويحاسِبُ نفسه بدقيق المحاسَبة[(٤)]؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وفي حديث جبريل؛ أنَّه سأل النبي ﷺ عن الإحسانِ، فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[(٥)].

وَيَسْمَعُ الحِسَّ مِنْ كُلِّ الوَرَى وَيَرَى ... مَدَارِجَ الذَّرِّ فِي صَفْوَانِهِ الْجَلَدِ

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/٣٨٨).

(٢) «الإحياء» (٤/٣٩٨).

(٣) انظر: «المنهاج الأسنى» (٢/٥٤٧).

(٤) انظر: «الآثار السلوكية لمعاني أسماء الله الحسنى» لرياض أدهمي (ص ٦٣).

(٥) تقدم تخريجه.

وَمَا تَوَارَى مِنَ الأَبْصَارِ فِي ظُلَمٍ ... تَحْتَ الثَّرَى وَقَرَارِ اليَمِّ وَالثَّمَدِ[١]

(١٠) ومن أسمائِهِ المتعلِّقة بهذا المعنى: «المُهَيْمِنُ» على بعضِ تفسيراته، وهو: الرَّقِيبُ الحافظ لكل شيء، الخاضع لسلطانه كل شيء، وهو القائم على خَلْقه، الشهيد عليهم، المُطَّلِع على كل شيء، لا يعزُبُ عنه مثقال ذرَّة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو مُطَّلِعٌ على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، أحاط بكُلِّ شيء علمًا؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

مَا شَاءَ كَانَ وَمَا فِي الْكَوْنِ خَافِيَةٌ ... تَخفَى عَلَى عِلْمِهِ بَدْءًا وَمُنْقَلَبَا
إِنَّا إِلَيْهِ أَنَبْنَا خَاشِعِينَ لَهُ ... وَجَاعِلِينَ لَهُ مِنْ ذِكْرِهِ سَبَبَا
لَا شَيْءَ فِي مُلْكِهِ أَوْ عَنْ إِرَادَتِهِ ... بِمُسْتَطِيعٍ خُرُوجًا أَيْنَمَا ذَهَبَا
جَلَّ الْمُهَيْمِنُ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ ... وَجَلَّ إِنْ لَمْ يَهَبْ شَيْئًا وَإِنْ وَهَبَا»[٢]

(١١) ومن هذه الأسماء المؤثِّرة في هذا المعنى: القَرِيبُ[٣].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن قُرْبَه تعالى على نوعين:

الأول: قُرْبٌ عامٌّ بمعنى الإحاطة، وهو عِلْمُ الله ﷻ بجميع الأشياء، وهو أقرَبُ إلى الإنسان من حَبْلِ الوريد[٤].

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/٣٨٨).

(٢) «المنهاج الأسنى» (٢/٥٣٥)؛ بتصرُّف واختصار.

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/٦٦٢).

(٤) وهذا على أحد القولَيْن في تفسير الآية: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والقول الآخر: أنه قُرْب الملائكة؛ وهو اختيار شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٥/٥٠٣ - ٥٠٥)، والحافظ ابن كَثِير في «التفسير» (٧/٣٩٨)، وغيرهما.

والثاني: قُرْبٌ خاصٌّ بالداعِينَ والعابِدين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وذهب شيخ الإسلام ابن تيميَّة: إلى أن القُرْبَ لا يكونُ إلّا خاصًّا، بخلاف المعيَّة؛ قال: «وجميع ما وصَفَ به الرب ﷻ نفسَهُ من القُرْب، فليس فيه ما هو عامٌّ لجميع المخلوقات، كما في المعيَّة؛ فإن المعيَّة وصَفَ نفسَهُ فيها بعمومٍ وخصوص»(١).

يقول ابن الجَوْزي: «الحقُّ ﷻ أقرَبُ إلى عبده سبحانه من حَبْلِ الوريد، لكنه عامَلَ العبدَ معامَلةَ الغائبِ عنه، البعيدِ منه، فأمره بقَصْدِ بَيْته، ورَفْعِ اليدين إليه، والسؤال له؛ فقلوبُ الجُهَّالِ تستشعِرُ البُعْدَ؛ ولذلك تقع منهم المعاصي؛ إذ لو تحقَّقت مراقَبَتُهم للحاضر الناظر، لكفُّوا الأَكُفَّ عن الخطايا»(٢).

وقال الحارث المحاسبي: «المراقَبة: عِلْمُ القَلْب، بِقُرْبِ الربّ»(٣).

والكلامُ على هذه الأسماء الحسنى يطول، وفيما تقدَّم كفاية.

والمقصودُ: أن ذلك كله يُثمِرُ «المعرِفةَ التي تُثمِرُ هذه الحال؛ وهي علم العبد بأنَّ الله مُطَّلِعٌ على الضمائر، عالِمٌ بالسرائر، رقيبٌ على أعمال العباد، قائمٌ على كلِّ نَفْس بما كسبت، وأن سِرَّ القَلْب في حقِّه مكشوف، كما أنَّ ظاهر البَشَرةِ للخَلْق مكشوف، بل أشدُّ من ذلك.

فهذه المعرِفة إذا صارت يقينًا - أعني: أنها خَلَتْ عن الشك، ثم استَوْلَتْ بعد ذلك على القلب - قَهَرَتْهُ؛ فرُبَّ علمٍ لا شكَّ فيه لا يَغلِبُ على القلب؛ كالعلم بالمَوْت، فإذا استَوْلَتْ على القلب، استجَرَّتِ القلب إلى مراعاة جانب

(١) «شرح حديث النزول» (ص١١٤).
(٢) «صيد الخاطر» (ص٢١٣).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٠٣).

الرقيب، وصرَفَتْ همَّه إليه، والموقنون بهذه المعرِفة هم المقرَّبون، وهم يَنقسِمون إلى الصِّدِّيقين، وإلى أصحاب اليمين»(١).

ثانيًا: تحقيقُ مرتبة الإحسان؛ وهذا مرتبِطٌ كلَّ الارتباط بما قبله مِن معرِفة الرب جل جلاله معرِفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته.

يقول ابن القيِّم: «وحقيقةُ مَشْهَدِ المراقَبة: هو أن يعبد اللهَ كأنه يَرَى ربَّه تبارك وتعالى فوق سمواته، مستويًا على عرشِه، يتكلَّم بأمره ونهيه، ويدبِّرُ أمرَ الخليقة، فيَنزِلُ الأمر من عنده، ويَصعَدُ إليه، وتُعرَضُ أعمالُ العباد عليه، وأرواحُهم عند الوفاة إليه؛ فيَشهَدُ العبد ذلك كلُّه بقلبه، ويشهد أسماءه وصفاته، ويشهد قَيُّومًا حيًّا، سميعًا بصيرًا، عزيزًا حكيمًا، آمِرًا ناهيًا، يُحِبُّ ويُبغِض، ويَرضَى ويَغضَب، ويَفعَلُ ما يشاء، ويحكُمُ ما يريد، وهو فوق عرشِهِ لا يَخفَى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور»(٢).

وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان؛ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»(٣)؛ أراد بذلك: استحضارَ عَظَمةِ الله، ومراقَبَتَهُ في حال العبادة.

قال ابن الأثير: «أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقَبة، وحُسْنِ الطاعة؛ فإنَّ مَن راقب الله أحسَنَ عمله»(٤).

ثالثًا: ذِكْر الله تبارك وتعالى، وقد ذكر الحافظ ابن القيِّم في «الوابل الصَّيِّب» للذِّكْرِ أكثر من مائة فائدة، وذكر في العاشرة: «أنه يُورِثُهُ المراقَبة،

---

(١) «الإحياء» (٣٩٨/٤)؛ بتصرُّف يسير.

(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص ٤٤ - ٤٥)؛ بتصرُّف يسير.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣٨٧/١).

حتى يدخُلَ في باب الإحسان، فيعبُدَ الله كأنَّه يَرَاهُ، ولا سبيلَ للغافل عن الذِّكْرِ إلى مقام الإحسان؛ كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت...

فأفضَلُ الذِّكْرِ: ما تواطأ عليه القلبُ واللسان، وإنما كان ذِكْرُ القلب وحدَهُ أفضلَ مِن ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يُثمِرُ المعرِفة، ويهيِّجُ المحبَّة، ويُثِيرُ الحياء، ويَبعَثُ على المَخَافة، ويدعو إلى المراقَبة»[1]؛ فلا يكون العبد بحالٍ مِن الغافِلِين.

رابعًا: محاسَبةُ النَّفْس، وملاحَظةُ الخواطر على كل حال؛ فالعَبْدُ بحاجة إلى محاسَبةِ نفسه، وملاحَظةِ خطراتِهِ في سِرِّهِ وعَلَانِيَتِه.

قال خالد بن مَعْدَان: «ما مِن عبدٍ إلّا وله أربع أعين؛ عينان في وجهه، يُبصِرُ بهما أمورَ الدنيا، وعينانِ في قلبه، يُبصِرُ بهما أمورَ الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا، فتح عينَيْهِ اللَّتَيْنِ في قلبه؛ فيُبصِر بهما ما وُعِدَ بالغيب»[2].

وقال بلال بن سعد: «لا تنظُرْ إلى صغر الخطيئة، ولكنِ انظر إلى مَن عَصَيْت»[3].

فإذا كان العبدُ مستحضِرًا لرؤية الله ﷻ، فإنه لا يُقدِمُ على معصيةٍ ولو كانت من صغائر الذنوب؛ فإنَّ مِن آداب المؤمِنِ أن يراقِبَ نفسَهُ وحِسَّه، ويتيقَّظَ لأنفاسه؛ كما قال بعض السلف لرجلٍ: «راقِبِ الله تعالى»، فسأله عن تفسيره، فقال: «كُنْ أبَدًا كَأَنَّكَ تَرَى اللهَ»[4].

وقال بعض المتقدِّمين: «إنما هي أربعة أشياء: عَيْناك، ولِسَانُكَ، وهَوَاك، وقلبُك، فانظُرْ عينيك؛ لا تنظُرْ بهما إلى ما لا يَحِلُّ لك، وانظر لسانك؛ لا

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ٩٥، ٢٢١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٢١٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧١)؛ ومن طريقه الإمام أحمد في «الزهد» (ص ٣٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/٢٢٣)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٢).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٧).

تَقُلْ به شيئًا يعلم الله خلافَهُ مِن قَلْبِك، وانظر قلبك؛ لا يَكُنْ فيه غِلٌّ ولا دَغَلٌ على أحدٍ من المسلِمِين، وانظر هواك؛ لا تَهْوَ شيئًا من الشرِّ؛ فما دام لم تكن فيك هذه الأربعُ خصال، فألْقِ الرَّمَادَ على رأسك»[١].

ويقول آخر: «تعاهَدْ نَفْسَكَ في ثلاثِ مواضع[٢]: إذا عَمِلْتَ، فاذكُرْ نظَرَ الله تعالى عليك[٣]، وإذا تكلَّمْتَ، فانظُرْ سمع الله منك، وإذا سَكَتَّ، فانظُرْ علم الله فيك»[٤].

فيكون الإنسان في حال نطقِهِ وسكوتِهِ، وفي حال حَرَكتِهِ وسُكُونه، مراقِبًا لربِّه ﷻ.

وقال أبو حفص لأبي عُثْمان النيسابوري: «إذا جَلَسْتَ للناس، فكُنْ واعِظًا لقلبِك ولنفسِك، ولا يَغُرَّنَّكَ اجتماعُهم عليك؛ فإنَّهم يراقِبُونَ ظاهِرَك، واللهُ تعالى يراقِبُ باطِنَك»[٥].

ولله دَرُّ إمام السنة أحمد بن حنبل وهو يُنشِد[٦]:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى[٧] عَلَيْهِ يَغِيبُ
لَهَوْنَا عَنِ الأَيَّامِ حَتَّى تَتَابَعَتْ ... ذُنُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ ذُنُوبُ

---

(١) أخرجه أبونعيم في «الحلية» (١٠/١٦٨).

(٢) هكذا في المطبوع من «الحلية»، والجادَّة: «ثلاثة مواضع»، ويمكن تخريج ما وقع هنا على أنَّ التقدير: «ثلاث حالات»؛ من باب الحمل على المعنى، وهو كثير في العربية.

(٣) هكذا في الأصل، والأصل أن تكون تعدية «النظر» بـ «إلى» في مثل هذا الموضع، لكنْ يُمكِنُ أن يُحمَلَ ذلك على تضمين: «نَظَرٍ» معنى «اطِّلَاعٍ»؛ فيعدَّى بـ «على».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٧٥).

(٥) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/٣٣١).

(٦) تقدَّم.

(٧) أي: على الخَلْق، أو الناس.

فَيَا لَيْتَ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ مَا مَضَى ... وَيَأْذَنُ فِي تَوْبَاتِنَا فَنَتُوبُ
إِذَا مَا مَضَى الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمُ ... وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ

وقال سفيان الثوري: «احذَرْ سخَطَ اللهِ في ثلاث: احذَرْ أن تقصِّرَ فيما أمَرَك، واحذَرْ أن يَرَاكَ وأنت لا ترضى بما قُسِمَ لك، وأن تطلُبَ شيئًا من الدنيا فلا تجده: أن تسخَطَ على ربِّك»(١).

وقال حُمَيْد الطويل لسليمان بن علي: عِظْني، فقال: «لَئِنْ كنتَ إذا عصَيْتَ الله خاليًا ظنَنْتَ أنه يراك، لقد اجترَأْتَ على أمرٍ عظيم، ولَئِنْ كنتَ تَظُنُّ أنَّه لا يراك، فلقد كَفَرْتَ»(٢).

هذا؛ وينبغي للعبد أن يجعل لنفسه وقتًا يفرِّغ فيه قَلْبَهُ للمحاسَبة والمراقَبة: «يقول للنَّفْس: ما لي بضاعةٌ إلَّا العمر، فإذا فَنِيَ مني رأس المال، وقع اليأس عن التجارة وطَلَبِ الرِّبْح؛ هذا يومٌ جديد قد أمْهَلَني الله فيه، وأخَّر أجلي، وأنْعَمَ عليَّ به، ولو توفَّاني، لكنتُ أتمنَّى أن يَرْجِعَنِي إلى الدنيا حتى أعمل صالحًا، فاحْسَبِي يا نفسُ أنك قد تُوُفِّيتِ، ثم قد رُدِدتِّ، فإيَّاكِ أن تضيِّعي هذا اليوم؛ فإنَّ كل نَفَس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها»(٣).

يقول بعضهم: «كان لبعض الأمراء وزير، وكان بين يديه يومًا، فالتفَتَ إلى بعضِ الغِلْمان الذين كانوا وقوفًا لا لِرِيبة، ولكنْ لحركة أو صَوْتٍ أَحَسَّ به منهم، فاتَّفَقَ أن ذلك الأمير نظَرَ إلى هذا الوزير في تلك الحالة، فخاف الوزيرُ أن يتوهَّمَ الأمير أنه نظر إليهم لِرِيبة، فجعَلَ ينظُرُ إليه كذلك، فبَعْدَ ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخُلُ على هذا الأمير، وهو أبدًا ينظُرُ إلى جانب، حتى توهَّم الأمير أن ذلك خِلْقةٌ وحَوَلٌ فيه.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/٢٤٤).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٨).

(٣) المصدر السابق (٤/٣٩٤ - ٣٩٥)؛ بتصرُّف.

فهذا مراقَبة مخلوق لمخلوق؛ فكيف مراقَبة العبد لسيِّده؟!»[١].

وكان الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيطي في دَرْسِهِ في المسجد النبوي كثيرًا ما يردِّدُ بعض الأمثال في المراقَبة، ومِن ذلك: أنَّه قال: «لو فرَضْنا أنَّ في هذا البَرَاحِ من الأرض مَلِكًا عظيمًا شديد البَأْس، عظيم النَّكال، شديدَ الغضب؛ إذا انتُهِكَتْ حُرُماتُه، قَتَّالًا للرجال، سَفَّاكًا للدماء، وحوله سيَّافه، والنِّطَعُ مبسوط، والسيف يقطُرُ دمًا، وحول هذا المَلِكِ بناته ونساؤه وجواريه، أيخطُرُ في البال أن أحدًا من الحاضرين يُطِلُّ بِرِيبة أو غَمْزة، أو إشارة عَيْن؟! لا وكلا، كلُّهم خاضع الطَّرْف، خاشع الجوارح، أُمنيته السلامة.

ونحن نؤكِّدُ لكم أن خالق السموات والأرض أعظم اطِّلاعًا، وأشدُّ بطشًا، وأفظع فَتْكًا؛ إذا انتُهِكَت حُرُماتُه جلَّ وعلا»[٢].

فكيف بِمَن يَسرَحُ بطَرْفه في كل مكان، ينظُرُ إلى ما حرَّم الله في القنوات وفي الشبكة، ومواقع التواصل، والأسواق والمتنزَّهات، هل استحضَرَ هذا نظَرَ الله ﷻ إليه وراقبه؟!

فحَذَارِ أن يكون الله هو أهوَنَ الناظرين إلينا، وليكنِ الحالُ كما قيل[٣]:

كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَرْعَى خَوَاطِرِي ... وَآخَرَ يَرْعَى نَاظِرِي وَلِسَانِيا

«جاء عن بعض الملوك: أنه كان له عَبْدٌ يُقبِلُ عليه أكثر ممَّا يُقبِلُ على أمثاله، ولم يكن العبد بحَسَنِ الصورة، ولا أكثَرَ قيمة، فكانوا يتعجَّبون من هذا؛ فرَكِبَ المَلِكُ يومًا إلى الصحراء ومعه أصحابه وعبيده، ونظَرَ إلى جبل بعيد عليه قطعة ثَلْج، نظَرَ إليه نظرةً واحدة، ثم أطرَقَ، فركض ذلك العبد بفَرَسِهِ قبل أن ينظُرَ الملك إليه، ولم يعلم الجماعة بشيء، وما لَبِثَ ساعةً حتى

---

(١) من كلام أبي علي الدقَّاق؛ نقله القشيري في «رسالته» (١/٣٣٠-٣٣١).

(٢) «العذب النمير» (٢/١٩٢)، (٣/٦٥)، (٤/٢٦٦)، (٥/٦٩).

(٣) تقدم.

جاء ومعه شيء من الثلج، فقال الملك: إنَّما أَخُصُّهُ بإكرامي ونَوَالي، وأقرِّبه، وأقدِّمه عليكم؛ لأنَّ لكل أحد منكم شُغْلًا، إنكم مشغولون بأنفسكم، وهو مشغول بمراقَبَة أحوالي»[١].

شُغْلُهُ ذلك! شَغَلَتْهُ مراعاة لَحَظات الملك عن نفسه، وعن شَهَواته ولذَّاته، فهل شُغِلْنا بمراقَبَة الله ﷻ عن مُعافَسةِ المحرَّمات، ومُقارَفةِ المدنِّسات؟!

اذْكُـرِ اللهَ مَـا خَـلَـوْتَ كَـثِـيـرًا ... فَـهْوَ أَزْكَى مَا يَكْـتُـبُ الْـمَلَكَانِ
وَاخْـشَـهُ إِنْ لَـهَـوْتَ فَـهْـوَ رَقِـيـبٌ ... وَقَـرِيـبٌ لِـلْـقَـلْـبِ وَالـشِّـرْيَـانِ
لَا تَـقُـلْ إِنْ خَـلَـوْتَ إِنِّـي وَحِـيـدٌ ... فَـمَـعَ اللهِ أَنْـتَ فِـي كُـلِّ شَـانِ
إِنَّ عَـيْـنَ الْإِلَـهِ مَـا غَـابَ عَـنْـهَـا ... أَيُّ حَـيٍّ فِـي عَـالَـمِ الْأَكْـوَانِ
تَرْقُبُ الخَلْقَ فِي جَلَالٍ وَحُكْـمٍ ... وَاقْـتِـدَارٍ وَرَحْـمَـةٍ وَجِـنَـانِ[٢]

قال يعلى بن عُبَيْد: سمعت سفيان الثوري يقول: «لو كان معكم مَن يَرفَعُ الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلَّمون بشيء؟ قلنا: لا، قال: فإنَّ مَعَكُمْ مَن يَرفَعُ الحديث»[٣].

ويقول آخر: «لو أن صاحب خبر جلس إليك - أي: مَن ينقُلُ إلى السلطان حديث الناس - لِيَكتُبَ كلامك، لاحترَزْتَ منه، وكلامُكَ يُعرَضُ على الله؛ فلا تَحْتَرِز!»[٤].

وذُكِرَ أنَّ أحد الشيوخ كان له جَمْعٌ من التلاميذ، وكان قد خَصَّ واحدًا منهم بمَزِيدٍ من العناية والرعاية؛ فسألوه عن السبب؟ فقال: سأُبيِّنُهُ لكم، وبعد حِينٍ أعطى كل واحد من التلاميذ طائرًا، وقال لكل واحد: اذْبَحْ هذا الطائر حيثُ لا يراك أحد؛ فمضى كلُّ واحد منهم إلى جهة، ثم رجَعَ إلى شيخه، وقد

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٥٧)؛ بتصرف.
(٢) «ديوان إسماعيل صبري» (٣٩).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٦٩-٧٠).
(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/٢٤٣).

ذبَحَ الطائر، ما عدا ذلك التلميذ؛ فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده لم يَذْبَحْه، فسأله الشيخ، فأجابه: أنتَ أَمَرْتَني أن أذبَحَ الطائر حيثُ لا يراني أحد، ولم أَجِدْ موضعًا لا يراني الله فيه! فالتفَتَ الشيخُ إلى بقيَّة التلاميذ، وقال: مِن أجلِ هذا خصَصْتُهُ بمزيدٍ من العِنَاية[1].

وما أحوج العبد أن يكون له فقهٌ ونَظَرٌ مع هذه النفس؛ بحيث يُلاحِظها في حَرَكاتها وسَكَناتها.

وقد مثَّل ابن القيِّم هذه النَّفْسَ مع صاحبها بحال الشريك مع صاحبه المشارِك في المال؛ فقال: «فكما أنه لا يَتِمُّ مقصود الشركة من الربح إلّا بالمشارَطةِ على ما يفعل الشريك أولًا، ثم بمطالَعةِ ما يعمل، والإشرافِ عليه، ومراقَبتِهِ ثانيًا، ثم بمحاسبتِهِ ثالثًا، ثم بمنعِهِ من الخيانة إن اطَّلَعَ عليه رابعًا، فكذلك النَّفْسُ يشارِطُها - صاحبها - أولًا على حفظ الجوارح السبعة التي حِفْظُها هو رأس المال والربح بعد ذلك، فمَن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الرِّبْح؟! وهذه الجوارح السبعة - وهي: العين، والأذن، والفم، واللسان، والفَرْج، واليد، والرِّجْل - هي مراكب العَطَب والنجاة؛ فمنها عَطِبَ مَن عَطِبَ بإهمالها وعدَم حفظها، ونَجَا مَن نَجَا بحفظِها ومراعاتِها؛ فحِفْظُها أساسُ كلِّ خير، وإهمالُها أساس كل شر؛ قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

---

(١) نقله القشيري في «رسالته» (١/٣٣٠ - ٣٣١).

فإذا شارَطَها على حفظِ هذه الجوارح، انتقَلَ منها إلى مطالَعَتِها، والإشرافِ عليها، ومراقَبَتِها، فلا يُهمِلها؛ فإنه إنْ أهملها لحظة، رَتَعَتْ في الخيانة ولا بد، فإنْ تمادى على الإهمال، تمادت في الخيانة حتى تُذهِبَ رأس المال كله، فمتى أحسَّ بالنقصان، انتقَلَ إلى المحاسَبة؛ فحينئذٍ يتبيَّن له حقيقة الربح والخُسْران، فإذا أحَسَّ بالخسران، وتيَقَّنَهُ، استَدْرَكَ منها ما يستدرِكُهُ الشريك من شريكه؛ مِن الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقَبة في المستقبل، ولا مطمع له في فَسْخِ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره؛ فإنه لا بُدَّ له منه، فليجتَهِدَ في مراقَبَتِهِ ومحاسَبَته، وليحذَرْ من إهماله.

ويُعِينُهُ على هذه المراقَبة والمحاسَبة معرفتُهُ أنه كلَّما اجتهد فيها اليوم، استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلَّما أهملها اليوم، اشتَدَّ عليه الحساب غدًا، ويُعِينُهُ عليها أيضًا: معرفتُهُ أنَّ رِبْحَ هذه التجارة سُكْنَى الفردوس، والنظَرُ إلى وجه الرب سبحانه، وخسارَتُها دخول النار والحجاب عن الربِّ تعالى.

فإذا تيقَّن هذا، هان عليه الحساب اليوم، فحَقٌّ على الحازم المؤمِنِ بالله واليوم الآخر: ألَّا يغفُلَ عن محاسَبة نفسه، والتضييق عليها في حَرَكاتها وسَكَناتها، وخَطَراتها وخَطَواتها؛ فكلُّ نَفَسٍ من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يَجلِبُ هلاكه، خسران عظيم، لا يسمح بمثله إلَّا أجهَلُ الناس، وأحمَقُهم، وأقلُّهم عَقْلًا، وإنما يَظهَرُ له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]»(١).

وكل ذلك إنما يُمكِنُ بصبر ساعة واحدة، وهي الساعة الراهِنة، فيكونُ ابنَ وَقْته؛ كأنه في آخِرِ أنفاسه، ولعلَّه في آخر أنفاسه وهو لا يدري، وعليه ألَّا يَطُولَ أملُهُ خمسين سَنَةً، فيطول عليه العزم على المراقَبة فيها.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/١٦٠- ١٦١).

ثَمَرَاتُ المُرَاقَبَة

أولًا: التأدُّبُ مع الله تبارك وتعالى:

فإذا كان العبد مراقِبًا لله، فإنه يتأدَّب معه في كل حَرَكاته وسَكَناته؛ لأنه يُدرِك أن الله يَرَاهُ ويسمعه ويراقبه، وهذا الأدب «ثلاثة أنواع:

الأول: صيانة معاملَته أن يَشُوبها بنقيصة.

والثاني: صيانة قلبه أن يَلتفِتَ إلى غيره.

والثالث: صيانة إرادته أن تتعلَّق بما يمقُتُه عليه»[١].

وقال بعضهم: «المراعاةُ تُورِث المراقَبة، والمراقَبةُ تُورِثُ خلوص السرِّ والعلانِيَة لله تعالى»[٢].

وقد قيل: «أَسْرَعُ الأشياء عِظَةً للقلب وانكسارًا له: ذِكْرُ اطِّلَاع الله بالتعظيم له»[٣].

فإذا راقَبْنا الله، فإن ذلك يُوجِبُ صيانة الظاهر والباطن؛ نَصُونُ الظاهر: بحِفْظِ الحركات الظاهرة، ونَصُونُ الباطن: بحِفْظِ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة؛ فلا يكون في القلب معارَضة لأمر الله أو خبرِهِ أو قضائِهِ وقَدَرِه، كما يتجرَّد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارِضُ أمره، ومِن كل إرادة

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٧٦) بتصرف.

(٢) ذكره القشيري في «رسالته» (١/٣٣١)؛ من كلام إبراهيم الخَوَّاص.

(٣) «حلية الأولياء» (١٠/٨٦).

تعارِضُ إرادته، ومِن كل شبهة تعارِضُ خَبَرَهُ، ومِن كل محبَّة تزاحِمُ محبَّته، وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلّا من أتى الله به: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقد قيل: «مَن راقَبَ اللهَ في خواطِرِه، عصَمَهُ الله في جوارحِه»(١).

وسُئِلَ بعضهم: «بِمَ يستعينُ الرجُلُ على غَضِّ بصرِهِ عن المحظورات؟ قال: بعلمه أن رؤية الله تعالى سابقةٌ على نظره ذلك المحظور»(٢).

وقد أجمع العُبَّادُ والعارفون على أن مراقَبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حَرَكات الظواهر؛ «فمَن راقَبَ الله في سِرِّه، حَفِظَهُ الله في حَرَكاتِهِ في سِرِّهِ وعلانِيَتِهِ»(٣).

وقيل لبعضهم: «متى يَهُشُّ الراعي غَنَمَهُ بعصا الرِّعاية مِن مَراتِع الهَلَكة؟ فقال: إذا عَلِمَ أن عليه رقيبًا»(٤).

ومعلوم أن «مبدأ كل عِلْمٍ نظري، وعملٍ اختياريٍّ هو الخَوَاطِرُ والأفكار؛ فإنها تُوجِبُ التصوُّرات التي تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرةُ تكراره تُعطِي العادة، فصلاحُ هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادُها بفسادها؛ فصلاح الخواطر بأن تكون مراقِبةً لوليِّها وإلهها، صاعدةً إليه، دائرةً على مرضاته ومَحَابِّه؛ فإنه سبحانه وتعالى به كل صلاح، ومِن عنده كل هدى؛ ومِن توفيقه كل رُشْد، ومِن تولِّيه لعبده كل حفظ، ومِن تولِّيه وإعراضه عنه كلُّ ضَلَال وشقاء، فيَظفَرُ العبد بكل خير وهدى ورشد؛ بقدر إثبات عَيْنِ فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده، وطُرُقِ معرفتِهِ وطرق عبوديَّته؛ فيكون العبد حافظًا لأفعاله وأقواله وخَوَاطره مِن كُلِّ ما لا

(١) «الرسالة القشيرية» (١/٣٣٠)، وأخرج البيهقي نحوه في «شعب الإيمان» (٦٩٠٧).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٧)؛ بتصرف.
(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٣٠).
(٤) «الرسالة القشيرية» (١/٣٣٠).

يليق، فلا يَطَّلِع ربُّه منه على عَوْرة يستحيي من اطّلاع المخلوقين عليها، ويكون بذلك مترفِّعًا عن المَدَانِس والأقذار؛ وبهذا يكون نقيًّا سليمًا في باطنه وظاهره، وإذا تباعد العبد عن ذلك، لَحِقَهُ كل شر وفساد في الظاهر والباطن؛ فكل شرٍّ إنما يكون بالتباعد عن الله ﷻ، وكل خير يحصُلُ بالقرب منه»[1].

وانظُرْ إلى حال كثير منا مع الصيام؛ فإنه يراقِبُ الله ﷻ مراقَبةً لو جعلها في كل أحواله وأعماله، فإنه يكون بذلك محفوظًا بإذن الله تعالى، ويكون له سلطانٌ عظيم على هذه النَّفْس؛ حتى يصير ذلك عادةً وسجيَّة له، لكنَّ العبد إنما يراقِبُ ربه في بعض الأعمال وفي بعض الأحوال، ويغفُلُ عنه في أحوالٍ وأعمالٍ أخرى، فتجد الواحد منَّا عند فِطْرِهِ يرقُبُ الأذان أو غروب الشمس، فلا يأكل هذه التمرة، ولا يشرب شَرْبة ماء حتى تغرب الشمس، ولكنه بعد أن يُفطِرَ ربما ينظر إلى الحرام، ويسمع الحرام، بل ربَّما أفطر على الحرام، وهذا تناقُضٌ يجب على العبد أن يعالِجَهُ، وأن يراجِعَ نفسه، وأن يراقِبَ ربَّه سبحانه وتعالى في جميع أحواله، فإذا وُجِدَتْ هذه المراقَبة، انتظَمَتْ أحوال العبد، وكانت تربيتُهُ كاملة، وهذه حقيقة التربية.

إنَّ وازع الدِّين والمراقبة لربِّ العالمين، يفعل في النفوس ما لا يفعله وازع القوَّة والسلطان، فإذا أَلِفَ العبدُ مراقَبة ربِّه، واستحضر شهودَهُ واطِّلَاعَهُ عليه؛ فإنَّ المجتمَع يأمَنُ بوائِقَه، ويستريحُ كثيرًا من شروره.

وإذا أراد الله تعالى عبدًا بخير، «بذَرَ في قلبه بُذُورَ التوفيق، ثُمَّ سقاه بماء الرَّغْبة والرَّهْبة، ثم أقام عليه بأطوار المراقَبة، واستخدَمَ له حارس العلم، فإذا الزرعُ قائمٌ على سُوقِه»[2].

---

(١) «الفوائد» (ص ٢٥٢ - ٢٥٣)؛ بتصرف.

(٢) «الفوائد» (٦٩)؛ بتصرف.

أمَّا إذا كان الاعتمادُ على وازع القوَّة، وحارس القانون، فإن القوَّة قد تضعُفُ، والحارس قد يغفُلُ، والقانون قد يؤوَّل، وقد يُتَحَايَلُ عليه للتخلُّص من سلطانه؛ ولذلك تكثُرُ الجرائم والمفاسد إذا قلَّت التربية الدينيَّة في المجتمع.

«فمراقَبةُ الحقِّ تعالى هي المُوجِبةُ لكلِّ صلاح وخير، عاجل وآجل؛ فمراقَبةُ الحقِّ سبحانه وتعالى تُوجِبُ إصلاحَ النَّفْس، واللُّطْفَ بالخَلْق»(١).

ولا يخفى أنَّ هناك ملازَمة بين ظاهر الإنسان وباطنه؛ فالإنسان الذي يحمل في قلبه معاني سيِّئة مهما حاول أن يَظهَرَ أمام الآخرين بصورة طيِّبة، لا بُدَّ أن يُفتضَحَ، والإنسان الذي يكون في الخَلْوة على حال غير مرضيَّة، وفي حال الجَلْوة على حال التأدُّب والصيانة، لا بُدَّ أن يُفتضَحَ إلّا من ستَرَهُ الله ﷻ، ولطَفَ به.

يقول سليمان التيمي: «إنَّ الرَّجُلَ لَيُذْنِبُ الذنب، فيصبحُ وعليه مَذَلَّتُه»(٢).

وكما قيل: «إن أحدًا لا يُسِرُّ منكَرًا إلَّا ظهَرَ في فَلَتات لسانه، وصَفَحات وجهه، وطَوَالع نَظَره»(٣).

وقال أبو حازم: «لا يُحسِنُ عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلّا أحسَنَ الله فيما بينه وبين العباد، ولا يعوِّرُ فيما بينه وبين الله تعالى إلّا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولَمُصَانَعةُ وجه واحد أَيْسَرُ مِن مصانَعةِ الوجوه كلها، إنك إذا صانَعْتَ الله، مالت الوجوه كلُّها إليك، وإذا أَفْسَدتَّ ما بينك وبينه، شَنَأَتْكَ الوجوهُ كلُّها»(٤).

وقال ابن الجوزي: «نظَرْتُ في الأدلَّة على الحق سبحانه وتعالى،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥١١)؛ بتصرف.
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٣١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٨٣٩)؛ واللفظ له.
(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/٢٠٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/٤٢٥ - ٤٢٦).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٣٩).

فوجدتُّها أكثر من الرَّمْل، ورأيتُ مِن أعجَبِها أنَّ الإنسانَ قد يُخفِي ما لا يرضاه الله ﷻ، فيُظهِرُه الله سبحانه عليه ولو بعد حين، ويُنطِقُ الألسنةَ به وإن لم يشاهده الناس، وربَّما أوقع صاحبَهُ في آفة يَفضَحُهُ بها بين الخلق، فيكون جوابًا لكل ما أخفَى من الذنوب؛ وذلك ليعلم الناس أن هناك مَن يجازي على الزَّلَل، ولا ينفع مِن قَدَرِهِ وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يُضَاعُ لديه عَمَل.

وكذلك يُخفِي الإنسان الطاعة، فتَظهَرُ عليه، ويتحدَّثُ الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنبًا، ولا يذكُرُونَهُ إلَّا بالمحاسن؛ لِيُعلَمَ أن هنالك رَبًّا لا يضيِّعُ عمَلَ عامل، وإنَّ قلوبَ الناس لَتَعْرِفُ حال الشخص وتحبُّه أو تأباه، وتذمُّه أو تَمدَحُهُ وَفْقَ ما يتحقَّق بينه وبين الله تعالى؛ فإنَّه يكفيه كل هَمّ، ويَدفَعُ عنه كل شرّ، وما أصلَحَ عبدٌ ما بينه وبين الخلق دون الحَقِّ إلّا انعكَسَ مقصوده، وعاد حامدُهُ ذامًّا»(١).

ويقول: «إنَّ لِلخَلْوةِ تأثيرات تَبِينُ في الجَلْوة، كم مِن مؤمن بالله ﷻ يَحترِمُهُ عند الخلوات، فيترُكُ ما يشتهي حذرًا من عقابه، أو رجاءً لثوابه، أو إجلالًا له؛ فيكون بذلك الفعل كأنه طرَحَ عُودًا هنديًّا على مِجْمَر، فيفوح طِيبُهُ، فيستنشقُهُ الخلائق ولا يدرون أين هو.

وعلى قدر المجاهدة في تَرْكِ ما [يهوى] تَقوَى محبَّته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطِّيب، ويتفاوت تَفَاوُتَ العُود، فترى عيونَ الخلق تعظِّمُ هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لِمَ، ولا يَقدِرون على وصفه لِبُعْدِهم عن حقيقة معرفته، وقد تمتدُّ هذه الأراييح - يعني: الروائح - بعد الموت على قَدْرِها؛ فمنهم: مَن يُذْكَرُ بالخير مُدَّة مديدة، ثم يُنسَى، ومنهم: مَن يُذكَرُ مائة سنة، ثُمَّ يُخفَى ذِكرُهُ وقبره، ومنهم: أعلامٌ يبقى ذكرهم أبدًا، وعلى عَكْس هذا: من هاب الخَلْقَ ولم يحترِمْ خَلْوته بالحقِّ،

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٦٧- ٦٨).

فإنَّه على قَدْرِ مبارَزَتِهِ بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب: يفوح منه ريح الكَرَاهِيَة؛ فتمقته القلوب...

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إنَّ العَبْدَ ليخلو بمعصية الله تعالى، فيُلقِي اللهُ بُغْضَهُ في قلوب المؤمنين مِن حيثُ لا يشعُرُ[(١)]»[(٢)].

ومعلومٌ أن الأسباب التي يمكن أن يُتوصَّلَ بها إلى الشرِّ في مثل هذا الزمان - مِمَّا لا يَطَّلِعُ عليها الخلق - كثيرةٌ جدًّا؛ فينبغي للإنسان أن يلاحظ هذا المعنى، وأن يَحرِص عليه غاية الحرص، لا سيَّما مع ضعف الوازع لدى الكثيرين، وكثرةِ الطمع والأمورِ العارضة التي تستهوي الناس من ألوان الشهوات في الأموال والمكاسب، وفيما يتعلَّق بغير ذلك أيضًا، مما تَمِيلُ إليه النفوس، وجُبِلَتْ على محبَّته والانصراف إليه.

ثانيًا: دخولُ الجَنَّة:

فإذا صَلُحَتْ أعمال العباد الظاهرة والباطنة، وصَلُحَتْ قلوبُهم وأعمالهم، واستقامت ألسنتهم، فإن مآلهم إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السموات والأرض؛ قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١-٣٥]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وقد سُئِلَ بعض المتقدِّمين: بِمَ ينالُ العبد الجنَّة؟ فقال: «بخمسٍ: استقامةٍ ليس فيها رَوَغَان، واجتهادٍ ليس معه سَهْو، ومراقَبةِ الله تعالى في السرِّ والعَلَانِيَة، وانتظارِ الموت بالتأهُّب له، ومحاسَبةِ نَفْسِك قبل أن تحاسَبَ»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٢١٥).

(٢) صيد الخاطر (ص ١٨٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٤/٣٩٧- ٣٩٨).

والواقع: أن هذه جميعًا تَرجِعُ إلى المراقَبة؛ لأن الاستقامة التي ليس معها رَوَغَان إنما تكون بمراقَبة الله ﷻ، وهكذا الاجتهاد الذي ليس معه سَهْو؛ فإنَّ الغَفْلة إنما تقع في قلب العبد، ويحصُلُ التفريط في عمله بسبب ضَعْفِ مراقبته، وهكذا.

ثالثًا: الوصول إلى القُرْب من المعبود ﷻ:

فإن المعاصي والغَفَلات تُبعِدنا عنه، فكلَّما كان العبد أكثر استحضارًا لنظر الله ﷻ إليه، كان أكثرَ قُرْبًا، وذلك حال يَصِلُ إليه العبد بعد ألوان من الترويض والمجاهَدات التي يجاهد فيها نَفْسه، وقد قال الجُنَيْد: «اعلم أنه ﷻ يقرُبُ مِن قلوب عباده على حسَبِ ما يرى من قُرْبِ قلوب عباده منه؛ فانظر ماذا يقرُبُ من قلبك؟!»(١).

وسأله رجل: كيف الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: «توبةٌ تَحُلُّ الإصرار - يعني: على الذنوب والمعاصي - وخوفٌ يُزِيلُ الغِرَّة، ورجاءٌ مُزعِجٌ إلى طريق الخَيْرَات، ومراقَبةُ الله في خواطر القلوب»(٢).

والمراقَبة تقتضي حالَ القُرْب، وحالُ القُرْبِ لعبدٍ شاهَدَ بقلبه قُرْبَ الله منه، فتقرَّب إلى الله تعالى بطاعته، وجمَعَ هَمَّهُ بين يدي الله بدوام ذكرِهِ في علانيته وسِرِّه.

يقول عامرُ بن عبد قيس: «ما نظَرْتُ إلى شيءٍ إلَّا رأيتُ الله أقرَبَ إليه منِّي»(٣).

رابعًا: السعادة والانشراح وقُرَّة العين:

وذلك لأن الإنسان إذا كان مستحضِرًا لنظر المعبود سبحانه وتعالى، فإن ذلك يُثمِرُ عنده استعدادًا لملاقاته، وحفظًا لجوارحِهِ وقلبِهِ من سائر ما يدنِّسه،

---

(١) «اللمع في التصوُّف» للطوسي (ص ٨٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٦٩).

(٣) ذكره ابن عطيَّة في «تفسيره» (٥/٢٥٣).

وإذا فعل ذلك، حصل للقلب أنواع النعيم والسرور والبهجة والانشراح، وإنما يشقى قلب العبد إذا كان كثير الالتفات إلى غير مليكه ومعبوده ﷻ، فيعذَّب بتلك التعلُّقات التي يتعلَّق بها؛ فإنَّ هذا القلب إنَّما رُكِّبَ تركيبًا خاصًا ليتوجَّه إلى المعبود دون سواه، فإذا تعلَّق بغيره، وتشاغَلَ به، فإنه يَقلَقُ ويتعذَّب ويَحزَنُ بقدر تعلُّقاته التي قد تعلَّقها بغير ربِّه ومعبوده ومليكه جلَّ جلاله؛ ولذلك قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّة: «إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخُلْها لا يدخُلْ جَنَّةَ الآخرة»(١).

خامسًا: تعظيم الجزاء على العمل:

ولذلك قال الله ﷻ في الحديث القُدْسي: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(٢)، وهذا بيانٌ لعِظَمِ فضله، وكثرة ثوابه؛ لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولَّى بنفسه الجزاء، اقتضى عِظَمَ قدر الجزاء وسَعَةَ العطاء؛ إذْ لم يَحُدَّهُ بحدٍّ معيَّن، كما هو الحال في كثير من فضائل الأعمال؛ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، والصومُ مِن الصبر؛ فهذا الصائِمُ لا يمنعه من الفطر إلّا مراقَبة الله ﷻ، وتلك المراقَبة هي التي دَلَّتْ على عِظَمِ هذا العمل، وأثمَرَتْ هذا الجزاء الموفور.

سادسًا: السكينة والحياء، والمحبَّة والخشوع، والخوف والرجاء، والاستعانة والتوكُّل:

وما إلى ذلك مِن كل عمل طيِّب من أعمال القلوب والجوارح:

وقد ذكر الإمام ابن القيِّم جملةً من الأسباب التي يُتوصَّلُ بها إلى السكينة، ثم أجمَلَ ذلك بقوله: «سببُها: استيلاءُ مراقَبةِ العبد لربِّه جل جلاله، حتى كأنَّه يَرَاهُ، وكلَّما اشتدَّت هذه المراقبة، أوجَبَتْ له من الحياء والسكينة والمحبَّة،

---

(١) «الوابل الصيِّب» (ص ١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

والخضوع والخشوع، والخوف والرجاء: ما لا يحصُلُ بدونها؛ فالمراقَبةُ أساس الأعمال القلبية كلِّها، وعمودُها الذي قيامها به»[(١)].

وإذا كان الإنسان إذا خاطب ذوي الهيئات، تأدَّب وحرَصَ ألَّا يبدر منه ما يؤاخَذُ به، فكيف إذا استحضَرَ نظَرَ الله ﷺ إليه، وكتابة الملائكة، وأنهم يشاهِدُونَ عمله، ويدوِّنونَهُ؛ فإنه يتأدَّب غاية الأدب، ويستحيي من الله حق الحياء، ويخافه ويخشاه.

وقد قيل لبعض الخاشعين المستكينين: علَامَ بَنَيْتَ أَمْرَكَ في التوكُّل؟ قال: «على أربعِ خلال: عَلِمْتُ أنَّ رزقي لا يأكُلُهُ غيري؛ فلستُ أهتمُّ له، وعَلِمْتُ أن عملي لا يعمله غيري؛ فأنا مشغولٌ به، وعَلِمْتُ أنَّ الموتَ يأتيني بغتةً؛ فأنا أبادِرُه، وعَلِمْتُ أني بعَيْنِ الله في كل حال؛ فأنا مُسْتَحْيٍ منه»[(٢)].

سابعًا: صحة الفِرَاسة:

وإنما تَقوَى فراسة العبد كلَّما قَوِيَتْ مراقبتُهُ وتقواه لله تعالى؛ وذلك أنه إذا صَحَّ سلوك العبد في سَيْرِهِ إلى ربِّه وصَفَا قلبه، فإنَّ نظر عين القلب لا يكادُ يخطئ، وعين القلب هي البصيرة التي يفرِّقُ بها بين الحق والباطل، وقد قال شاه بن شجاع الكِرْماني: «مَن عمَّر ظاهره باتِّبَاعِ السُّنَّة، وباطنَهُ بدوامِ المراقَبة، وكَفَّ نفسه عن الشهوات، وغَضَّ بصَرَهُ عن المحارم، واعتاد أكل الحلال؛ لم تخطئ له فِرَاسة»[(٣)].

ثامنًا: إيثار ما أنزَلَ الله، وتعظيمُ ما عظَّم الله، وتصغيرُ ما صغَّره سبحانه وتعالى:

وهذا في كل شيءٍ من عرَضِ الحياة الدنيا وسائر الأعمال، والأشخاص

---

(١) «إعلام الموقعين» (٦/١١١ - ١١٢).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٢١٦)؛ واللفظ له.

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/١٠٥)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٣٧) بنحوه.

والطوائف والأمم والأملاك وما إلى ذلك، وقد قال ذو النُّون: «ثلاثةٌ مِن أعمال المراقَبة: إيثارُ ما أنزَلَ الله، وتعظيمُ ما عظَّم الله، وتصغيرُ ما صغَّر الله»(١).

تاسعًا: حِفْظُ الأنفاس والأوقات:

فإذا عرَفَ الإنسان أن ربَّه ينظر إليه، ويكتب كل شيء يصدر عنه، فلن يضيِّع لحظةً بِعَبَث، وما أحسن ما قال الحسن: «ابنَ آدَمَ، إنما أنت أيَّام، كلَّما ذهَبَ يومٌ، ذهَبَ بعضُك»(٢).

وقال الجُنَيْد: «مَن تحقَّق في المراقَبة، خاف على فَوَات لحظةٍ من ربِّه لا غيرُ»(٣).

* * *

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٥٢٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص ٢٧٨)، والدينوري في «المجالسة» (٥٨٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٨/٢)؛ واللفظ له. وقد رُوِيَ من كلام أبي الدرداء؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٢٦)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٠١٨٠)، و«الزهد» (٥٠٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٧٠/٤٧-١٧١).

(٣) «مدارج السالكين» (٦٥/٢).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ المُرَاقَبَة

١ - قال عُرْوة بن الزُّبَيْر: «خَطَبْتُ إلى عبد الله بن عُمَرَ ابنتَهُ ونحن في الطواف، فسكَتَ ولم يُجِبْنِي بكلمة، فقلتُ: لو رَضِيَ لأجابني، واللهِ، لا أراجِعُهُ فيها بكلمةٍ أبدًا، فقُدِّرَ له أنْ صدَرَ إلى المدينة قَبْلِي، ثم قَدِمْتُ، فدخَلْتُ مسجد الرسول ﷺ، فسَلَّمْتُ عليه، وأَدَّيْتُ إليه من حقِّه ما هو أهله، فأتيتُهُ، ورحَّب بي، وقال: متى قَدِمْتَ؟ فقلت: هذا حين قدومي، فقال: أكُنْتَ ذكرتَ لي سَوْدَةَ بنت عبد الله، ونحن في الطوافِ نَتَخَايَلُ اللهَ ﷻ بين أَعْيُنِنا، وكنتَ قادرًا أن تَلْقاني في غير ذلك الموطن؟ فقلتُ: كان أمرًا قُدِرَ، قال: فما رأيُكَ اليوم؟ قلتُ: أحرَصُ ما كُنْتُ عليه قطُّ، فدعا ابنَيْهِ سالمًا وعبد الله، فزوَّجني»(١).

فقد كانت مراقَبة الله ﷻ مستولِيَةً على قلبه ؓ؛ فما عاد يَنطِقُ بشيء من أمر الدنيا.

٢ - وقال زيد بن أسلم: «مَرَّ ابن عمر براعي غَنَم، فقال: يا راعي الغنم، هل من جَزَرةٍ؟ قال الراعي: ليس هاهنا ربُّها، فقال ابن عمر: تقول: أَكَلَها الذئب، فرفَعَ الراعي رأسه إلى السماء، ثم قال: فأين الله؟ فاشتَرَى ابنُ عمر الراعي، واشتَرَى الغنم؛ فأَعْتَقَهُ وأعطاه الغنم»(٢).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٠٩/١).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٣٠٦)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٥٤)؛ واللفظ له، والأثر احتج به الذهبي في «مختصر العلو» (٩٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣٤٧/٩) «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن الحارث الحاطبي؛ وهو ثقة»، وصحَّح إسناده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٧٠/٧).

٣ - ونَظَر عُبَادةُ بن الصامت ﷺ إلى الصُّنَابِحِيِّ - وهو من أئمَّة التابعين - فقال: «مَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى رجل كأنَّما رُقِيَ به فوق سبع سموات، فعَمِلَ ما عمل على ما رأى؛ فلينظُرْ إلى هذا»[(١)]؛ يعني: أنَّ الصُّنَابِحِيَّ كان يراقِبُ الله ﷻ، وكان شديد الخوف والحياء منه سبحانه.

٤ - وذُكِرَ عند الإمام أحمد - لمَّا كان في مرض الموت - عن طاوُس؛ أنَّه كان يكره الأَنِينَ؛ فلم يَئِنَّ حتَّى مات[(٢)].

٥ - وقال ابن دَقِيق العِيدِ: «ما تكلَّمْتُ كلمةً، ولا فَعَلْتُ فعلًا إلّا وأعدَدتُّ له جوابًا بين يَدَي الله»[(٣)].

٦ - وقيل للجُنَيْد: قل: لا إله إلّا الله، فقال: «ما نَسِيتُهُ فأَذْكُرَهُ، وقال:

حَاضِرٌ فِي القَلْبِ يَعْمُرُهُ ... لَسْتُ أَنْسَاهُ فَأَذْكُرُهُ
فَهْوَ مَوْلَايَ وَمُعْتَمَدِي ... وَنَصِيبِي مِنْهُ أَوْفَرُهُ»[(٤)]

٧ - وقال البخاري: «ما اغتَبْتُ أحدًا قطُّ منذ علمتُ أن الغِيبَةَ تَضُرُّ أهلها»[(٥)].

وكان يقول: «إني أرجو أن ألقى الله ولا يُحاسِبُني أني اغتبتُ أحدًا»[(٦)].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٨٥٧)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٢٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٣٥/١٣٠).

(٢) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٢٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/١٨٣)، وابن الجوزي في «مَنَاقب الإمام أحمد» (ص٥٤٦)، وهو في «سيرة الإمام أحمد» لابنه صالح (١٢٢ - ١٢٣)؛ غير أنه قال: «فلم يَئِنَّ إلّا في الليلة التي تُوُفِّيَ فيها».
أما أثر طاوس: فأخرجه ابن أبي الدنيا في «الصبر» (١٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٤)، و(٥/١٨)، وغيرهما. انظر: «الفتح» (١٠/١٢٩)، و«الفتاوى الحديثية» للسخاوي (٧٧).

(٣) «طبقات الشافعية الكبرى» (٩/٢١٢).

(٤) «الرسالة القشيرية» (٢/٤٧٢).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٤٤١).

(٦) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٢/١٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٢/٨١).

ولذلك تجد في كلامه عن الرجالِ توقِّيًا زائدًا، وتحرِّيًا بليغًا.

وبالجملة: فالمراقَبةُ مِن أعظم منازل السائرين، وأجلِّ دَرَجَات السالكين؛ بها يَتِمُّ إيمان العبد، حيثُ لا يصل إلى مقام الإحسان إلَّا بها، وهو أكمَلُ مقامات العابدين.

* * *

الورع

تَوْطِئَة

الورَعَ خَصْلةٌ من الخصال الكريمة، وشِيمَةٌ من شِيَمِ النفوس العظيمة؛ فهو موضوع جدير بالعناية والاهتمام؛ لِتَرَحُّلِهِ في هذا الزمان عن قلوب الكثيرين، مع حاجتنا إليه في تعامُلنا مع الله ﷻ، وفي تعامُلنا مع أنفسنا، وفي تعامُلنا مع الآخرين؛ سواءٌ كان ذلك في أمور العبادة، أم كان في أمور العادة.

لقد صار المتورِّع في هذا العصر عند كثير من الناس متشدِّدًا ومتكلِّفًا، ولربَّما نظروا إليه على أنه قد وَلَجَ أبوابًا من التنطُّعِ والغُلُوِّ في الدين ليس له أن يَلِجَ فيها، ولربما ظنَّ ذلك أيضًا بعض المنتسِبين إلى العلم، أو التديُّن؛ وما ذلك إلّا لِقِلَّةِ بَصَرِهم في هذا الباب، ولِقِلَّةِ نصيبهم من العمل بما جاء فيه.

ومِن هنا جاء الحديث عن هذا الموضوع هنا، فأسأل الله أن يكون ذلك باعثًا للوَرَعِ في نفوسنا؛ إنه سميع مجيب.

* * *

مَعنَى الوَرَع وَحَقِيقَتهُ

الوَرَعُ لغةً: هو الكَفُّ والانقباض، ويمكن أن يقال: إنه الكفُّ عما لا ينبغي؛ يقال: تورَّعَ فلانٌ عن كذا: إذا تحرَّجَ عنه[١].

وأما الوَرَعُ في معناه الشرعي:

فيمكن أن يقال: «هو تَرْكُ ما يَرِيبُكَ، ونَفْيُ ما يَعِيبُكَ، والأخذُ بالأوثَق، وحملُ النفس على الأحوط»[٢].

وعبَّر عنه يونس بن عُبَيْد بقوله: «الخروجُ من كلِّ شُبْهة، ومحاسَبةُ النفس في كل طَرْفة عَيْن»[٣].

وعرَّفه بعضهم بأنَّه: «تجنُّبُ الشُّبُهات، ومراقَبةُ الخَطَرات»[٤].

وقال إبراهيم بن أدهم: «الوَرَعُ: ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك»[٥].

وقال بعضهم: «هو تَوَقٍّ مستقصًى على حَذَر، وتحرُّجٌ على تعظيم»[٦].

وقال يحيى بن معاذ: «الورَعُ: الوقوف على حَدِّ العِلْم، من غير تأويل»[٧]؛ أي: مِن غير تأوُّل للنَّفْس بالبحث عن المخارج.

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» (٦/١٠٠)، (و ر ع).
(٢) «التوقيف على مهمَّات التعاريف» (ص٣٣٦)؛ بتصرف يسير.
(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢٢).
(٤) «التوقيف على مهمَّات التعاريف» (ص٣٣٦).
(٥) «الرسالة القشيرية» (١/٢٣٣).
(٦) «مدارج السالكين» (٢/٢٣).
(٧) «الرسالة القشيرية» (١/٢٣٤).

ويقول أيضًا: «الورَعُ على وجهَيْن: ورَعٌ في الظاهر، وورَعٌ في الباطن؛ فورَعُ الظاهر: ألَّا يتحرَّك إلَّا لله، ووَرَعُ الباطن: هو ألَّا تُدخِلَ قلبك سواه»[١]؛ أي: سوى الله سبحانه وتعالى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وأما الورَعُ: فإنه الإمساك عما قد يَضُرّ؛ فتدخُلُ فيه المحرَّمات والشبهات؛ لأنها قد تضرّ؛ فإنه مَن اتقى الشبهات، استبرأ لِعِرْضِهِ ودِينه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام؛ كالراعي حول الحِمَى يُوشِكُ أن يواقِعَهُ»[٢].

وقال عن الوَرَعِ المشروع: «هو الوَرَعُ عمَّا قد تُخَافُ عاقبته، وهو ما يُعرَفُ تحريمه، وما يُشَكُّ في تحريمه، وليس في تركه مفسدةٌ أعظَمُ من فعله»[٣]؛ أي: أنه في موضع اشتباه، وسيأتي مزيد بيان لهذا الضابط[٤].

والخلاصة: أنَّه يمكن أن نقول: إنَّ معنى الورع: هو تركُ ما يُخشَى ضَرَرُهُ في الآخِرة، وهذا الذي يُخشَى ضرره في الآخرة قد يكون شيئًا محرَّمًا ظاهر التحريم، وقد يكونُ شيئًا مشتبِهًا، وقد يكون من باب التوسُّع في المباح الذي يَجُرُّ صاحبَهُ إلى الوقوع في المكروه أو الحرام.

* * *

(١) «منازل السائرين» (ص٣١)، و«مدارج السالكين» (٢/٢١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١٥).

(٣) المصدر السابق (١٠/٥١١ - ٥١٢).

(٤) انظر: (٤٥٢-٤٥٤).

الفَرقُ بَيْنَ الوَرَعِ وَالزُّهْد

كثيرًا ما يَشتبِهُ ويَلتبِسُ الورع بالزُّهْد، مع أن بينهما فروقًا.

ومن تلك الفروق:

أولًا: أن الزهد المشروع: ترْك الرَّغْبة فيما لا ينفع في الدار الآخرة؛ فيُعرِضُ عنه الإنسان؛ لأنه لا ينفعه في الآخرة؛ والمقصودُ به: فضولُ المُبَاحِ الذي لا يستعانُ به على طاعة الله ﷻ.

وأما الوَرَعُ المشروع: فهو ترْك ما قد يَضُرُّ في الآخرة، وهو ترك المحرَّمات والشبهات، وكذا المباحات التي يُخشَى أن تَجُرَّ صاحبَها إلى المكروهات أو المحرَّمات[(١)].

وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال كما قال بعض أهل العلم: بأنَّ الوَرَعَ هو أوَّل الزهد؛ كما أن القناعةَ هي أوَّل الرضا.

وعليه: فإن المرء قد يكون وَرِعًا، ولا يكون زاهدًا، وأن الزاهِد لا بد أن يكون وَرِعًا؛ لأن الزُّهْدَ أبلَغُ من الوَرَع؛ فإن الزاهد يترك المحرَّمات والمكروهات، والمشتبِهات، كما أنه يترك المباحات التي يُخشَى أن تَجُرَّ إلى المحرَّمات، كما يترك التوسُّع في المباحات، وما لا ينفع في الآخرة، فيكتفي بالقليل من الدنيا، ولا يتعلَّقُ بها، ولا يتوسَّعُ في حُطَامها؛ فمَنْ ترك التوسُّع في هذه المباحات، وتقلَّل منها، فهو زاهد، ولا شكَّ أن مَن كان بهذه المثابة، فإنه يكون قد ترك المكروهات والمشتبِهات، فضلًا عن المحرَّمات.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢١)، و«الفوائد» (ص١٧١).

ثانيًا: أن الزهد من باب الترك المجرَّد، وعدم الرَّغْبة، لكن ليس له موقفٌ يوجِبُ النُّفْرة من هذا الذي زَهِدَ فيه، فهو لا يتوسَّع في المباحات، بل يأخذ ما يكفِيهِ من الدنيا دون توسُّع وتعلُّق بها، ودون نُفْرةٍ ومعاداة لها.

وأما الوَرَعُ: فإنه يعني التَّرْك، كما يعني المنافَرة؛ لأن هذا الأمر قد يَضُرُّهُ في الآخرة، يُجافِيهِ ويَنفِرُ منه غاية النفور، فصار الوَرَعُ أبلَغَ من الزهد من هذه الجهة؛ لأن الزهد تَرْكٌ مجرَّد، والورع تَرْكٌ مع نُفُور[1].

* * *

(١) هذا على ما ذكره بعض العلماء، وقد يُنازَعُ في كون الزُّهْدِ مِن قبيل الترك المجرَّد.
للاستزادة ينظر: «المسالك في شرح موطأ مالك» (٧/٤١٤- ٤١٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/١٤٥- ١٥١)، و«طريق الهجرتين» (ص ٢٥٢- ٢٥٤)، و«مدارج السالكين» (١/١١١)، و(٢/١١- ٢١)، و«جامع العلوم والحكم» (شرح الحديث رقم ٣١)، و«فيض القدير» (٤/٧٤).

هَل الوَرَع أَمْر سَلْبِيّ أَوْ إيجَابِيّ ؟

تبيَّن من خلال ما سبق: أن الورع يُوجِب نُفْرة، وهذه النُّفْرة عمل قلبي؛ أي: أن الوَرِعَ قلبه يَنفِرُ ويَنقبِضُ من هذا الشيء ولا يحبُّه، بل يكرهه كراهةً تليق بمثله: إنْ كان محرَّمًا، فإنه يكرهه كراهة المحرَّم، وإنْ كان مكروهًا، فإنه يكرهه كراهة المكروه، وإنْ كان مشتبِهًا، كرهه الكراهة اللائقة به؛ ولهذا نجد من العلماء رحمهم الله من يقول: هذا أَكْرَهُه، أَكْرَهُ كذا؛ وذلك على سبيل التورُّع.

إذن: الورع ليس أمرًا سلبيًّا، بل هو أمر إيجابي، يُوجِبُ نُفْرةً في القلب، فضلًا عن مجانَبةِ هذا الأمر الذي يُتورَّعُ عنه؛ فلا يسمَّى الشخص وَرِعًا، ولا متورِّعًا، ولا مُتَّقِيًا، إلّا إذا وُجِدَ منه الامتناعُ والإمساك الذي هو فِعْلُ ضِدِّ المنهيِّ عنه، إضافةً إلى نُفْرةِ القلب من هذا الشيء، وقد صرَّح بهذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ حيث قال: «فالورَعُ: اجتنابُ الفعل واتقاؤه، والكفُّ والإمساك عنه، والحذَرُ منه؛ وهذا يرجع إلى كراهةِ هذا الشيء، والنُّفْرةِ منه، والبغضِ له؛ وهذا أمر وُجودي»(١).

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١٨)؛ بتصرف.

أَهَمِّيَّةُ الوَرَعِ وَمَنْزِلَتُه

جاء عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ»(١).

ففي قوله: «فضلُ العلمِ أحبُّ إليَّ مِن فضلِ العبادة»، دليل على أن الاشتغال بالعلمِ الشرعيِّ أفضل مِن الاشتغال بنوافل العبادات.

وفي قوله: «وخيرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ»، دليل على أن الوَرَعَ من أفضل ما تقرَّب به المتقرِّبون إلى الله ﷻ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ...»(٢).

---

(١) أخرجه البزار (٢٩٦٩)، ومن طريقه أبو نعيم في الحلية (٢/٢١١ - ٢١٢)، وأخرجه ابن عدي في الكامل (٣٢٩)، والطبراني في «الأوسط» (٩٣٦٠)، والحاكم (١/٩٢- ٩٣)، ومن طريقه البيهقي في المدخل (٤٥٥)؛ كلُّهم من حديث حُذَيْفة ﷺ. وقد أعلَّه أبو نعيم، والدارقطني، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٧٩)، وابن حجر في «المطالب العالية» (٢/٦٨٣)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (١/٩٣)، والرباعي الصنعاني في «فتح الغفار» (٦٤٢٥)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٦٨)، وفي الباب: عن سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة، وأبي هريرة ﷺ.

وقد رُوِيَ من كلام مطرِّف بن الشِّخِّير. قال الدارقطني في العلل (١٠/١٤٦): «الصحيح أنه من قول مُطَرِّف بن الشِّخِّير»، وأقرَّه، انظر للتوسُّع في الكلام على هذه الشواهد: حاشية الفريوائي على «الزهد» لوكيع (٢/٤٧١-٤٧٣)، و«الضعيفة» (٣٩٣٩-٣٩٤٣)، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢/٦٠٢) وحسَّنه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/٢٤٠ ط. دار العربية)، وضعَّفه الدارقطني (٢٦٥)، والله أعلم.

وجاء عن عائشة رضي الله عنها؛ أنها قالت: «إنَّ الناس قد ضيَّعوا أعظَمَ دينهم: الوَرَع»[(١)].

ويقول الحسن: «ما عبَدَ العابِدون بشيءٍ أفضَلَ مِن تَرْكِ ما نهاهم الله عنه»[(٢)].

ويقول أيضًا: «أفضَلُ العلم: الورَعُ، والتفكُّر»[(٣)].

وكان طاوس بن كَيْسان يقول: «مثَلُ الإسلام كمثَلِ شَجَرة، فأصلُها الشهادة... وثمَرُها الوَرَع، لا خيرَ في شَجَرة لا ثمَرَ لها، ولا خير في إنسان لا وَرَعَ له»[(٤)].

ويقول خالد بن مَعْدَان: «مَن لم يكنْ له حِلْمٌ يَضبِطُ به جهله، وورَعٌ يَحجِزُهُ عمَّا حرَّم الله عليه، وحُسْنُ صَحَابةِ مَن يَصحَبُهُ، فلا حاجة لله فيه»[(٥)].

فهذا وغيره مما يَدُلُّ على أن للوَرَعِ مَنزِلةً عالية عند الله تبارك وتعالى، وسيأتي مزيد إيضاح لذلك عند الكلام على ثَمَراتِ الوَرَعِ وآثاره.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٨٨٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٨)؛ وهذا يُذكَرُ في سياق الكلام على منزلة الورع؛ وإلا فإن جِنْس فِعْل الحسنات أنفع من جنس تَرْك السيئات؛ فالأول من باب الغِذَاء، والثاني من باب الاحتماء، والنفوس إنما خُلِقَت للفعل، لا للترك؛ إذِ الترك مقصود لغيره، من باب تنقية المَحَلِّ، وتخليته. انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٥، ١٨٨)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/١٢٦).

(٣) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١١٩)؛ واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (ص ٢٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٧٣).

(٥) المصدر السابق (٣٢).

الوَرَعُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

عن النعمان بن بَشِير رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»(١).

فالنبيُّ ﷺ جعل القسمة ثلاثية:

أولًا: الحلال البيِّن الذي لا خفاءَ فيه.

وثانيًا: الحرام البيِّن الذي لا شُبْهةَ فيه.

وثالثًا: المشتَبِهُ الذي يخفى على كثيرٍ من الناس، فيتردَّدُون في حُكْمه.

وهذا معرفته ومعرفة حكمه هو الفقه؛ ولهذا يقول ابن تيميَّة: «ليس العاقل الذي يَعلَمُ الخير من الشر، وإنما العاقل الذي يَعلَمُ خير الخَيْرَيْنِ وشرَّ الشَّرَّيْنِ»(٢).

وقال أيضًا: «وتمامُ الوَرَعِ أن يعلم الإنسان خير الخيرَيْن وشر الشَّرَّيْن، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)؛ واللفظ له.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٥٤)؛ وقد رُوِيَ نحو هذا عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وسفيان بن عيينة، والشافعي. انظر: «المجالسة» (٦٧٠)، و«حلية الأولياء» (٨/٣٣٩)، (٩/١٣٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/٥١٢).

والحقيقة: أنَّ الوَرَعَ إنما هو مجانَبة المحرَّمات والمُشتَبِهات، وهذا المشتَبِه كالسِّيَاج على الحرام، والحرامُ من ورائه، والبُعْدُ عن هذا المشتَبِه طريق للخلاص من الحرام، والوقوعُ في هذه المشتَبِهات، والخوضُ فيها، واقتحامُها، سببٌ أكيد في الوقوع في الحرام؛ كما قال النبي ﷺ: «كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أو: يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ».

وقد أوضحَتْ هذا المعنى إحدى روايات البخاري لهذا الحديث؛ وفيها: «فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ، أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللهِ؛ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكْ أَنْ يُوَاقِعَهُ»(١).

ومما يؤكِّد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»(٢).

وقد سأل النَّوَّاسُ بن سَمْعَانَ الأنصاريُّ رسولَ الله ﷺ عن البِرِّ والإثم، فقال: «البِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»(٣)؛ أي: أنه أورَثَ تردُّدًا ورِيبةً وانقباضًا.

فلو كان حلالًا صِرْفًا، فإنه لا يَحِيكُ في الصدر، ولا يَتَلَجْلَجُ فيه، ولا يكره الإنسان أن يُطَّلَعَ عليه، إنما يتردَّد في النَّفْس ما كان مشتبِهًا، فيكره الإنسانُ أن يَطَّلِعَ الناس عليه، ويخشى أن يكون من الحرام.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧١١)؛ من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه. قال ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢/٣٣٣): «لا بأس به»، وصحَّحه الترمذي، وابن خزيمة (٢٣٤٨)، وابن حبان (٧٢٢)، والحاكم (٢/١٣)، والذهبي، وأحمد شاكر في «التعليق على المسند» (١٧٢٣)، والألباني في «الإرواء» (١٢، ٢٠٧٤). وفي الباب: عن أنس، وابن عمر، وأبي هريرة، وواثلة بن الأسقع، وغيرهم رضي الله عنهم. انظر: «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٠ - ٢٠١)، و«المقاصد الحسنة» (ص٢١٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣).

فينبغي أن تُزَمَّ النفوس بهذا الزِّمام، وأن تنضبِطَ بهذا الضابط: ما حاكَ في النَّفْسِ، فهو من الإثم، كما صرَّح النبي ﷺ؛ فالوَرَعُ اجتنَابُهُ، وتركه، والتباعُدُ عنه.

فهذان الحديثان يَجعَلان من فِطْرة الإنسان مقياسًا في معرِفة الخير والشر عند الاشتباه؛ ليتجنَّب مواطِنَ الخطر، ومواقِعَ حدود الله ﷻ؛

وهذا له علامتان:

الأولى: عدم الارتياح النفسي، والانقباضُ والتردُّد.

الثانية: كراهية اطلاع الناس، فيُخفِي ذلك، ويتحاشى أنظارهم، فلا يفعل ذلك أمامهم، أو حيث يَطَّلِعون عليه؛ وقد جاء عن وابِصَة بن مَعْبَدٍ، قال: جئتُ إلى رسول الله ﷺ أسألُهُ عن البِرِّ والإثْم، فقال: «جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟»، فقلتُ: والذي بعثَكَ بالحقِّ ما جِئْتُكَ أَسألُكَ عَنْ غيره، فقال: «البِرُّ: مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ، وَالإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ»[1].

«البِرُّ: ما انشرَحَ له صَدْرُكَ»؛ لا تجد مَعَرَّةً فيه ولا انقباضًا، ولا تردُّدًا ولا تَحَرُّجًا، «والإثم: ما حاك في صدرك وإنْ أفتاك عنه الناس».

ومن يتأمَّل أحوال الناس اليوم يجد كثيرًا منهم يبحثون عن فتوى تبيح لهم ما تهواه نفوسهم، ثم يقفون عند ذلك تعلُّقًا بهذه الفتوى!

وهذا في الواقع لا يُبِيحُ محرَّمًا، ولا يحرِّمُ حَلَالًا؛ فإن الحلال ما أحلَّه الله، والحرامَ ما حرَّمه الله، والفتوى لا تغيِّرُ الحكم في نفس الأمر مهما أفتاك الناس؛ فإنَّ الحكم عند الله ثابت، لا تغيِّره فُتْيَا المُفْتِين.

فيجب على العبد أن يحتاط لدينه، وأن يَبحَثَ عند السؤال عن الأَعْلَمِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٢٨)، وحسَّنه المنذري في «الترغيب» (١٧٣٤)، والنووي في «الأربعين» (٢٧)، والألباني في «صحيح الترغيب» (١٧٣٤)، وضعَّفه ابن رجب في «شرح الأربعين» (ص٤٧٤)، والهيثمي في «المجمع» (١/١٧٥).

والأوْرَع من المفتين، لا أن يبحث في القضايا المالية عمَّن يرخِّص له، وفى قضايا الشهوات الأخرى عمَّن يُبِيحُ له ما تشتهيه نفسه من المعازف أو التبرُّج، إلى غير ذلك.

فالحكم لا يتغيَّر بالفتوى، ولا تَبرَأُ الذمَّة إلّا ببذل الوسع في التحرِّي عمن يستفتيه مِن حيثُ الوَرَعُ، فإذا بَذَلْتَ الوسع، وتحرَّيْتَ وسَأَلْتَ من تعتقِدُ فيه الديانة، مع توافُر العِلْمِ والمُكْنة من الفتيا بشروطها -: بَرِئَتْ ذِمَّتُك، أمَّا أن يسأل الإنسان كيفما اتفق، ويبحث عمن يحلِّل له ما يهواه، فإنَّ هذا لا يُخْرِجُه من العُهْدة، ولا يَسْلَمُ معه من التَّبِعة.

وثَمَّةَ آخرون لهم شأن آخر، فهم يتورَّعون - تورُّعًا فاسدًا - عن السؤال؛ لئلا يتورَّطوا بجواب يُوقِعهم في الحَرَج، فيقولُ أحدهم: لا تسأل، لا تبحث، لا تراجع فتسمع ما تكره!

يريدون مِن الإنسان أن يَنْساق مع عَمَاهُ وجهلِه، وراء هَوَاهُ وغيِّه، ويظنُّون بهذا أنهم يَسْلَمُون من التَّبِعة، والواقع أنهم لا يَسْلَمُونَ بذلك بحال من الأحوال.

فيجب على المسلِم أن يسأل، وأن يبحث عن العلم في مظانِّه؛ فالنبي ﷺ يقول: «البِرُّ: مَا انْشَرَحَ لَهُ صَدْرُكَ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَإِنْ أَفْتَاكَ عَنْهُ النَّاسُ».

وعن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماء: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

فهؤلاء الذين لا يأكلون الطيِّبات هم الذين لا يتورَّعُونَ في المكاسب، وإنما يَعُدُّون الحلال ما حَلَّ في اليد من أي وجه جاء، دون أن يفتِّشُوا أو ينظُرُوا في وجوه مكاسبهم.

وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ»[1].

وجاء في حديث آخر: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بما أَخَذَ الْمَالَ: أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ!»[2].

وهذا مِن دلائل نبوَّته ﷺ؛ فإنَّ زماننا شاهِدٌ بما أخبَرَ به ﷺ.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٢٨، ٣٥٢٩)، والترمذي (١٣٥٨)، والنسائي (٤٤٤٩، ٤٤٥٠)، وابن ماجه (٢١٣١، ٢٢٩٢)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسَّنه الترمذي، وصحَّحه ابن حبان (٤٢٦٠، ٤٢٦١)، والحاكم (٢/٤٦)، والذهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٨٣)؛ مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأُمُورُ الَّتِي يَدُورُ عَلَيهَا الوَرَع

وأعني بذلك: ما للوَرَع فيه مدخل صحيح؛ وهو أربعة أمور:

أولًا: ترك المحرَّمات، وفعل الواجبات:

فيجب على كل إنسان أن يَتَّقي ما حرَّم الله ﷻ، ويأتي بما أوجَبَ عليه.

ثانيًا: ترك المكروهات:

ومعلوم أن المكروه: ما نهى الشارع عنه لا على سبيل الحَتْمِ والإلزام؛ ولا يعاقَبُ الإنسان على فِعْله، لكنه يثاب إذا تركه امتثالًا؛ فالشارع لم يسوِّ بينه وبين المباح، وإنما هو مرتبة بين الحرام والمُبَاح، وهذه المرتبة أعلى من مرتبة تَرْكِ المحرَّمات، مع فعل الواجبات فقطْ.

ثالثًا: فِعْلُ ما يُشَكُّ في وجوبه، وتَرْكُ ما يُشَكُّ في تحريمه:

فهذا لم يثبُتْ فيه أنه من المكروهات، ولكنه حصَلَ عنده فيه شيء من التردُّد، وانقبضت نفسه منه؛ فالورَعُ أن يُجانِبه، ويتباعَدَ عنه، ما لم يكن ذلك التردُّد من قبيل التكلُّف أو الوسوسة؛ وهذه المرتبة أعلى مما قبلها.

رابعًا: وهو رأس هذا السُّلَّم؛ تَرْكُ فضول المُبَاحِ خشيةَ الوقوع في المكروه أو الحرام:

وهنا أذكِّرُ بما أشرت إليه من الضابط الذي ذكره ابن تيميَّة فيما يُترَكُ وما يُفعَلُ: فالواجبات يجب أن تُفعَل، والمحرَّماتُ يجب أن تُترَك؛ وهذا ورَعٌ واجب[(١)].

---

(١) انظر ما سبق: (ص٤٤١).

وأما الوَرَعُ المستحَبّ، فهو على ثلاث مراتب:

الأولى: ترك المكروهات، وفعل المستحبَّات.

الثانية: أن تفعل ما يُشَكُّ في وجوبه احتياطًا، وأن تترُكَ ما يُشَكُّ في تحريمه احتياطًا.

الثالثة: أن تترُكَ فضول المباح التي يُخشَى أن تجرَّ إلى الحرام، بشرط ألَّا يكون في الفعل أو الترك مفسَدةٌ أعظم، أو تفويتُ مصلحة أكبر؛ وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ في بيان نوع الورع المشروع الذي بُعِثَ به محمد ﷺ: «هو اتقاء ما يُخَافُ أن يكون سببًا للذمِّ والعذاب عند عدم المعارِضِ الراجح، ويدخُلُ في ذلك أداء الواجبات والمشتبِهاتِ التي تُشبِهُ الواجب، وترك المحرَّمات والمشتبِهات التي تُشبِهُ الحرام، وإن أُدخِلَتْ فيها المكروهات، قلت: نخاف أن يكون سببًا للنقص والعذاب.

وأما الورَعُ الواجب: فهو اتقاء ما يكونُ سببًا للذمِّ والعذاب، وهو فعلُ الواجب وترك المحرَّم. والفرق بينهما فيما اشتَبَهَ: أَمِنَ الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبَهَ تحريمُهُ: أمِنَ المحرَّم أم ليس منه؟»[1].

فصار الورع من حيث الوجوبُ وعدمُه ينقسِمُ إلى قسمين: وَرَعٍ واجب؛ وهو ترك الحرام وفعل الواجبات، ووَرَعٍ مستحَبٌّ؛ وهو ثلاث درجات ومراتب.

وقد أوضح هذا ابن تيمية في موضع آخر؛ حيث قال: «الورَعُ المشروع هو الورع عمَّا قد تخاف عاقبته، وهو ما يُعلَمُ تحريمه، وما يُشَكُّ في تحريمه، وليس في تركه مفسدة أعظَمُ مِن فِعْلِهِ... وكذلك مِن الورَعِ: الاحتياطُ بفعل ما يُشَكُّ في وجوبه، لكنْ على هذا الوجه»[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/١٣٧ - ١٣٨).

(٢) المصدر السابق (١٠/٥١١ - ٥١٢).

وفي موضع آخر قال: «أمَّا الورع: فإنه الإمساك عما قد يضُرّ، فتدخُلُ فيه المحرَّمات والشُّبُهات؛ لأنها قد تضر؛ فإنه من اتقى الشبهات، استبرَأ لعرضه ودينه»[١].

وقال في موضع آخر أيضًا: «وإنما ذلك عائدٌ إلى ترك المحرَّمات والمكروهات وفضولِ المباحَات»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (١٠/٦١٥).

(٢) المصدر السابق (٢٠/١٣١).

ما لا مدخل للورع فيه

لا مدخل للورع فيما لا مضرَّةَ فيه، أو كان فيه مضرَّةٌ قليلة مرجوحة، ويَقترِنُ بها منافع عظيمة، تُهدَرُ في جانبها تلك المضرَّة اليسيرة، وقد أشار الشاطبيُّ إلى أنَّه لا توجد مصلحة خالصة مِن كلِّ وجه، كما أنه لا تُوجَدُ مفسدة خالصة من كل وجه في هذه الحياة الدنيا، وإنما العِبْرةُ بما غلَبَ[(١)]:

على سبيل المثال: لحومُ الأبقارِ لا تخلو من ضرَر؛ فإن النبي ﷺ يقول: «أَلْبَانُهَا شِفَاءٌ، وَسَمْنُهَا دَوَاءٌ، وَلُحُومُهَا دَاءٌ»[(٢)]، ومع ذلك: فالنفع الذي فيها أعظم من هذا الضرر؛ لذلك صارت من الطيِّباتِ المباحِ أكلُها؛ كما بيَّن الله ﷻ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وكذلك أيضًا: ما أخبر عنه ربُّنا ﷻ فيما غلَبَ ضرَرُهُ على نَفْعِه بقوله:

---

(١) انظر: «الموافقات» (٢/٤٤).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٥/٤٢)، (٧٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/٣٤٥)؛ من حديث مُلَيْكة الجُعْفيَّة، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٥٥٥)، عن مُلَيْكة عن عائشة ﵂، وأخرجه الحاكم (٤/٤٠٤)؛ من حديث ابن مسعود ﵁، ومن حديث صهيب الخير؛ أخرجه أبو نعيم في «الطب» (٣٢٥)، والحديث صحَّحه الحاكم، وتعقَّبه الذهبي، والزركشي في «اللآلئ المنثورة» (١٢٩)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (٨٥٤)، و«الفتاوى الحديثيَّة» (٢٥)؛ إلّا أنه قال في حديث مُلَيْكة: «رجاله ثقات؛ لكن الرَّاوِيَة عن مليكة لم تُسَمَّ، وقد وصَفَها الراوي عنها زهير بن معاوية، أحد الحفَّاظ بالصدق، وأنها امرأته، وذِكْرُ أبي داود له في مراسيله لتوقُّفه في صحبة مُلَيْكة ظنًّا، وقد جزم بصُحْبَتِها جماعة، وله شواهد»، وقال ابن القيِّم في «زاد المعاد» (٤/٢٩٨) بعد أن أورده من حديث صهيب الخير: «لا يثبُتُ ما في هذا الإسناد». وصحَّحه من حديث مُلَيْكة الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٣)، و«الجامع الصغير» (١٢٣٣).

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]؛ فالخمر فيها منافعُ؛ فالجَبَانُ يتشجَّعُ بها للحرب، والبخيلُ يجودُ بماله إذا شَرِبَها، فإذا أفاقَ نَدِم، فمع وجود بعض المنافع فيها، إلّا أنه يُوجَدُ فيها مفاسِدُ أعظم، يكفي أنها تَذهَبُ بالعقول، فتجعل الإنسان في حكم المَجَانين.

وعلى العكس من ذلك: يُوجَدُ ما ترجَّح مصلحته على مفسدته؛ كما في زراعة العنب؛ فإنَّ فيها مصالح كثيرة جدًّا، وفيها مفسدة يسيرة، وهي أن العِنَبَ قد يُعصَرُ خمرًا، ولكنْ هذا قليل بالنسبة لِعِظَمِ مصالح العنب ومنافعها؛ كما قال في «مَرَاقي السعود»[(١)]:

وانْـظُرْ تَـدَلِّـيَ دَوَالِـي الْـعِـنَـبِ ... فِـي كُـلِّ مَـشْـرِقٍ وَكُـلِّ مَـغْـرِبِ

أي: لم يحرِّمها الشارع، بل تُزرَعُ بلا غضاضة ولا حَرَج ولا إثم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وأما الوَرَعُ عمَّا لا مضرَّة فيه، أو فيه مضرَّةٌ مرجوحة لِمَا تَقترِن به من جلبِ منفعةٍ راجحة، أو دفعِ مضرَّةٍ أخرى راجحة -: فجهلٌ وظلم؛ وذلك يتضمَّن ثلاثة أقسام لا يُتورَّع عنها: المنافع المكافِئة، والراجحة، والخالصة؛ كالمباح المحض، أو المستحبّ، أو الواجب؛ فإن الورَعَ عنها ضلالة»[(٢)].

وقال في موضع آخر: «أمَّا ما لا ريبَ في حلِّه، فليس تركُهُ من الوَرَع، وما لا ريب في سقوطه، فليس فعله من الوَرَع»[(٣)].

يعني: أن بعض الناس قد يترُكُ أشياء، ويقول: مِن باب الاحتياطِ والورع؛ خشية أن يكون هذا محرَّمًا، أو مكروهًا، أو من فضول المباحات، مع أنه من المعلوم قطعًا أنه واجبٌ مثلًا أو مستحَبٌّ، وأيضًا: لو ورد ذلك في

---

(١) رقم: (٨٤٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١٥ - ٦١٦).

(٣) المصدر السابق (٢٠/١٣٨).

حديث موضوع، فيأتي إنسانٌ فيقول: مِن بابِ الورَعِ أريدُ أن أفعَلَ هذه العبادة التي ورَدَتْ في هذا الحديث، فيقال له: لا يجوزُ لك أن تفعل ذلك، وليس الوَرَعُ في فعله.

وهنا قاعدة نافعة ذكرها شيخ الإسلام يحسُنُ أن تُحفَظ، يقول: «الواجبات والمستحَبَّات لا يصلُحُ فيها زهد ولا وَرَع، وأمَّا المحرَّمات والمكروهات، فيصلُحُ فيها الزهد والورع، وأمَّا المباحات، فيصلُحُ فيها الزهد دون الورَع»(١).

والمرادُ: أنه لا يُتورَّعُ في ترك واجب أو مستحب؛ كما لا ورَعَ في جنس المباح، وإنما فيه الزهد.

* * *

---

(١) المصدر السابق (٦١٩/١٠).

مَرَاتِبُ الوَرَع

قسَّم بعضهم الوَرَعَ إلى ثلاث مراتب[(١)]:

الأولى: الورَعُ الواجب؛ وهو اجتناب المحرَّم؛ وهذا يجبُ على جميع الناس.

الثانية: المندوب؛ وهو الوقوف عند المشتبِه؛ وهذا لأوسط الناس في العبوديَّة.

الثالثة: وهي درَجَةُ السابق إلى الخيراتِ التي قد بلَغَ بها أعلى الكَمَالاتِ؛ وهو الكف عن كثير من المباحَات التي يُخشَى أن تجرَّه إلى المحرَّمات، أو إلى المكروهات.

ومِن هذا النوع ما جاء عن قَزَعَة؛ قال: «رأيت على ابن عمر ثيابًا خَشِنة، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، إني قد أتيتُكَ بثوب لَيِّنٍ مما يُصنَعُ بخراسان وتَقَرُّ عيناي أن أراه عليك؛ فإنَّ عليك ثيابًا خَشِنة، فقال: أَرِنيهِ، فلمَسَهُ بيده، وقال: أحريرٌ هذا؟ قلت: لا؛ إنه من القُطْن، قال: إني أخاف أن أَلْبَسَهُ، أخاف أن أكون مختالًا فخورًا»[(٢)].

وهذا يعني: أن المَلَابِس والمَرَاكِب التي يَجِدُ الإنسان من نفسه إذا رَكِبَها أو لَبِسَها زَهْوًا وغرورًا وتعاليًا على الناس، فمُقتضَى الورع أن يتجنَّبه؛ لأن

---

(١) كما فعل ذلك الراغب الأصفهاني في «الذريعة، إلى مكارم الشريعة» (ص ٢٢٧).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٩٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/٣٠٢)؛ واللفظ له.

الغرور والزَّهْوَ والإعجاب بالنَّفْسِ أمر محرَّم، فالورَعُ تجنُّب ذلك، مع أن هذا الثوب اللَّيِّن والمَرْكَب الجيِّد مباحان.

وقد روى ابن عمر نفسه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ تَعَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»(١).

وفي ذلك يقول بِشْر بن الحارث: «ما ينبغي للرجُلِ أن يَشبَعَ اليومَ مِن الحلال؛ لأنه إذا شَبعَ من الحلال، دَعَتْهُ نفسه إلى الحرام»(٢).

ومن لطيف ما حدَّث به ابن القيِّم عن شيخ الإسلام؛ أنه قال له في شيء من المباح: «هذا ينافي المُراتِبَ العالية، وإنْ لم يكن تَرْكُهُ شرطًا في النجاة»(٣).

فلله دَرُّ تلك الهمم العَلِيَّة! لا قناعة لها إلّا بالمراتب السَّنِيَّة؛ لم تقنع بترك الحرام حتى جَانَبَتْهُ وحِمَاهُ من المباح، ثم رَبَأَتْ بنفسها عن مباح يقعُدُ بها عن درجة أعلى؛ فهذا لمثلها تركه أولى.

ومعلوم أن اللباس الفاخر أمرٌ مباحٌ ما لم يصل إلى حد الإسراف والتبذير، لكنْ مَن ترَكَ رفيعَ اللِّبَاسِ تواضعًا لله، وهو يَقدِرُ عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيَّرَ من أي حُلَلِ الإيمانِ شاء يَلبَسُها؛ كما صح عن النبي ﷺ(٤).

فهل يليق بإنسان عُرِفَ بالعبادة والزهد أن يَلبَسَ بأغلى الأثمان أغلى الأقمشة؟! ويهتم بالتفصيل عند أبرع الخيَّاطين؟! فحِلْيةُ هذا الزاهد، أو

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٨/٢)، وصحَّحه الحاكم (٦٠/١)، والألباني في «الصحيحة» (٥٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٣١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) «مدارج السالكين» (٢٦/٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٨١)، وحسَّنه، والألباني في «الصحيحة» (٧١٨)، وصحَّحه الحاكم (٦١/١، ١٨٣/٤)، والذهبي.

العالم، أو العابد: البَذَاذةُ، والبَذَاذةُ هي خلاف الهيئة الرفيعة في المظهر واللباس.

وليس معناها أن يكون الثوب مُتَّسِخًا، وإنما يلبس لباسًا نظيفًا، يصلُحُ لمثله؛ فإنَّ «البَذَاذةَ من الإيمان»[(١)].

ومع أن لبس رفيع الثياب أمرٌ مباحٌ لا إشكال فيه، ولكنْ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة عن بعض المُبَاحِ بأنه: «يُنافِي المراتب العالية، وإنْ لم يكن تركه شرطًا في النجاة»[(٢)].

وقسَّم بعضهم الوَرَعَ أربعة أقسام[(٣)]:

الأول: ورَعُ العَدْل؛ وهو الورع عما يُوجِبُ فعلُهُ فسق صاحبه، وإذا تركه، ثبتت عدالته، وهو الوقوع في الأمور المحرَّمة التي تُوجِبُ سقوط العدالة، والحكمَ بالفسق؛ فهذا وَرَعُ العدول، ومَن واقع شيئًا مِن ذلك، فهو متوعَّدٌ بالعقوبة.

الثاني: وَرَعُ الصالحين؛ وهو الورَعُ عما يُشتَبَهُ في حُرْمَته.

الثالث: ورع المتقين؛ وهو تَرْكُ بعض الأمور المباحة التي يخشى أن تجرَّه إلى الحرام.

الرابع: ورَعُ الصِّدِّيقين؛ وهو الورَعُ عن كل ما ليس لله تعالى.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)؛ من حديث أبي أمامة ﷺ، وصحَّحه ابن حجر في «الفتح» (١٠/٣٨١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٤٣)، وحسَّنه العراقي في «أماليه» - كما نقل ذلك المناوي في «فيض القدير» (٣/٢١٧) -، وضعَّفه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/١٢).

(٢) مضى قريبًا.

(٣) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» (١١٤ - ١١٥).

مَرَاتِبُ النَّاسِ فِي الوَرَع

كما أن الوَرَعُ على مراتب، فكذلك الناس فيه على مراتب:

فمنهم: مَن انخرَمَ ورَعُهُ، وصار مُواقِعًا لما حرَّم الله ﷻ؛ كأكل الربا، والنوم عن الصلاة، فلا يصلِّي الفَجْرَ إلّا بعد طلوع الشمس، ويترك صلاة الجماعة؛ فهذا يحتاج إلى ورَعٍ واجِبٍ بفعل الواجب، وتَرْك المحرَّم.

ومنهم: مَن لزم الوَرَعَ الواجب؛ فجاء بالواجب، وترك المحرَّم، ولكنه إذا اشتَبَهَ عليه أمر، لم يترُكْهُ، بل يدقِّقُ يسأل: أحرام هو؟ والمفتي قد لا يستطِيعُ أن يفتي بحرمته، بل يقول: دعه، أكره لك هذا، لا يعجبني فعله، أو يقول له في شيء يشتَبِهُ في وجوبه: الأحوط أن تفعله؛ لأنه قد يكون واجبًا، ولكنه يقفُ ويسأل: هل هو واجب؟ فلا يريد أن يفعل ما زاد عن الواجب، ولا يريد أن يترُكَ سوى المحرَّم.

فمثل هذا يكون من المقتصِدين؛ والله تعالى يقول: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهم هذه الأمَّة على طوائفها الثلاث:

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهو مَن وقع في بعضِ الحرام، أو ترَكَ بعض الواجب.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهو مَن لزم الواجب، وترَكَ المحرَّم، دون فعل المستحَبّ، أو اجتناب المكروه أو المُتشابِه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ وهذا هو الذي ترَكَ الحرام، وترك المكروه والمُشتبِه، وفعَلَ الواجب والمستحبّ.

فهذه مراتبُ الناس في هذا الباب؛ ولهذا فإنَّ أحكامهم تتفاوَتُ - بناء

على ذلك - غايةَ التفاوت، وهذه المسألة مفيدة، ويحتاج إلى معرفتها الإنسان الذي يفعل المحرَّم، ويترك بعض الواجبات:

وذلك كمَن يُفطِر بعض الأيَّام من رمضان من غير عذر، ثم هو يسألُ عن صيام الستِّ مِن شوال!

وكمَن يقصِّر في إخراج الزكاة المفروضة، وهو مع ذلك يتصدَّق.

وكمَن يَقترِفُ المحرَّمات الواضحة، ثم يتورَّع عن بعض الأمور المُشتبِهة؛ وهذا تناقض!

وكمَن يبدأ عَمَلُهُ من الساعة السابعة إلى الساعة الواحدة، أو إلى الثانية ظهرًا، ولا يحضُرُ إلّا الساعة التاسعة أو العاشرة!

وطبيعةُ العمل فيها: حضور وانصراف، لا يَحِقُّ له أن يخرُجَ إلّا بإذن، ومع ذلك يخرج ويرجع، مِن غير أن يشعُرَ به أحد، ولربما غابَتِ المعلِّمة واحتسَبَتْ لها المديرة حضور هذه الأيام، وقد يكون ذلك عن تواطُؤٍ معها، كأن تتفق معها على توقيع الحضور والانصراف قبل الذَّهَاب، ومع ذلك قد تجد هذه المعلِّمة أو المعلِّم، أو الموظَّف يتحرَّجُ أن يكتب بقلم المكتب، أو يتحرَّج أن يأخُذَ ورقة من المكتب لمصلحة لا تتعلَّق بطبيعة العمل؛ فهذا ورَعٌ بارد!

فالإنسان الذي يفعل المحرَّمات، أو يترُكُ الواجبات، لا يصلح له أن يتورَّعَ عن المكروهات والمُشتبِهات؛ فمثل هذا «كمثَلِ رجلٍ زنى بامرأة فأحبَلَها، فقيل له: لِمَ لَمْ تَعزِلْ؟ فقال: بلغني أنَّ العَزْلَ مَكرُوه! فقيل له: وما بلغَكَ أن الزِّنا حرام؟!»[١].

يقول ابن رجب: «إن التدقيق في التوقُّف عن الشُّبُهات إنما يصلُحُ لمن استقامت أحوالُهُ كلُّها، وتشابهت أعماله في التقوى والوَرَع، فأمَّا مَن يقع في

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص ٤٠٢).

انتهاك المحرَّمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورَّعَ عن شيء مِن دقائقِ الشُّبَهِ، فإنه لا يُحتَمَلُ له ذلك، بل يُنكَرُ عليه»[١].

وقال الأوزاعي؛ مصوِّرًا هذا المعنى في بيان مراتب الناس، وأنه قد يصلُحُ لهذا ما لا يصلُحُ لآخر: «كنا نَضحَكُ ونمزح، فلما صِرْنا يُقتدَى بنا، خَشِيتُ ألَّا يسعنا التبسُّمُ»[٢].

لكنْ يقال: هديُ النبيِّ ﷺ أولى؛ فقد كان يبتسِمُ ويضحك مع أصحابه.

ولعل الأوزاعي أراد أن يبيِّنَ أن المفاكَهةَ والضَّحِكَ ممَّا يفعله الإنسان عادة، ولكنه قد يصل إلى مرتبة يترُكُ بعض ذلك حفظًا وصيانةً لمرتبته؛ فلا ينبسِطُ في هذه الأمور انبساط مَن لم يبلُغْ تلك المرتبة، فيكون فيه شيء من الحِشْمة والوَقَار، ويطالَبُ بشيء من ذلك مطالَبةً لا تكون لغيره.

ولهذا تكلَّم الشاطبي[٣] عن الإغراق في المباحات؛ ككثرة التنزُّهِ والذَّهَابِ إلى البساتين والحدائق وأماكن اللهو والتَّرْفِيه، وأن اعتياد ذلك يُنْسَبُ صاحبه إلى قلَّة العقل، مع أنه لم يفعل شيئًا محرَّمًا، لكنه أكثَرَ مِن اللعب والتنزُّه في البساتين؛ فهذا الإكثار لا يصلُحُ له.

كما نبَّه في موضع آخر على أن «رفيعَ المَنصِبِ مطالَبٌ بما يَقتضِي مَنصِبُهُ»[٤]؛ كما قيل: «على قَدْرِ المَقَام، يكون المَلَام».

ومِن لطائف هذا المعنى: «أن رجلًا سأل بِشْرًا، فقال: إنَّ أمي تأمُرُني أن أطلِّقَ امرأتي، هل أُطِيعُها في ذلك؟ فقال: إنْ كان بَرَّ أُمَّهُ في كلِّ شيءٍ، ولم يَبْقَ عليه مِن بِرِّها إلَّا طلاقُ زوجتِهِ، فلْيَفْعَلْ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٤٣/٦)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٠٦/٣٥)؛ واللفظ له.

(٣) انظر: «الموافقات» (٢٠٩/١).

(٤) المصدر السابق (٤٢٩/٤-٤٣٠).

وسُئِلَ الإمام أحمد عن رجل يشتري بقلًا، ويشترِطُ الخُوصَةَ التي يُربَطُ بها البقل؟ فقال: أَيْشٍ هذه المسائل؟! قيل له: إنه إبراهيم بن أبي نُعَيْم - فذكروا له رجلًا غاية في الوَرَع؛ يترُكُ المحرَّمات، ويفعَلُ الواجبات، ويحتاطُ غاية الاحتياط - فقال: إنْ كان إبراهيمَ بنَ أبي نُعَيْم، فنَعَمْ؛ هذا يُشبِهُ ذاك»[١].

فإبراهيم بن أبي نُعَيْم وصل إلى مرتبة عالية ما بَقِيَ إلّا أن يسأل عن الخُوصَة.

قال ابن رجب: «وإنما أنكَرَ هذه المسائل ممَّن لا يُشبِهُ حاله، وأما أهل التدقيق في الوَرَع، فيشبه حالهم هذا، وقد كان الإمام أحمد نفسه يستعمِلُ في نفسه هذا الورع؛ فإنه أمَرَ مَن يشتري له سمنًا، فجاء به على ورقة، فأمَرَ بردِّ الورقة إلى البائع، وكان الإمام أحمَدُ لا يَستمِدُّ مِن مَحَابِرِ أصحابه، وإنما يُخرِجُ معه مَحْبَرَتَهُ يستمِدُّ منها، واستأذَنَهُ رجل أن يكتب من مَحْبَرَتِه، فقال له: اكتب؛ فهذا ورَعٌ مُظلِم. واستأذنه آخر في ذلك، فتبسَّم، فقال: لم يبلُغْ ورَعِي ولا ورَعُكَ هذا.

وهذا قاله على وجه التواضُع؛ وإلَّا فقد كان في نفسه يستعمِلُ هذا الوَرَع، وكان ينكِرُهُ على مَن لم يَصِلْ إلى هذا المقام، بل يتسامَحُ في المكروهات الظاهرة، ويُقدِمُ على الشبهات مِن غير توقُّف»[٢].

فالوَرَعُ كما أنَّه حِلْية وزينة إلّا أنه أحيانًا يكون شَيْنًا في حق بعض الناس:

ومِن هذا: ما جاء عن ابن أبي نُعْم؛ قال: كنتُ عند ابن عمر، فسأله رجلٌ عن دم البعوض، فقال: ممَّن أنت؟ قال: مِن أهلِ العراق، قال: انظُرُوا إلى هذا، يسألني عن دم البعوض، وقد قتَلُوا ابن رسول ﷺ؟! وقد سمعتُ رسول ﷺ يقول: «هُمَا رَيْحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا[٣]»[٤].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٤)؛ بتصرف.

(٢) المصدر السابق (ص ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٣).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٧٠)، وابن عساكر في «تاريخه» (١٤/١٣٠)؛ واللفظ له.

وكذلك: خبَرُ الخوارج لما أتَوْا على نخل، فتناوَلَ رجل منهم تَمْرة؛ فأقبَلَ عليه أصحابه، فقالوا له: أَخَذْتَ تَمْرةً مِن تَمْرِ أهلِ العَهْد، وأتوا على خنزير، فنَفَحَهُ رجلٌ منهم بالسيف[١]، فأقبَلَ عليه أصحابه، فقالوا له: قتَلْتَ خنزيرًا من خنازير أهل العهد، فقال عبد الله - بن خَبَّاب -: ألا أُخبِرُكم مَن هو أعظَمُ عليكم حقًّا من هذا؟ قالوا: مَن؟ قال: أنا، ما ترَكْتُ صلاة، ولا تركتُ كذا، ولا تركتُ كذا؛ فقتلوه[٢].

* * *

(١) أي: تناوله من بعيد شَزْرا. ينظر: كتاب العين، مادة: (ن ف ح)، (٣/٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١/٤٥٠).

فِقْهُ الوَرَع

ما أحوَجَ الورَعَ إلى فِقْه! فإنَّ الإنسان قد يتورَّع فيُورِثُهُ ذلك تكلُّفًا، بل قد يُوقِعه في أمور لا يحلُّ له أن يقع فيها، وهو في زعمه يريد التورُّع، فيكون ورَعُهُ فاسدًا - كما سبق - فإذا تقرَّر ذلك، فلْيُعْلَمْ أن فقه الورَعِ ينبني على أمور:

أولًا: التوسُّط والاعتدال:

والحقُّ وسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، والنبي ﷺ كان في غاية الاعتدال؛ ولهذا فإن مَن تكلَّم في الورَع، وشدَّد فيه، وحثَّ عليه، فإنه يستشهِدُ بأشياءَ عن رسول الله ﷺ؛ كما سيأتي في تورُّعه عن أكل التَّمْرة التي خشي أن تكون من تَمْرِ الصدقة، ومَن لم يَرَ مشروعيَّة التورُّع في بعض الأشياء، ويسَّر في ذلك، فإنه يستشهِدُ أيضًا بأشياءَ فعَلَها رسول الله ﷺ؛ فقد كانت حاله ﷺ في غاية التوسُّط؛ كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيِّم(١).

ثانيًا: مَعْرِفةُ خيرِ الخيرَيْن، وشرَّ الشرَّيْن:

وقد قال شيخ الإسلام: «تمامُ الورَعِ: أن يَعلَمَ الإنسانُ خيرَ الخيرَيْن، وشرَّ الشرَّيْن، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ وإلَّا فمَن لم يوازِنْ ما في العمل والترك من المصلحة الشرعيَّة، والمفسدة الشرعيَّة، فقد يَدَعُ واجبات، ويفعل محرَّمات، ويرى ذلك مِن الوَرَع؛ كمن يَدَعُ الجهاد مع الأمراء الظَّلَمة، ويَرَى ذلك وَرَعًا، ويدَعُ

---

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص٥١٨).

الجُمُعةَ والجماعة خلف الأئمَّة الذين فيهم بِدْعةٌ أو فجور، ويَرَى ذلك من الورع، ويمتنِعُ عن قَبُولِ شهادة الصادق، وأخذِ عِلْمِ العالم؛ لما في صاحبه مِن بِدْعةٍ خَفِيَّة، ويرى ترك قَبُولِ سماع هذا الحق الذي يجبُ سماعه من الوَرَع»(١).

ومثَّل على ذلك أيضًا في موضع آخر بـ: «مَن يترُكُ أخذ الشُّبْهةِ وَرَعًا، مع حاجته إليها، ويأخذ بدَلَ ذلك محرَّمًا بيِّنًا تحريمه، أو يترك واجبًا تركُهُ أعظَمُ فسادًا من فِعْلِهِ مع الشبهة؛ كمَن يكونُ على أبيه، أو عليه ديونٌ، هو مطالَبٌ بها، وليس له وفاءٌ إلّا مِن مالٍ فيه شُبْهة، فيتورَّعُ عنها، ويَدَعُ ذِمَّتَهُ، أو ذِمَّةَ أبيه مرتهَنَة»(٢).

كما ذكر نَمُوذَجًا لهذا الورع الفاسد عن شيخ مِن شيوخ الرافضة، فقال: «قيل لبعض شيوخ الرافضة: إذا جاء الكفَّار إلى بلادنا، فقتَلُوا النفوس، وسَبَوُا الحَرِيم، وأخذوا الأموال؛ هل نقاتِلُهم؟ فقال: لا، المذهَبُ: أنَّا لا نغزو إلّا مع المعصوم، فقال ذلك المستفتي - مع عامِّيَّتِه -: واللهِ، إنَّ هذا لمذهَبَ نَجِسٌ؛ فإنَّ هذا المذهبَ يفضي إلى فساد الدِّين والدنيا»(٣).

ثم قال: «وصاحبُ هذا القول تورَّع فيما يظنُّه ظلمًا؛ فوقع في أضعاف ما تورَّع عنه بهذا الورَعِ الفاسد؛ وأين ظُلْمُ بعض ولاة الأمور مِن استيلاء الكفَّار، بل مِن استيلاء مَن هو أظلم منه؛ فالأقلُّ ظلمًا ينبغي أن يُعاوَنَ على الأكثر ظلمًا؛ فإنَّ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ بحسَبِ الإمكان، ومعرفةِ خيرِ الخيرَيْن، وشر الشرَّيْن، حتى يقدَّم عند التزاحم خيرُ الخيرَيْن، ويُدفَعَ شرُّ الشرَّيْن، ومعلوم أن شر الكفار والمرتدِّين والخوارج أعظَمُ من شر الظالم»(٤).

---

(١) تقدم (ص٤٤٧).

(٢) «جامع الرسائل» (٢/١٤١).

(٣) «منهاج السنة النبوية» (٦/١١٨).

(٤) المصدر السابق (٦/١١٨).

وهذا له أمثلة كثيرة جِدًّا:

فلو أن أحدًا مِن هؤلاء المتورِّعِين أشرَفَ على الهَلَكةِ مِن الجوع، فوجَدَ طعامًا لغيره، فقال: لا آكُلُ مِن هذا الطعام، ولا أشرَبُ من هذا الشراب؛ لأنه مالٌ محتَرَم، له مالك، فلا يحلُّ لي، فتركه حتى مات -: فإنه بذلك يكون آثمًا؛ فقد تسبَّب في قتل نفسه؛ وهذا من الوَرَعِ الفاسد؛ فليس في كل الحالات يحسُنُ الوَرَعُ.

وقد روى البيهقي بإسناد صحيح، عن مسروق؛ قال: «مَن اضطُرَّ إلى المَيْتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ، فلم يأكُلْ ولم يَشرَبْ، حتى يموتَ، دخَلَ النارَ»[(١)].

وقال ابن الجوزي: «ولو أن إنسانًا جاع فلم يأكُلْ، أو احتاج فلم يسأل، أو عَرِيَ فلم يَلْبَسْ، فماتَ، دخَلَ النارَ»[(٢)].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وانتفاءُ الإرادة إنما يصلُحُ فيما ليس فيه منفعة خالصة، أو راجحة، وأمَّا وجود الكَرَاهة، فإنما يصلُحُ فيما فيه مضرَّةٌ خالصة، أو راجحة، فأمَّا إذا فُرِضَ ما لا منفعة فيه ولا مضرَّة، أو منفعَتُهُ ومضرَّته سواءٌ من كل وجه، فهذا لا يصلُحُ أن يُراد، ولا يصلُحُ أن يُكرَه، فيصلُحُ فيه الزهد، ولا يصلُحُ فيه الورع.

فظهَرَ بذلك: أن كل ما يصلُحُ فيه الوَرَع، يصلُحُ فيه الزهد، مِن غير عكس، وهذا بيِّن؛ فإنَّ ما صَلُحَ أن يُكرَهَ ويُنفرَ عنه، صَلُحَ ألا يُرادَ ولا يُرغَبَ فيه؛ فإنَّ عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة، ووجود الكراهة مستلزِمٌ عدَمَ الإرادة، من غير عكس، وليس كلُّ ما صَلُحَ ألَّا يُرادَ يصلُحُ أن يُكرَهَ، بل قد يَعرِضُ من الأمور ما لا تصلُحُ إرادته ولا كراهته، ولا حبُّه ولا بغضه، ولا الأمر به ولا النهي عنه.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/٣٥٧)، ونسبه ابن القيِّم في «عدة الصابرين» (ص ٥٤) إلى طاوس، والإمام أحمد.

(٢) «صفة الصفوة» (١/٢٨).

وبهذا يتبيَّنُ: أن الواجبات والمستحبَّات لا يصلُحُ فيها زهد ولا وَرَع، وأمَّا المحرَّمات والمكروهات، فيصلُحُ فيها الزهد والورع، وأمَّا المباحات، فيصلُحُ فيها الزهد دون الوَرَع؛ وهذا القَدْر ظاهر، تَعرِفه بأدنى تأمُّل.

وإنما الشأن فيما إذا تعارَضَ في الفعل؛ هل هو مأمور به، أو منهيٌّ عنه، أو مباح؟ وفيما إذا اقترَنَ بما جنسه مباح ما يَجعَلُهُ مأمورًا به، أو منهيًّا عنه، أو اقترَنَ بالمأمور به ما يجعله منهيًّا عنه، وبالعكس؛ فعند اجتماع المصالح والمفاسد، والمنافع والمَضَارّ، وتعارُضِها: يُحتاجُ إلى الفُرْقان»[(١)].

ثم يقول في شرح الضابط الذي أشَرْتُ إليه سابقًا: «وقولي: عندَ عدَمِ المعارِضِ الراجِحِ، فإنه قد لا يتركُ الحرامَ البيِّنَ أو المشتبِهَ، إلّا عند تركِ ما هو حسنةٌ موقعُها في الشريعة أعظمُ مِن ترك تلك السيِّئة؛ مثلُ مَن يترُكُ الائتمام بالإمام الفاسق، فيترُكُ الجمعة والجماعة والحجَّ والغزو، وكذلك قد لا يؤدِّي الواجبَ البيِّنَ أو المشتبِهَ إلّا بفعل سيئةٍ أعظَمَ إثمًا من تركِه؛ مثلُ مَن لا يمكنُهُ أداءُ الواجباتِ من الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكَرِ لذوي السلطان إلّا بقتالٍ فيه من الفساد أعظمُ مِن فساد ظُلْمِه.

والأصلُ في الورعِ المشتبِهِ: قولُ النبيِّ ﷺ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الحَرَامِ؛ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ»[(٢)]... وقولُهُ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»[(٣)]، وقولُهُ: «الْبِرُّ: مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَسَكَنَ إِلَيْهِ الْقَلْبُ»[(٤)]، وقولُهُ: «الْبِرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ، وَالْإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ؛ وَإِنْ أَفْتَاكَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١٨-٦١٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) تقدم تخريجه.

النَّاسُ»(١)، وأنه رأى عَلَى فِرَاشِهِ تَمْرة، فقال: «لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، لَأَكَلْتُهَا»(٢)...

لكنْ يقعُ الغلطُ في الوَرَعِ من ثلاث جهات:

أحدُها: اعتقادُ كثيرٍ من الناس أنه من باب التَّرْك؛ فلا يَرَوْنَ الورَعَ إلّا في تركِ الحرام، لا في أداء الواجب، وهذا يُبتَلى به كثيرٌ من المتديِّنة المتورِّعة؛ ترى أحدهم يتورَّع عن الكلمة الكاذبة، وعن الدِّرْهَم فيه شبهة؛ لكونه مِن مال ظالم أو معامَلة فاسدة، ويتورَّعُ عن الركون إلى الظَّلَمة من أهل البِدَع في الدِّين وذوي الفجور في الدنيا، ومع هذا: يترُكُ أمورًا واجبة عليه؛ إما عينًا، وإمَّا كفاية، وقد تعيَّنت عليه؛ مِن صلةِ رَحِم، وحقِّ جارٍ ومسكين؛ وصاحبٍ ويتيمٍ وابن سبيل، وحقِّ مسلم وذي سلطان وذي علم، وعن أمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكَر»(٣).

وهذا أمر يغفُلُ عنه كثير من الناس.

إِذَنْ: لا بد مِن النظر في المصالح والمفاسد، والموازَنة بينهما؛ فمتى رجَحَتْ كِفَّةُ المصلحة في الأمر، فعلناه، ومتى رجَحَتْ كِفَّةُ المفسدة، تركناه؛ وهذا هو الفقه في هذا الباب.

ثالثًا: مراعاة مراتب الناس:

وقد أشَرْتُ إلى هذا المعنى قريبًا(٤).

* * *

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٣٢)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٧١)؛ من حديث أنس ﷺ.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٠/١٣٨ - ١٤٠)؛ باختصار.

(٤) انظر (ص: ٤٦١ - ٤٦٥).

الوَرَع الفَاسِدُ

وهو ما اشتبَهَ على كثير من الناس؛ لقلَّة العلم، وفساد التصوُّر، وإنما يكون مبنى التعقُّل في الأمور جميعًا على صحَّة التصوُّر؛ ولذلك فإنه لما فسَدَتِ التصوُّرات لدى المنافقين، رأَوُا المنكَرَ معروفًا، والمعروفَ منكَرًا.

والمقصود: أن الإخلال بالأسُسِ والمقوِّماتِ الثلاثة التي ذكَرْناها عند الكلام على فقه الورَعِ يُوقِعُ في الورع الفاسد - ولا بُدَّ - بأنواعه المختلِفة؛ وإليك أربعةً منها:

الأوَّل: ما التبَسَ فيه الورَعُ بغيره مما يُذَمُّ:

حيث يُظهِرُ أنه متورِّعٌ ومتحرِّجٌ ومتحرِّزٌ من هذا الشيء، والواقع: أن هذا مِن قبيل الضعف أو غير ذلك مما يَرجِعُ إلى صفات النَّفْسِ وأحوالها؛ كمَن يقال له: هناك منكَرٌ في السُّوق، ويجب عليك أن تُنكِره؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يغيِّر هذا المنكر إلّا مَنْ كان في مرتبتك أنت! فيقول: الأسواق فيها فِتْنة، ويَغرِزُ الشيطان فيها رايته، فلا أعرِّضُ نفسي لفتنة! فنقول: هذا ورَعٌ فاسد.

وقد قال شيخ الإسلام مقرِّرًا هذا المعنى، ضمن كلامه على صفة الخوارج الذين أمَرَ النبيُّ ﷺ بقتالهم: «وهؤلاءِ أمَرَ النبيُّ ﷺ بقتالهم؛ لأن معهم دِينًا فاسدًا لا يصلُحُ به دنيا ولا آخرة...

كثيرًا ما يشتبِه الوَرَعُ الفاسِدُ بالجُبْنِ والبخل؛ فإنَّ كلاهما فيه ترك، فيشتبِهُ

ترك الفساد لخشية الله تعالى بترك ما يُؤمَرُ به من الجهاد والنفقة جبنًا وبخلًا؛ وقد قال النبي ﷺ: «شَرُّ مَا فِي المَرْءِ: شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ»(١)...

كذلك: قد يترُكُ الإنسان العمل ظَنًّا أو إظهارًا أنه وَرِعٌ؛ وإنما هو كِبْرٌ وإرادةٌ للعُلُوّ»(٢).

وأوضح مِن ذلك كلِّه: ما أخبَرَ الله تعالى به في كتابه عن عُذْرِ بعض المنافقين في تخلُّفه عن غزوة تبوك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: ٤٩].

ومِن ذلك أيضًا: ما يراه بعض الفقهاء من أنه لا يجوز التصدُّقُ على الفقير في المسجد(٣)؛ فلو جاء إنسان وليس ممَّن يعتقِدُ هذا، ورأى إنسانًا فقيرًا، فلم يتصدَّقْ عليه بخلًا، وقال معلِّلًا فِعْلَهُ: إنَّ بعض الفقهاء يمنع الصدقة عليه؛ ومِن ثَمَّ: فأنا أتورَّعُ عن الصدقة؛ فقد فسَّر بخلَهُ بهذا التفسير، وخرَّجه بهذا التخريج؛ فإنَّ ورعه يُعَدُّ من الورَعِ الفاسد.

الثاني: التورُّعُ عن أمور فعلها النبيُّ ﷺ:

كالذي يتورَّع عن أكل الحَلْوَى، أو عن الزواج؛ معلِّلًا ذلك بأن الزواج مَشْغَلَةٌ، والأولاد فِتْنة.

فهذا التحرُّجُ من الأمور التي رخَّص فيها النبيُّ ﷺ يُعَدُّ من الاعتداء في الورَع(٤)؛ وهو أمر محرَّم؛ فلا يجوز أن يتحرَّج، أو يتورَّع، أو يتنزَّه عن أشياءَ فعَلَها أفضل الخلق وأتقاهم وأشدُّهم لله خشية؛ فعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: صنَعَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١١)، وصحَّحه ابن حبان (٣٢٥٠)، وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٤٣٧)، وأحمد شاكر في تخريج «المسند» (٧٩٩٧)، والألباني في «الصحيحة» (٥٦٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٢٩١).

(٣) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مُفلِح (٣/٣٨٥).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/٤٤٩).

النبيُّ ﷺ شيئًا، فرَخَّصَ فيه، فتَنَزَّهَ عنه قومٌ، فبلَغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فخَطَبَ، فحَمِدَ اللهَ، ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَام يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيءِ أَصْنَعُهُ؟! فَوَاللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(١).

الثالث: ما بُنِيَ على أصلٍ فَاسِدٍ(٢):

فمِن ذلك: أنَّ بعض الفقهاء وضَعَ قاعدةً فاسدة، وهي أنَّ الحلال في تلك الأزمان - التي قرَّروا فيها قاعدتهم - متعذِّرٌ، وأن الحرام قد أطبَقَ على الدنيا؛ فلا سبيل إلى الكسب الحلال؛ وإنما يأخُذُ الناس من هذا الحرام بقَدْرِ الضرورة، فانتهَكُوا حدود الله ﷻ ومحارمه، وجانبوا الوَرَعَ مجانَبةً تامَّةً، والواقع خلاف ذلك، وكان بعض أهل العلم يحضُّ على كسب الحلال، ويحذِّر من الوسوسة فيه، وكثرة البحث، ويَرُدُّ على مَن قال: إنَّه قد انقطع، ويستدِلُّ على بقاء الحلال بقول النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ»(٣)؛ فيقول: «لو لم يأكُلوا الحلالَ، ما كانوا على الحَقّ»(٤).

ثم إن الأصل في معامَلاتِ المسلمين الحِلّ، ولا يَنتقِضُ هذا الأصل أبدًا إلّا في صُوَرٍ مخصوصة دلَّ الدليلُ على منعها وتحريمها.

وقد بيَّن ابن قُدَامةَ أنه لا يَصِحُّ «إثباتُ حكم يخالِفُ الأصلَ بغير نصٍّ ولا إجماعٍ ولا قياسٍ صحيح»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٣٥٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٩/٣١٢ - ٣١٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١)؛ مِن حديث المغيرة بن شعبة ﷺ، ومسلم (١٩٢٠)؛ واللفظ له؛ مِن حديث ثَوبان ﷺ، وقد رُوِيَ من حديث أبي هريرة، وجابر، ومعاوية، وزيد بن الأرقم، وعمران بن حُصَيْن، وجابر بن سمرة، وأبي أمامة، وغيرهم ﷺ، وبعضها في الصحيحَيْن. «الصحيحة» (٢٧٠)، و(١٩٥٥ - ١٩٦٢).

(٤) انظر: كتاب «نشر المثاني، في أعلام القرن الحاديَ عشَرَ والثاني»، ترجمة محمد الكبير السرغيني.

(٥) «المغني» (٦/٦٦).

الرابع: ما كان على سبيل المبالَغةِ والغلوِّ، والتنطُّعِ والوسوسة:

وقد نبَّه على ذلك ابن القيِّم، وذكَرَ بعض أمثلته المَعِيبَةِ، فقال: «وأمَّا تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي، فهو كمَن يتوسوَسُ في الوضوء متغاليًا فيه حتى يفوتَ الوقت، أو يردِّدُ تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة، أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدَّدُ في الورَعِ الغالي حتى لا يأكُلَ شيئًا من طعامِ عامَّةِ المسلمين؛ خشية دخول الشُّبُهات عليه.

ولقد دخل هذا الورَعُ الفاسد على بعض العُبَّادِ الذين نقَصَ حظُّهم من العلم؛ حتى امتنَعَ أن يأكُلَ شيئًا من بلاد الإسلام، وكان يتقوَّتُ بما يُحمَلُ إليه من بلاد النصارى، ويَبعَثُ بالقصد لتحصيل ذلك! فأوقعه الجهل المُفرِطُ والغُلُوُّ الزائد في إساءةِ الظنِّ بالمسلِمين، وحُسْنِ الظنِّ بالنصارى؛ نعوذ بالله من الخذلان!».

ثم عقَّب على ذلك بقوله: «فحقيقةُ التعظيم للأمر والنهي: ألَّا يُعارَضا بترخُّصٍ جافٍ، ولا يُعَرَّضا لتشديدٍ غالٍ؛ فإنَّ المقصود هو الصراط المستقيم الموصِّل إلى الله ﷻ بسالكه، وما أمَرَ الله ﷻ بأمرٍ إلّا وللشيطان فيه نَزْغَتانِ: إمَّا تقصيرٌ وتفريط، وإمَّا إفراطٌ وغلوٌّ؛ فلا يبالي بما ظَفِرَ مِن العبد من الخطيئتَيْنِ؛ فإنه يأتي إلى قلب العبد فيُشَامُّه:

فإنْ وجَدَ فيه تقصيرًا وفتورًا وتوانيًا وترخيصًا، أخذَهُ من هذا الخُطَّة، فثبَّطه وأقعَدَه، وضرَبَهُ بالكسل والتواني والفتور، وفتَحَ له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترَكَ العبدُ المأمورَ جملة.

وإنْ وجَدَ عنده حَذَرًا وجِدًّا، وتشميرًا ونهضة، وأَيِسَ أن يأخذه من هذا الباب، أمره بالاجتهاد الزائد، وسوَّل له أن هذا لا يكفيك، وهِمَّتُكَ فوق هذا، وينبغي لك أن تزيدَ على العامِلين، وألّا ترقُدَ إذا رقَدُوا، ولا تُفطِرَ إذا أفطَرُوا، وألا تفتُرَ إذا فتَرُوا، وإذا غسَلَ أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرَّات، فاغسِلْ أنت سبعًا، وإذا توضَّأ للصلاة، فاغتسِلْ أنت لها، ونحو ذلك مِن

الإفراط والتعدِّي؛ فيَحمِلُهُ على الغلوّ والمجاوَزةِ وتعدِّي الصراطِ المستقيم؛ كما يحمل الأوَّلَ على التقصير دونه وألَّا يَقربَهُ»[١].

وقد مثَّل الحافظ ابن حجر لِوَرَعِ الموسوِسِينَ، فقال: «كمَن يَمتنِعُ من أَكْلِ الصيدِ خشيةَ أن يكون الصيدُ كان لإنسانٍ، ثم أَفْلَتَ منه، وكمَن يترُكُ شراء ما يحتاج إليه مِن مجهول لا يدري أَمَالُهُ حلال أم حرام»[٢].

ولا شك أن هذا من التنطُّع في الدِّينِ الذي يَهلِكُ به صاحبه.

وقد كان النبي ﷺ يعامِلُ اليهود، ومات ودِرْعُهُ مرهونةٌ عند يهودي[٣]، وهو يعلم أنهم لا يتحرَّجُونَ من الربا والكَسْبِ الحرام.

ويقول أسعد بن زِيَاد عن شيخه الداوُودِيِّ[٤]: «بقي أربعينَ سنةً لا يأكُلُ لحمًا وَقْتَ تشويشِ التُّرْكُمان، واختلاط النَّهْب، فأضَرَّ به، فكان يأكُلُ السمك، ويُصطادُ له مِن نهرٍ كبير؛ فحُكِيَ له أن بعض الأمراء أَكَلَ على حافَّةِ ذلك النَّهْر، ونُفِضَتْ سُفْرَتُهُ وما فضَلَ في النهر، فما أكَلَ السمكَ بعدُ»[٥].

وهذا من الوَرَعِ المتنطِّع فيه، والمتكلَّف.

ومِن فقهِ الإمام البخاريِّ: أنه ذكَرَ في كتاب البيوع مِن «صحيحه»: «بابٌ: الحلالُ بَيِّنٌ، والحَرَامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ»[٦]، وأخرَجَ فيه حديثَ النعمان بن بَشِير رضي الله عنه.

ثم تَرجَمَ للباب الذي بعده بقوله: «بابُ: ما يُتَنَزَّهُ مِن الشُّبُهَاتِ»[٧]، وأخرَجَ فيه حديثَيْنِ في تنزُّه النبيِّ ﷺ عن تمرةٍ خشيةَ أن تكون مِن تَمْرِ الصدقة.

---

(١) «الوابل الصيِّب» (٢٨-٣٠).

(٢) «فتح الباري» (٤/٣٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩١٦، ٤٤٦٧)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) المتوفى سنة سبع وستِّين وأربعمائة.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٨/٢٢٤).

(٦) «صحيح البخاري» (٢/٥).

(٧) المصدر السابق (٢/٦).

ثم ذكر بعد ذلك بابًا ترجَمَ له بقوله: «بابُ: مَن لَمْ يَرَ الوَسَاوِسَ ونحوَها مِن الشُّبُهاتِ»[١]، وأخرَجَ فيه حديثَ عبَّاد بن تَمِيم عن عمِّه في قطع الصلاة حالَ الشكِّ في انتقاض الطهارة، وحديثَ عائشة رضي الله عنها في جوابِه ﷺ لِمَن سألوه عن اللحم الذي يأتيهم ولا يَعلَمُونَ أذُكِرَ اسمُ اللهِ عليه أم لا؟

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (٢/٧).

الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ الوَرَعِ

الورَعُ كغيره من الأعمال والعبادات التي تحتاج إلى توطينِ النَّفْسِ وتهيئتها للتحلِّي بهذه الخَصْلة الحميدة؛ وذلك يحصُلُ بأمور، منها:

أولًا: أن تَجعَلَ بينك وبين الحرام سُتْرَةً مِن الحلال:

كما قال بعض السلف: «ما ينبغي للرجُلِ أن يَشبَعَ اليوم من الحلال؛ لأنه إذا شَبعَ مِن الحلال، دَعَتْهُ نفسُهُ إلى الحرام»(١).

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «تمامُ التقوى: أن يَتَّقِيَ اللهَ العبدُ حتى يتَّقيه في مثقال ذرَّة، حتى يترُكَ بعض ما يرى أنه حلالٌ؛ خشيةَ أن يكون حرامًا، يكون حجابًا بينه وبين الحرام»(٢).

ولهذا كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إني لَأُحِبُّ أن أدَعَ بيني وبين الحرامِ سُتْرَةً من الحلال، ولا أَخرِمها»(٣).

وكان بعضهم يقول: «كنا ندَعُ سبعين بابًا مِن الحلال؛ مَخافةَ أن نقَعَ في الحرام»(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٣١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أخرجه نعيم بن حمَّاد في «زياداته على كتاب الزهد» (٧٩)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢١٢/١).

(٣) «الورع» للمَرْوَزي (١٧٨).

(٤) «الرسالة القشيريَّة» (٢٣٣/١)؛ ونسبه لأبي بكر رضي الله عنه.

وجاء عن ميمون بن مِهْران؛ أنه قال: «لا يَسلَمُ للرجلِ الحلالُ حتى يجعل بينه وبين الحرامِ حاجزًا من الحلال»[(١)].

وقال سفيان بن عُيَيْنة: «لا يصيبُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يَجعَلَ بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتَّى يدَعَ الإثمَ وما تشابَهَ»[(٢)].

وقد قال الحافظ ابن حجر: «إنَّ الحلال حيث يُخشَى أن يؤولَ فِعْلُهُ مطلَقًا إلى مكروهٍ أو محرَّمٍ، ينبغي اجتنابُهُ، كالإكثار مثلًا من الطيِّبات؛ فإنه يُحوِجُ إلى كثرةِ الاكتسابِ الموقِع في أخذِ ما لا يُستحَقُّ، أو يُفضِي إلى بَطَرِ النفس، وأقلُّ ما فيه: الاشتغالُ عن مواقفِ العبوديَّة؛ وهذا معلوم بالعادَة، مشاهَدٌ بالعِيَان»[(٣)].

ويقول بعضهم: «المكروهُ: عقَبَةٌ بين العبد والحرام؛ فمَن استكثَرَ من المكروه، تطرَّق إلى الحرام، والمباحُ: عقَبَةٌ بينه وبين المكروه؛ فمَن استكثَرَ منه، تطرَّق إلى المكروه»[(٤)].

ثانيًا: إذا رابَكَ شيءٌ، فدَعْه:

وهذا أمر في غاية السهولة؛ ولهذا قال حسَّان بن أبي سِنَان: «ما رأيتُ شيئًا أهوَنَ مِن الورَع؛ دَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ»[(٥)].

وهكذا قال سفيان الثوري: «ما رأيتُ أسهَلَ مِن الوَرَع؛ ما حاك في نفسِكَ، تَرَكْتَهُ»[(٦)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٨٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٤٣٩)؛ رواية المَرُّوذِي، واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٨٨).

(٣) «فتح الباري» (١/١٥٥).

(٤) المصدر السابق (١/١٥٥).

(٥) ذكره البخاري في «صحيحه» تعليقًا (٢/٥).

(٦) «الرسالة القشيرية» (١/٢٣٥)؛ ونقله في «مدارج السالكين» (٢/٢٢).

وقال يوسف بن أسباط: «لي أربعونَ سَنَةً ما حاك في صدري شيءٌ إلّا تركتُهُ»(١).

وقد قال النبيُّ ﷺ: «البِرُّ: مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ القَلْبُ، وَالإِثْمُ: مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ»(٢).

ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إيَّاكم وحزائِزَ القلوب، وما حَزَّ في قلبِكَ مِن شيء، فدَعْهُ»(٣).

وحزائزُ القلوب: هي الأمور التي تتردَّدُ في النفس: «الإِثْمُ: مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ»(٤).

ثالثًا: محاسَبة النَّفْس:

فلا يتكلَّم إلّا ولسانه بين يدي عقلِه، لا تخرُجُ كلمةٌ مِن فيه إلّا وهو يَخطِمُها، ولا يَعمَلُ عملًا إلّا وهو ينظُرُ فيه؛ كيف هو؟ وماذا قصد به؟ ولا يترُكُ شيئًا كان يَعمَلُهُ إلّا وهو يسأل نفسه: لِمَ ترَكْتُهُ وقد كنتُ أعمله؟ ولِمَ عَمِلْتُهُ وقد بان لي تركه؟ وقد رُوِيَ عن أمير المؤمنين عُمَرَ رضي الله عنه؛ قال: «حاسِبُوا أنفُسَكم قبل أن تحاسَبُوا، وزِنُوا أنفُسَكم قبل أن تُوزَنُوا؛ فإنَّه أَهْوَنُ عليكم في الحسابِ غدًا أنْ تُحاسِبُوا أنفُسَكم اليومَ»(٥).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٧٤٢)؛ من حديث أبي ثعلبة الخُشَني رضي الله عنه، وجوَّد إسناده المنذري في «الترغيب» (٢/٥٥٧-٥٥٨)، وابن رجب في «جامع العلوم» (ص ٤٧٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/١٧٦): «رجاله ثقات»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٧٧).

(٣) علَّقه أحمد في «الورع» (١٦٤)؛ رواية المرُّوذي، ووصَلَهُ أبو داود في «الزهد» (١٣٢)؛ واللفظ له، والطبراني في «الكبير» (٩/١٤٩- ١٥٠/٨٧٤٨ - ٨٧٥٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٣٥)، وصحَّحه ابن رجب في «جامع العلوم» (ص ٤٧٦)، والألباني بنحوه في تحقيق «صفة الفتوى» لابن حَمْدان (ص ٥٦).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) ذكره الترمذي في «جامعه» (٢٤٥٩)، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠٦)، وابن أبي شيبة =

قال أبو جعفر العَبَّادَاني: «ينبغي للرجلِ أن ينظُرَ رَغِيفَهُ مِن أين هو؟ ودِرْهَمَهُ مِن أين هو؟»(١).

ويقول بشر الحافي: «ينبغي للرجلِ أن ينظُرَ خُبْزَهُ مِن أين هو؟ ومسكَنَهُ الذي سَكَنَهُ أصله مِن أيْشٍ هو؟ ثم يتكلَّم»(٢).

ويقول الحسن: «إن أيسَرَ الناس حسابًا يوم القيامة الذين حاسَبُوا أنفُسَهم لله في الدنيا؛ فوقَفُوا عند همومهم وأعمالهم؛ فإنْ كان الذي هَمُّوا لهم، مَضَوْا، وإنْ كان عليهم، أَمْسَكُوا، وإنما يثقُلُ الحساب يوم القيامة على الذين جازَفُوا الأمر في الدنيا، أخَذُوها مِن غير محاسَبةٍ؛ فوجَدُوا الله قد أحصى عليهم مثاقيل الذَّرِّ، وقرأ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]»(٣).

رابعًا: إحياءُ الشعورِ بأهمِّيَّة الورع:

فربَّما كان الناس في غَفْلة عنه، وعن عظيم مكانته، وحَمِيدِ عاقبته، فإذا أُثِيرَ وبُحِثَ فيه، فاح أَرِيجُه؛ فأحسَّت به النفوس، ووُجِدَتِ الدواعي إلى تحقيقِه، والتضوُّعُ بأَرِيجِه.

وفي الحثِّ على الورع، وتقريبِهِ للأفهام بالمثال، وإحياءِ الشعور بأهمِّيته؛ يقول أبو حازم: «لَوَدِدتُ أنَّ أحدَكم يتقي على دِينِهِ؛ كما يتقي على نَعْلِه»(٤).

فربما احتاط الرجل لنَعْلِهِ وثوبِهِ ما لا يحتاط لدينِهِ في كثير من الأحيان.

= (٣٤٤٥٩)، والإمام أحمد في «الزهد» (ص١٢٠)، وابن أبي الدنيا في «محاسبة النَّفْس» (٢)، والدينوري في «المجالسة» (١٢٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٢/١)؛ واللفظ له. قال ابن كثير في «مسند الفاروق» (٦١٨/٢): «أثر مشهور؛ وفيه انقطاع»، وقال الألباني في «الضعيفة» (١٢٠١): «إسناده جيِّد في «حلية الأولياء»؛ إنْ كان ثابت سمعه من عمر».

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٨)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٧)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له، والبيهقي في «الزهد» (٩١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٥١)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٩٦)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٦٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

وهذا الضَّحَّاك بن عثمان يقول: «أَدْرَكْتُ الناس وهم يتعلَّمون الوَرَع، وهم اليوم يتعلَّمون الكلامَ[(١)]»[(٢)].

خامسًا: تحقيق اليقين:

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ مِن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ؛ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا؛ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ»[(٣)].

فإذا أيقَنَ العبد أن رزقه قد كُتِبَ في اللَّوْحِ المحفوظ، وقدَّره الله له قبل أن يخلُقَ السموات والأرض بخمسينَ ألفَ سَنَة، كما أن الله أرسَلَ إليه مَلَكًا بعد ما تَمَّ له أربعةُ أشهر، وأمَرَهُ بأربع كلمات، ومنها: كَتْبُ رِزْقه، فإذا كان كذلك، فلماذا يَجترِئُ العبدُ على المكاسب المحرَّمة، أو المشتَبِهة؟!

فإنَّ ما كتبه الله لك فسيأتي قطعًا لا محالة، فإنِ استعجَلْتَ، أَخَذْتَهُ بالحرام، وإنْ صبَرْتَ، جاءك عن طريق الحلال؛ فلماذا التهافُتُ على الدنيا؟! ولهذا يقول النبي ﷺ: «فَاتَّقُوا اللهَ»؛ أي: دعوا ما حُرِّمَ واشتَبَهَ، «وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»؛ أي: لا تَتَهَافَتُوا على الدنيا، وتَذهَبْ أنفُسُكم عليها حَسَرات، فليس لكم إلّا ما كُتِبَ، وما لم يُكتَبْ لكم؛ فإنه لا يُمكِنُ أن تحصُلُوا عليه[(٤)].

---

(١) أي: ما يسمَّى بعلمِ الكلام.

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في «زوائد الزهد» (٤٠)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٦)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصحَّحه ابن الجارود (٥٥٦)، والحاكم (٣٢٥/٤)، والذهبي والألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

(٤) انظر: «الشافي، في شرح مسند الشافعي» (٥٤٧/٥).

سادسًا: تنمية الخَوْفِ مِن الله تعالى وخشيتِهِ وتعظيمِهِ في النفوس:

فمَن عرَفَ الله، وعرَفَ عظمَتَهُ وقَدْرَه، وقدَّره وعظَّمه وعظَّم حُرُماتِه، احتاط لِدِينِه، فترَكَ ما لا يليق، وجانَبَ ما فيه اشتباه، فضلًا عن المحرَّمات؛ وهذا أمر لا خفاء فيه.

سابعًا: العمَلُ على تحقيق التقوى في النفوس:

فإنَّ التقوى إذا وُجِدَتِ، استقامت أحوالُ الإنسان، فلا يُرَى حيثُ نُهِيَ، ولا يُفقَدُ حيثُ أُمِرَ، وارتقى عالي الدرجات بالتورُّعِ عن المشتبِهات، وإذا ضَعُفَت التقوى، تساهَلَ العبد في اجتراح المنكَرات.

وإنما يتفاوَتُ الناس في مثل هذا بتفاوُتِ ما في قلوبِهم مِن التقوى؛ فالتقوى مِن القلب بمنزِلةِ الماء مِن الأرض، فإذا عُمِّرَ القلبُ بالتقوى، اهتزَّ ورَبَا، وهُزِمَ داعي المعصية وخَبَا، وإذا أجدَبَ منه، غدا هشيمًا تَذرُوهُ الرياح، وضَلَّ صاحبُهُ سبيل الفلاح؛ ولهذا يقول الحسن: «ما زالتِ التقوى بالمُتَّقِينَ، حتى تركوا كثيرًا من الحلال مخافةَ الحرام»(١).

ويقول سفيان: «إنَّما سُمُّوا المُتَّقِينَ؛ لأنهم اتقَوْا ما لا يُتَّقَى»(٢)؛ يعني: مِن غيرهم.

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في «الدر المنثور» (١/١٣٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٨٤)، وذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ١٤٣).

عَلامَةُ أَهْلِ الوَرَع

إن صاحب الوَرَع يمكن أن يُعرَفَ بأمرٍ واحد، وهو قدرتُهُ على ترك ما فيه مجرَّد الشبهة، أو على فعلِ ما يُمكِنُ أن يكون لازِمًا لمثله.

يقول الخَطَّابي: «كلُّ ما شَكَكْتَ فيه، فالورَعُ اجتنابُه»[1].

فالوَرِعُونَ يكثُرُ حذَرُهم من الحرام، وتضعُفُ جُرْأَتُهم على الإقدام إلى ما قد يَجُرُّ إليه؛ وفي هذا يقول النبي ﷺ: «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ...»، إلى أن قال - كما في بعض الروايات -: «فَمَنْ تَرَكَ مَا شُبِّهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ، كَانَ لِمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنِ اجْتَرَأَ عَلَى مَا يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الإِثْمِ، أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، وَالمَعَاصِي حِمَى اللهِ؛ مَنْ يَرْتَعْ حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ»[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) نقله الحافظ في «الفتح» (٤/٣٤٣)، وهو بنحوه في «أعلام الحديث» (٢/٩٩٧).

(٢) تقدم تخريجه.

ثَمَرَاتُ الوَرَعِ، وَآثَارُهُ السُّلوكيّة

للوَرَعِ ثَمَرات وآثار، فمِن ذلك:

أولًا: أنَّ القليل معه كثير:

لأن صاحبه نقيُّ الثوب؛ لاتقائِهِ الأوزار، فلا تدنِّسُهُ المشتبِهاتُ، فهو طيِّب، خفيف الحمل من الذنوب، يترُكُ ما اشتَبَهَ عليه، فضلًا عما تحقَّق تحريمه؛ وبهذا يكون العمل الصالح بالنسبة لمثل هذا - وإنْ قَلَّ - كثيرًا؛ لأن العِبرة بالموازَنة؛ فمَن غلَبَتْ حسناتُهُ سيِّئاتِهِ، فقد نجا، ومَن غلَبَتْ سيئاتُهُ حسناتِهِ، فقد هلَك؛ ولهذا قيل: «ويلٌ لمَنْ غلَبَتْ آحادُهُ أعشارَهُ»[(١)]؛ أي: أنَّ الحسَنة بعَشْرِ أمثالها، والسيِّئة بسيِّئة؛ فمَن غلَبَتْ آحادُهُ - وهى السيِّئات - عَشَراتِه؛ فلا شك أنه مُفلِسٌ خاسر؛ وهذا يدل على أنَّ الحسَنات عنده قليلةٌ مع كثرة السيِّئات.

أمَّا إذا كان الرجل متورِّعًا عن الأمور المشتبِهة، لا يفرِّطُ في أمر الله ﷻ، وإذا حاك في نفسِهِ أمرٌ: هل هو مستحَبٌّ، أو واجب، فعَلَهُ وأتى به؛ إبراءً لذمَّته = فهذا يُرجَى له الفوز والنجاة.

وقد قال يوسف بن أسباط: «يُجزِئُ قليلُ الوَرَعِ عن كثيرِ العمل، ويُجزِئُ قليلُ التواضُعِ عن كثيرِ الاجتهاد»[(٢)].

---

(١) قد رُوِي مرفوعًا. انظر: «تفسير الثعالبي» (٤/٢١١)، و«تفسير البغوي» (٢/٢٩٠). ورُوِيَ موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه؛ أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٥/٢٣١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (٨٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٤٣)؛ واللفظ له.

وجاء عن الحسن البصري؛ قال: «مثقالُ ذَرَّةٍ مِن الوَرَعِ السالم خيرٌ مِن ألفِ مثقالٍ من الصومِ والصلاة»[(١)].

وقال إبراهيم بن أدهم: «أَطِبْ مَطْعَمَكَ ولا عليك ألَّا تقومَ مِن الليل، وتصومَ النهار»[(٢)].

وجاء رجل إلى العُمَرِيِّ العابدِ، فقال: عِظْني، فأخذ حَصَاةً من الأرض، فقال: «زِنَةُ هذه من الورع يدخُلُ قلبَكَ خيرٌ لك مِن صلاة أهل الأرض»، قال: زِدْني، قال: «كما تُحِبُّ أن يكونَ الله لك غدًا، فكُنْ له اليومَ»[(٣)].

وقال محمد بن واسع: «يكفي مِن الدعاءِ مع الورَعِ: اليسيرُ منه»[(٤)].

فهذه الآثار جميعًا تدُلُّ على أن الورع سبيل إلى تكثير الأعمال، وتثقيل موازين الحَسَنات؛ لأنَّ كِفَّةَ السيِّئات تكون خاوية.

ثانيًا: أن صاحبه يحصِّلُ الأجور العظيمة عند الله ﷻ:

وقد قيل: «مَن لم ينظُرْ في الدقيق مِن الوَرَع، لم يَصِلْ إلى الجليل مِن العطاء»[(٥)].

فالله يعطي هؤلاءِ ويُثِيبُهم الثواب الجزيل؛ لأنهم ترَكُوا مشتَهَيَاتهم وما تطمح إليه نفوسُهم، تركوا ذلك لله ﷻ، فعوَّضهم الله تبارك وتعالى خيرًا، وجزاهم الجزاء الأوفى.

---

(١) «الرسالة القشيريَّة» (١/٢٣٦)؛ ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٢٤٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦/٢٨٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٣)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٢٨٦).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٢٤ - ٢٢٥)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (١١٠٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٦/١٦٥).

(٥) «الرسالة القشيرية» (١/٢٣٤)؛ ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/٢٢).

ثالثًا: أن ذلك أيسَرُ في حساب العبد:

فإذا تخفَّف العبد من الأمور المشتبِهة، والأمور المحرَّمة؛ فإنَّ ذلك يكون أيسَرَ في حسابه؛ لأنه إنما يكثُرُ الحساب ويطولُ بسببِ كثرةِ ما يقارِفُ العبد من الأمور التي لا ينبغي أن يقعَ فيها.

وقد قال مجاهد: «مَن لم يَسْتَحِ من الحلال، خَفَّتْ مؤنته، وأراح نَفْسَه، وقَلَّ كِبْرُه»(١).

ويقول سفيان الثوري: «عليك بالزُّهْد، يبصِّرْكَ اللهُ تعالى عَوْراتِ الدنيا، وعليك بالوَرَع، يخفِّفِ الله ﷻ حسابَكَ، ودَعْ ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ، وادفَعِ الشك باليقين، يَسْلَمْ لك دِينك»(٢).

رابعًا: أنه يبلُغُ بصاحبِهِ المراتبَ العُلْيا في سُلَّمِ العُبُودِيَّة:

فيكون في أعلى مراتب العابِدِين؛ كما قال النَّضْرُ بن محمد: «نُسُكُ الرجلِ على قَدْرِ ورَعِه»(٣)؛ فالعبادة على قَدْرِ الوَرَع.

ويقول إبراهيم بن أدهم: «ما أدرَكَ مَن أدرَكَ إلّا مَن كان يَعقِلُ ما يدخُلُ جوفَهُ»(٤).

ويقول الفُضَيْل: «مَن عرَفَ ما يدخُلُ جوفَهُ، كُتِبَ عند الله صِدِّيقًا؛ فانظُرْ عند مَن تُفطِرُ يا مسكين»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٧٨)، و«الورع» (٩٢)؛ رواية المَرُّوذِي؛ ومِن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٨٤)؛ مِن كلام مجاهد، وأخرجه ابن المبارك (٥٩١)؛ ومِن طريقه هنَّاد (٨١٣)؛ كلاهما في «الزهد»، وابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (١٧٧)؛ مِن كلام يزيد بن أبي حَبِيب، وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦٤٩)، عن بعض الزهَّاد. ولفظه: «من لم يَسْتَح من طلب الحلال».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٨٣)؛ واللفظ له؛ ومِن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٠)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٨٣)؛ من وجه آخر عن سفيان مطوَّلًا.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٣٨).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٢/٩١)؛ وقد مضى قريبًا بنحوه.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٤٨/٣٩٣).

ويقول يحيى بن أبي كَثِير: «يقول الناس: فلانٌ الناسك، فلانٌ الناسك - يعني: العابدَ - إنما الناسِكُ الوَرِعُ»[(١)].

وعن حَبِيب بن صُهَيْب؛ قال: «كان يقال: لا يُعْجِبَنَّكُمْ صيامُ امرئ ولا قيامُه، ولكنِ انظروا إلى وَرَعِه؛ فإنْ كان وَرِعًا مع ما رزَقَهُ الله من العبادة، فهو عَبْدُ اللهِ حقًّا»[(٢)].

وعن معاوية بن قُرَّة؛ قال: دخَلْتُ على الحسن - البصري - وهو متكئ على سريره، فقلتُ: يا أبا سعيد، أيُّ الأعمال أحَبُّ إلى الله؟ قال: الصلاة في جَوْفِ الليل، والناس نيام، قلتُ: فأيُّ الصوم أفضَل؟ قال: في يومٍ صائف، قلتُ: فأي الرقاب أفضل؟ قال: أنفَسُها عند أهلِها، وأغلاها ثمنًا، قلتُ: فما تقول في الورع؟ قال: «ذلك رأسُ الأمرِ كلِّه»[(٣)].

وقال بعضهم: «لا يبلُغُ العبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يكون فيه أربَعُ خصال: أداءُ الفرائضِ بالسُّنَّة، وأكلُ الحلال بالوَرَع، واجتنابُ النهيِ من الظاهر والباطن، والصبرُ على ذلك إلى الموت»[(٤)].

خامسًا: الرِّفْعة وعلوُّ المَنزِلة:

يقول المَرُّوذِيُّ: سمعتُ أبا عبد الله - يعني: أحمد بن حَنْبَلٍ - وذكر ورَعَ ابن المبارَك، فقال: «إنما رفَعَهُ الله بمثلِ هذا»؛ يعني: بالورَع[(٥)].

وقال إبراهيم بن أدهم لشَقِيق البَلْخي: «يا شقيقُ، لم ينبُلْ عندنا مَن نَبُلَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٥٧)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٦٨/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٥٧ ط. الدار السلفية)، وقد سقط من ط. ابن حزم، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠٤/٦).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٠)، وبنحوه أحمد في «الزهد» (ص٢٥٩).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٩١/٢).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

بالحجِّ ولا بالجهاد، وإنما نَبُلَ عندنا مَن نَبُلَ مَن كان يَعقِلُ ما يدخُلُ جَوْفَهُ - يعني: الرغيفَيْنِ - مِن حِلِّه»(١).

وقد قيل: «مَن دَقَّ في الدنيا ورَعُه، جَلَّ في القيامةِ خطَرُه»(٢).

والله ﷻ قد رفَعَ أقوامًا بهذا الورَع، فطرَحَ لهم القَبُول، وأحبَّهم الخلق؛ بخلاف مَن تدنَّسوا بأوضار المحرَّمات، وقارَفُوا المشتبِهات؛ فإنَّ ذلك يكون حَطًّا في مرتبتهم.

سادسًا: أنَّ مَن ترَكَ شيئًا للهِ، عوَّضه اللهُ خيرًا منه:

فمَن تورَّع عن بعض ما لا يليق؛ رجاءَ ما عند الله، أو خوفًا منه ﷻ؛ فإنَّ الله تعالى يعوِّضُهُ ويفيضُ عليه من ألوان النِّعَم والأرزاق والبَرَكات ما لا يُقادَرُ قَدْرُه، وقد قال بعض أهل العلم: «لن يَعدَمَ المتورِّعُ عن الحرام فتوحًا من الحلال»(٣).

فإبراهيمُ ﷺ لما ترَكَ الأهل والوطن والعشيرة، واعتزَلَ قومه، وهجَرَهم لله وفي الله، قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]؛ فعوَّضه الله ﷻ بالذُّرِّيَّةِ الطيِّبة الصالحة، والتي لها لسانُ صِدْقٍ في العالمين(٤).

سابعًا: أنَّ صاحبه يوفَّقُ للأعمال الصالحة:

لأنه كما قيل: «مَن أكَلَ الحرامَ، عصَتْ جوارِحُهُ؛ شاء أم أبى»(٥).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٦٩/٧)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٩٥/٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢٢/٢). والمراد بقوله: «خطره»: ارتفاع المكانة والمنزلة والشرف. انظر: «تهذيب اللغة» (١٠٢/٧)، (خ ط ر).

(٣) «إحياء علوم الدين» (٢٢٣/١).

(٤) انظر في هذا المعنى ما ذكره ابن كثير في تفسير الآية (٨٤)، من سورة الأنعام (٢٩٧/٣)، و«القواعد الحِسَان» للسعدي: (القاعدة التاسعة والستون: مَن ترك شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه) (ص١٣٦).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٩١/٢).

فأكلُ الحرام يؤثِّرُ في سلوك العبد؛ فيحصُلُ له تمرُّدٌ على العبوديَّة، وخروجٌ عن طَوْرِه، واستشرافٌ لما لا يليق.

ومَن تورَّع عن الحرام، ضبَطَ جوارحَهُ وأعماله، ومَن كانت طُعْمَتُهُ حلالًا، أطاعَتْهُ جوارحُه، ووُفِّقَ للخيرات.

ثامنًا: أنه يكون حاجزًا وحائلًا دون الوقوع في الحرام:

فهو يَعصِمُ صاحبَه - بإذن الله ﷻ - من مُقارَفة الآثام والمعاصي، وهو أبعد ما يكون عن الفواحش والمُوبِقات، بخلاف مَن لا ورَعَ له؛ فإنه لا يزالُ يتنقَّلُ بين أنواع المخالَفاتِ مِن الصغائر، فما يَلبَثُ حتى يقَعَ في الكبائر؛ فإنَّ أصحابَ المُوبِقات لم تكنْ بدايتُهم في الانحراف بفِعْلِها والجرأةِ عليها، ولكنْ أفضى بهم قلَّة الوَرَعِ أو انعدامُهُ إلى ذلك المصير.

تاسعًا: أنه يصون عِرْضَ صاحِبِه:

فإن مَن تنزَّه عن المحرَّمات والشبهات، كان عِرْضُهُ نقيًّا، فيَسلَمُ من الأذى، ولا يكونُ لقائل فيه مقال، ولا يكون موضعَ رِيبَةٍ ولا تُهَمة، فيكونُ سالمًا بإذن الله ﷻ، مستبرِئًا لدِينِهِ وعِرْضِهِ؛ كما قال النبي ﷺ: «فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»[١].

أما الدِّينُ: فالسلامة، وأما العِرْضُ: فيُحفَظُ بسببِ هذا الورَعِ مِن تُهَمةِ الناس، ومِن مقالة السوء، ومِن الوقيعة في عِرْضه.

عاشرًا: أنه يطهِّرُ دَنَسَ القلب:

كما قال ابن القيِّم: «إن الوَرَعَ يطهِّر دَنَس القلب ونجاسته كما يطهِّر الماءُ دَنَس الثوب ونجاسته، وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة؛ ولذلك تَدُلّ ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثِّر كل منهما في الآخر؛ ولهذا

(١) تقدم تخريجه.

نُهِي عن لبس الحرير والذهب، وجلود السِّباع؛ لما تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبودية والخشوع، وتأثير القلب والنَّفْس في الثياب أمر خفيّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودَنَسِها، ورائحتها، وبَهْجَتِها، وكَسْفَتِها، حتى إن ثوب البَرِّ لَيُعرَف من ثوب الفاجر وليس عليهما، وقد جمع النبي ﷺ الورَعَ كله في كلمة واحدة، فقال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[1]؛ فهذا يَعُمُّ الترك لما لا يعني من الكلام والنظر، والاستماع والبطش، والمشي والفِكْر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة؛ فهذه الكلمة كافية شافية في الوَرَع.

قال إبراهيم بن أدهم: «الوَرَعُ: تركُ كلِّ شُبْهة، وتركُ ما لا يعنيك: هو ترك الفَضَلَات[2]»[3].

حاديَ عشَرَ: أنه يُثمِرُ الزهد في الدنيا:

وذلك أن الورَعَ - كما تقدَّم عند الكلام على الفرق بينه وبين الزهد - أوَّلُ الزهد، ولا يكونُ المرء زاهدًا حتى يكون وَرِعًا[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٨)، وابن ماجه (٣٩٧٦)؛ مِن حديث أبي هريرة ﷺ، وصحَّحه ابن حبان (٢٢٩)، وحسَّنه ابن عبد البر. انظر: «التمهيد» (٩/١٩٥ - ١٩٨)، والنووي في «الأربعين» (١٢)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٨٨١)، إلّا أنه مُعَلٌّ بالإرسال؛ إذْ رواه مالك (٢٦٢٨)، والترمذي (٢٣١٨)، وغيرهما، عن علي بن حسين؛ مرسلًا؛ وهو أصحُّ؛ كما قال أحمد، وابن مَعِين، والبخاري؛ كما في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٧)، والترمذي، والدارقطني في «العلل» (١٣/١٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٣٣)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٧)، وابن حجر في «إتحاف المَهَرة» (١٦/١٤٧) وغيرهم.

وفي الباب: عن الحسين بن علي موصولًا، وعلي، وأبي ذَرّ، وزيد بن ثابت، وغيرهم ﷺ إلّا أنها كلها ضعيفة؛ كما قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٠٧). انظر: «الضعفاء» للعقيلي (٢/٣٥٦)، و«الشُّعَب» (٦٥٣٢).

(٢) ذكره القشيري في «رسالته» (١/٢٣٣).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٢١).

(٤) انظر: المصدر السابق (٢/٢٨).

وبالجملة: فالورَعُ له آثار كثيرة مما ذكَرْتُ ومما لم أذكُرْ؛ مِن راحة البال، وطمأنينةِ النَّفْس، واستراحة القلب، ونظافة المجتَمَع، فضلًا عن إجابة دعاء صاحِبِه.

* * *

مُفسِدَاتُ الوَرَع، وَالأُمُورُ الَّتِي تضَادُّه

وهذا أمرٌ ينبغي أن يَعرِفَه العبد؛ لأن الإنسان قد يَجتهِدُ في تحصيل بعض مَطَالِبه، فتَجتمِعُ له شروط تحصيله، ولكنه في نفس الوقت لا يَدفَعُ الموانع التي تمنع مِن تحقُّقه، فلا يحصُلُ مطلوبه، فلا بد في تحصيل الورع من تحقيق الشروط، وانتفاء الموانع، وهكذا في كل الأشياء؛ فمَن أراد مالًا - مثلًا - فعليه أن يحقِّقَ شروط ذلك بالسعي والجِدِّ والاكتساب، وأن يدفع الموانع؛ وهي المُتلِفاتُ للأموال من التفريط والإسراف، ونحو ذلك.

وهكذا في الوَرَعِ: لا بدَّ مِن مجاهدة النَّفْسِ، وتحقيق الأمور التي ذكَرْناها عند الكلام على الطريق إلى الوَرَعِ والأمور الموصِّلة إليه، هذا مع دفع الأضداد، والأمور التي لا تَجتمِعُ معه بحال من الأحوال، ورأسُ ذلك أمور:

١ - حبُّ الدُّنْيا وشهواتِها:

فهو أمر يناقِضُ الورع؛ وذلك أن الإنسان إذا امتلأ قلبه من محبَّة الدنيا ومحبَّة شهواتها، فإنه يتهافَتُ عليها، ويُقبِلُ على تحصيلها وجمعها كيفما اتفَقَ، فكيف يحصُلُ له الورع وهو بهذه المثابة، وقلبُهُ بهذه الحال؟!

٢ - التأويلات الفاسِدَة:

فقد يريد الإنسان أحيانًا أن يتورَّع، ولكنْ إذا حضَرَ الطمع، تأوَّل لنفسه، وبحَثَ عن المخارج؛ فتبدَّت له التأويلات والمخارج والمحامل؛ سواءٌ تأوَّل لنفسه، أو تأوَّل له غيره، ومِثْلُ هذا مِن أين له الورَع؟!

وقد يُعرَضُ على المرء أحيانًا أنواعٌ مِن المكاسب التي لا تخلو مِن شُبْهة،

ثم يبدأ يوصِّفُ ذلك توصيفًا فقهيًا لا يتأتَّى مع الورع؛ فالفتوى والتخريج الفقهي شيء، والورَعُ شيء آخر؛ فالعالِمُ يُفتِي في بيان الحلال والحرام، ولا يُمكِنُهُ أن يُلزِمَ بالأحوَط، وإنما يُرشِدُ إليه.

فلو سُئِلَ عن الأكل مع إنسان أموالُهُ من مَكَاسِب لا تخلو من تَبِعَة، فإنه قد يُفتِي بحِلِّ ذلك من الناحية الفقهيَّة؛ لأن الكسب المُشارَ إليه إنما يتحمَّل وِزْرَهُ مَن اكتسَبه، وهو ليس محاسَبًا عنه، ولكنَّ مقام الوَرَعِ أرفَعُ من ذلك؛ وهو التنزُّه عن هذا الأكل.

٣ - الجُرْأة والإقدام على فعل المعاصي، وتَرْكِ الواجبات:

فإن ذلك يجتثُّ الوَرَعَ من القلب، فأيُّ ورَع يبقى عند مَن يجترئ على ترك الواجب، وفعل المحرَّم؟! وهل يُمكِنُ لهذا أن يترُكَ الشُّبْهة، أو يفعل المستحَبَّ، وهو يترُكُ الواجب الصريح، ويفعل المحرَّم الواضح؟!

قال ابن القيِّم: «والزِّنا يَجمَعُ خلالَ الشرِّ كلها: من قلَّة الدِّين، وذَهَابِ الوَرَع، وفسادِ المروءة، وقلَّة الغَيْرة، فلا تجد زانيًا معه وَرَع، ولا وفاءٌ بعهد، ولا صِدْقٌ في حديث، ولا محافَظة على صديق، ولا غَيْرةٌ تامَّة على أهله، فالغَدْرُ، والكذب، والخيانة، وقلَّة الحياء، وعدَمُ المراقَبة، وعدَمُ الأَنَفةِ للحُرَم، وذَهَابُ الغَيْرةِ من القلب: من شُعَبِهِ ومُوجَباته»[١].

فالمعاصي - لا سيَّما ما عَظُمَ قبحه منها - تؤدِّي إلى ذَهَابِ الوَرَع وتلاشِيهِ من القلب، وهذا هو السرُّ في أن كثيرًا من الناس إذا حدَّثْتَهُ عن هذا الباب، امتعَضَ وكره ما يسمع. ومنهم من يرى أن المهارة والحِذْقَ إنما هو في جمع المال مِن أيِّ طريق كان، فيحتالُ ويَكذِبُ ويَغُشُّ ويظُنُّ أن ذلك من المهارة، وإذا وجَدَ إنسانًا ليس له بصر وخبرة بنوعٍ مِن التجارة مثلًا؛ رأى أن تلك مِن

(١) «روضة المحبِّين» (ص٤٩٣).

الفرص التي لا تستعاضُ، فغَشَّ وخدَعَ، وأوقعه في شِرَاكه؛ لأنه مجترِئٌ على الله، غافِلٌ عن أمر آخِرَته.

٤ - الغَفْلة:

ويُرادُ بها عدَمُ التفطُّن لهذه الأمور التي يُتورَّعُ فيها، وإنما هو اللهوُ في الدنيا، والاشتغالُ بأمر المَعَاش.

وتجدُرُ الإشارة هنا إلى أن سبب الكتابة في مثل هذه الأعمال القلبيَّة؛ إنما هو إيقاظُ الغافل، وتبصيرُ الجاهل - وإنْ ظنَّ بعض الناس أن ذلك فيه شيء من المبالَغة؛ لغَلَبةِ الغَفْلة عليهم - فإن المؤمِن إذا سمع مثل هذه الأمور، راجَعَ نَفسَهُ، ونظَرَ في تصرُّفاته وأعماله، ولو تُرِكَ مع نفسه مِن غيرِ تذكير، فإنَّ الغَفْلَةَ قد تَغلِبُ عليه.

٥ - قِلَّةُ الحياء:

وذلك أن الحياء لا يأتي إلّا بخير: فيَحجِزُهُ حياؤه عن فعل ما لا يليق، بخلاف مَن لا حياء عنده؛ وفي ذلك يقول عمر بن الخطَّاب للأحنف بن قَيْس رضي الله عنهما: «يا أحنَفُ، مَن كَثُرَ ضحكُهُ، قَلَّتْ هَيْبَتُهُ، ومَن مزَحَ، استُخِفَّ به، ومَن أكثَرَ مِن شيءٍ، عُرِفَ به، ومَن كَثُرَ كلامُهُ، كَثُرَ سَقَطُه، ومَن كَثُرَ سَقَطُه، قَلَّ حياؤُه، ومَن قَلَّ حياؤُه، قَلَّ ورعُه، ومَن قَلَّ وَرَعُه، مات قلبه»(١).

فالذي لا يستحيي لا يتنزَّه عن اقتراف الحرام؛ كما وصَفَ الله المنافقين في حال الخوف؛ فقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الحلم» (١٢٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٢٥٩).

وقد رُوِيَ بنحوه مرفوعًا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٥٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٧٤)، وغيرهما، ولكنْ لا يثبُت؛ فقد ضعَّفه العقيلي في «الضعفاء» (٣/١٠٨٤)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٢٤٩)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٥٨١٥)، وغيرهم.

عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

فهؤلاء مِن أحطِّ الناس، ليس لهم هَمٌّ إلّا الدنيا، يتلوَّنون في كلِّ يومٍ على أحوالٍ شتَّى، فهم مع مَن غلَبَ مِن أجلِ حقنِ دمائهم، وإحراز أموالهم؛ فمثلُ هؤلاء إذا جاء الخوف، كانوا في غاية الهَلَعِ والجُبْن: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]؛ يحرِّكُ عينَيْهِ يَمْنةً ويَسْرة ببطءٍ شديد؛ لأنه لا يستطيعُ أن يحرِّكَ رأسَهُ مخافةَ أن يُؤتَى من الناحيةِ الأخرى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ أي: بسَطُوا إليكم تلك الألْسِنةَ الحِدَاد؛ وذلك بالقول القبيحِ الشنيع، فهم لا يتورَّعون مِن القول الجارح ولو كان موجَّهًا إلى رسول الله ﷺ؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وهكذا قولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧]؛ أي: حاصِرُوهم محاصَرةً اقتصاديَّةً حتى يتفرَّقوا عن بلَدِكُم؛ وينفضُّوا مِن حولِ صاحبهم.

فهذه هي حال المنافِق، ليس له حياء، بل هو دنيءٌ لا يستحيي مِن الله ولا مِن الناس.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «كان عبدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ ابْنُ سَلُولَ يقول لجاريةٍ له: اذهبي، فابْغِينا شيئًا؛ فأنزَلَ الله ﷻ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]»(١)؛ فكان يُرغِمُها على الزِّنا مِن أجل أنْ يَكسِبَ مِن ورائِها.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٩)؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

أَبْوَابُ الوَرَع

الوَرَعُ لا يقتصر على باب معيَّن من أبواب العبادات أو المعامَلات؛ كما لا يختص بالقضايا الفعليَّة أو التركيَّة، بل يشمل أمورًا كثيرة يَجمَعها قول النبي ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ: تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(١).

فيترك ما لا يعنيه من الأمور المالية، والأمور المتعلِّقة باللسان، وبغيره من الجوارح، ويشتغل بما يعنيه من الواجبات والمستحبَّات، ولا يترك فعل ما يَخشَى أن يكون واجبًا عليه فعله.

والمقصود: أن الورع كما يكون في التنزُّهِ والمباعَدة والترك، فإنه يكون أيضًا في الفعل، ويدخل في ذلك أبوابٌ كثيرةٌ جِدًّا؛ كالورع في المنطق، وفي المأكل والمشرب، وفي المكاسب، وفي المخالَطة والمجالَسة، وفي الفُتْيا والأحكام، وفي الكلام في التفسير وغيره، وفي النَّظَر والسمع، وفي الشَّمِّ، وفي أمور متنوِّعة غير ما ذكَرْتُ.

وإليك تفصيلَ ذلك:

أولًا: الوَرَع في المنطق:

فلا يخفى أن الإنسان محاسَبٌ على ما يقوله: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)؛ من حديث معاذ بن جبل ﷺ، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٢١٤)، والحاكم (٢/٧٦)، والذهبي، والألباني في =

وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»[(١)]؛ وما ذاك إلّا لأن أكثر ما يُؤْتَى الناسُ من ألسنتهم ومن شَهَواتِهم.

قال إبراهيم النَّخعي: «هلَكَ الناس في خَلَّتَيْنِ: فضولِ الكلام، وفضولِ المال»[(٢)].

وقال الحسن بن حَيٍّ: «فَتَّشْتُ عن الوَرَع، فلم أَجِدْهُ في شيءٍ أَقَلَّ منه في اللسان»[(٣)].

تجد الرجل فيه إقبال على الله ﷻ، ودِين، وعِبَادة، ولكن إذا نظَرْتَ إلى لسانه، وجدتَّه لا يتورَّعُ عن الغِيبَة والنميمة، وعَيْب الناس، ولَمْزِهِم، وهَمْزِهِم، وانتقاصِهم.

وسُئِلَ ابن المبارَك: أيُّ الورع أشدُّ؟ قال: «اللسان»[(٤)].

وقال أبو حيان التيمي: «كان يقال: ينبغي للعاقل أن يكون أحفَظَ للسانه منه لموضع قدمه»[(٥)].

ويقول عبد الكريم الجَزَرِي: «ما خاصم وَرِعٌ قطُّ»؛ يعني: في الدِّين[(٦)].

فهل يعي ذلك من اتخذوا الجَدَلَ والخصومات في الدين عملًا على مواقع

= «الصحيحة» (٤١٢). وأعله الدارقطني في «العلل» (٦/٧٧)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/٥٢٩)، وابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٠٦ - ٥٠٧).

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٠٣، ٦٧٧).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٢)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٣٥٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٥).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٢)، و«الورع» (٩٧).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٥٥)، و«الورع» (٥٣)، والبيهقي في «الشعب» (٨١٢٩).

الشَّبَكة، أو التواصل؛ مع قلة العلم، وضعف البصيرة، وغايةُ الكثير منهم: تسجيل مشارَكة، أو انتصار لمتبوع، أو تحيُّز لطائفة على سبيل العصبيَّة.

يقول إسحاق بن خَلَف: «الوَرَعُ في المنطق أشدُّ منه في الذهب والفِضَّة، والزهدُ في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة؛ لأنه يبذلهما في طلب الرياسة»(١).

وذكروا عند الربيع بن خُثَيْم رجلًا بسوء، فقال: «ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرَّغَ من ذمِّها إلى ذمِّ غيرها؛ إنَّ الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأَمِنُوهُ على ذنوبهم!»(٢).

أي: أنهم اشتغَلُوا في توصيف جرائر العباد وجناياتهم؛ وكان أحرى بهم أن يشتغلوا بذنوبهم وإصلاح نفوسهم عن الاشتغال بعيوب الناس؛ ففي النَّفْسِ شُغْلٌ عن الوقيعة في أعراض الآخرين.

وكثير من الناس يتأوَّل في ذلك تأويلاتٍ فاسدة؛ فيُحِلُّونَ ما حرَّم الله بأدنى الحِيَل؛ فيقول أحدهم: هذا يجب أن يُذكَرَ لِيُحذَرَ، فلانٌ لا حُرْمةَ له، فلانٌ أقول فيه ما أقول ديانة، وأذكُرُهُ في هذا المقام وأنا مستحضِرٌ أمرَ الغِيبة، ولكن أقول فيه ذلك تقرُّبًا إلى الله ﷻ!

وما يدري المسكين أن مَن فتَحَ على نفسه باب التأويل، ذهَبَ وَرَعُه.

يقول إبراهيم بن بَشَّار: سُئِلَ إبراهيم بن أدهم: بِمَ يَتِمُّ الوَرَع؟ قال: «بتسوية كل الخلق مِن قَلْبِك، واشتغالِك عن عيوبهم بذَنْبِك، وعليك باللَّفْظِ الجميل، مِن قلب ذليل، لِرَبٍّ جَلِيل، فَكِّرْ في ذنبك، وتُبْ إلى رَبِّك، يَثْبُتِ الورع في قلبك، واحسِمِ الطَّمَعَ إلّا مِن ربِّك»(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٨٥٧)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٨/٢٠٥).
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٥٢)؛ واللفظ له.
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٦)، والبيهقي في «الزهد» (٨٣٢)؛ بنحوه.

ومِن عجيب ما جاء في باب الورع في المنطق: ما ذكَرَ مَخْلَد بن الحسين: «أن إنسانًا استسقى من منزل أبي السَّوَّارِ العَدَوِيّ - وهو رجل من الصالحين، المتعفِّفِين عن أعراض المسلمين - فقالت امرأته: ما في الجُبِّ قَطْرَة - أي: ما في البئر ماءٌ يصلُحُ للشرب - فذهب، فأخذ عُكَّةَ الجُبِّ أو ما في أسفله، فجاء فصَبَّ على رأسها، وقال: يا أم السَّوْءات، كم هاهنا من قطرة؟!»[١].

وأقبل عليه رجل بالأذى، فسكت، حتى إذا بلغ منزله - أو دخل - قال: «حَسْبُكَ إنْ شئتَ»[٢].

وهذا أبو فَرْوَة يزيد بن محمد الرَّهَاوي، لَقِيَ أحمد بن حنبل في بغداد، فسأله الإمامُ عن رجل، فقال له: «ما فعَلَ الرجل الذي عندكم بحَرَّان - الجوهري - عنده علم؟»؛ يقول: فقلتُ له: ما أعرف بحَرَّانَ جوهريًا يُكْتَب عنه، فقال: «بلى؛ صاحبُ أبي مَعْبَد حفص بن غَيْلَان»، قلت: ما أعرفه، قال: «يغفر الله لك، له نَفْس»، فقلتُ: لعلك تريد البُومَة؟! قال: «إياه أعني»[٣].

فهذا الرجل كان يلقَّبُ بالبُومة، ولا يُعرَفُ إلّا بذلك، وكان يُمكِنُ للإمام أحمد أن يقول: البُومَة، ولكنه ترك ذلك تورُّعًا.

وجاءت ابنة للربيع بن خُثَيْم، فقالت: يا أَبَتَاه، أَذْهَبُ أَلْعَب؟ فلما أكثرَتْ عليه، قال له بعض جلسائه: لو أمرتها فذهبَتْ! قال: «لا يُكْتَبُ عليَّ اليومَ أني آمُرُها تلعب»[٤].

أراد أن ينزِّهَ صحيفتَهُ مِن أن يُكتَبَ فيها مثل هذه اللفظة: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣١٦).

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٥٠).

(٣) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٣/١٢٣).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٧١)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٤٦٨٦)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٣١).

لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ فكم في صحائفنا مِن العَبَث، والقيل والقال، والأمور التي لا تَرجِعُ علينا بطائل، ولا تعودُ علينا بنائل؟!

ثانيًا: الوَرَع في المأكل والمشرب:

عن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وغُذِيَ بِالحَرَامِ؛ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»(١).

وعن عاصم بن كُلَيْب، عن أبيه، عن رجل مِن الأنصار؛ قال: خرَجْنا مع رسول الله ﷺ في جَنَازة، فرأيتُ رسول الله ﷺ وهو على القَبْرِ يُوصِي الحافِرَ: «أَوْسِعْ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، أَوْسِعْ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ»، فلما رجع، استقبَلَهُ داعي امرأة، فجاء، وجيء بالطعام، فوضَعَ يدَه، ثم وضَعَ القومُ، فأكلوا، فنظر آباؤنا رسولَ الله ﷺ يَلُوكُ لُقْمةً في فَمِهِ، ثم قال: «أَجِدُ لَحْمَ شَاةٍ أُخِذَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ أَهْلِهَا»، فأرسلَتِ المرأةُ، قالت: يا رسول الله، إني أرسَلْتُ إلى البقيع يُشتَرى لي شاة، فلم أَجِدْ، فأرسَلْتُ إلى جار لي قد اشتَرَى شاة أن أَرسِلْ إليَّ بها بثمنها، فلم يُوجَدْ، فأرسَلْتُ إلى امرأته، فأرسَلَتْ إليَّ بها؛ فقال رسول الله ﷺ: «أَطْعِمِيهِ الأُسَارَى»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: أخذ الحسَنُ بن علي ﷺ تَمرةً من تَمْرِ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٣٣٢)، وصحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/٤٥٠)، وابن حجر في «التلخيص» (٥/٢٠١)، والألباني في «الصحيحة» (٧٥٤).

الصَّدَقة؛ فجعَلَها في فِيهِ، فقال النبي ﷺ: «كِخْ كِخْ»؛ لِيَطْرَحَها، ثم قال: «أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟!»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ مَرَّ بتَمْرةٍ في الطريق، فقال: «لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ، لَأَكَلْتُهَا»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ قال: «إِنِّي لَأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي، فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي، فَأَرْفَعُهَا لِآكُلَهَا، ثُمَّ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً فَأُلْقِيهَا»[(٣)].

وقد علَّق عليه ابن القيِّم بقوله: «وأمَّا التمرةُ التي ترك رسول الله ﷺ أكْلَها، وقال: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً»، فذلك من باب اتقاء الشبهات، وترك ما اشتبَهَ فيه الحلال بالحرام؛ فإنَّ التمرة كانت قد وجَدَها في بيته، وكان يُؤتَى بتمر الصدقةِ يَقْسِمُهُ على مَن تحلُّ له الصدقة، ويدخُلُ بيتَهُ تمرٌ يَقْتات منه أهله، فكان في بيته النوعان، فلما وجَدَ تلك التمرة، لم يَدْرِ عليه الصلاة والسلام مِن أيِّ النَّوْعَيْنِ هي، فأمسَكَ عن أكلها؛ فهذا الحديث أصل في الورع واتقاء الشُّبُهات»[(٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: «كان لأبي بكر رضي الله عنه غلامٌ يُخرِجُ له الخَرَاج، وكان أبو بكر يأكُلُ من خَرَاجِه، فجاء يومًا بشيء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تَكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهليَّة، وما أُحْسِنُ الكِهَانةَ؛ إلَّا أني خَدَعْتُه، فلَقِيَنِي فأعطاني بذلك الذي أَكَلْتَ منه، فأدخَلَ أبو بكرٍ يدَهُ، فقاءَ كلَّ شيءٍ في بَطْنه»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩١، ٣٠٧٢)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٦٩).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

(٤) «إغاثة اللهفان» (١/٢١٢).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

ولما قَدِمَ شُعَيْب بن حَرْب على يوسف بن أسباط، رأى عنده شابًّا يكلِّم يوسف ويغتاظ له، ويَرفَع صوته، فقال شُعَيْب: «ترفع صوتك؟!»، فقال له يوسف بن أسباط: يا أبا صالح، إنه محمَّد بن إدريس؛ إنه يَدرِي مِن أين يأكل!(١).

ويقول بِشْر بن الحارث: سمعتُ المُعَافَى بنَ عِمْران يقول: «كان عَشَرةٌ فيمن مضى من أهل العلم ينظُرُون في الحلال النظر الشديد، لا يُدْخِلُونَ بطونهم إلّا ما يَعْرِفون من الحلال، وإلا استَفُّوا التراب»، ثم عَدَّ: بِشْرٌ: إبراهيمَ بنَ أدهَم، وسليمان الخَوَّاص، وعلي بن الفضيل، وأبا مُعَاوية الأسود، ويوسف بن أسباط، ووُهَيْب بن الوَرْد، وحُذَيْفة - شيخ من أهل حَرَّان - وداود الطائي(٢).

وقد قيل لبِشْر الحافي: مِن أين تأكُل؟ فقال: «مِن حيثُ تأكلون، ولكن ليس مَن يأكُلُ وهو يبكي، كمن يأكل وهو يضحك، وقال: يدٌ أقصَرُ مِن يد، ولُقْمةٌ أصغَرُ مِن لُقْمة»(٣).

وكان يقول: «ينبغي للرجل أن ينظر خُبْزَهُ مِن أين هو، ومسكَنَهُ الذي سكنه، أصله مِن أَيْشٍ هو، ثم يتكلَّم»(٤).

وهذه امرأة من الصالحات أتاها نَعْيُ زوجها وهى تَعْجِن العجين، فرفَعَتْ يديها من العجين، وقالت: «هذا طعام قد صار لنا فيه شريك»(٥)؛ تعني: أن هذا العجين صار إلى الميراث، فصار فيه شركاء؛ وهذا باب دقيق من الوَرَع.

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٠)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٦)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (٥٣٨٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٧١/٨). والمذكورون ثمانية؛ فهم مِن جملة العَشَرة.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٩٢/٢).

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٧)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له؛ ومن طريقه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩١٣)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٠١/١٠).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٥٠).

وعن عَلْقمة؛ قال: «خرَجْنا ومعنا مسروق وعمرو بن عُتْبَة ومِعْضَد غَازِينَ، فبلغوا مكانًا يُقَال له: ماءُ سِنْدان، وأميرها عُتْبة بن فَرْقَد، قال لنا ابنه عمرو بن عُتْبة: إنكم إنْ نزَلْتم عليه، صنَعَ لكم نُزُلًا - يعني: ما يقدَّم للضيف من الطعام - ولعله يَظلِم فيه أحدًا، ولكنْ إذا شئتم قِلْنا في ظِلِّ هذه الشجرة، فأكَلْنا كِسَرَنا، ثم رَجَعْنا، ففعَلْنا»[(١)].

وبعث أمير البَصْرة إلى عامر بن عبد قَيْس، فقال له: «إنَّ أمير المؤمنين أمرَني أن أسألك... ما لك لا تأكُلُ الجبن؟ قال: أنا بأرض فيها مجوس، فإنْ شَهِدَ شاهدان من المسلمين أنْ ليس فيه مَيْتة، أكَلْتُه»[(٢)].

وأما عَبِيدة السَّلْماني، فإنه لما كان بأرضٍ قد كَثُرَ فيها أشربة النبيذ الذي كان يترخَّصُ فيه أهل الكوفة، ترَكَ ذلك جميعًا، وتورَّعَ عنه، وقال: «فما لي شَرَابٌ منذ ثلاثين سنة إلّا العَسَل واللبن والماء»[(٣)].

وصحب يحيى بن سعيد أبا بكر بن عيَّاش إلى مكة، فقال: «ما رأيتُ أورَعَ منه، ولقد أهدى له رجل بالكوفة رُطَبًا، فبلَغَهُ أنه مِن البُسْتان الذي قُبِضَ عن خالد بن سَلَمة المخزومي، فأَتَى آلَ خالد، فاستحَلَّهُمْ، وتصدَّق بقيمته»[(٤)].

ولما احتُضِرَ ابن المبارَك في السفر، قال: «أشتهي سَوِيقًا»، فلم يجدوه إلّا عند رجل كان يَعمَل لبعض الظَّلَمة، فقالوا له: إنه عند فلان، فقال: «دعوه»، فمات ولم يَشرَبْه[(٥)]! لم يقل: عليه إثمُه، وقد وصَلَ إليَّ بطريق مباح.

ثالثًا: الورع في المكاسب:

وقد مَرَّ رجل يحمل حشيشًا، فتناول رجل منه طاقة - يعني: شيئًا يسيرًا -

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٣٥٢)؛ واللفظ له؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٥٥/٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩٠/٢).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤٢/٤).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٩٤/١٦).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤١١/٨)؛ بتصرف.

فقال له عبد الله بن عمر ﷺ لمَّا رآه: «أرأيتَ لو أن أهل مِنًى أخذوا مِن هذا طاقةً طاقةً، بقي منها شيء؟»، قال: لا، قال: «فَلِمَ فَعَلْتَ؟!»(١).

وكان عطاءُ سَلْمانَ الفارسيِّ ﷺ خمسةَ آلاف، وكان أميرًا على زُهَاءِ ثلاثين ألفًا من المسلمين، وكان يخطُب الناس في عَبَاءة، يفترش بعضها، ويلبس بعضها - وهو الأمير - فإذا خرج عطاؤه، أمضاه، ويأكُلُ من سَفِيفِ(٢) يَدَيْه(٣).

ورُوِيَ أن عُبَادةَ بن الصامت ﷺ مَرَّ بقريةٍ يُقال لها: (دُمَّر)، من قرى الغُوطَة، فأمر غلامه أن يَقطَع له سِوَاكًا مِن صَفْصَافٍ على نهر بَرَدَى، فمضى ليفعل، ثم قال له: «ارْجِعْ؛ فإنه إلّا يكنْ بثمن - يعني: لا قيمة له - فإنه يَيْبَسُ، فيعود حطبًا، فيبيعونه»(٤).

وكان المِسْوَر لا يشرب من الماء الذي يُسْتَقَى في المسجد، ويكرهه؛ يرى أنه صدقة(٥)؛ فكان يتورَّع عن الصدقة؛ لأنه غنيٌّ؛ مع أنه يجوز له أن يَشرَب منه، وهو مال مبذول للجميع، ولم يُخَصَّ به الفقراء.

وهذا حمَّاد بن زيد الإمام المعروف يقول: «كنتُ مع أبي، فأخذتُ تِبْنةً من حائط»، قال: فقال لي: لِمَ أخذتَ؟ قال: قلتُ: «إنما هي تِبْنة!»، قال: لو أن الناس أخذوا تِبْنةً تِبْنةً، كان يبقى في الحائط تِبْن؟!»(٦).

وعن صالح الدَّهَّان؛ أن جابر بن زيد كان يتحدَّث مع بعض أهله، فمَرَّ

---

(١) ذكره أحمد في «الورع» (٥٩)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) أي: يأكُلُ مِن عمل يديه؛ يقال: سَفَفْتُ الخُوصَ، أَسُفُّهُ؛ وأَسْفَفْتُه؛ أي: نَسَجْتُهُ.

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ١٥٠)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١/١٩٧).

(٤) أخرجه أبو عُبَيْد في «الأموال» (٤٤١)؛ واللفظ له، وابن زنجويه في «الأموال» (٦٢٨)؛ ومن طريق أبي عُبَيْد أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/٢٠٣).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٣٨)؛ رواية المَرُّوذِي، بسند صحيح، عن أم بكر بنت المِسْوَر.

(٦) المصدر السابق (٦٠).

بحائطِ قوم، فانتزَعَ منه قَصَبةً، فجعَلَ يطرُدُ بها الكلاب عن نفسه، فلما أتى البيتَ، وضَعَها في المسجد، فقال لأهله: «احتفِظوا بهذه القَصَبة؛ فإني مررتُ بحائط قوم، فانتزعتُها منه»، قالوا: سبحان الله! يا أبا الشعثاءِ، ما بلَغَ بقَصَبة؟! فقال: «لو كان كل مَن مَرَّ بهذا الحائط أخذ منه قَصَبة، لم يبق منه شيء»، فلما أصبح، رَدَّها[(١)].

ودخلَتْ جاريةٌ منزِلَ طَلْحة بن مصرِّف تقتبس نارًا، وطلحةُ يصلي، فقالت لها امرأة طلحة: مكانَكِ يا فلانة؛ حتى نَشْوِيَ لأبي محمَّدٍ هذا القَدِيدَ على قَصَبَتِكِ يُفْطِرُ عليها، فلما قضى الصلاة، قال: «ما صَنَعْتِ؟ لا أذوقها حتى تُرسِلي إلى سيِّدتها تستأذنيها حَبْسَكِ إياها وشِواءَك على قصبتها»[(٢)].

وكان محمَّد بن سِيرِينَ يَكرَهُ أن يَشترِيَ بالدنانير المحدَّثة، والدراهم التي عليها اسم الله[(٣)]؛ يكره ذلك تعظيمًا وتنزيهًا لله؛ لئلا يُمْتَهَنَ اسمه.

وعن ابن عَوْن؛ قال: كان لابن سيرينَ منازلُ لا يُكْرِيها إلّا مِن أهل الذمَّة، فقيل له في ذلك؟ فقال: «إذا جاء رأس الشهر، رُعْتُهُ، وأنا أكره أن أروِّع مسلمًا»[(٤)].

ويقول الذهبي عن يزيد بن زُرَيْع: «كان من أورَعِ أهل زمانه، مات أبوه، وكان واليًا على الأُبُلَّة، فخلَّف خمسمائة ألف، فما أخذ منها حبَّة»[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٨٧).

(٢) المصدر السابق (٥/١٤ - ١٥).

(٣) ذكره أحمد في «الورع» (٢٣٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٤) «صفة الصفوة» (٣/٢٤٦)، وأخرجه المَرُّوذِيُّ في «أخبار الشيوخ» (ص ١٩٤)، وذكره ابن الجوزي في موضع آخر من «صفة الصفوة» (٣/٣١٠)؛ بلفظ: «عن ابن عَوْن؛ قال: كانت له حوانيتُ يُكْرِيها، فكان لا يُكْرِيها من المسلمين...»، والظاهر: أن ابن عَوْن كان يرويه عن ابن سِيرِينَ؛ كما يُشعِرُ به قوله: «عن ابن عَوْن؛ قال: كانتْ له حوانيت...»، ويَحتمِلُ أن ذلك وقع له أيضًا؛ كما كان ابن سيرين يَفعَل.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٨/٢٩٩).

وكذلك البَرْبَهاري؛ فإنه تورَّع عن مال أبيه، وكان سبعين ألفًا[١]؛ مع أن الميراث يَطِيبُ للوارث؛ لأنه لا تَبِعةَ عليه فيه.

ويقول يونس بن عُبَيْد: «ما السارق عندي بأسوأَ سرقةً من التاجر يشتري المتاع إلى أَجَل، ثم يضربُ فيه إلى البُلْدان، لا يكتسِبُ دِرْهَمًا بعد الأجل إلّا كان حرامًا»[٢].

وذلك أن هذا التاجر اشتَرَى هذه البضاعة على أن يوفِّي ثمنها في مُدَّةِ شهرٍ مثلًا، ثم جعَلَ يسافر بها ويبيعها في البلدان، وزادت المُدَّة عن الشهر، فيرى أن كَسْبَهُ بعد الشهر حرام؛ لأنه لم يُوَفِّ صاحبه قيمته، وقد اشترط عليه شهرًا.

ومثلُهُ مَن يأخذ من الناس أموالهم ليضارِبَ فيها، ثم بعد ذلك تنقضي مدة العَقْد، ولا تزال هذه الأموال بيده، والناس يُطالِبونه بأموالهم، وهو يتصرَّف فيها، فهو لا يكتسِبُ درهمًا واحدًا من هذا المال بعد تمام مُدَّة العقد، إلّا كان سُحْتًا حَرَامًا في حقِّه.

ويقول شُعَيْب بن حَرْب: «لا تَحقِرَنَّ فَلْسًا تطيعُ اللهَ في كَسْبِه، ليس الفَلْسُ يرادُ، إنما الطاعةُ ترادُ، عسى أن تشترِيَ به بَقْلًا، فلا يستقر في جَوْفك حتى يُغفَرَ لك»[٣].

أي: لا تتهاوَنْ في هذه الأمور؛ فإن أكل الحلال قد يكون سببًا لمغفرة الله ﷻ ذنوب العبد.

وهذا زكريَّا بن عَدِيّ؛ كلَّموا له إنسانًا، وكان شغلُهُ في ضَيْعة، وأجرى عليه ثلاثين درهمًا - وهو شيء يسير - وكَرِهَ أن يزيده فلا يذهب، فلما كان بعد شهر، قَدِمَ، فقالوا: ما حالك؟ فقال: «ليس أراني أعمَل بقَدْرِ ما آخذ»[٤].

---

(١) انظر: «طبقات الحنابلة» (٣/٧٦ - ٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٩١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) المصدر السابق (٨٣).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/٤٥٧).

فماذا يقول الذي يتولَّى أعمالًا ووظائف، ثم بعد ذلك يضيِّع هذا العمل الذي رُبِطَ به، ويقصِّر فيه، ولا يأتي به على الوجه المطلوب؟! وقُلْ مثل ذلك في أصحاب الشركات والمؤسَّسات الذين يتنافسون على مناقَصة، فيَطْرَح أحدهم أقلَّ الأسعار، ويضع أعلى المزايا، ثم إذا استقرَّ ذلك في حقِّه، فرَّط، وضيَّع، وأخلَّ بالشروط إذا وجَدَ منهم غَفْلة، أو استطاع أن يحتال عليهم، وما عَلِمَ أن الله ﷻ على كل شيء حسيب رقيب.

وقد اشتكَتْ عينُهُ، فأتاه [إنسان] بكُحْل، فقال: «أنت ممن يسمع [مِنِّي] الحديث؟»، قال: نعم، فأبى أن يأخذه[1]؛ لئلا يكون ذلك في مُقابِل بذل حديث رسول الله ﷺ وتعليم العلم.

ويقول الحسين الجُعْفي: «ربما عَطِشَ حمزة[2]، فلا يستسقي؛ كراهية أن يصادِفَ مَن قرأ عليه»[3].

وعن الحسين بن حَرْب؛ قال: «بَعَثَ بي أبي إلى السَّرِيِّ - السَّقَطِيِّ - بشيء من حَبِّ السُّعَال؛ لسعال كان به، فقال لي: كم ثمنه؟ قلت له: «لم يُخبِرْني بشيء»، فقال: اقرأ عليه السلام، وقل له: نحن نعلِّمُ الناس منذ خمسين سنةً ألَّا يأكُلُوا بأديانهم، تُرَانا اليوم نأكُلُ بأدياننا؟!»[4].

وقد سُئِلَ ابن المبارَك: مَنِ السَّفِلَة؟ قال: «الذين يعيشون بدينهم»[5].

وهذا محمد بن واسع الإمام العابد المعروف، خرَجَ إلى السوق ليبيع حمارًا، فقال له رجل: أترضاه لي؟ قال: «لو رَضِيتُهُ، لم أبعه»[6].

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/٤٥٧)، وذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٧/٩١).

(٢) وهو: حمزة القارئ، الإمام المعروف، كان يَعطَشُ أثناء الإقراء، فلا يطلُبُ من أحد أن يأتيه بالماء؛ لأنه يريد أن يكون الإقراء لله، ولا يأخُذُ على ذلك عوضًا.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/٩١).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١١٧).

(٥) المصدر السابق (٨/١٦٨).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٦٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٤٩)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩١٣).

وقال أبو بكر بن عيَّاش: «رأيت مجمِّعًا التيميَّ كأني أنظُرُ إليه في سوق الغَنَم، قالوا له: كيف شاتُكَ هذه؟ قال: ما أرضاها!»[(١)].

وعن أبي عُتْبة؛ قال: بعنا جاريةً للحسن بن صالح، فقال: «أَخبِرُوهم أنها تَنَخَّمَتْ عندنا مرةً دَمًا»[(٢)].

فأين هذا مما يصنعه كثير من الناس اليوم؟! يبيع أحدُهم السيَّارة وبها عيوب يعلم بها، ومع ذلك لا يبيِّنُ للمشتري، بل يقولُ دُلْسَة: أبيع لك كَوْمًا من حديد؟! ثم إذا اشتراها هذا المسكين، واكتشَفَ بعد ذلك فيها من العِلَلِ ما شاء الله أن يَكتشِف، وعاد إليه، قال: إنما بِعْتُكَ كَوْمًا من الحديد! وهذا لا يُبرِئ ذمَّته.

وهذا أبو شُعَيْب أيوب بن راشد، كان مِن أورَعِ الناس؛ كان يكْنُسُ حيطان بيته، فإذا وقع شيء من حيطان جيرانه، جمَعَهُ، فذهَبَ به إليهم[(٣)].

ويقول ابن المبارَك: «استعَرْتُ قَلَمًا من أرض الشام، فذهب عليَّ أن أَرُدَّه إلى صاحبه، فلما قَدِمْتُ مَرْوَ، نظَرْتُ فإذا هو معي، فرجَعْتُ... إلى الشام، حتى رَدَدتُّهُ على صاحبه»[(٤)].

لم يقل: هذا شيء يسير، لا يُكترَثُ له، ولا يُبحَثُ عنه عادة، ويمكن أن يُتصدَّقَ به عن صاحبه، والتَّبِعةُ مِن مشقَّة الرجوع من مرو إلى الشام أعظم بكثير من قيمة هذا القلم، بل رجع وردَّه إليه.

وهذا أبو إسحاق الشِّيرازي - وهو من أَجَلِّ علماء الشافعية - «دخل مسجدًا ليتغدَّى، فنسي دينارًا في المسجد، ثم ذكر فرجَعَ، فوجَدَهُ، ففكَّر، وقال: لعلَّه وقع من غيري، فتركه»[(٥)].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/٨٩).

(٢) المصدر السابق (٧/٣٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٩٢).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٦٥)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٢/٤٣٤).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٨/٤٥٦).

وجاء سفيان الثوري إلى صَيْرَفيٍّ بمَكَّةَ يشتري منه دراهم بدينار، فأعطاه الدينار، وكان معه آخر، فسقَطَ من سُفْيان، فطلبه، فإذا إلى جانبه دينار آخر، فقال له الصَّيْرَفيُّ: خذ دينارك! قال: «ما أَعرِفُه»، قال: خذ الناقص، قال: «فلعلَّه الزائد»، قال: فترَكَهُ ومَضَى[1].

وهذا كَهْمَس بن الحسَن؛ سقَطَ منه دينار، فأخذوا غِرْبالًا، فغربلوا التراب، فوجدوا دينارًا، فأبى أن يأخذه، وقال: «لعله ليس ديناري»[2].

وقال الإمام أحمد[3] - وقد ذَكَرَ ورَعَ عطاء بن محمد الحَرَّاني -: «كان إذا قَدِمَ مكة، حمل معه أحمال الطعام، وقال: لا أُنافِسُ أهل مكة في سِعْرهم، وكان يتأوَّل هذه الآية: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]».

يعني: هو الآنَ طارئ على مكة، ليس من أهلها، فإذا زاد الطلب، ارتفَعَتِ الأسعار على أهل مكَّة.

ويقول يونس بن عُبَيْد: «إنَّك لَتَعرِفُ ورَعَ الرجل في كلامه؛ إذا تكلَّم»[4]، وقال: «ما أهَمَّ رجلًا كسبُهُ، حتى أهمَّهُ أين يضَعُ درهمه»[5].

فالرجل الذي يتورَّع في المكاسب يتجنَّب المساهمة الفلانية؛ لأن فيها شُبْهة، والمشروع الفلاني؛ لأن فيه شبهة، والعمل الفلاني؛ لأنه لا يخلو من محظور.

وعن النَّضْر بن شُمَيْل، وسعيد بن عامر؛ قالا: «غَلَا الحرير - وقال

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٥٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٥٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٢١١).

(٣) في «الورع» (٥)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٣٣)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٠).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٣٣)؛ رواية المَرُّوذِي.

أحدهما: الخَزّ - في موضع كان إذا غَلَا هناك، غَلَا بالبَصْرة، وكان يونس بن عُبَيْدٍ خَزَّازًا، فعلم بذلك، فاشتَرَى من رجلٍ متاعًا بثلاثين ألفًا، فلما كان بعد ذلك، قال لصاحبه: هل عَلِمْتَ أن المتاع كان غلا بأرض كذا وكذا؟ قال: لو علمتُ لم أبِعْ، قال: هلمَّ إلى مالي، فخذ مالك، فرَدَّ عليه الثلاثين ألفًا»[١].

وعن فُرَات بن مسلِم؛ قال: «كنتُ أَعرِضُ على عمر بن عبد العزيز كتبي في كلِّ جمعة، فعرَضْتُها عليه، فأخذ منها قِرْطاسًا قدر أربع أصابع، فكتب فيه حاجة، قال: فقلتُ: غفَلَ أمير المؤمنين، فأرسَلَ من الغد أن جئني بكُتُبِك، قال: فجئتُ بها، فبعثني في حاجة، فلما جئتُ، قال لي: ما لنا أن ننظُرَ فيها، قلتُ: إنما نظرتَ فيها أمسِ، قال: فاذهب، أبعث إليك، فلما فتحتُ كتبي، وَجَدتُّ فيها قرطاسًا قدر القرطاس الذي أخذ»[٢].

وبلغ مِن ورَع عمر بن عبد العزيز: أنه كانت تُسْرَجُ له الشَّمْعة ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرَغَ من حاجتهم، أطفأها ثم أسرَجَ عليه سراجه[٣].

وأرسَل ذات مرَّة غلامه يشوي بكَبْكَبَةٍ[٤] مِن لحم، فعَجِلَ بها، فقال: «أسرعتَ بها؟!»، قال: شوَيْتُها في نار المطبخ - وكان للمسلمين مطبخ يغدِّيهم ويعشِّيهم - فقال لغلامه: «كُلْها يا بُنَيَّ؛ فإنك رُزِقْتَها ولم أُرْزَقْها»[٥].

وأُتِيَ بماء قد سُخِّنَ في فَحْمِ الإمارة، فكَرِهَهُ ولم يتوضَّأ به[٦].

وكان لا يَحمِلُ على البَرِيد إلّا في حاجة المسلمين، وكتَبَ إلى عاملٍ له

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٦/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢١٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٢٤/٥).

(٤) كبَّبوا اللحمَ تكبيبًا، مِن الكَبَاب، وهو اللحم يُكَبُّ على الجَمْر. «أساس البلاغة» (١١٧/٢)، (ك ب ب).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٩١/٥).

(٦) المصدر السابق (٢٩٤/٥).

يشتري له عَسَلًا، ولا يسخِّر فيه شيئًا، وأنَّ عامله حمله على مَرْكَبةٍ من البريد، فلما أتى، قال: علامَ حَمَلَه؟ قالوا: على البريد، فأمر بذلك العسل فبِيعَ، وجعَلَ ثمنه في بيت مال المسلمين، وقال: أفسدتَّ علينا عسلك[1].

وتقول زوجُهُ فاطمة بنت عبد الملك رحمها الله: «اشتهى عمر بن عبد العزيز يومًا عَسَلًا، فلم يكن عندنا عسل، فوَجَّهْنا رجلًا على دابَّة من دوابِّ البريد إلى بَعْلَبَكَّ، فأتى بعسل، فقلنا يومًا: إنك ذَكَرْتَ عسلًا، وعندنا عسل؛ فهل لك فيه؟ قال: نعم، فأتيناه به فشَرِب، ثم قال: «مِن أين لكم هذا العسل؟»، قالت: قلتُ: وَجَّهْنا رجلًا على دابَّة من دوابِّ البريد بدينارَيْن إلى بعلبك، فاشترى لنا عسلًا، فأرْسَل إلى الرجل، فجاء، فقال: انطلِقْ بهذا العسل إلى السوق، فبِعْهُ، فارْدُدْ إلينا رأسَ مالنا، وانظر الفَضْلَ، فاجعله في عَلَفِ دوابِّ البريدِ - لأنه جاء به على دابَّة من دوابِّ البريد - لو كان ينفع المسلمين قَيْءٌ، لَتَقَيَّأْتُ!»[2].

فهذا ورع نحتاج إليه؛ فقد يعمل الإنسان في جهة من الجهات، فيَستغِلُّ سيَّارة العمل لشؤونه الخاصَّة، وربَّما كان يَعمَلُ في مؤسَّسةٍ خيريَّة، ثم لا يتورَّع عن مثل ذلك.

يقول مَسْلَمة بن عبد المَلِك: دخلتُ على عمر بن عبد العزيز بعد الفَجْر في بيت كان يخلو فيه، فلا يدخُلُ عليه أحد، فجاءته جارية بطَبَقٍ عليه تمرٌ صَيْحَاني، وكان يُعجِبُه التمر، فرفَعَ بكفِّه منه، فقال: «يا مَسْلَمَةُ، أترى لو أن رجلًا أكَلَ هذا، ثم شرب عليه من الماء، أكان يُجْزِيه إلى الليل؟»، قلتُ: لا أدري، قال: فرفع أكثر منه، فقال: «هذا؟»، قلتُ: نعم يا أمير المؤمنين!

---

(١) المصدر السابق (٥/٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٣١٣)؛ رواية المَرُّوذِي، وابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٢٠)؛ واللفظ له.

كان كافيه دون هذا حتى لا يُبالِيَ ألَّا يذوق طعامًا غيره، فقال: «فعَلَامَ يدخل النار؟!»، قال مَسْلَمَة: فما وقعَتْ مني موعظةٌ ما وقعَتْ هذه(١).

والمقصودُ من إيراد ذلك كله: الاعتبارُ والاتعاظ، وتحريكُ دواعي الورَع في النفوس، مع مراعاة مراتب الناس في ذلك كله؛ وليس ذلك يعني محاكاة ما سبق لكل أحد، إضافةً إلى أن هذه المرويَّات عن غير المعصوم يُؤخَذُ منها ويُترَك، لكنَّ المؤمِن ينتفع بها، فيكون ذلك باعثًا له على محاسَبة النفس في هذا الباب.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٧٨٣)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢٧٧/٥)، وأخرجه أحمد في «الورع» (٣٣٠)؛ رواية المَرُّوذِي؛ واللفظ له.

الأُمُورُ الدَّقِيقَةُ فِي الوَرَعِ فِي المكاسِبِ

نَمَاذِجُ مِنْ فَتَاوِي الإِمَامِ أَحْمَدَ فِي مَسَائِلَ دَقِيقَةٍ فِي هَذا البَابِ

قال ابن القيِّم: «مِن دقيق الورع: ألَّا يَقبَلَ المبذولَ حالَ هَيَجان الطَّبْع من حزن أو سرور؛ فذلك كبذل السَّكْران، ومعلوم أن الرأي لا يتحقَّق إلّا مع اعتدال المزاج، ومتى بذَلَ باذل في تلك الحال يعقُبُهُ ندم؛ ومن هنا لا يقضي القاضي وهو غَضْبان، وإذا أردتَّ اختبار ذلك، فاختبِرْ نفسك في كل مواردك من الخير والشر: فالبِدَارُ بالانتقام حال الغضب يُعْقِب ندمًا، وطالما نَدِمَ المسرور على مجازَفَتِه في العطاء، ووَدَّ أن لو كان اقتصَر، وقد نَدِمَ الحسن على تمثيله بابن مُلْجِم»[(١)].

والمقصود: أن الورَعَ في المكاسب باب واسع، يدخُلُ فيه أشياء كثيرة يتساهل الناس فيها.

فهذا الإمام أحمد - وهو إمام في العلم والورع - وُجِّهَتْ إليه سؤالات، فأجاب عنها بأجوبة يَستغرِبُها أهلُ زماننا؛ فمن ذلك:

يقول المَرُّوذِيُّ: «قلت لأبي عبد الله: ما تقول في طَيْرَة أنثى، جاءت إلى قوم، فازَّوَّجَتْ عندهم، وفَرَّخَتْ، لمن الفرخ؟ قال: يَتَّبِعون الأمَّ.

وأظُنُّ أني سمعته يقول في الحَمَام الذي يرعى في الصحراء: أكره أكل فراخها، وكره أن يُرْعَى في الصحراء، وقال: تأكل طعام الناس»[(٢)].

(١) «بدائع الفوائد» (٣/١٠٦٥ - ١٠٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٢١٥)؛ رواية المَرُّوذِي.

وسأله أيضًا عن: «بئر احتُفِرَتْ وقد أوصى مخنَّثٌ أن يُعَانَ فيها - أي: بماله - تَرَى الشرب منها؟ قال: لا، كسبُ المخنَّثِ خبيثٌ؛ يكسبه بالطبل.

قلتُ له: فإنْ رُشَّ منها المسجد ترى أن يُتوقَّى؟ فتبسَّم»[١].

ويقول أيضًا: سمعتُ أبا عبد الله - يعني: أحمد بن حنبل - يقول: «أكرَهُ الشرب من هذه الآبار التي في الطُّرُقات»[٢].

وذلك أن الطريق: هي المَمَرُّ للسابلة، وليست محلًّا لحَفرِ البِئرِ.

ويقول أيضًا: «قلت لأبي عبد الله: إني أُدعَى أغسِّلُ الميِّت في يوم بارد، فيفضُلُ من الماء الحار؛ تَرَى أن أتوضَّأ منه؟ قال: لا؛ ذاك قد أُسخِنَ بكُلْفةٍ - أي: بأجرة - كأنه ذهب إلى أمر الوَرَثة»[٣]؛ يعني: هذا من حق الوَرَثة.

ويقول ولده عبد الله: كان هاهنا شيخ، قال: رأيتُ على يد أبي عبد الله جَرَبًا، فجئتُ بدواء، فقلتُ: ضع هذا عليه، فأخذه ثم ردَّه، فقلتُ له: لِمَ رَدَدتَّهُ؟ فقال: «أنتم تسمعون - يعني: مني -»[٤].

يعني: تسمعون مني الحديثَ والعلم؛ فلا يكون ذلك عِوَضًا عنه، مع أنه يجوز له أن يأخُذ.

وقال محمد بن عيَّاش: «أَرْسَلَني أبو عبد الله، فاشترَيْتُ له سَمْنًا بقطعة؛ فجئتُ به على وَرَقةِ بَقْلٍ، فأخذ السَّمْن، وأعطاني الورقة، وقال: رُدَّها»[٥].

وهذا الورع يصلح للإمام أحمد وأمثاله، وأما مَن دُونَهم، فيُقالُ لهم - إذا وقع منهم شيء من ذلك -: «هذا ورَعٌ بارد»؛ كما قدَّمنا.

---

(١) المصدر السابق (١١٩).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (١٢٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) المصدر السابق (١٢٨).

(٤) «الزهد» لأحمد (ص ٢٨٣)؛ وعنه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٨٥٥).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٣٥٣).

وقيل له: إن عيسى الفَتَّاح قال: سألت بِشْر بن الحارث: هل للوالدَيْنِ طاعة في الشُّبْهة؟ قال: لا، فقال أبو عبد الله: «هذا سديد[١]»[٢].

وقال المَرُّوذِيُّ: «قلت لأبي عبد الله: إني أكون في المسجد في شهر رمضان، فيُجَاءُ بالعُودِ من الموضع الذي يُكْرَه، فقال: وهل يُرادُ من العُودِ إلّا رائحتُه؛ إنْ خفي خروجُك، فاخرُجْ»[٣].

وسُئِلَ عمَّن سقَطَتْ منه ورَقَة فيها أحاديث؛ فهل لِمَن وجَدَها أن يكتُبَ منها، ثم يَرُدَّها؟ قال: «لا، بل يستأذِنُ، ثم يكتُبُ»[٤].

وقد قيل للإمام أحمد: ما تقول فيمن بنى سُوقًا وحشَرَ الناس إليها غصبًا؛ ليكون البيع بها والشراء؟ فقال: «تجد موضعًا غيره؟»، وكَرِهَ الشراء منها، قيل له: مَنِ اشترى منها يُشتَرى منه؟ قال: «إذا كان بينك وبينهم رجل، فهو أسهل»[٥].

وقيل له: إن قومًا يتوقَّوْنَ أن يُوقَدَ بِخِثْيِ الجواميسِ[٦]، فقال: «نعم؛ يقال: إن أصلها ليس بصحيح»[٧].

أي: أن الجواميس بتلك الناحية في طَرَسُوسَ كانت لبني أميَّة، فلما جاء بنو العبَّاس، أخذوها غصبًا، فكان بعض المتورِّعين يتورَّعون من الإيقاد برَوْثها.

وقال له المَرُّوذِيُّ: بِعْتُ ثوبًا من رجل - أعني: أكره كلامه ومُبايَعَته -

---

(١) في طبعة دار الصميعي: «هذا شديد».

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (١٧٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) المصدر السابق (١٤٠).

(٤) «إحياء علوم الدين» (٢/٩٦).

(٥) أخرجه أحمد في «الورع» (٩٥)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٦) اسمٌ لروث البقر. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/١١)، (خ ث ا).

(٧) أخرجه أحمد في «الورع» (٥٣)؛ رواية المَرُّوذِي.

(وكانوا يكرهون البيع والشراء من أصحاب البدع كالجهميَّة)؟ فقال: «دعه حتى أنظُرَ فيها»، فلما كان بعدُ، سألتُهُ قال: «تَوَقَّ أن تبيعه».

قلتُ: فإني بِعْتُه، وأنا لم أعلم، قال: «إنْ قَدَرْتَ أن تستردَّ البيع، فافعل»، قلتُ: فإنْ لم يمكنّي، أتصدَّق بالثمن؟ قال: «أكره أن أَحْمِلَ الناس على هذا، فتَذهَبَ أموالهم». قلت: فكيف أصنع؟ قال: «ما أدري! أكره أن أتكلَّم فيها بشيء، ولكنْ أقَلُّ ما هاهنا: أن تتصدَّق بالرِّبْح، وتتوقَّى مبايَعَتَهم»[1].

وقال له المَرُّوذِيُّ أيضًا: يُروَى عن يوسف بن أسباط؛ أن الثوري وابن المبارك اختلَفَا في رجل خلَّف متاعَهُ عند غلامه، فباع ثوبَهُ ممن يكره مبايَعَتَهُ، قال الثوري: «يُخرِجُ قيمته»؛ يعني: قيمة الثوب، وقال ابن المبارك: «يتصدَّق بالرِّبْح»، فقال الرجل: ما أجد قلبي يسكُنُ إلّا أن أتصدَّق بالكِيس، وقد كان ألقى الدراهم في الكيس، فقال أبو عبد الله: «بارَكَ اللهُ فيه»[2].

وقال له أيضًا: رجل له والدة مريضة، وقد كان أبوه اشترى طَوَابِيق[3] مِن مكانٍ يُكْرَه؛ وهو الغصب - يعني: من مكان فيه غصب - وقد فرَشَ الدارَ بها؛ ترى للابن أن يدخُلَ إلى أمه؟ قال: «لا؛ كيف يدخُلُ؟ أليس يريد أن يطأها؟!»[4].

وقال الإمام أحمد في المال المشتبِهِ حلالُهُ من حرامه: «إنْ كان المال كثيرًا، أخرَجَ منه قدر الحرام، وتصرَّف في الباقي، وإنْ كان المال قليلًا، اجتنَبَهُ كلَّه»[5].

---

(١) المصدر السابق (٩٩).
(٢) المصدر السابق (١٠٠).
(٣) الطوابيق: البلاط.
(٤) «الورع» للإمام أحمد (١٠٦)؛ رواية المَرُّوذِي.
(٥) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٣٧).

مع أن هذا كما قال الزُّهْري: «لا بأس أن يأكُلَ منه ما لم يُعْرَفْ أنه حرام بعينه»[(١)].

وأما سُفْيان الثوري فيقول: «لا يعجبني ذلك، وتركُهُ أعجَبُ إليَّ»[(٢)].

وكان يقول في الرجل يجد في بيته الأَفْلُسَ أو الدراهم: «أَحَبُّ إليَّ أن يتنزَّه عنها؛ يعني: إذا لم يَدْرِ مِن أين هي»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: «هؤلاء الذين يَجلِسون على الطريق يبيعون ويشترون، ما ينبغي لنا أن نَشترِيَ منهم»[(٤)]؛ يعني: لأن الطريق ليس موضعًا لذلك.

وسُئِلَ عن رجل أخَذَ من الطريق شيئًا[(٥)]، هل يكون مقبولَ الشهادة؟ قال: «ما هذا بعَدْل»[(٦)].

وسُئِلَ عن الصلاة في مسجد بُنِيَ على سَابَاط - يعني: سقيفةً بين دارَيْنِ - قال: «لا؛ هذا طريق المسلمين، قال: وكان جعفر بن محمد بن علي نهى أن يصلَّى في هذه المساجد التي في الطُّرُقات»[(٧)].

وذلك لأنه بناه في غير الموضع الذي ينبغي أن يُبْنَى فيه، بناه في طريق المسلمين، فضيَّق عليهم.

وقال: «كان ابن مسعود يَكرَهُ أن يصلِّيَ في المسجد الذي بُنِيَ على القَنْطَرة»[(٨)].

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٦ - ١٣٧).

(٢) المصدر السابق (ص ١٣٦).

(٣) المصدر السابق (ص ١٤١).

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (١١١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٥) قوله: «أخَذَ من الطريق شيئًا»؛ أي: ليوسِّع داره ونحو ذلك؛ كالدَّرَج.

(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (١١٢)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٧) المصدر السابق (١٠٨).

(٨) المصدر السابق (١٠٩).

وسُئِلَ عن بَوَارِي المسجد - الحُصُر والسجاد - ترى أن يُقْعَدَ عليها خارج المسجد لجنازة تكون؟ قال: «لا يُقْعَدُ عليها خارج المسجد»(١).

وجاء يعزِّي رجلًا وباريَّةٌ على الباب، فلم يقعد مع الناس على الباريَّة، وقعد على التراب(٢). وذلك أنه صار من جملة الميراث.

وقال موسى بن عبد الرحمن بن مَهْدِي: «لما قُبِضَ عمِّي، أُغمِيَ على أبي، فلما أفاق، قال: البِسَاطُ نَحُّوهُ - أي: أَدْرِجُوهُ - لعله للورثة»(٣).

وسُئِلَ الإمام أحمد عن الذي يتعامل بالربا؛ يُؤكَلُ عنده؟ قال: «لا، قد رُوِيَ ذلك عن ابن مسعود»(٤).

وقال المَرُّوذِيّ: «قلتُ لأبي عبد الله: هل للوالدَيْنِ طاعةٌ في الشُّبْهة؟ فقال: في مِثْلِ الأكل؟ فقلتُ: نعم، قال: ما أُحِبُّ أن يقيم معهما عليها، وما أُحِبُّ أن يَعصِيَهُما، يُدارِيهما، ولا ينبغي للرجل أن يُقِيمَ على الشُّبْهة مع والدَيْه»(٥).

وأُدْخِلَ عليه رجل حَطَّاب، فقال: إن لي إخوة، وكَسْبُهم من الشبهة، فربَّما طَبَخَتْ أُمُّنا، وتسألنا أن نجتمع ونأكل؟ فقال له - على سبيل التواضع -: «هذا موضعُ بِشْر» - يعني: بشرًا الحافي، يقول: أنا لست بأهل أن أتكلَّم في هذه الدقائق - «لو كان حيًا، كان موضعًا تسأله، أسأل الله ألَّا يَمْقُتَنا، ولكنْ تأتي أبا الحسن عبد الوهاب، فتسأله»، فقال له الرجل: فتُخبِرُني بما في العلم؟ قال: «قد رُوِيَ عن الحسن: إذا استأذَنَ والدته في الجهاد،

---

(١) المصدر السابق (١٢٦).
(٢) المصدر السابق (١٢٧).
(٣) المصدر السابق (١٢٩).
(٤) المصدر السابق (١٦١).
(٥) تقدم تخريجه.

فأَذِنَتْ له، وعلم أن هواها في المقام، فليُقِمْ»[١]؛ أي: لا يخرُجُ للجهاد ما لم يكنْ فرضَ عين.

وسُئِلَ عن الدراهم تُدفَعُ إلى رجل يشتري بها الحاجة، فيَرَى المسكينَ؛ تَرَى أن يتصدَّق بها، ويَرُدَّ مكانها؟ قال: «لا يُعطِي - يعني: الناس - لا ينبغي له أن يَفعَل»[٢].

وهذا يقال للذين يأخُذونَ التبرُّعات - سواءٌ كانوا مؤسَّسات أو أفرادًا - لا يجوز لهم أن يضَعُوها في مساهمات فيها مخاطَرةٌ؛ فتضيع، ولا يجوز لهم أن يتصرَّفوا فيها بتأويلات؛ فيضعوا شيئًا منها على غير الوجه الذي جُمِعَتْ له.

وسُئِلَ عن الرجلِ يَكْسِبُ[٣] بالأجر، فيجلس في المسجد؟ قال: «أمَّا الخيَّاطُ وأشباهه، إنما بُنِيَ المسجدُ لِيُذكَرَ اسم الله فيه، وكُرِهَ البيع والشراء فيه»[٤].

ونقَلَ عن عطاء بن يَسَار؛ أنه رأى رجلًا يبيع في المسجِدِ، فدعاه، فقال: «هذه سُوقُ الآخرة؛ فإنْ أردتَّ البيع، فاخرُجْ إلى سوق الدنيا»[٥].

وذكَرَ أيضًا عن أبي الدرداء ﵁؛ أنه رأى رجلًا يقول لصاحبه في المسجد: اشتريتُ وَسْقَ حطبٍ بكذا وكذا، فقال أبو الدرداء: «إن المساجد لا تعمَّرُ بهذا»[٦].

وقال المَرُّوذِيّ: قلتُ لأبي عبد الله: فترى للرجل أن يَعمَلَ المَغَازِل،

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (١٨١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) المصدر السابق (١٩٧).

(٣) في طبعة دار الصميعي: «يكتب».

(٤) أخرجه أحمد في «الورع» (١٩٩)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٥) المصدر السابق (٢٠٠).

(٦) المصدر السابق (٢٠١).

ويأتي المقابر، فربما أصابه المطر، فيدخُلُ في بعض القِبَاب، فيعمل فيها؟ فقال: «المقابر إنما هي أمر الآخرة»؛ وكأنه كَرِهَ ذلك[(١)].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كنتُ مع أبي يومًا من الأيام في المنزل، فدَقَّ داقٌّ الباب، قال لي: اخرُجْ فانظر مَن بالباب، فخرجتُ، فإذا امرأة، قال: قالت لي: استأذِنْ لي على أبي عبد الله، قال: فاستأذنتُهُ، فقال: «أَدْخِلْها»، قال: فدخلَتْ، فجلسَتْ، فسلَّمت عليه، وقالت له: يا أبا عبد الله، أنا امرأة أَغزِلُ بالليل في السراج، فربما طُفِئَ السراج، فأَغْزِلُ في القمر؛ فعليَّ أن أبيِّنَ غَزْلَ القمر مِن غَزْلِ السراج؟ قال: فقال لها: «إنْ كان عندكِ بينهما فرقٌ، فعليكِ أن تبيِّني ذلك»، قال: قالت له: يا أبا عبد الله، أَنِينُ المريضِ شكوى؟ قال: «أرجو ألَّا يكون شكوى، ولكنه اشتكاءٌ إلى الله»، قال: فوَدَّعَتْهُ وخرَجَتْ.

قال: فقال لي: «يا بُنَيَّ، ما سمعتُ قطُّ إنسانًا سأل عن مثل هذا، اتْبَعْ هذه المرأة، فانظُرْ أين تدخُلُ؟»، قال: فاتبعتُها، فإذا قد دخلَتْ إلى بيت بِشْر بن الحارث، وإذا هي أخته، قال: فرجعتُ، فقلتُ له، فقال: «مُحَالٌ أن تكون مثلُ هذه إلّا أختَ بشر»[(٢)].

وقال عبد الله بن أحمد: جاءت مُخَّةُ أختُ بشر بن الحارث إلى أبي، فقالت له: إني امرأةٌ رأسُ مالي دَانِقَانِ، أشتري القطن فأُرْدِنُهُ، فأبيعُهُ بنصف درهم، فأتقوَّتُ بدانِق من الجُمُعة إلى الجمعة، فمَرَّ ابن طاهر الطائف ومعه مِشْعَل، فوقف يكلِّمُ أصحاب المصالح، فاستغنَمَتُ ضوءَ المِشْعَل، فغَزَلْتُ طاقات، ثم غاب عني المِشْعَل، فعَلِمْتُ أن لله فيَّ مطالَبة، فخَلِّصْني خَلَّصَكَ الله، فقال لها: «أتُخْرِجِينَ الدانِقَيْنِ، ثم تَبْقَيْنَ بلا رأس مال حتى يعوِّضَكِ الله

(١) المصدر السابق (٢٠٤).

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٤/٤٣٧).

خيرًا منهما»، فقلتُ لأبي: يا أَبَتِ، لو قلتَ لها: لو أخرجتِ الغَزْلَ الذي أَدْرَكْتِ فيه الطاقات، فقال: «يا بُنَيَّ، سؤالها لا يَحتمِلُ التأويل»، ثم قال: «مَن هذه؟»، قلتُ: مُخَّةُ أختُ بشر بن الحارث، فقال: «مِن ههنا أُتِيتُ»[١].

هذه بعض فتاوى الإمام أحمد في أبوابٍ من الورع؛ وبذلك نَعرِفُ مدى ما نحن فيه من التخليط!

وذلك لا يعني - كما سبق - أن نَلِجَ في هذه الدقائق، أو نتكلَّفَ مثل هذه المراتب، والواقع: أن بيننا وبينها مَفَاوِز، ولكنْ نحن بحاجةٍ إلى تركِ الحرام الواضح، ومجانَبَةِ المشتبِهاتِ التي هي بَرْزَخٌ بين الحلال والحرام.

وهذا نُور الدين زِنْكي، القائد الفاتح المعروف؛ يقول ابن الأثير: «طَالَعْتُ سِيَرَ الملوكِ المتقدِّمين، فلم أَرَ فيها بعد الخلفاء الراشِدِينَ وعمر بن عبد العزيز أحسَنَ مِن سيرته، ولا أكثَرَ تحرِّيًا منه للعَدْل... كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرَّف في الذي يخُصُّهُ إلّا مِن مُلْكٍ كان له قد اشتراه من سَهْمِهِ من الغنيمة... ولقد شكَتْ إليه زوجتُهُ من الضائقة، فأعطاها ثلاثة دَكَاكِينَ في حِمْص كانت له، منها يحصُلُ له في السنة نحوُ عشرين دينارًا، فلما استقَلَّتْها، قال: ليس لي إلّا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين؛ لا أَخُونُهم فيه، ولا أَخُوضُ نار جهنَّم لأَجْلِكِ»[٢].

رابعًا: الورَعُ في المخالَطةِ والمجالَسة:

ويرادُ به التورُّعُ في مجالَسة الناس ومخالَطتهم؛ فقد كان السلف ﵃ يتورَّعون في ذلك، ويتخيَّرون المَجَالِسَ، ويتنزَّهون عن المجالس التي تَشغَلُهم عن طاعة الله ﷻ، وتتغيَّر فيها قلوبُهم.

---

(١) المصدر السابق (١٤/٤٣٧).

(٢) «الكامل في تاريخه» (١٠/٥٦ - ٥٧).

يقول يوسف بن أسباط لسفيان الثَّوْري: مَن أُجِيبُ ومَن لا أُجِيب؟ - أي: في الدعوة - قال: «لا تدخُلْ على رجل إذا دخَلْتَ عليه، أفسَدَ عليك قلبك»(١).

وهكذا إذا كانت تلك المجالس يحصُلُ فيها فتنةٌ للعبد بسبب ما يَرَى من الأُبَّهةِ والبَطَر، ومظاهرِ التَّرَف الكثيرة، التي لا يَتمالَك معها قلبُ العبد؛ فإذا عرَفَ من نفسِهِ أن ذلك يشغله، فإن الورع في حقه أن يتجنَّب ذلك؛ ولهذا كان السلف ﷺ يكرهون الدخول على أهل البَسْطة.

والواقعُ: أن الناس يَتفاوَتُونَ في ذلك تفاوتًا بيِّنًا، لا سِيَّما النساء؛ فالمرأة قد تكون في حالٍ لا تَملِكُ فيها الكثير مما يملكه هؤلاء؛ فإذا دخَلَتْ عليهنَّ، ورأت ما عندهنَّ، وقارنت بحالها وبأَثَاثِها، وطعامها وشرابها ومسكنها، وغير ذلك، فلربما أفسَدَ ذلك قلبها، وغيَّرها على زوجها، ولربَّما تسخَّطت على مقدورها، وتحسَّرت على حالها؛ كيف أنها تعيش في هذه الحال، وهؤلاء يعيشون في سَعَةٍ وغِنًى؟! وقد تَكذِب وتتصنَّع وتتشبَّع بما لم تُعْطَ، وتسعى في تحصيل المال من غير وجهه المشروع؛ لتتوسَّع كما توسَّع هؤلاء.

ولذلك كان الأفضل في حق كل امرئ، ذَكَرًا كان أم أنثى: ألَّا يُخالِطَ إلّا من يقرِّبُه من الله، ويرغِّبُه فيما عنده، ويزهِّدُه في الدنيا، ولا يتغيَّر حاله بمجالَسَتهم ومزاوَرَتهم إلّا إلى الأحسن والأكمل، والمرء على دِينِ خليله.

خامسًا: **الورع في الفُتْيا، والكلامِ على الأحكام، ومعاني القرآن:**

وهو بابٌ واسع، وكلامُ السلف ﷺ فيه كثير، وهو أمر ينبغي للعبد أن يتفطَّن له، وأن يجعله نُصْبَ عينيه؛ لأن القائل فيه بلا علم متوعَّدٌ بالعقوبة، والله ﷻ حرَّم الفواحش ما ظهَرَ منها وما بطَن، والإثم والبغي بغير الحق، كما حرَّم الإشراك، والقول عليه بغير علم، وذكَرَ ذلك في سياق واحد: ﴿قُلْ إِنَّمَا

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٤٥٤)؛ رواية المَرُّوذِي.

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وإذا نَظَرْتَ إلى أخبار السلف ﷺ وأحوالهم، رأيتَ الاحتياط التامّ، والورَعَ في هذه الأبواب؛ وإليك نماذجَ من ذلك التورُّع:

١ - وَرَعُهم عند الكلام في التفسير ومعاني القرآن:

فعن ابن أبي مُلَيْكَة: «أن ابن عبَّاس ﵄ سُئِلَ عن آية لو سُئِلَ عنها بعضكم، لقال فيها، فأبى أن يقول»[(١)]؛ وهو تَرْجُمان القرآن.

وثبَتَ عنه أيضًا: أن رجلًا سأله عن يوم كان مقدارُهُ ألف سنة؟ فقال ابن عباس: «فما يومٌ كان مقداره خمسين ألف سنة؟»، قال الرجل: إنما سألتُكَ لتحدِّثني، فقال ابن عباس: «هما يومان ذكَرَهُما الله في كتابه، اللهُ أعلم بهما»؛ فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم[(٢)]؛ وهو حَبْرُ هذه الأمة، لم يَسْتَحِ، ولم يتحَرَّج من سائله أن يقول لما لا يعلم: لا أَعْلَمْ.

وجاء طَلْقُ بن حَبِيب إلى جُنْدُب بن عبد الله ﵁، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: «أحرِّجُ عليك إنْ كنتَ مُسلِمًا لمَا قُمْتَ عني»[(٣)].

وكان سعيد بن المسيِّب إذا سُئِلَ عن شيء من القرآن؟ قال: «أنا لا أقول في القرآن شيئًا»[(٤)]؛ وكان لا يقول إلّا في المعلوم مِن القرآن[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٨٦/١)؛ وإسناده صحيح؛ كما قال ابن كَثِير (١٢/١).

(٢) أخرجه أبو عُبَيْد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٦)؛ وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨٦/١)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٨٦٤).

(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٣٧٦ - ٣٧٧)؛ واللفظ له، وابن سعد (٣٢٨/٢)، وابن جرير (٨٥/١)؛ بإسناد صحيح.

(٥) أخرجه ابن جرير (٨٦/١)؛ وإسناده صحيح.

وسأله رجل عن آية من القرآن؟ فقال: «لا تسألْنِي عن القرآن، واسألْ مَن يزعُمُ أنه لا يخفى عليه شيء منه»؛ يعني: عِكْرِمةَ[(١)].

ويقول يزيد بن أبي يزيد: «كنا نسأل سعيد بن المسيِّب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، وإذا سألناه عن آية من القرآن، سكَتَ كأنْ لم يَسْمَعْ»[(٢)].

وقال عُبَيْد الله بن عمر: «لقد أدرَكْتُ فقهاء المدينة، وإنهم لَيُعَظِّمُونَ القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيِّب، ونافع»[(٣)].

ويقول هشام بن عُرْوة: «ما سمعتُ أبي يتأوَّل آية من كتاب الله قطُّ»[(٤)].

وهذا عَبِيدة السَّلْماني سأله محمد بن سِيرِينَ عن آية من القرآن؟ فقال: «ذهب الذين كانوا يَعْلَمونَ فِيمَ أُنزِلَ القرآن؛ اتق الله، وعليك بالسداد»[(٥)].

وكان مسلِم بن يَسَار يقول: «إذا حَدَّثْتَ عن الله حديثًا، فقِفْ حتى ترى ما قبله وما بعده»[(٦)].

وقال إبراهيم النَّخَعي عن أصحاب ابن مسعود رحمهم الله: «كان أصحابُنا يَكْرَهُونَ تفسير القرآن ويهابونه»[(٧)].

---

(١) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٣٧٧)، وابن أبي شيبة (٥١١/١٠)، وابن جرير (١-/ ٨٦ - ٨٧)؛ وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨٦/١)؛ وإسناده صحيح.

(٣) أخرجه ابن جرير (٨٥/١)؛ وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» (٨٥٢).

(٥) أخرجه سعيد بن منصور في «التفسير» (٤٤)، وابن أبي شيبة (٥١١/١٠)، وابن جرير في «تفسيره» (٨٦/١)؛ واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٨٥)؛ وإسناده صحيح.

(٦) أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» (٨٥٠)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٩٢/٢)؛ وإسناده صحيح.

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٢٢/٤).

وهذا الحافظ الكبير الشَّعْبي الذي كان يقول: «ما أروي شيئًا أقلَّ من الشِّعْر، ولو شئتُ لأَنْشَدتُكُمْ شهرًا لا أُعِيدُ»(١)، ومع ذلك يقول: «واللهِ، ما مِن آية إلّا وقد سَأَلْتُ عنها، ولكنها الرواية عن الله ﷻ»(٢)؛ ولهذا قال مسروق بن الأَجْدَع: «اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية على الله»(٣).

«وكان الأصمعي - وهو إمام اللغة - مِن أشدِّ الناس ورعًا في هذا الباب، وكان لا يفسِّرُ شيئًا من غريب القرآن، وحُكِيَ عنه أنه سُئِلَ عن قول الله تعالى: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]؟ فسكَتَ، وقال: «هذا في القرآن»، ثم ذكَرَ قولًا لبعض العرب في جاريةٍ أرادوا بيعها: أتبيعونها وهي لكم شَغَاف؟»(٤)، لم يتكلَّم في معناها من جهة اللغة؛ لأنها واردةٌ في القرآن، واكتفى بذكر هذه الجملة فقطْ.

كما أبى أن يتكلَّم في أنَّ: (سَرَى، وأَسْرَى) بمعنى واحد؛ لأن (أسرى) ذُكِرَتْ في القرآن، كما أنه أبى أن يتكلَّم في: (عصَفَتِ الريحُ، وأَعْصَفَتْ)؛ أي: أنهما بمعنى واحد؛ لأنها في القرآن، وقال: «الذي سمعتُ أن معنى: (الخليل): أصفى المودَّةِ وأَصَحُّها، ولا أزيد فيها شيئًا؛ لأنها في القرآن»(٥).

٢ - وَرَعهم في الفُتْيا والأحكام:

يقول ابن مسعود ﷺ: «واللهِ، إنَّ الذي يُفْتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون»(٦).

---

(١) انظر: «تذكرة الحفاظ» (٨٤/١)؛ لتعلم مبلَغَ هذا الحافظ من العلم.
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٨٧/١)؛ وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه أبو عبيد في «الفضائل» (٨٤٩)؛ وإسناده صحيح.
(٤) ذكره الزركشي في «البرهان» (٢٩٥/١).
(٥) انظر: «المُزْهِر» للسيوطي (٣٢٦/٢ - ٣٢٧).
(٦) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١٠)؛ بسند صحيح، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٢٠٤).

وسُئِلَ عن شيء؟ فقال: «إني لَأَكْرَهُ أن أُحِلَّ شيئًا قد حرَّمه الله عليك، أو أحرِّمَ ما أحلَّه الله لك»[(١)]؛ ولم يُجِبْ.

وقال مَرَّةً: «مَن عَلِمَ شيئًا، فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم؛ فإنَّ مِن العِلْمِ أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم؛ قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]»[(٢)].

وجاء إليه رَجُلٌ، فقال: إني طلَّقتُ امرأتي ثمانيًا، فقال عبد الله: «واحدةً قُلْتَها؟»، قال: نعم، قال: «تريد أن تَبِينَ منك امرأتُكَ؟»، قال: نعم، قال: «هو كما قُلْتَ»، ثم جاءه رجل، فقال: طلَّقتُ امرأتي عدد النجوم، فقال: «مرةً واحدةً قُلْتَها؟»، قال: نعم، قال: «فتريد أن تَبِينَ منك؟»، قال: نعم... قال عبد الله: «قد بيَّن الله لكم كيف الطلاق؛ فمَن طلَّق كما أَمَرَهُ الله، فقد بُيِّنَ له، ومَن لَبَسَ، جعَلْنا به لَبْسَهُ، والله، لا تَلبِسُونَ على أنفسِكم ونتحمَّلُهُ عنكم؛ هو كما تقولون»[(٣)].

ورُوِيَ عن علي ﷺ؛ أنه قال: «إذا سُئِلْتُم عمَّا لا تَعلَمُونَ، فاهرُبُوا»، قالوا: وكيف الهَرَبُ يا أميرَ المؤمنين؟! قال: «تقولون: الله أعلم»[(٤)].

وعن ابن عُمَرَ ﷺ؛ أن رجلًا سأله عن مسألة؟ فقال: «لا عِلْمَ لي بها»، فلمَّا أدبَرَ الرجُلُ، قال ابن عمر: «نِعْمَ ما قال ابنُ عُمَرَ؛ سُئِلَ عمَّا لا يعلم، فقال: لا عِلْمَ لي به»![(٥)].

---

(١) أخرجه الدارمي (١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (١٥٨٢) بلاغًا، ووصله الطبراني في «الكبير» (٩٦٢٩)؛ واللفظ له، وصحَّحه ابن حجر في «المطالب» (١٧٠١).

(٤) أخرجه الدارمي (١٨٣).

(٥) أخرجه الدارمي (١٨٥)؛ واللفظ له، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٦٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١٠٧).

فهذا إنما يقوله العالم الذي يَخافُ الله ﷻ، أمَّا مَن قلَّ علمُهُ، وقلَّ ورَعُهُ، فإن ذلك مما يشتدُّ عليه أن يُسأَلَ عن شيء لا يعلمه، فيقول: لا أعلمه.

وعن عُبَيْد بن جُرَيْج؛ قال: «كنتُ أجلِسُ بمَكَّةَ إلى ابن عمر يومًا، وإلى ابن عبَّاس يومًا، فما يقول ابن عمر فيما يُسْأَلُ: لا عِلْمَ لي! أكثرُ ممَّا يُفتِي به»(١).

وعن معاوية بن أبي عَيَّاش الأنصاري؛ أنه كان جالسًا مع عبد الله بن الزُّبَيْر، وعاصم بن عُمَر بن الخطاب، قال: فجاءهما محمد بن إِيَاس بن البُكَيْر، فقال: إن رجلًا من أهل البادية طلَّق امرأتَهُ ثلاثًا قبل أن يدخُلَ بها؛ فماذا تريان؟ فقال عبد الله بن الزُّبَيْر: «إنَّ هذا الأمر ما لنا فيه قول؛ فاذهَبْ إلى عبد الله بن عبَّاس وأبي هريرة؛ فإني تركتُهُما عند عائشة، فَسَلْهُما، ثم ائتِنَا فأخبِرْنا»، فذهَبَ فسألهما، فقال ابن عبَّاس لأبي هريرة: «أَفْتِهِ يا أبا هريرة؛ فقد جاءَتْكَ مُعْضِلة!»، فقال أبو هريرة: «الواحدةُ تُبِينُها، والثالثةُ تحرِّمُها حتى تَنكِحَ زوجًا غيرَهُ»(٢).

وعن أبي المنهال؛ قال: سألْتُ البَرَاء بن عازب رضي الله عنه عن الصَّرْف؟ فقال: «سَلْ زَيْدَ بن أَرْقَم؛ فهو أعلم»، فسألتُ زيدًا، فقال: «سَلِ البَرَاء؛ فإنه أعلم»(٣).

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «لقد أدْرَكْتُ في هذا المسجِد عشرين ومائةً من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما أحدٌ منهم يحدِّثُ حديثًا إلّا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا يُسأَلُ عن فتيا إلّا وَدَّ أن أخاه كفاه الفُتْيا»(٤).

---

(١) أخرجه الدارمي (١٥٧)؛ بسند حسن.

(٢) أخرجه الإمام مالك (١٦٥٩)؛ واللفظ له، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/٥٧)، والبيهقي في «سننه» (٧/٣٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٨٠، ٢١٨١)، ومسلم (١٥٨٩)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٢١)، والفسوي في «تاريخه» (٢/٨١٧ - ٨١٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢١٩٩)، (٢٢٠١).

وقال شيخ من أهل المدينة يُكْنَى بأبي إسحاق: «كنتُ أرى الرجل في ذلك الزمان، وإنه لَيَدْخُلُ يسألُ عن الشيء، فيَدفَعُهُ الناسُ من مجلس إلى مجلس حتى يُدفَعَ إلى مجلس سعيد بن المسيِّب؛ كراهيةً للفتوى»(١).

وسُئِلَ الشَّعْبيُّ: كيف كنتم تصنعون إذا سُئِلتُمْ؟ قال: «على الخبير وَقَعْتَ؛ كان إذا سُئِلَ الرجل، قال لصاحبه: أَفْتِهِمْ؛ فلا يزال حتى يَرجِعَ إلى الأوَّل»(٢).

ويقول محمد بن المُنْكَدِر: «إن العَالِم يدخُلُ فيما بين الله وبين عباده؛ فلْيَطْلُبْ لنفسه المَخرَج»(٣).

وقال ابن عُيَيْنة: سمعتُ أيوبَ السَّخْتِيانيَّ يقول: «أَجْسَرُ الناس على الفُتْيَا أقلُّهم علمًا باختلاف العلماء»(٤).

وقال سُحْنُون بن سعيد من المالكية: «أجرَأُ الناس على الفتيا أقلُّهم علمًا؛ يكون عند الرجل الباب الواحد مِن العلم يظنُّ أن الحق كله فيه».

وقال عن نفسه: «إنِّي لَأَحْفَظُ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال مِن ثمانية أئمة من العلماء؛ فكيف ينبغي أن أعجِّلَ بالجواب حتى أتخيَّر؟! فلِمَ أُلَامُ على حبس الجواب؟!»(٥).

وقال يومًا: «إنَّا لله، ما أشقى المفتيَ والحاكم!»، ثم قال: «ها أنا ذا

---

(١) أخرجه الفسوي في «تاريخه» (١/٤٦٩ - ٤٧٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٢٠٥)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه الدارمي (١٣٨).

(٣) أخرجه الدارمي (١٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/١٥٣)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٠٨٨).

(٤) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٢٥).

(٥) المصدر السابق (٢٢١١).

يُتعلَّمُ مني ما تُضرَبُ به الرِّقَاب، وتُوطأُ به الفروج، وتُؤخَذُ به الحقوق؛ أما كنتُ عن هذا غنيًّا؟!»(١).

ولهذا قال أبو عثمان الحدَّاد: «القاضي أيسَرُ مأثمًا وأقرَبُ إلى السلامة من الفقيه؛ لأن الفقيه مِن شأنه إصدارُ ما يَرِدُ عليه مِن ساعته بما حضَرَهُ من القول، والقاضي شأنه الأناةُ والتثبُّت، ومن تأنَّى وتثبَّت، تَهَيَّأَ له من الصواب ما لا يَتَهَيَّأَ لصاحب البديهة»(٢).

ذلك أن المفتي يُجِيبُ عن المسألة مباشَرة، أما القاضي فيَتَّخِذُ المجالس، ويتأنَّى في المسألة، ويُراجِعُ الكتب، ويستشير، وبعد ذلك يَحكُم.

وقال القاسم بن محمد: «لَأَنْ يعيشَ الرجلُ جاهلًا بعد أن يَعلَمَ حقَّ الله عليه خيرٌ له من أن يقولَ ما لا يعلم»(٣).

وجاء عن موسى بن علي؛ أنه سأل ابنَ شِهَاب - الزُّهْريَّ - عن شيء؟ فقال ابن شهاب: «ما سمعتُ فيه بشيء، وما نزَلَ بنا، وما أنا بقائل فيه شيئًا»(٤).

ويقول الأعمش: «ما سمعتُ إبراهيم - أي: النخعيَّ - يقول برأيه في شيء قطُّ»(٥).

ويقول قتادة: «ما قلتُ برأيي منذ ثلاثين سنة»، وقال بعضهم: «منذ أربعين سنة»(٦).

---

(١) المصدر السابق (٢٢٢٠).

(٢) المصدر السابق (٢٢٢١).

(٣) أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (٩٠)، والدارمي (١١٢)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٨٤)؛ وإسناده صحيح.

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٦٢٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٢١٥)؛ واللفظ له.

(٥) أخرجه الدارمي (١٠٦)؛ بسند صحيح.

(٦) أخرجه الدارمي (١٠٧).

وسُئِلَ عَطَاء عن شيء؟ فقال: «لا أدري»، قيل له: أَلَا تقول فيها برأيك؟ قال: «إني أَسْتَحْيِي من اللهِ ﷻ أن يُدَانَ في الأرض برأيي»[(١)].

وسُئِلَ القاسم بن محمد عن مسألة؟ فقال: «إنَّا واللهِ ما نَعلَمُ كُلَّ ما تَسأَلُونَ عنه، ولو عَلِمْنا ما كَتَمْنَاكم، ولا حَلَّ لنا أن نَكْتُمَكُمْ»[(٢)].

وسُئِلَ عن مسألة؟ فقال: «ما اضْطَرَّني إلى هذه المَشُورة، وما أنا منها في شيء»[(٣)].

والمراد - كما فسَّره محمد بن عبد الله الأنصاري؛ وهو أحد رواته - كأنه يرى أنَّ الوالي إذا شاوَرَ مَن عنده في شيء مِن العلم، فالواجب عليه أن يَجتهِدَ.

وقال له قائل: يا أبا محمَّد، إنه قبيحٌ على مِثْلك، عظيمٌ أن تُسأَلَ عن شيء مِن أمرِ هذا الدِّين، فلا يوجد عندك منه علمٌ ولا فَرَج، أو علمٌ ولا مَخْرَج! فقال له القاسم: «وعَمَّ ذلك؟»، قال: لأنك ابنُ إمامَيْ هُدًى: ابنُ أبي بكر وعمر، قال: يقول له القاسم: «أَقْبَحُ من ذاك عند مَن عقَلَ عن الله: أن أقولَ بغير علم، أو آخُذَ عن غير ثقة»[(٤)].

ويقول سَلْمُ بن جُنَادة: حَدَّثنا ابنُ إدريس عن عمِّه؛ قال: «خرَجْتُ من عند إبراهيم - يعني: النَّخَعيَّ - فاستقبَلَني حمَّاد، فحمَّلني ثمانيةَ أبوابٍ، مسائل، فسألته، فأجابني عن أربعٍ، وتَرَكَ أربعًا»[(٥)].

ويقول بعض مَن عرَفَهُ - أي: إبراهيمَ النَّخَعيَّ -: «ما سألتُ إبراهيمَ عن

---

(١) أخرجه الدارمي (١٠٨)؛ بسند صحيح.

(٢) أخرجه الدارمي (١١٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/١٨٤)؛ واللفظ لهما، وابن عبد البر في «الجامع» (١٥٦٧)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٧).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٧/١٨٧)، والدارمي (١١٤)؛ بنحوه.

(٤) أخرجه مسلم في مقدِّمة «صحيحه» (١/١٦).

(٥) أخرجه الدارمي (١٣٢).

شيءٍ إلّا عَرَفْتُ الكراهيةَ في وَجْهِه»[١]؛ فهو يستثقل الإجابة؛ لأنَّه مبلِّغ عن الله ﷻ.

وعن عُمَرَ بن أبي زائدة؛ قال: «ما رأيتُ أحدًا أكثَرَ أن يقولَ إذا سُئِلَ عن شيءٍ: لا عِلْمَ لي به، من الشَّعْبي»[٢].

وعن جعفر بن إياس؛ قال: قلتُ لسعيد بن جُبَيْر: ما لك لا تقولُ في الطلاق شيئًا؟ قال: «ما منه شيءٌ إلّا قد سَأَلْتُ عنه، ولكنِّي أَكْرَهُ أن أُحِلَّ حَرَامًا، أو أحرِّمَ حلالًا»[٣].

ويقول حُمَيْد بن عبد الرحمن: «لَأَنْ أَرُدَّهُ بعِيِّهِ أحبُّ إليَّ مِن أن أتكلَّف له ما لا أَعلَم»[٤].

وهذا محمد بن سِيرِينَ، كان لا يُفتِي في الفروجِ بشيء فيه اختلاف[٥]؛ تورُّعًا وتحرُّزًا؛ لأنه بابٌ شديدٌ من أبواب العلم؛ فهو يَخْشَى أن يُحِلَّ شيئًا حرامًا، أو أن يحرِّم شيئًا حلالًا.

وكان الشَّعْبي يقول: «لا أدري: نصفُ العلم»[٦].

وكان إذا سُئِلَ عن شيء يقول: «لا أدري»؛ فإن رَدُّوا عليه، قال للسائل: «إني حلَفْتُ لك بالله إنْ كان لي به علم»[٧].

وعن ابن سيرين؛ قال: «ما أُبالِي، سُئِلْتُ عمَّا أعلم أو ما لا أعلمُ؛

---

(١) أخرجه الدارمي (١٣٣)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٢٠).
(٢) أخرجه الدارمي (١٣٤).
(٣) المصدر السابق (١٣٦).
(٤) المصدر السابق (١٤٩).
(٥) المصدر السابق (١٥٤).
(٦) المصدر السابق (١٨٦)؛ بسند صحيح. وجاء مثله عن غير واحد من أهل العلم.
انظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٤٤١ - ٤٤٢)، و«تاريخ دمشق» (٢١/٢٠٨).
(٧) أخرجه الدارمي (١٨٨).

لأنّي إذا سُئِلْتُ عمَّا أعلَمُ، قلتُ: ما أعلَم، وإذا سُئِلْتُ عمَّا لا أعلَمُ، قلتُ: لا أَعلَم»[١].

ويقول الأعمش: «ما سمعتُ إبراهيم - يعني: النَّخَعيَّ - يقول قطُّ: حلال، ولا حرام؛ إنما كان يقول: كانوا يَكْرَهون، وكانوا يستحبُّون»[٢].

ولذلك تجد كثيرًا في أجوبة بعض الأئمة رحمهم الله تعالى يقولون: أَكْرَهُ كذا، ولا يُعجِبُني كذا، مع أن المعروف مِن مذهبِهِ التحريمُ في هذه المسائل؛ ولكنه يتحرَّز من ذلك.

يقول المَرُّوْذِي: «سألت أحمد بن حنبل ما لا أُحصِي عن أشياء، فيقول فيها: لا أدري»[٣].

وقال أحمد: «ربما مَكَثْتُ في المسألة ثلاث سنين قبل أن أعتقِدَ شيئًا»[٤].

وأما الإمام مالك: فالأخبار عنه في هذا كثيرة مستفيضة، وهو مِن أشدِّ الناسِ تحرُّزًا وتورُّعًا في هذا الباب، وكان يقول: «إني لَأُفكِّرُ في مسألة منذ بضعَ عَشْرَةَ سنةً، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن»[٥]، وكان يقول: «ربما وَرَدَتْ عَلَيَّ المسألة، فأسهَرُ فيها عامَّةَ ليلي»[٦]؛ لا يُجِيبُ من ساعته.

وكان إذا سُئِلَ عن المسألة، قال للسائل: «انصَرِفْ حتى أنظر فيها»، فينصرف، ويتردَّد فيها، فقيل له في ذلك، فبكى، وقال: «إني أخاف أن يكون لي مِن المسائلِ يومٌ وأيُّ يوم!»[٧].

---

(١) المصدر السابق (١٨٩).

(٢) المصدر السابق (١٩٠).

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص٣٥٨).

(٤) المصدر السابق (٣٥٩).

(٥) «ترتيب المدارك» (١/١٧٨)، و«الموافقات» (٥/٣٢٣).

(٦) المصدران السابقان، ولفظه في «الموافقات»: «فأفكر فيها ليالي».

(٧) «الموافقات» للشاطبي (٥/٣٢٣). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/١٧٨).

وكان إذا جلس - أي: في مجلس العلم - نَكَّسَ رأسه، وحرَّك شَفَتَيْهِ يذكُرُ الله، ولم يَلتفِتْ يمينًا ولا شمالًا، فإذا سُئِلَ عن مسألةٍ، تغيَّر لونُهُ، وكان أحمر فيَصفَرُّ، وينكِّسُ رأسَهُ، ويحرِّكُ شفتيه، ثم يقول: «ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلّا بالله»؛ فربما سُئِلَ عن خمسين مسألة، فلا يجيب منها في واحدة[1].

ولو أن أحدًا في هذه الأيام سُئِلَ عن خمسين مسألة، فقال في الجميع: لا أدري؛ لقال الناس: هذا لا فِقْهَ له، ولا علم!

وكان يقول: «مَن أحَبَّ أن يُجِيبَ عن مسألة، فلْيَعْرِضْ نفسه قبل أن يُجِيبَ على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصُهُ في الآخرة، ثم يجيب»[2].

وقال بعضهم في صفته: «واللهِ، إنْ كان مالكٌ إذا سُئِلَ عن مسألة، كأنه واقفٌ بين الجنة والنار»[3].

وكان يقول: «ما شيءٌ أشدَّ عليَّ مِن أن أُسأَلَ عن مسألة من الحلال والحرام؛ لأن هذا هو القَطْعُ في حكم الله، ولقد أَدْرَكْتُ أهل العلم والفقه ببَلَدِنا، وإنَّ أحدَهُمْ إذا سُئِلَ عن مسألةٍ، كأنَّ الموت أشرَفُ عليه، ورأيتُ أهل زماننا هذا يشتهون الكلام فيه والفتيا، ولو وُقِفُوا على ما يصيرون إليه غدًا، لقَلَّلُوا من هذا، وإن عمر بن الخطاب وعليًّا، وعامَّة خيار الصحابة، كانت تَرِدُ عليهم المسائل وهم خير القرون الذين بُعِثَ فيهم النبي ﷺ، وكانوا يجمعون أصحاب النبي ﷺ ويسألون حينئذ، ثم يُفْتُونَ فيها، وأهل زماننا هذا قد صار فَخْرُهُمُ الفُتْيا، فبِقَدْرِ ذلك يُفتَحُ لهم من العلم»[4].

وقال: «لم يكنْ مِن أمر الناس، ولا مَن مضى مِن سلفنا، ولا أدري أحدًا اقتُدِيَ به يقول في شيء: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، ما كانوا يَجترِئون على

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) «الموافقات» للشاطبي (٥/٣٢٤). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/١٧٨ - ١٧٩).

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٠٨٧).

(٤) «الموافقات» للشاطبي (٥/٣٢٤). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/١٧٩).

ذلك، وإنما كانوا يقولون: نَكْرَهُ هذا، ونرى هذا حَسَنًا، ونتَّقي هذا، ولا نرى هذا، ولا يقولون: حلالٌ، ولا حرامٌ - يعني: فيما ليس فيه نصٌّ قاطع - أَمَا سَمِعْتَ قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]؟! الحلالُ: ما أحلَّه اللهُ ورسوله، والحرامُ: ما حرَّمه الله ورسوله»[١].

قال ابن عبد البرِّ معلِّقًا عليه: «معنى قول مالك هذا: أن ما أخَذَهُ من العلم رأيًا واستحسانًا، لم يقل فيه: حلال ولا حرام، والله أعلم»[٢].

وقال موسى بن داود: «ما رأيتُ أحدًا من العلماء أكثَرَ أن يقول: (لا أُحسِنُ) مِن مالِك، وربما سمعتُهُ يقول: ليس نُبْتَلَى بهذا الأمر؛ ليس هذا بِبَلَدِنا»[٣].

وكان يقول للرجل يسأله: «اذهب حتى أنظُرَ في أمرك»[٤].

وسأله رجل عن مسألةٍ استودَعَهُ إياها أهلُ المغرب؟ فقال: «لا أدري، ما ابتُلِينا بهذه المسألة ببَلَدِنا، ولا سَمِعْنا أحدًا من أشياخنا قد تكلَّم فيها، ولكنْ تَعُودُ، فلما كان من الغد، جاء وقد حمل ثِقَلَهُ على بَغْلِهِ يقودُهُ، فقال: مسألتي! فقال: «ما أدري، ما هي»، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، تَرَكْتُ خلفي مَن يقول: ليس على وجهِ الأرضِ أعلَمُ منك! فقال مالِكٌ غيرَ مستوحِشٍ: «إذا رجَعْتَ، فأَخْبِرهم أني لا أُحسِنُ»[٥].

وسأله آخر، فقال له: يا أبا عبد الله، أجبني، فقال: «وَيْحَكَ؛ تريد أن

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢٠٩١).

(٢) «جامع بيان العلم» (١٠٧٥/٢).

(٣) «الموافقات» (٣٢٥/٥). وانظر: «ترتيب المدارك» (١٤٥/١).

(٤) «ترتيب المدارك» (١٨٠/١)، و«الموافقات» (٣٢٥/٥).

(٥) «الموافقات» (٣٢٦/٥)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٢٣/٦)؛ بنحوه. وانظر رواية مقارِبة في: مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (ص ١٨).

تجعلني حُجَّةً بينك وبين الله؟ فأحتاج أنا أولًا أن أنظر كيف خلاصي، ثم أُخَلِّصُكَ!»[(١)].

وهذا هو الواجب على المفتي قبل أن يَجعَلَ مِن نفسه حاجزًا بين الناس والنار؛ أن يبحث عن المَخْرَج، وأن يُجِيبَ بجوابِ عالِمِ تَقِيٍّ وَرِع يَخشَى الله ﷻ.

وسُئِلَ مَرَّةً عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنَتَيْنِ وثلاثين منها: «لا أدري»[(٢)].

وقال خالد بن خِدَاش: «قدمتُ على مالكٍ من العراق بأربعين مسألةً، فسألته عنها، فما أجابني منها إلّا في خمس مسائل»[(٣)].

وقال مالك: قال ابن عَجْلان: «جُنَّةُ العالم: يورِّث العلمَ جلساءَهُ: لا أدري»[(٤)].

وقال ابن عَجْلان: «إذا أخطأ العالم: (لا أدري)، أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه»[(٥)]، وقد جاء نحوه عن ابن مسعود[(٦)]، وابن عبَّاس رضي الله عنهم[(٧)].

وعن مالك؛ أنه سمع ابنَ هُرْمُزٍ يقول: «ينبغي للعالم أن يورِّثَ جلساءَهُ مِن

(١) «ترتيب المدارك» (١/١٨١)، و«الموافقات» (٥/٣٢٦).

(٢) «الانتقاء» لابن عبد البر (ص٣٨).

(٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدِّثين بأصبهان» (٣/١٤٢)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/٤١٠)؛ وهو من رواية أحمد، عن الشافعي، عن مالك.

(٥) أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٨)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٣)؛ واللفظ له.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في «الأمالي في آثار الصحابة» (١٦٢).

(٧) أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٧)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥٨٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٢).

بعده: (لا أدري)؛ حتى يكونَ ذلك أصلًا في أيديهم يَفْزَعُونَ إليه، إذا سُئِلَ أحدهم عما لا يدري، قال: لا أدري»[١].

وكان الإمام مالك يقول في أكثر المسائل: «لا أدري»، قال عمرو بن يزيد: قلتُ لمالك: يا أبا عبد الله، يأتيك ناسٌ مِن بُلْدانٍ شتَّى، قد أَنْضَوْا مطاياهم، وأنفقوا نفقاتهم، يسألونك عما جعَلَ الله عندك من العلم، تقول: لا أدري؟! فقال: «يا عبد الله، يأتيني الشاميُّ مِن شامه، والعراقيُّ مِن عراقه، والمصري من مصره، فيسألونني عن الشيء، لعلي أن يبدو لي فيه غيرُ ما أجيب به؛ فأين أجدهم؟!»، قال عمرو: فأخبرتُ الليث بن سعد بقول مالك، فبكى، وقال: «مَالِكٌ واللهِ أقوى من الليث»، أو نحو هذا[٢].

وقال ابن أبي أُوَيْس: سُئِلَ مالِك مَرَّةً عن نَيِّفٍ وعشرين مسألة، فما أجاب منها إلّا في واحدة.

وربما يُسأَلُ عن مائة مسألة، فيجيب عن خمس أو عشر، ويقول في الباقي: لا أدري[٣]!

وقال أبو مصعب: قال لنا المُغِيرة - وهما من أصحاب مالك -: «تعالَوْا نجتمِعُ، ونستذكِرُ كلَّ ما بقي علينا مما نريد أن نسأل عنه مالكًا، فمكَثْنَا نجمع ذلك، وكتبناه في قُنْدَاق[٤]، ووجَّه به المغيرة إليه، وسأله الجواب، فأجابه في بعضه، وكتب في الكثير منه: لا أدري، فكان المغيرة يقول: «لا والله، ما رُفِعَ هذا الرجلُ إلّا بالتقوى؛ مَن كان منكم يُسأَلُ عن هذا، فيرضى أن يقول: لا أدري»[٥].

---

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١١٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٢٤/٦)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٣٦٠/٥٠). وانظر: «ترتيب المدارك» (١٨٢/١).

(٣) «ترتيب المدارك» (١٨٣/١)، و«الموافقات» (٣٢٨/٥).

(٤) صحيفة الحساب.

(٥) «ترتيب المدارك» (١٨٣/١). وانظر: «الموافقات» (٣٢٨/٥).

والروايات عن الإمام مالك في قوله: لا أدرى، ولا أُحسِنُ؛ كثيرة، حتى قال بعضهم: «لو كتبنا عن مالِك: (لا أدري)، لَمَلأْنا الألواح»(١).

وقيل له مرةً: إذا قلتَ أنت يا أبا عبد الله: (لا أدري)، فمَنْ يدري؟! قال: «وَيْحَكَ، ما عرفتَنِي؟ وما أنا؟ وأيُّ شيءٍ منزلتي حتى أدري ما لا تدرون؟ ثم أخَذَ يحتجُّ بحديث ابن عمر؛ يقول - يعني: ابن عمر -: لا أدري فمَن أنا؟! إنما أهلَكَ الناسَ العُجْبُ، وطلَبُ الرياسة، وهذا يضمحِلُّ عن قليل، وقال مرة أخرى: قد ابتُلِيَ عمر بن الخطاب بهذه الأشياء، فلم يُجِبْ فيها»، وقال ابن الزُّبَيْر: لا أدري، وابنُ عمر: لا أدري»(٢).

وسُئِلَ عن مسألة؟ فقال: «لا أدري»، فقال له السائل: إنها مسألةٌ خفيفةٌ سهلة، وإنما أَرَدتُ أن أُعلِمَ بها الأمير! - وكان السائل ذا قَدْر - فغَضِبَ مالكٌ، وقال: «مسألة خفيفة سهلة؟! ليس في العلم شيء خفيف؛ أما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]؟!»(٣).

قال ابن عبد البَرِّ: «وقد رُوِيَ عن مالك: أنه قال في بعض ما كان يَنزِلُ، فيُسأَلُ عنه، فيَجتهِدُ فيه رَأْيَهُ: إنْ نظنُّ إلّا ظنًّا وما نحن بمستيقنين»(٤).

وكان يقول: «إنما أنا بَشَرٌ أُخطِئ وأرجع، وكل ما أقول يُكْتَب»(٥).

وقال أَشْهَب: ورآني أكتُبُ جوابه في مسألة، فقال: «لا تكتبها؛ فإني لا أدري أَثْبُتُ عليها أم لا»(٦).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٢٣)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٧٦)؛ واللفظ له.

(٢) «ترتيب المدارك» (١/١٨٣)؛ وحديث ابن عمر رضي الله عنهما المشار إليه، هو ما أخرجه الآجري في «أخلاق العلماء» (١٠٥)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٥٦٦)؛ أنه سُئِلَ عن فريضة هَيِّنة من الصلب؟ فقال: لا أدري... إلخ.

(٣) «ترتيب المدارك» (١/١٨٤ - ١٨٥)، و«الموافقات» (٥/٣٢٩).

(٤) ذكره ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٤٤٥)، وروى أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٢٣) نحوَهُ.

(٥) «ترتيب المدارك» (١/١٨٩). وانظر: «الموافقات» (٥/٣٣١)

(٦) «ترتيب المدارك» (١/١٩٠)، و«الموافقات» (٥/٣٣٢).

ويقول ابن وَهْب: «سمعتُهُ يعيب كثرة الجواب من العالم حين يُسْأل»[١].

وكان عندما يُكْثَرُ عليه بالسؤال، يَكُفُّ ويقول: «حسبكم؛ مَن أكثَرَ أخطَأَ».

وكان يعيب كثرةَ ذلك، وقال: يتكلَّم كأنه جملٌ مغتلِمٌ - أي: هائج - ويقول: هو كذا، هو كذا؛ يَهْدِرُ في كل شيء[٢].

وسأله رجل عراقي عن رجل وَطِئَ دجاجة ميِّتة، فخرَجَتْ منها بَيْضة، فأَفْقَسَتِ البيضةُ عنده عن فَرْخ، أيأكله؟ - وهذه مسألة من المسائل الفَرضِيَّة - فقال مالك: «سَلْ عما يكون، ودَعْ ما لا يكون»[٣].

وسأله آخر عن مسألة تُشبِهُ هذه، فلم يجبه، فقال الرجل: يا أبا عبد الله، أَلَا تجيبني عما أسألك عنه؟ فقال له مالك: «لو سألتَ عما تَنتفِعُ به - أو قال: عما تحتاج إليه - في دينك، أَجَبْتُك»[٤].

وقال ابن القاسم: «كان مالكٌ لا يكاد يُجِيبُ، وكان أصحابه يحتالُون أن يجيء رجل بالمسألة التي يُحِبُّونَ أن يعلموها كأنها مسألةُ بَلْوَى، فيجيب فيها»[٥]. لأنهم كانوا يهابونه، ويتحرَّجون من سؤاله؛ لكراهيته ذلك.

وقال مَرَّةً لابْنِ وَهْب: «اتَّقِ هذا الإكثارَ، وهذا السماعَ الذي لا يستقيم أن يحدَّثَ به»، فقال له: إنما أسمعه لأعرفه، لا لأحدِّثَ به، فقال له: «ما سمع إنسان شيئًا إلّا يحدِّث به، وعلى ذلك، لقد سمعتُ مِن ابن شهاب أشياء ما تحدَّثتُ بها، وأرجو ألَّا أفعَلَ ما عِشْتُ»[٦].

(١) المصدران السابقان.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) المصدران السابقان. وهو في «ترتيب المدارك» (١/١٩١).

(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١٩٨).

(٥) «ترتيب المدارك» (١/١٩١)، و«الموافقات» (٥/٣٣٢).

(٦) «الموافقات» (٥/٣٣٣). وانظر: «ترتيب المدارك» (١/١٩١).

ورُوِيَ عنه أنه قال: «لقد نَدِمْتُ ألَّا أكون طَرَحْتُ أكثَرَ مما طَرَحْتُ من الحديث»[١].

٣ - تحرُّجُهم عند الرواية والتحديث عن الرسول ﷺ:

وقد جاءت عنهم في ذلك أخبار كثيرة؛ فمن ذلك:

ما رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ، ثم ارتعَدَ، ثم قال: نحو ذلك، أو فوق ذلك[٢].

وعن عمرو بن مَيْمون؛ قال: «ما أخطأني ابنُ مسعودٍ عَشِيَّةَ خميسٍ إلّا أتيته فيه، قال: فما سمعتُهُ يقول لشيءٍ قطُّ: قال رسول الله ﷺ، فلما كان ذاتَ عشيَّة، قال: قال رسول الله ﷺ، قال: فنكَسَ، قال: فنظَرْتُ إليه، فهو قائمٌ محلَّلةٌ أزرارُ قميصه، قد اغرَوْرَقَتْ عيناه، وانتفَخَتْ أوداجُه، قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا»[٣].

سُئِل الشَّعْبي عن حديث، فحدَّث به، فقيل له: إنه يُرفَعُ إلى النبي ﷺ؟ فقال: «لا، على مَن دُونَ النبيِّ ﷺ أَحَبُّ إلينا، فإنْ كان فيه زيادة، أو نقصان، كان على مَن دون النبي ﷺ»[٤].

وعن إبراهيم النَّخَعي؛ قال: «نهى رسول الله ﷺ عن المحاقَلَةِ والمزابَنَة»، فقيل له: أمَا تَحفَظُ عن رسول الله ﷺ حديثًا غير هذا؟ قال: «بلى، ولكنْ أقولُ: قال عبد الله، قال عَلْقَمةُ، أحبُّ إليَّ»[٥]؛ يعني: يحترِزُ ويتهيَّب.

يقول تَوْبة العَنْبَري: قال لي الشَّعْبي: «أرأيتَ فلانًا الذي يقول: قال

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/١٩١). وانظر: «الموافقات» (٥/٣٣٣).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٨٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٣)، وصحَّحه البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/٤٨).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٧٤).

(٥) المصدر السابق (٢٧٥).

رسولُ الله، قال رسول الله؟! قعدتُ مع ابن عمر سنتين أو سنةً ونصفًا، فما سمعتُهُ يحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئًا إلّا هذا الحديث»[(١)].

وكان أنس رضي الله عنه قليل الحديث عن رسول الله ﷺ، وكان إذا حدَّث عن رسول ﷺ، قال: «أو كما قال ﷺ»[(٢)].

وعن السائب بن يَزِيد؛ قال: «خرجتُ مع سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه إلى مكَّة، فما سمعتُهُ يحدِّثُ حديثًا عن رسول الله ﷺ حتى رَجَعْنا إلى المدينة»[(٣)].

وعن مجاهد؛ قال: صَحِبْتُ ابن عمر رضي الله عنهما إلى المدينة، فلم أسمَعْهُ يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلّا حديثًا واحدًا، قال: كنا عند النبيِّ ﷺ، فأُتِيَ بجُمَّارٍ، فقال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ»، فأَرَدتُ أن أقول: هي النَّخْلةُ، فإذا أنا أَصغَرُ القومِ، فسَكَتُّ، قال النبي ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ»، قال عبدُاللهِ: فحَدَّثْتُ أبي بما وقَعَ في نَفْسِي، فقال: «لَأَنْ تكُونَ قُلْتَها أَحَبُّ إليَّ مِن أن يَكُونَ لي كذا وكذا»[(٤)].

وهذا صالحٌ الدَّهَّان يقول: «ما سمعتُ جابر بن زيد رضي الله عنه قطُّ يقول: قال رسول الله ﷺ؛ إعظامًا واتِّقَاءَ أنْ يَكذِبَ عليه»[(٥)].

فهذه بعض النماذج فيما يتعلَّق بالوَرَعِ في العلم والفُتْيا، والتفسير والتحديث عن رسول الله ﷺ، وكلَّما قَوِيَ دِينُ العبد وازداد علمه، كان أقرَبَ إلى قولِ: لا أدرِي، فإذا قَلَّ العلم، قَلَّ بَصَرُ العبد، وظنَّ أنه قد أحاط بكثيرٍ من العلم، فإذا ازداد بصَرُه، تعدَّدت لديه الاحتمالات عند تفسير الآية، أو عند الكلام في الأحكام؛ لأن ذلك يتَنازَعُهُ في نظره مجموعة مِن القواعد

---

(١) المصدر السابق (٢٨٠).

(٢) المصدر السابق (٢٨٤).

(٣) المصدر السابق (٢٨٦).

(٤) المرفوع أخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١)؛ ومحلُّ الشاهد عند مسلم.

(٥) أخرجه الدارمي (٢٩١)؛ بسند جيد.

والأدلَّة التي يصعُبُ معها الترجيح، أو القطع بشيء، وغاية ما يقول فيما لم يَرِدْ فيه نص: الأقرَبُ في هذه المسألة كذا، وأظن الصواب كذا، وإذا قَلَّتْ بضاعته، قال: وعندي أنه كذا، والذي أراه كذا، والتحقيق الذي لا يجوز العدولُ عنه هو كذا وكذا! وهو صغير في العلم، ولم يحصِّلْ كثيرًا منه، ولربَّما دعا للمباهَلة في المسألة، وهو لم يَجمَعْ أطرافَها، ولم يُحِطْ بجوانِبها!

وهذا أمر يقع كثيرًا لبعض طلبة العلم، ويقع كثيرًا أيضًا للعامَّة، والواجب على مَن يُفتِي: أنْ يتريَّثَ؛ لأنَّه موقِّعٌ عن الله ﷻ؛ ولذلك سمَّى ابن القيِّم كتابه المعروف المشهور بـ «إعلام الموقِّعين عن رب العالمين»، فهذا الذي يفتي الناس كأنَّه يقول: هذا حُكْمُ الله، وأنا أوقِّع عنه؛ ومَن يستطيع ذلك؟!

وكثير من العامَّة إذا طُرِحَتِ المسألة على أحد من أهل العلم في مجلس، ابتدَرُوهُ بالجواب، ولم يُسأَلُوا عنها! ولربَّما أفتى بعضهم بعضًا في كثير مِن الأشياء مِن غير بَصَرٍ ولا رجوع إلى أهل العلم، ولو عقَلُوا عن الله ﷻ، وعرَفُوا ما يُقدِمُونَ عليه، وعرَفُوا حال السلف ﷺ في هذه الأبواب، لما اجترَؤُوا هذه الجُرْأة.

فأَكثِرْ من قولك: لا أدري، تُلْقِ التَّبِعةَ عن كاهِلِك، وتكنْ في سلامة وعافية في دينك.

والله ﷻ قد قرَنَ بين القول عليه بلا علم والإشراك به؛ كما تقدَّم؛ فينبغي التحرُّز في هذا الباب والاحتياط، وألَّا يُوقِعَ الإنسانُ نفسه في مضايِقَ هو في غِنًى عنها.

سادسًا: الوَرَع في النَّظَر:

ذكرتُ فيما سبق: أن من الأمور التي تَضُرُّ العبد في دينه ودنياه: الفضولَ مِن كل شيء، ومن ذلك: فضولُ النَّظَر، فإذا أطلَق الإنسان بصرَهُ، وصار ينظر هنا وهناك، فيما يَحِلُّ له وما يحرُمُ عليه، فإنه لا يخرُجُ من ذلك بالسلامة، بل يخرج بتَبِعةٍ وذنوب، كما أنه يخرج بقلبٍ ملوَّثٍ متدنِّس؛ لأن البَصَرَ بريدٌ

للقلب، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالسمعُ والبصرُ مِيزَابانِ يَصُبَّانِ في القلب، فالمَشاهِدُ التي يراها الإنسان تؤثِّرُ في قلبه حتمًا لا محالةَ.

يقول وكيع بن الجرَّاح: سمعتُ سفيانَ - وسئل عن البناء الذي بنوه حول الكعبة؟ - قال: «لا تنظُرُوا إليه؛ فإنهم إنما بَنَوْهُ لِيُنظَرَ إليه»(١).

وقال يحيى بن اليَمَان: كنتُ مع سفيان، فرأى دارًا، فرفَعْتُ رأسي أنظر إليها، فقال سفيان: «لا تنظُرْ إليها؛ فإنَّما بُنِيَتْ لكي يَنظُرَ إليها مثلك»(٢)؛ أي: لِجَذْبِ الأنظار إليها، مع أن النظر إليها ليس بالأمر المحرَّم، لكنَّ سفيان نهاه عن هذا النظر؛ لكونه من الفضول الذي لا يعود عليه بفائدة، بل قد يتضرَّر به. فهذا مِن كمالات الوَرَع، في باب إطلاق البَصَر.

وَرُئِيَ على داود الطائي جُبَّةٌ متخرِّقة، فقال له رجل: لو خيَّطتها؟ قال: «أَمَا علمتَ أنه نُهِيَ عن فضول النظر»(٣).

وقد كان السلف ﷺ يبالِغُونَ في الاحتراز في هذا الباب؛ فقد كان الإمام أحمد إذا نظر إلى نصرانيٍّ، غمَّض عينيه، فقيل له في ذلك؟ فقال: «لا أَقدِرُ أنظُرُ إلى مَن افترى على الله، وكذَبَ عليه»(٤).

وعن كَثِير بن هشام؛ قال: كان سُفْيانُ الثوريُّ قاعدًا بالبصرة، فقيل له: هذا مساوِرُ بنُ سَوَّارٍ يَمُرُّ - وكان على شرطة محمد بن سليمان - فوثَبَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٧٩).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٧٦)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٧٩).
(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٥٢).
(٤) «طبقات الحنابلة» (١/٢٧).

- يعني: سفيان - فدخَلَ في داره، وقال: «أَكْرَهُ أن أرى من يعصي الله، ولا أستطيع أن أغيِّر عليه»[١].

ويقول فُضَيْل بن عِيَاض: «لا تنظُرُوا إلى مَرَاكِبِهم؛ فإنَّ النظر إليها يُطفِئُ نُورَ الإنكار عليهم»[٢].

ويقول سفيان: «لا تنظروا إلى دُورِهم، ولا إليهم إذا مَرُّوا على المراكب»[٣]؛ لأن ذلك يؤثِّرُ في القلب، وأقلُّ ذلك: أن يُورِثَ مهابةً وتعظيمًا، فيَجبُنَ الإنسان عن الإنكار والتغيير على أصحاب المعاصي.

وأما مَن أطلَقَ بصره في الأمور المحرَّمة الواضحة، فإنَّ هذا لا شك أنه قد اقتحَمَ بابًا من حدود الله ﷻ، وأدخَلَ نفسه في تَبِعاتٍ يحاسِبُهُ الله عليها إن لم يَغفِرْ له.

فإذا كان السلف يتحرَّزُونَ من هذه الأمور اليسيرة في نَظَرنا، فكيف بالنَّظَر إلى الأمور المحرَّمة؟! كمَن يجلس خاليًا ينظر إلى الشاشة، ويَرَى فيها أمورًا تُفسِدُ عليه قلبه، وقد جعل اللهَ ﷻ أهوَنَ الناظرين إليه؟!

وأين هذا كلُّه من أولئك الذين يُسافِرون للترفيه والنُّزْهة؛ فيَقصِدُونَ بلادًا يكثُرُ فيها الفساد بأنواعه، ولا يستطيعون الإنكار والتغيير، ويسمُّون ذلك: (سياحة)؟!

هذا؛ والورَعُ في باب النَّظَرِ ينقسمُ إلى ورَعٍ واجِب، وورَعٍ مستحَبٍّ؛ كما لا يخفى.

سابعًا: الوَرَع في السَّمْع:

وذلك بأن يَحترِزَ في سمعه؛ فلا يسمع شيئًا يؤثِّر على قلبه؛ كسماع شيء

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٧٤).

(٢) المصدر السابق (٧٥).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٤٠).

من المحرَّمات؛ كالغِيبَة والنميمة والمَعازِف، أو مِن غيرها مما يُورِثُ غفلةً في القلب، فينأى بنفسه عن سماع الحرام.

فعن نافع؛ قال: «سمع ابن عمر مِزْمارًا، قال: فوضع إصبعَيْهِ على أذنيه، ونأى عن الطريق، وقال لي: يا نافعُ، هل تسمع شيئًا؟ قال: فقلتُ: لا، قال: فرفَعَ إصبعيه من أذنيه، وقال: كنتُ مع النبي ﷺ، فسَمِعَ مثل هذا، فصنع مثل هذا»(١).

ثامنًا: الورع في الشَّمِّ:

الشَّمُّ: حاسَّةٌ من الحواس، يحاسَبُ عليها الإنسان، كما يحاسَبُ على كل نعمة أنعم الله بها عليه؛ هل أدَّى شكرها؟! جاء عن عبد الله بن راشد صاحب الطِّيبِ؛ قال: أتيتُ عمر بن عبد العزيز بالطِّيبِ الذي كان يُصنَعُ للخلفاء من بيت المال، فأمسَكَ على أنفه، وقال: «إنما يُنتَفَعُ بريحِهِ»(٢).

وكان عمر بن عبد العزيز يتحرَّز من أمور كثيرة مما كان يصنعه الخلفاء مِن قبله، ومن ذلك: صَرْفُ العطور مِن بيت مال المسلمين، فكان يترُكُ ذلك، ولا يأخُذُ من بيت المال شيئًا من هذه الأطياب، فلما جاء به هذا الرجل على عادته، وضع إصبَعَهُ على أنفه؛ لئلا يَشَمَّ من ذلك شيئًا.

وجيء له مرةً بغنائم مِسْكٍ، فأخَذَ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، تأخذ بأنفك لهذا؟ قال: «إنما يُنتَفَعُ مِن هذا بريحِهِ؛ فأكرَهُ أن أَجِدَ رِيحَهُ دون المسلمين»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٢٤ - ٤٩٢٦)، وحكَمَ بنكارته، وضعَّفه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢١١/٣٠ - ٢١٦)، وصحَّحه ابن حبان (٦٩٣)، وأحمد شاكر في تحقيق «المسنَد» (٤٥٣٥). وانظر: «عون المعبود» (٤٣٤/٤ - ٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (١٤١)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٨٧).

تاسعًا: ذكر نماذج متنوِّعة من أبوابٍ شتَّى في الورع:

أبوابُ الورع كثيرةٌ جِدًّا، وما ذكرته إنما هو نماذج، وأَختِمُ بذكر نماذج أخرى متفرِّقة ومتنوِّعة من ورع السلف ﷺ في شتَّى الأمور:

فعن معاوية بن قُرَّة؛ قال: كان لأبي الدرداء ﷺ جمَلٌ يقالُ له: الدَّمُونُ، فكان إذا استعاره منه رجل، قال: «لا تَحْمِلْ عليه إلَّا طاقتَهُ»، فلما كان عند الموت، قال: «يا دَمُونُ، لا تُخاصِمْني عند ربي؛ فإني لم أَكُنْ أحمل عليك إلَّا ما كنتَ تُطِيق»[1].

فكيف بالذي يَظلِمُ الناس؟! وكيف بمَن يسترعيه الله ﷻ رعيةً مِن الزوجات والأولاد، أو الموظَّفين أو الطلاب أو غيرهم، ثم بعد ذلك يَظلِمُهم؟!

فأبو الدرداء ﷺ يتحرَّز من دابَّة أَحَلَّ الله له الانتفاع بها، ويعتذِرُ لجَمَلِهِ عند موته؛ فكيف بمن ظلَمَ إخوانَهُ المسلمين، وأكَلَ حقوقهم وأموالهم، وتوسَّع فيها، وعبَثَ بها، وماطَلَهُم في القضاء والوفاء وأداء الحقوق؟!

وهذا أبو العبَّاس الخَطَّاب جاء يعزِّي رجلًا ماتت امرأتُهُ، وفي البيت بِسَاطٌ، فقام أبو العباس على باب البيت، فقال - للمعزَّى -: «أيها الرجل، معك وارثٌ غيرك؟»، قال: نعم، قال: «فما قعودُكَ على ما لا تَمْلِكُ؟»[2]؛ أي: أن هذا البساط صار من حقوق الوَرَثة؛ فكيف تَجلِس عليه؟! فتنحَّى الرجل عن البساط.

وهذا إنما نذكُرُهُ؛ ليعرف الإنسان مدى تقصيرِه، وإنْ كان عامَّة الناس اليوم لا يطالَبُونَ بهذه الأمور الدقيقة مِن الوَرَع:

قال ابن القيِّم: «كان أهل الورَعِ مِن أهل العلم يتجنَّبُونَ تهنئةَ الظَّلَمة

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٧٣)، وابن أبي الدنيا في «الورع» (١٧٨)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/١٨٥).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (١٣٠)؛ رواية المَرُّوذِي.

بالوِلَايات، وتهنئةَ الجهال بمنصِبِ القضاء والتدريس والإفتاء؛ تجنُّبًا لمقت الله وسقوطهم من عينه، وإن بُلِيَ الرجل بذلك، فتعاطاه؛ دفعًا لشرٍّ يتوقَّعه منهم، فمشى إليهم ولم يَقُلْ إلّا خيرًا، ودعا لهم بالتوفيق والتسديد، فلا بأس بذلك، وبالله التوفيق»[١].

وعن عُبَادة بن قُرْط رضي الله عنه؛ قال: «إنَّكم لَتعمَلُونَ اليوم أعمالًا هي أَدَقُّ في أَعْيُنِكُم مِن الشَّعْر، إنْ كنَّا لَنَعُدُّها على عهدِ النبيِّ ﷺ من المُوبِقات»[٢].

فكيف لو رأى كثيرًا من أعمالنا اليوم؟!

وقيل لأبي قتادة: فكيف لو أدرَكَ زماننا هذا؟ فقال أبو قَتَادة: «لكان لذلك أَقْوَلَ»[٣]؛ أي: مِن باب أولى.

وقد ذُكِرَ ذلك لمحمد بن سِيرِينَ، فقال: «صدَقَ، وأَرَى جَرَّ الإزارِ منها»[٤]؛ أي: الإسبالَ؛ يقول: هذه من الأمور التي يَتساهَلُ بها الناس، وقد لا نَجِدُ من ينكر ذلك، وهي في أعينهم أدقُّ مِن الشَّعْر، وكانوا يرونها في زمن الرسول ﷺ من المُوبِقات.

ولا غرابة في ذلك؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

فالأمر شديد، واللهُ ﷻ لا يَضِلُّ ولا ينسى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، ولم يُنْسَ شيءٌ مِن ذلك على تطاوُل الأزمان، وكثرة الأعمال

---

(١) «أحكام أهل الذمة» (١/٢٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٧٥١، ٢٠٧٥٢). وقد رُوِيَ عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٧٥٢) بهذه التَّتِمَّة.

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨٥٩)؛ وإسناده صحيح.

مِن الذنوب والمعاصي، مع كثرة الخلائق جِيلًا بعد جِيل؛ فكل ذلك مضبوط عند الله ﷻ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ومَن تتبَّع أخبار القوم في هذه الأبواب، رأى أمورًا عجيبة من ذلك، حتى إنَّ بعضهم وزَنَ الذَّرَّ!

قال أبو العباس الخَطَّاب: «وَزَنْتُ عشرين ومائةَ ذَرَّةً - والذَّرَّةُ هي صغار النمل - بحِذَاءِ خردلة، أو قال: شعيرة»[١].

وهذا رجل آخر - كما قال معاوية بن قُرَّة - أخذ خمسًا وعشرين ذَرَّةً، فوضعها في كِفَّةِ الميزان، فلم تَمِلْ بها عَيْنُ الميزان[٢]؛ أي: أنها خفيفة؛ فهل فكَّرنا في هذا؟!

ويقول معاوية بن قُرَّة: «بعَثَ إليَّ رجل بطعام، فأكَلْتُ منه ما أكلتُ، وفَضُلَتْ منه فَضْلة، فأصبحتُ وقد اسوَدَّ مِن الذَّرّ، فوزنتُهُ بِذَرِّه، ثم نَقَّيْتُهُ من الذَّرِّ، فوزنتُهُ، فلم يَزِدْ ولم يَنْقُص»[٣]؛ أي: أنه مع كَثْرة هذا الذَّرِّ لم يغيِّرْ في وزنِهِ شيئًا؛ فكيف بالذرَّة الواحدة؟!

وعن عمر بن الخطَّاب ﷺ؛ عنه أنه كان فرَضَ للمهاجرين الأوَّلين أربعة آلاف في أربعة[٤]، وفرَضَ لابن عمر ثلاثة آلاف وخَمْسَمِائة، فقيل له: هو مِن المهاجِرِينَ، فلِمَ نَقَصْتَهُ مِن أربعةِ آلاف؟ فقال: إنما هاجَرَ به أبَوَاهُ[٥].

وقسَمَ مُرُوطًا بين نساء من نساء المدينة، فبَقِيَ مِرْطٌ جَيِّدٌ، فقال له بعضُ مَن عنده: يا أميرَ المؤمنين، أعطِ هذا ابنَةَ رسولِ الله ﷺ التي عِنْدَكَ؛ يريدون:

---

(١) أخرجه أحمد في «الورع» (٥٦)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٢) المصدر السابق (٥٧).

(٣) المصدر السابق (٥٨).

(٤) أي: في أربعة آلاف، وقيل: في أربعة أعوام، وقيل: في أربعة فصول، وقيل: إنما ذُكِرَتْ لبيان أن لكل مهاجر أربعةَ آلاف. انظر: «عمدة القاري، شرح صحيح البخاري» (١٧/٥٤).

(٥) أخرجه البخاري (٣٩١٢).

أمَّ كُلْثُوم بنت علي، فقال عمر: «أُمُّ سَلِيطٍ أحقُّ»، وأمُّ سَلِيطٍ من نساء الأنصار ممَّن بايَعَ رسولَ الله ﷺ، قال عمر: «فإنَّها كانت تَزْفِرُ لنا القِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ»[١]؛ قال أبو عبد الله البخاري: تَزْفِرُ: تَخِيط.

ويقول العلاء بن زِيَاد: «لو كنتُ متمنِّيًا، لَتَمَنَّيْتُ فِقْهَ الحسن، وورَعَ ابن سِيرِين، وصوابَ مطرِّف، وصلاةَ مُسلِم بن يَسَار»[٢].

وقال بكر بن عبد الله: «مَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى أعلَمِ رجلٍ أدرَكْناه في زمانه، فلينظُرْ إلى الحسن، فما أدرَكْنا أعلَمَ منه، ومَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلى أورَعِ رَجُلٍ أدرَكْناه في زمانه، فلينظُرْ لابن سِيرِين؛ إنه لَيَدَعُ بعض الحلال تأثُّمًا»[٣].

ويقول مورِّق: «ما رأيت رجلًا أفقَهَ في وَرَعه، ولا أورَعَ في فِقْهه من محمد بن سِيرِين»[٤]؛ يعني: حيث جمع بين الوَرَع، والفقهِ في الوَرَع.

ويقول يوسف بن أسباط: «مَرَّ طاوسٌ بنهر قد كُرِيَ - أُجِّرَ - فأرَادَتْ بغلته أن تشرب - يعني: من ذلك النهر - فأَبَى أن يَدَعَها»[٥]؛ احتياطًا وتورُّعًا.

وذكر المَرُّوذِيُّ عن الإمام أحمد؛ أنه قال: «طاوُسٌ كاسمِه؛ لقد افتعَلَ ابنُهُ على لسانِهِ كتابًا إلى عمر بن عبد العزيز - أي: خطابًا يطلُبُ فيه العطاء - فأعطاه ثلاثمائة دينار، فباع طاوُسٌ ضَيْعة له، فبعَثَ بها إلى عمر، فأُرِيدَ طاوسٌ على أن يدخُلَ على ابنه وهو في الموت، فأبى، أو قال: دخَلَ عليه في وقت الموت»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨١).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٢٢٦)؛ رواية المَرُّوذِي، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢٩/٥٨).

(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٠٨)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٦٦/٢)، والدينوري في «المجالسة» (٢٨٣١/١٩٤٢)؛ كلاهما مختصرًا.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٤٨٥/١٣ ، ٥٣٢)، وأحمد في «الورع» (٢٢٨)؛ رواية المَرُّوذِي، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٦/٢)؛ واللفظ له، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤١٨/٤).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (٢٠٥).

(٦) أخرجه أحمد في «الورع» (٣١٩)؛ رواية المَرُّوذِي.

ولما بنَوُا لمسجد شُعَيْب بن حرب دَرَجًا في الطريق، قال: «لا وَضَعْتُ رجلي عليها حتى تُهدَمَ»(١).

أي: أن دَرَجةَ المسجد صارت زائدة في الطريق، فلم يَضَعْ رِجلَهُ عليها حتى هُدِمَتْ.

وقد أشرتُ إلى هذا المعنى سابقًا؛ حيث كانوا يتحرَّزون أن يأخُذوا من طريق المسلمين شيئًا، فإذا بنى أحدُهم بيتًا أو مسجدًا، فلا يأخُذُ من الرَّصِيفِ شيئًا لدَرَجٍ أو لخَزَّانٍ أو لمِظَلَّةِ السيارة أو غير ذلك.

وعن شعيب بن حرب أيضًا؛ أنه كان يقول: «لك أن تطيِّنَ الحائط من خارج، وليس لك أن تجصِّصه؛ لعله أن يخرُجَ في الطريق»(٢).

ومثل هذا قد يصلح لمثل شُعَيْب، لكن لا يصلح لعامَّة الخلق.

ولما كان زمَنُ الحجَّاج، خرَجَ عليه جماعة من الفقهاء والعلماء، ولكنهم كُسِرُوا وهُزِمُوا وتفرَّقوا، فصار الحجَّاج يبحث عنهم في كل مكان، فاختفى بعضهم في مكَّة، وبعضهم في البَصْرة، وتفرَّقوا، ومنهم سعيد بن جُبَيْر، والحسَن البَصْري، وجماعة؛ فعُثِرَ على سعيد بن جُبَيْر، وطَلْق بن حَبيب في مكَّة، فجاء بهم رجلٌ من الشُّرَط؛ يقول الأعمش: «دخلتُ عليهم السجنَ، فقلتُ: جاء بكم شُرْطِيٌّ أو جُلَيْوِيز؛ أفلا كَتَّفْتُمُوهُ وأَلْقَيْتُمُوهُ في البَرِّيَّة؟ فقال سعيد: فمَن كان يسقيه الماء إذا عَطِشَ؟!»(٣).

فاعتبِرْ هذا وما يقع في هذه الأوقات من إراقة دماء معصومة ممن يدَّعي أن ذلك مِن قبيلِ الدِّينِ الذي يُتقرَّبُ به إلى الله!

وهذا محمَّد بن سِيرِين: كان محبوسًا في دَيْنٍ، وأوصى أنسُ بن مالك رضي الله عنه

(١) المصدر السابق (١٠).

(٢) المصدر السابق (٩).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٤٠).

أن يغسِّله ابن سِيرِين، فلما مات، أُتِيَ محمدٌ، فقيل له ذلك، فقال: «أنا محبوس في السجن»، قالوا: فإنا قد استأذنَّا الأمير، فأَذِنَ لك، قال: «إنَّ الأمير لم يَحْبِسْنِي، وإنما حبسني الذي له الحقُّ عليَّ»، قال: فَأُتِيَ الذي له الحق، فأَذِنَ له، فخرَجَ فغسَّله[(١)].

وشَرِبَ يحيى بن يحيى شَرْبَةً، فقالت له امرأته: لو قُمْتَ فتَرَدَّدتَّ في الدار، فقال يحيى: «ما أدري ما هذه المِشْيَة، أنا أُحاسِبُ نفسي منذ أربعين سنة»[(٢)].

فكيف بالذي يمشي إلى الحرام، والذي يمشي إلى أماكن العَبَث والغفلة؟!

ويقول سفيان بن عُيَيْنة: «لو أن رجلًا لَعِبَ بغلام بين إصبعَيْنِ من أصابع رِجْلِهِ، يريد بذلك الشهوة؛ لكان ذلك لِوَاطًا»[(٣)].

وكان أبو منصور ابن عساكِرَ قد خالَفَ في بعض مسائل الصفات؛ فـ «كان يتورَّعُ من المرور في زُقَاقِ الحنابلة؛ لئلا يأثموا بالوقيعة فيه؛ وذلك لأنَّ عوامَّهم يبغضون بني عساكر؛ لأنهم على مذهب الأشعريَّة»[(٤)].

وهذا رجل من العلماء - وهو تاج الدين المَرَّاكُشي - ترك التدريس في مدرسةٍ يقال لها: «المسروريَّة»، لَمَّا نظر في شرط الواقف، وهو أن يكون المتصدِّرُ للتعليم في المدرسة الوقفيَّة عالمًا بالخلاف، فقال: «أنا لا أعلَمُ الخلاف»[(٥)].

فهل فكَّر المرء في هذا حينما يسابِقُ وينافِسُ على مسجد يَؤُمُّ فيه، ولربما فعَلَ كل مستطاع من أجل أن يحصِّلَ هذا المسجد، فيأتي بالشفاعات

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٣٠٨ - ٣٠٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٦٧).

(٢) أخرجه أحمد في «الورع» (٣٩٩)؛ رواية المَرُّوذِي.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الورع» (١٣٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/١٨٨)؛ بتصرف.

(٥) انظر: «الدرر الكامنة» (٣/٣٠٠)، و«بغية الوعاة» (١/١٦).

والوسطاء، وبكل ما يستطيع من جهد؛ مِن أجل راتب، أو وجاهة؛ وهو مع ذلك ليس بأهل للإمامة أو الخطابة؟!

وهكذا مَن يتولَّى التدريس، وهو لا يُحسِنُ.

كلٌّ هذا من أجل الدنيا، ولن تموت نَفْسٌ حتى تستوفي رِزْقَها وأَجَلَها؛ فلو اتَّقَى الله ﷻ، لَجَاءَهُ رزقُهُ في أيِّ عَمَلٍ كان، فيكون كسبه في هذه الحالة غيرَ مبارَكٍ فيه، وكان الواجب أن يتورَّع، ويقول: أنا لستُ بأهلٍ أن أدرِّسَ هذه العلوم، أو أدرِّسَ هذا الفن من الفنون، ولا يجوزُ أن أتقاضَى عليه مالًا؛ لأني لا أُحسِنُه، والتوفيق للفضائل من الله.

❊ ❊ ❊

التَّوَكُّل

تَوْطِئَة

إنَّ العبدَ إذا عرَفَ ربَّه معرفةً صحيحة بأسمائه وصفاته، فإن ذلك يُورِثُ في نفسه ثقة عظيمة بالله ﷻ؛ فيَرْكَنُ إليه العبد، ويفوِّضُ أمره إليه، ويعلِّقُ قلبه به وحده دون سواه؛ لأن الله تعالى وحده الذي يملك النفع والضر، والعطاء والمنع، والكفاية والنصر.

وبهذا يجتمِعُ شَعَثُ القلب، وتسكُنُ النَّفْس، ويطمئنُّ الإنسان، ويستريح من ألوان المعاناة التي تحصُلُ لغير المتوكِّلين على الله ﷻ.

ومن هنا جاء هذا الحديث عن التوكُّل؛ فأسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه؛ إنه سميع مجيب(١).

* * *

(١) تنبيه: بعد أن جمَعْنا مادَّة ثريَّة في هذا الموضوع من جميع المصادر التي أمكَنَ الوقوف عليها، وقَفْتُ على كتاب «التوكُّل» للدكتور عبد الله الدّميجي حفظه الله.
فوجدتُّه قد أورد عامَّة ما وقَفْتُ عليه في هذا الموضوع، ورتَّبه ترتيبًا حسنًا. وقد استفدتُ من ترتيبه وتنويعه وتقسيماته.

مَعْنَى التَّوَكُّل وَحَقِيقَتُهُ

التوكُّل في اللغة: تقول العرب: وَكَلَ بالله يَكِلُ، وتَوَكَّلَ على الله، وأَوْكَلَ، واتَّكَلَ: إذا استسلَمَ إليه، وتقول: وَكَلَ إليه الأمرَ وَكْلًا ووُكُولًا؛ يعني: سلَّمه وتركَه.

والوكيل: هو الذي يقوم بأمرِ موكِّله، وسُمِّيَ وكيلًا؛ لأن موكِّله قد وكَلَ إليه القيامَ بأمره، فهو موكولٌ إليه الأمرُ.

وقد ورد لفظ «الوكيل» في القرآن مَرَّاتٍ عديدة، وذكَرَ المفسِّرون في معناه أقوالًا:

منها: الحفيظ.

ومنها: الكفيل.

ومنها: الكافي.

وقيل غير ذلك[١].

قال الشِّنْقِيطي: «والمعاني متقارِبة، ومرجعها إلى شيءٍ واحد، وهو أنَّ الوكيل: مَن يُتوكَّلُ عليه؛ فتُفوَّضُ الأمور إليه؛ ليأتي بالخير، ويدفع الشرّ؛ وهذا لا يصحُّ إلّا لله وحده جل وعلا؛ ولهذا حذَّر من اتِّخاذِ وكيل دونه؛ لأنه لا نافع ولا ضارّ، ولا كافيَ إلّا هو وحده جل وعلا»[٢].

والتوكيل: أن تَعتمِدَ على غيرك، وتَجعَلَهُ نائبًا عنك.

---

(١) انظر: «الهداية، إلى بلوغ النهاية» (٢١٣٣/٣)، (٤١٣٥/٦)، و«زاد المسير» (٣٤٩/١).

(٢) «أضواء البيان» (٤٨١/٣).

والتوكُّل: إظهارُ العَجْز، والاعتمادُ على الغير، والاسمُ من ذلك: التُّكْلان؛ يقالُ: توكَّل بالأمر: إذا ضَمِنَ القيام به، يقولُ: أنا أتوكَّلُ لك بهذا، ووَكَّلْتُ أمري إلى فلان؛ أي: أَلْجَأْتُهُ إليه، واعتمَدتُ فيه عليه، وتَوَكَّلْتُ لفلان؛ بمعنى: تولَّيْتُ له؛ يعني: كنتُ وكيلًا له، ويقالُ: وكَّلتُهُ فتوكَّل لي، وتقول: توكَّلْتُ عليه؛ بمعنى: اعتمَدتُّهُ.

والحاصل: أن التوكُّل بمعنى الاعتماد والتفويض، وتوكيلُ الأمر إلى الشخص؛ أي: تفويضُهُ به والاعتمادُ فيه، ووكَّل فلان فلانًا: إذا استكفاه، واعتمَدَ عليه، وفوَّض الأمر إليه، ووَثِقَ به(١).

«والوَكَالَةُ - كما يقول الحافظ ابن القيِّم - يُراد بها أمران:

أحدهما: التوكيل؛ وهو الاستنابة والتفويض.

والثاني: التوكُّل؛ وهو التصرُّف بطريق الإنابة عن الموكِّل.

وهذا من الجانبَيْن؛ فإن الله تبارك وتعالى يُوكِّلُ العبد، ويقيمه في حفظ ما وكَّله فيه، والعبد يوكِّل الرب، ويَعتمِد عليه»(٢).

التوكُّل في الشرع: تنوَّعت عبارات أهل العلم فيه وكَثُرَتْ؛ وذلك لأنه حالٌ من أحوال القَلْبِ يصعُبُ ضبطها وحصرها وتحديدها بحدٍّ دقيق يبيِّن ما يدخُلُ فيها وما يخرُجُ عنها؛ ولذلك تنوَّعت تفسيراتُهم:

فمنهم: مَن فسَّره بلازمه.

ومنهم: مَن فسَّره بجزء معناه.

ومنهم: من فسَّره بثمرته.

ومنهم: مَن فسَّره بسببه وداعيه.

---

(١) انظر: مادَّة (و ك ل)، من: «تهذيب اللغة» (١٠/٣٧١)، و«القاموس المحيط» (١٤/١٠٦٩)، و«تاج العروس» (٣١/٩٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢٦).

إلى غير ذلك مِن أقوالهم.

وهذا يتعلَّق بأمور دقيقة من الركون إلى الأسباب، أو تركِها؛ فيكون خارجًا عن حدِّ التوكُّل؛ فإن الاعتماد على الأسباب: شِرْكٌ بالله ﷻ كما سيأتي، والإعراض عن الأسباب: عجز وضعف وتفريطٌ؛ ولذلك:

فمِن أهل العلم: مَن نظَرَ إلى هذه الحيثيَّة؛ ففسَّره بأمر يعالِجُ هذا المعنى.

ومنهم: مَن فسَّره بما يحصُلُ به.

ومنهم: من فسَّره بأثرِهِ ونتيجته؛ فلاحَظَ هذا المعنى، فذكَرَ ذلك في تعريفه ومعناه.

ومنهم: مَن جعله خالصَ عمَلِ القلب؛ كما قال الإمام أحمد: «التوكُّلُ: عمَلُ القلب»[(١)]؛ بمعنى: أنه ليس من العلوم والإدراكات.

ومنهم: مَن جعله مِن باب العلوم والإدراكات والمعارف؛ فهو عندهم عِلْمُ القلبِ بكفايةِ الربِّ للعبد[(٢)].

قال ابن القيم: «التوكُّلُ يجمع أصلَيْن: عِلْمُ القلبِ وعملُهُ:

أما عِلْمُهُ: فيقينه بكفاية وكيله، وكمالِ قيامِهِ بما وكَلَهُ إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمَلُهُ: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه.

فبهذَيْنِ الأصلَيْنِ يتحقَّق التوكُّل؛ وهما جِمَاعُهُ»[(٣)].

«ومنهم: مَن فسَّره بالسكون، بسكون القلب وخمود حركته؛ فهو انطراح

---

(١) المصدر السابق (٢/١١٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «طريق الهجرتين» (٢/٥٦٠).

القلب عندهم بين يَدَيِ الربِّ؛ كانطراح المَيِّتِ بين يدي الغاسل يقلِّبه كيف يشاء»[١]؛ بمعنى ألَّا يكون له اعتراضٌ على تدبير الربِّ ﷻ وتقديره.

ومنهم: من فسَّره بسببه؛ كما جاء عن ابن عبَّاس ﭭ بأنه الثقةُ باللهِ ﷻ[٢]، وكذا قول مَن قال: بأنه حُسْنُ الظنِّ بالله[٣]، ومَن قال: أنْ يَعلَمَ أنَّ الله هو ثقته[٤].

فهذا مِن قَبِيل السبب؛ لأن التوكُّل لا يمكن أن يحصُلَ إلّا بحسن الظنِّ بمَن وكَّلْتَهُ، فإنْ كنتَ تسيءُ الظن به، فلا يمكن أن توكِّله، وكذلك لا يمكن أن يحصُلَ التوكُّل إلَّا بمن تَثِقُ به، فإذا عُدِمَتِ الثقة وحُسْنُ الظنِّ، فلا محل للتوكُّل.

ومنهم: مَن فسَّره بلازمه؛ كما قال الإمام أحمد: «قطعُ الاسْتِشْراف بالإياس من الخلق»[٥]؛ بمعنى: ألَّا يتطلَّع إلى المخلوقين.

وهذا من لازم التوكُّل؛ فإنَّ مَن ادَّعَى التوكُّل؛ وزعم أنَّه حقَّقه، لَزِمَهُ من ذلك ألَّا يتطلَّع قلبه إلى الخلق، فيرجوهم.

وكذا قولُ مَن قال: «قطعُ علائق القلب بغير الله ﷻ»[٦]، وقولُ الآخر: «التبرئة مِن حَوْلِكَ وقوَّتِك، وحولِ مِثْلِكَ، وقُوَّةِ مِثْلِك»[٧]، وقولُ الآخر: «هو التعلُّقُ بالله تعالى في كل حال»[٨].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١١٤)؛ بتصرف، وانظر في نقد هذه المقولة: «جامع المسائل» لابن تيمية (المجموعة السادسة/ص٩).

(٢) «زاد المسير» (١/٤٥٠).

(٣) «شعب الإيمان» (١٢١٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (١٨)، عن الحسن.

(٥) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥/٣٠٨).

(٦) «مدارج السالكين» (٢/١١٥).

(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٢١).

(٨) «الرسالة القشيرية» (١/٣٠١)، و«مدارج السالكين» (٢/١١٥).

ومنهم: مَن فسَّره ببعض معناه؛ كما قال بعضهم: «هو قطع النظر عن الأسباب، بعد تهيئة الأسباب»[١].

وهذا في الواقع جزءٌ مِن معنى التوكُّل؛ فلا بدَّ من أمورٍ أُخرى؛ كحُسْنِ الظنِّ، واليقين، واعتماد القلب على الله ﷻ، وما إلى ذلك من الأمور.

وقيل: «هو: صِدْقُ الفاقة والافتقار»[٢]؛ يعني: إلى الله ﷻ.

وقيل: «هو الثقة بما في يد الله، واليأسُ عمَّا في أَيْدِي الناس»[٣].

وقيل: «هو الاعتماد على الله»[٤].

وقيل: «هو قطع علائق القلب بغير الله»[٥].

ويقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: «هو: إسناد العبد أمره إلى الله تعالى، وحده لا شريك له، في جميع أموره؛ الدينيَّة والدنيوية»[٦].

ومنهم: مَن فسَّره بنتيجته وثَمَرته، وما يؤثِّره التوكُّل ويُنتِجُه؛ كقول الحسن: «التوكُّل: الرضا عن الله»[٧]، وقولِ شَقِيق: «طُمَأْنينة القلب بموعود الله»[٨]، وقولِ بعضهم: «الرضا بالمقدور»[٩].

يقول بِشْر الحافي: «يقول أحدهم: توكَّلتُ على الله، يَكْذِب على الله؛ لو توكَّلَ على الله، رَضِيَ بما يفعل الله»[١٠].

---

(١) «فتح الباري» (٢/٤٤٩)، و«عمدة القاري» (١/١٣٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٨).

(٣) «الرسالة القشيرية» (١/٣٠٥).

(٤) «حلية الأولياء» (١٠/١٠٣).

(٥) تقدم قريبًا.

(٦) «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (١٠/١٥٧).

(٧) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٧).

(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٥).

(٩) «مدارج السالكين» (٢/١١٥).

(١٠) المصدر السابق.

وسُئِل يحيي بن معاذ: متى يكون الرجل متوكِّلًا؟ فقال: «إذا رَضِيَ بالله تعالى وكيلًا»[(١)].

وقال له رجل: متى أدخُلُ حانوت التوكُّل، وألبس رداء الزاهدين، وأَقْعُد معهم؟ قال: إذا صِرْتَ مِن رياضتك لنفسك إلى حدٍّ لو قطَعَ الله الرزق عنك ثلاثة أيام، لم تضعُفْ نفسُك»[(٢)].

فهذا في الواقع كله نتيجة للتوكُّل وثمرة له: أن يرضى الإنسان بما قدَّره الله ﷻ عليه؛ فلا يَجزَع، ولا يعترِض على أقدار الله تبارك وتعالى.

قال ابن القيِّم: «من المقامات: ما يكون جامعًا لمقامَيْن، ومنها: ما يكون جامعًا لأكثَرَ من ذلك، ومنها: ما يَندرِجُ فيه جميع المقامات؛ فلا يستحِقُّ صاحبُهُ اسمه إلّا عند استجماع جميع المقامات فيه»[(٣)].

وقال: «والتوكُّلُ: جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا؛ لا يُتصوَّرُ وجودُهُ بدونها»[(٤)].

وقال أيضًا: «والتوكُّل: معنًى يَلتئِمُ من أصلَيْن: مِن الثقة، والاعتماد»[(٥)].

«وحقيقة الأمر: أن التوكُّل: حال مركَّبة من مجموعة أمور، لا تَتِمُّ حقيقة التوكُّل إلّا بها:

فأوَّل ذلك: معرفة بالربِّ وصفاتِه؛ مِن قدرته وكفايته وقيوميَّته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته؛ وهذه المعرِفة أوَّل مقام التوكُّل.

---

(١) «الرسالة القشيرية» (١/٢٩٩).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢).

(٣) المصدر السابق (١/١٣٦).

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق (١/٧٥).

ثانيًا: إثبات للأسباب والمسبَّبات، فلا يُعرِضُ الإنسان عن ذلك؛ فإنَّ مَن نفاها، فتوكُّلُهُ مدخول.

ثالثًا: رسوخ القلب في مقام توحيد التوكُّل؛ فإنه لا يستقيم توكُّل العبد حتى يصح له التوحيد، وعلى قَدْرِ تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل»[(١)].

وإذا ضَعُفَ هذا التوحيد، ضَعُفَ التوكُّل على الله ﷻ، ومتى التفَتَ القلب إلى غير الله تبارك وتعالى، كان نقصًا في توحيد العبد.

وهذه أمورٌ قد لا يُدرِكُها الإنسان إلّا في أوقات الحاجات وأوقات الكروب، وفي أوقات الخوف والشدائد؛ فيجد قلبه أحيانًا فارغًا، لا مَحَلَّ للتوكُّل على الله ﷻ فيه، فيَرتبِط ذلك القلب كل الارتباط بهؤلاء المخلوقين، فيرى أنَّ مصيره في أيديهم، وأنَّ أَزِمَّةَ الأمور إليهم، وأن مستقبله مرتبِطٌ بهم غاية الارتباط، وهذا يكون للمريض مع الطبيب، وللمريض مع الدواء، وللمُزارِع مع مزرعته، وللتاجر مع ضَيْعَته وتجارته، ويكون أيضًا للموظَّف مع رئيسه، ونحو ذلك.

«**رابعًا**: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه وسكونه إليه.

خامسًا: حُسْنُ الظنِّ بالله ﷻ؛ فعلى قدر حُسْنِ ظنِّك به يكون توكُّلك عليه.

سادسًا: استسلام القلب له.

سابعًا: التفويض.

ثامنًا: الرضا بما يقدِّره عليه؛ فمن لم يَرْضَ، فليس بمتوكِّل حقيقةً، والرضا أجلُّ ثمرات التوكُّل وأعظم فوائده؛ وذلك أنَّ مَن توكَّل على الله ﷻ حق التوكُّل، فإنه يرضى بما يَصنَعُ الله ﷻ به»[(٢)].

قال الحافظ ابن رجب: «وحقيقةُ التوكُّل: هو صدقُ اعتماد القلب على

---

(١) المصدر السابق (١١٨/٢ - ١٢٠)؛ باختصار وتصرُّف.
(٢) المصدر السابق (١٢١/٢ - ١٢٢)؛ باختصار وتصرُّف.

الله في استجلاب المصالح، ودفع المَضَارِّ، مِن أمور الدنيا والآخرة كلِّها، وكِلَةُ الأمور كلها إليه، وتحقيقُ الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يَضُرُّ ولا ينفع سواه»(١).

قال البيهقي: «جملة التوكُّل: تفويضُ الأمر إلى الله، والثقة به»(٢).

وقال أبو إسماعيل الأنصاري: «التوكُّل: كِلَةُ الأمر إلى مالكه، والتعويلُ على وَكَالته»(٣).

وسُئِل أبو بكر الواسطي عن ماهيَّة التوكُّل؟ فقال: «الصبر على طوارق المِحَن، ثم التفويض، ثم التسليم، ثم الرضا، ثم الثقة»(٤).

وقال الزَّبِيدي: «هو الثقة بما عند الله، واليأسُ مما في أيدي الناس»(٥).

وأحسَنُ مِن هذا: ما ذكره ابن القيِّم في معناه، حيث قال: «هو حالٌ للقلبِ ينشأ عن معرفتِهِ بالله، والإيمانِ بتفرُّده بالخلقِ والتدبير، والضُّرِّ والنفع، والعطاءِ والمنع، وأنه ما شاء كان، وإنْ لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإنْ شاءه الناس، فيُوجِبُ له هذا اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به، وثقة به، ويقينًا بكفايته؛ لما توكَّل عليه فيه»(٦).

والله سبحانه قد أمر العبدَ بأمر، وضَمِنَ له ضمانًا، فإنْ قام بأمره بالنصح والصِّدْق، والإخلاص والاجتهاد، قام الله سبحانه له بما ضَمِنَهُ له من الرِّزْق والكفاية، والنصر وقضاء الحوائج؛ فإنه سبحانه ضَمِنَ الرِّزْقَ لمن عبَدَهُ،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٨١٢).

(٢) «شعب الإيمان» (١٠٤/٣).

(٣) «منازل السائرين» (ص٤٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٨).

(٥) «تاج العروس» (٩٨/٣١).

(٦) «مدارج السالكين» (٨٢/١).

والنصرَ لمن توكَّل عليه واستنصَرَ به، والكفايةَ لمن كان هو هَمَّهُ ومراده، والمغفرةَ لمن استغفرَهُ، وقضاء الحوائج لمن صدَقَهُ في طلبها، ووَثِقَ به، وقَوِيَ رجاؤُهُ وطمعُهُ في فضله وجُوده: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الشورى: ٣٦].

وأجمعُ ما رأيتُ في تفسيرِه: هو ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي؛ يقول: «وحقيقةُ التوكُّل على الله: أن يَعلَمَ العبدُ: أن الأمر كلَّه لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافعُ الضارُّ، المُعطِي المانع، وأنه لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله، فبعد هذا العلم: يعتمِدُ بقلبه على ربِّه في جلبِ مصالحِ دينه ودنياه، وفي دفعِ المضارِّ، ويَثِقُ غايةَ الوثوق بربِّه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذلٌ جُهْدَهُ في فعل الأسباب النافعة؛ فمتى استدام العبد هذا العلم، وهذا الاعتماد والثقة، فهو المتوكِّلُ على الله حقيقة، ولْيُبْشِرْ بكفاية الله له، ووعده للمتوكِّلين»[(١)].

وقال القرطبي: «التوكُّل: الاعتماد على الله، مع إظهار العجز»[(٢)].

وبهذا نعلم: أن المتوكِّل على الله ﷻ هو الذي يعلم أنَّ الله كافِلٌ رزقَهُ وأمره؛ فيَرْكَنُ إليه وحده، ولا يتوكَّل على غيره في أمرٍ من أموره.

فهو يعلم: «أن الله على كل شيء قدير، وأنه المتفرِّد بالاختيار والتدبير، وأن تدبيرَهُ لعبده خير من تدبير العبد لنفسه، وأنه أعلم بمصلحته من العبد، وأقدر على جلبها وتحصيلها منه، وأنصح للعبد منه بنفسه، وأرحم منه بنفسه، وأَبَرُّ به منه بنفسه، ويعلم مع ذلك: أنه لا يستطيع أن يتقدَّمَ بين يَدَيْ تدبيرِهِ خطوةً واحدة، ولا يتأخَّرَ عن تدبيره له خطوةً واحدة؛ فلا متقدَّم له بين يدي قضائه وقدرِهِ ولا متأخَّر، فألْقَى نَفْسَهُ بين يديه، وسلَّم الأمر كله إليه، وانطرَحَ

---

(١) «القول السديد، شرح كتاب التوحيد» (ص ١٢٠ط. مجموعة التحف النفائس).
(٢) «تفسير القرطبي» (٥/٣٨٥).

بين يديه انطراحَ عبدٍ مملوكٍ ضعيفٍ بين يدي مَلِك عزيز، له التصرُّف في عبده بكل ما يشاء، وليس للعبد التصرف فيه بوجهٍ من الوجوه؛ فاستراح حينئذ من الهموم والغموم، والأنكاد والحسرات، وحمَّل مصالحه وحوائجه مَن لا يبالي بحملها، ولا يُثقِلُهُ ذلك، ولا يَكترِثُ بها، فتولاها دونه، وأراه لطفه وبِرَّهُ ورحمته وإحسانه؛ مِن غير تعبٍ من العبد ولا نصَبٍ ولا اهتمامٍ منه؛ لأنه قد صرَفَ اهتمامه كله إليه، وجعله وحده هَمَّه، فصرَفَ عنه اهتمامه بحوائجه ومصالح دنياه، وفَرَّغَ قلبه منها»[١].

وينبغي للعاقل إذا عرَفَ هذه الحقيقة: أن يَعرِضَ نفسه عليها، فينظر أحقَّق التوكُّل على الله ﷻ حقيقةً أم لا؟

والمتوكِّلون هم الذين يتوكَّلون على الله، ويَعتمِدون عليه، مع إظهار العجز، ويفوِّضون جميع أمورهم إليه، ويثقون به، ويُوقِنون بأنَّ قضاءَهُ ماضٍ، ويتَّبِعون سنة نبيه ﷺ في السَّعْيِ فيما لا بد منه من الأسباب؛ مِن مَطْعَم، ومَشْرَب، وتحرُّزٍ من عدوٍّ، وإعداد الأسلحة، واستعمال ما تقتضيه سُنَّة الله تعالى المعتادة، ولا يطمئنُّون إلى شيء من تلك الأسباب، ولا يلتفتون إليها بالقلوب، ولا يتعاطَوْنها إلَّا بحكمِ الأمر؛ فإنَّها لا تَجلِب نفعًا، ولا تَدفَع ضرًّا[٢].

ونحن نعلم: أن رسول الله ﷺ أعظم الناس توكُّلًا على الله ﷻ، فإذا ذكَرْتَ المتوكِّلين وحالهم، فإن أوَّل ما تَتَّجِهُ الأنظار إليه هو حال رسول الله ﷺ، ومِن أسمائه المتوكِّلُ[٣]؛ وذلك لكمال توكُّله، وإنما قيل له ذلك؛ «لقناعتِهِ باليسير، والصبرِ على ما كان يَكْرَه»[٤].

---

(١) «الفوائد» (١٦٥ - ١٦٦)؛ بتصرُّف.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٥/٢٩١)، و«فتح الباري» (١١/٤١٧ - ٤١٨).

(٣) كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في صفة النبي ﷺ في التوراة: «سَمَّيْتُكَ المُتَوَكِّلَ»؛ أخرجه البخاري (٢١٢٥).

(٤) «فتح الباري» (٨/٤٦٠).

وكان من دعائه ﷺ - كما في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه -: «اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ»(١).

* * *

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

الفُرُوقَاتُ فِي بَابِ التّوَكّل

وإنما ذُكِرَ ذلك؛ لما قد يقع من الالتباس والاشتباه بين التوكُّلِ الحقيقيِّ وبعضِ الأمور الأخرى.

أولًا: الفرق بين التوكُّل والإضاعة:

فقد يَلتبِس علينا التوكُّلُ والتفويضُ إلى الله ﷻ بالإضاعة؛ فيكونُ العبد مضيِّعًا لحظِّه؛ ظنًّا منه أن ذلك من التفويض والتوكُّل، وإنما هو من الإضاعة والإهمال؛ كما سيتضح فيما سيأتي بعده.

ثانيًا: الفرق بين التوكُّل والرَّاحة:

فقد يَلتبِس التوكُّل بالراحة، والواقع: أن المتوكِّل مجتهد، مُجِدٌّ في تحصيل الأسباب والقيام بما أمره الله ﷻ به؛ فهو يَنصَبُ ويَتعَبُ في نيلِ الزُّلْفَى عند الله ﷻ؛ لأنَّ التوكُّل - كما سيأتي في ذكر متعلَّقاته - يكون مما يتصِلُ بأمور الآخرة والنجاة، ويكون أيضًا مما يتعلَّق بأمور المعاش في هذه الدنيا.

فالمتوكِّل ممتثِلٌ لقول النبي ﷺ: «فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»(١)، لا يَتهافَتُ على الدنيا، ولكنه يبذُلُ السبب، فيعمل لآخرته كأنه سيموت غدًا، ويعمل لدنياه كأنه سيعيش أبدًا.

وأمَّا مَن التبَسَ عليه التوكُّل بالرَّاحة، فإنه يخلُدُ إلى الأرض، ويترُكُ الجِدَّ والعمل في سعي الآخرة والدنيا، ثم بعد ذلك ينتظِرُ ما يحصُلُ به المطلوب!

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وصحَّحه ابن الجارود (٥٥٦)، والحاكم (٣٢٥/٤)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٢٦٠٧).

ثالثًا: الفرق بين الركون إلى الأسباب وتعطيلها:

فلربَّما اشتبَهَ خلع الأسباب بتعطيلها في باب التوكُّل، وخلعُ الأسباب: أن تُخلَعَ من القلب، فلا يُعتمَدَ عليها، ولا يُركَنَ إليها؛ وهذا حقيقة التوحيد؛ فالركونُ إلى الأسباب: شِرْك، لكنَّ ترك الأسباب: نقصٌ في العقل؛ فلا يترُكُ العمل والأسباب بدعوى أنَّه محقِّق للتوكُّل[(١)].

رابعًا: الفرق بين التوكُّل والعجز:

فالتوكُّلُ: عمَلُ القلبِ وعبوديَّته؛ اعتمادًا على الله، وثقةً به، والتجاءً إليه، وتفويضًا إليه، ورضًا بما يقضيه للعبد؛ لعلمِهِ بكفايته سبحانه، وحسنِ تدبيرِهِ لعبده: إذا فوَّض إليه أمره، مع قيامِهِ بالأسباب المأمور بها، واجتهادِهِ في تحصيلها.

وقد كان النبي ﷺ أعظم المتوكِّلين، وقد ظاهَرَ بين دِرْعَيْنِ في يوم أُحُد[(٢)]، ولَبِسَ ﷺ المِغْفَرَ على رأسه، ودخل مكة وعلى رأسه المِغْفَر[(٣)]، واختفى في الغار ثلاثة أيَّام لـمَّا خاف المشركين[(٤)]؛ حيث كانوا في طَلَبِه؛ فكان متوكِّلًا في السبب، لا متوكِّلًا على السبب.

«وأمَّا العاجز، فهو معطِّل؛ إمَّا أن يعطِّل السبب عجزًا منه، ويزعُمَ أن ذلك توكُّل، وإمَّا أن يقوم بالسبب ناظرًا إليه، معتمِدًا عليه، غافلًا عن المسبِّب، معرِضًا عنه»[(٥)].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥٩٠) عن السائب بن يزيد، عن رجل قد أسماه، وابن ماجه (٢٨٠٦) عن السائب بن يزيد. وصحح إسناده البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٣/١٦٥)، والألباني في «صحيح أبي داود» (٧/٣٣٩)، وشعيب الأرنؤوط في التعليق على «المسند» (١٥٧٢٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧)؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٠٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) «الروح» لابن القيم (٢/٧٤٧)؛ بتصرُّف.

خامسًا: الفرق بين الثقةِ بالله ﷻ والغرورِ والعَجْز:

فالمتوكِّل الواثق: يفعل ما أمره الله ﷻ به، ويَثِقُ بالله في طلوع ثَمَرته؛ كالزارع الذي يَزرَع، ويُحسِنُ الظنَّ بربِّه تبارك وتعالى، ويَعمَل، ويصلِّي، ويَجتهِد، ويَثِقُ بربه تبارك وتعالى، وأنَّ الله لا يُضِيع أَجْرَ المحسنين.

وأما المغترُّ العاجز: فهو مفرِّط في العمل، وعند نفسه أنه واثقٌ بالله تبارك وتعالى، وأن حاله أكمل من حال أولئك الذين يعملون ويتعاطَوْنَ الأسباب[١].

سادسًا: الفرق بين الطمأنينةِ والسكونِ إلى الله ﷻ، والسكونِ والطمأنينة إلى المعلومِ من الأقوات والأرزاقِ والأشخاصِ وغير ذلك[٢].

فربَّما ادَّعَى العبد: أنه متوكِّل على الله ﷻ، وأنه يَثِقُ بما عنده، وأنه راضٍ بما قسَمَ الله له، وأن ذلك هو بَرْدُ اليقين، ولكنه في الحقيقة مطمئِنٌّ إلى مؤسَّسته أو دُكَّانه، ولو أنه قُطِعَ عنه ذلك بكَسَادٍ في كسبه، أو آفةٍ في رزقه، لَجَزِعَ أشدَّ الجزَع.

قال ابن القيِّم: «وأكثرُ المتوكِّلين: سكونُهم وطمأنينتهم إلى المعلوم، وهم يظنُّون أنه إلى الله، وعلامةُ ذلك: أنه متى انقطَعَ معلوم أحدهم، حضره همُّه وبثُّه وخوفه؛ فعُلِمَ أن طمأنينته وسكونه لم يكن إلى الله»[٣].

سابعًا: الفرقُ بين التوكُّل والعَزْمِ على التوكُّل:

فقد يَلتبِس على الإنسان التوكُّل على الله والرِّضا عنه بكلِّ ما يفعله به؛ سواءٌ كان ذلك مما يحبه العبد أو يكرهه، مع العزمِ على ذلك أو حديثِ النفس به؛ فقد يقول الإنسان: أنا متوكِّلٌ وراضٍ بما يَقسِمُ الله ﷻ لي، ولو وقَعَ له ما يَكرَهُ، لَتَغَيَّرَتْ حاله، فيكون ذلك من قَبِيل حديث النَّفْس، وليس له حقيقة في

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٤)، و«الروح» (٢/٧٤٨).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٤).

(٣) المصدر السابق.

الواقع[١]؛ فكثيرٌ من الناس قد يَعرِفُ التوكُّل بتفاصيلِه ومعانيه دراسةً وفهمًا وعلمًا، ولكنَّ الحقيقة والامتثال والتطبيق شيءٌ آخر.

* * *

(١) المصدر السابق.

مَنزِلَة التَّوَكّل

يمكن بيان هذا الأمر من جهات متعدِّدة، تظهر مِن خلالها قيمةُ التوكُّلِ وشِدَّةُ الحاجة إليه.

فأوَّل ذلك: هو ما يقترِن به التوكُّل ويرتبِطُ به من الأمورِ العِظَام؛ كالإسلامِ والإيمانِ والإحسان، والهدايةِ والتقوى لله جل جلاله، وما إلى ذلك من الأمور المهمَّة.

أما وجه اتصالِهِ بالإيمان: فذلك أنَّ التوكُّل شرط له، ولازمٌ من لوازمِه؛ فهذا موسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ [يونس: ٨٤]؛ فجعَلَ ذلك لازمًا من لوازم الإيمان، بل كأنه جعله شرطًا مِن شروطه.

وفي قصة بني إسرائيل لما أُمِرُوا بدخول القرية المقدَّسة التي أمَرَهم الله ﷻ بدخولها، قال الله ﷻ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن القيِّم: «وشرَطَ في إيمانهم أن يكونوا متوكِّلين، والمعلَّق على الشرط يُعْدَمُ عند عدمِه؛ وهذا يدلُّ على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكُّل؛ فمَن لا توكُّل له لا إيمان له»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ [الملك: ٢٩]؛ فربَط بين

---

(١) «مدارج السالكين» (١٢٩/٢).

الإيمان والتوكُّل، ولا يَخفَى أن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تقتضِي الإخلاص والتوكُّل.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]؛ أي: على اللهِ وحدَهُ دون ما سواه.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. قال ابن القيم: «فذِكْرُ اسم الإيمان ها هنا، دون سائر أسمائهم: دليل على استدعاء الإيمان للتوكُّل، وأن قوَّة التوكل وضعفه بحَسَب قوة الإيمان وضعفه، وكلَّما قَوِيَ إيمان العبد، كان توكُّله أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمان، ضَعُفَ التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليلٌ على ضَعْفِ الإيمان ولا بُدَّ»(١).

وقد جاءت عبارات كثيرة عن السلف تَدُلُّ على هذا المعنى:

ومِنْ ذلك: ما قاله ابن عبَّاس، وسعيد بن جُبَيْر، وغيرهما: «التوكُّل على الله جِمَاعُ الإيمان»(٢).

وكان سعيد بن جُبَيْر يدعو: «اللهمَّ، إني أسألك صِدْقَ التوكُّل عليك، وحُسْنَ الظنِّ بك»(٣). وقال: «التوكُّل على الله نصف الإيمان»(٤).

وقال سهل التُّسْتَري: «مَن طعَنَ في الاكتساب، فقد طعَنَ في السُّنَّة، ومَن طعَنَ في التوكُّل، فقد طعَنَ في الإيمان»(٥).

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٥٦ - ٥٥٧).

(٢) أخرجه عن ابن عباس: البيهقي في «الشعب» (١٢٦٣)، وعن سعيد: أحمد في «الزهد» (ص ١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٧٤)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٦٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٧٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥/١٦٥٦).

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٩٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣١)؛ واللفظ له.

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «التوكُّل على الله مِن أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحَسَبِ قوَّة توكُّل العبد على الله يَقوَى إيمانه، ويَتِمُّ توحيده، والعبد مضطرٌّ إلى التوكُّل على الله والاستعانة به، في كل ما يريد فعله أو تركه، من أمورِ دِينه أو دنياه»(١).

وبهذا نعلم: أنَّ التوكُّل على الله ﷻ من أعلى المقامات، ومن أهمِّ المهمَّات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطَحِبًا له في كل شؤونه وحالاته.

ونحن حينما نقول: إن التوكُّل جزءٌ من الإيمان - في الوقت الذي نقول فيه: إنَّه من مقتضَيَاته أو من شروطه - فإنَّ ذلك لا مناقضةَ فيه؛ وذلك أننا إذا نظرنا إلى حقيقة الإيمان؛ فإن الإيمان قولٌ وعملٌ، والتوكُّلُ يدخُلُ في قول القلب، ويدخُلُ في عمل القلب؛ وذلك إذا أُفرِدَ لفظ الإيمان، وأمَّا إذا قُرِنَ التوكُّل بالإيمان، فإنه يكون قَسِيمًا له؛ فيكون التوكُّل بهذا الاعتبار من مقتضيات الإيمان أو من شروطه، والشيء قد يُنظَرَ إليه باعتبارَيْنِ أو أكثر، فيُحكَمُ عليه بهذه الاعتبارات؛ فمع كلِّ اعتبارٍ يكون هناك حكمٌ يناسبه.

ولتوضيح ذلك نقول: مِن الفقهاء: مَن يذكُرُ النيَّة على أنها مِن شروط الصلاة، ومنهم: مَن يذكُرُها على أنها مِن الأركان.

والواقع: أنه لا منافاةَ بين هذا وهذا؛ فالنية إذا نظَرْتَ إليها باعتبار أنه لا يصحُّ الدخول في الصلاة إلّا بعد الإتيان بها؛ فهي شرطٌ بهذا الاعتبار، وإذا نظَرْتَ إلى أنَّ النية تُستَصْحَبَ في سائر الصلاة؛ مِن أوَّلها إلى آخرها، فهي جزءٌ لا يتجزَّأ منها؛ فهي بهذا الاعتبار ركنٌ من أركانها.

وأمَّا ارتباط التوكُّل بالإسلام: فكما جاء أيضًا من قول موسى ؑ: ﴿يَٰقَوۡمِ

(١) «القول السديد» (ص ١٢٠ط. مجموعة التحف النفائس).

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤]؛ فجعَلَ دليل صحة الإسلام التوكُّل؛ كما قال الحافظ ابن القيِّم[١].

والآيات والنصوص الدالَّة على هذا المعنى كثيرة لا تخفى.

وأما عَلاقَتُهُ بالإحسان: فيمكن أن يُؤخَذَ ذلك من قول الله تبارك وتعالى في صفة أهل الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

قال الشيخ سُلَيْمان بن عبد الله: «في الآية: وصفُ المؤمنين حقًّا بثلاثِ مقاماتٍ مِن مقامات الإحسان، وهي: الخَوْف، وزيادة الإيمان، والتوكُّل على الله وحده...»[٢].

فهذه الصفات التي ذكَرَها لا تكون لكلِّ أهل الإيمان، وإنما تكون للمخصوصين منهم مِن أهل الإحسان.

وأما اقتران التوكُّل مع الهداية: فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

يقول ابن القيِّم: «وأمَّا الجمع بين التوكُّل والهداية، ففي مثل قول الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال الله تعالى لنبيه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ فأمَرَ رسوله بالتوكُّل عليه، وعقَّب هذا الأمر بما هو موجِبٌ للتوكُّل، مصحِّح له، مستدعٍ لثبوته وتحقُّقه، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾؛ فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكُّل على الله، والاكتفاء به... كما قالت الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾، فعَجِبوا مِن تركِهِم التوكُّل على الله وقد هداهم، وأقرُّوا أن ذلك لا يكون أبدًا.

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٥٧).

(٢) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص٤٣٠).

وهذا دليل على أن الهداية والتوكُّل متلازمان.

فصاحبُ الحقِّ لعلمِهِ بالحقِّ وليقينه بأن الله ولي الحق وناصره، مضطرٌّ إلى توكُّله على الله، لا يَجِدُ بُدًّا من توكُّله؛ فإن التوكل يجمع أصلَيْن: عِلْمَ القلبِ وعمَلَه».

إلى أن قال: «فظهَرَ أن التوكُّل أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأنَّ منزلته منها منزلةُ الجَسَدِ من الرأس»(١).

وقال: «والمقصود: أن القلب متى كان على الحق، كان أعظَمَ لطُمَأْنينتِهِ ووثوقِهِ بأن الله وليُّه وناصره، وسكونِهِ إليه؛ فما له ألَّا يتوكَّل على ربه؟! وإذا كان على الباطل علمًا وعملًا أو أحدِهما، لم يكن مطمئنًّا واثقًا بربِّه؛ فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإن الله سبحانه لا يتولَّى الباطل، ولا ينصُرُه، ولا يُنسَبُ إليه بوجه؛ فهو منقطِعُ النَّسَب إليه بالكليَّة؛ فإنه سبحانه هو الحق، وقوله الحق، ودِينه الحق، ووَعْدُه حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق، ليس في أفعاله شيءٌ باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل؛ كما أن أقواله سبحانه كذلك، فلما كان الباطل لا يتعلَّق به سبحانه، وكان منقطِعًا عن ربه، لم يكنِ الله وليَّه، ولا ناصرَهُ، ولا وكيلَه.

فتدبَّر هذا السر العظيم في اقتران التوكُّل والكفاية بالحق والهدى، وارتباط أحدهما بالآخر»(٢).

وقال السعدي في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]: «أي: أيُّ شيءٍ يمنعنا من التوكُّل على الله، والحالُ أننا على الحق والهدى؟! ومَن كان على الحق والهدى، فإنَّ هداه يُوجِبُ له تمام التوكُّل، وكذلك ما يُعلَمُ مِن أنَّ الله متكفِّل بمعونة المهتدي، وكفايته،

---

(١) «طريق الهجرتَيْن» (٢/٥٦٢).

(٢) المصدر السابق (٢/٥٦١).

يدعو إلى ذلك، بخلاف مَن لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامِنًا على الله؛ فإنَّ حاله مناقِضةٌ لحال المتوكِّل»(١).

وقال ابن القيِّم: «فالعبدُ آفتُه: إمَّا مِن عدم الهداية، وإمَّا من عدم التوكُّل؛ فإذا جمع التوكُّل إلى الهداية، فقد جمع الإيمان كلَّه»(٢).

وأما اقتران التوكُّل مع التقوى(٣): فكما قال الله ﷻ في أول الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]؛ ولا شك أنَّ هؤلاء الكفَّار والمنافقين سيُمارِسونَ ضغوطًا كبيرة عليه، ويتسبَّبون له في أنواع الأذى، ويَحِيكُونَ ضدَّه المؤامرات، فأمره بعد ذلك مباشرة بالتوكُّل، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]؛ فإنك إذا كنت على أمر اللهِ ﷻ وعلى طاعته، وقد اتَّبعْتَ وحي الله الذي أنزَلَهُ إليك، فإنه لا يضرُّك كيد الأشرار، وفجور الفجار، ومهما تَمالَأَ عليك ظَلَمَةُ الإنس والجن، فإنهم لا يَصِلُونَ إليك بالضرر، إنما هو شيءٌ من الأذى العابر، ثم يزول بعد ذلك، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢]؛ أي: كافيه، فجزاءُ التوكُّل هو الكفاية؛ وهذا هو مقصودُ العبدِ مِن توكُّله على الله تبارك وتعالى.

وأما اقترانُ التوكُّل مع الدعاء: فقد جاء ذلك في دعاء إبراهيم ﷺ والذين آمنوا معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤ - ٥]؛ فلا بدَّ للعبد أن يفوِّض أمره إلى الله ﷻ قبل أن يتوجَّه إليه بالدعاء؛ وذلك لأنه يَعلَمُ أن الله ﷻ يملك أَزِمَّةَ الأمور، وأنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن سُؤْلَهُ ومطلوبه

(١) «تفسير السعدي» (ص٨٤٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢٧).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٥٧ - ٥٦٣).

وحاجته إنما هي بيده؛ فينبغي أن يتوكَّل عليه، وأن يَثِقَ بما عنده، وأن يَركَنَ إليه، وأن يفوِّضَ كلَّ أموره إليه.

وجاء ذلك أيضًا في دعاء شُعَيْبٍ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال قومُ موسى عليه السلام: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

وجاء في دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ؛ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

وهذا الذي ذكره النبيُّ ﷺ مناسِبٌ غاية المناسبة لهذا المذكور بعده.

وأما اقترانُ التوكُّل مع الصَّبْر: فقد جاء ذلك في عدَّة آيات، ووجهُ ذلك ظاهر؛ وذلك أن الإنسان لا يمكِنُ أن يتصبَّر إلّا إذا كان يَركَنُ إلى الله ﷻ، ويَثِقُ به، ويفوِّض أموره إليه؛ وإلا فإن الإنسان سَرْعانَ ما ينقطِع، ويفتقِر، ويتخلَّف عنه الصبر أحوجَ ما يكون إليه؛ والله ﷻ يقول: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١]، إلى أن قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١١ - ١٢]؛ فإنهم لا يستطيعون تحقيق هذا الصبر إلّا بتحقيق التوكُّل على الله تعالى، والله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١ - ٤٢].

ففرقٌ بين مَن أظهَرَ التجلُّد والتصبُّر مِن أجلِ دفعِ الشماتة، أو مِن أجل أن

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠)؛ واللفظ له، ومسلم (٧٦٩)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يقول الناس عنه: إنه صابر، ومَن كان صبره لثقتِهِ بربِّه، وتفويضِه لله تبارك وتعالى؛ فهذا الصبر هو الصبر الذي يُحمَد، والذي يَنفَع صاحبه، والذي يعقُبُهُ الظَّفَر والفرج بإذن الله.

وجاء ذلك أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

يقول الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي: «صَبْرُهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحارَبةَ العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكُّلُهم يقتضي شدَّة اعتمادهم على الله، وحُسْنَ ظنِّهم به أن يحقِّق ما عزموا عليه من الأعمال ويكمِّلها، ونَصَّ على التوكُّل وإن كان داخلًا في الصبر؛ لأنه يُحتاجُ إليه في كل فعلٍ وتركٍ مأمورٍ به، ولا يتم إلّا به»(١).

وأما اقتران التوكُّل مع العبادة: فقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّ المراد بالاستعانة هنا التوكُّل، وهي طلَبُ العون من الله، وإسنادُ الأمر إليه، وتفويضُ الحاجات إلى مَن يَملِكها، ويملك النفع والضرّ.

وجاء ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقولِه سبحانه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۞ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨]؛ فقرَنَ بين التوكُّل والتبتُّل؛ وهو العبادة أو الانقطاع للعبادة.

وكذلك في قوله تعالى حكايةً عن شُعَيْبٍ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص١٣٢٢).

وقولِه حكايةً عن الخليل ﷺ والذين معه: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقولِه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وكذا في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فهذه المواطن جمَعَتْ بين هذَيْنِ الأصلَيْن: التوكُّلِ والعبادة؛ فالتوكُّلُ كما يقول الفُضَيْل بن عياض: «قِوَامُ العبادة»[١]، وهو الغاية القصوى منها؛ كما يقول وهب بن منبِّه[٢].

والعبادةُ هي غايةُ العبادِ التي خُلِقُوا مِن أجلِها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والاستعانةُ والتوكُّلُ هما وسيلتهم إلى ذلك.

قال ابن القيِّم: «فإن العبد لا بُدَّ له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصِّلة إلى تلك الغاية؛ فأشرَفُ غاياته التي لا غايةَ له أجلُّ منها: عبادة ربِّه، والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتَّة: التوكُّل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلَّا بهذه الوسيلة؛ فهذه أشرَفُ الغايات، وتلك أشرَفُ الوسائل»[٣].

وقال شيخ الإسلام: «تأمَّلْتُ أنفعَ الدعاء، فإذا هو سؤال العَوْنِ على مرضاته، ثم رأيتُهُ في الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[٤].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٦٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٥٨).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢/٥٥٩).

(٤) «المستدرَك على مجموع الفتاوى» (١/١٧٥)، و«مدارج السالكين» (١/٧٨).

وهو الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ لمعاذ بن جَبَل ﷺ؛ فقال: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ، أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[١].

فالله ﷻ: «لم يأمر بالتوكُّل فقطْ، بل أمَرَ مع التوكُّل بعبادته وتقواه التي تتضمَّن فِعْلَ ما أمر، وتَرْكَ ما حذَّر؛ فمَن ظنَّ أنَّه يُرضِي ربَّه بالتوكُّل بدون فعل ما أُمِرَ به، كان ضالًّا، كما أنَّ مَن ظنَّ أنه يقوم بما يُرضِي الله عليه دون التوكُّل، كان ضالًّا.

وإذا أُطلِقَ لفظ العبادة، دخل فيها التوكُّل، وإذا قُرِنَ أحدهما بالآخر، كان للتوكُّل اسم يخصُّه»[٢].

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «وإتيانُهُ بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بعد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يُتوكَّل إلّا على مَن يستحِقُّ العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر»[٣].

التوكُّل أعمُّ من الاستعانة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «التوكُّلُ يتناول التوكُّل عليه ليُعِينَهُ على فعل ما أمَر، والتوكُّلَ عليه ليُعطِيَهُ ما لا يَقدِر العبد عليه؛ فالاستعانة تكون على الأعمال، وأما التوكُّل، فأعمُّ من ذلك»[٤].

الناس في مقام التوكُّل والعبادة أربعةُ أقسام:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فهذا الموضع قد انقسَمَ الناسُ فيه إلى أربعة أقسام:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)؛ واللفظ له، والنسائي (١٣٠٣)؛ من حديث معاذ ﷺ، وصحَّحه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٠)، والحاكم(١/٢٧٣) و(٣/٢٧٣)، والنووي في «الأذكار» (ص ١٤٢)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (٢/٢٨٣)، والألباني في «تخريج الكَلِم» (١١٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/٥٢٧).

(٣) «أضواء البيان» (١/٥٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨/١٧٧).

قومٌ: ينظُرُونَ إلى جانب الأمر والنهي، والعبادة والطاعة، شاهِدِينَ لإلهيَّة الرب سبحانه الذي أُمِرُوا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلى جانب القضاء والقَدَر، والتوكُّل والاستعانة.

وهو حال كثير من المتفقِّهة والمتعبِّدة؛ فهم مع حُسْنِ قصدهم وتعظيمِهم لحرمات الله ولشعائره يَغلِب عليهم الضعف والعجز والخِذْلان؛ لأن الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه، واللَّجأ إليه، والدعاء له؛ هي التي تقوِّي العبد، وتيسِّر عليه الأمور...

وقسمٌ ثانٍ: يَشهَدُون ربوبيَّة الحقِّ وافتقارَهم إليه، ويستعينون به، لكنْ على أهوائهم وأذواقهم، غيرَ ناظرين إلى حقيقة أمره ونهيه، ورضاه وغضبه ومحبَّته. وهذا حال كثير من المتفقِّرة والمتصوِّفة...

وأما القسم الثالث: وهو مَن أعرَضَ عن عبادةِ الله واستعانتِهِ به؛ فهؤلاءِ شرُّ الأقسام.

والقسم الرابع: هو القسم المحمود، وهو حالُ الذين حقَّقوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وقولَهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]؛ فاستعانوا به على طاعته، وشَهِدُوا أنه إلههم الذي لا يجوزُ أن يُعبَدَ إلّا إياه بطاعته وطاعة رسوله»[١].

وبهذا يتبيَّن لنا: أن التوكُّل على الله ﷻ أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلتَهُ بمنزلةِ الجسَد مِن الرأس؛ فكما لا يقوم الرأس إلّا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلّا على ساق التوكُّل - كما حقَّق ذلك الحافظ ابن القيِّم[٢] - وقد جاء الجمع

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٢ - ٣٥). وانظر في هذه الأقسام أيضًا: «التدمرية» (ص٢٣٤ - ٢٣٥).
(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٦١ - ٥٦٢).

بين هذه المعاني الإيمانيَّة في قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ...»، الحديثَ(١).

قال ابن القيِّم: «التوكُّل نصف الدِّين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإنَّ الدِّين: استعانةٌ وعبادة؛ فالتوكُّل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزِلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورةً بالنازِلين؛ لسَعَة متعلَّق التوكُّل، وكثرةِ حوائج العالمين، وعمومِ التوكُّل ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفُجَّار، والطير والوحش والبهائم؛ فأهلُ السموات والأرض - المكلَّفون وغيرهم - في مقام التوكُّل، وإن تبايَنَ متعلَّق توكُّلهم»(٢).

ثانيًا: مما يدل على أهمية التوكُّل: أن الله أمر به نبيه ﷺ، كما أمر به الأنبياء قبله؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال جل في علاه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وكذا في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «التوكُّل على الله واجبٌ مِن أعظمِ الواجبات،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مدارج السالكين» (١١٣/٢).

كما أنَّ الإخلاصَ لله واجب، وحُبَّ الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكُّل في غيرِ آيةٍ أعظَمَ مما أمر بالوضوء والغُسْل من الجَنَابة، ونهى عن التوكُّل على غير الله»[(١)].

فمع الأمر بالتوكُّل عليه سبحانه، نهى عن ضدِّه؛ قال ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]:

«أي: شَرِيكًا؛ عن مجاهد[(٢)].

وقيل: كفيلًا بأمورهم؛ حكاه الفرَّاء[(٣)].

وقيل: يتوكَّلون عليه في أمورهم»[(٤)].

وقد أمَرَ الأنبياء السابقون أقوامهم بأن يتوكَّلُوا على الله ﷻ، كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٧١].

وقد صرَّح الأنبياء السابقون عليهم الصلاة والسلام بتحقيق التوكُّل؛ فقال تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، وقال عن هود عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦]، ويقول عن شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال عن يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال عن الخليل إبراهيم ﷺ: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٤٥٠/١٤).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (١١٦/٢).

(٤) «تفسير القرطبي» (١٧/١٣).

تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال لنبيِّنا ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ثالثًا: أن الله جعَلَ التوكُّل شعارًا لعباده المؤمنين، وأثنى عليهم به؛ فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠]، في سياق المدح والثناء عليهم في سبعة مواضع من كتابه، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ قال قتادة: «هذا نعتُ أهل الإيمان؛ فأثبَتَ نَعْتَهم، ووصَفَهم؛ فأثبَتَ وَصْفَهم»[1]، ويقول جل في علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]، ويقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

رابعًا: أن العبد مضطرٌّ إلى التوكُّل، لا يستغني عنه طَرْفَةَ عَيْنٍ في أحوالِهِ وأمورِهِ كلها؛ وذلك أن العبد فقيرٌ، ضعيفٌ، محتاجٌ، مسكينٌ، والله ﷻ هو الغنيُّ الغِنَى الكاملَ المطلَق.

وتظهر حاجتنا إلى هذا التوكُّل من وجوه متعدِّدة:

الأوَّل: أن العبد فقير لا يَملِك شيئًا لنفسه، فضلًا عن أن يَملِك شيئًا لغيره؛ فهو بحاجة إلى ربِّه ليعطيه، وينصُرَهُ، ويَحفَظَهُ، ويَكلأَهُ، ويُغْدِقَ عليه أنواع النعم، فإذا كان الأمر كذلك، فإنه يتوجَّه بحاجاته إلى الله ﷻ، ولا يتوجَّه إلى أحد من المخلوقين يرجوهم، ويؤمِّلهم، ويُذِلُّ نفسه لهم، فيكون

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/٣٨٧).

عبدًا أسيرًا لهم، وكما قيل: «احتجْ إلى مَن شئتَ تكنْ أسيره»[(١)]؛ فالحاجة إلى الناس مَذَلَّةٌ ونوعُ عبوديَّة، واليد العليا خير من اليد السفلى؛ ولهذا نجد أكمَلَ الخلق ﷺ يأمره ربه أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، وخليل الرحمن ﷺ يقول لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]، فإذا كان هذا في حقِّ الخليلَيْنِ، أفضلِ الرسل عليهم الصلاة والسلام، فما بالك بمَن هو دونهم؟!

وإنما يكون التوكُّل على الحَيِّ الذي لا يموت، الذي بيده مقاليد السموات والأرض؛ كما قال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقد قال أبو قدامة الرَّمْلِي: «قرأ رجل هذه الآية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، فأقبَل عليَّ سليمان الخوَّاص، فقال: يا أبا قُدامة، ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحدٍ غيرِ الله في أمره، ثم قال: انظر كيف قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، فأعلمَكَ أنه لا يموت، وأنَّ جميع خلقه يموتون، ثم أمَرَكَ بعبادته، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، ثم أخبَرَك بأنه خبير بصير، ثم قال: واللهِ، يا أبا قدامة، لو عامَلَ عبدٌ الله بحُسْنِ التوكُّل وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراءُ فمَن دونهم؛ فكيف يكون هذا محتاجًا ومَوئِلُهُ ومَلْجَؤُهُ إلى الغني الحميد؟!»[(٢)].

الثاني: أن الأمور بيد الله ﷻ، وأن المخلوق ليس بيده من الأمر شيء؛ قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

---

(١) «الفتاوى الكبرى» لابن تيميَّة (١٨٢/٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٣٦).

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

فإذا كان ذلك كذلك، فإلى أيِّ شيء يلتفِتُ الإنسان؟! إلى أمثاله من الفقراء، المساكين، المحتاجين، الذين لا يَمْلِكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؟! بل ذلك يقتضي أن نفوِّض كل أمورنا إلى الله ﷻ.

قال ابن القيِّم: «فإنْ قيل: فإذا كان الأمر كله لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكِّلُ المَالِكُ على ملكه، وكيف يَستنيبُهُ فيما هو مُلْكٌ له، دون هذا الموكِّل؟

قيل: لما كان الأمر كلُّه لله ﷻ، وليس للعبد فيه شيء البتة، كان توكُّلُهُ على الله تسليمَ الأمر إلى مَن هو له، وعَزْلَ نفسه عن منازَعات مالكه، واعتمادَهُ عليه فيه، وخروجَهُ عن تصرُّفه بنفسه وحوله وقوَّته وكونه به، إلى تصرُّفه بربِّه، وكونه به سبحانه دون نفسه؛ وهذا مقصود التوكُّل»[(١)].

الثالث: أن العبد كلَّما تعلَّق بغير الله ﷻ، فإنَّ ذلك يُؤذِنُ بحصول الضرر عليه مِن هذه الجهة.

إذا أَمَّلْتَ المخلوقَ، وفَوَّضْتَ إليه، ورجوته، وأعرضتَ عن الخالق، فإنَّ ذلك هو الطريق الذي تستجلِبُ به الضرر لنفسك وتستدعيه، مع أنك إنما تريد تحصيل مطلوباتك ومنافعك وحاجتك؛ ولذلك فإن أولئك الذين يتوكَّلون على غير الله ﷻ يحصُلُ لهم من الألم، والحسرة، وخَيْبة الأمل ما لا يقادَرُ قَدْرُه، ولا يَصِلُون إلى مطلوباتهم؛ وإنما كان ذلك لأنهم أعرَضُوا عن الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فإنه إنْ نال من الطعام والشراب فوق حاجته، ضرَّه وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس؛ وإنْ أحبَّ شيئًا حبًّا تامًّا، بحيث يُخَالِلُهُ، فلا بد أن يَسأَمَه، أو يُفارِقَه... فالضرر حاصل له إن

(١) «مدارج السالكين» (١٢٩/٢).

وُجِدَ، أو فُقِد؛ فإن فُقِد، عُذِّبَ بالفراق وتألَّم، وإن وُجِدَ، فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذَّة؛ وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وكلُّ من أحبَّ شيئًا دون الله لغير الله، فإن مضرَّته أكثر من منفعته؛ فصارت المخلوقات وَبَالًا عليه إلّا ما كان لله وفي الله؛ فإنه كمال وجمال للعبد»[1].

الرابع: أن اعتماده على المخلوق وتوكُّله عليه يُوجِبُ له الضرر من جهته؛ عكسَ ما أمَّله منه.

وهذا ثابت في القرآن والسُّنَّة؛ كما أنه معلوم بالاعتبار والاستقراء؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]؛ «أي: بخلاف ما ظنُّوا فيهم»[2]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

قال ابن القيِّم: «فإن المشرِك يرجو بِشِرْكِهِ النصر تارَةً، والحمد والثناء تارَةً؛ فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصُلُ له الخِذْلان والذم»[3].

قال أبو العالية: «اجتمَعَ إليَّ أصحابُ محمَّد، فقالوا: يا أبا العالية، لا تَعمَلْ عملًا تريد به غير الله؛ فيَجعَلَ الله ثوابك على ما أردتَّ، قال: واجتمَعَ إليَّ أصحابُ محمَّد، فقالوا: يا أبا العالية، لا تَتَّكِلَنَّ على غير الله؛ فيَكِلَكَ الله إلى مَن اتَّكَلْتَ عليه»[4].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ما علَّق العبد رجاءه وتوكُّله بغير الله إلَّا خاب مِن تلك الجهة، ولا استنصَرَ بغير الله إلّا خُذِلَ... وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

(١) «مجموع الفتاوى» (١/٢٨ - ٢٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/٢٦١).

(٣) «إغاثة اللهفان» (١/٩٣).

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٤٤)، وابن أبي الدنيا في «التوكل» (٣٨).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته، وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه مضرَّتُهُ وهلاكُهُ وفساده»[١].

وقال: «وما رجا أحدٌ مخلوقًا أو توكَّل عليه إلّا خاب ظنه فيه؛ فإنه مشركٌ؛ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]»[٢].

وقد جاء في وصيَّة النبي ﷺ لابن عبَّاس ﵄: «إِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[٣].

وقد تربَّى على هذا أصحابُ النبي ﷺ؛ فكانوا يتعفَّفون عن سؤال الناس والاستعانة بهم ولو في الأمور الهيِّنة؛ كما في حديث عَوْف بن مالك الأشجعي ﵁؛ قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعة، فقال: «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟»... فبسَطْنَا أيدينا، وقلنا: قد بايَعْنَاكَ يا رسولَ اللهِ؛ فعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قال: «أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَتُطِيعُوا - وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا»، يقول عَوْف بن مالك ﵁: «فلقد رأيتُ بعضَ أولئك النَّفَرِ يسقُطُ سَوْطُ أحدِهم؛ فما يَسأَلُ أحدًا يناوِلُهُ إيَّاه»[٤].

وهذه مرتبة عالية من مراتب العبوديَّة، لا يخاطَبُ بها مَن كان مقترِفًا للمعاصي، وتاركًا للواجبات، إنما يكون ذلك لمن عَلَتْ هِمَّته، وعَظُمَتْ مرتبته؛ وذلك أن الطلبَ مِن الناس والحاجةَ إليهم نوعُ افتقارٍ إلى المخلوق، وإنما يكون فقرُكَ وحاجتُكَ وتوجُّهُ القلبِ: إلى الله وحده لا شريك له، حتى

(١) «مجموع الفتاوى» (١/٢٩).
(٢) المصدر السابق (١٠/٢٥٧).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)؛ من حديث ابن عباس ﵄، وصحَّحه، وحسَّنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١/٤٦٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

في الأمور العاديَّة؛ فإذا استَطَعْتَ ألَّا يكونَ لأحدٍ من الناس يدٌ عليك وإحسانٌ، فافعَلْ، وكُنْ أنت صاحبَ اليد العليا، لا صاحبَ اليد السفلى؛ كُنْ أنت المتفضِّلَ على الناس، ولا تَنتظِرْ من الآخرين أن يتفضَّلوا عليك.

وقد قال النبي ﷺ: «لا تَزَالُ المَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ»(١).

وذكر النبيُّ ﷺ على المنبر الصدقةَ والتعفُّف والمسألة، فقال: «الْيَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى؛ فَالْيَدُ العُلْيَا هِيَ المُنْفِقَةُ، والسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّرًا، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا؛ فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ»(٣).

وأصل الطلب من المخلوق لا يجوز إلّا لضرورة، وقد جاء تفصيل أصحاب الضرورات في حديث قَبِيصةَ ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنَّ المَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ...»؛ الحديثَ، وفي آخره: «فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»(٤).

وقد بيَّن ابن القيِّم خطورة سؤال المخلوقِينَ، وذكر أنه ظُلْمٌ في حق الربِّ، وظلمٌ في حق الخَلْق، وظلمٌ في حقِّ النَّفْس؛ فقال: «أمَّا في حق الربوبيَّة: فلِمَا فيه مِن الذلّ لغير الله، وإراقةِ ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين، والتعرُّض لمقتِهِ إذا سأل وعنده ما يكفيه.

وأما في حقِّ الناس: فبمنازَعَتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠)؛ واللفظ له؛ من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٩)؛ واللفظ له، ومسلم (١٠٣٣)؛ من حديث ابن عمر ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٤١).

(٤) أخرجه مسلم (١٠٤٤). وقال النووي في «شرحه» (٧/١٣٤): «فما سِوَاهُنَّ مِن المسألةِ يا قَبِيصةُ سُحْتًا»؛ هكذا هو في جميعِ النسخِ: «سُحْتًا»، وروايةُ غير مسلم: «سُحْتٌ»؛ وهذا واضحٌ، وروايةُ مسلم صحيحةٌ؛ وفيه إضمارٌ؛ أي: اعتقِدْهُ سُحْتًا، أو يُؤكَلُ سحتًا».

منهم، وأبغَضُ ما إليهم: مَن يسألهم ما في أيديهم، وأحبُّ ما إليهم: مَن لا يسألهم؛ فإنَّ أموالهم محبوباتُهم، ومَن سألَكَ محبوبَكَ، فقد تعرَّض لمقتِكَ وبُغْضِك.

وأما ظُلْمُ السائل نفسه: فحيث امتهَنَها، وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال، ورَضِيَ لها بذلِّ الطَّلَب ممَّن هو مثله، أو لعلَّ السائل خير منه وأعلى قدرًا، وترَكَ سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ فقد أقام السائلُ نفسَهُ مقامَ الذل، وأهانها بذلك، ورَضِيَ أن يكون شَحَّاذًا من شَحَّاذٍ مثلِه؛ فإن مَن تَشحَذُهُ فهو أيضًا شَحَّاذٌ مثلك، والله وحده الغَنيُّ الحميد»[1].

قال الشاعر[2]:

أَللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

الخامس: أن العبد في سلوكه إلى الله ﷻ وسَيْرِهِ إليه يحتاج إلى هذا التوكُّل؛ لأنَّ العبد لا يُمكِنُ أن يقوم بوظيفةٍ من وظائف العبوديَّة إلَّا بالتوكُّل، فأنت حينما تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، تكون بحاجة إلى عون الله ﷻ في القيام بأمره واجتناب نهيه؛ وإلَّا فإن الله ﷻ متى تخلَّى عن العبد، سقَطَ في أودية الهَلَكة.

قال ابن القيِّم: «والتوكُّل مصاحِب للصادق مِن أوَّل قَدَم يضعه في الطريق إلى نهايته، وكلما ازداد قُرْبُه، وقَوِيَ سَيْرُه، ازداد توكُّلُه؛ فالتوكُّل مركبُ السائر الذي لا يتأتَّى له السير إلَّا به، ومتى نزَلَ عنه، انقطَعَ لوقته»[3].

السادس: أنَّ التوكُّل على الله ﷻ مرتبِطٌ بالقلب، والقلبُ هو مَلِكُ الجوارح؛ ومِن المعلوم: أن جنس أعمال القلوب أفضل من جنس أعمال

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٣١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «طريق الهجرتين» (٢/٥٥٧).

الجوارح، كما أن العبوديَّة منقسِمة إلى عبوديَّة تتعلَّق باللسان، وعبوديةٍ تتعلَّق بالجوارح، وعبودية تتعلَّق بالقلب، وما كان يتصل منها بالقلب، فهو أشرف من قَسِيمَيْهِ مما يتعلَّق باللسان أو بالجوارح.

وهذه الأشياء التي يدور عليها التكليف مما يتَّصِلُ بتعبيد المكلَّفين لا تخرُجُ عن خمسة أمور:

إمَّا أن يكون هذا المكلَّف قد توجَّه إليه الخطاب بالإيجاب، أو بالاستحباب، أو بالتحريم، أو بالكراهة، أو كان الأمر مستوِيَ الطَّرَفَيْنِ فيكون مباحًا:

وأما ما يتعلَّق بالقلب من التوكل على الله تعالى، فإنه يدور بين الإيجاب والاستحباب، ولا شَكَّ أنه بالوجوب أعلَقُ؛ فإن التوكُّل على الله ﷻ هو من جملة الأمور القلبيَّة الواجِبة؛ كالإخلاص.

ولا شك أن الواجبات أفضل من المستحبَّات؛ ولهذا فإن الله ﷻ لم يتقرَّب إليه المتقرِّبون بأفضلَ مما افترَضَ عليهم؛ كما في الحديث القدسي: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ...»، الحديثَ(١).

فالمقصود: أنه ذكَرَ الأعمال المفروضة أوَّلًا؛ وذلك يدل على أن القيام بالفرائض أفضلُ وأثقلُ في الميزان من القيام بالنوافل.

ثُمَّ إذا نظَرْنا إلى عناصر الإيمان، نَجِدُ أنها تنقسم إلى أربعة أقسام: إلى قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح.

وعلى هذا التقسيم، نجد أن التوكُّل داخلٌ في أهمِّ هذه العناصر وأشرَفِها، الذي هو قول القَلْب وعمله.

وقد مضى قول ابن القيِّم: «إن التوكُّل يجمع أصلَيْنِ: علم القلب وعمله،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

أما علمُهُ: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكَلَهُ إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك، **وأما عمَلُهُ**: فسكونُهُ إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه، وتسليمه أمره إليه، وأنَّ غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرُّفه له فوق رضاه بتصرُّفه هو لنفسه»(١).

ولذا فسَّره بعضهم: بأنه «عِلْمُ القلب بكفاية الربِّ للعبد»(٢).

وقال الحسن: «مِن توكُّلِ العبد على الله أن يكون الله هو ثِقَتَه»(٣).

وقال الجُنَيْد: «التوكُّل: عمَلُ القَلْب، والتوحيد: قولُ [القَلْب](٤)»(٥).

وقال: «ليس التوكُّل الكسب، ولا ترك الكسب؛ التوكُّل شيءٌ في القلوب»(٦). وقال: «إنما هو سكون القلب إلى موعود الله ﷻ»(٧).

قال البيهقي معلِّقًا عليه: «وعلى هذا ينبغي ألَّا يكون تجريدُ هذا السكون عن الكسب شرطًا في صحَّة التوكُّل، بل يكتسِب بظاهر العلم(٨)، معتمِدًا بقلبه على الله تعالى... وإنما يكون اعتماده في كفاية أَمْرِهِ على الله ﷻ»(٩).

وقال ابن القيِّم: «فبهذَيْنِ الأصلَيْنِ يتحقَّق التوكُّل؛ وهما جِمَاعُه، وإنْ كان التوكُّل دخل في عمل القلب مِن [علمه](١٠)؛ كما قال الإمام أحمد: «التوكُّلُ عمَلُ القلب».

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٦٠).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (١٨)، و«القناعة» (٩٩).

(٤) في الأصل: «العبد»؛ وهو تصحيف.

(٥) «حلية الأولياء» (١٠/٢٥٦).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٣).

(٧) المصدر السابق.

(٨) كذا في المطبوعتَين: «بظاهر العلم»؛ ولعل الصواب: «بظاهر العمل».

(٩) المصدر السابق.

(١٠) في بعض النسخ: «عمله».

ولكن لا بد فيه من العِلْم، وهو إمَّا شرط فيه، وإمَّا جزءٌ من ماهيَّته»[(١)].

وإذا نظَرْنا إلى ما يتعلَّق بترتب الثواب والعقاب، نجد أن «أقوال القلب وأفعاله تَنقسِم بهذا الاعتبار إلى ثلاثة أقسام:

١ - ما هو حَسَنة وسيِّئة بنفسه.

٢ - ما ليس سيِّئة بنفسه حتى يُفعَلَ، وهي السيئة المقدورة.

٣ - ما هو مع العجز كالحَسَنة والسيِّئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسَنة والسيِّئة المفعولة:

فالقسم الأوَّل: هو ما يتعلَّق بأصول الإيمان؛ مِن التصديق والتكذيب، والحُبِّ والبغض؛ فهذه يحصل بها الثواب والعِقَاب بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإنْ لم يَظْهَرْ على الجوارح.

وأما القسم الثاني والثالث: فمَظِنَّةُ الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان؛ مثل المعاصي الطَّبَعِيَّة؛ كالزِّنا، والسَّرِقة، وشرب الخمر...»[(٢)].

وعلى ذلك، فالتوكُّلُ يُعَدُّ من القسم الأوَّل، الذي هو أشرَفُ هذه الأقسام وأعلاها.

* * *

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٦٠ - ٥٦١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٧٥٩-٧٦٠)؛ بتصرف واختصار، وللاطلاع على كامل كلامه انظر: (١٠/٧٥٨-٧٦٥).

التّوكّلُ في الكِتَابِ وَالسُّنَّة

مضى كثير من النصوص مِن كتاب الله ﷻ التي تتحدَّث عن التوكُّل مِن حيثُ الأمرُ به، أو أنه مِن شعار الصالحين، وكذلك ما ذكَرَ الله ﷻ عن توكُّل الأنبياء والمرسَلِين عليهم الصلاة والسلام.

وأما في السُّنَّة: فقد أخرج الإمام مسلم في «صحيحه»؛ أن النبي ﷺ قال: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا»[١]؛ فالنبي ﷺ «أمره بالحرصِ على ما ينفعه، والاستعانة بالله، ونهاه عن العَجْزِ الذي هو الاتِّكَالُ على القَدَر»[٢]، ثم أمَرَهُ بعد ذلك بالرضا.

وقد جاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلُونَ الجَنَّةَ بغير حساب: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»[٣].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: «حَسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل؛ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمَّدٌ ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) من كلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٨/٢٨٥). وانظر: (٧/٦٥٣ - ٦٥٤)، (٨/٧٣ - ٧٤، ١٧٨، ٢٨٤ - ٢٨٥، ٥٤٧ - ٥٤٩)، (١٠/٣١ - ٣٢، ٥٠٦ وما بعدها)، (١٨/١٨١ وما بعدها، ٣٤٧ - ٣٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨)؛ من حديث عِمْران بن حُصَيْن رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

وجاء في «الصحيحَيْن»؛ مِن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ، لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ...»، إلى آخر الحديث[(١)].

وعن عُمَرَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ؟!»[(٣)].

❊ ❊ ❊

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)؛ واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٧٣٠)، والحاكم (٤/٣١٨)، وأقرَّه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٣١٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)؛ واللفظ له، والترمذي (٣٤٢٦) وحسَّنه، وصحَّحه ابن حبان (٨٢٢)، والألباني في «صحيح الموارد» (٢٠١٥)، وقد أعلَّه البخاري، والترمذي في «العلل الكبير» (٦٧٣)، والدارقطني في «العلل» (١٢/١٢)، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (١/١٦٢ - ١٦٤).

التوكل إنما يكون على الله وحده، دون أحد سواه

إذا نظرْتَ إلى كثيرٍ من الآيات التي أمَرَ الله ﷻ فيها بالتوكُّل، تجد أنها تَدُلُّ على الحصر، أو تُشْعِرُ به؛ وذلك بتقديم المعمول على عامله، وقد عرَفْتَ أن تقديم المعمول على العامل يُؤذِنُ بالحصر والاختصاص؛ قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فقدَّم المعمول على العامل؛ لِيَدُلَّ على اختصاصه به، والمعنى: توكَّلوا على الله وحده، ولا تتوكَّلوا على أحدٍ سواه.

وكذا في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقولِه جلَّ في علاه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فجعَلَ الإيتاءَ للهِ والرسولِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وأما التوكُّلُ والرغبةُ، فلِلَّهِ وحده... وذلك موافق لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧ - ٨]؛ فالعبادةُ والخشيةُ والتوكُّل، والدعاءُ والرجاءُ والخوف لله وحده، لا يَشْرَكُهُ فيه أحد»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: إنَّ الله كافيك وكافي

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٤/٣٣٨).

مَنْ معك مِن أتباعك مِن أهل الإيمان، وليس المعنى: أنَّ أهلَ الإيمان الذين هم أتباع النبي ﷺ يكفُونَهُ عليه الصلاة والسلام.

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨ - ٩]؛ ففي قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾ يَدُلُّ على تخصيصه بالتوكُّل دون أحد سواه، والله يقول: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]؛ فنهاهم أن يتَّخِذُوا أحدًا من المخلوقين مهما كانت منزلتُهُ وقوَّته وقَدْره.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فأمَرَ - أي: الله - أن يُتَّخَذَ وكيلًا، ونهى أن يُتَّخَذَ مَن دونه وكيلًا؛ لأن المخلوق لا يستقِلُّ بجميع حاجات العبد، والوَكَالةُ الجائزة: أن يُوكِّلَ الإنسانُ في فعلٍ يَقدِرُ عليه، فيحصُلُ للموكِّل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبُهُ كلُّها فلا يَقدِر عليها إلّا الله؛ وذلك الذي يوكِّلُهُ لا يفعل شيئًا إلّا بمشيئة الله ﷻ وقدرته؛ فليس له أن يتوكَّل عليه وإنْ وكَّله، بل يعتمِدُ على الله في تيسير ما وكَّله فيه.

فلو كان الذي يحصُلُ للمتوكِّل على الله يحصُلُ وإن توكَّل على غيره، أو يحصُلُ بلا توكُّل، لكان اتخاذُ بعضِ المخلوقين وكيلًا أنفعَ مِن اتخاذ الخالق وكيلًا؛ وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: اللهُ كَافِيكَ وكافِي مَنِ اتَّبَعك من المؤمنين»[(١)].

وقال: «يذكُرُ الله الأسباب، ويأمر بألَّا يُعتمَدَ عليها، ولا يُرجَى إلّا الله؛ قال تعالى لما أنزل الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ

(١) «جامع الرسائل» (١/٨٩).

﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]»[١].

قال ابن تيميَّة: «وإذا كان الله أمَرَهُ بالتوكُّل، ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، عُلِمَ أنَّ الله وكيلٌ كافٍ لِمَن توكَّل عليه... وإذا كان كفى به وكيلًا، فهذا مختصٌّ به سبحانه، ليس غيرُهُ من الموجودات كفى به وكيلًا؛ فإنَّ من يتخِذ وكيلًا مِن المخلوقين غايتُهُ أن يفعل بعضَ المأمور، وهو لا يفعلها إلّا بإعانة الله له، وهو عاجزٌ عن أكثر المطالب»[٢].

وقال: «فهذا وما يُشبِهه مما يبيِّنُ أنَّ العبدَ في طلبِ ما يَنفَعُه ودفعِ ما يضرُّه لا يوجِّه قلبه إلّا إلى الله»[٣].

قُلْ حَسْبِيَ اللهُ مَعْبودِي وَمُتَّكَلِي ... وَهْوَ الْقَرِيبُ المُجِيبُ المُسْتَغَاثُ بِهِ

فينبغي أن نراجع أنفسنا، وأن ننظُرَ إلى أي شيءٍ تتوجَّه قلوبنا؟! وبأي شيءٍ تتعلَّق؟!

إِذَا مَا حَذِرْتَ الأَمْرَ فَاجْعَلْ إِزَاءَهُ ... رُجُوعًا إِلَى رَبٍّ يَقِيكَ المَحَاذِرَا
وَلَا تَخْشَ أَمْرًا أَنْتَ فِيهِ مُفَوِّضٌ ... إِلَى اللهِ غَايَاتٍ لَهُ وَمَصَادِرَا
وَلَا تَفْخَرَنْ إِلَّا بِثَوْبِ صِيَانَةٍ ... إِذَا كُنْتَ يَوْمًا بِالْفَضِيلَةِ فَاخِرَا
وَإِنِّي كَفِيلٌ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْأَذَى ... لِمَنْ لَمْ يَبِتْ يَدْعُو سِوَى اللهِ نَاصِرَا

وإن الناظر في حال الناس يجد أنَّ:

منهم: مَن يتوكَّلُ على غير الله ﷻ فيما لا يَقدِرُ عليه إلّا الله؛ وهذا من قَبِيل الشرك الأكبر.

ومنهم: مَن يتوكَّلُ على غير الله ﷻ في أمورٍ يَقدِرُ عليها هذا المخلوق؛ وهذا قد يُدخِلُه في الشرك الأصغر؛ وسيأتي الكلام على ذلك.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٥٨).
(٢) «جامع الرسائل» (١/٩٢).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٦٠).

ومنهم: مَن يُفرِدُ ربَّه بالتوكُّل في أموره كلها؛ وهذا هو المؤمن.

صَدَقَ الْكَذُوبُ وَلَمْ يَكُنْ بِصَدُوقِ ... مَا الحِرْصُ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ المُوقِي
قَـدْ قَـدَّرَ اللهُ الأُمُـورَ بِـعِـلْـمِـهِ ... فِيهَا عَلَى المَحْرُومِ وَالمَرْزُوقِ
فَإِذَا طَلَبْتَ فَلَا إِلَى مُتَطَلِّبٍ ... وَإِذَا اتَّكَلْتَ فَلَا عَلَى مَخْلُوقِ
فَإِذَا اتَّكَلْتَ فَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... لَا مَا تَحَصَّلَ عِنْدَكَ المَوْثُوقِ[1]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٥١)؛ من قول سعيد العاقري.

دَرَجَاتُ التّوَكّل

الأولى: مَعرِفة الربِّ وصفاته؛ فالتوكُّلُ لا يتمُّ ولا يحصُلُ للإنسان إلّا بمعرِفة الله ﷻ معرفةً صحيحةً بذاته وأسمائه وصفاته، فإذا اكتمَلَتْ له هذه المعرِفة، عرَفَ أن له ربًّا قادرًا، قويًّا، عزيزًا، رازقًا، يُعطِي ويمنع، يَخفِضُ ويرفع، يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء، بيده الخير، فكلَّما كان العبد بربه أعرَفَ وأعلَمَ، كان متأهِّلًا للتوكُّل أكثَرَ من غيره.

فيحتاج العبد إلى الدرجة الأُولى؛ وهي العلم بالمعبود، وأن الأمور إنما تصدُرُ عن مشيئته وإرادته سبحانه وتعالى؛ فهذه أوَّلُ درجةٍ تضع قَدَمَك عليها في سُلَّم التوكُّل على الله ﷻ.

والثانية: إثبات الأسباب ورعايتها، والأخذ بها؛ فإنها لا تُطرَح بالكليَّة.

«**والثالثة: رسوخ القلب في مَقَام التوحيد**؛ فإنه لا يستقيم توكُّلُ العبد حتى يَصِحَّ له توحيده، بل حقيقةُ التوكُّل توحيدُ القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكُّلُهُ معلولٌ مدخول»[1].

والرابعة: أن يعتمِدَ القلبُ على الله ﷻ، ويَطْمَئِنَّ إليه، ويسكُنَ إليه، ويثق بتدبيره سبحانه وتعالى، فيكون - كما قال بعضهم - كالطِّفْلِ الذي لا يَعرِف إلّا ثَدْيَ أُمّه، ولا يسكُنُ إلّا إليه، ولا يطمئنُّ إلّا إليه.

ولذلك يقول ابن القيِّم: «التوكُّلُ: معنًى يَلتئِمُ من أصلَيْن: مِن الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[2].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

(٢) المصدر السابق (١/٧٥).

والخامسة: حُسْنُ الظنِّ بالله ﷻ؛ فحُسْنُ الظَّنِّ به يدعو إلى التوكُّل عليه، وعلى قدر حُسْنِ ظن العبد بربِّه ورجائه له؛ يكون توكُّله عليه.

وإذا ساءت الظنون بالله ﷻ، ضَعُفَ التوكُّل؛ ولهذا ذمَّ الله ﷻ الظانِّينَ بالله ظنَّ السَّوْءِ، ومن الظنون السيئة به سبحانه: ظنونُ أولئك الذين يظنُّون أن الله لا ينصُرُ أولياءه، أو أن الله يُدِيلُ أعداءَهُ على أوليائه إدالةً مستمرَّة، وكذا قولُ الذين قالوا؛ وهم أهل النفاق في وقعة الأحزاب: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]؛ وذلك أن النبي ﷺ وعَدَهم بكنوز كسرى وقيصر، ووعَدَهم بفتوح عظيمة؛ فَتْح اليمن والشام وفارس، فلمَّا رأوا الأحزاب قد أحاطوا بالمدينة، قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، فهؤلاء ساءت ظنونُهم بالله، بخلاف مَن رسَخَتْ أقدامهم في التوكُّل، وثبت ذلك في قلوبهم، وهم أهل الإيمان؛ حيث قالوا لمَّا رأوا الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ونحن في هذه الأيَّام في أمسِّ الحاجة إلى حسن الظنِّ بالله، وإلى تكثيره في القلوب، وتعظيمه، وشرح القلوب وتوسيعها ببَعْثِ الأمل، وتعريفِها بصفات الله ﷻ التي تَدُلُّ على اقتداره، وعلى حِلْمِهِ وإمهالِهِ للظالمين، والناسُ في حاجة إلى أن يذكَّرُوا بسنن الله ﷻ في التغيير ما يحتاجون إليه في مثل هذه الأيام؛ وإلا فإن الكثيرين قد يحصُلُ لهم من الانهزام الداخلي، والتشكُّك بوعد الله ﷻ ما يُفضِي بهم إلى أمورٍ عظيمةٍ من جهة الاعتقاد.

ولهذا نَجِدُ أن مِن أهل العلم مَن فسَّر التوكُّلَ بحُسْنِ الظنِّ بالله؛ كما تقدَّم.

والسادسة: أن يستسلِمَ القلبُ لربِّه، وأن تَنجذِبَ دَوَاعِيهِ كلها إليه[1]؛ فلا يلتفت هنا أو هناك.

والسابعة: أن يفوِّضَ أمرَهُ إلى ربِّه تبارك وتعالى؛ لأنه يعلم أن الله عليم؛

(١) «مدارج السالكين» (١٢٢/٢)؛ بتصرُّف.

يَعلَمُ الأمور كلَّها، وهو حكيم؛ يضع الأمور في مواضعها، ويُوقِعُها في مواقعها، فإذا حصَلَ اليقين بذلك، مع وثوقٍ بقوة الله ﷻ وقدرته، فإنَّه يستسلِمُ، ويفوِّضُ أمرَهُ إلى الله ﷻ.

فالتفويضُ: «هو رُوح التوكُّل ولبُّه وحقيقته؛ وذلك أن تسلِّمَ أمورَكَ كلَّها إلى فاطِرك وبارِئك سبحانه، وأن تُنزِلَ به حوائِجَكَ اختيارًا لا اضطرارًا»(١).

والثامنة: الرضا؛ «وهي ثمرة التوكُّل، ومَن فسَّر التوكل بها، فإنما فسَّره بأجلِّ ثمراتِه، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكَّل حَقَّ التوكل، رَضِيَ بما يفعله وكيله»(٢).

وقد ذكر شيخ الإسلام أن الرضا والتوكُّل يَكتنِفان المقدور؛ فالتوكُّل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه(٣).

وقد قرَنَ الله ﷻ بينهما بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، وجمع بينهما ﷺ في حديث الاستخارة المشهور، الذي كان يعلِّمُهُ أصحابه كما يعلِّمهم السورة من القرآن: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ»؛ فهذا توكُّل وتفويضٌ، ثم ختمه بسؤال الرِّضَا بقوله: «واقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي»(٤).

ومِن دعائه ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ»(٥)؛ فهذا سؤال لتحقيق الرضا بعد وقوع المقدور.

---

(١) المصدر السابق؛ بتصرُّف.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٨٢)؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٢٢٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢٩/١)، وابن حبان (١٩٧١)، والدارقطني في «رؤية الله» (١٥٨)، والحاكم (٥٢٤/١)؛ وعنه البيهقي في «الدعوات» =

فهذه دَرَجاتٌ ثمانٍ، إذا اجتمَعَتْ للإنسان، كَمُلَ له التوكُّل، وإذا نقَصَ شيءٌ منها أو اختَلَّ، اختَلَّ توكُّله[١].

والإنسان بحاجة إلى ملاحظة قلبه، وعَرْضِ توكُّلِه على هذه الدرجات مِن أجلِ إصلاحِهِ وتكميله.

وقال بعضهم: «التوكُّل ثلاث درجات: التوكُّلُ، ثم التسليمُ، ثم التفويضُ»[٢].

وقال بعضهم: «عن بعض الحُكَماء قال: التوكُّلُ ثلاثُ دَرَجات: أولاها: تركُ الشِّكاية، والثانية: الرضا، والثالثة: المحبَّة؛ فترك الشِّكاية: درجة الصبر، والرضا: سكونُ القلب بما قسَمَ الله له، وهي أرفع من الأولى، والمحبَّة: أن يكون حبُّه لما يصنع الله به؛ فالأولى: للزاهِدِين، والثانية: للصادِقِين، والثالثة: للمُرْسَلين»[٣].

و«على قدر إيمان العبد يكون توكُّله»؛ كما قال ابن القيِّم[٤].

و«أعظمُ أنواع التوكُّل: التوكُّلُ في الهداية، وتجريدِ التوحيد، ومتابعةِ الرسول ﷺ، وجهادِ أهل الباطل؛ فهذا توكُّل الرُّسُل، وخاصَّة أتباعَهم»[٥].

«والناس بعد ذلك في التوكُّلِ على حَسَبِ هِمَمهم ومقاصدهم؛ فمِن متوكِّلٍ على الله في حصول المُلْك، ومِن متوكِّلٍ في حصول رغيف، ومَن صدَقَ توكُّلُهُ على الله في حصول شيء، ناله، فإنْ كان محبوبًا لله مرضيًّا، كانت له فيه

= (٢٥١)، وغيرهم؛ من حديث عمَّار ﷺ، وصحَّحه ابن حبَّان، والحاكم، والألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٥ - ١٢٨).

(٢) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/٣٠٢).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٤٦).

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/٧٦٧).

(٥) «الفوائد» لابن القيِّم (١٢٥)؛ بتصرُّف يسير.

العاقبة المحمودة، وإنْ كان مسخوطًا مبغوضًا، كان ما حصل له بتوكُّله مضرَّةً عليه، وإنْ كان مباحًا، حصلت له مصلحةُ التوكُّل دون مصلحة ما توكَّل فيه، إنْ لم يَستعِنْ به على طاعته»[(١)].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «أن مِن الناس: مَن يكون توكُّله ودعاؤه في حصول مباحات، ومنهم: مَن يكون في حصول واجبات ومستحبَّات، ومنهم: مَن يكون في حصول محرَّمات؛ وهو الظالم لنفسه، ومَن أعرَضَ عن التوكُّل، فهو عاص لله ورسوله، بل خارجٌ عن حقيقة الإيمان»[(٢)].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (١١٤/٢)؛ بتصرُّف يسير.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٦/١٠)؛ بتصرُّف.

أَنْوَاعُ التَّوَكُّل

التوكُّل يَنقسِمُ من حيثُ المتوكَّلُ عليه إلى قسمَيْن:

أولًا: التوكُّل على الله؛ وهو ينقسِمُ بحَسَبِ موضوعِه إلى أربعة أقسام:

الأول: توكُّل العبد في إقامة نفسه، وإصلاح قلبه وعمله، وتقويم سلوكه، وما إلى ذلك، دون أن يحاوِل التأثير في الآخَرين.

الثاني: توكُّل على الله تعالى في استقامة النفس، كما تقدَّم، بالإضافة إلى التوكُّل عليه تعالى في إقامةِ دِينِ الله في الأرض، ودفعِ الفساد، وقمعِ البِدَع، وجهاد الكفار والمنافقين، والاهتمام بمصالح المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتأثير في الآخرين حتى يُعبَدَ الله وحده.

وهذا توكُّلُ الأنبياء، وتوكُّل ورَثَتِهم مِن بعدهم مِن العلماء، وما انتشَرَ دين الله ﷻ إلّا بهذه الدعوة.

قال ابن القيِّم: «حالُ النبيِّ ﷺ وحالُ أصحابه مَحَكُّ الأحوال ومِيزانها؛ بها يُعلَمُ صحيحها مِن سقيمها؛ فإنَّ هِمَمَهُمْ كانت في التوكُّل أعلى مِن هِمم مَن بعدهم؛ فإنَّ توكُّلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبَدَ الله في جميع البلاد، وأن يوحِّده جميع العباد... فكانت هِمَمُ الصحابة ﷺ أعلى وأجلَّ من أن يصرف أحدهم قوَّة توكُّله واعتماده على الله في شيءٍ يحصُلُ بأدنى حِيلةٍ وسعي؛ فيجعله نصب عينيه، ويَحمِل عليه قوى توكُّله»[1].

وقال: «فأفضل التوكُّل: التوكُّل في الواجب - أعني: واجب الحق،

---

(١) «مدارج السالكين» (١٣٥/٢).

وواجب الخلق، وواجب النَّفْس - وأوسَعُهُ وأنفعه: التوكُّل في التأثير في الخارج؛ في مصلحة دينيَّة، أو في دفع مفسدة دينيَّة، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المُفسِدين في الأرض؛ وهذا توكُّل وَرَثَتهم»(١).

وقال العلامة ابن سِعْدي: «واعلَمْ: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكُّلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب؛ وهو التوكُّل على الله في إقامة دِينه ونصره، وهداية عَبِيده، وإزالة الضلال عنهم؛ وهذا أكمَلُ ما يكون من التوكُّل»(٢).

والثالث: وهو أن يتوكَّل على الله ﷻ في تحصيل حظوظ النَّفْس الدنيويَّة، ودفع المكروهات؛ كمَن يتوكَّل في حصول رِزْق أو عافية، أو زوجة أو وَلَد؛ فهذا يُؤجَر على هذا التوكُّل؛ لأنه عبادة، وعلى تفويض الأمر إلى الله ﷻ، وأما تلك الأمور: فإنه لا يُؤجَرُ عليها إلّا إذا قصَدَ بها الاستعانة على طاعة الله تبارك وتعالى.

فهذا دون الذي قبله، مع أنه مطلوب؛ إذْ لا بدَّ من أن يتوكَّل الإنسان على الله ﷻ في أمورِهِ كلِّها، لكن لا يكون توكُّله مختصًّا بهذه الأشياء، مقتصِرًا عليها دون غيرها، فلا يكون له توجُّهٌ وتوكُّلٌ وتفويضٌ إلَّا في تحصيل حظوظ النَّفْس فقطْ، أما ما يتعلَّق بإقامة دِينِ الله ﷻ في نَفْسه وفي غيره، فإنه قد لا يَهْتَمُّ به.

وهذا غير محمود؛ بل إنَّ مَن حقَّق التوكُّل في النوع الأوَّل والثاني؛ وهو التوكُّل في إصلاح النَّفْسِ وإصلاحِ المجتمَع، كفاه الله ﷻ النوعَ الثالث؛ وهو ما يتعلَّق بحاجاتِهِ ومطالبِهِ الشخصيَّة(٣)؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(٤).

---

(١) المصدر السابق (٢/١١٤).

(٢) «تفسير ابن سعدي» (٢/٨٤٣ - ٨٤٤).

(٣) انظر: «الفوائد» (ص١٢١ - ١٢٢).

(٤) تقدم تخريجه.

وكذلك لمَّا أقام النبي ﷺ دِينَ الله ﷻ، كانت العاقبةُ كما قال ﷺ: «وجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»(١).

والرابع: التوكُّلُ على الله ﷻ في جلب الأمورِ المحَرَّمةِ وتحصيلِها، أو دفعِ الأمورِ المأمور بها. وهذا أمر لا يجوز.

وتسمية هذا النوع توكُّلًا فيه نظَرٌ ظاهر؛ وكيف يقال: إنَّ الكفار يوم أُحُدٍ كان معهم نَوْعُ توكُّلٍ على الله؛ هذا من تسمية الكفر بالإيمان، والعصيان بالطاعة، والفساد بالصلاح.

ولو قال العاصي: توكَّلتُ على الله في مَعْصِيتي، هل نسمِّي هذا توكُّلًا، وينطبِق عليه ما تقدَّم أو بعضه مِن تلك المعاني الجليلة التي يَحمِلُها اللفظ؟!

وعلى ذلك: فإبليس مِن أعظَم المتوكِّلين؛ لأنه يَعلَمُ أن ما أصابه لم يكن لِيُخطِئَه، وما أخطأه لم يكن لِيُصِيبَه.

ومَن تعرَّف على المعاني الجليلة، واستخدَمَها في طاعة الشيطان، والصدِّ عن سبيل الله، وإشاعةِ الفاحشة في الأرض، ونحو ذلك مِن أنواع الفساد، لَهُوَ أبعدُ ما يكون عن تلك المعرِفة الحقَّة، وهذا المقام الكريم.

وإذا كان قد تقدَّم أن التوكُّل عمَلُ القلب؛ فلا بدَّ أن نقيِّده إذَنْ بأنه: عمَلُ القلبِ السليمِ المؤمِنِ غيرِ المفتون، الذي يَعرِفُ المعروف معروفًا، والمنكَر منكَرًا.

والحقيقة: أن التوكُّل نوعٌ واحد، كما أن الإخلاص نوعٌ واحد، والخوفَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٥٠، ٩٢)، وعلَّقه البخاري في «صحيحه» (٤/٤٠)؛ من حديث ابن عمر ﷺ، وقال ابن تيمية في «الاقتضاء» (١/٢٦٩): «إسناده جيِّد»، وقال الذهبي في «السير» (١٥/٥٠٩): «إسناده صالح»؛ كما صحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/٢٧٠)، وابن حجر في «الفتح» (١٠/٢٣٠)، وأحمد شاكر في التعليق على «المسنَد» (٥١١٤، ٥١١٥)، والألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

نوعٌ واحد، وإنما الاختلاف في المتوكِّلِينَ والمُخلِصِينَ والخائِفِين ونحوهم؛ ومَن توكَّل على الله في النَّزْر اليسير من أمور الدنيا، فهو في الحقيقة من أعظم المتوكِّلين عند التحقيق، ولا يَتَّسِعُ المجال للإفاضة؛ لأنها ستفضي للإطالة، التي قد تُفضِي إلى المَلَالَة.

ثانيًا: التوكُّل على غير الله تعالى[1]:

وهذا النوع يَنقسِمُ إلى قسمَيْن:

القسم الأول: التوكُّل الشِّرْكيُّ الذي يكون شركًا بالله ﷻ؛ وهو أيضًا على نوعَيْن:

١ - التوكُّل على المخلوق فيما لا يَقدِرُ عليه إلّا الله تبارك وتعالى؛ كأولئك الذين يتوكَّلون على الأموات والطواغيت فيما لا يَقدِرون عليه؛ إما أصلًا، وإما حالًا؛ فيتوكَّلُ عليه في إنزال المطر، أو رفع الضرّ، ونحو ذلك، أو يتوكَّل عليه فيما يستطيعه في مَجَارِي العادات، لكنه ليس بحضرته، ولا يَسمَعُه، ولا يتمكَّن من إيصال حاجته إليه؛ كالذي يكون في وسط البحر، فيتوكَّل على الولي الفلاني في إنقاذه؛ فهذا يكون من قَبِيل الإشراك بالله تبارك وتعالى؛ ومن ذلك: طلَبُ هؤلاء المشرِكِينَ من هذه المعبودات أن تَنصُرَهم، أو تَشفَعَ لهم في الآخرة، ونحو هذا.

وهذا الذي يسمِّيه بعض العلماء بتوكُّل السِّرِّ، نظير: خوف السِّرِّ؛ وذلك أن يَعتقِد في هذا المتوكَّل عليه خاصِّيَّةً وقدرةً خفيَّةً يمكنه بها أن يُوصِل إليه المطلوب، وأن يدفع عنه المكروه والمرهوب، فيكون له نوعُ اعتقاد في هذا الإنسان، وهذا الاعتقاد يَحمِله على التوكُّل عليه.

٢ - التوكُّل على المخلوق في الأمور التي يَقدِرُ عليها - فيما يَظُنُّ - المتوكِّلُ عليه.

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص٤٢٨ - ٤٢٩).

وهذا شرك أصغر - عند بعض أهل العلم -؛ وذلك كالتوكُّل في الأسباب العاديَّة الظاهرة فيما يَظُنُّ أن ذلك الإنسان يقدر على تحقيق ذلك؛ كمن يتوكَّلُ على أمير أو سلطان فيما جعله الله بيده من الرِّزْق أو دفع الأذى، وكمن يعلِّقُ قلبه برئيسه في العمل، أو بوظيفته، أو بالطبيب، ونحو ذلك، فيَعتمِدُ عليه اعتماد افتقار؛ فهذا شرك خفي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فالقلبُ لا يتوكَّلُ إلّا على مَن يرجوه؛ فمَن رجا قوَّته، أو عمله، أو عِلْمه، أو حاله، أو صديقه، أو قرابته، أو شيخه، أو مَلِكَهُ، أو ماله، غيرَ ناظرٍ إلى الله تعالى: كان فيه نوعُ توكُّلٍ على ذلك السبب، وما رجَا أحدٌ مخلوقًا، أو توكَّل عليه، إلّا خاب ظنُّه فيه؛ فإنه مُشرِك»(١).

ولهذا قال شَقِيق البَلْخي: «لكل واحد مقام؛ فمتوكِّلٌ على ماله، ومتوكِّلٌ على نَفْسه، ومتوكِّلٌ على لسانه، ومتوكِّل على سيفه، ومتوكِّل على سَلْطَنته، ومتوكِّل على الله ﷻ.

فأما المتوكِّل على الله ﷻ، فقد وجَدَ الاسترواح؛ نوَّه الله به، ورفع قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وأما مَن كان مستروِحًا إلى غيره، يُوشِك أن يَنقطِع به فيَشْقَى»(٢).

لكنْ لو أنَّه التفَتَ إليه باعتباره سببًا، وأنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي قدَّر ذلك على يَدَيْهِ، فهذا لا بأس به؛ إذا كان لهذا السبب المنظور إليه ارتباطٌ صحيح في مثل هذا المعنى الذي التفَتَ إليه فيه.

فإنَّ مِن الكذب على القَدَر: أن يَعتقِد في شيءٍ - كالدواء مثلًا - أنه ينفع، لكنه في مَجَارِي العادات والتجارِب ليس كذلك، كأن يعتقِدَ في نوع من الأعشاب أنه إذا أكَلَه، أفاده في علاج المرض الفلاني؛ فهو لا يَظُنُّ أن فيه

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٥٧).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٣٨).

خاصيَّةً سِرِّية، وقدرةً خفيَّةً، ولكن يَعتقِد أنه بتركيبه وبطبيعته يفيد في هذا المعنى، فإنْ لم يكن كذلك، فهو كَذِبٌ على القدر، وقُلْ مثل ذلك فيمن يَعتقِد أنه إذا اغتسَلَ بماءٍ مِن عَيْنٍ معيَّنةٍ: أنه يبرأ من الرُّومَاتيزم.

وهذا الاعتقاد في الحقيقة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن يَعتقِد في هذا الشيء خاصيَّة خفيَّة سِرِّيَّة؛ فهذا شرك.

النوع الثاني: أن يَعتقِد أن هذه العَيْنَ مثلًا يوجد فيها مياه مَعدِنيَّة، أو مادة معيَّنة تفيد في العلاج من بعض الأمراض.

ولكنَّ الطبَّ يُثبِتُ خلاف ذلك؛ إما أنه لا يُوجَد فيها هذه المادَّة، أو أن هذه المادَّة لا تعلُّق لها بعلاج هذا المرض؛ فيكون ذلك من قبيل الكذب على القَدَر؛ وهو لا يجوز.

النوع الثالث: أن يكون ذلك صحيحًا في مَجَارِي العادات؛ فهذا لا إشكال فيه إذا تسبَّب به، وكان توكُّله على الله وحده.

ومما يتعلَّقُ بهذا النوع الشركي في التوكُّل: شركُ الألفاظ؛ كأن يقول لآخر: أنا متوكِّلٌ عليك يا فلان، فهذا لا يجوز، فإنْ كان في أمرٍ لا يَقدِرُ عليه إلّا الله ﷻ، فهو شرك أكبر، وإنْ كان في أمرٍ يَقدِرُ عليه هذا المخلوق؛ كأن يقول: أنا متوكِّلٌ عليك لتقضي لي الحاجة الفلانيَّة، أو تشتري لي الجهاز الفلاني، وهو يَقدِرُ على ذلك؛ فإن هذا يكون من قبيل شرك الألفاظ عند بعض أهل العلم.

ويختلِفُ التوكُّلُ في ذلك عن الاستعانة والاستغاثة؛ فيجوز أن يستغيث الإنسان ويستعين بمخلوق يَقدِرُ ويَملِك ذلك الغَوْثَ والعونَ بعد الله، والله ﷻ يقول: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]؛ فاستغاثه في أمرٍ يَقدِرُ عليه؛ وهذا يجوز.

أما التوكُّل، فلا يجوز أن يُصرَفَ قليلُهُ ولا كثيرُهُ إلا لله ﷻ، فهو مختصٌّ به، فإذا قال العبد للعبد: أنا متوكِّلٌ عليك، أو قال: أنا متوكِّلٌ على الله وعليك؛ فهذا مِن شِرْكِ الألفاظ، وإنْ كان يَقدِرُ عليه.

وقد سُئِل الشيخ محمد بن إبراهيم عن قول العامَّة: توكَّلْتُ عليك يا فلان في كذا، فأجاب: «هذا شِرْكٌ، أما التوكيلُ، فيجوز؛ لأنه استنابة»[(١)].

وكذا لا يجوز أن يقول: أنا متوكِّلٌ على الله وفلان، وهو على نحو ما ورَدَ عن النبي ﷺ مِن النهي عن قول: ما شاء الله وشِئْت[(٢)].

كما أنه لا يجوز أن يقال: أنا متوكِّلٌ على الله ثُمَّ عليك، كما يجوز في المشيئة؛ لأن التوكُّلَ كلَّه عبادة.

وقد سُئِلَ الشيخ محمد بن إبراهيم عن قول بعض العامَّة: توكَّلْتُ عليك يا فلانُ في كذا؟ فقال: «شِرْكٌ، يقول: موكِّلك، ولا يقول: موكِّلُ الله ثم موكِّلُكَ على هذا الشيء، هذه عاميَّة، وليست في محلِّها»[(٣)].

القسم الثاني: الوَكَالة الجائزة:

وذلك أن يقول لصاحبه مثلًا: وكَّلتُكَ في عمل كذا، أو بَيْعِ كذا، أو شراءِ كذا، ونحو ذلك، فمثل هذا مِن توكيله، وليس من التوكُّل عليه، وهي بمعنى: التفويض والحِفْظ؛ تقول: وَكَّلْتُ فلانًا: إذا استحفَظْتَهُ، ووَكَلْتُ الأمر إليه: إذا فَوَّضْتَهُ إليه.

---

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/١٧٠).

(٢) ورد ذلك في عدَّة أحاديث؛ من ذلك: حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ أخرجه ابن ماجه (٢١١٧)، وحسَّن إسناده الألباني في «الصحيحة» (١٣٩)، وورد كذلك في حديث قُتَيْلَةَ امرأةٍ من جُهَيْنة؛ أخرجه النسائي (٣٧٧٣)، وصحَّحه الحاكم (٤/٢٩٧)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٣٦). ومن حديث حُذَيْفة رضي الله عنه؛ أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وصحَّحه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٨٣٥)، وابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/٤٢٤)، والألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٠١).

(٣) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/١٧٠).

وهي في الشرع: «إقامةُ الشخصِ غيرَهُ مُقَامَ نَفْسِهِ مطلَقًا أو مقيَّدًا»[١].

والوَكَالةُ بهذا المعنى: جائزةٌ بالكتاب والسُّنَّة والإجماع؛ قال الله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام مخاطِبًا بنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

ووكَّل رسول الله ﷺ عُمَّالًا وحُفَّاظًا؛ قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وكَّلني رسولُ اللهِ ﷺ بحِفْظِ زكاةِ رَمَضانَ...»، الحديث[٢].

ووكَّل ﷺ في إثبات الحدود وإقامتها؛ كما في حديث أُنَيْس: «واغْدُ يَا أُنَيْسُ، إِلَى امْرَأَةِ هَذَا؛ فَإِنِ اعْتَرَفَتْ، فَارْجُمْهَا»[٣].

ووكَّل عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه في هَدْيِهِ في حَجَّة الوداع؛ بأن يتصدَّق بجلودها وجِلَالها، وأن يَنحَرَ ما بَقِيَ[٤].

قال شيخ الإسلام: «أمَرَ - أي: الله - أن يُتَّخَذَ وَكِيلًا، ونهى أن يُتَّخَذَ مَن دونه وكيلًا؛ لأن المخلوق لا يستقِلُّ بجميع حاجات العبد، والوَكَالةُ الجائزة: أن يوكِّلَ الإنسانَ في فعلٍ يَقدِرُ عليه، فيحصُلَ للموكِّل بذلك بعضُ مطلوبه، فأمَّا مطالبُهُ كلُّها فلا يقدر عليها إلّا الله، وذلك الذي يوكِّلُهُ لا يفعل شيئًا إلّا بمشيئة الله عز وجل وقدرته؛ فليس له أن يتوكَّل عليه وإن وكَّله، بل يَعتمِدُ على الله في تيسير ما وكَّله فيه»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) «فتح الباري» (٤/٥٥٩)، و«نيل الأوطار» (٥/٥٣١)، و«الموسوعة الفقهية» (٤٥/٧).

(٢) ذكره البخاري معلَّقًا (٢٣١١)، ووصله النسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧/١٦٩٨)؛ عن أبي هريرة، وزيد بن خالد رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (١٧٠٧)، ومسلم (١٣١٧)؛ من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) «جامع الرسائل» (١/٨٩)؛ وقد تقدَّم هذا النقل.

التوكّل وفعلُ الأسباب

إن الحديث عن الأسباب في موضوع التوكُّل يُعَدُّ مِن أهمّ ما يتعلَّق بهذا الباب، وفيه من المسائل والتفاصيل الكثيرة ما يتطلَّب شيئًا من البسط.

إذْ إن الحديث عن هذا الموضوع ينتظِمُ أمورًا متعدِّدةً، أهمها:

مواقف الناس من الأسباب:

ويُمكِن أن نُجمِل ذلك بأربعة مواقف:

الأول: موقف مَن يلتفِتُ إلى الأسباب التفاتًا كُلِّيًا، ويعتمِدُ عليها بقلبه وجوارحه من غير نَظَر إلى مسبِّبها؛ وهو الله تبارك وتعالى.

وهذا الذي عناه العلماء بأنه شركٌ في التوحيد؛ لأن الأسباب في نَظَر هذ الصنف هي المسبِّبة بذاتها، وهي المُوجِدةُ بنفسها، وهي الضارَّةُ والنافعة استقلالًا.

فأعرَضُوا عن التوكُّل؛ «فلم يكن لهؤلاء قُوَّةُ أصحاب التوكُّل، وعَوْنُ الله لهم، ودفاعُه عنهم، بل هي طائفةٌ مخذولةٌ بحَسَبِ ما فاتها من التوكُّل»[(١)].

وهذا حال الملاحدة والكُفَّار الذين لا يتوكَّلون على الله ﷻ ولا يَعرِفونه، وإنَّما يَعتقِدون أنَّهم مِن خلال الصناعات وقُوَّةِ السلاح والتكنولوجيا وخِبْراتهم في علوم الدنيا؛ أنهم يستطيعون تحقيق ما أرادوه؛ فهؤلاء قد اغتَرُّوا بأنفسهم، وتَعَدَّوْا طَوْرَهم.

---

(١) «زاد المعاد» (٢/٣٣١ - ٣٣٢)، و«الروح» (٢/٧٤٧ - ٧٤٨)؛ بتصرُّف.

الثاني: موقف مَن أهمَلُوا الأخذ بالأسباب بالكُلِّيَّة؛ فأعرضوا عنها من الناحية العملية، وهؤلاء عكس الطائفة الأولى تمامًا؛ فهؤلاء قالوا: إن الله هو الذي يَملِكُ النفع والضر، وبيده مقاليد الأمور، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يَكُنْ، وقد كتَبَ الله مقادير الأشياء؛ فلا نَلتفِتُ إلى الأسباب، وإنَّما نكتفي بالتوكُّل على الله تبارك وتعالى.

وهؤلاء أحسَنُ حالًا ممَّن قبلهم[1]، لكنهم مُخطِئُون مقصِّرون فيما أمر الله ﷺ به، وهؤلاء حصَلَ لهم من الأمور الشنيعة ما سيأتي ذكره، بإذن الله تبارك وتعالى؛ وهذا هو مفهومُ غالبِ الصوفيَّة للتوكُّل.

يقول ذو النُّون المِصْرِي عن التوكُّل: «خَلْعُ الأرباب، وقطعُ الأسباب»[2].

وعن سهل بن عبد الله؛ قال: «التوكُّل: أن يكون العبد بين يَدَيِ الله ﷻ كالميِّتِ بين يَدَيِ الغاسل؛ يقلِّبُهُ كيف يريد»[3]؛ أي: لا يكون له حركةٌ ولا تدبير.

وسُئِلَ ابن عطاء عن حقيقة التوكُّل؟ فقال: «ألَّا يَظهَر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدَّة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق، مع وقوفك عليها»[4].

وقال أبو عبد الله بن سالم: «مَن أطاق التوكُّل، فغيرُ مباحٍ له كسبٌ يعتمِدُ عليه، ومَن ضَعُفَ عن التوكُّل، أُبِيحَ له طلب المعاش في كسبه»[5].

وقد جرَّهم هذا المفهوم إلى ترك الاحتراز وعدَمِ الاحتياط، واعتبروه منافيًا للتوكُّل.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٢/٣٣١ - ٣٣٢)، و«الروح» (٢/٧٤٧ - ٧٤٨).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٨٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٣٣).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٠)، وسيأتي له عبارة أخرى في لزوم الأخذ بالأسباب.
(٤) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/٣٠٠)، ونقله ابن القيِّم في «مدارج السالكين» (٢/١١٥).
(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٧٨).

يقول أبو سُلَيْمان الدَّارَانيّ: «لو توكَّلنا على الله، ما بَنَيْنا الحائط، ولا جعلنا لباب الدار غَلَقًا؛ مخافةَ اللصوص»[١].

وقال أبو علي الرُّوذَباري: «إذا قال الصُّوفيُّ بعد خمسة أيَّام: أنا جائع، فألْزِمُوهُ السُّوق، ومُرُوهُ بالكسب»[٢].

ونظر أبو ترابٍ النَّخْشَبي إلى صوفيٍّ مَدَّ يَدَهُ على قشر بِطِّيخ ليأكُلَه بعد ثلاثة أيام، فقال له: «لا يصلُحُ لك التصوُّف؛ الْزَم السوق»[٣].

فهذا مفهومٌ سَلْبيٌّ منحرفٌ للتوكُّل، أدَّى بهم إلى انحرافاتٍ خطيرةٍ جِدًّا؛ فتركوا التكسُّب، ورأوا أنه ينافي التوكُّل، وترَكُوا عِمَارة الأرض، والأخذ بأسباب القوَّة، ومجاهدة الأعداء؛ فصاروا في غاية الخِذْلان.

إن هؤلاء حينما يهجُمُ العدوُّ على بلدٍ من البلاد يكتفون بترديد الأذكار والأوراد وقراءة «صحيح البخاري»؛ فيظنُّون أنهم بهذه الأمور يستطيعون دفع عادية الأعداء.

ونحن إنما ننبِّه إلى مثل هذا؛ لأننا في زمان أصبَحَ التصوُّفُ يروَّجُ له؛ من أجل أن يكون أحدَ الأسباب المخدِّرة للأمَّة عن مواجهة عدوِّها.

يقول ابن الجوزي: «لو قال رجل للصوفية: مِن أين أُطعِمُ عيالي؟ لقالوا: قد أشرَكْتَ، ولو سُئِلُوا عمَّن يخرُجُ إلى التجارة؟ لقالوا: ليس بمتوكِّل ولا مُوقِنٍ؛ وكلُّ هذا لجهلهم بمعنى التوكُّل واليقين»[٤].

وذكر الإمام القرطبي عنهم؛ أنهم قالوا: «لا يستحقُّه - أي: اسمَ التوكُّل - إلّا مَن لم يخالِطْ قلبَهُ خوفُ غيرِ اللهِ؛ من سَبُعٍ أو غيره، وحتَّى يترك السعيَ في طلب الرِّزْقِ؛ لضمان الله تعالى»[٥].

---

(١) المصدر السابق (٩/٢٥٦).

(٢) أخرجه القشيري في «رسالته» (١/٢١٨).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٤٩)، وذكره القشيري في «رسالته» (١/٣٠٦)؛ واللفظ له.

(٤) «تلبيس إبليس» (٢٨٤).

(٥) «المفهم لما أشكَلَ من تلخيص كتاب مسلم» (١/٤٦٧).

وقد جرَّهم هذا المفهوم الفاسد إلى الخروج إلى البَرِّيَّة، وركوب الأخطار، والإقدام على الأسفار، من غير تزوُّد، وربما جاء أحدهم إلى الحجِّ أو العمرة مِن مكان بعيد، وهو لا يحمل زادًا، وليس معه راحلة، ولا يَدفَع عن نفسِهِ ما يعترضه من آفات الطريق؛ بدعوى أن ذلك ينافي التوكُّل.

وقد أخرج البخاري وغيره؛ مِن حديث ابن عبَّاس ﵄؛ قال: «كان أهلُ اليَمَنِ يَحُجُّون، ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قَدِمُوا مَكَّةَ، سألوا الناس، فأنزَلَ الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]»(١).

قال البيهقي: «وفي هذا: أنَّ الله تعالى أمَرَ زُوَّارَ بيته بالتزوُّد، وقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾؛ يعني - والله تعالى أعلم -: فإنَّ خير الزاد ما عاد على صاحبِهِ بالتقوى».

وقال الحَلِيمي: «وهو ألَّا يتوكَّل على أزواد الناس، فيُؤْذِيهم، ويضيِّق عليهم، ومَن دخَلَ البادية بلا زاد متوكِّلًا، فإنما يرجو أن يقيِّضَ الله تعالى مَن يُواسِيهِ مِن زاده؛ وهذا عين ما أشارت الآية إلى المَنْعِ منه؛ فبان أنَّه لا معنى لاستحبابه، وإنما المستحَبُّ: هو التزوُّدُ، أو الجلوسُ إذا لم يكن زادٌ حتى يكون»(٢).

وقال الحسين الرازي: «شَهِدتُ أحمد بن حنبل ﵁، جاءه رجل مِن أهل خراسان، فقال له: يا أبا عبد الله، معي دِرْهَمٌ، وأُرَاهُ - قال - أحُجُّ بهذا الدرهم؟ فقال له أحمد: اذهَبْ إلى باب الكَرْخِ، فاشتَرِ بهذا الدرهم مَنًّا، واحمِلْ على رأسك حتى يصير عندك ثلاثمائة، فإذا صار عندك ثلاثمائة، فحُجَّ. قال: يا أبا عبد الله، ما ترى مكاسِبَ الناس؟ قال أحمد: انظُرْ إلى هذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٣).

(٢) «شعب الإيمان» (٢/١٣٦).

الخبيث؛ يريد أن يُفسِدَ على الناس معايشَهم، قال: يا أبا عبد الله، أنا متوكِّلٌ، قال: فتدخُلُ الباديةَ وحدَكَ أو مع الناس؟ قال: لا، مع الناس، قال: كَذَبْتَ، لستَ أنت بمتوكِّل، فادخُلْ وحدك، وإلا فأنت متوكِّلٌ على جُرُبِ الناس»[١].

وسُئِل سفيان بن عُيَيْنة عن قوم يَلبَسُون الشَّعْر، ويَحُجُّونَ، ولا يتزوَّدون، ويزعُمُون أن مَن حمل الزاد، فليس بمؤمن؟ فقال: «كذَبُوا؛ هؤلاء أعداء السُّنَّة، لا تجالِسُوهم، ولا تحدِّثوهم»[٢].

وهذا القول - أعني: الإعراضَ عن الأسباب بالكليَّة - هو الذي حكَمَ عليه العلماء: بأنه قَدْحٌ في الشرع.

قال ابن القيِّم: «وطائفةٌ قدَحُوا في أربابها - أي: أصحابِ الأسباب - وجعَلُوهم مخالفين للشَّرْع والعَقْل، مدَّعين لأنفُسِهم حالًا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه؛ إذْ لم يكن فيهم أحدٌ قَطُّ يفعل ذلك، ولا أخلَّ بشيءٍ من الأسباب، وقد ظاهر النبي ﷺ بين دِرْعَيْنِ في يوم أُحُد[٣]، ولم يحضُرِ الصفَّ قطُّ عريانًا ﷺ - يعني: مِن غير دِرْع ...- واستأجر دليلًا مشرِكًا على دِينِ قومه يَدُلُّهُ على طريق الهجرة... وكان يَدَّخِر لأهله قوت سَنَةٍ، وهو سيِّد المتوكِّلين، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة، حمَلَ الزاد والمَزَاد، وجمَعَ أصحابه، وهم أولو التوكُّل حقًّا، وأكملُ المتوكِّلين بعدهم هو مَن اشتَمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرة بعيدة، أو لَحِقَ أثرًا من غُبَارهم؛ فحالُ النبي ﷺ وحال أصحابه مَحَكُّ الأحوال وميزانها؛ بها يُعلَمُ صحيحها من سقيمها»[٤].

(١) أخرجه الخَلَّال في «الحث على التجارة» (٩٤)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٣١٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (٨/٢٦٩).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «مدارج السالكين» (٢/١٣٤ - ١٣٥).

فالحاصل: أن هؤلاء الصوفيَّة قد وقَعُوا في أمرٍ قبيح، ولكنْ ليس ذلك عند جميعهم:

فهذا سهل بن عبد الله التُّسْتَري - وهو مِن أئمَّة الصوفيَّة الأوائل - يقول: «مَن قال: إن التوكُّل يكون بتركِ السبب، فقد طعَنَ في سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]؛ فالغنيمة اكتساب، وقال الله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فهذا عمَلٌ»[١].

ويقول: «مَن طعَنَ في الاكتساب، فقد طعَنَ في السُّنَّة، ومَن طعَنَ في التوكُّل، فقد طعَنَ في الإيمان»[٢].

وجاء عن الجُنَيْد؛ أنه قال: «سمعتُ السَّرِيَّ يذمُّ الجلوس في المسجد، ويقول: جعَلُوا مسجد الجامع حوانيتَ ليس لها أبواب»[٣]؛ أي: أنهم يَجلِسون في المسجد ينتظرون صلة الناس وعطاءهم؛ فكأنَّهم جعلوا المساجد دَكَاكِين، لكنْ ليس لها أبواب.

وقال إبراهيم الخَوَّاص: «أدَبُ التوكُّل ثلاثة أشياء: صحبةُ القافلة بالزَّاد، والجلوسُ في الزورق بالزَّاد، والجلوسُ في المجلس بالزَّاد»[٤].

وقال الغزالي: «إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شِرْكٌ في التوحيد، والتثاقُلَ عنها بالكلِّيَّةِ طعنٌ في السُّنَّة، وقدحٌ في الشرع، والاعتماد على الأسباب من غير أن تُرَى أسبابًا تغييرٌ في وجه العقل، وانغماسٌ في غَمْرة الجهل»[٥].

---

(١) تفسير القرطبي (١٩٢/٥)، وقد مضى قريبًا من كلامه ما يخالِفُ هذا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» ١٩٥/١٠)، والقشيري في «رسالته» (٢٣٠٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٦٨).

(٤) المصدر السابق (١٢١٢).

(٥) «إحياء علوم الدين» (٢٤٣/٤).

ولذلك قال الإمام النووي: «وذهب المحقِّقون منهم - يعني: الصوفيَّةَ وأصحابَ علم القلوب - إلى نحو مذهب الجمهور»[(١)].

وقد علَّلوا هذا المفهوم الخاطئ للتوكُّل، وحاولوا تعليلَ قعودهم، وتركِ التكسُّب؛ ببعض الشُّبَهِ الضعيفة، أشار إليها ابن الجوزي، وأجاب عليها، فقال: «وقد تشبَّث القاعدون عن التكسُّب بتعلُّلات قبيحة:

منها: أنهم قالوا: لا بد من أن يَصِلَ إلينا رزقنا!

وهذا في غاية القُبْحِ؛ لأن الإنسان لو ترَكَ الطاعة، وقال: لا أَقدِرُ بطاعتي أن أغيِّرَ ما قضى اللهُ عليَّ؛ فإنْ كنتُ من أهل الجنة، فأنا إلى الجنة، أو مِن أهل النار، فأنا من أهل النار، قلنا له: هذا يَرُدُّ الأوامرَ كلَّها، ولو صَحَّ لأحد ذلك، لم يخرُجْ آدمُ من الجنَّة؛ لأنه كان يقول: ما فعلتُ إلّا ما قُضِيَ عليَّ، ومعلوم أننا مطالَبون بالأمْر لا بالقَدَر».

وقال: «ومنها: أنهم يقولون: أين الحلال حتى نَطلُبَ؟

وهذا قولُ جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطِعُ أبدًا؛ لقوله ﷺ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ»[(٢)]، ومعلومٌ أن الحلال ما أَذِنَ الشرع في تناوُله؛ وإنما قولهم هذا احتجاج للكَسَل»[(٣)].

وقالوا: إذا كَسَبْنا أَعَنَّا الظَّلَمةَ والعصاة... ومما يُحكَى عن أحد أشياخهم - وهو فَتْحٌ المَوْصِلي - أنه قيل له: أنت صَيَّادٌ بالشَّبَكة؛ لِمَ لا تصطاد؟ فقال: «أخافُ أن أصطاد مُطِيعًا لله تعالى في جوف الماء، فأُطعِمَه عاصيًا لله على وجه الأرض!»[(٤)].

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣/٩١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «تلبيس إبليس» (ص٣٢٠).

(٤) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (١٢/٣٨٣)؛ ومن طريقه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٢٨٧).

قال ابن الجوزي: «قلتُ: إن صَحَّتْ هذه الحكاية عن فَتْح الموصلي، فهو من التعلُّل البارِدِ المخالف للشرع والعقل؛ لأن الله تعالى أباح الكَسْب، وندَبَ إليه، فإذا قال قائل: ربَّما خَبَزْتُ خُبْزًا، فأكَلَهُ عاص، كان حديثًا فارغًا؛ لأنه لا يجوز لنا إذَنْ أن نبيع الخُبْزَ لليهود والنصارى»(١).

إلى غير ذلك مما ذكروه؛ وهي عِلَلٌ باطلة، تدُلُّ على سفاهة عقولهم بأدنى تأمُّل.

* * *

(١) «تلبيس إبليس» (ص٢٨٧).

المفَاسِدُ المُترتّبةُ على تَرْكِ الكَسْب بِدَعْوَى التَّوكّل

للإعراضِ عن الكسب، والخمول بدعوى التوكُّل، من الآفات والمفاسد ما يصعُبُ حصره، ولكن نشير إلى أهمها:

١ - تعلُّق قلب العبد بما يقيم أَوَدَه، ويسيِّرُ حياتَه؛ لأنه لا يمكن أن يعيش بغير ذلك، فيبقى منشغِلًا بالتفكير بين القيام بتحقيق ما لا بُدَّ منه من أجل الحياة، أو تحقيقِ التوكُّل على مفهومه المزعوم، ومجاهدةِ نفسه على تغيير فِطْرتها التي فطَرَها الله عليها.

٢ - تضييع كثيرٍ من الحقوق التي أوجَبَها الله تعالى على العبد، وقد قال سَلْمان لأبي الدرداء ﵄: «إنَّ لِرَبِّكَ عليك حقًّا، ولِنَفْسِكَ عليك حقًّا، ولأَهْلِكَ عليك حقًّا؛ فأَعْطِ كلَّ ذي حق حقَّه»، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»(١).

٣ - تطلُّع النَّفْس إلى ما في أيدي الناس، وتعريضُها للحاجة والسؤال.

٤ - أنَّا لو سَلَّمْنا لصاحب هذه الحال بمقامه جدَلًا، فإنه يُخشَى عليه أن يداخِلَهُ مِن العُجْب والكبر والغرور والاستعلاء على الآخرين ما يُفسِدُ عليه قَلْبَه.

الثالث: موقفُ مَن ينفي تأثير الأسباب بالكُلِّيَّة.

وهذا القول هو الذي وصَفَهُ العلماء بأنه نقصٌ في العقل، وهو قول القَدَريَّةِ الجبريَّة، أتباعِ جَهْم بن صَفوان في الجَبْر، وقد تابَعَهُ في ذلك بعض الأشاعرة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٨)؛ من حديث أبي جُحَيْفة ﵁.

يقول ابن القيِّم: «وعندهم: أن الله لم يخلُقْ شيئًا بسبب، ولا جعَلَ في الأسباب قوًى وطبائعَ تؤثِّر؛ فليس في النار قوَّةُ الإحراق، ولا في السُّمِّ قوةُ الإهلاك، ولا في الماء والخبز قوةُ الرِّيِّ والتغذِّي به، ولا في العين قوةُ الإبصار، ولا في الأُذُن والأنف قوةُ السمع والشمّ؛ بل الله سبحانه يُحدِثُ هذه الآثار عند ملاقاة هذه الأجسام، لا بها؛ فليس الشِّبَعُ بالأكل، ولا الرِّيُّ بالشرب، ولا العلمُ بالاستدلال، ولا الانكسار بالكسر، ولا الإزهاق بالذبح، ولا الطاعات والتوحيد سببًا لدخول الجنة والنجاة من النار، ولا الشرك والكفر والمعاصي سببًا لدخول النار، بل يدخُلُ هؤلاء الجَنَّةَ بمحض مشيئته، من غير سببٍ ولا حِكْمةٍ أصلًا، ويدخُلُ هؤلاء النار بمحض مشيئته، من غير سببٍ ولا حِكْمةٍ...

وطَرْدُ هذا المذهب: مُفسِد للدنيا والدين، بل ولسائر أديان الرسل؛ ولهذا:

لما طرَدَهُ قوم، أسقَطُوا الأسباب الدنيويَّة وعطَّلوها، وجعلوا وجودها كعَدَمِها، ولم يمكنهم ذلك؛ فإنَّهم لا بدَّ أن يأكلوا ويشربوا، ويباشروا من الأسباب ما يَدفَعُ عنهم الحَرَّ والبَرْدَ والألم...

وقومٌ طردوه، فتركوا له الأسباب الأخرويَّة، وقالوا: سَبْقُ العِلْمِ والحُكْمِ بالسعادة والشقاوة، لا يتغيَّرُ البتة؛ فسواءٌ علينا الفعل والتَّرْك؛ فإنْ سبَقَ العلم والحُكْم بالشقاوة، فنحن أشقياء؛ عَمِلنا أو لم نعمل، وإنْ سبَقَ بالسعادة، فنحن سعداء؛ عَمِلنا أو لم نعمل...

قال شيخنا - أي: شيخ الإسلام ابن تيميَّة -: «وهذا الأصل الفاسد مخالِف للكتاب والسُّنَّة وإجماع السلف وأئمَّة الدين، بل ومخالِف لصريح العقل والحس والمشاهَدة»[(١)].

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٩٥ - ٤٩٧).

الرابع: موقف أهل الحَقِّ، أهلِ السنة والجماعة، الذين قالوا: على الإنسان أن يَعمَل بجوارحه، وأن يقوم بالأسباب، وأن يَجتهِد، وأن يعلِّق قلبَهُ بمسبِّب الأسباب[1]، ويعلم: أنه لا يحصُلُ له شيءٌ إلّا بمشيئته وإرادته؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيتوكَّلُ عليه حق التوكُّل، ويَعتقِد أن الله قد جعَلَ هذه أسبابًا يحصُلُ بها المطلوب؛ سواءٌ كان ذلك في أمور الدنيا، أو في أمور الآخرة.

يقول ابن القيِّم: «فالموحِّدُ المتوكِّلُ لا يلتفِتُ إلى الأسباب؛ بمعنى أنه لا يطمئِنُّ إليها، ولا يرجوها، ولا يخافها، فلا يَركَنُ إليها، ولا يلتفِت إليها - بمعنى: أنه لا يُسقِطُها، ولا يُهمِلها ويُلغِيها - بل يكون قائمًا بها، ملتفِتًا إليها، ناظرًا إلى مسبِّبها سبحانه ومُجرِيها؛ فلا يصح التوكُّل - شرعًا وعقلًا - إلّا عليه سبحانه وحده»[2].

* * *

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (٢/٣٣١)، و«الروح» (٢/٧٤٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٥٠٠).

الأدلة على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل

والأدلَّة على هذا كثيرة جدًّا من الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]؛ قال القرطبي: «فالغنيمة: اكتساب»[١]، وقال ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأما مِن السُّنَّة: فعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ؛ قال: «وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي»[٢].

قال الحَلِيمي: «فلو كان انتظارُ الرزق بالصبر والصمت أفضلَ مِن طلبه بما أَذِنَ الله تعالى فيه، لَمَا حرمَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أفضل الوجهَيْن، وعرَّضه لأرذلهما»[٣].

وعن المِقْدام بن مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «ما أَكَلَ أحدٌ

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/١٨٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ذكره البيهقي في «الشعب» (٣/١٣٨). وهو في «المنهاج» للحليمي (٢/٧) مع اختلاف يسير.

طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»(١).

قال ابن حجر: «وفي الحديث: أنَّ التكسُّبَ لا يَقدَحُ في التوكُّل»(٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: قال رجل: يا رسول الله، أَعْقِلُهَا وأَتَوَكَّلُ، أو أُطْلِقُهَا وأَتَوَكَّلُ؟ قال: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «خَيْرُ الْكَسْبِ كَسْبُ يَدِ الْعَامِلِ إِذَا نَصَحَ»(٤).

وعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه مرفوعًا: «لَوْ أَنَّكُم تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»(٥).

قال البيهقي: «ليس في هذا الحديث دَلَالةٌ على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدُلُّ على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غَدَتْ فإنَّما تَغدُو لطلب الرزق»(٦).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٢).

(٢) «فتح الباري» (٤/٣٥٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، واستنكَرَهُ يحيى القطَّان؛ فيما نقله الترمذي، والذهبي في «الميزان» (٤/١٦٥) وضعَّفه الترمذي، وحسَّنه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (٢٢)، وفي «صحيح الجامع» (١٠٦٤). وفي الباب: عن عمرو بن أمية الضَّمْري رضي الله عنه؛ أخرجه ابن خُزَيْمة في «التوكل»؛ فيما نقلَ ابن حجر في «إتحاف المهرة» (١٢/٤٤٦)، وابن حبان (٧٣١)، والحاكم (٣/٦٢٣)، وصحَّحه ابن حبان، والحاكم، والذهبي، والزركشي؛ كما في «الفيض» (٢/٨)، وجوَّد إسناده العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢/١١٣١).

(٤) أخرجه أحمد (٢/٣٣٤، ٣٥٨)، والبيهقي في «الشعب» (١١٨٠)، و«الآداب» (١١١٤)، وحسَّنه العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٦٤)، والألباني في «صحيح الترغيب» (٧٧٦).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) «شعب الإيمان» (٣/١٢٢).

قال ابن رجب: «وهذا الحديثُ أصلٌ في التوكُّل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرِّزْق»(١).

وعن عمرو بن الشَّرِيد، عن أبيه رضي الله عنه؛ قال: كان في وَفْدِ ثقيفٍ رجلٌ مجذومٌ، فأرسَلَ إليه النبيُّ ﷺ: «إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ؛ فَارْجِعْ»(٢).

وعن عمر رضي الله عنه؛ قال: «كان رسولُ اللهِ ﷺ يُنفِقُ على أهلِهِ نَفَقةَ سَنَتِهم مِن هذا المال، ثم يأخُذُ ما بَقِيَ فيَجعَلُهُ مَجعَلَ مال الله»(٣).

قال النووي: «وفي هذا الحديث: جوازُ ادِّخارِ قُوتِ سَنَة، وجوازُ الادِّخار للعيال، وأنَّ هذا لا يَقدَح في التوكُّل»(٤).

فهذا هَدْيُهُ ﷺ، وهو أكمل الهدي، وحال أصحابه هو مَحَكُّ الأحوال وميزانها، وبه يُعلَمُ صحيحها من سقيمها؛ فإن هِمَمَهم في التوكُّل كانت أعلى مِن همم مَن بعدهم؛ كما تقدَّم.

قال أبو عثمان الحِيْرِيّ: «اليقين لا يَمنَع المُوقِنينَ من طلب الحظِّ الوافي من الدنيا، وإنما يدُلُّ على ترك الفضول؛ رضًا بالقليل، وزهدًا في الكثير، اتِّباعًا لرسول رب العالمين ﷺ ولأصحابه؛ فإنهم أئمَّة المتوكِّلين والزاهدين... ومَن زعَمَ أن اليقين يمنع طلَبَ القوت والكفاف، فقد جَهِلَ اليقين، وخالف سنن السلف الصالحين»(٥).

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص٨١١ - ٨١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣١).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٣٣)؛ واللفظ له، ومسلم (١٧٥٧).

(٤) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٢/٧٠).

(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤٥٨/١٢١٩).

هَدْيُ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي التَّوَكُّلِ وَفِعْلِ الأَسْبَاب

يقول علي بن الفُضَيْل: سمعتُ أبي يقول لابن المبارَك: «إنك تأمُرُنا بالزهد والتقلُّل والبُلْغة، ونراك تأتي بالبضائع مِن بلاد خُرَاسان إلى البلد الحَرَام؛ كيف ذا وأنت تأمُرُنا بخلاف ذا؟ فقال ابن المبارَك: يا أبا عليٍّ، إنما أفعل ذا لِأَصُونَ وجهي، وأُكرِمَ بها عِرْضي، وأستعينَ بها على طاعة ربِّي؛ لا أرى لله حقًّا إلّا سارَعْتُ إليه حتى أقوم به، فقال له الفُضَيْل: يا ابن المبارَك، ما أحسَنَ ذا، إنْ تَمَّ ذا!»[١].

وكان ابن المبارَك يَتَّجِرُ لِيُنفِق على كثير من العلماء الذين قد شغَلَهم حفظُ حديث رسول الله ﷺ وجمعه وكتابته عن العمل والتجارة[٢].

وكتب أبو قِلَابة إلى تلميذه أيوب السَّخْتِيَانيّ بكتاب يقول فيه: «الْزَمْ سُوقَك، واعلَمْ أن الغنى معافاة»[٣].

وعن عبد الله بن محمَّد الباهلي؛ قال: جاء رجل إلى الثوري، فقال: يا أبا عبد الله، تُمسِكُ هذه الدنانير؟! فقال: «اسكُتْ؛ لولا هذه الدنانير، لَتَمَنْدَلَ بنا هؤلاءِ الملوك!»[٤].

وسأل رجلٌ الحسَنَ، فقال: يا أبا سعيد، أفتَحُ مصحفي فأقرأه حتى

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٩).
(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/١١٦).
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢١٠٢١)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٠٣).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٨١).

أُمْسِي، قال الحسن: «اقرأه بالغداة، واقرأه بالعشي، وكُنْ سائرَ نهارِكَ في صَنْعَتك وما يُصلِحك»[١]؛ فأرشَدَهُ إلى الاكتساب والعمل.

وكان الإمام أحمد يأمر بالسُّوقِ، ويقول: «ما أحسَنَ الاستغناء عن الناس!»[٢].

وسُئِلَ عن قوم لا يعملون، ويقولون: نحن متوكِّلون؟ فقال: «هؤلاء مُبتدِعة»[٣].

وكان يقول: «ينبغي للناس كلِّهم أن يتوكَّلوا على الله، ولكنْ يَعُودُونَ على أنفسهم بالكسب... يعني: مَن قال بخلاف هذا، فهو إنسانٌ أحمق»[٤].

ويقول: «الاستغناء عن الناس بطَلَبٍ - يعني: العمل - أعجَبُ إلينا من الجلوس وانتظار ما في أيدي الناس»[٥].

وكان يقول: «صِدْقُ التوكُّل على الله ﷻ: أن يتوكَّل على الله، ولا يكونَ في قلبه أحدٌ من الآدميين؛ يطمع أن يجيئه بشيء، وإذا كان كذلك، كان الله يرزُقُه، وكان متوكِّلًا»[٦].

وقال أيوب السَّخْتِيَاني: «لو أعلَمُ أنَّ أهلي يحتاجون إلى حُزْمةٍ أو دَسْتَجَةٍ - يعني: دستة - مِن بقلٍ، ما جلستُ معكم»[٧].

ويقول ابن المبارَك: «لا يقع من الفضل شيء، ولا الجهاد في سبيل الله، مثلُ السعيِ على العِيَال»[٨].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٠١).
(٢) أخرجه الخلَّال في «الحث على التجارة» (٤).
(٣) أخرجه الخلال في «الحث على التجارة» (١١١).
(٤) ذكره عبد الله في «مسائل والده» (ص٤٤٨)؛ ومن طريقه الخلَّال في «الحث على التجارة» (١٠٩).
(٥) أخرجه الخلَّال في «الحث على التجارة» (١٠٩).
(٦) أخرجه الخلَّال في «الحث على التجارة» (١٢٠٥).
(٧) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (٢/٢٣٦)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٠٥).
(٨) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٠).

وقال مسلم بن يَسَار في الكلام في القَدَر: «هما واديان عريضان، يسلُكُ الناس فيهما، لن يُدرِكَ غَوْرُهما؛ فاعمَلْ عمَلَ رجلٍ يعلم أنه لن يُنجِيَكَ إلّا عملك، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ يعلم أنه لن يصيبك إلّا ما كتَبَ الله لك»(١)؛ وهذا مِن أنفع الكلام، ومِن أجمعه في هذا الباب.

وهذا سعيد بن المسيَّب لما حضَرَهُ الموت، ترك دنانير، وقال: «اللهُمَّ، إنك تَعلَم أني لم أجمَعْها إلّا لِأَصُونَ بها حَسَبي وديني»(٢)؛ وهذا محمود في الكسب، وفي الادِّخار.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «يا معشر القرَّاء، ارفعوا رؤوسكم، ما أوضَحَ الطريق! فاستبِقُوا الخيرات، ولا تكونوا كَلًّا على المسلمين»(٣).

وقال سعيد بن المسيَّب: «مَن لَزِمَ المسجد، وقَبِلَ كُلَّ ما يُعطَى، فقد أَلْحَفَ في المسألة»(٤).

وليس هذا خاصًّا بهذه الأُمَّةِ فحَسْبُ؛ بل إن التكسُّبَ والأمر به هو دَيْدَنُ الأنبياء السابقين، وهم سادات المتوكِّلين.

قال ابن الجوزي: «كان آدمُ عليه السلام حَرَّاثًا، ونُوحٌ وزكريا نَجَّارَيْن، وإدريسُ خيَّاطًا، وإبراهيمُ ولوطٌ زرَّاعَيْن، وصالحٌ تاجرًا، وكان سليمان يعمل الخُوص، وداودُ يصنع الدِّرْع، ويأكُلُ من ثمنه، وكان موسى وشُعَيْبٌ ومحمَّد رُعَاةً؛ صلى الله عليهم وسلم أجمعين»(٥).

---

(١) أخرجه ابن بطة العكبري في «الإبانة» (١٢٧٨)، وأبو نعيم (٢/٢٩٢) مختصرًا، وابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/١٤٥)؛ واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/١٧٣)، والبيهقي في «الشعب» (١١٩٥)؛ واللفظ له.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٦٣).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (٢٢٨)، والبيهقي في «الشعب» (١١٦٧)؛ واللفظ له.

(٥) «تلبيس إبليس» (٢٨٤).

فهذا الذي تدلُّ عليه النصوص، وحال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحال السلف الصالح، وهو أن الأخذ بالأسباب لا يُنافِي التوكُّل، بل الإنسان يبذُلُ الأسباب في جلب المنافع ودفع المَضَارّ، والتوكُّلُ من جملة الأسباب؛ فنحن مأمورون بالأخذ بهذه الأسباب، و«لا تقوم عبوديَّةُ الأسباب إلّا على ساق التوكُّل، ولا يقوم ساق التوكُّل إلّا على قدَمِ العبوديَّة»[١].

وقال الحافظ ابن حجر: «والمراد بالتوكُّل: اعتقادُ ما دلَّت عليه هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، وليس المراد به: تَرْكَ التسبُّب، والاعتمادَ على ما يأتي من المخلوقين؛ لأن ذلك قد يَجُرُّ إلى ضدِّ ما يراه من التوكُّل»[٢].

وقال ابن رجب: «واعلم: أن تحقيق التوكُّل لا يُنافِي السعيَ في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بها، وجَرَتْ سنَّته في خلقه بذلك؛ فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمرِهِ بالتوكُّل؛ فالسعيُ في الأسباب بالجوارح طاعةٌ له، والتوكُّلُ بالقلب عليه إيمان به»[٣].

وقال سهل التُّسْتَري: «مَن طعَنَ في الاكتساب، فقد طعن في السُّنَّة، ومَن طعَنَ في التوكُّل، فقد طعَنَ في الإيمان»[٤]؛ فالتوكُّل حال النبي ﷺ، والكسب سُنَّته؛ فمن عمل على حاله، فلا يَترُكَنَّ سنته.

وقال ابن عَقِيل: «يظنُّ أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكُّل، وأن التوكُّل هو إهمال العواقِب، واطِّرَاحُ التحفُّظ؛ وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط، الذي يقتضي من العقلاءِ التوبيخَ والتهجين»[٥].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

(٢) «فتح الباري» (١١/٣١٢).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٤٩٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) «تلبيس إبليس» (ص٣١٢ - ٣١٣).

وقال ابن حجر: «والحق: أن مَن وَثِقَ بالله، وأيقَنَ أن قضاءه عليه ماض، لم يَقدَح في توكُّله: تعاطيه الأسبابَ اتباعًا لسُنَّتِه وسُنَّةِ رسوله»[1].

وقال ابن القيِّم: «لا تَتِمُّ حقيقة التوحيد إلّا بمباشَرة الأسباب التي نصَبَها الله مقتضِياتٍ لمسبَّباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يَقدَح في نفس التوكُّل، كما يَقدَح في الأمر والحِكْمة»[2].

* * *

(١) «فتح الباري» (١٠/٢٢٣).

(٢) «زاد المعاد» (٤/١٤).

أَقْسَامُ التّوَكّل بِالنّظَرِ إِلَى تَعَلُّقِهِ بِالأَسْبَابِ[(١)]

وهو من هذه الحيثية يُجعَلُ على قسمَيْن:

الأول: توكُّل اضطرار؛ بحيث لا يجد العبد مَلجَأً ولا ملاذًا إلّا التوكُّلَ على الله، كما إذا تقطَّعت به الأسباب، وضاقت عليه نفسه؛ فظنَّ أنْ لا مَلجَأَ من الله إلّا إليه؛ وهذا لا يتخلَّف عنه الفرَجُ والتيسير؛ بحول الله.

الثاني: توكُّل اختيار؛ وهو التوكُّل مع وجود السبب المفضي إلى المراد؛ وهو على ثلاثة أنواع:

١ - أن يكون السبب مأمورًا به؛ فهنا يجبُ عليه الجمعُ بين اتخاذ السبب، وتحقيق التوكُّل.

قال ابن القيِّم: «الواجبُ: القيامُ بهما، والجمعُ بينهما»[(٢)]؛ والقيام به لا ينافي تحقيق التوكُّل، بل هو من تمام التوكُّل.

٢ - أن يكون السبب منهيًّا عنه؛ فهنا تحرُمُ مباشرة السبب، ويتعيَّن تحقيق التوكُّل، فلم يَبْقَ سببٌ سواه؛ لأن التوكُّل من أقوى الأسباب كما قدَّمنا، ومباشَرةُ الأسباب المحرَّمة أو المكروهة أو الموهومة قادحٌ في تحقيق التوكل، بل تلك الأسباب باطلة مُضِرَّة.

٣ - «أن يكون السبب مباحًا؛ فهنا يُنظَر: أيُضعِفُ قيامُكَ به التوكُّلَ أم لا؟: فإنْ أضعَفَهُ، وفرَّق عليك قلبك، وشتَّت شَمْلَك، فتركُهُ أولى.

---

(١) انظر: «الفوائد» (ص١٢٥).

(٢) المصدر السابق (ص٨٦).

وإنْ لم يُضْعِفْهُ، فمباشرته أولى؛ لأن حكمةَ أحكم الحاكمين اقتضَتْ ربط المسبَّب به، فلا تعطَّل حكمته مهما أمكن القيام بها، ولا سيما إذا فَعَلْتَهُ عبوديَّةً، فتكون قد أتيتَ بعبوديَّة القلب بالتوكُّل، وعبوديَّة الجوارح بالسبب المَنْوِيِّ به القُرْبةُ»[١].

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (ص١٢٥)؛ بتصرُّف.

أَقسَامُ الأَعمَالِ الصَّادِرَةِ عَنِ العَبدِ

الأول: الطاعات التي أمَرَ الله بها، وجعَلَها سببًا لدخول الجَنَّة والنجاة من النار.

فهذا لا بدَّ من فعله، مع التوكُّل على الله فيه، والاستعانة به عليه؛ فإنه لا حَوْلَ ولا قوة إلّا به، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثاني: ما أجرى الله به العادةَ في الدنيا، وأمَرَ عبادَهُ بتعاطيه؛ كالأكلِ عند الجوع، والشرب عند العَطَش، والاستظلال من الحَرّ، والتدفُّؤ من البرد.

فهذا واجبٌ على المرء تعاطي أسبابه، ومَن قصَّر فيه حتى تضرَّر بتركه، مع القدرة على استعماله، فهو مفرِّط، يستحِقُّ العقوبة.

الثالث: ما أجرى الله به العادةَ في الأعمِّ الأغلب، وقد يَخرِقُ العادة في ذلك لمن شاء من عباده؛ فقوله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ»[١]، يبيِّن أن الناس إنما يُؤْتَوْنَ من قلَّة تحقيق التوكُّل، ووقوفِهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكَنَتهم لها، فلو حقَّقوا التوكل على الله بقلوبهم، لساق إليهم أرزاقَهم مع أدنى سَبَب؛ كما يسوق إلى الطير أرزاقها بمجرَّد الغُدُوِّ والرَّوَاح»[٢].

قال ابن القيِّم: «وسِرُّ التوكل وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وَحْدَه، فلا يضرُّه مباشَرة الأسباب، مع خُلُوِّ القلب من الاعتمادِ عليها، والركونِ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٨١٦)؛ باختصار وتصرُّف.

إليها؛ كما لا ينفعه قوله: «تَوَكَّلْتُ على الله»، مع اعتماده على غيره، وركونِهِ إليه، وثقتِهِ به؛ فتوكُّلُ اللسان شيء، وتوكُّلُ القلب شيء»(١).

ولذا: فإن «مِن تمام التوكُّل عدَمَ الركون إلى الأسباب، وقَطْعَ عَلَاقةِ القلب بها؛ فيكون حالُ قلبِهِ قيامَهُ بالله، لا بها، وحالُ بَدَنِهِ قيامَهُ بها»(٢).

قال الجُنَيْد: «ليس التوكُّل الكَسْبَ، ولا تَرْكَ الكسب؛ التوكُّلُ شيءٌ في القلوب»(٣). وقال أيضًا: «إنما هو: سكونُ القلبِ إلى موعود الله ﷻ»(٤).

وقال ابن رجب: «المتوكِّل على الله حقَّ التوكُّل لا يأتي بالتوكُّل ويَجعَلُهُ سببًا لحصول الكفاية له مِن الله بالرزق وغيره؛ فإنه لو فعَلَ ذلك، لكان كمَن أتى بسائر الأسباب لاستجلاب الرِّزْق، والكفاية بها؛ وهذا نوع نقص في تحقيق التوكُّل.

وإنما المتوكِّل حقيقة: مَن يَعلَم أن الله قد ضَمِنَ لعبده رزقَهُ وكفايته، فيصدِّقُ اللهَ فيما ضَمِنَه، ويَثِق بقلبه، ويحقِّق الاعتماد عليه فيما ضَمِنَه من الرزق؛ مِن غير أن يُخرِجَ التوكُّل مَخرَجَ الأسباب في استجلاب الرِّزْق به، والرزقُ مقسوم لكل أحد؛ مِن برٍّ وفاجر، ومؤمن وكافر: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود٦]... ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فما دام العبد حيًّا، فرزقُهُ على الله، وقد ييسِّرُهُ الله له بكسب وبغير كسب؛ فمَن توكَّل على الله لطلب الرِّزْقِ، فقد جعل التوكُّل سببًا وكَسْبًا، ومَن توكَّل عليه لثقتِهِ بضمانه، فقد توكَّل عليه؛ ثقةً به، وتصديقًا»(٥).

---

(١) «الفوائد» (ص١٢٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) «جامع العلوم والحكم» (ص٨٢١).

وقال ابن الجوزي: «إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكِّل في الكَسْب، وقلبُهُ ساكنٌ مفوِّضٌ إلى الحق؛ مُنِعَ أو أُعطِيَ؛ لأنه لا يرى إلّا أن الحق سبحانه وتعالى لا يتصرَّف إلّا بحِكْمة ومصلحة»(١).

«كما قال بعضهم: اكتسِبْ ظاهرًا، وتوكَّلْ باطنًا؛ فهو مع كسبه لا يكون معتمِدًا على كسبه، وإنما يكون اعتماده في كفايةِ أمرِهِ على الله ﷻ»(٢).

ولذلك قيل: «الالتفاتُ إلى الأسبابِ شركٌ في التوحيد، ومَحْوُ الأسبابِ أن تكون أسبابًا تغييرٌ في وجه العقل، والإعراضُ عن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع، والتوكُّل معنًى يلتئِمُ من معنى التوحيد والعقل والشرع»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وإنما التوكُّل المأمور به: ما اجتمَعَ فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع»(٤).

وقال ابن القيِّم: «التجرُّدُ من الأسباب جملةً ممتنِعٌ عقلًا وشرعًا وحِسًّا»(٥).

والحاصل: أن «الالتفات إلى الأسباب ضَرْبان:

أحدهما: شرك، **والآخر**: عبوديَّة وتوحيد.

فالشرك: أن يَعتمِد عليها، ويطمئِنَّ إليها، ويَعتقِد أنها بذاتها محصِّلة للمقصود؛ فهو معرِضٌ عن المسبِّب لها، ويَجعَل نظره والتفاته مقصورًا عليها.

وأما إنِ التفَتَ إليها التفاتَ امتثال وقيام بها، وأداءً لحق العبوديَّة فيها، وإنزالها منازِلَها، فهذا الالتفات عبوديَّة وتوحيد؛ إذْ لم يَشغَلْهُ عن الالتفات إلى المسبِّب.

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص٣١٤).

(٢) «الشعب» للبيهقي (٢/٤٥٥).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/٤٩٩).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٥).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/١٣٤).

وأما مَحْوُها أن تكون أسبابًا، فقدحٌ في العقل والحِسِّ والفِطْرة، فإنْ أعرَضَ عنها بالكليَّة، كان ذلك قدحًا في الشرع، وإبطالًا له.

فحقيقةُ التوكُّل: القيامُ بالأسباب، والاعتمادُ بالقلب على المسبِّب، واعتقاد أنها بيده؛ فإن شاء، أقام لها موانعَ وصوارفَ تُعارِض اقتضاءها وتَدفَعُه، فالموحِّدُ المتوكِّل لا يَلتفِت إليها؛ بمعنى: أنه لا يُسقِطُها، ولا يُهمِلُها ويُلْغِيها، بل يكون قائمًا بها، ملتفِتًا إليها، ناظرًا إلى مسبِّبها سبحانه ومُجْرِيها»[(١)].

قال ابن القيِّم: «فإذا جمَعْتَ بين هذا التوحيد، وبين إثبات الأسباب، استقام قَلْبُك على السير إلى الله، ووضَحَ لك الطريقُ الأعظم الذي مضى عليه جميعُ رُسُل الله وأنبيائه وأتباعهم؛ وهو الصراط المستقيم، صراطُ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم»[(٢)].

* * *

(١) المصدر السابق (٣/٤٩٩ - ٥٠٠)؛ بتصرُّف.

(٢) المصدر السابق (٣/٥٠٠).

مَا يُطْلَبُ مَعْرِفتُه فِي الأَسْبَاب

١ - ألَّا يَجعَلَ منها سببًا إلّا ما ثبَتَ أنه سببٌ شرعًا أو قَدَرًا:

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «لا يجوز أن يَعتقِد أن الشيء سببٌ إلّا بعِلْم؛ فمَن أثبَتَ شيئًا سببًا بلا علم، أو يُخالِف الشرع، كان مبطِلًا؛ مثلُ مَن يظُنُّ أنَّ النذر سبب في دفع البلاء، وحصول النَّعْماء»[١].

٢ - ألَّا يعتمِدَ العبد عليها، بل يَعتمِد على مسبِّبها ومقدِّرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحِرْصِهِ على النافع منها؛ وذلك لأن «السبب المعيَّن لا يستقِلُّ بالمطلوب، بل لا بد معه من أسبابٍ أُخَرَ؛ ومع هذا فلها موانع؛ فإنْ لم يكمِّل الله الأسباب، ويَدفَعِ الموانع، لم يحصُلِ المقصود»[٢].

فحصول المطلوب مع اتخاذ الأسباب، لا يُمكِن أن يكون قاعدة مُطَّرِدة، ولا يمكن أن يقال: «إنه لا بد من حصول المراد؛ إذا وُجِدَ السبب»، بل المطلوب من المؤمِن: التوكُّلُ على الله وحده، ثم الأخذُ بالأسباب، وقد يعطي سبحانه أو يَمنَعُ مع وجود السبب؛ لذا فإنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب، وإنما على مسبِّبها سبحانه وتعالى.

٣ - أن يَعلَمَ أنَّ الأسباب مهما قَوِيَتْ وعَظُمَتْ، فإنها مرتبِطةٌ بقضاء الله وقَدَره، لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرَّف فيها كيف شاء؛ فإن شاء، أبقى سببيَّتها جاريةً على مقتضى حِكْمته؛ ليقوم بها العباد، ويَعرِفوا بذلك تمام

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١٣٧).

(٢) المصدر السابق.

حِكْمته؛ حيث ربَطَ المسبَّبات بأسبابها، والمعلولات بعِلَلِها، وإنْ شاء، غيَّرها كيف شاء؛ لئلا يَعتمِد عليها العباد، وليَعلَمُوا كمال قدرته، وأن التصرُّف المطلَق والإرادة المطلَقة لله وحده.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ما شاء [الله] كان وإنْ لم يشأِ الناس، وما شاء الناسُ لا يكون إلّا أن يشاء الله»(١).

وقال الإمام البيهقي: «وهذا هو الأصلُ في هذا الباب، وهو أن يَستعمِلَ هذه الأسباب التي بيَّنها الله تعالى لعباده وأَذِنَ فيها، وهو يَعتقِدُ أن المسبِّب هو الله سبحانه وتعالى، وما يصل إليه من المنفَعة عند استعمالها بتقدير الله ﷻ، وأنه إنْ شاء، حرَمَهُ تلك المنفعة مع استعماله السبب، فتكون ثقتُهُ بالله ﷻ واعتمادُهُ عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب»(٢).

وقال ابن القيِّم: «فالتوكُّل من أعظم الأسباب التي يحصُلُ بها المطلوب، ويَندفِع بها المكروه؛ فمَن أنكَرَ الأسباب، لم يستقِمْ منه التوكُّل، ولكنْ مِن تمام التوكل: عدَمُ الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها؛ فيكونُ حالُ قلبِهِ قيامَهُ بالله، لا بها، وحالُ بَدَنِه قيامَهُ بها.

فالأسباب محلُّ حِكْمة الله وأمره ونهيه، والتوكُّل متعلِّقٌ بربوبيَّته وقضائه وقَدَره؛ فلا تقوم عبودية الأسباب إلّا على ساق التوكُّل، ولا يقوم ساق التوكُّل إلّا على قدَمِ العبوديَّة»(٣).

٤ - «أنَّ الأعمال الدينيَّة لا يجوز أن يُتَّخَذَ منها شيءٌ سببًا إلّا أن تكون مشروعة؛ فإن العبادات مبناها على التوقيف؛ فلا يجوز للإنسان أن يُشرِك بالله، فيدعو غيره، وإنْ ظن أن ذلك سببٌ في حصول بعض أغراضه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «شعب الإيمان» (٣/١٤٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

فإنَّ الشياطينَ قد تُعِين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرَكَ، وقد يحصُلُ بالكفر والفسوق والعصيان بعضُ أغراض الإنسان؛ فلا يَحِلُّ له ذلك؛ إذِ المَفسَدةُ الحاصلة بذلك أعظَمُ من المصلحة الحاصلة به؛ إذِ الرسولُ ﷺ بُعِثَ بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها؛ فما أمَرَ الله به، فمصلحته راجحة، وما نهى عنه، فمفسدته راجحة»[١].

* * *

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١٣٧ - ١٣٨)؛ باختصار.

ما يُطلَبُ توقِّيه في الأَسْبَاب

على العبد أن يتقي في الأسباب أمرَيْن:

الأول: «**الاعتماد عليها، والثقة بها، ورجاؤها، وخوفها؛ فهذا شرك،** يَرِقُّ ويغلُظُ، وبين ذلك.

الثاني: تركُ ما أمَرَ الله به من الأسباب؛ وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا، وبين ذلك.

بل على العبد أن يَفعَل ما أمره الله به من الأسباب، ويتوكَّلَ على الله توكُّلَ مَن يعتقِدُ أن الأمر كله بمشيئة الله، سبَقَ به علمه وحُكْمه، وأن السبب لا يضُرُّ ولا ينفع، ولا يعطي ولا يَمنَع، ولا يقضي ولا يحكُم، ولا يحصِّل للعبد ما لم تَسبِقْ له به المشيئة الإلهيَّة، ولا يَصرِفُ عنه ما سبَقَ به الحُكْم والعلم.

فيأتي بالأسباب إتيانَ مَن لا يرى النجاة والفلاح والوصول إلّا بها، ويتوكَّلُ على الله توكُّلَ مَن يرى أنها لا تُنْجِيه، ولا تحصِّلُ له فلاحًا، ولا توصِّله إلى المقصود؛ فيجرِّد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا، ويفرِّغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها؛ تجريدًا للتوكُّل، واعتمادًا على الله وحده»[(١)].

«وقد جمَعَ النبيُّ ﷺ بين هذَيْنِ الأصلَيْن في قوله: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ...»[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٥٠٠ - ٥٠١).

(٢) تقدم تخريجه.

فأَمَرَهُ بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبِّب، ونهاه عن العجز؛ وهو نوعان:

١ - تقصيرٌ في الأسباب، وعدَمُ الحرص عليها.

٢ - تقصير في الاستعانة بالله، وتركُ تجريدِها.

فالدِّينُ كلُّه؛ ظاهره، وباطنه، وشرائعه، تحت هذه الكلمات النبويَّة»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «مدارج السالكين» (٥٠١/٣)؛ بتصرُّف.

بعض مظاهر ضعف التوكّل
(قوادح التوكّل)

لا شكَّ أن أعظم مظاهر ضعف التوكُّل على الله تعالى - وهو الجامع لكل المظاهر الجزئيَّة -: التفاتُ القلب إلى الأسباب، وتعلُّقُهُ بغير الله، وتَختلِف دَرَجات هذا الضعف باختلافِ أنواع الأسباب، واختلافِ دَرَجات تعلُّق القلب بها، والتفاتِهِ إليها.

والأسباب على ثلاث درجات[1]:

«**الأولى: المقطوعُ بها**؛ كالأسباب التي ارتبَطَتِ المسبَّبات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطًا مطَّرِدًا لا يتخلَّف؛ كما أن الطعام إذا كان موضوعًا بين يديك وأنت جائع محتاج، ولكنك لست تَمُدُّ اليد إليه، وتقول: «أنا متوكِّل، وشرطُ التوكُّل ترك السعي، ومَدُّ اليد إليه سعيٌ وحَرَكة»؛ فهذا جنونٌ مَحْضٌ، وليس من التوكُّل في شيء»[2].

الثانية: الأسباب التي ليست متيقَّنة، وإنما هي ظَنِّيَّةٌ؛ كالرُّقَى والاكتواء.

فهذه لا شك أن الاعتماد عليها، والتفات القلب إليها بذاتها - إذا ثَبَتَتْ سببيَّتها - سواءٌ كانت أسبابًا شرعيَّة دلَّت عليها النصوص، أو قدريَّةً دلَّت عليها التَّجْرِبة -: لا شك أنه مُضعِفٌ للتوكُّل، مُنقِصٌ لكماله.

الثالثة: الأسباب الموهومة؛ فهي ليست من الأسباب الشرعيَّة، ولا من

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٤/٢٦٥ - ٢٦٦).

(٢) المصدر السابق (٤/٢٦٥).

الأسباب القدريَّة، وإنما هي من الوَهْم والتخرُّص؛ كالتطيُّر مثلًا، وتعليقِ الحُرُوزِ والتَّمائمِ وغيرها؛ فلا شك أنَّ الالتفات إليها واستعمالها محرَّم، وهي منافية لتحقيق التوكُّل وكمال التوحيد.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»(١).

والمقصودُ بالحديثِ هنا: الدَّرَجة الثانية والثالثة، وقد جمَعَها النبيُّ ﷺ في حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما؛ قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ...»، الحديث، وفيه: «فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُون، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»(٢).

وظاهرُ الحديث: يدلُّ على أن هذه الأمور المذكورة تَقدَحُ في كمال التوكُّل؛ ولذلك ذيَّل الحديث بقوله: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، وهي تَحتمِلُ أحد معنيَيْن:

الأول: أن تكون الجملةُ مفسِّرةً لما تقدَّم من ترك الاسترقاء والاكتواء والطِّيَرة.

الثاني: أن تكون من العامِّ بعد الخاصِّ؛ لأن كل واحدة منها صفة خاصَّة من التوكُّل، وهو أعمُّ من ذلك.

ولنستعرِضْ هذه الأمور الثلاثة بشيءٍ من الاختصار؛ لنرى الصور القادحة من غيرها:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وصحَّحه ابن حبان (٦٠٩٠)، والحاكم (٤/٤١٧)، والألباني في «الصحيحة» (٢٩٧٢)، وغيرها.

(٢) تقدم تخريجه.

أولًا: الاسترقاء: وهو طلَبُ الرُّقْية.

والرقية تنقسِمُ إلى قسمَيْن:

أ - الرقية الجائزة؛ وهي: ما اجتمَعَتْ فيها شروط ثلاثة:

١ - أن تكون بكلام الله تعالى وأسمائه وصفاته، أو كلام رسوله.

٢ - أن تكون بلسانٍ عربيٍّ، أو بما يُعرَفُ معناه من غيره.

٣ - أن يُعتقَد أن الرقية لا تؤثِّر بذاتها.

وقد أجمَعَ العلماء على جواز الرقى عند اجتماع هذه الشروط؛ كما نقله ابن حجر في «الفتح»(١).

ومما يدل على جواز الرقية الشرعية مستكمِلةِ الشروط، ما يلي:

١ - فِعْلُهُ ﷺ بنفسه؛ فقد ثبَتَ عنه ﷺ، من حديث عائشة ﵂؛ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوَى إلى فراشِهِ، نَفَثَ في كَفَّيْهِ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، وبالمعوِّذَتَيْنِ جميعًا، ثم يَمْسَحُ بهما وَجْهَهُ، وما بلَغَتْ يداه مِن جَسَدِه»(٢).

وعنها ﵂؛ أن النبي ﷺ كان إذا اشتَكَى، نَفَثَ على نَفْسِهِ بالمعوِّذات، ومسَحَ عنه بيَدِه(٣).

٢ - فعلُهُ ﷺ بغيره؛ كما في حديث عائشة ﵂ أيضًا؛ قالت: كان النبي ﷺ يُعَوِّذُ بعضَهُمْ، يَمْسَحُ بيمينه: «أَذْهِبِ البَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»(٤).

وعنها قالت: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أهلِهِ، نفَثَ عليه بالمعوِّذات»(٥).

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٩١).

(٥) أخرجه مسلم (٢١٩٢).

٣ - أمرُهُ ﷺ؛ كما في حديث أم سَلَمة ﵂؛ أن النبي ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وجهها سَفْعَةٌ، فقال: «اسْتَرْقُوا لهَا؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»(١).

٤- إقرارُهُ ﷺ؛ كما في حديث أبي سعيد ﵁، لمَّا أقرَّهم النبيُّ ﷺ بقراءتهم الفاتحةَ على سَيِّدِ القومِ الذي لُدِغَ، وفيه: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!»، ثم قال: «قَدْ أَصَبْتُمْ»(٢).

ب- الرقية الممنوعة؛ وهي: ما فقَدَتْ شرطًا من شروط الرقية الجائزة المتقدِّمة.

عن زينب، امرأةِ عبد الله؛ قالت: كان عبدُ اللهِ إذا جاء مِن حاجةٍ، فانتهى إلى البابِ، تَنَحْنَحَ وبَزَقَ؛ كراهيةَ أن يَهْجُمَ منا على شيءٍ يَكرَهُه، قالت: وإنه جاء ذاتَ يومٍ، فتَنَحْنَحَ، قالت: وعندي عجوزٌ تَرْقِينِي من الحُمْرَةِ، فأدخَلْتُهَا تحتَ السرير، فدخَلَ، فجلَسَ إلى جنبي، فرأى في عُنُقِي خَيْطًا، قال: ما هذا الخَيْطُ؟ قالت: قلتُ: خَيْطٌ أُرقِيَ لي فيه، قالت: فأخَذَهُ فقطَعَه، ثم قال: إنَّ آلَ عبدِ اللهِ لَأَغْنِيَاءُ عن الشِّرْكِ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ: شِرْكٌ»(٣).

وعن عَوْفِ بن مالك الأَشْجَعِيِّ ﵁؛ قال: كنا نَرْقِي في الجاهليَّة، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، كيف تَرَى في ذلك؟ فقال: «اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، وَلَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»(٤).

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٦)؛ واللفظ له، ومسلم(٢٢٠١).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١١٠)؛ واللفظ له، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وضعَّفه المنذري في «تهذيب السنن» (٥/ ٣٦٣)، والألباني في «الصحيحة» (٢٩٧٢)، وحسَّن إسناده أحمد شاكر في «تحقيق المسند» (٣٦١٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

هَلِ الرُّقْيَةُ تُنَافِي التَّوكّل؟ أَوْ تَقْدَحُ فِيه؟

للعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: كراهيةُ الرُّقْيةِ والكَيِّ مِن بين سائر الأَدْوِيَة؛ وعمدةُ أصحاب هذا القول: حديث ابن عبَّاس في وصف السبعين ألفًا(١).

قال ابن حجر: «فتمسَّك بهذا الحديث: مَن كَرِهَ الرُّقَى والكَيَّ مِن بين سائر الأدوية، وزعم أنهما قادِحان في التوكُّل دون غيرهما»(٢).

الثاني: أنها لا تنافي التوكُّل، ولا تَقدَح في كماله؛ مستدلِّينَ بفعلِ النبيِّ ﷺ وقولِهِ وتقريرِه.

وأجابوا عن استدلال الطائفة الأُولى بعدَّة أجوبة:

منها: «أنه محمول على مَن جانب اعتقاد الطبائعيِّين؛ في أن الأدوية تَنفَع بطبعها؛ كما كان أهل الجاهليَّة يَعتقِدون ذلك.

ومنها: أن المراد بالحديث: الذين يَجتنِبونَ فعلَ ذلك في الصِّحَّة؛ خشيةَ وقوع الداء، وأمَّا مَن يستعمِلُ الدواء بعد وقوع الداء به، فلا.

ومنها: أن المراد بتَرْك الرُّقَى والكَيِّ: الاعتمادُ على الله في دفع الداء، والرضا بقَدَره، لا القدحُ في جواز ذلك؛ فمقام الرضا والتسليم أعلى مِن تعاطي الأسباب»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «فتح الباري» (١٠/٢٢٢).

(٣) «فتح الباري» (١٠/٢٢٢ - ٢٢٣)؛ باختصار وتصرُّف.

ثم اعلَمْ: أن «الحديث لا يَدُلُّ على أنهم لا يُباشِرون الأسباب أصلًا؛ فإنَّ مباشَرة الأسباب في الجملةِ أمرٌ فِطْريٌّ ضروري، بل نفس التوكُّل مباشَرةٌ لأعظم الأسباب، وإنما المراد: أنهم يترُكُون الأمورَ المكروهة مع حاجتهم إليها، توكُّلًا على الله؛ كالاكتواء والاسترقاء.

وأمَّا مباشَرة الأسباب والتداوي على وجهٍ لا كراهةَ فيه، فغيرُ قادحٍ في التوكُّل؛ فلا يكون تركه مشروعًا»[(١)].

الثالث: التفريق بين فعل الرقية - سواءٌ بنفسه أو بغيره - وبين طَلَبِها:

وممن قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة[(٢)].

واحتجُّوا لذلك: بأن لفظ الحديث ورَدَ في معظَم الروايات بلفظ: «يَسْتَرْقُونَ» مِن الاستفعال، وهو طلَبُ الفعل.

أمَّا ما ورد في رواية مسلم: «لَا يَرْقُونَ»[(٣)]، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «هو غلَطٌ؛ فإنَّ رُقْيَاهم لغيرِهم ولأنفسِهم حَسَنةٌ، وكان النبي ﷺ يَرْقِي نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي؛ فإنَّ رقيته نفسَهُ وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره؛ وهذا مأمور به»[(٤)].

و«لأنَّ الرَّاقِيَ مُحسِنٌ لأخيه، وقد قال النبي ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ، فَلْيَنْفَعْهُ»[(٥)].

والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقِيَ سائلٌ مُستَعْطٍ، مُلتفِتٌ إلى غير الله بقلبه، والراقِيَ: مُحسِنٌ نافعٌ»[(٦)].

---

(١) «حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد» (٤٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٨٢).

(٣) برقم: (٢٢٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/١٨٢).

(٥) أخرجه مسلم (٢١٩٩)؛ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٦) من كلام ابن تيميَّة، نقله عنه ابن القيِّم في «مفتاح دار السعادة» (٣/٢٧٩)؛ بتصرُّف يسير.

وقال ابن القيِّم: «والنبيُّ ﷺ لا يَجعَل ترك الإحسان المأذون فيه سببًا للسَّبْقِ إلى الجنان، وهذا بخلاف ترك الاسترقاء؛ فإنه توكُّلٌ على الله، ورغبةٌ عن سؤال غيره، ورضاءٌ بما قضاه»(١).

وسببُ عدمِ طلبِ هؤلاء المتوكِّلين الرُّقْيةَ مِن غيرهم:

١ - قوَّة اعتمادهم وتوكُّلهم على الله ﷻ.

٢ - عزَّة نفوسِهم عن التذلُّل لغير الله.

٣ - لِمَا في ذلك من التعلُّق بغير الله.

ولا شك أن هذا من كمال تحقيق توكُّلهم على الله ﷻ؛ وهذا مما يَدُلُّ على الفرق بين فعل الرُّقْية وطَلَبِها، فيكون الطلب قادحًا دون الفعل؛ وهذا هو الذي يدُلُّ عليه ظاهر الحديث؛ وهو الراجح؛ إن شاء الله تعالى.

ويشهد له: حديث المغيرة بن شُعْبة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «مَنِ اكْتَوَى أَوِ اسْتَرْقَى، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ التَّوَكُّلِ»(٢).

قال الإمام البيهقي: «وذلك لأنه رَكِبَ ما يُستحَبُّ التنزيه عنه من الاكتواء والاسترقاء؛ لما فيه من الحَظْر، ومن الاسترقاء بما لا يُعرَفُ من كتاب الله ﷻ أو ذِكْرِه؛ لجواز أن يكون شركًا، أو استعمَلَها معتمِدًا عليها، لا على الله تعالى فيما وضَعَ فيها من الشفاء؛ فصار بهذا أو بارتكابه المكروه، بريئًا من التوكُّل، فإنْ لم يُوجَدْ واحد من هذَيْن وغيرهما من الأسباب المباحة، لم يكن صاحبها بريئًا من التوكُّل، والله تعالى أعلم»(٣).

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣/٢٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٥٥)، وابن ماجه (٣٤٨)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٠٨٧)، والحاكم، والذهبي (٤/٤١٥)، والمناوي في «التيسير» (٢/٤٠٤)، والألباني في «الصحيحة» (٢٤٤)، إلَّا أنَّ في إسناده اختلافًا، أشار إليه البخاري في «التاريخ الكبير» (٧/٩٤)، وذكره الدارقطني في «عِلَلِه» (٧/١٢٤٣).

(٣) «شعب الإيمان» (٣/١١١).

قال الألباني: «وفيه: كراهةُ الاكتواء والاسترقاء:

أما الأوَّل: فلِمَا فيه من التعذيب بالنار.

وأما الآخر: فلِمَا فيه من الاحتياج إلى الغير فيما الفائدةُ فيه مظنونةٌ غيرُ راجحةٍ.

ولذلك: كان من صفاتِ الذين يدخُلُون الجنَّة بغير حساب: أنهم لا يَسترْقُونَ، ولا يَكتَوُونَ، ولا يتطيَّرُونَ، وعلى ربهم يتوكَّلون؛ كما في حديث ابن عبَّاس عند الشيخَيْن.

وزاد مسلم في روايته، فقال: «لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ»؛ وهي زيادةٌ شاذَّةٌ، كما بيَّنته فيما علَّقته على كتابي «مختصر صحيح مسلم» (رقم ٢٥٤)»[١].

وقد صحَّ من حديث عائشة ﵂؛ قالت: «أَمَرَني رسولُ الله ﷺ أو أَمَرَ أن يُسْتَرْقَى مِنَ العَيْنِ»[٢].

وعن أُمِّ سَلَمةَ ﵂؛ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في بيتها جاريةً في وَجْهِها سَفْعةٌ، فقال: «اسْتَرْقُوا لهَا؛ فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»[٣].

فمثلُ هذا يُحمَل على الرُّخصة والجَوَاز[٤]، ومَن أراد الكمال، ترك الاسترقاء، لكنْ لو رَقَاهُ غيره تبرُّعًا دون أن يسأله، فهذا لا بأس به، ولا ينافي تمامَ التوكُّل، والله تعالى أعلم.

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/٤٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٨)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١٩٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أو باعتبار التفريق بين مَنْ طَلَبَها لنفسه ومَن طَلَبَها لغيره، فيكون مُحسِنًا إليه.

ثانيًا: الاكتواء:

والاكتواء معروف، وهو جائز في أصله، وليس بمحرَّم؛ كما يدلُّ على ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: «بعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أُبَيِّ بن كَعْبٍ طَبِيبًا، فقَطَعَ منه عِرْقًا، ثم كَوَاهُ عليه»[1].

وجاء أيضًا عنه رضي الله عنه؛ أنه قال: «رُمِيَ أُبَيٌّ يومَ الأحزابِ على أَكْحَلِهِ، فكَوَاهُ رسولُ اللهِ ﷺ»[2].

وعنه أيضًا رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ خَيْرٌ، فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»[3].

وكذا حديث أنس رضي الله عنه؛ يقول: «كُوِيتُ مِن ذاتِ الجَنْبِ، ورسولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ»[4].

فهذه الأحاديثُ الصحيحة تدلُّ على جواز الكَيِّ، وقد ورد عنه ﷺ ما يدُلُّ على عدم محبَّته الكَيَّ، وقد تقدَّم آنفًا قوله: «وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ»، وفي لفظ: «وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ»[5].

قال ابن القيِّم: «فقد تضمَّنَتْ أحاديثُ الكيِّ أربعةَ أنواع:

أحدُها: فِعْله.

والثاني: عدم محبَّته له.

والثالث: الثناء على مَن ترَكَهُ.

والرابع: النهي عنه».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٦٨٠)؛ من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

قال: «ولا تعارُضَ بينها - بحمد الله تعالى - فإنَّ فعله يَدُلُّ على جوازه، وعدم محبَّته له لا يدل على المنع منه، وأمَّا الثناء على تاركه، فيدُلُّ على أن تركه أولى وأفضل، وأما النَّهْيُ عنه، فعلى سبيل الاختيار والكَرَاهة، أو عن النوع الذي لا يُحتَاجُ إليه، بل يُفعَلُ خوفًا من حدوث الداء»[(١)].

وقال ابن قُتَيْبة: «الكَيُّ جِنْسان:

أحدهما: كيُّ الصحيحِ لئلَّا يَعتَلَّ؛ فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكَّلْ مَنِ اكتوى؛ لأنه ظَنَّ أن اكتواءه يَدفَعُ عنه قدَرَ الله تعالى.

والثاني: كيُّ الجرحِ إذا نَغِلَ، والعضوِ إذا قُطِعَ؛ ففي هذا الشفاء.

وأما إذا كان الكيُّ للتداوي الذي يجوز أن يَنجَعَ، ويجوز ألَّا يَنجَعَ، فإنه إلى الكراهة أقرب»[(٢)].

وعن عِمْران بن حُصَيْن ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن الكَيِّ، قال: «فَابْتُلِينَا فَاكْتَوَيْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَا، وَلَا أَنْجَحْنَا»[(٣)].

قال ابن سِيرِينَ: «سُقِيَ بطنُ عِمْران بن حُصَيْنٍ ثلاثين سنةً، كلُّ ذلك يُعرَضُ عليه الكيُّ، فيأبى أن يكتوي، حتى إذا كان قبل وفاتِهِ بسنتين، اكتَوَى»[(٤)].

وعن مطرِّف؛ قال: قال لي عِمْران بن حصين: «قد كان يسلَّمُ عليَّ حتى اكتَوَيْتُ، فتُرِكْتُ، ثم تَرَكْتُ الكَيَّ، فعاد»[(٥)].

---

(١) «زاد المعاد» (٤/٦٠).

(٢) «تأويل مختلف الحديث» (ص٤٦٢-٤٦٤)؛ باختصار وتصرُّف. وانظر: «زاد المعاد» (٤/٦٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٦٥)، والترمذي (٢٠٤٩)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٣٤٩٠)، وصحَّحه التِّرمِذي، وابن حبان (٦٠٨١)، والحاكم (٣/٢١٣)، والألباني في «صحيح الموارد» (١١٨٢).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/١٩٢ - ١٩٣).

(٥) أخرجه مسلم (١٢٢٦).

وقال ابن التِّينِ: «الرُّقَى بالمعوِّذات وغيرها من أسماء الله هو الطبُّ الرُّوحاني؛ إذا كان على لسان الأبرار من الخَلْق، حصَلَ الشفاء بإذن الله تعالى، فلما عَزَّ هذا النوع، فَزِعَ الناس إلى الطبِّ الجِسْماني؛ وتلك الرُّقَى المنهيُّ عنها التي يستعملها المعزِّمُ وغيره ممَّن يدَّعي تسخير الجنِّ له، فيأتي بأمورٍ مشتبِهةٍ مركَّبةٍ مِن حقٍّ وباطل، يَجمَعُ إلى ذكر الله وأسمائه ما يَشُوبُهُ مِن ذكر الشياطين، والاستعانة بهم، والتعوُّذ بمَرَدَتِهم»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «فتح الباري» (١٠/٢٠٧).

حُكمُ التداوي، وهل يُنافي التوكّل؟

لما كانت الرقى والكَيُّ من جملة التداوي، ناسَبَ الحديثُ هنا عن التداوي، وهو أعم منهما؛ كما أنه من جملة الأسباب التي لها اتصال لا يخفى بباب التوكُّل.

والأصل في التداوي الجوازُ؛ فإنَّ مِن هديِهِ ﷺ فعلَ التداوي في نفسه، والأمرَ به لمن أصابه مرضٌ مِن أهلِهِ وأصحابه؛ كما ذكر ابن القيِّم[(١)].

ومما يدلُّ على ذلك:

١ - حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «مَا أَنْزَلَ اللهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»[(٢)].

٢ - حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عز وجل»[(٣)].

قال ابن القيِّم: «وفي قوله ﷺ: «لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ»، تقويةٌ لنفس المريض والطبيب، وحَثٌّ على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه»[(٤)].

٣ - عن أسامة بن شَرِيك رضي الله عنه؛ قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، أَلَا

(١) انظر: «زاد المعاد» (٩/٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٤).
(٤) «الطب النبوي» (١٥/١).

نَتَدَاوَى؟ فقال: «نَعَمْ، يَا عِبَادَ اللهِ، تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا»، قالوا: يا رسولَ الله، وما هو؟ قال: «الْهَرَمُ»(١).

قال ابن القيِّم: «قد تضمَّنت هذه الأحاديثُ إثباتَ الأسباب والمسبَّبات، وإبطالَ قولِ مَن أنكَرَها... وفي الأحاديث الصحيحة: الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكُّل، كما لا ينافيه دفعُ داءِ الجُوع والعَطَش، والحَرِّ والبرد، بأضدادِها...

وفيها: رَدٌّ على مَن أنكر التداوي، وقال: إنْ كان الشفاءُ قد قُدِّرَ، فالتداوي لا يفيد، وإنْ لم يكن قد قُدِّرَ فكذلك»(٢).

حكم التداوي بشيء محرَّم:

لا يجوز التداوي بمحرَّم؛ ويدلُّ عليه ما جاء عن وائل الحَضْرَميِّ؛ أنَّ طارق بن سُوَيْدٍ الجُعْفِيَّ سأل النبي ﷺ عن الخَمْرِ؟ فنهاه أو كَرِهَ أن يَصنَعَها، فقال: إنما أصنَعُها للدَّواءِ، فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ»(٣).

وعن ابن مسعود ﷺ؛ قال: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)؛ واللفظ له، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصحَّحه الترمذي، وابن حبان (٦٠٦١)، والحاكم (١٢١/١)، والذهبي، والألباني في «غاية المرام» (٢٩٢)، ونقل ابن عبد الهادي في «المحرَّر» (١٢٦٤) تصحيحه عن ابن خزيمة، والدارقطني.

(٢) «زاد المعاد» (١٣/٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٨٤).

(٤) علَّقه البخاري في «صحيحه»، في كتاب الأشربة، باب شرب الحَلْواء والعسل (٥٨٨/٣)، ووصله أحمد في «كتاب الأشربة» (١٣٠)، وابن أبي شيبة (٣٨١/٧، ٤٨٨)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين؛ كما قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨٢/١٠)، وصحَّحه الحاكم (٢٤٢/٤)، وابن حجر في «الفتح» (٨٢/١٠)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢٧٠/١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٧٧/٢).

التَّداوي وموضعُهُ مِن الأحكام الخَمْسة:

وقد اختلَفَ العلماء في التداوي: أهو مباحٌ وتركُهُ أفضل، أم مستَحَبٌّ، أم واجبٌ؟

فذهَبَ جمهورُ العلماء - الحنفية[1]، والمالكية -: إلى أنه مباح، غيرَ أن عبارة المالكية: «لا بأس بالتداوي»[2].

ومذهب جمهور الحنابلة: أنَّ تركه أفضَلُ[3].

والمعتمَدُ عند الشافعية: أنه مستحَبٌّ[4].

يقول ابن تيميَّة: «وأمَّا التداوي: فليس بواجبٍ عند جماهير الأئمَّة، وإنما أوجَبَهُ طائفة قليلة؛ كما قاله بعض أصحاب الشافعي وأحمد»[5].

وبالجملة: فالتداوي من الأسباب التي أمَرَ الله تعالى باتِّخاذها، مِن غير اعتمادٍ عليها - كما تقدَّم - ويختلِفُ حُكْمُهُ باختلاف الحال؛ كما فصَّل ذلك العلامة ابن عُثَيْمِين؛ حيث قال:

«قال بعض العلماء: إنه يجب التداوي إذا ظَنَّ نَفْعَهُ، والصحيح: أنه يجب إذا كان في تركه هلاكٌ».

ثم فصَّل قائلًا: «ما عُلِمَ أو غلَبَ على الظنِّ نفعُهُ مع احتمال الهلاك بعدمه، فهو واجب.

وما غلَبَ على الظنِّ نفعُهُ، ولكنْ ليس هناك هلاك محقَّق بتركه، فهو أفضل.

---

(١) «حاشية ابن عابدين» (٢١٥/٥، ٢٤٩)، و«الهداية تكملة فتح القدير» (١٣٤/٨).

(٢) «الكافي» لابن عبد البر (١١٤٢/٢)، و«الذخيرة» للقرافي (٣٠٧/١٣).

(٣) «الآداب الشرعية» (٣٣٣/٢)، و«المبدع» (٢١٣/٢-٢١٤) و«الإنصاف» (١١٠/٦)، و«كشاف القناع» (٥٥١/١)، و«معونة أولي النهى» (٣٨٢/٢).

(٤) انظر: «روضة الطالبين» (٩٦/٢)، و«منهاج الطالبين» (٦١/١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٦٩/٢٤).

وما تساوى فيه الأمران، فتركه أفضل»[١].

وقال ابن الجوزي: «إذا ثبَتَ أنَّ التداوي مباحٌ بالإجماع، مندوبٌ إليه عند بعض العلماء؛ فلا يُلتفَتُ إلى قولِ قومٍ قد رأَوْا أن التداوي خارجٌ من التوكُّل؛ لأن الإجماع على أنه لا يخرُجُ من التوكُّل، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه تَدَاوَى، وأمَرَ بالتداوي[٢]، ولم يخرُجْ بذلك من التوكُّل، ولا أخرَجَ مَن أمَرَهُ أن يتداوى من التوكُّل»[٣].

وفي الصحيح؛ مِن حديث عثمان بن عَفَّان رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ رَخَّصَ إِذَا اشتَكَى المُحرِمُ عَيْنَهُ أنْ يُضَمِّدَهَا بالصَّبِرِ[٤].

قال ابن جَرِير الطبري: «وفي هذا الحديث[٥]: دليل على فساد ما يقوله ذوو الغباوةِ مِن أهل التصوُّف والعُبَّاد؛ مِن أن التوكُّل لا يصحُّ لأحدٍ عالَجَ عِلَّةً به في جسده بدواء؛ إذْ ذاك عندهم طلَبُ العافية من غير مَن بيدِهِ العافيةُ والضرُّ والنفع.

وفي إطلاق النبي ﷺ للمُحرِمِ علاجُ عَيْنه بالصَّبِرِ لدفع المكروه: أدَلُّ دليلٍ على أن معنى التوكُّل غيرُ ما قاله الذين ذكرنا قولهم، وأنَّ ذلك غير مُخرِجٍ فاعِلَهُ من الرِّضا بقضاء اللهِ؛ كما أنَّ مَن عرَضَ له كَلَبُ الجوعِ لا يُخرِجُه فزعه إلى الغذاء، من التوكُّل والرِّضا بالقضاء»[٦].

---

(١) «الشرح الممتع» (٥/٢٣٤)؛ بتصرُّف يسير.

(٢) تقدم ذكر ذلك.

(٣) «تلبيس إبليس» (ص٣٢٢).

(٤) أخرجه مسلم (١٢٠٤).

(٥) يقصد: حديث عثمان رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا اشْتَكَى الْمُحْرِمُ عَيْنَهُ، ضَمَّدَهَا بِالصَّبِرِ».

(٦) نقله عنه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص٣٢٢).

ثالثًا: التطيُّر:

التطيُّرُ من الطِّيَرة؛ وهي التشاؤم، «وأصل التطيُّر: أنهم كانوا في الجاهليَّة يَعتمِدون على الطَّيْر؛ فإذا خرَجَ أحدُهم لأمر، فإنْ رأى الطيرَ طار يَمْنةً، تيمَّن به واستمَرَّ، وإنْ رآه طار يَسْرةً، تشاءم به ورجَع، وربما كان أحدُهم يهيِّجُ الطير ليطير فيَعتمِدُها.

فجاء الشرعِ بالنهي عن ذلك[1]، وكانوا يسمُّونه السانِحَ... والبارِح... فالسانح: ما ولَّاك مَيامِنَه، بأن يَمُرَّ عن يسارك إلى يمينك، والبارِحُ بالعكس، وكانوا يتيمَّنون بالسانح، ويتشاءمون بالبارح»[2].

ثم صار التطيُّرُ اسمًا للتشاؤم بكلِّ مرئيٍّ ومسموعٍ ومعلوم، ويدخُلُ فيه التشاؤم بالأسماء والألفاظ، والأشخاص والأرقام والألوان، والشهور والأيام، ونحو ذلك.

قال ابن عبد البَرِّ: «أصلُ التطيُّر واشتقاقُهُ عند أهل العلم باللغة والسِّيَر والأخبار: هو مأخوذٌ من زَجْرِ الطَّيْرِ ومرورِهِ سانحًا أو بارحًا، منه اشتَقُّوا التطيُّر، ثم استعملوا ذلك في كل شيء، مِن الحيوان وغير الحيوان؛ فتطيَّروا من الأَعْوَرِ والأَعْضَبِ[3] والأَبْتَر[4]، وكذلك إذا رأوا الغُراب أو غيره مِن الطير يتفلَّى[5] أو يَنتِف.

---

(١) سيأتي ذلك قريبًا؛ إن شاء الله.

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١٠/٢٢٣)، وبنحوه قال ابن الجوزي في «كشف المُشكِل من أحاديث الصحيحين» (١/٤٨٢)، وانظر أيضًا: «النهاية» (٣/١٥٢)، و«القاموس المحيط» (١/٢٢٥)، و«تاج العروس» (١٢/٤٥٣) وما بعدها.

(٣) الأعضَب: المكسور أحد قرنَيْه. «تاج العروس» (٦/٢٥٩)، (و ش ج).

(٤) الأبتر: المقطوع الذَّنَب، وهو أيضًا الذي لا عَقِبَ له. انظر: «مختار الصحاح» (ص٢٩)، (ب ت ر).

(٥) أي: ينظِّفُ ريشه بمِنْقاره.

ولإيمان العرب بالطِّيَرةِ عقَدُوا الرَّتائِمَ[١]، واستعمَلُوا القِدَاحَ بالآمر والناهي والمتربِّص[٢]»[٣].

حكم التطيُّر:

مِن خلال استقراء النصوص الشرعيَّة، وأقوال العلماء في مسألة التطيُّر؛ نلاحظ ما يلي:

أولًا: أن التطيُّر من أعمال الجاهليَّة؛ ولذلك لم يذكُرْه الله تعالى في القرآن إلّا عن أعدائه؛ ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]، إلى قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ﴾ [يس: ١٨-١٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

ثانيًا: أن التطيُّر من المحرَّمات الشِّرْكيَّة؛ ومما يدل على ذلك:

١ - حديث ابن مسعود ﵁ يرفعه: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ - ثلاثًا - وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[٤].

---

(١) الرتائم: جمع رَتِيمة، وهي خيطٌ يُشَدُّ في الإصبع؛ لتستذكر به الحاجة. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/١٩٤)، (ر ت م).

(٢) هي: عبارة عن سهام كانوا يكتُبون عليها: «أمَرَني ربي»، وعلى بعضها: «نَهَاني ربِّي»، وعلى بعضها: «المتربِّص»، فإذا أرادوا سفرًا أو أمرًا مهمًّا، ضربوا بتلك القِدَاح، وصدَرُوا عما يخرُجُ من تلك السهام. انظر: «التذكرة الحمدونية» (٧/٣٢٧).

(٣) «التمهيد» (٩/٢٨٢-٢٨٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)؛ واللفظ له، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وصحَّحه =

٢ - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، قالوا: يا رسول الله، ما كَفَّارَةُ ذلك؟ قال: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ، لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»[1].

ثالثًا: أنه لا ارتباط بين الأعيان المتطيَّر بها، وجَلْبِ المنافع، ودَفْعِ المَضَارّ.

قال القرطبي: «قال علماؤنا: وأمَّا أقوال الطَّيْر، فلا تعلُّق لها بما يُجعَل دلالةً عليه، ولا لها علمٌ بكائن، فضلًا عن مستقبَلٍ فتُخْبِرُ به، ولا في الناس مَن يَعلَمُ منطقَ الطَّيْر، إلّا ما كان الله تعالى خَصَّ به سليمان ﷺ مِن ذلك؛ فالتحَقَ التطيُّر بجملةِ الباطل»[2].

ومما يَدُلُّ على عدم ارتباط تلك الأعيان بجَلْبِ المنافع ودَفْعِ المضارّ؛ ما يلي:

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا صَفَرَ»[3].

و«لا» - هنا - للنفي، وليست للنهي، والنفيُ هنا أبلغ؛ لأنَّ النفيَ يَدُلُّ على البطلان وعدم التأثير، والنهي إنما يدُلُّ على المنع منه.

٢ - حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ»، قال: قيل: وما الفأل؟ قال: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»[4].

= الترمذي، وابن حبان (٦١٢٢) والحاكم (١/١٧-١٨) والذهبي، والعراقي في «أماليه» - كما في «الفيض» (٤/٢٩٤) - والألباني في «صحيح الترغيب» (٣٠٩٨).

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٢٠)، وصحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه على «المسند» (٣٣٦٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٠٦٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (٩/٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠)؛ واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٣)؛ واللفظ له.

٣ - حديث معاوية بن الحَكَم السُّلَمِيِّ رضي الله عنه؛ قال: قلتُ: يا رسول الله، أمورًا كنا نَصنَعُها في الجاهليَّة، كنا نأتي الكُهَّانَ؟ قال: «فَلَا تَأْتُوا الْكُهَّانَ»، قال: قلتُ: كنَّا نَتَطَيَّرُ؟ قال: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ؛ فَلَا يَصُدَّنَّكُمْ»[(١)].

رابعًا: تحريمُ الالتفات إلى ما يجده الإنسان في نَفْسه مِن التطيُّر؛

يدلُّ على ذلك: حديث معاوية بن الحَكَم السابق.

خامسًا: الإخبار عنه ﷺ أنه كان لا يتطيَّر:

فعن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ كان لا يَتَطَيَّرُ مِنْ شيء[(٢)].

سادسًا: مدحُ النبيِّ ﷺ لمن ترَكَ التطيُّر؛ كما في حديث السبعين ألفًا[(٣)].

سابعًا: شِدَّةُ حَذَرِ السلفِ مِن ذلك؛

ومما يَدُلُّ عليه:

١ - خَبَرُ عِكْرِمة؛ قال: «كنا عند ابن عمر وعنده ابن عبَّاس رضي الله عنهما، فمَرَّ غرابٌ يَصِيح، فقال رجلٌ مِن القوم: خَيْرٌ خَيْرٌ، فقال ابن عبَّاس: «لا خَيْرَ، ولا شَرَّ»[(٤)].

٢ - وعن زياد بن أبي مَرْيَم؛ أنَّ سعد بن أبي وقَّاص كان غازيًا، فبينما هو يسير إذْ أقبَلَ في وجوههم ظِبَاءٌ يَسْعَيْنَ، فلما اقْتَرَبْنَ منهم، وَلَّيْنَ مُدْبِراتٍ، فقال له رجل: انزِلْ أصلَحَكَ الله، فقال له سعد: «مِن ماذا تَطَيَّرْتَ؟ أَمِنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٢٠)، وصحَّحه ابن حبان (٥٧٢٨)، والألباني في «الصحيحة» (٧٦٢)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١٠/٢١٣).

(٣) تقدَّم تخريجه.

(٤) أخرجه الدِّينوري في «المجالسة» (٩٣٧).

قُرُونِها حين أَقْبَلَتْ؟ أم مِن أَذْنَابِها حِينَ أَدْبَرَتْ؟ إنَّ هذه الطِّيَرةَ لَبَابٌ مِن الشِّرْكِ»، قال: فلم يَنْزِلْ سعدٌ، ومضى[(١)].

٣ - وعَنِ ابن طاوُسٍ أو غيره: أنَّ رجلًا كان يسير مع طاوس، فسَمِعَ غُرَابًا نَعَبَ، فقال: خيرٌ، فقال طاوس: «أيُّ خيرٍ عند هذا أو شَرٌّ؟ لا تَصْحَبْني، أو لا تَسِرْ معي»[(٢)].

٤ - وعنِ ابن لَهِيعة؛ أن الرَّبيع بن سَبْرَةَ الجُهَنِيَّ حدَّثه؛ قال: لمَّا غَزَا عمر، وأراد الخروجَ إلى الشام، خرَجْتُ معه، فلما أردنا أن نُدلِجَ، تَطَيَّرْتُ أن أُدلِجَ بالدَّبَرَانِ[(٣)]، فأَرَدتُ أن أذكُرَ ذلك لعمر، فعرَفْتُ أنه يَكرَهُ ذكرَ النجوم، فقلتُ له: يا أبا حَفْص، انظُرْ إلى القمَر، ما أحسَنَ استواءَهُ الليلة! فنظَرَ؛ فإذا هو في الدَّبَرانِ، قال: «قد عَرفْتُ ما تريدُ يا ابنَ سَبْرة! تقول: القمَرُ بالدَّبَران! واللهِ ما نخرُجُ لشمسٍ ولا لقمر، ولكنْ نخرُجُ باللهِ الواحِدِ القهَّار»[(٤)].

ثامنًا: نفورُ ذوي العقول السليمة من التطيّر، وإن كانوا من أهل الجاهليَّة:

قال الحافظ ابن حجر: «كان بعض عُقَلاء الجاهلية يُنكِرُ التطيُّر، ويتمدَّح بتَرْكه؛ قال شاعرٌ منهم[(٥)]:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لَا ... أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَاتِمْ
فَإِذَا الْأَشَائِمُ كَالْأَيَا ... مِنِ وَالْأَيَامِنُ كَالْأَشَائِمْ
وَكَذَاكَ لَا خَيْرٌ وَلَا ... شَرٌّ عَلَى أَحَدٍ بِدَائِمْ

---

(١) أخرجه مَعْمَر بن راشد في «جامعه» (١٩٥٠٦)؛ واللفظ له، وابن أبي شيبة (٢٦٣٩٩).

(٢) أخرجه معمر بن راشد في «جامعه» (١٩٥١٣).

(٣) الدَّبَران: نجم بين الثُّرَيَّا والجوزاء، وسُمِّيَ: «دَبَرَان»؛ لأنه يدبُرُ الثريا؛ أي: يتبعها من منازل القمر. انظر: «لسان العرب» (٤/٢٨٠)، (د ب ر).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (١٨/٧٢)، ونقل عن الخطيب البغدادي الحكم عليه بالانقطاع.

(٥) الأبيات للمرقِّش السَّدُوسي. انظر: «الحيوان» (٣/٢١٤).

وقال آخر[١]:

الزَّجْرُ وَالطَّيْرُ وَالْكُهَّانُ كُلُّهُمُ ... مُضَلِّلُونَ وَدُونَ الغَيْبِ أَقْفَالُ

وقال آخر[٢]:

وَمَا عَاجِلَاتُ الطَّيْرِ تُدْنِي مِنَ الْفَتَى ... نَجَاحًا وَلَا عَنْ رَيْثِهِنَّ قُصُورُ

وقال آخر[٣]:

لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الطَّوَارِقُ بِالحَصَا ... وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صَانِعُ

وقال آخر[٤]:

تَخَبَّرَ طِيْرَةً فِيهَا زِيَادٌ ... لِتُخْبِرَهُ وَمَا فِيهَا خَبِيرُ
تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طَيْرَ إِلَّا ... عَلَى مُتَطَيِّرٍ وَهْوَ الثُّبُورُ
بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ ... أَحَايِينًا وَبَاطِلُهُ كَثِيرُ»[٥]

وقال آخر[٦]:

وَلَيْسَ بِهَيَّابٍ إِذَا شَدَّ رَحْلَهُ ... يَقُولُ عَدَانِي اليَوْمَ وَاقٍ وَحَاتِمُ
وَلَكِنَّهُ يَمْضِي عَلَى ذَاكَ مُقْدِمًا ... إِذَا صَدَّ عَنْ تِلْكَ الهَنَاتِ الخُثَارِمُ

قَالَ ابن قتيبة: «الخُثارِمُ: هو الذي يتطيَّرُ، والواق: الصُّرَد، والحاتِمُ: الغُرَاب»[٧].

---

(١) نُسِبَ للخليل. انظر: «المجموع اللفيف» (ص ٤٥٢).

(٢) هو: ضابئ البُرْجُمي. انظر: «الكامل في اللغة» (٢٥٣/١).

(٣) القائل: لَبِيد. انظر: «المنتخَب من كلام العرب» (ص ٧٧١).

(٤) القائل: زَبَّان بن سيَّار. انظر: «البيان والتبيين» (٣٠٤/٣-٣٠٥).

(٥) «فتح الباري» (٢٢٣/١٠ - ٢٢٤)، ووقَعَ فيه: «تخيَّر طِيْرَةً»؛ وهو تصحيف؛ والتصويب من «البيان والتبيين».

(٦) وهو: خُثَيْم بن عَدِيّ. انظر: «المنتخَب، من كلام العرب» (ص ٧٧٦).

(٧) «تأويل مختلِف الحديث» لابن قتيبة (ص١٧١). وانظر: «كتاب الحيوان» للجاحظ (٤٣٧/٣).

تاسعًا: بيان كفَّارة ذلك الإثم لمن وجَدَ في نفسِهِ شيئًا منه؛

يدل على هذا حديث ابن عمرو المتقدِّم: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ مِنْ حَاجَةٍ، فَقَدْ أَشْرَكَ»، قالوا: يا رسول الله، ما كَفَّارةُ ذلك؟ قال: «أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمُ: اللَّهُمَّ، لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»(١)؛ فهذه كفَّارة الطِّيَرةِ بعد وقوعها.

أما لدفعِ وقوعِها - وذلك عندما يَجِدُ أثرَها في نفسه قبل أن يعمل - فقد استدَلَّ بعضهم لذلك بما رُوِيَ من حديث عُرْوة بن عامر ﵁، عن النبي ﷺ؛ قال: «أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ، لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»(٢).

عاشرًا: الآثار النفسيَّة السلبيَّة للتطيُّر:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «واعلم: أنَّ مَن كان معتنِيًا بها، قابلًا بها، كانت إليه أسرَعَ من السَّيْلِ إلى منحدَرِه، وتفتَّحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه، ويراه، ويُعطَاه، ويفتح له الشيطانُ فيها مِن المناسَبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى ما يُفسِدُ عليه دينه، وينكِّدُ عليه عيشه.

فالواجبُ على العبد: التوكُّلُ على الله، ومتابعةُ رسول الله ﷺ، وأن يَمضِيَ لشأنه، لا يردُّه شيء من الطِّيَرة عن حاجته؛ فيدخُل في الشِّرْك»(٣).

وقال الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي، مبيِّنًا أثر التطيُّر في قلب المتطيِّر:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) وسكت عنه، وصحَّحه النووي في «رياض الصالحين» (٦٣٩)، وابن عبد الحق في «الصغرى» (٢/٥٢٠)، وصحَّح إسناده محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد» (ص٨١)، وأعلَّه بالإرسال ابن حجر في «الإصابة» (٤/٤٧٦)، والشوكاني في «نيل الأوطار» (٧/٢١٨)، وضعَّفه الألباني في «الضعيفة» (١٦١٩).

(٣) «تيسير العزيز الحميد» (ص٣٦٠).

«وأما الطِّيَرةُ: فإنه إذا عزَمَ على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدِّين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يَكْرَه، أثَّر في قلبه أحدُ أمرَيْن، أحدُهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي؛ فيترُكُ ما كان عازمًا على فعله، أو بالعكس؛ فيتطيَّرُ بذلك، وينكُصُ عن الأمر الذي كان عازمًا عليه.

فهذا - كما ترى - قد علَّق قلبه بذلك المكروه غايةَ التعليق، وعمل عليه، وتصرَّف ذلك المكروهُ في إرادته وعزمه وعمله.

فلا شك أنه على هذا الوجه أثَّر على إيمانه، وأخَلَّ بتوحيده وتوكُّله، ثم بعد هذا لا تَسأَلْ عما يُحْدِثه له هذا الأمر من ضعف القلب، ووهنه، وخوفه من المخلوقين، وتعلُّقه بالأسباب، وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاعِ قلبه مِن تعلُّقه بالله.

وهذا مِن ضَعْفِ التوحيد والتوكُّل، ومن طُرُقِ الشرك ووسائله، ومن الخرافات المُفسِدة للعقل.

الأمر الثاني: ألَّا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثِّر في قلبه حزنًا وهمًّا وغمًّا.

فهذا - وإن كان دون الأول - لكنه شَرٌّ وضرَرٌ على العبد، وضعفٌ لقلبه، ومُوهِنٌ لتوكُّله، وربما أصابه مكروه؛ فظنَّ أنه من ذلك الأمر؛ فقَوِيَ تطيُّره، وربَّما تدرَّج إلى الأمر الأول»[(١)].

وقال ابن القيِّم: «هذه حال مَن تقطَّعت به أسباب التوكُّل، وتقلَّص عنه لباسه، بل تعرَّى منه، ومَن كان هكذا، فالبلايا إليه أَسْرَع، والمصائب به أَعْلَق، والمِحَنُ له أَلْزَم، بمنزلة صاحب الدُّمَّل والقُرْحة الذي يُهدِي إلى قُرْحته كلَّ مؤذٍ، وكل مصادم؛ فلا يكاد يُصدَمُ مِن جسدِهِ أو يُصاب غيرها.

(١) «القول السديد، شرح كتاب التوحيد» (ص١٩٢- ١٩٣).

والمتطيِّر مُتعَبُ القلب، منكَّدُ الصدر، كاسِفُ البال، سيِّئ الخُلُق، يتخيَّلُ مِن كل ما يراه أو يسمعه، أشدُّ الناس خوفًا، وأنكَدُهم عيشًا، وأضيَقُ الناس صدرًا، وأحزَنُهم قلبًا.

كثير الاحتراز والمراعاة لما لا يضرُّه ولا ينفعه، وكم قد حرَمَ نفسه بذلك من حَظٍّ، ومنَعَها من رزق، وقطَعَ عليها من فائدة!»[(١)].

فهذا التفصيل يبيِّن لك وجه كراهة الشرع للطِّيَرة وذمِّها، ووجهَ منافاتها للتوحيد والتوكُّل، وينبغي لمن وجَدَ شيئًا من ذلك، وخاف أن تَغلِبه نفسه: أن يُجاهِد نفسه على دفع ذلك، ويستعين بالله على ذلك، ولا يَركَن إليها بوجهٍ؛ ليَندفِع الشرُّ عنه.

وجوه منافاة التطيُّر للتوحيد:

١ - كونها من إلقاء الشيطان وتخويفِهِ ووسوستِه.

٢ - كونها من ادِّعاء علم الغيب.

٣ - فيها التعلُّق بغير الله تعالى خوفًا وطمعًا.

٤ - فيها الاعتماد على الأسباب الوهميَّة التي لا حقيقة لها، وإنما يتخيَّلها الإنسان أسبابًا، وهي ليست أسبابًا؛ لا شرعيَّةً ولا قَدَرِيَّة؛ وهذا ينافي التوكُّل.

٥ - فيها اعتقاد النفع والضرر مِن غير الله تعالى؛ وهذا شركٌ في الربوبية.

وحكى ابن الجوزي: أنه «لَقِيَ بعضُ الأكاسرة في مَوكِبِهِ رجلًا أعوَر، فحَبَسَه، فلما نزَلَ، خلَّاه، وقال: تطيَّرْتُ منك، قال: أنتَ أشأم مني؛ لأنك خرَجْتَ مِن مَنزِلك ولَقِيتَني، فما رأيتَ إلّا خيرًا، وخرَجْتُ من منزلي فلَقِيتُك، فحبستَني؛ فلم يَعُدْ بعدها يتطيَّر»[(٢)].

يقول ابن القيِّم: «ولَسْنا نُنْكِر أن هذه الأمور ظنونٌ وتخمينٌ وحَدْسٌ، وما كان هذا سبيله، فيصيب تارَةً، ويُخطِئ تارَات.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣/٢٧٣).

(٢) «الأذكياء» (ص١٨٣).

وليس كل ما تطيَّر به المتطيِّرون، وقع جميعه وصدَقَ، بل أكثره كاذب، وصِدْقُهُ نادر، والناس في هذا المقام ينقُلُون ما صحَّ ووقَعَ، ويعتنون به، فيُرَى كثيرًا، والكاذب منه أكثر من أن يُنقَل.

قال ابن قُتَيْبة: «مِن شأن النفوس: حفظُ الصواب للعَجَب به، والاستغراب، وتناسي الخطأ»، قال: «ومَن ذا الذي يتحدَّث أنه سأل منجِّمًا فأخطأ؟! وإنما الذي يُتحدَّثُ به ويُنقَلُ: أنه سأله، فأصاب»...

وقد كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها تستحِبُّ أن تتزوَّج المرأةُ أو يُبْنَى بها في شوَّال، وتقول: «ما تَزَوَّجَنِي رسولُ الله ﷺ إلَّا في شوَّال، فأيُّ نسائه كان أحظَى عندَهُ مني؟!»(١).

مع تطيُّر الناس بالنكاح في شوَّال، وهذا فِعْلُ أُولي العزم والقوة من المؤمنين، الذين صح توكُّلهم على الله، واطمأنَّت قلوبهم إلى ربِّهم، ووَثِقوا به، وعلموا أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنهم لن يُصِيبهم إلَّا ما كتب الله لهم... أنَّ تطيُّرهم لا يَرُدُّ قضاءَهُ وقدره عنهم، بل قد يكون تطيُّرهم من أعظم الأسباب التي يجري عليهم بها القضاء والقدر؛ فيُعِينُون على أنفسهم، وقد جرى لهم القضاء والقدَر بأن نفوسهم هي سبب إصابة المكروه لهم؛ فطائِرُهم معهم.

وأمَّا المتوكِّلون على الله، المفوِّضون إليه، العالمون به وبأمره، فنفوسُهم أشرف من ذلك، وهِمَمُهم أعلى، وثقتهم بالله وحُسْنُ ظنِّهم به عُدَّةٌ لهم وقُوَّة وجُنَّة مما يتطيَّر به المتطيِّرُون، ويتشاءم به المتشائمون، عالمون أنه لا طَيْر إلَّا طَيْرُه، ولا خَيْر إلَّا خَيْرُه، ولا إله غيره، أَلَا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العلمين»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٢٣).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٣/٣٥٥). بتصرُّف.

والله ﷻ «وحده هو النافع الضارّ، وأسبابُ الضرر والنفع كلُّها بيده، وهو الذي جعلها أسبابًا، وإنْ شاء، خلع منها سببيَّتها، وإن شاء جعَلَ ما تقتضيه بخلاف المعهود منها؛ ليُعلَمَ أنه الفاعل المختار، وأنه لا يَضُرُّ شيءٌ ولا يَنفَع إلّا بإذنه، وأن التوكُّل عليه والثقة به تُحِيلُ الأسباب المكروهة إلى خلاف مُوجَباتها»[١].

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق (٣/٣٨٦)؛ بتصرُّف.

هَلِ التّشَاؤُمُ مِنَ الطِّيَرَةِ الشِّرْكِيّة؟

تقدَّم تعريف الطيرة: بأنها التشاؤم بكل مرئي، ومسموع، ومعلوم؛ ولذلك قال الحافظ ابن حجر: «الطِّيَرة والشؤم بمعنى واحد»[1].

وقد وردت بعض الأحاديث التي قد يُفهَمُ من ظاهرها: إثباتُ الشؤم في بعض الأشياء، وهذا يُشكِل مع الأحاديث الكثيرة المتقدِّمة التي تنفي الطِّيَرة وتأثيرها، وتحرِّمُ تَعَاطِيَها، ونحن هنا نذكر أقوال العلماء في هذه المسألة الشائكة مع أدلَّتهم، ومناقشة هذه الأدلَّة؛ للتوصُّل إلى الراجح في هذه المسألة بإذن الله تعالى.

جاء في الحديث المشهور: «إِنَّما الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي الْفَرَسِ، وَالمَرْأَةِ، وَالدَّارِ»[2].

وعن أنس ﷺ؛ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إنا كنا في دارٍ كثيرٍ فيها عَدَدُنا، وكثيرٍ فيها أموالُنا، فتحوَّلْنا إلى دارٍ أُخرى، فقَلَّ فيها عددُنا، وقَلَّتْ فيها أموالُنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذَرُوهَا ذَمِيمَةً»[3].

---

(١) «فتح الباري» (٦/٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٨)؛ واللفظ له، ومسلم(٢٢٢٥)؛ من حديث ابن عمر ﵄.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٩٢٤، وضعَّفه البخاري في «الأدب المفرد» (٩١٨)؛ إذ قال: «في إسناده نظَر»، وصحَّحه الضياء في «المختارة» (١/٤٨٢)، وقوَّاه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/٦٨)، والحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦/٧٣)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٠).

فالحاصل: أنَّ أهلَ العلم تفرَّقت أقوالُهم في الجواب عن هذا، وتعدَّدت، وتنوَّعت، وأحسَنُ ما وقفتُ عليه منها على كثرتها: ما ذكره الحافظ ابن القيِّم.

يقول: «فإخبارُهُ ﷺ بالشؤم: أنه يكون في هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطِّيَرَة التي نفاها، وإنما غايتُهُ: أن الله سبحانه قد يخلُقُ منها أعيانًا مشؤومة على مَن قارَبَها وسكَنَها، وأعيانًا مبارَكةً، لا يلحق مَن قارَبَها منها شؤم ولا شر.

وهذا كما يعطي سبحانه الوالدَيْنِ ولَدًا مبارَكًا، يَرَيَانِ الخير على وجهِه، ويعطي غيرَهما ولدًا مشؤومًا نَذْلًا، يريان الشَّرَّ على وجهِه، وكذلك ما يُعطَاهُ العبدُ ولايةً أو غيرها، فكذلك الدار والمرأة والفَرَس، والله سبحانه خالق الخير والشر، والسُّعود والنُّحوس، فيخلُقُ بعض هذه الأعيان سعودًا مبارَكة، ويقضي سعادةَ مَن قارَنَها، وحصولَ اليُمْنِ له والبركة، ويخلُقُ بعض ذلك نحوسًا، يتنحَّس بها مَن قارَنَها؛ وكلُّ ذلك بقضائه وقدره، كما خلَقَ سائر الأسباب وربَطَها بمسبَّباتها المتضادَّة والمختلِفة»[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب: «والتحقيق: أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث: ما ذكرناه في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرارِ من المجذوم، ومن أرض الطاعون: أن هذه الثلاث أسبابٌ يقدِّر الله تعالى بها الشؤم واليُمْن ويَقْرِنه»[(٢)].

ولذلك قال الخَطَّابِي: «اليُمْن والشؤم: اسمان لما يُصِيبُ الإنسانَ من الخير والشَّرّ، والنَّفْع والضُّرّ، ولا يكون شيء من ذلك إلّا بمشيئة الله وقضائه، وإنما هذه الأشياء الثلاثة مَحَالُّ وظروفٌ جُعِلَتْ مواقعَ لأَقْضِيَتِه، ليس لها بأنفسها وطِبَاعها فِعْلٌ ولا تأثير في شيء، إلّا أنها لما كانت أَعَمَّ الأشياء التي

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٣/٣٤٢).
(٢) «لطائف المعارف» (١٥٠).

يقتنيها الناس، وكان الإنسان في غالب أحواله لا يستغني عن دار يسكُنُها، وزوجة يُعاشِرها، وفرسٍ يرتبطه، وكان لا يخلو عن العارض فيها، أُضِيفَ اليُمْنُ والشؤم إليها إضافة مكان ومَحَلٍّ، وهما صادران عن مشيئة الله»[١].

لكن قد يُعترَضُ على هذا: بأن هذا جاء في كلِّ شؤم؛ فما وجه خَصُوصيَّةِ هذه الثلاثة؟

وجوابه: أن أكثر ما يقع التطيُّر في هذه الثلاثة؛ فخُصَّتْ بالذكر لذلك، والله أعلم، أو لكونها أعم الأشياء التي يقتنيها الإنسان؛ كما قال الخَطَّابي.

هل الفَأْل من الطِّيَرة؟

مما لا شك فيه: أن الفأل الحسن مشروع، وكان ﷺ يُعجِبه الفأل[٢].

ولسائل أن يقول: هل الفأل من الطِّيَرة، واستُثْنِيَ من عموم النهي؟:

وحاصل الجواب: أن ذلك على قولَيْنِ لأهل العلم:

الأول: أن الفأل من الطِّيَرة، وإنما استُثْنِيَ من الحكم؛ واحتجُّوا لذلك بأحاديث كثيرة، منها:

- حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ»[٣].

- وعن حابس التَّمِيمي رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «العَيْنُ حَقٌّ، وَأَصْدَقُ الطِّيَرَةِ الفَأْلُ»[٤].

---

(١) «أعلام الحديث» (١٣٧٩/٢)؛ بتصرُّف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٤) أخرجه أحمد (٧٠/٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩١٤)؛ واللفظ له، والترمذي (٢٠٦١)، وصحَّحه (وليس فيه محل الشاهد: «وأصدَقُ الطِّيَرة الفأل» عند الترمذي)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٩٤٩)، وضعَّفه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣٦١/١)، والله أعلم.

قال الحافظ ابن حجر: «ففي هذا: التصريحُ أن الفأل من جملة الطِّيَرة، لكنه مستثنًى»[(١)].

الثاني: أنَّ الفأل ليس من الطِّيَرة؛ واستدلُّوا بما يلي:

١ - عن أنس ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ»[(٢)].

٢ - عن أبي هريرة ﷺ؛ قال: «كان النبيُّ ﷺ يُعْجِبُهُ الفَأْلُ الحسَنُ، وَيَكْرَهُ الطِّيَرَةَ»[(٣)].

وأجابوا عن أدلَّة القول الأوَّل: بأن هذه الإضافة تُشعِرُ بأن الفال من جملة الطِّيَرة، وليس كذلك، بل هي إضافةُ توضيح، وهذا هو الأقرب.

يقول الحافظ ابن حَجَر: «والحاصلُ: أن أفعَلَ التفضيل في ذلك - يعني: خيرَها وأحسَنَها وأصدَقَها - إنَّما هو بين القَدْر المشترَك بين الشيئين، والقَدْرُ المشترَكُ بين الطيرة والفأل: تأثيرُ كلٍّ منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ»[(٤)]؛ أي: أن الطيرة تؤثِّر في نفس صاحبها، ولَرُبَّما عُوقِبَ بسبب تطيُّره، فوقع به المكروه، والفأل فيه إحسان للظن بالله ﷻ؛ والله تعالى يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[(٥)].

ولهذا قال الحافظ ابن القيِّم: «أخبَرَ ﷺ في حديث أبي هريرة: أن الفال

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٢٢٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٦)، وصحَّحه ابن حبان (٦١٢١)، والبوصيري في «مصباح الزجاجة» (٤/٧٧ ط. دار العربية)، والألباني في «تخريج الكَلِم» (٢٤٩)، وحسَّنه ابن حجر في «الفتح» (١٠/٢٢٥).

(٤) «فتح الباري» (١٠/٢٢٥).

(٥) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)؛ من حديث أبي هريرة ﷺ.

مِن الطِّيَرة، وهو خيرُها، فقال: «لَا طِيَرَةَ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ»[١]، فأبطَلَ الطيرة، وأخبَرَ أن الفأل منها، ولكنه خيرها؛ ففصَلَ بين الفأل والطيرة لِمَا بينهما من الامتياز والتضادّ، ونَفْعِ أحدهما ومضرَّةِ الآخر؛ ونظيرُ هذا: منعُهُ من الرقى بالشرك، وإذنُهُ في الرقية إذا لم تكن شركًا؛ لِمَا فيها من المنفعة الخالية عن المفسَدة»[٢].

ومن الفروق بين الفألِ والطِّيَرة:

١ - ما ذكره الخَطَّابي؛ يقول: «مصدرُهُ - أي: الفأل - عن نطقٍ وبيان، فكأنه خبَرٌ[٣] جاءك عن غيبٍ، بخلاف غيره؛ فليس فيه شيء من هذا المعنى، وإنما هو تكلُّفٌ من المتطيِّر وتعاطٍ لما لا أصلَ له في نوعِ عِلْمٍ وبيان؛ إذْ ليس للطير والبهائم نُطْقٌ ولا تمييزٌ فيستدَلَّ بنُطْقِها على مضمون معنى فيه؛ وطلبُ العلم من غير مظانه جَهْل؛ فلذلك تُرِكَتِ الطِّيَرة، واسْتُؤْنِسَ بالفَأْل»[٤].

٢ - أن الفأل يكون من طريق حُسْنِ الظنِّ بالله، والطيرة لا تكون - غالبًا - إلّا في السوء؛ فلذلك كُرِهَتْ.

قال القُرْطبي: «إنما هي من طريق الاتكال على شيءٍ سواه»[٥].

وقال النووي: «قال العلماء: يكون الفأل فيما يَسُرُّ، وفيما يسوء، والغالب في السرور، والطِّيَرة لا تكون إلّا فيما يسوء...

قال العلماء: وإنما أَحَبَّ الفألَ؛ لأن الإنسان إذا أمَّل فائدة الله تعالى وفَضْلَهُ عند سبب قوي أو ضعيف، فهو على خيرٍ في الحال، وإنْ غلط في

---

(١) مضى قريبًا.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٣/٣٠٨ - ٣٠٩).

(٣) هكذا في «الفتح»، وهو أقرب بالنظر إلى السياق، وفي الأصل - «أعلام الحديث» -: «خير».

(٤) «أعلام الحديث» (٣/٢١٣٦)، وليس على إطلاقه؛ فقد تكون الطِّيَرةُ متعلِّقة بالنطق، كما قد يكون الفأل بأمر يشاهده؛ كصَبَاحةِ الوجهِ وإشراقِه، ونحو ذلك.

(٥) «تفسير القرطبي» (٧/٢٩٠).

جهة الرجاء، فالرجاء له خير، وأمَّا إذا قطَعَ رجاءَهُ وأمَلَهُ من الله تعالى، فإنَّ ذلك شرٌّ له، والطِّيَرة فيها سوء الظن، وتوقُّع البلاء»(١).

قال الحافظ ابن القيِّم: «الفأل والطِّيرة - وإنْ كان مأخذهما سواءً، ومجتناهما واحدًا - فإنهما يَختلِفان بالمقاصد، ويَفترِقان بالمذاهب؛ فما كان محبوبًا مستحسنًا، تفاءلوا به، وسمَّوْهُ الفأل، وأحبُّوه، ورَضُوه، وما كان مكروهًا قبيحًا منفِّرًا، تشاءموا به، وكرهوه، وتطيَّروا منه، وسمَّوْهُ طِيَرةً؛ تفرقةً بين الأمرَيْن، وتفصيلًا بين الوجهَيْن»(٢).

٣ - الفأل: أن يفعل أمرًا ويَعزِم عليه متوكِّلًا على الله ﷻ، فيَسمَعُ الكلمة الطيبة تَسُرُّه؛ مثل أن يسمع إنسانًا يتكلَّم، ويقول: يا نَجِيح، يا مُفلِح، يا راشد، يا سعيد، ونحو ذلك.

وأما الطِّيَرَةُ: فإنه قد يَعزِم على فعل شيءٍ متوكِّلًا على الله ﷻ، فيسمع كلمةً مكروهة؛ مثل: ما يَتِمُّ، أو ما يفلح، أو خاسر، أو فاشل، فيتطيَّرُ، فإنْ كان لم يفعل، ترَكَ، وإنْ كان قد فعَلَ، فإنه يضيق صدره بسبب ذلك.

٤ - قال ابن بطَّال: «جعَلَ الله في فِطَرِ الناس محبَّةَ الكلمة الطيِّبة، والفأل الصالح، والأُنْسَ به، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق، وقد يمر الرجل بالماء الصافي فيُعجِبه وهو لا يشربه، وبالرَّوْضة المنثورة فتَسُرُّه وهي لا تنفعه»(٣).

قال ابن القيِّم: «وليس في الإعجاب بالفأل ومحبَّتِهِ شيءٌ من الشِّرْك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجَبِ الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٤/٢١٩-٢٢٠).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٣/٣٠٩).

(٣) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٩/٤٣٧).

يُلائِمُها ويُوافِقها مما ينفعها؛ كما أخبرهم أنه حُبِّبَ إليه من الدنيا: النساء والطِّيب[١])»[٢].

٥ - ولعل أهم هذه الفروق: ما ذكره الشيخ عبد الرحمن ابن سعدي، فقال: «إنَّ الفأل الحسن لا يُخِلُّ بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه مِن المصلحة: النشاطُ والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة.

وصفةُ ذلك: أن يَعزِمَ العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود، أو على حالةٍ من الأحوال المهمَّة، ثم يرى في تلك الحال ما يَسُرُّه، أو يسمع كلامًا يَسُرُّه؛ مثلُ: يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءَل، ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه؛ فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء»[٣].

وأما قول النبي ﷺ: «وخَيْرُهَا الْفَأْلُ»، فإنه «ينفي عن الفأل مذهب الطِّيَرة من تأثير أو فعل أو شركة، ويخلُصُ الفأل منها، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة، وهي أن التطيُّر: هو التشاؤم مِن الشيء المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان، فرجَعَ بها مِن سَفَره، وامتنَعَ بها مما عزم عليه، فقد قرَعَ باب الشرك، بل وَلَجَهُ، وبرئ من التوكُّل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف، والتعلُّق بغير الله، والتطيُّر مما يراه أو يسمعه؛ وذلك قاطع له عن مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، فيصير قلبه متعلِّقًا بغير الله عبادةً وتوكُّلًا، فيَفسُدُ عليه قلبه وإيمانه وحاله... فأين هذا من الفأل الصالح السارِّ للقلوب، المؤيِّد للآمال، الفاتح لباب الرجاء، المسكِّنِ للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٣/٣٠٦).

(٣) «القول السديد» (ص١٩٢).

والتوكُّل عليه، والاستبشار المقوِّي لأمله، السارِّ لنفسه؛ فهذا ضد الطِّيَرة؛ ولهذا استحَبَّ النبي ﷺ الفأل، وأبطَلَ الطِّيَرة»[١].

ضابط كون الفأل سائغًا:

يشترط في الفأل: ألَّا يَقصِده المتفائل؛ فيكون من الطِّيَرة المنهي عنها.

وألَّا يَحمِله على العمل بموجَبه، فإنْ كان هو دافعه إلى العمل، فإنَّه يُعتبَرُ من الطِّيَرة الشركيَّة؛ وذلك لأنَّ القلب في مثل هذه الحالة له اعتمادٌ على غير الله[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فهو في كل واحد من محبَّته للفأل، وكراهته للطِّيَرة، إنما يسلك مَسلَكَ الاستخارة لله، والتوكُّل عليه، والعمل بما شُرِعَ له من الأسباب، لم يَجعَلِ الفأل آمرًا له وباعثًا له على الفعل، ولا الطِّيَرةَ ناهيةً له عن الفعل، وإنما يأتمر وينتهي عن مثل ذلك أهلُ الجاهليَّة، الذين يَستقسِمون بالأزلام»[٣].

ومِن هنا: فإن المشروع للعبد قبل الإقدام على الأمر استخارةُ الخالق، واستشارةُ المخلوق، والاستدلالُ بالأدلَّة الشرعيَّة التي تبيِّن ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه وينهى عنه.

عن أبي هريرة ﷺ؛ أنَّ رسول الله ﷺ سَمِعَ كلمةً فأعجَبَتْهُ، فقال: «أَخَذْنَا فَأْلَكَ مِنْ فِيكَ»[٤].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (٣/٣١١ - ٣١٢)؛ باختصار وتصرُّف يسير.

(٢) وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ؛ من حديث ابن عبَّاس ﷺ، ولفظه: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ: مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»؛ أخرجه أحمد (١/٢١٣)، وضعَّفه ابن مُفلِح في «الآداب الشرعية» (٣/٣٥٨)، وأحمد شاكر في «التعليق على المسنَد» (١٨٢٤)، وصاحب «تيسير العزيز الحميد» (ص ٣٧٧). راجع: «النهج السديد» للدوسري (٢٩)، و«تخريج أحاديث منتقدة» للبهلال (ص ٧٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٣/٦٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٩١٧)، وسكت عنه، وحسَّنه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٢٥)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٧٢٦)، وفي الباب: عن ابن عمر، وسَمُرة بن جُنْدُب، وعمرو المُزَني ﷺ، وعن عمار بن سلام مرسَلًا.

وعن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه ﵄: «أنَّ النبي ﷺ كان لا يَتَطَيَّرُ مِن شيء، وكان إذا بعَثَ عاملًا، سأَلَ عن اسمِهِ، فإذا أعجَبَهُ اسمُهُ، فَرِحَ به، ورُئِيَ بِشْرُ ذلك في وجهِهِ، وإنْ كَرِهَ اسمَهُ، رُئِيَ كراهيةُ ذلك في وجهه، وإذا دخَلَ قريةً، سأل عن اسمها، فإنْ أعجَبَهُ اسمها، فَرِحَ، ورُئِيَ بِشْرُ ذلك في وجهِه، وإنْ كَرِهَ اسمَها، رُئِيَ كراهيةُ ذلك في وجهِه»[1].

❊ ❊ ❊

(١) تقدم تخريجه.

مَوَاطِنُ التَّوَكُّل

التوكُّل لا يختصُّ بمصالح الدنيا، كما أنه لا يختصُّ بأمور الآخرة؛ فالعبد يستعينُ على أمور الآخرة بالتوكُّل على الله تبارَكَ وتعالى؛ فهو يتوكَّل على الله في صلاح قلبه ودينه، وحفظ لسانه وإرادته؛ وهذا من أهمِّ المطالب، فهو يتوكَّل على الله ﷻ في العمل الصالح بإطلاق، مع السعي والجهاد والصبر وغير ذلك مما يحتاج إليه العاملون؛ فالتوكُّل في الأمور الدينيَّة وما يتعلق بالمطالب الأخرويَّة، أعظَمُ من التوكُّل في تحصيل مطلوباته الدنيوية.

قال شيخ الإسلام: «وأيضًا: التوكُّل من الأمور الدينية التي لا تتمُّ الواجبات والمستحبَّات إلّا بها»(١).

وقد قيل(٢):

تَوَكَّلْ عَلَى الرَّحْمَنِ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ ... فَمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلَيْهِ تَوَكَّلَا

وَكُنْ وَاثِقًا بِاللهِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِهِ ... تَفُزْ بِالَّذِي تَرْجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلَا

إن التوكُّل على الله ﷻ مطلوب في كلِّ شؤون الحياة؛ غير أن هناك مواطن كَثُرَ فيها الحَضُّ على التوكُّل، والأمر به، فمِن ذلك:

«١ - إذا طلبتم النصرَ والفرَجَ، فتوكَّلُوا على الله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢١/١٠).

(٢) القائل: أبو الفتح الأبشيهي، صاحب «المستطرف» (٦٧/١).

٢ - وإذا أعرَضَ المؤمِنُ عن أعدائه، فإنَّ رفيقه التوكُّل: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

٣ - وإذا جفاه الخلق أو أعرَضُوا عنه أو لم يَقبَلوا دعوته، فإنه يتوكَّل على الله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤ - إذا كان في حال السِّلْم ومصالَحة الأعداء، وهو يتخوَّف من خيانتهم، فإنه يفوِّض أمره إلى الله: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦١].

٥ - وإذا وصَلَتْ قوافلُ القضاء، فإنه يَستقبِلُها بالتوكُّل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

٦ - إذا نصَبَ الأعداءُ حِبالاتِ المَكْر، وتربَّصُوا بالمؤمنين، فإنه يدخُلُ في أرض التوكُّل، فيَعتصِم من كيد الأعداء وشر الأشرار: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حِينَ أُلْقِيَ في النار، وقالها محمَّد ﷺ حِينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»(١).

٧ - إذا كانت الهداية من الله، فاستقبِلْها بالشكرِ والتوكُّل: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

٨ - وإذا خَشِيتَ كَيْدَ الشيطان وتزيينه ووسوسته وتسويله حينما يزيِّن الباطل للنفوس، فالتجئ إلى الله، وتوكَّلْ عليه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]»(٢).

وكلُّ مَن أراد أن يكون اللهُ وكيله، فإنه يتوكَّل عليه؛ لأن الله ﷻ يقول:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «بصائر ذوي التمييز» (٢/٣١٣ - ٣١٨)؛ باختصار وتصرف.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، إلى غير ذلك من المعاني الكثيرة.

* * *

عِلَلُ التوكّل

«للتوكُّل ثلاثُ عِلَلٍ:

الأولى: أن يترُك ما أُمِرَ به من الأسباب؛ استغناءً بالتوكُّل عنها؛ فهذا توكُّلُ عجزٍ وتفريطٍ وإضاعة، لا توكُّلُ عبوديَّة وتوحيد؛ كمَن يترك الأعمال التي هي سبب النجاة، ويتوكَّل في حصولها.

وكمَن يترُكُ القيام بأسباب الرِّزْق؛ من العمل والحِرَاثة والتجارة ونحوها، ويتوكَّل في حصوله، ويترك طَلَبَ العلم، ويتوكَّل في حصوله؛ فهذا توكُّلُهُ عَجْزٌ وتفريط؛ كما قال بعض السلف: «لا تكنْ ممن يجعل توكُّلَهُ عجزًا، وعجزَهُ توكُّلًا».

الثانية: أن يتوكَّل في حظوظه وشهواته، دون حقوق ربِّه؛ كمَن يتوكَّل في حصول مال أو زوجة أو رياسة.

العلة الثالثة: أن يرى توكُّله منه، ويَغِيب بذلك عن مطالعة المِنَّة، وشهود الفضل من الله، وإقامتِهِ له في مقام التوكُّل.

فهذه العلل الثلاث هي التي تَعرِضُ في مقام التوكُّل وغيره من المقامات»[1].

* * *

(١) «مدارج السالكين» (٣/٤٧٩ - ٤٨٠)؛ باختصار وتصرف.

أَحْوَالُ النَّاسِ فِي التَّوَكُّل

الناس في التوكُّل على أحوال، ويمكن إجمال ذلك في أربعة أقسام:

الأول: مَن يَجمَعُ بين عبادة الله، والاستعانة به، والتوكُّل عليه.

والثاني: المُعرِضون عن العبادة والاستعانة والتوكُّل.

وهؤلاء نوعان:

١ - أهل دِين فاسد؛ يعبُدُونَ غير الله، ويستعينون بغيره.

٢ - أهل دنيا؛ حيث يطلُبُونها من الأسباب التي يَظُنُّونَ تحصيلها بها.

والثالث: مَن له عبادةٌ لله، من غير استعانةٍ به، أو توكُّلٍ عليه:

فمِن هؤلاء: مَن يَعُدُّ السبب المأمور به نقصًا أو قدحًا في التوكُّل.

ومنهم: مَن وقع في اتِّبَاع الهوى وما تدعوه إليه النفس من الإخلاد إلى الراحة والبطالة(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ولهذا تجد عامَّة هذا الضَّرْب، التاركين لما أُمِرُوا به من الأسباب يتعلَّقون بأسبابٍ دون ذلك؛ فإمَّا أن يعلِّقوا قلوبهم بالخلق رغبةً ورهبة، وإمَّا أن يتركوا لأجل ما تبتَّلوا له من الغلوِّ في التوكُّل واجباتٍ أو مستحبَّات أنفعَ لهم من ذلك؛ كمَن يصرِفُ هِمَّتَهُ في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نَيْل رزقه بلا سَعْي، فقد يحصُلُ ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف، والسعي اليسير، وصرف تلك الهمَّة، والتوجُّه في

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/١٠ - ١٢)، و«مدارج السالكين» (١/٧٨ - ٨١).

عمل صالح، أنفعَ له، بل قد يكون أوجَبَ عليه من تبتُّلِهِ لهذا الأمر اليسير الذي قدرُهُ درهم أو نحوه»(١).

ويوضِّحُ حال هؤلاء بقوله: «وهو مغلوب؛ إمَّا مع عدوِّه الباطن، وإما مع عدوِّه الظاهر، وربما يكثُرُ منه الجزع مما يصيبه، والحزن لما يفوته؛ وهذا حال كثيرٍ ممن يَعرِف شريعة الله وأمره، ويرى أنه مُتَّبعٌ للشريعة وللعبادة الشرعيَّة، ولا يعرف قضاءه وقدره، وهو حَسَنُ القصد، طالبٌ للحق؛ لكنه غير عارف بالسبيل المُوصِلَة، والطريق المُفضِيَة»(٢).

وقال أيضًا: «وطائفةٌ أخرى قد يَقصِدون طاعة الله ورسوله، لكن لا يحقِّقون التوكُّل عليه، والاستعانة به؛ فهؤلاء يُثابُونَ على حُسْن نيَّتهم، وعلى طاعتهم، لكنَّهم مخذولون فيما يَقصِدونه؛ إذْ لم يحقِّقوا الاستعانة بالله، والتوكُّل عليه؛ ولهذا يُبتلَى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارَةً، وبالإعجاب أُخرى، فإنْ لم يحصُل مراده من الخير، كان لضعفه، وربما حصَلَ له جزَع، فإن حصل مراده، نظر إلى نَفْسِهِ وقُوَّته؛ فحصل له إعجاب.

وقد يُعجَبُ بحاله، فيظنُّ حصول مراده، فيُخذَل؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٧]»(٣).

الرابع: هم أولئك الذين قد يكون لهم توكُّلٌ واستعانة من غير عبادة؛ فهؤلاء يَلحَظُونَ تفرُّدَ الله ﷻ بالنفع والضرّ، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فيستعينون به، ويتوكَّلُون عليه في تحصيل حظوظهم ومطالبهم

(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/١٨٣).
(٢) المصدر السابق (١٤/١٠).
(٣) المصدر السابق (١٠/٢٧٧).

وشهواتهم، لكنهم لا يَلتفِتون إلى ما يحبه الله ﷻ ويرضاه؛ ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أنه قد يحصُلُ لبعض قطَّاع الطريق من التوكُّل ما لا يحصُلُ لبعض العُبَّاد وأهل العلم(١).

فقُطَّاعُ الطريق قد يكون عندهم من الثبات، ورَبَاطة الجَأْش، والتفويض إلى الله ﷻ، والتسليم له، والاعتماد عليه، والوثوق به، وأنه لا يُصِيبُهم إلّا ما كتب الله لهم، فيَركَبُونَ الأهوال والأخطار، ويُغامِرون، ويَحمِلون أرواحهم على أَكُفِّهم توكُّلًا على الله ﷻ.

ولعلَّك تجد مَن يسافِرُ إلى بلاد الكفر للمجون والفساد في الأرض، فإذا ذُكِّرَ بالله وخُوِّفَ مما قد يصيبه من أمراض بتلك البلاد، قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

فهذا فيه نوعُ تفويض، ولكنَّ تسمية مثل هذا بالتوكُّل على الله، فيه نَظَر واضح.

كيف نسمِّي مَن يذهب ليزني - وهو يَعلَمُ أنه لن يصيبه إلّا ما كتب الله له - متوكِّلًا على الله؟! هذا أمرٌ في غاية الغرابةِ والشذوذ.

والمسمَّى شَرْعيٌّ؛ فلا بُدَّ من توافر الشرعيَّة التي لولاها لما تَسَمَّى بهذا الاسم.

ولذلك كان المصدِّق بالرسول مع عنادِه وكفره أشدَّ كفرًا من المكذِّب له؛ لقيام الحجة.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢٤/١٣)، (١١/١٤)، و«مدارج السالكين» (٨٢/١).

الطريق إلى تحقيق التوكل

يمكننا تحقيق التوكُّل بأمور:

أولًا: تفريغ القلب من الالتفات إلى غير الله ﷻ؛ فإن هذا القلبَ يُشبِهُ الوعاء، وهو بحسب ما مُلِئَ به:

فإذا ملئ هذا القلب خوفًا من المخلوقين ورهبةً منهم، فإنه يَعتمِد عليهم، ويتوجَّه إليهم رغبةً ورهبةً.

وإذا مُلِئَ بالنظر إلى محاسن هؤلاء المخلوقين، حتى صار لهم تأمُّله ونَظَره وفِكْره، فإنه يتعلَّق بهم غاية التعلُّق؛ فلا يَبقَى فيه محلٌّ لمحبَّة الله ﷻ والإقبال عليه.

وهكذا: إذا أَحَبَّ الإنسانُ امرأةً، وتعلَّق قلبُهُ بها، فإنَّ ذلك يَشغَلُهُ في ليله ونهاره، ويَظهَرُ ذلك في حاله كلِّه؛ في مجلسه، وشرود ذِهْنه، وشخوص بَصَره، ويظهر ذلك عليه أيضًا في جوارحه، وفي هَيْئَته وشحوب وجهه، وقد قيل[(١)]:

الْحُبُّ مَشْغَلَةٌ عَنْ كُلِّ صَالِحَةٍ   وَسَكْرَةُ الحُبِّ تُنْسِي سَكْرَةَ الْوَسَنِ

فالحاصل: أن الإنسان قد يُصِيبه من الأدواء ما يَعجِز الأطباء عن علاجها؛ وسبب ذلك: هو التعلُّق بمخلوق يفنى، ويزول حُسْنُهُ وجماله وبهاؤه.

ولذلك تجد أعداء الله ﷻ يَعمَلون على إظهار قوَّتهم وإمكاناتهم المادِّية الهائلة، وما عندهم من العتاد والسلاح الذي يصوِّرون به للناس أنهم يَقدِرون على كل شيء، وأنهم يستطيعون أن يَسمَعُوا دبيب النمل تحت الأرض، وأنهم

---

(١) «نهاية الأرَب» (٢/١٥٠).

يستطيعون أن يَعرِفوا حال الإنسان في ليله ونهاره، وتقلُّباته وتحرُّكاته كلها، وأنه لا يخفى عليهم منه خافيةٌ في قليل ولا كثير.

فإذا قرَأَ الإنسان في هذه الأمور، فإنه يَرتجِفُ قلبه، ويخاف، ويتوجَّس من كل شيء، ويظنُّ أن هؤلاء الأعداء يرصُدُونَ جميع الحَرَكات والسَّكَنات.

وما عَلِمَ المسكينُ أن الله فوق الجميع، وأن هؤلاء خَلْقٌ ضعفاء، يُصِيبهم ما يصيب الخلق، فيَعجِزون عن أن يدفعوا عن أنفسهم قليل البلاء أو كثيره؛ فهم ضعفاء أمام جند الله ﷻ التي مِن أَضْعَفِها فيما يبدو لنظرنا: هذا الماءُ الرقيقُ السَّيَّال الذي نَشرَبُه، وننتفع به؛ فكيف بالنار المُحْرِقة والصواعق؟! كيف بالشُّهُبِ التي يَرْجُم الله ﷻ بها مَن شاء مِن عباده؟!

ولذلك: لا يَحْسُن بالإنسان أن يُطِيلَ القراءة والنظر في إمكانات الأعداء، وما عندهم من وسائل التنصُّت، ومعرفة أحوال الناس، والاطلاع على خباياهم؛ فهم يتعمَّدون تضخيم هذه الأمور.

ولنا في هذا الواقع المُعَاش عِبْرة عظيمة؛ فإن العاقل إذا تأمَّل فيما يجري حوله، عرَفَ ضعف الخلق وعَجْزَهم، وأنهم لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وما نَفَعَتْهم تلك الطائرات التي صوَّروا أنها تكتشف دبيب النمل تحت الأرض، وأنهم يسمعون بها أنفاس أعدائهم؛ فهم يقفون يُعْلِنون عجزهم أمام أعدائهم، وأنهم لم يحصِّلوا من وراء ذلك كبير طائل، مع تسخير جميع ما عندهم من القُدَرِ والإمكانات وصرف المِلْيارات، وما إلى ذلك؛ فهذه عِبْرة للناظرين.

فينبغي للعبد أن يفرِّغَ قلبه مما لا يحبُّه الله ﷻ، ويَملَأَهُ بما يحبُّه الله، وأن يفرِّغ قلبه مِن عبادة غير الله، ويملأه بعبادة الله وحده، وأن يُخرِجَ خوف المخلوقين من قلبه، ويملأه بالخوف من الله.

وهذا العبد الذي يتوجَّه بقلبه إلى المخلوق تعلُّقًا به ومحبةً له، وخوفًا منه ورغبةً فيما عنده، ونحو ذلك، إنما يحصُلُ له عكس مقصوده، ويعذَّبُ بسبب

هذا التعلُّق بقدر ما حصَلَ له منه جزاءً وفاقًا؛ فهذا القلب إنما خُلِقَ ليُقبِلَ على ربه، ليكون عبدًا لله ﷻ؛ ففيه فقرٌ ذاتيٌّ لله تبارك وتعالى، فإذا صارت عبوديته لغير الله ﷻ، تعذَّب بهذا الشيء الذي توجَّه إليه، وتعلَّق به.

وهذا يقودنا إلى الأمر الثاني مما يتحقَّق به التوكُّل، ويكون سبيلًا إليه(١).

ثانيًا: تحقيق التوحيد؛ «فإنه لا يستقيم توكُّلُ العبد بحالٍ من الأحوال حتى يصلُحَ له توحيده، بل إن حقيقة التوكُّل هي توحيدُ القلب؛ فما دامت به علائق الشرك، فتوكُّلُهُ معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل»(٢).

قال الجُنَيْد: «التوكُّلُ: عمَلُ القلب، والتوحيدُ: قولُ القلب»(٣).

وقد فسَّر ذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ فقال: «أراد بذلك: التوحيدَ الذي هو التصديق؛ فإنه لمَّا قرَنَهُ بالتوكُّل، جعله أصله، وإذا أُفرِدَ لفظ التوحيد، فهو يتضمَّن قول القلب وعمله، والتوكُّل من تمام التوحيد»(٤).

وهذا التلازُمُ والعَلَاقة بين التوحيد والتوكُّل ظاهرة في أنواع التوحيد الثلاثة:

فأوَّلها: توحيد الإلهيَّة؛ وعلاقته بالتوكُّل واضحة؛ وذلك أنه «على قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكُّل؛ فإنَّ العبد متى التفَتَ إلى غير الله ﷻ، أخذ ذلك الالتفاتُ شعبةً من شُعَب قلبه، فنقَصَ من توكُّله على الله تبارك وتعالى بقدر ذَهَاب تلك الشعبة»(٥).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٨٤- ١٨٦)، و«طريق الهجرتين» (٢/٥٦٠)، و«الفوائد» (٧٢)، و«إغاثة اللهفان» (٢/٩٣١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠)؛ بتصرف.

(٣) تقدم.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٦٨).

(٥) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠).

والثاني: توحيد الربوبية، وللعلماء في هذا كلامٌ طويل كثير، لا سيَّما شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم.

وخلاصة ذلك من مجموع كلامهم: أنَّ تحقيق هذا التوحيد، وتحقيق التوكُّل أيضًا، إنما يكون بعلم العبد بتفرُّد الربِّ تبارك وتعالى في المُلْكِ والتدبير؛ فلا يرى نفعًا ولا ضرًّا، ولا حركةً ولا سكونًا، ولا قبضًا ولا بسطًا، ولا خفضًا ولا رفعًا، إلّا والله سبحانه فاعلُهُ وخالقه، وقابضه وباسطه، ورافعه وخافضه، وأنه لا يُشارِكُه في ذلك أحد.

وأما المخلوق، فليس عنده للعبد نفعٌ ولا ضُرّ، ولا منع ولا عطاء، ولا هُدًى ولا ضلال، ولا نَصْرٌ ولا رفع، ولا عِزٌّ ولا ذُلّ، بل ربنا ﷻ هو الذي خلقنا، ورزقنا، وبَصَّرَنا، وهدانا، وأسبَغَ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وتحبَّب إلينا بها مع غناه عنَّا، ومع تبغيض العباد إليه بالمعاصي، ومع فَقْرِهم إليه.

فإذا حقَّق العبد ذلك علمًا ومعرفة، وباشَرَ قلبه حالًا، لم يجد بُدًّا من اعتماد قلبه على الحق وَحْدَهُ، وثقتِهِ به، وسكونه إليه، وطمأنينته به وحده لا شريك له؛ وذلك لعلمه أن حاجاته، وفاقاته، وضروراته، وجميع مصالحه، كلُّها بيده وحده، لا بيد غيره.

ولذلك: فإنه يستحيل أن يحصُلَ تحقيقُ التوكُّل حتى يُؤمِن العبد بكمال ربوبيَّة الله تبارك وتعالى؛ ولذلك نَجِدُ في الآيات كثيرًا من الربط بين التوكُّل والإيمان بالربوبيَّة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]؛ فالضرُّ والنفعُ الذي يلحق الإنسان في هذا الكون إنما هو بيد الله؛ فكان حق المخلوق أن يتوكَّل على الله وحده، ولا يتوكَّل على أحدٍ سواه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هود: ٥٦].

فإذا تحقَّق العبد أنه لا يكون شيء إلّا بمشيئة الله ﷻ وقُدْرَتِه، وأن الخلق

لا يَملِكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وأن جميع النِّعَم من الله ﷻ، وأنه لا يَقدِر أن يأتي بها سواه، وإذا جاءت، لا يَقدِرُ على رفعها غيره؛ فلا يأتي بالحَسَنات إلّا هو، ولا يدفع السَّيِّئات إلّا هو.

فعندئذٍ: يَنقطِع طلب القلب للمعونة من المخلوقين، ويطلُبُ ذلك من الله وحده: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وبهذا يصير توكُّله ورجاؤه ودعاؤه للخالق وحده لا شريك له(١).

والتوكُّل ينشأ من هذَيْن الأمرَيْن: من جهة كون الأمر بيد الله وإليه، ومِنْ جهة فقر العبد، وعدَمِ مُلْكِه شيئًا البتَّة(٢).

ومِن شأن الإنسان: أنه يتضرَّر من كل شيء يأخذ منه فوق حاجته، أو إذا أعطاه أكثر مِن قَدْره، وهذه سُنَّةُ الله ﷻ في هذا الخلق؛ فهذه الشمس يحتاج إليها الإنسان، فلو أنه جلَسَ تحتها قدرًا زائدًا، فإنه يتضرَّر مِن ذلك، وهذا الطعام إذا أكَلَ منه فوق حاجته، تضرَّر من ذلك، وهكذا إذا تعلَّق قلبه وجوارحه بالدنيا، وصار اشتغاله بدنياه فوق القدر المحتاج إليه، فإنَّ ذلك يكون على حساب عبوديَّته لله ﷻ، ومحبَّتِه له، وتفريغ قلبه لله تبارك وتعالى.

ثم هو يعذِّب قلبه بما تعلَّق به من أمور الدنيا إنْ وجَدَها أو فقَدَها، فيحصُلُ له من الألم أعظم مما يحصُلُ له من اللذة؛ وهذا يَعرِفه مَن تعلَّق قلبه بغير الله ﷻ، فالذي يتعلق قلبه بامرأةٍ، يجد من الألم والحَسْرة عند فراقها أضعاف ما يجده بالتلذُّذ عند الحديث معها أو رؤيتها ونحو ذلك، والذي تعلَّق

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٨٩/١) (٣٢٢/١٣ - ٣٢٣) (٣٤١/١٤)، و«مدارج السالكين» (١٢٨/٢ - ١٢٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١٢٩/٢).

قلبه بالدِّرْهَم والدينار، فهو بقدر ما يتلذَّذ بذلك، فإنه يَشْقَى به ويتعذَّب؛ فهو مشغول الفكر؛ كيف يزيده؟! وكيف يَحُوطُهُ ويحفظه؟!

وهذا أمرٌ مشاهَد معلوم، وقد أخبر الله ﷻ عن حال هؤلاء المخذولين؛ فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۞ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۞ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]، وقد قال إبراهيم عليه السلام لقومه - وهو إمام الحُنفاء -: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فالحاصل: أن صلاح العبد وصلاح قلبه وحاله في استعانتِهِ بربِّه ومليكه وخالقه ﷻ في كل ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة[١].

والثالث: توحيد الأسماء والصفات؛ فإن مَعرفةَ الربِّ ﷻ معرفةً صحيحةً بأسمائه وصفاته، أساسٌ لا بُدَّ منه في تحقيق التوكُّل، والآيات التي تَربط بين التوكُّل والأسماء والصفات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

«فالتوكُّل من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بأسماء الله ﷻ وصفاته؛ فإن له تعلُّقًا باسم الغفَّار والتوَّاب، والعفوِّ والرؤوف، والرحيم والفتَّاح، والوهَّاب والرَّزَّاق، والمُعْطِي والمُحْسِن، والمُعِزِّ والمُذِلّ، والخافض الرافع، والمانع؛ مِن جهة توكُّله عليه في إذلال أعداء دِينه وخَفْضِهم، ومنعِهم من أسباب النصر.

وله تعلُّق بأسباب القُدْرة والإرادة.

وله تعلُّق عامٌّ بجميع الأسماء الحُسْنى؛ ولهذا فسَّره مَن فسَّره من الأئمة

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/٢٨ - ٢٩)، و«طريق الهجرتين» (١/١٢٨).

بأنه: «المَعرِفة بالله ﷻ»، وإنما أراد: أنه بحسَب معرفة العبد يصحُّ له مقام التوكُّل، وكلما كان العبد بالله أعرَف، كان توكُّله عليه أقوى»[(١)]؛ فإنه لا يُمكِن أن يتوكَّل على الله في تصريف أموره مَن لم يَعرِفْ أنه قويٌّ قادر، ولا يُمكِن أن يتوكَّل عليه في الرزق إلّا مَن عَلِمَ أنه هو الرزَّاق، ولا يمكن أن يتوكَّل عليه في النصر إلّا مَن علم أنه هو النصير، وأن مقاليد الأمور تحت قَبْضَته، ونواصي الخلق بيده؛ يتصرَّف فيهم كيف يشاء.

قال ابن القيِّم: «وإذا تجلَّى الله ﷻ بصفات الكفاية والحَسْب، والقيامِ بمصالح العباد، انبعَثَ من العبد قوَّة التوكُّل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وما في كلِّ ما يجريه على عبده ويقيمه مما يَرضَى به هو سبحانه.

والتوكُّل: معنًى يَلتئِمُ مِن علم العبد بكفاية الله، وحُسْنِ اختياره لعبده، وثقتِهِ به، ورضاه بما يفعله ويختاره له»[(٢)].

كما نَقَلَ عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ أنه قال: «لا يصحُّ التوكُّل ولا يُتصوَّر من فيلسوف، ولا مِن القدريَّة النفاة، القائلين بأنه يكون في مُلْكِهِ ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضًا من الجهميَّة النفاة لصفات الربِّ جل جلاله، ولا يستقيم التوكُّلُ إلّا مِن أهل الإثبات.

فأيُّ توكُّل لمن يَعتقِدُ أن اللهَ لا يَعلَمُ جزئيَّات العالَم سُفلِيِّهِ وعُلويِّه، ولا هو فاعلٌ باختياره، ولا له إرادة ومشيئة، ولا يقوم به صفة؟! فكُلُّ مَن كان بالله وصفاته أعلَمَ وأعرَف، كان توكُّله أصحَّ وأقوى»[(٣)].

وقال ابن قُدَامة: «التوكُّل: عبارة عن اعتماد القلب على الموكَّل، ولا يتوكَّلُ الإنسان على غيره إلّا إذا اعتقَدَ فيه أشياء: الشَّفَقة، والقوَّة، والهداية.

---

(١) «مدارج السالكين» (١٢٥/٢)؛ بتصرف.

(٢) «الفوائد» (ص ٩٩)؛ باختصار وتصرف.

(٣) «مدارج السالكين» (١١٨/٢).

فإذا عَرَفْتَ هذا، فقِسْ عليه التوكُّل على الله سبحانه، وإذا ثبَتَ في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقَدتَّ مع ذلك أنه تامُّ العلم والقُدْرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء عِلْمِه عِلْم، ولا وراء رحمته رحمة، اتَّكَلَ قلبُك عليه وحده لا مَحَالة، ولم يَلتفِتْ إلى غيره بوجه»(١).

وقال ابن القيِّم: «عِلْمُ العبد بتفرُّد الربِّ تعالى بالضر والنفع، والعَطَاء والمَنْع، والخَلْقِ والرِّزْق، والإحياء والإماتة، يُثمِرُ له عبوديةَ التوكُّلِ عليه باطنًا، ولوازمَ التوكُّلِ وثمراتِهِ ظاهرًا»(٢).

ثالثًا: الثقة بالله ﷻ، وحُسْنُ الظنِّ به؛ ومِن ثَمَّ التفويضُ له؛ فالإنسان الذي لا يثق بكفاية الله ﷻ كيف يتوَكَّل عليه؟! والإنسان الذي يُسِيء الظن بربه تبارك وتعالى كيف يتوكَّل عليه؟! وكيف يفوِّضُ أمره إليه؟!

والثقة - كما قال صاحب «منازل السائرين»(٣) -: «سوادُ عَيْنِ التوكُّل، ونقطةُ دائرة التفويض، وسويداءُ قلب التسليم».

وصدَّر الباب بقوله تعالى لأم موسى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧]؛ فإنَّ فِعْلَها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى؛ إذْ لولا كمال ثِقَتِها بربها، لما أَلْقَتْ بوَلَدِها، وفِلْذةِ كبدها في تيَّار الماء، تتلاعب به أمواجُهُ وجِرْياتُهُ إلى حيث ينتهي أو يَقِف.

ومراده: أن الثقة خلاصة التوكُّل ولبُّه؛ كما أن سواد العين أشرف ما في العين...

وقد تقدَّم أن كثيرًا من الناس: يفسِّرُ التوكُّل بالثقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم: من يفسِّره بالتفويض، ومنهم: من يفسِّره بالتسليم.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٤٢٠ - ٤٢١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/٥١٠).

(٣) انظر: «منازل السائرين» (ص٤٦).

فعلمتَ أن مقام التوكُّل يجمع ذلك كله.

فكأنَّ الثقة عند الشيخ هي رُوحٌ، والتوكُّل كالبدن الحامل لها، ونسبَتُها إلى التوكُّل كنسبة الإحسان إلى الإيمان، والله أعلم»(١).

وقد قال الحسن البصري: «إنَّ مِن توكُّلِ العبد أن يكون الله هو ثِقَتَهُ»(٢).

وقيل لِسَلَمةَ بنِ دينار: ما مالُك؟ قال: «خيرُ مالي: ثقتي بالله تعالى، وإياسي مما في أيدي الناس»(٣).

ويستحيل أن يَتِمَّ توكُّل العبد على الله ﷻ، ويحصُلَ له مطلوبه في هذا الباب، إلَّا بتحقيق أمرَيْن:

الأول: حُسْنُ الظَّنِّ بالله ﷻ؛ فعلى قدر حُسْنِ ظنِّ العبد بربِّه سبحانه وتعالى يكون توكُّله عليه، وأما مَن ساءَتْ ظنونه بربِّه، فإنه لا يمكن أن يفوِّض أمره إليه(٤).

وقد سُئِلَ عبد الله بن داود الخُرَيْبِيُّ عن التوكُّل؟ فقال: «أرى التوكُّل حُسْنَ الظنِّ بالله ﷻ»(٥).

وقال إبراهيم بن شَيْبان: «حُسْنُ الظنِّ بالله: هو اليأس عن كل شيء سوى الله ﷻ»(٦).

وسُئِلَ الحارث: ما الذي يقوِّي المتوكِّل؟ قال: «ثلاث خصال:

الأُولى منها: حُسْن الظنِّ بالله.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/١٤٣- ١٤٤)؛ بتصرُّف.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (١٨٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٣١)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٤٠)؛ واللفظ له.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢١).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢١٤)؛ واللفظ له، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/٣٢).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٤٨).

والثانية: نفي التُّهَم عن الله.

والثالثة: الرضا عن الله تعالى فيما جرى به التدبير لتأخير الأوقات وتعجيلها»[١].

فإذا تحقَّقت هذه الثقة، مع حُسْنِ الظنِّ، نتَجَ عن ذلك «اعتمادُ القلب على المولى ﷻ؛ فيستنِدُ إليه، ويسكُنُ إليه؛ بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يَخلَعُ السكون إليها من قلبه، ويُلبِسُهُ السكون إلى سببها، وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرِبُ قلبه ويَخفِق»[٢].

وقد شبَّه هذا الحافظ ابن القيِّم؛ فقال: «فحاله حال مَن خرَجَ عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصنًا مفتوحًا، فأدخله ربه إليه، وأغلَقَ عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوَّه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوِّه في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك: مَن أعطاه مَلِكٌ درهمًا، فسُرِقَ منه، فقال له المَلِك: عندي أضعافه، فلا تَهتَمّ، متى جئتَ إليَّ، أعطيتُكَ مِن خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول المَلِك، ووَثِقَ به، واطمأنَّ إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك، لم يَحْزُنْه فواته.

وقد مُثِّلَ ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتمادِهِ وسكونِهِ وطمأنينتِهِ بثدي أُمِّه، لا يَعرِفُ غيره، وليس في قلبه التفاتٌ إلى غيره... كذلك المتوكِّل لا يأوي إلَّا إلى ربِّه سبحانه»[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/١٠٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/١٢٠- ١٢١)؛ بتصرف.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/١٢١).

«فلا بُدَّ للعبد أن يشهد دائمًا فَقْرَهُ إلى الله، وحاجته في أن يكون معبودًا له، وأن يكون مُعِينًا له»(١).

«لا يستشرِفُ إلى المخلوق؛ فإن «الحُرَّ عبدٌ ما طَمِع، والعبدُ حرٌّ ما قَنِع»(٢)، وقد قيل:

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدَتْنِي ....(٣)

فَكَرِهَ أن يُتبِعَ نفسَهُ ما استشرَفَتْ له؛ لئلَّا يبقى في القلب فَقْرٌ وطمعٌ إلى المخلوق؛ فإنَّه خلاف التوكُّل المأمور به، وخلاف غنى النَّفْس»(٤).

ومعلوم: «أن النفوس تَعلَم فَقْرَها إلى خالقها، وتَذِلُّ لمن افتقرَتْ إليه، وغناه من الصَّمَديَّة التي انفرَدَ بها؛ فإنه يسأله مَن في السموات والأرض، وهو شهود الربوبيَّة بالاستعانة والتوكُّل، والدعاء والسؤال.

ثم هذا لا يكفيها حتى تَعلَمَ ما يُصلِحُها من العلم والعمل؛ وذلك هو عبادتُهُ والإنابة إليه؛ فإن العبد إنما خُلِقَ لعبادة ربه؛ فصلاحُهُ وكماله ولَذَّته، وفرحُهُ وسروره، في أن يعبُدَ ربه، ويُنِيب إليه؛ وذلك قَدْرٌ زائد على مسألته والافتقار إليه؛ فإنَّ جميع الكائنات حادثة بمشيئته، قائمة بقدرته وكلمته، محتاجة إليه، فقيرة إليه، مسلِّمة له طوعًا وكرهًا.

فإذا شَهِدَ العبد ذلك، وأسلَمَ له وخضع، فقد آمَنَ بربوبيَّته، ورأى حاجته وفَقْرَهُ إليه، [و]صار سائلًا له، متوكِّلًا عليه، مستعينًا به؛ إما بحالِهِ، أو بقالِهِ»(٥).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٦/١).

(٢) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٩٩)، عن بُنَان الحمَّال.

(٣) «ديوان أبي العتاهية» (ص١٦٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣٢٩/١٨).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٣٢/١٤).

والثاني: إلقاء الأمور كلِّها إلى الله تعالى، مع فعل الأسباب؛ وهذا هو التفويض، وهو رُوحُ التوكُّل وحقيقتُه.

فيكون قلبُهُ مستسلِمًا لله ﷻ، تنجذِبُ دواعيه إليه؛ فلا يكون في قلبه منازَعة لله تبارك وتعالى، بل يكون كحال الصبيِّ الصغير مع أبيه، فهو يَثِقُ به وبوَلَايته وحُسْنِ تدبيره؛ فيرى أن تدبير والده خيرٌ له من تدبيره هو، وأن ذلك أصلَحُ وأرفَقُ به؛ فلا يجد له أصلح من تفويضه أمورَهُ كلَّها إلى أبيه، وراحته من حملِ كُلَفِها وثِقَلِ حَمْلِها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم مَن فوَّض إليه، وقدرتِهِ وشَفَقته[1].

وبهذا نعلم: أن التوكُّل يجمع مقام التفويض والاستعانة والرِّضا، وما إلى ذلك من المعاني التي ذُكِرَتْ.

رابعًا: الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر؛ فإن ذلك يُثمِرُ التوكُّل لا محالة[2].

عن ابن عبَّاس ﭬ؛ قال: كنتُ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ يومًا، فقال: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ؛ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[3].

فما هو مقدَّرٌ حاصلٌ لا محالةَ، والإنسانُ قد كُتِبَ رِزْقُهُ وأجلُهُ وعمله، وشَقِيٌّ أم سعيد، وهو في بطن أُمِّه.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/١٢٢).
(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/٢٨).
(٣) تقدم تخريجه.

وكذلك قدَّر الله ﷻ مقادير الخلق قبل أن يخلُقَ السموات والأرض بخمسين ألفَ سَنَة، وكان عرشُهُ على الماء.

أفلا يعقل ذلك أولئك الذين تروح نفوسُهم وتجيء كالرِّيشَة في مَهَبِّ الريح؛ خوفًا وقلقًا على أرزاقهم، أو على صِحَّة أبدانهم؛ فإذا أصاب الواحدَ منهم حاجةٌ وفَقْر، أو أصابه مرَض، اجتمَعَتْ عليه هموم الدنيا، وأظلَمَتِ الدنيا في وجهه، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ.

فعن ابن عمر ﷺ؛ قال: جاء سائلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فإذا تَمْرةٌ عائرة، فأعطاه إيَّاها، وقال النبي ﷺ: «خُذْهَا لَوْ لَمْ تَأْتِهَا، لَأَتَتْكَ»[(١)].

وعن أبي الدرداء ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنَّ الرِّزْقَ يَطْلُبُ الْعَبْدَ، كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»[(٢)].

قال البيهقي مفسِّرًا له: «والمراد بهذا - والله تعالى أعلم -: أن ما قُدِّرَ له من الرِّزْقِ يأتيه؛ فلْيَثِقْ به، ولا يجاوزِ الحَدَّ في طلبه»[(٣)].

فالإنسان سيأتيه ما كَتَبَهُ الله ﷻ له، ولا داعي للجوءِ إلى الحرام والطُّرُقِ المشتبِهة في أنواع المعاملات المالية، وقد جاء عن جابر ﷺ مرفوعًا: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ؛ فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢٦٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤٠)؛ واللفظ له، وصحَّحه المنذري، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٥)، و«ظلال الجنة» (٢٦٥).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣٢٣٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/٨٦)، وصوَّب وقفه الدارقطني في «العلل» (٦/٢٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (١١٤٨)، وصحَّحه مرفوعًا المنذري في «الترغيب» (٢/٥٣٥)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (٩٥٢).

(٣) «شعب الإيمان» (٣/١٣٠).

(٤) تقدم تخريجه.

وقال أبو الدَّرْداء ﷺ: «لو أنَّ رَجُلًا هرَبَ مِن رزقِهِ كهَرَبِهِ من الموت، لَأدرَكَهُ رِزْقُهُ كما يُدرِكُهُ الموت»[١].

وقال ابن حِبَّانَ: «العاقلُ يَعلَمُ أن الأرزاق قد فُرِغَ منها، وتضمَّنها العليُّ الوفيُّ على أن يوفِّرها على عباده في وقت حاجتهم إليها»[٢].

وقال الفُضَيْل بن عياض: «ما اهتمَمْتُ لرزقٍ أبدًا»[٣].

وقال أبو عثمان الحِيري: «يا عبد الله، في ماذا تُتعِبُ قلبَك، وتنازِعُ إخوانَك... وتَعمَلُ في هَلَكة حَسَناتك بالحَسَد لمن هو فوقك، كأنَّك لم تُؤمِن بمن أخبَرَ أنه يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء، ويؤتي الملك مَن يشاء، ويَنزِع الملك ممن يشاء؛ فاستعمِلِ العلم في ظاهرك إنْ كنتَ تاجرًا أو كاسبًا أو زارعًا، وأَجمِلْ في الطلب، واترُكِ الحرامَ والشُّبُهاتِ جميعًا؛ فإنَّ نَفْسًا لن تموت حتى تستوفي رِزْقَها وحظَّها من عِزِّها ورياستها ورزقها، ولو هرَبَ العبد من رزقه، لأدرَكَهُ رزقه كما لو فَرَّ مِن الموت»[٤].

وقال رجل لمعروف الكَرْخي: أَوصِني، قال: «توكَّلْ على الله ﷻ؛ حتى يكونَ جليسَكَ وأنيسَكَ وموضعَ شكواك، وأَكْثِرْ ذكرَ الموت؛ حتى لا يكونَ لك جليس غيره، واعلَمْ: أن الشفاء لِمَا نزَلَ بك كتمانُه، وأن الناس لا يَنفَعُونك ولا يَضُرُّونك، ولا يُعطُونك ولا يَمنَعُونك»[٥].

خامسًا: تدبُّر القرآن؛ فالقرآن فيه من المواعظ والتذكير، وما أعلَمَ اللهُ ﷻ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١١٤٨). وأخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (٥٩)، والبيهقي في «الشعب» (١١٤٩)؛ من كلام عمر بن الخطاب ﷺ، بنحوه.

(٢) «روضة العقلاء» (ص ١٥٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «القناعة» (١٠٦).

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢١٩).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٧)؛ واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٦٠).

به العبادَ مِن معاني أسمائه وصفاته، وقوَّته وقدرته، ما يربِّي في قلوبهم المحبَّة والمهابة، والإجلال والتعظيم.

يقول عامر بن عبد قيس: «ثلاثُ آياتٍ في كتاب الله ﷻ، اكتفَيْتُ بهنَّ عن جميع الخلائق:

أولهن: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

والآية الثانية: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

والثالثة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]»[١].

ويُحكَى عن ابن بَابْشَاذَ النحويِّ؛ أنه كان يومًا في سَطْحِ جامعِ مصر، وهو يأكل شيئًا، وعنده ناس، فحضَرَهم قِطٌّ، فرمَوْا له لُقْمة، فأخَذَها في فيه، وغاب عنهم، ثم عاد إليهم، فرمَوْا له شيئًا آخر، ففعَلَ كذلك، وتردَّد مرارًا كثيرة، وهم يرمون له، وهو يأخُذه، ويَغِيبُ به، ثم يعود من فَوْره، حتى عَجِبوا منه، وعَلِموا أن مثل هذا الطعام لا يأكُلُهُ وحده لكثرتِهِ، فلما استرابوا حاله، تَبِعوه، فوجدوه يَرْقَى إلى حائط في سطح الجامع، ثم ينزل إلى موضع خالٍ... وفيه قطٌّ آخر أعْمَى، وكل ما يأخذه من الطعام يَحمِله إلى ذلك القِطّ، ويضعه بين يديه، وهو يأكله، فعَجِبوا من تلك الحال.

فقال ابن بَابْشَاذ: «إذا كان هذا حيوانًا أخرَسَ، قد سَخَّرَ الله سبحانه وتعالى له هذا القِطَّ، وهو يقوم بكفايته، ولم يَحْرِمْهُ الرِّزْق، فكيف يضيِّعُ مثلي؟!»[٢].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٦٥).

(٢) «وفيات الأعيان» (٢/٥١).

وعن أبي قُدَامة الرَّمْلي؛ قال: قرأ رجل هذه الآية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]، فأقبلَ على سليمانَ الخَوَّاصِ، فقال: «يا أبا قُدَامةَ، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآيةِ أن يَلجأَ لأحدٍ غيرِ اللهِ في أمرِه»[(١)].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أشد آية في القرآن تفويضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]»[(٢)].

سادسًا: أن يَعلَم العبد أن رِزْقَهُ لا يأكُلُهُ غيره:

قيل لحاتم الأصمّ: عَلَامَ بَنَيْتَ أمرَكَ هذا من التوكُّل؟ قال: «على أربعِ خلالٍ: عَلِمْتُ أن رزقي لا يأكله غيري؛ فلستُ أهتَمُّ له، وعَلِمْتُ أن عملي لا يعمله غيري؛ فأنا مشغولٌ به، وعَلِمْتُ أن الموت يأتيني بغتةً؛ فأنا أُبادِره، وعَلِمْتُ أني بعَيْن الله في كل حال؛ فأنا مُسْتَحْيِ منه»[(٣)].

وقيل لحاتم أيضًا: «مِن أين تأكُل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧]»[(٤)].

وقال سَلَمة بن دينار: «وجدتُ الدنيا شيئَيْن: فشيءٌ منها هو لي؛ فلن أعجِّلَهُ قبل أجله، ولو طلبتُهُ بقوَّة أهل السموات والأرض، وشيءٌ منها هو لغيري؛ فذلك ما لم أنله فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، فيُمنَعُ الذي لي مِن غيري، كما يُمنَعُ الذي لغيري مني؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أُفْنِي عمري؟! ووجَدتُ ما أُعطِيتُهُ في

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٦)، و«القناعة والعفاف» (١٧٥)؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٤٩/٧٢).

(٢) أخرجه عبد الرزَّاق (٦٠٠٢)، والطبراني (١٣٤/٩ رقم: ٨٦٦١)، وابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٥٠)؛ واللفظ له، وابن جرير (٤٨/٢٣)؛ ومن طريق عبد الرزاق أخرجه الطبراني أيضًا (١٣٣/٩ رقم ٨٦٦٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٧٤).

الدنيا شيئَيْن: فشيءٌ يأتي أجله قبل أجلي، فأُغلَبُ عليه، وشيءٌ يأتي أجلي قبل أجله، فأموت وأخلِّفُهُ لمن بعدي؛ ففي أيِّ هذَيْنِ أعصي ربي؟!»[١].

وقال الحسن: «ابنَ آدم! لا تَحمِلْ هَمَّ سَنَةٍ على يوم، كفى يومك بما فيه، فإنْ تكنِ السنة مِن عمرك، يأتِكَ الله فيها برزقك، وإلا تكنْ مِن عمرك، فأراك تطلُبُ ما ليس لك!»[٢].

ويقول أبو الصهباء بن أَشْيَم: «طلَبْتُ الرزقَ بمَظَانِّه، فأعياني إلّا رزق يوم بيوم، فعَلِمْتُ أنه خير لي، وإنَّ امرأً جُعِلَ رزقه يومًا بيوم، فلم يعلم أنه خيرٌ له، لعاجزُ الرأي»[٣].

فهذا الكلام يقال للذين يَتهافَتُونَ على الدنيا، وإلَّا فإن عمر ﷺ قال: «كانت أموال بني النَّضِير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يُوجِفْ عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، فكانت للنبي ﷺ خاصَّة، وكان يُنفِق على أهله نَفَقةَ سَنَة، وما بَقِيَ يُجعَلُ في الكُرَاع عُدَّةً في سبيل الله»[٤].

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا بلغ العبدُ غايةً من الزهد، أخرَجَهُ ذلك إلى التوكُّل»[٥].

وقال شُمَيْط بن عَجْلان: «إن المؤمن يقول لنفسه: إنما هي ثلاثة أيام؛ فقد مضى أمس بما فيه، وغدًا أملٌ لعلَّك لا تُدْرِكه، إنك إنْ كنت من أهل غد، فإنَّ غدًا يجيء برزق غدٍ، ودون غد يوم وليلة، تُختَرَمُ فيها أنفس كثيرة، ولعلَّك المختَرَمُ فيها، كفى كلَّ يومٍ همُّه»[٦].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٤٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٦٥، ٩٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٤١)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٢٩)؛ واللفظ له.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٢٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٢٥٥- ٢٥٦).

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (٤١٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٤١).

وحُكِيَ أن رجلًا أعورَ خرجَ يبتغي من فضل الله تعالى، فصَحِبَ رجلًا في بعض الطريق، فسأله عن مَخْرَجِهِ، فأخبَرَهُ خبَرَهُ، فقال له الرجل: أنا واللهِ، أخرجني الذي أخرَجَك، فانطلِقْ بنا إلى الله تعالى نلتمِسْ من فضله، فخرَجَا في جبال لبنان، يَؤُمَّانِ بيت المَقدِس، فأتَيَا على بعض المنازل، فنزلا في قَصْرٍ خَرِب، فانطلَقَ أحدُهما ليأتي بطعام، فقال المتخلِّف منهما في الرَّحِيل[١]: ألقيتُ نَفْسِي، وجعلتُ أنظُرُ بناء ذلك القَصْرِ وهيئته وخَرَابَهُ بعد العمارة، وجعَلْتُ واللهِ أذكُرُ سفري، وتركي عيالي، فإذا أنا بلَوْحٍ من رُخَامٍ تجاهي في قِبْلَةِ حائط القَصْر، فيه كتابة، فاستَوَيْتُ؛ فإذا فيه:

لَمَّا رَأَيْتُكَ جَالِسًا مُسْتَقْبِلِي ... أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُمُومِ قَرِينُ
فَافْطَنْ لَهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا ... إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَضَاءِ يَقِينُ
هَوِّنْ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... فَأَخُو التَّوَكُّلِ شَأْنُهُ التَّهْوِينُ
طَرَحَ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ فِي رِزْقِهِ ... لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّهُ مَضْمُونُ[٢]

سابعًا: الدعاء؛ فكل مطلوب يطلُبُه الإنسان من حاجاته الدنيويَّة والأخرويَّة، يجب عليه فيه أن يلجأ إلى الله ﷻ وَحْدَهُ.

ومِن ذلك: الاستخارة؛ فهي: «توكُّلٌ على الله، وتفويضٌ إليه، واستقسامٌ بقدرتِهِ وعلمِهِ وحُسْنِ اختيارِهِ لعبده، وهي من لوازم الرضا به ربًّا، الذي لا يذوق طعم الإيمان مَن لم يكن كذلك، وإنْ رَضِيَ بالمقدور بعدها، فذلك عَلَامة سعادته»[٣].

وإذا لحقته الطِّيَرة، فإنه يقول كما قال كعبٌ: «اللَّهُمَّ، لا طَيْرَ إلَّا طَيْرُكَ، ولا خَيْرَ إلَّا خَيْرُكَ، ولا رَبَّ غَيْرُكَ، ولا حَوْلَ ولا قوَّة إلَّا بِكَ»؛ يقول كعب:

---

(١) هكذا في المطبوع، ولعلها الرَّحْل.
(٢) ذكره ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفُّف» (١٢٢).
(٣) «زاد المعاد» (٢/٤٠٦).

«والذي نفسي بيدِهِ، إنَّها لَرَأْسُ التوكُّل، وكنزُ العبدِ في الجنَّة، ولا يَقُولَنَّ عبدٌ عند ذلك ثم يمضي إلّا لم يَضُرَّهُ شيءٌ»(١).

وبذلك يكون محققًا لليقين الذي يقودُهُ ويفضي به إلى حقيقة التوكُّل، ويُثمِر له الاعتماد على الله ﷻ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ «فالحقُّ هو اليقين... ومتى وصل اليقين إلى القلب، امتلأ القلبُ نُورًا وإشراقًا»(٢).

وكان طَلْق بن حَبِيب يقول في دعائه: «أسألُكَ خوف العَالِمينَ بك، وعِلْمَ الخائفين لك، وتوكُّلَ المؤمنين بك، ويقينَ المتوكِّلين عليك، وإنابةَ المُخبِتين إليك، وإخباتَ المنيبين إليك، وصبرَ الشاكرين لك، وشكرَ الصابرين لك، وإلحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك»(٣).

وقال عَوْن بن عبد الله: «بينما رجلٌ في بُسْتانٍ بمصرَ في فِتْنةِ ابن الزبير، مهمومًا حزينًا، ينكُتُ بشيء معه في الأرض، إذا شيخ له صاحب مِسْحَاة (فلاح)، فقال له: ما لي أراك مهمومًا حزينًا؟ فرفَعَ رأسه، فلما رآه كأنه ازدراه، فقال: لا شيء، فقال صاحبُ المِسْحَاة: أبالدنيا؟ فإنَّ الدنيا عَرَضٌ حاضِر، يأكل منه البَرُّ والفاجِر، والآخرةُ أجلٌ صادق، يحكُمُ فيها مَلِك قادر، يَفصِلُ بين الحقِّ والباطل...

فلما سمع ذلك منه، كأنه أعجبه، قال: فقال: اهتمامي لما فيه المسلمون، قال: فإنَّ الله سيُنجِيكَ بشَفَقتك على المسلمين، وسَلْ؛ فمَن ذا الذي سأل فلم يُعْطِه، ودعاه فلم يُجِبْه، وتوكَّل عليه فلم يَكْفِه، أو وَثِقَ به فلم يُنْجِه؟!»(٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٣٧)؛ واللفظ له.

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٨).

(٣) «المستَطْرَف» (١/٧٩)؛ بتصرُّف، وأخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/٦٣-٦٤).

(٤) أخرجه هناد في «الزهد» (٧٨٤)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٤/٢٤٤)، وابن أبي الدنيا في «الهواتف» (١٢١)، و«التوكُّل» (١٦)؛ واللفظ له.

ثَمَرَاتُ التَّوَكُّل

والحديثُ عن ثمرات التوكُّل يحرِّك النفوس، ويَدفَعُها إلى التمسُّك بهذا الخُلُقِ الإيماني العظيم؛ وذلك أن معرِفة ثمرةِ العمل حافزٌ على فعله، والتحقُّق به؛ فمن ثمرات التوكُّل:

أولًا: أنه يَبعَثُ العبدَ على التزام حدود الله تعالى، ومجانَبة الحرام:

وذلك أن الإنسان إذا علم أنَّ رِزْقَهُ مقسوم، وأن ما كتَبَ الله ﷻ له كائنٌ لا محالة، وأنه مهما بذَلَ، ومهما جَدَّ واجتهَدَ، ومهما احتال على طلب المال والرزق، وما تَطمَحُ إليه نفسه، فإنه لا يأتيه إلّا ما قدَّر الله ﷻ له، فيكون مفوِّضًا إلى الله ﷻ أمرَهُ كلَّه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ؛ فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[١].

فقوله ﷺ: «اتَّقُوا اللهَ»؛ أي: اطلبوا الرِّزْقَ من حِلِّه، ودعوا الحَرَام، وأَجمِلُوا في الطلب، ولا تتهافَتُوا على الدنيا، ولا تتكالَبُوا عليها، ولا تَذهَبْ أنفسُكم عليها حَسَرات.

فكلُّ عبدٍ مرزوقٌ لا محالة، وكل مرزوق له رزقه، قد قدَّره الله له وكَتَبه؛ فعلى كل مسلم أن يَتَّقِيَ الله في سعيه وكسبه.

(١) تقدم تخريجه.

ثانيًا: طمأنينة النَّفْس، وارتياح القلب، وطرد الهَمّ:

قال ابن القيِّم: «لا أشرَحَ للصَّدْر، ولا أوسَعَ له - بعد الإيمان - مِن ثقته بالله، ورجائه له، وحُسْنِ ظنِّه به»(١).

فإذا توكَّل العبد على ربِّه حقَّ التوكُّل، كفاه همَّه، وأراحه مما أهمَّه، وأنزَلَ عليه سكينته؛ فاطمأنَّ إلى حُكْمِهِ الدينيِّ الشرعي، واطمأنَّ إلى حُكْمِهِ الكَوْنيِّ القَدَري.

وعن سعيد بن أبي الحَسَن؛ قال: كنتُ عند ابن عباس رضي الله عنهما إذْ أتاه رجلٌ، فقال: يا أبا عباس، إني إنسان إنما معيشتي من صَنْعة يدي، وإني أصنَعُ هذه التصاوير، فقال ابن عباس: لا أحدِّثك إلّا ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول؛ سمعتُهُ يقول: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً، فَإِنَّ اللهَ مُعِذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا»، فرَبَا الرجلُ رَبْوةً شديدة، واصْفَرَّ وجهه، فقال: وَيْحَكَ، إنْ أبيتَ إلّا أن تَصنَع، فعليك بهذا الشَّجَر؛ كلُّ شيء ليس فيه رُوح(٢).

فهذا الضِّيقُ بالحكم الشرعي إنما يحصُلُ للعبد من قلة توكُّله.

وكذلك أيضًا: مَن ضاق بحكم الله الكوني لبلاءٍ أصابه، أو مرض فاجأه، أو مقدور وقع لبعض ولده؛ فتراه ضَيِّقَ الصدر، مهمومًا، يلازمه الحزن، ويظهر على وجهه، وفي حَرَكاته وسَكَناته، فيبقى كئيبًا حسيرًا، مع أن ذلك لا يقدِّم عنه شيئًا ولا يؤخِّره.

يقول ابن القيِّم: «فإنه إذا اطمَأَنَّ إلى حُكْمه الديني، علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله، وكافيهم ووليُّهم، وإذا اطمَأَنَّ إلى حُكْمه الكوني، علم أنه لن يُصِيبه إلّا ما كتب الله له، وأنه ما يشاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فلا وجه للجَزَعِ والقَلَقِ إلّا ضعف اليقين والإيمان؛

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥)؛ واللفظ له، ومسلم (٢١١٠).

فإن المحذور والمَخُوف إنْ لم يقدَّرْ، فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّرَ، فلا سبيل إلى صرفه بعد أن أُبرِمَ تقديره، فلا جزع حينئذ؛ لا مما قدَّر الله، ولا مما لم يقدِّر»[١].

والعبدُ سَرْعان ما يسقُطُ، ويتهالك، وتضعُفُ قُوَى قلبه، بكثرة تتابُع الهموم والآلام عليه.

قال شَقِيق البَلْخي: «لكل واحد مقام؛ فمتوكِّل على ماله، ومتوكِّل على نفسه، ومتوكِّل على لسانه، ومتوكِّل على سَيْفه، ومتوكِّل على سلطنته، ومتوكِّل على الله ﷻ؛ فأمَّا المتوكِّل على الله ﷻ، فقد وجَدَ الاسترواح؛ نوَّه الله به، ورفَعَ قدره، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وأمَّا من كان مستروِحًا إلى غيره، يُوشِكُ أن يُنقَطَعَ به فيشقى»[٢]؛ يَعجِز لسانه، وتضعُفُ قواه، وتذهب حيلته، ويموت ناصِره من الناس، ويَذهَب سلطانه، ثم بعد ذلك يبقى أَسِيفًا كَسِيفًا لا يستطيع جَلْبَ نفعٍ لنفسه، ولا دفعَ ضرٍّ عنها.

ثالثًا: ما يحصُلُ من كفاية الله ﷻ للمتوكِّل عليه في أموره كلِّها:

والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيه.

قال الربيع بن خُثَيْم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]؛ قال: «مِنْ كُلِّ شيءٍ ضاق على الناس»[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ولأنه رتَّب الحكم على الوَصْف المناسب له؛ فعُلِمَ أن توكُّله هو سبب كونه حَسْبًا له»[٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٥١٦).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٣٨)، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٣/١٤٠- ١٤١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/٣٧)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٣٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٢٣/٤٤).

(٤) «جامع الرسائل» (١/٨٨).

فالله ﷻ: «حَسْبُ مَن توكَّل عليه، وكافي مَن لجأ إليه، وهو الذي يؤمِّنُ خوف الخائف، ويُجِيرُ المستجير، وهو نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير؛ فمَن تولَّاه، واستنصَرَ به، وتوكَّل عليه، وانقطع بكُلِّيَّتِهِ إليه -: تولَّاه، وحَفِظه، وحرَسَه، وصانه، ومَن خافه واتَّقاه، أمَّنه مما يخاف ويَحذَر، وجلَبَ إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع»(١).

فتأمَّل هذه الآية، وقِفْ عندها: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، و«انظُر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكِّل، ولم يجعله لغيره؛ وهو يَدُلُّ على أن التوكُّل أقوى السُّبُل عند الله، وأحبُّها إليه»(٢).

وقد قال بعض السلف: «جعَلَ الله تعالى لكل عمل جزاءً من جنسِه، وجعَلَ جزاء التوكُّل عليه نَفْسَ كفايته لعبده؛ فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر؛ كما قال في الأعمال، بل جعَلَ نفسه سبحانه كافيَ عبده المتوكِّل عليه، وحَسْبَهُ وواقيه، فلو توكَّل العبد على الله تعالى حقَّ توكُّله، وكادته السموات والأرض ومَن فيهنَّ، لجعَلَ له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونصره»(٣).

وفي حديث أبي سعيد ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، اسْتَمَعَ الْإِذْنَ: مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ»؛ فكأنَّ ذلك ثَقُلَ على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا»(٤)؛ فلا ملجأ للعبدِ من مخاوفه، وما أهمَّه من أمر دنياه وآخرته إلّا

(١) «بدائع الفوائد» (٧٦٣/٢).

(٢) «مدارج السالكين» (١٢٨/٢).

(٣) «بدائع الفوائد» (٧٦٧/٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣)، وابن ماجه (٤٢٧٣)، وصحَّحه ابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٥٥٩/٤)، والألباني في «الصحيحة» (١٠٧٩)، وحسَّنه الترمذي، وابن كثير في «التفسير» (١٧١/٢)، وفي الباب: عن ابن عبَّاس، وأبي هريرة، وزيد بن أرقَم، وأنس، وغيرهم ﷺ.

الله ﷻ، فهو حَسْبُهُ ونعمَ الوكيل، وكافيه وناصره إنْ هو توكَّل عليه، وأحسَنَ الظن به.

رابعًا: «أن التوكُّل من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ:

فالعبد يَدفَع به ما لا يطيق مِن أذى الخلق وظُلْمهم وعدوانهم؛ وهو مِن أقوى الأسباب في ذلك؛ فإن الله هو حَسْبُه؛ أي: كافيه، ومَن كان الله كافيَهُ وواقيَهُ، فلا مَطْمَع فيه لعدوِّه، ولا يضرُّه إلّا أذًى لا بدَّ منه؛ كالحَرِّ والبرد، والجوع والعطش؛ كما قال الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، وأمَّا أن يضرَّه بما يبلُغُ منه مراده، فلا يكون أبدًا»[(١)].

والواقع خير شاهد على ذلك؛ فقد جاء في الصحيح؛ من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ؛ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ»[(٢)].

فماذا كانت النتيجة؟

أمَّا إبراهيم عليه السلام، فقال الله ﷻ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ * وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

وأمَّا محمَّدٌ ﷺ وأصحابه، فقال الله عنهم: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

قال الحافظ ابن كَثِير: «لمَّا توكَّلُوا على الله، كفاهم ما أهمَّهم، ورَدَّ عنهم بأسَ مَن أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ممَّا أضمرَ لهم عدوُّهم، ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٤]»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فعقَّب هذا الجزاءَ والحُكْمَ لذلك الوصف

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٧٦٦ - ٧٦٧)؛ بتصرُّف.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/١٧١).

والعمل بحرف الفاء، وهي تفيد السبب؛ فدلَّ ذلك على أن ذلك التوكُّل هو سبب هذا الانقلاب بنِعْمةٍ مِن الله وفضل»(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]؛ أي: عزيزٌ لا يَذِلُّ مَنِ استجار به، ولا يضيعُ مَن لاذ بجَنَابه.

وقد ذكر شيخ الإسلام: أن التوكُّلَ مِن أعظم الأسباب الباطنة التي تقوم بالعبد، وبها يحصُلُ جلبُ المنافع ودفعُ المضارّ(٢)؛ «فإذا كان سبحانه وصَفَ نفسه بأنه كفى به وكيلًا، عُلِمَ أنه يَفعَل بالمتوكِّل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره في جلب المنافع، ودفع المضار»(٣).

خامسًا: أنه يُورِثُ محبَّةَ الله ﷻ للعبد:

فالله تبارك وتعالى قد وعَدَ المتوكِّلين عليه بالمحبَّة، ووعدُهُ واقعٌ لا محالةَ؛ قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والمحبةُ: «هي المنزِلةُ التي فيها تنافَسَ المتنافسون، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون، وعليها تنافَسَ المحبُّون، وبرَوْحِ نسيمها تروَّح العابدون؛ فهي قُوتُ القلوب، وغذاء الأرواح، وقرَّة العيون، وهي الحياة التي مَن حُرِمَها، فهو من جملة الأموات، والنُّور الذي مَن فقَدَهُ فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي مَن عُدِمَهُ حلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذَّة التي مَن لم يَظفَرْ بها فعيشه كله هُمُومٌ وآلام»(٤).

(١) «جامع الرسائل» (١/٩٠).

(٢) انظر: «جامع الرسائل» (١/٩٧).

(٣) «رسالة في تحقيق التوكُّل» لابن تيميَّة (٩٢).

(٤) «مدارج السالكين» (٣/٦)؛ بتصرُّف يسير.

ولذلك قال بعض العُلماء الحُكماء: «ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ؛ قال: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ، نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا، فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»(٢).

قال الحافظ ابن حجر «المراد بالقَبُولِ... قَبُولُ القلوب له بالمحبَّة، والمَيْلِ إليه، والرضا عنه؛ ويؤخذ منه: أن محبَّة قلوب الناس علامة محبَّة الله»(٣).

سادسًا: أنه يُورِث قوَّة القلب وشجاعته وثباته:

فيكون صاحبه رابط الجأش قويًا، يقوم بأمر الله ﷻ، لا يخاف في ذلك لَوْمة لائم؛ فالتوكُّل على الله تبارك وتعالى مِن أقوى الأسباب التي يحصُلُ بها ثباتُ القلب.

ولذلك نجد أن الأمر بالتوكُّل جاء مقرونًا بالإعراض عن الأعداء في بعض الآيات، وعدمِ الاكتراثِ بهم أو الخوفِ منهم؛ فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]؛ كما قرَنَهُ تبارك وتعالى بالبراءة منهم في قوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٦-٢١٧].

ولذلك وقَفَ الأنبياءُ ﷺ مَوقِفَ القوَّة، وثبَتُوا ثبات الجبال الراسخات

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)؛ واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٧).

(٣) «فتح الباري» (١٠/٤٧٧).

أمام أعدائهم، مع قِلَّةِ الأتباع والأنصار؛ لأنهم اتَّكَلُوا على ركن شديد، لا يُخذَلُ مَن لاذ به، ولا يُهزَمُ مَن كان ناصِرَه:

فهذا نُوحٌ عليه السلام، قَصَّ الله ﷻ علينا خبَرَه، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]؛ فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فلولا أن تحقيقَهُ هذه الكلمة - وهو توكُّله على الله - يدفع ما تحدَّاهم به، ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجَزَتِه، لكان قد طلَبَ منهم أن يُهلِكوه؛ وهذا لا يجوز، وهذا طلب تعجيز لهم؛ فدَلَّ على أنه بتوكُّله على الله يُعجِزهم عما تحدَّاهم به»(١).

وهذا هُودٌ عليه السلام؛ قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٥].

يقول القُرْطُبي: «وهذا القولُ - مع كثرة الأعداء - يَدُلُّ على كمال الثقة بنَصْرِ الله تعالى، وهو مِن أعلام النبوَّة: أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾»(٢).

وقال ابن القيِّم: «فهذا من أعظم الآيات: أن رجلًا واحدًا يخاطِبُ أمةً عظيمةً بهذا الخطاب، غيرَ جَزِعٍ ولا فَزِعٍ ولا خَوَّارٍ، بل واثق بما قاله، جازم به، قد أَشهَدَ الله أولًا على براءته مِن دِينهم ومما هم عليه، إشهادَ واثقٍ به، معتمِدٍ عليه، مُعلِمٍ لقومه: أنه وليُّه وناصره، وأنه غير مسلِّطهم عليه.

(١) «جامع الرسائل» (٩٦/١).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤٣/١١).

ثم أشهدهم - إشهادَ مجاهِرٍ لهم بالمخالَفة -: أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يُوالُون عليها، ويُعادُون، ويَبذُلُون دماءهم وأموالهم في نصرتها.

ثم أكَّد عليهم ذلك: بالاستهانة بهم واحتقارهم وازدرائهم، وأنهم لو يَجتمِعُون كلهم على كيدِه، وشفاءِ غيظهم منه، ثم يُعاجلونه ولا يُمهِلُونه، وفي ضمن ذلك: أنهم أضعَفُ وأعجَزُ وأقلُّ مِن ذلك، وأنكم لو رُمْتُمُوهُ، لانقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرَّر دعوته أحسن تقرير، وبيَّن أن ربه تعالى وربَّهم، الذي نواصيهم بيده؛ هو وليُّه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا يخذُلُ مَن توكَّل عليه، وآمن به، ولا يُشمِتُ به أعداءَه»[(١)]؛ فكان هذا من دلائل نبوَّته وأعلامها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وهم كانوا أكثَرَ وأقوى منه؛ فكانوا يُهلِكُونه لولا قوَّته بتوكُّله عليه؛ فإنَّ التوكُّل إن لم يعطه قوَّة، فهم أقوى منه»[(٢)].

وهذا خطيبُ الأنبياء شُعَيبٌ ﷺ؛ قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۞ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩].

وقد سمَّى الله ﷻ نبيَّه ﷺ بالمتوكِّل؛ كما في حديث عَطاء بن يَسَار؛ قال: لَقِيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄؛ قلتُ: أَخبِرْني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ في التَّوْراة، قال: أَجَلْ، واللهِ، إنه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفتِهِ في

---

(١) «مدارج السالكين» (٤٦٥/٣).
(٢) «جامع الرسائل» (٩٧/١).

القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]... أنت عبدي ورسولي، سمَّيْتُكَ المتوكِّلَ»[١].

«فالقوَّة - كلُّ القوَّة - في التوكُّل على الله؛ كما قال بعض السلف: «مَن سَرَّهُ أن يكون أقوى الناس، فليتوكَّلْ على الله»[٢].

فالقوَّة مضمونة للمتوكِّل، والكفايةُ والحَسْبُ والدفعُ عنه، وإنما ينقُصُ عليه من ذلك بقدر ما ينقُصُ من التقوى والتوكُّل؛ وإلا فمع تحقُّقه بهما لا بد أن يَجعَلَ الله له مخرجًا مِن كل ما ضاق على الناس، ويكونَ الله حَسْبَهُ وكافِيَه»[٣].

سابعًا: أنه يُورِثُ الصَّبْرَ والتحمُّل:

والله تبارك وتعالى قد قرَنَ بين الصَّبْر والتوكُّل في غير ما آية، وما ذاك إلّا لأن الصبر والتوكُّل مِلَاكُ الأمور كلها.

يقول الشيخ ابن سعدي: «فما فات أحدًا شيءٌ من الخير إلّا لعَدَم صبره، وبذلِ جهده فيما أُرِيدَ منه، أو لعَدَم توكُّله واعتماده على الله»[٤].

والله تعالى يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۞ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

قال الشيخ ابن سعدي: «ونصَّ على التوكُّل، وإنْ كان داخلًا في الصبر؛ لأنه يُحتاجُ إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يَتِمُّ إلّا به»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٣٣)، و«زاد المعاد» (٢/٣٣١)، ورُوِيَ مرفوعًا؛ وقد تقدم تخريجه.

(٣) «زاد المعاد» (٢/٣٣١ - ٣٣٢).

(٤) «تفسير السعدي» (ص٨٨٣).

(٥) المصدر السابق (٣/١٣٢٢).

فالإنسان مُحتاج إلى شيءٍ من تعزيز النَّفْس وتثبيتها وتسليتها؛ كما يَحتاج إلى شيء من التحمُّل الذي يقوِّيه على الثبات، والصبرِ على مكابدة الأمراض، وعلى مكابدة الأعداء، وعلى مكابدة البلاء بجميع صنوفه وصُوَره؛ وإلا فإنَّ الإنسان سَرْعانَ ما يَنفرِط صبرُه، وتضيق به نَفْسُه.

قد يصبر قليلًا ويتجلَّد أمام الناس، وقد يَحفَظُ لسانه وجوارحه رياءً، أو يَفعَلُ ذلك لئلا يَشمَتَ به عدوُّه؛ فهذا إن كان قلبه خاليًا من التوكُّل على الله ﷻ حقيقة، فإنه لا يُمكِن أن يستمرَّ تحمُّله وثباته وصبره، فسَرْعانَ ما ينهار؛ ولذلك ترى الكثيرين يُبتَلَوْنَ بأنواع الأمراض النَّفْسية، وأعراضها؛ مِن الحزن والاكتئاب، وغيرِ ذلك مِن الأمور التي استَشْرَتْ وعمَّ ضَرَرُها في هذا العصر، وما ذلك إلّا لقلَّة توكُّلهم على الله ﷻ.

والمعصومُ: مَن عصَمَهُ الله تبارك وتعالى، والمحفوظُ: مَن حَفِظَه؛ ولهذا تنتشِر الأمراض في بلاد الكفر مع ما هم فيه من التمكين، ووسائل الراحة، والأخذ بأسباب القوَّة، ومع ذلك نجد الأمراض والهموم تَعصِف بهم وتجتاحهم، وتكثُرُ فيهم نسبة الانتحار.

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا ... وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا[1]

فيتمنَّى الإنسان الموت؛ كما قال الشاعر البائس[2]:

أَلَا مَـوْتٌ يُـبَـاعُ فَـأَشْـتَـرِيـهِ ... فَهَـذَا الْـعَـيْشُ مَـا لَا خَـيْـرَ فِـيـهِ

أَلَا رَحِـمَ الْـمُـهَـيْـمِـنُ نَـفْسَ حُـرٍّ ... تَـصَـدَّقَ بِـالْـوَفَـاةِ عَـلَـى أَخِـيـهِ

فيرى الكئيبُ الحزينُ الموتَ بغيةً وغايةً يسعى لها سعيها؛ وما ذلك إلّا لضعف إيمانه، وسوء ظنِّه بربه، وخُلُوِّ قلبِهِ من التوكُّل عليه.

---

(١) «ديوان المتنبّي» (ص٧٤١)، مع «العَرْف الطَّيِّب».

(٢) وهو الوزير المهلَّبي. انظر: «وفيات الأعيان» (١٢٤/٢)، و«شذرات الذهب» (٢٧٤/٤).

ثامنًا: أنه يُورِث النَّصْر والتمكين:

ولهذا قرنَ الله ﷻ بين النصر والتوكُّل؛ فقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

مَن أرادَ النصر، فليتوكَّلْ على الله ﷻ، وما الظنُّ بعبدٍ يتوكَّلُ على المخلوقين طالبًا منهم النصر؟! كيف ينصُرُهُ الله ﷻ؟! إنَّ الخِذْلان -ولا شك- حليفه في كل أحواله!

وقال الله تعالى عن المؤمِنَيْنِ من بني إسرائيل؛ أنهما قالا لقومهما في قتال الجبَّارين: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن كَثِير: «أي: متى توكَّلْتُم على الله، واتَّبَعْتُمْ أمره، ووافَقْتم رسوله، نصَرَكُمُ الله على أعدائكم، وأيَّدكم، وظفَّركم بهم، ودخَلْتم البلدة التي كتبها الله لكم»(١).

وقال الشيخ السعدي: «فإنَّ في التوكُّل على الله - وخصوصًا في هذا الموطن - تيسيرًا للأمر ونَصْرًا على الأعداء»(٢).

تاسعًا: أن التوكُّل يقوِّي العزيمة والثبات على الأمر:

ولذلك أمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ إذا عزَمَ أن يتوكَّل على الله؛ فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكمالُ العبد بالعزيمة والثبات.

قال الحافظ ابن القيِّم: «فمَن لم يكن له عزيمة، فهو ناقص، ومَن كانت له عزيمة، ولكنْ لا ثباتَ له عليها، فهو ناقص، فإذا انضمَّ الثبات إلى العزيمة،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٧٧).

(٢) «تفسير السعدي» (ص٤١٢).

أثمَرَ كلَّ مقامٍ شريف، وحالٍ كامل؛ ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد وابن حِبَّانَ في «صحيحه»: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ»(١)(٢).

وقد جاء عن مسلم بن يَسَار؛ أنه قال: «اعمَلْ عمَلَ رجلٍ يعلم أنه لن يُنجِيَهُ إلّا عمله، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ يَعلَمُ أنه لا يصيبه إلّا ما كتب الله له»(٣).

والله ﷻ يقول مخاطِبًا نبيَّه ﷺ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

قال ابن القيِّم: «ولو توكَّل العبدُ على الله حقَّ توكُّله في إزالة جَبَلٍ مِن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لَأَزَالَهُ»(٤).

عاشرًا: أنه يَقِيكَ بإذن الله ﷻ تسَلُّطَ الشيطان:

قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]، وفي المراد بالسلطان هنا قولان:

القول الأول: أنه التسلُّطُ؛ وفيه ثلاثة أقوال:

١ - ليس له عليهم سلطانٌ بحال؛ لأن الله صرَفَ سلطانه عنهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

٢ - ليس له عليهم سلطان؛ لاستعاذَتِهم منه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١١٤)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٣)؛ واللفظ له؛ من حديث شدَّاد بن أوس. والحديث ضعَّفه الترمذي، والنووي في «الأذكار» (ص١٤١)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣٢٢/١)، وصحَّحه ابن حبان (١٩٧٤)، والحاكم (٥٠٨/١)، والألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٨)، وهو ما انتهى إليه، وحسَّنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٧٤/٣-٧٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (٥٧٨/٢).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «مدارج السالكين» (٨١/١).

٣ - ليس له قدرةٌ على أن يَحمِلَهم على ذنب لا يُغْفَر؛ رُوِيَ ذلك عن سفيان الثوري(١).

القول الثاني: أنه الحُجَّة؛ فالمعنى: لا حُجَّةَ له على ما يدعوهم إليه مِن المعاصي(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]؛ فتذييلُ الآيةِ بالتوكُّل مشعِرٌ بحماية الله لعبده المؤمِن من أكبر أعدائه؛ وهو الشيطان.

وعن أنس ﷺ؛ أن النبي ﷺ قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ قال: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وكُفِيتَ، وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ»(٣).

حاديَ عشَرَ: أن التوكُّلَ من أعظم أسباب دَفْع السِّحْر والحسَد والعَيْن:

فقد عدَّد ابن القيِّم الأسباب التي يَندفِع بها شر الحاسد والعائن، والساحِر والباغي؛ فقال في جملة ذلك: «السبب الرابع: التوكُّل على الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

والتوكُّل مِن أقوى الأسباب التي يَدفَع بها العبد ما لا يُطِيقُ مِن أذى الخَلْقِ وظُلْمهم وعُدْوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك... ومَن كان الله كافيَهُ وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوِّه، ولا يضرُّهُ إلّا أذًى لا بد منه؛ كالحَرِّ والبرد، والجوع والعطش، وأمَّا أن يضرَّه بما يبلُغُ منه مراده، فلا يكون أبدًا»(٤).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/٣٥٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/٣٥٧)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (٥/١٦٦)، عن مجاهد.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «بدائع الفوائد» (٢/٧٦٦- ٧٦٧).

وهذا يعقوبُ عليه الصلاة والسلام؛ قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقد ذكَرَ كثير من المفسِّرين: أن ذلك بسبب المَخَافةِ عليهم من العَيْن(١)، ثم ذيَّل ذلك بتوكُّله على الله تبارك وتعالى؛ لأنه الكافي من كُلِّ حاسدٍ وعائن؛ فقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أن كثيرًا من المرضى يُشْفَوْنَ بلا تَدَاوٍ، ولا سيما أهلُ الوَبَرِ والقُرَى، بدعوةٍ مستجابة، أو قوَّةٍ للقلب وحسن التوكُّل(٢).

والأطبَّاء اليوم يقرِّرون أن نَفْس المريض وقوَّة قلبه من أعظم الأسباب في دفع المرض عنه، فإذا كان العبد ملتجِئًا إلى الله، واثقًا به، فإنَّ ذلك يقاوِمُ المرَضَ أعظَمَ مقاوَمة.

ثانيَ عشَرَ: أن التوكُّلَ من أسباب تحصيل الرِّزْق:

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «فعقَّب هذا الجزاءَ والحُكْمَ لذلك الوصفِ والعملِ بحرفِ الفاء، وهي تفيد السبب؛ فدَلَّ ذلك على أن ذلك التوكُّل هو سبَبُ هذا الانقلاب بنعمةٍ مِن الله وفضل، وأنَّ هذا الجزاءَ جزاءٌ على ذلك العمل»(٣).

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/١٦٥-١٦٦)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/٢١٦٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١/٥٦٣).

(٣) «جامع الرسائل» (١/٩٠)؛ وقد تقدَّم.

والمعنى - كما قال ابن كَثِير -: «لما توكَّلوا على الله، كفاهم ما أهمَّهم، وردَّ عنهم بأس مَن أراد كيدَهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾، مما أضمَرَ لهم عدوُّهم، ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾»[١].

ومما يَدُلُّ على أن التوكُّل على الله ﷻ من أعظم أسباب الرزق: ما جاء في حديث عمر ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[٢]، وقد قال ابن رجب: «هذا الحديثُ أصلٌ في التوكُّل، وإنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرزق»[٣].

ثالثَ عشَرَ: أن التوكُّلَ يطرُدُ عن قلب العبد داءَ الكِبْر والعُجْب:

فهذه أمراض وآفات تقع في قلب الإنسان، وإنما يُدفَعُ ذلك بالتوكُّل، وتحقيقِ العبودية لله تبارك وتعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «وكثيرًا ما يَقرِنُ الناسُ بين الرياءِ والعُجْب؛ فالرياءُ: من باب الإشراك بالخلق، والعُجْبُ: من باب الإشراك بالنَّفْس؛ وهذا حالُ المستكبِرِ؛ فالمُرائِي لا يحقِّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، والمُعجَبُ لا يحقِّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، فمَن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، خرَجَ عن الرياء، ومَن حقَّق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، خرَجَ عن الإعجاب»[٤].

ولهذا قال ابن القيِّم: «إنَّ القلبَ يَعرِضُ له مَرَضانِ عظيمان، إنْ لم

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/١٧١)؛ وقد تقدَّم هذا النقل.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٨١١-٨١٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٧٧).

يَتدارَكْهما العبد، ترامِيا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرِّيَاءُ والكِبْر؛ فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾»[1].

رابعَ عشَرَ: أنَّ التوكُّل يطرُدُ عن قلب العبد التطيُّرَ والأمراض القلبيَّة:

وقد مر بنا حديث ابن مسعود ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ - ثلاثًا - وَمَا مِنَّا إِلَّا؛ وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[2].

وعن ابن عبَّاس ﷺ؛ قال: «إنْ مَضَيْتَ فمتوكِّل، وإنْ نَكَصْتَ فمتطيِّر»[3].

خامسَ عشَرَ: أنه يُورِث الرضا بالقضاء؛ وهذا من أعظم ثَمَرات التوكُّل:

ومَن فسَّر التوكُّل به، فإنَّما فسَّره بأجلِّ ثمراته، وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكَّل حق التوكُّل، رَضِيَ بما يفعله وكيله.

قال ابن رجب: «اعلَمْ: أن ثمرة التوكُّل: الرضا بالقضاء؛ فمَن وكَلَ أمورَهُ إلى الله، ورَضِيَ بما يقضيه له ويختاره، فقد حقَّق التوكُّلَ عليه»[4].

وقد تقدَّم: أن المقدور يَكتنِفه أمران: التوكُّل قبله، والرِّضَا بعده؛ فمَن توكَّل على الله قبل الفعل، ورَضِيَ بالمَقضِيِّ له بعد الفعل، فقد قام بالعبوديَّة؛ وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ»[5]؛ فهذا توكُّل وتفويض، ثم قال في آخره بعد الطلب والسؤال: «وَاقْدُرْ لِيَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ».

يقول ابن حِبَّانَ: «الواجب على العبد: أن يَعلَمَ أن السبب الذي يُدرِكُ به

---

(١) «مدارج السالكين» (٥٤/١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص٨٢٢).

(٥) تقدم تخريجه.

العاجزُ حاجتَهُ هو الذي يَحُولُ بين الحازم وبين مصادَفته؛ فلا يجبُ أن يَحزَنَ العاقل لِمَا يهوى وليس بكائن، ولا لِمَا لا يهوى وهو لا محالةَ كائنٌ، فما كان من هذه الدنيا، أتى المرءَ مِن غير تعب فيه، وما كان عليه، لم يَدفَعْهُ بقوَّته، ولا يُدرِكُ بالطلبِ المحرومُ، كما لا يُحرَمُ بالقعودِ المرزوقُ، ولقد أحسَنَ الذي يقول:

يَنَالُ الغِنَى مَنْ لَيسَ يَسْعَى إِلَى الغِنَى ... ويُحْرَمُ مَنْ يَسْعَى لَهُ وَيُدَاوِمُ

وَمَا الْعَجْزُ يَحْرِمُهُ وَلَا الحِرْصُ جَالِبٌ ... وَمَا هُوَ إِلَّا حَظْوَةٌ وَمَقَاسِمُ»[١]

يعني: أن الله يَحْبُوهُ به، ويتفضَّل به عليه، لا أنه يصيبه بحِرْصِهِ وكَدِّه.

وقال آخر[٢]:

وَرِزْقُ الخَلْقِ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمْ ... مَقَادِيرٌ يُقَدِّرُهَا الجَلِيلُ

فَلَا ذُو المَالِ يُرْزَقُهُ بِعَقْلٍ ... وَلَا بِالمَالِ تُقْتَسَمُ العُقُولُ

فالإنسان لا يحصِّل المال بعَقْله، وقد تجد من أصحاب الأموال مَن لا عقلَ له؛ كما لا يستطيعون تحصيل العقول بهذه الأموال.

وقال آخر[٣]:

فَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تُنَالُ بِفِطْنَةٍ ... وَفَضْلِ عُقُولٍ نِلْتُ أَعْلَى المَرَاتِبِ

وَلَكِنَّمَا الْأَرْزَاقُ حَظٌّ وَقِسْمَةٌ ... بِمُلْكِ مَلِيكٍ لَا بِحِيلَةِ طَالِبِ

سادسَ عشَرَ: أن التوكُّل سببٌ لدخول الجنة مِن غير حساب ولا عذاب:

وقد تقدَّم في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلون الجنة بغير حساب؛ فوصفهم النبيُّ ﷺ بأنهم لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يتطيَّرون، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى ربِّهم يتوكَّلون[٤].

(١) «روضة العقلاء» (ص١٥٥- ١٥٦).

(٢) المصدر السابق (ص١٥٦).

(٣) المصدر السابق (ص١٥٧).

(٤) تقدم تخريجه.

قال الحافظ ابن حجر: «قوله: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، يَحتمِلُ أن تكون هذه الجملة مفسِّرةً لما تقدَّم مِن ترك الاسترقاء والاكتواء والطِّيَرة، ويَحتمِلُ أن تكون من العامِّ بعد الخاصِّ؛ لأن صفة كل واحدة منها صفةٌ خاصَّة من التوكُّل، وهو أعمُّ من ذلك»(١).

والثاني أقرَبُ إلى الصواب، والله أعلم.

سابعَ عشَرَ: أنه يُورِثُ صاحبه الغِنَى عن الخلق:

وهذه خَلَّةٌ شريفة، ومنِ افتقر إلى الناس ذَلّ، وذهَبَ ماء وجهه، واستثقله الناس، ومَن استغنى عنهم، واكتفى بالله، عَزَّ.

قال سليمان الخَوَّاص: «الغنيُّ حقَّ الغنى: مَن أسكَنَ قَلْبَهُ إلى الله مِن غناه يقينًا، ومِن معرفتِهِ توكُّلًا، ومِن عطائِهِ وقسمتِهِ رِضًا، فكذلك الغنيُّ حق الغنى، وإن أمسى طاويًا، وأصبح مُعْوِزًا»(٢).

يَجُولُ الغِنَى وَالْعِزُّ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... لِيَسْتَوْطِنَا قَلْبَ امْرِئٍ إِنْ تَوَكَّلَا
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ كَانَ مَوْلَاهُ حَسْبَهُ ... وَكَانَ لَهُ فِيمَا يُحَاوِلُ مَعْقِلَا
إِذَا رَضِيَتْ نَفْسِي بِمَقْدُورِ حَظِّهَا ... تَعَالَتْ وَكَانَتْ أَفْضَلَ النَّاسِ مَنْزِلَا(٣)

فإن استطعت ألَّا تحتاج إلى أحد من المخلوقين، فافعل، ولن تستطيع ذلك إلّا بالتوكُّل على الله ﷻ.

وقد بيَّن الحافظ ابن رجب: أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعيِّنُ عقلًا وشَرْعًا؛ وذلك من وجوه متعدِّدة، منها:

١ - أن السؤال فيه بذلُ ماء الوجه، وذِلَّةٌ للسائل؛ وذلك لا يصلُحُ إلّا لله تبارك وتعالى.

---

(١) «فتح الباري» (١١/٤١٧).
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (١٨)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٣٧)؛ واللفظ له.
(٣) «حلية الأولياء» (٦/٣٠٥-٣٠٦).

٢ - أنَّ في سؤال الله عبوديَّةً عظيمة؛ ففيه إظهار الافتقار إليه، واعترافٌ بقُدْرَته على قضاء الحوائج.

٣ - أن الله يحبُّ أن يُسأَلَ، ويغضَبُ على مَن لا يسأله.

٤ - أن الله تعالى يأمُرُ عباده أن يسألوه؛ كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقد جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَها بِالنَّاسِ، لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ، فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ»(١).

وقال يحيى بن مُعَاذ: «مَن طلَبَ الفضلَ مِن غير ذي الفضلِ، عَدِمَ، وإنَّ ذا الفضل هو الله ﷻ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]»(٢).

وفي الجملة: فالتوكُّلُ سبيلٌ لنَيْلِ كلِّ خيرٍ في العاجِل والآجِل.

وقد قال أبو سُلَيْمان الدَّارَاني: «مَن وَثِقَ بالله في رِزْقه، زاد في حُسْنِ خُلُقه، وأعقَبَهُ الحِلْم، وسَخَتْ نفسُهُ في نفقته، وقَلَّتْ وساوسُهُ في صلاته»(٣).

وإذا ضَعُفَ توكُّل العبد، قلَّ سخاؤُهُ وكَرَمُه، وضاقت نفسه بالتصدُّق على الفقير، وإكرام الضيف، والبِرِّ بالمسلمين بمقدار ضَعْفِ توكُّله.

وتراه يخشى الفَقْر، ويَحزَنُ لنقصان ماله، ويَفرَحُ بكثرته وازدياده؛ حتى يصير في غاية الشُّحِّ والهَلَع.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦)؛ واللفظ له، وصحَّحه الترمذي، والحاكم (٤٠٨/١)، والذهبي، وأحمد شاكر في «التعليق على المسند» (٣٨٦٩)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٨٧)؛ حيث صحَّحه بلفظ: «بموتٍ عاجِل، أو غِنًى عاجِل»، وحكم على ما سواها بالشذوذ، وحسَّنه البغوي في «شرح السنة» (٤١٠٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٢٥٩).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٥٧/٩).

قال ابن حِبَّان: «الواجب على العاقل: لزوم التوكُّل على مَن تكفَّل بالأرزاق؛ إذ التوكُّل هو نظام الإيمان، وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدِّي إلى نَفْيِ الفقر، ووجود الراحة.

وما توكَّل أحد على الله جل وعلا مِن صحَّة قلبه، حتى كان الله جل وعلا بما تضمَّن من الكفالةِ أوثَقَ عنده بما حَوَتْهُ يده؛ إلّا لم يَكِلْهُ الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب...

تَوَكَّل عَلَى الرَّحْمَنِ فِي كُلِّ حَاجَةٍ ... أَرَدتَّ فَإِنَّ اللهَ يَقْضِي وَيَقْدِرُ
مَتَى مَا يُرِدْ ذُو الْعَرْشِ أَمْرًا بِعَبْدِهِ ... يُصِبْهُ وَمَا لِلْعَبْدِ مَا يَتَخَيَّرُ
وَقَدْ يَهْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْ وَجْهِ أَمْنِهِ ... وَيَنْجُو بِإِذْنِ اللهِ مِنْ حَيْثُ يَحْذَرُ»[(١)]

وقال أبو حامد الغزالي: «التوكُّلُ: مَنزِلٌ مِن منازل الدِّين، ومقامٌ من مقامات المُوقِنين، بل هو مِن معالي درجات المقرَّبين... وأَعظِمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّةِ الله تعالى صاحبَه، ومضمونٍ كفايةُ الله تعالى مُلابِسَه؛ فمَنِ الله تعالى حَسْبُهُ وكافِيه، ومُحِبُّهُ ومُراعِيه، فقد فاز الفوزَ العظيم؛ فإنَّ المحبوب لا يُعذَّب، ولا يُبعَد، ولا يُحجَب»[(٢)].

«فالأصل الجامع الذي تتفرَّع عنه الأفعال والعبادات هو التوكُّل على الله، وصدقُ الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، وهو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد، الذي يُثْمِرُ كل مَقَام شريف؛ مِن المحبَّة، والخوف، والرجاء، والرِّضا به ربًّا وإلهًا، والرِّضا بقضائه، بل ربما أوصَلَ التوكُّلُ بالعبد إلى التلذُّذ بالبلاء، وعدَّه من النعماء؛ كما في حديث السبعين ألفًا الذين يدخُلُونَ الجنَّة بغير حساب ولا عذاب[(٣)]؛ فسبحان مَن يتفضَّلُ على مَن يشاء بما شاء، والله ذو الفضل العظيم»[(٤)].

---

(١) «روضة العقلاء» (١٥٣- ١٥٤).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/٢٤٣).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) «تيسير العزيز الحميد» (ص ٧٤).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ التَّوَكُّل

وأول المتوكِّلين، وأعظمهم قَدْرًا فيه وفي كل فضيلة، وخيرهم: أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقد مَرَّ ذِكْرُ شيء من ذلك.

وقد كان لأصحاب النبيِّ ﷺ الحَظُّ الأَوْفر منه.

قال ابن القيِّم: «وهم أُولُو التوكُّل حقًّا، وأكمل المتوكِّلين بعدهم: هو من اشتَمَّ رائحة توكُّلهم من مسيرة بعيدة، أو لَحِقَ أثرًا من غُبَارهم؛ فحالُ النبيِّ ﷺ وحالُ أصحابه مَحَكُّ الأحوال ومِيزَانُها؛ بها يُعلَمُ صحيحها من سقيمها؛ فإن هِمَمَهم كانت في التوكُّل أعلى من هِمَمِ مَن بعدهم؛ فإن توكُّلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يُعبَد الله في جميع البلاد، وأن يوحِّدَهُ جميع العباد، وأن تُشرِقَ شموس الدِّين الحق على قلوب العباد؛ فملؤوا بذلك التوكُّلِ القلوبَ هدًى وإيمانًا، وفتَحُوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان وهبَّت رياحُ رَوْحِ نَسَمات التوكُّل على قلوب أتباعهم فملأَتْها يقينًا وإيمانًا»(١).

وجاء مِن بعدهم مَنِ اقتدى بهم، فسلَكُوا سبيلهم، وانتهجوا نهجهم.

١ - يقول أبو وائل: «خرَجْنا في ليلةٍ مَخُوفَة، فمررنا بأَجَمةٍ فيها رجل نائم، وقيَّد فرسه، فهي ترعى عند رأسه، فأيقظناه، فقلنا له: تنام في هذا المكان؟ قال: فرفَعَ رأسه، فقال: إني أستحيي مِن ذي العرش أن يَعلَمَ أني أخاف شيئًا دونه»(٢).

---

(١) «مدارج السالكين» (١٣٥/٢)؛ وقد تقدَّم هذا النقل.

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٥٣٩)؛ ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١٠١/٤)، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٩٤١).

٢ - وقال الحكم بن عمر: «شهدتُ عمر - يعني: ابن عبد العزيز - يقول لِحَرَسه: إنَّ بي عنكم غِنًى، كفى بالقدَرِ حاجزًا، وبالأجَلِ حارسًا، ولا أطرَحُكم مِن مراتبكم، ليجري لكم سنةً بعدي، مَن أقام منكم، فله عَشَرة دنانير، ومَن شاء، فلْيَلْحَقْ بأهله»[١].

٣ - وأصاب محمد بن كعب القُرَظي مالًا، فقيل له: ادَّخِرْ لولَدِك مِن بعدك، قال: «لا، ولكنْ أدَّخِرُ لِنَفْسِي عند ربي، وأدَّخِرُ ربِّي لولدي»[٢].

٤ - وقال رَجَاء بن أبي سَلَمة: «قلت لحسَّان بن أبي سنان: أمَا تحدِّثُك نفسُك بالفاقة؟ قال: بلى، فأقول لها: يا نَفْس، إذا كان ذلك، أَخَذْتِ بالمِسْحاة، فجلَسْتِ مع الفَعَلَة، فأصبتِ دانِقًا أو دانِقَيْنِ، فتعيشين به، فتَسْكُن»[٣].

٥ - وقال عبد الله بن إدريس: «عَجِبتُ ممَّن ينقطِعُ إلى رجل، ويَدَعُ أن ينقطِعَ إلى مَن له السموات والأرض»[٤].

٦ - وقال زُهَيْر بن نُعَيْم البابي: «ما أَقدِرُ أن أقول: إنِّي توكَّلْتُ على الله»[٥].

وقال أيضًا: «لا أعلم أني توكَّلْتُ على الله ساعةً قطُّ»[٦].

وأخبارُهم في هذا الباب كثيرة موفورة، وهم أهل التوكُّل الحقِّ حقًّا، وعليهم التعويل فيه، وليس التعويل على مَن أعرَضَ عن الأسباب، ولا على

---

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٢١٨/٤٥- ٢١٩).

(٢) أخرجه البيهقي في «الزهد» (٤٣٦)، وقد سقط من ط. الندوي؛ ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (١٤٥/٥٥).

(٣) أخرجه الفَسَوي في «تاريخه» (٦٨/٢- ٦٩)؛ ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١٢٢٦).

(٤) أخرجه الدِّينَوَري في «المجالسة» (٢٤٧)، والبيهقي في «الشعب» (١٢٥١).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكُّل» (٤٩).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٤٨/١٠).

مَن قصَرَ توكُّله عليها؛ حتى يَجمَع بين الأخذِ بالأسبابِ وركونِ القلبِ إلى ربِّه واعتمادِه عليه، وحُسْنِ ظنِّه به.

* * *

المَحَبَّة

تَوْطِئَة

إن الحديث عن محبة الله تعالى حديث ذو شجون؛ وذلك أن القلوب مجبولة على محبة مَن أحسن إليها، والله تبارك وتعالى هو المُنعِم المتفضل على عباده أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، في الدنيا والآخرة.

فربُّنا جلّ وعلا هو الذي تفضل علينا بالعِلْم والهداية، ثم أعاننا على العمل، ثم فتح لنا باب الشّكر، ثم فتح لنا باب التوبة؛ لنستدرك التقصير، ونرجع عن الإساءة، ثم ساق إلينا ما يُمَحِّصنا به، ويُخَلِّص نفوسنا من الشوائب، وما يكون رِفْعة في الدرجات، وحطًّا للسيئات.

وأما الأمور الدنيوية: فإن كل ما بأيدينا من النعم؛ من المآكل، والمشارب، واللباس، والزينة، والمساكن، والمراكب، وغير ذلك؛ فهو من الله وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية [النحل: ٥٣].

فنحن بحاجة إلى التَّفَقُّه في هذا الباب؛ لنتعرف الطريق إلى محبة الله سبحانه وتعالى فنسلكها؛ لتحصل لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

* * *

مَعْنَى المَحَبّة وَحَقِيقَتها

المحبة في اللغة:

إن أصل مادة المحبة: (الحاء، والباء مكررة) تدور على ستة معانٍ، هي:

«**الأول**: الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

الثاني: العلوّ والظهور، ومنه: حَبَب الماء وحَبَابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَب الكأس منه.

وعليه، فهو غليان القلب عند الاهتياج للقاء المحبوب.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه: حَبّ البعير وأحَبَّ: إذا برَكَ ولم يقُمْ.

قال الشاعر(١):

قُـمْـتَ إليـه بـالـقَـفِـيـلِ ضَـرْبًـا ضَـرْبَ بَـعِـيـرِ الـسُّـوءِ إذْ أَحَـبَّـا

الرابع: اللُّبّ، ومنه حَبّة القلب لِلُبِّه وداخله، ومنه الحبّة لواحدة الحبوب؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه حِبّ الماء، للوعاء الذي يُحفَظ فيه ويمسكه»(٢).

---

(١) هو أبو محمد الفقعَسِيُّ. انظر: «الأصمعيات» برقم (٥٧)، و«لسان العرب»، مادة (حبب)، و«تحقيقات وتنبيهات على معجم لسان العرب» لعبد السلام هارون (ص ١١)، والقَفِيل: السَّوط.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٩-١٠) بتصرف.

السادس: القَلَق والاضطراب، ومنه سُمِّي القُرْط حِبًّا، لقلقه في الأذن واضطرابه[(١)].

ولا ريب أن هذه الستة تتضمن جملة من أوصاف المحبة ومقتضياتها؛ وذلك أن المحبة الحقيقية تعني: «صفاء المودَّة، وهَيَجان إرادات القلب للمحبوب وعلوّها وظهورها عليه، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، ولإعطاء المحبوب محبوبه لبّه، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه»[(٢)].

المحبة في الاصطلاح:

وأما المحبة في المعنى العرفي؛ فهي من الألفاظ التي يصعب حدّها وتعريفها، فهي قضية يُدْرِكُها كل أحد، والتعريفات والتفسيرات قد لا تزيدها إلّا صعوبة وغموضًا؛ ولهذا قال بعضهم: لا يُعَّبر عن الشيء إلّا بما هو أدقُّ منه، ولا شيء أدقّ من المحبة، فَبِمَ يُعَبّر عنها؟! وإنَّما يتكلم الناس في أسبابها، وموجباتها، وعلاماتها، وشواهدها، وثمراتها، وأحكامها، فتنوّعت عباراتهم وكثرت، ودارت تعريفاتهم وحدودهم على هذا، فيُعِّبر كل أحد بما يعرفه ويُدْرِكه من مظاهر هذه المحبّة ومقتضياتها ولوازمها[(٣)].

يقول الراغب: «المحبّة: إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا، وهي على ثلاثة أوجه:

- محبة للذة، كمحبة الرجل للمرأة...

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة»، مادة: (حب) (٨/٤)، و«الصحاح»، مادة: (حَبَبَ) (١٠٦/١)، و«مقاييس اللغة»، مادة: (حَبَّ) (٢٦/٢)، و«لسان العرب»، مادة: (حبب) (٧/٣)، و«القاموس»، مادة: (حَبَبَ) (٥٢/١)، و«تاج العروس»، مادة: (حَبَبَ) (٢١٢/٢ وما بعدها)، و«روضة المحبين» (ص٢٧-٣١).

(٢) «مدارج السالكين» (١٠/٣) بتصرف.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٩/٣-١٨)، ونقل لها ثلاثين تعريفًا.

- ومحبة للنفع، كمحبة شيء ينتفع به...

- ومحبة للفضل، كمحبة أهل العلم بعضهم لبعض؛ لأجل العلم» اهـ[١].

مع أن تعريف المحبة بالإرادة غير صحيح.

وقال النووي: «أصل المحبة: الميل إلى ما يوافق المُحِبّ، ثم الميل قد يكون لما يستلذّه الإنسان ويستحسنه، كحُسْن الصورة والصوت والطعام ونحوها، وقد يستلذّه بعقله للمعاني الباطنة، كمحبة الصالحين والعلماء وأهل الفضل مطلقًا، وقد يكون لإحسانه إليه، ودفع المضار والمكاره عنه» اهـ[٢].

والحاصل أن حقيقة المحبة: مَيْل القلب إلى المحبوب، وذلك يقتضي إيثاره، وتقديمه على كل شيء، وذلك يزيد وينقص، كما سيأتي.

* * *

(١) «مفردات القرآن» (ص١٠٥).

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٤/٢).

محبّة الله

وأمَّا محبّة الله تبارك وتعالى فهي لا تخرج عن ذلك؛ فهي مَيْل القلب إليه، وذلك يقتضي إيثار محابّ الله تبارك وتعالى على محابِّ النَّفْس، وتقديم طاعة الله ﷻ على طاعة غيره؛ من النَّفْس والهوى والشيطان، وطاعةِ المخلوقين.

❊ ❊ ❊

مَنزِلةُ المحَبّة

محبة العبد لربه وخالقه ﷻ تمثّل أحد شِقَّي العبادة؛ لأن «اسم العبادة يتناول غاية الحب مع غاية الذُّل، وهذا هو حقيقة الدِّين الذي يدين الناس به لربِّ العالمين، فهذا الدين أو هذه العبادة لا بُدَّ فيها من حُبّ، ولا بد فيها من خضوع، بخلاف طاعتهم للملوك؛ فإنها قد تكون خضوعًا ظاهرًا فقط»(١).

وأما محبة الله ﷻ فيخضع لها الباطن والظاهر؛ لذلك كانت العبادة مبنيّة على المحبّة، بل يمكن أن يُقَال: إن المحبّة هي حقيقة العبادة؛ لأن العبادة إنْ خَلَتْ من المحبة فهي عبادة بلا روح(٢).

قال ابن خَفِيف: «دخل البصري على أبي عباس بن سُرَيْج، فقال له ابن سريج: أين تعرف في نص الكتاب أن محبة الله فَرْض؟ فقال: لا أدري، ولكن يقول القاضي، فقال له: قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤]، والوعيد لا يكون إلّا على ترك فرض»(٣).

وبهذا نعرف أن محبة الله ﷻ من أعظم الفروض، وليست من قبيل المستحبَّات التي يتزوّد بها العبد، ويتقرّب بها إلى رَبّه ومولاه دون أن يُحَاسَب، أو يُؤَاخَذ على تقصيره وتفريطه فيها، بل إنها من أعظم الواجبات،

(١) «جامع المسائل» (المجموعة الرابعة/ص٤٠).

(٢) انظر: «القول المفيد» (٢/٤٤).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٠٢).

ومن أجَلِّ قواعد الدِّين وأكبر أصوله، بل هي أصل لكل عمل مِنْ أعْمَال الدين والإيمان، فإنَّ كل حركة في الوجود إنما تَصْدر عن محبة محمودة أو مذمومة، «فجميع الأعمال الإيمانية الدِّينية لا تصدر إلَّا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالى؛ إذ العمل الصادر عن محبَّة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا»[(١)].

وأمَّا كون الأفعال الأُخرى أيضًا صادرة عن المحبَّة فهذا مشاهد؛ لأن الإنسان لا يزني إلّا لأنه يحبّ ذلك، ولا يأكل المال الحرام إلّا لأنَّه يحبّه، ويشتهيه، وتطلبه نفسه.

قال ابن القيِّم: «ومتى رأيت القلب قد تَرَحَّلَ عنه حبّ الله، والاستعداد للقائه، وحلّ فيه حبّ المخلوق، والرضا بالحياة الدنيا، والطُّمأنينة بها، فاعلم أنه قد خُسِفَ به» اهـ[(٢)].

«وحقيقة الإسلام: هي الاستسلام لله ﷻ بالذُّلِّ والحُبّ والطاعة، فَمَنْ لَا محبَّةَ له لا إسلام له البَتَّة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلّا الله، فإن الإله هو الذي يألهه العباد؛ حُبًّا، وذلًّا، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعة له، فهو بمعنى مألوه، وهو الذي تألهه القلوب؛ أي: تحبُّه وتذل له.

وأصل التأله: التعبد، والتعبد آخِر مراتب الحُبّ، ويقال: عَبَّدَهُ الحُبّ وتيَّمَهُ: إذا مَلَكَه وذلَّله لمحبوبه، فالمحبة حقيقة العبودية، وهل تُمْكِن الإنابة بدون المحبة، والرضا، والحمد، والشكر، والخوف، والرجاء؟! وهل الصبر في الحقيقة إلّا صبر المُحِبِّين؟! فإنه إنَّما يُتَوكَّل على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/٤٨-٤٩)، وراجع: «القول المفيد» (٢/٤٤).
(٢) «بدائع الفوائد» (٣/١٢٠٠).

وكذلك الزهد -في الحقيقة- هو زهد المُحبِّين؛ فإنهم يزهدون فيما سوى محبوبهم لمحبَّته.

وكذلك الحياء -في الحقيقة- إنما هو حياء المحبِّين؛ فإنه يتولَّدُ من بين الحُبّ والتَّعْظيم، وأمَّا ما لا يكون عن محبة فهو خوف مَحْض...

فَمَعْقِد نِسْبة العبودية هو المحبَّة، فالعبودية معقودة بها؛ بحيث متى انحلت المحبَّة انحلت العبودية»[١]، «وهي روح الإيمان والمقامات والأحوال التي متى خَلَتْ منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه»[٢].

فمحبَّة الله تبارك وتعالى هي أعظم محبة، وأجلّ محبة تقع في قلوب العباد، فلا أكمل من محبة الله ﷻ، وليس في الوجود ما يستحقّ أن يُحَبّ لذاته من كل وجه إلّا الله جَلَّ جَلَالُه، فإن المخلوقين إنما نحبهم من أجل ما يتحَلَّوْن به من الأوصاف؛ إما الأوصاف الظاهرة، وإما الأوصاف الباطنة من الكمالات القاصرة أو الكمالات المتعدّية، وكلّ ما يحبّه أهل الإيمان فإنَّ ذلك تابعٌ لمحبَّةِ الله ﷻ، فهم يحبون النبي ﷺ تبعًا لمحبَّة الله، ويحبّون المؤمنين، ويحبون الطاعات، كلُّ ذلك تبعًا لهذه المحبَّة الجليلة العظيمة، والله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٣]، وقال: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»[٤].

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٦، ٣٦) بتصرف.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) واللفظ له، من حديث أنس ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٨٠) واللفظ له، من حديث أبي أمامة ﷺ، والترمذي (٢٥٢١) من حديث معاذ بن أنس ﷺ، وقال: «حديث منكر»، والحديث سكت عنه أبو داود، وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٠٩٠٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٦٥)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٤٦٨١).

وهذه المحبة إذا وُجِدَت فهي حقيقة «حياة القلوب، وغذاءُ الأرواح، بل ليس للقلب لذَّة، وَلَا نَعِيم، ولا فلاح، ولا حياة إلّا بها، فإذا فَقَدَهَا القلب كان ألمه أعظم من أَلَمِ العين إذ فَقَدَت نورها، والأذن إذا فقدت سَمْعَها، والأنف إذا فَقَدَ شَمَّه، واللسان إذا فَقَدَ نطقه، بل فساد القلب إذا خلا من محبَّةِ فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فَسَاد البدن إذا خلا منه الروح. وهذا الأمر لا يُصَدِّق به إلَّا مَنْ فيه حياة»(١).

فالمحبة «هي المنزلة التي فيها تَنَافَس المتنافسون، وإليها شَخَص العاملون، وإلى عِلْمِهَا شَمَّر السابقون، وعليها تفانَى المُحِبون، وبرَوْح نسيمها تروّح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرَّة العيون، وهي الحياة التي مَنْ حُرِمَهَا فهو من جملة الأموات، والنور الذي مَنْ فَقَدَهُ فهو في بِحَارِ الظلمات، والشِّفاء الذي مَنْ عَدِمَه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام، واللذَّة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان، والأعمال، والمقامات، والأحوال التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحْمِل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلّا بشق الأنْفس بالغيها، وتُوصِلُهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها، وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب، وطريقهم الأَقْوَم الذي يبلِّغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قضى الله يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحِكْمته البالغة أن المرء مع من أحبّ، فيا لها من نعمة على المُحِبِّين سابغة!! تالله لقد سبق القوم السُّعاة وهم على ظهور الفرش نائمون، وقد تقدَّموا الركب بمراحل وهم في سيرهم واقفون»(٢).

---

(١) «الجواب الكافي» (ص٥٤٥-٥٤٦).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٦-٧).

المحبة في الكتاب والسنة

أولًا: المحبة في القرآن:

تكرر ذكر المحبة في كتاب الله، وجاء على صور متعددة، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وإخباره عن محبة عباده المؤمنين له سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [النور: ١٦٥]، وغيرها من الآيات.

ثانيا: المحبة في السنة:

عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»(١).

وعنه أيضًا، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ الله عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»(٢).

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا»، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»(٣).

والأحاديث في ذلك كثيرة، وحصْرها يَطُول.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩، ٦٠٤٠) واللفظ له، مسلم (٢٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٦١٧١، ٧١٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

المحبّةُ وحدها لا تكفي

إن الذين يُدَنْدِنُونَ حول المحبَّةِ فحَسْب دون أن يكون لهم رصيد من العمل الصالح، وتقويم النفوس وتهذيبها على طاعة الله ﷻ؛ قوم قد ضلّوا الطريق.

يقول محمد بن المبارك الصوري: «مَنْ أُعْطِيَ من المحبَّةِ شَيْئًا فلم يُعْط من الخشية مِثْله فهو مخدوع»(١).

ولهذا قالوا: «مَنْ عَبد اللهَ بالحب وَحْده فهو زنديق، ومَنْ عَبَدَ الله بالخَوْفِ وَحْده فهو حَرُورِيّ -أي: مِنَ الخَوَارِج-، ومَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وحْدَهُ فهو مرجئ، ومَنْ عَبَدَهُ بالحُبِّ والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد؛ وذلك لأن الحُبَّ المجرد تنبسط النفوس فيه، حتى تتوسَّعَ في أهوائها إذا لم يَزعها وازعُ الخَشْيَةِ لله؛ ولذلك قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ الآية [المائدة: ١٨]، ادَّعَوْا هذه المحبة، مع أنَّهم أسوأ ما يكونون في حال العمل والسلوك إلى الله تبارك وتعالى.

وهكذا يُشَاهَد في أولئك المتصوّفة الذين يَدَّعُونَ المَحَبَّة دون تصحيح العمل من مخالفة أُمُورِ الشَّريعة ما لا يُوجَد في أهل الخوف والخشية؛ ولهذا قرَن الله بين الحبِّ وبَيْنَ الخوف في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٢-٣٤]، وكان المشايخ المصنِّفون في السُّنة يذكرون في عقائدهم مُجَانَبَة مَنْ يُكثر دعوى المحبَّة، والخوض فيها من غير خشية لِمَا في ذلك من الفساد»(٢).

(١) أخرجه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٥/٢٢٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/٨١-٨٢) بتصرف.

وقال ابن القيم: «الخشية لِقَاح المحبة؛ فإذا اجتمعا أثْمَرَا امْتِثَالَ الأوَامِر واجتناب النواهي» اهـ[١].

وقال: «مِنَ المقامات ما يكون جامعًا لمقامين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات، فلا يَسْتَحِقّ صاحبه اسمه إلَّا عند استجماع جميع المقامات فيه»[٢] اهـ.

وذَكَر من ذلك الإخبات له تبارك وتعالى، وأنه جامع لمقام المحبَّة والذّل والخضوع، فلا يُكَمِّل أحد شيئًا من هذه الأمور بدون الآخر، فلا يكون بذلك العبد مُخْبِتًا إلّا إذا كان محبًّا مطيعًا خائفًا راجيًا، وغير ذلك مما يتطلّبه الإخبات، وكذا مقام المحبَّة فإنه جامعٌ لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فهي معنى يلتئم من هذه الأربعة[٣].

وكمال المحبَّة أن تقترن بالتعظيم والهَيْبَة، فالمحَبَّة بلا هَيْبَة ولا تعظيم ناقصة، والكمال أن تجتمع المحبّة والودّ والتعظيم والإجلال[٤].

كما أن هذه المحبة الرفيعة «تقتضي تقديم المحبوب سبحانه وتعالى على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل، والخضوع، والتعظيم، والإجلال، والطاعة، والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان»[٥].

❊ ❊ ❊

---

(١) «الفوائد» (ص٢٨٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/١٣٦) بتصرف.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/١٣٦).

(٤) انظر: «جلاء الأفهام» (ص٢٠٣)، و«بدائع الفوائد» (٣/٨٥٢-٨٥٣).

(٥) «روضة المحبين» (ص٢٩٥-٢٩٦) بتصرف.

المُفَاضَلَةُ بَيْنَ الخَوْفِ والمَحَبّةِ وَالرَّجَاء

يقول ابن القيِّم: «القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِم الرأس والجناحان فالطائر جَيِّد الطيران، ومتى قُطِع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر» اهـ(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: اعلم أن محرِّكات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقْوَاهَا المحبة، وهي مقصودة تُرَاد لِذَاتِهَا؛ لأنها تُرَادُ في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف؛ فإنَّهُ يَزُول في الآخرة...

والخوف المقصود منه الزَّجْرُ والمَنْعُ من الخروج عن الطريق؛ فالمحبة تُلْقي العبد في السَّير إلى محبوبه، وعَلَى قَدْرِ ضَعْفِهَا وقُوَّتِهَا يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده» اهـ(٢).

وقال ابن القيِّم: «الخوف يتعلَّق بالأفعال، والمَحَبَّةُ تتَعَلَّقُ بالذات والصفات؛ ولهذا تتَضَاعَف محبَّة المؤمنين لِرَبِّهِم إذا دخلوا دار النَّعِيم، ولا يلحقهم فيها خوف؛ ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه» اهـ(٣).

❊ ❊ ❊

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥١٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/٩٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٥١٤).

دَرَجَاتُ المحَبَّة

إذا نظرنا إلى المحبة باعتبار منازل العابدين فإنه يمكن تقسيمها إلى درجتين: واجبة، ومستحبة؛ فالواجبة للمقتصدين، بمعنى: أن الإنسان إذا قصَّر فيها فهو ظالم لنفسه؛ لأنه لا بد أن يكون الله ورسوله أَحَبَّ إِلَيْهِ مما سواهما؛ بحيث لا يُحِبّ شيئًا يبغضه الله ﷻ، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وذلك يقتضي محبَّة جَمِيع ما أوجبه الله تعالى، وبُغْض مَا حَرَّم الله تعالى، فإذا قصَّر الإنسان عن هذه المرتبة، فأَحَبَّ أعداء الله ﷻ، وأَحَبَّ المجرمين الظالمين، وأحبّ الظلم والعدوان وألوان الفجور والكفر والمعاصي؛ فإنَّه يصبح بذلك من جملة الظالمين لأنفسهم في هذا الباب.

وأمَّا الدَّرَجة الثانية: فهي محبَّة السابقين؛ وذلك بأن يُحِبّ ما أَحَبَّ الله ﷻ من النوافل والفضائل محبَّة تامة، فالمقتصدون يحبّون جميع ما يحبّه الله سبحانه من الواجبات، ويُبْغِضون جميع ما يبغضه الله تعالى من المحرَّمات، وأما السابقون فيحبّون جميع الواجبات والمستحبات، ويبغضون جميع المحرَّمَات والمكروهات، ويتباعدون من ذلك.

* * *

مَرَاتِبُ المَحَبّة

من المعلوم أن المحبة تقوى وتضعف في قَلْبِ الإنْسَانِ، كَمَا أن الناس يتفاوتون فيها غاية التفاوت، وتجد الإنسان يحبّ شيئًا واحدًا أحيانًا مَحَبَّةً كبيرة، ثم ما يَلْبَث أن تتضاءل هذه المحبة في قلبه في حين آخر، كما أن محبتنا للأشياء تتفاوت تفاوتًا بينًا، فقد يحب الإنسان والده أكثر من محبَّتِه لولده، وقد يكون العكس، وقد يحبّ اثنين محبَّةً متساوية، وهذه أمور لا تخفى، فهذه المحبة كلَّما قَوِيَتْ واشْتَدَّتْ صَارَ لها اسم يخصّها في كلام العرب ولغتهم.

ومن هنا كانت على مراتب:

الأولى: العلاقة، وهي: تعلُّق القلب بالمحبوب.

والثانية: الإرادة، وهي مَيْلُ القلب إليه.

والثالثة: الصّبَابة، وهي انصباب القلب إلى المَحْبُوبِ؛ بِحَيْثُ لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور.

والرابعة: الغرام، وهو الحُبُّ اللازم للقلب، ومنه الغريم؛ لملازمته، وقد ذكر الله عذاب جهنم، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، أي: مُلَازِمًا لأهلها وأصحابها.

والخامسة: المودَّة، والودّ هو: صَفْوُ المَحَبَّةِ وخَالِصُهَا ولُبُّهَا، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

والسادسة: الشّغف، وهو: وصول المَحَبَّة إلى شغاف القلب.

والسابعة: العشق، وهو الحُبّ المُفْرط الذي يُخَاف على صاحبه منه، وهذا لا يصلح لله ﷻ.

والثامنة: التتيُّم، وهو بمعنى التعبُّد، تقول: قلبٌ مُتَيَّم؛ يعني: قلب مُعَبَّد للمحبوب.

والتاسعة: التَّعبّد صراحة، وتجد بعض المحبِّين يذكر هذا، ويصرّح أنه قد صار عبدًا لهذا المحبوب.

والعاشرة: الخُلَّة، وهي المحبَّة التي تخلَّلَت رُوْح المُحب وقلبه، وقيل غير ذلك[١].

فالمَحَبَّةُ تَقْوَى وتضعف ويتفاوت الناس فيها تفاوتًا ظاهرًا بَيِّنًا، فيَقْوَى الحُبّ في حين، ويضعف في حين آخر، بَلْ قَدْ يتبدّل أقوى الحبّ بأقوى البغض والعكس.

وقد تقوى حتى تبلغ أعلى مراتبها؛ وهي قرّة العين.

«وقرَّة العَيْن فوق المحبة، فإنَّهُ لَيْسَ كل محبوب تقرّ به العين، وإنما تقَرّ العين بأعلى المحبوبات»[٢].

«فغاية المحبة: اتحاد مُرَاد المُحبّ بمراد المحبوب، وفَنَاء إرادة المحبّ في مراد المحبوب»[٣].

وهكذا تتمّ إذا سَلِمت من المعارض، «فإنَّ المَحَبَّةَ تُوجِبُ الدُّنوّ من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبة نَبْذ ما يبغضه المحبوب، فإنها تكون تامة»[٤].

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص٢٥-٨٥)، و«مدارج السالكين» (٣/٢٧-٣٠).

(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (ص٣٦).

(٣) «مدارج السالكين» (١/١٦٧).

(٤) «جامع الرسائل» (٢/٢٧٥).

فإذا وُجِد معها الخضوع كانت عبادة، «فالعابد مُحِبّ خَاضِع، بخلاف مَنْ يُحِبّ مَنْ لَا يخْضَع له، بل يحبّه ليتوسّل به إلى محبوبٍ آخر، وبخلاف مَنْ يخضع لمن لا يحبّه»(١).

أمَّا العبودية فهي مرتبة عظيمة من مراتب المحبة، وحقيقتها: أنها الحُبّ التام، مع ذلٍّ كَامِلٍ، وخضوع للمحبوب، تقول العرب: طريق مُعَبَّد، أي: طريق مُذَلَّل، و«العبد هو الذي مَلَك المحبوبُ رِقَّه، فلم يبق له شيء من نَفْسه البَتَّة، بل كلّه عبدٌ لمَحْبُوبِهِ ظاهرًا وباطنًا، هذه حقيقة العبودية التي مَنْ كَمَّلها فقد كمَّل مرتبتها»(٢).

وأصل العبادة محبَّة الله ﷻ، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحبّ كله لله، فلا يُحَب معه سواه حُبًّا لا يصلح إلّا لله، وإنما يُحَب لأجله وفيه، فالمُؤْمِن يُحِب أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، ويُحِبّ الملائكة، ويحبّ أوْلِيَاءه المتَّقِين، ومحبَّتنا هذه لهؤلاء من محبَّتِنَا لله ﷻ، فهي مِنْ مُكَمّلاتِهَا ومُتَمّمَاتِهَا، وليست مزاحمة لها بحال من الأحوال.

والعبودية لله تبارك وتعالى جامعة للتحقّق بما يحبّه الله ورسوله ﷺ ويرضاه من أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، وأعمال القلوب.

فإذا أعملتَ ذهنك في أودية هذه الأعمال فإنك سترى جَمًّا غفيرًا من العمل الصالح الذي يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، وأعلى ذلك شهادة أن لا إله إلّا الله، والإيمان الصادق، والإقرار الانقيادي الذي يُوجَد في قلب العبد.

وأما ما يتعلق بالجوارح فأعمال لا تُحصَى؛ وهي مُتَفاضِلة بحسب الوقت والزمان والمكان والحاجة والحال، فإذا أذّن المؤذن فأَحَبُّ العمل لله ﷻ

---

(١) المصدر السابق (ص٢٨٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٣/٢٩) بتصرف يسير.

إجابة المؤذن، وإذا دعا داعي الجهاد فأحبّ العمل إلى الله الجهاد، وإذا كان وقت الحجّ فأحبّ العمل إلى الله التلبية بالحج، وإذا جَاءَ رَمَضَان فأَفْضَلُ العمل هو الصيام، وهكذا...»[1].

ويمكن أن تُقَسّم هذه المحبَّة إلى مراتب أُخْرَى باعتبار آثارها، فمن ذلك[2]:

المرتبة الأولى: المحبة التي تقطع الوساوس، ويلتذّ بها العامل بالعمل، والخدمة، وتُسَلِّي عن المصائب، فلا يَبْقَى في القلب محل لغير محبَّةِ المحبوب والتعلق به، فلا يبقى هناك مجال للوساوس والخواطر السيئة، والأفكار الرديئة التي تُشَتِّتُ عليه شمله، وتفرّق عليه قلبه وفكره، فينشغل بها، وينصرف عن محبوبِهِ. ثم إن هذه المحبة تكون غالبة عليه، فتكون سُلُوَّه، فيَجِدُ في لَذَّتِهَا ما يُنْسِيهِ المصائب، ولا يجد من مَسِّها مَا يجد غيره، بخلاف أولئك الذين تَذْهب أنفسهم حسرات وراء آمالهم المتفرّقة في شُعَب أهوائهم.

المرتبة الثانية: «هي التي تبعث على إيثار الحقّ على غيره، وتُلْهِج اللسان بذكره، وهي محبة تظهر من مُطَالعة الصفات والنظر إلى الآيات، وهَذِهِ الدَّرَجة أعلى مما قبلها باعتبار سببها وغايتها؛ فإن سبب الأُولى مطالعة الإحسان والمِنَّة، وسبب هذه مطالعة الصفات، وشهود معاني آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة»[3].

❊ ❊ ❊

(١) انظر: المصدر السابق (١/١٠٠-١٠١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣/٣٦-٣٩).

(٣) المصدر السابق (٣/٤٠) باختصار وتصرف.

أَنوَاع المحَبّة

يمكن أن نقسم المحبَّة -من جهة تعلّق الحمد والذَّمّ بها- إلى ثلاثة أقسام:

١ - المحبة المحمودة.

٢ - المحبة المذمومة.

٣ - المحبة الطبيعية، التي لا يتعلق بها الحمد ولا الذمّ لِذاتِها، وإن كان قد يعرض لها بعض ما يلابسها، فتنتقل إلى المحمود أو إلى المذموم من قسمي المحَبَّةِ.

ويمكن أن نقسمها تفصيلًا إلى قسمين:

القسم الأول: المحبة الخاصة:

«وهي التي لا تصلح إلَّا لله تبارك وتعالى، ومَتَى أحَبَّ بها غيره كان مشركًا به شركًا لا يُغْفَر، وهذه المحبَّة الخاصة هي محبة العبودية التي تستلزم الذلّ للمحبوب، والخضوع له، والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، ولا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]»[١].

ويدخل تحت هذه المحبة الخاصَّة أربعة أنواع:

الأول: محبَّة الله ﷻ، وهي أصْلُ الإيمان والتَّوْحِيدِ.

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٦٤٢) بتصرف.

والثاني: محبَّةُ مَا يُحِبُّهُ الله ﷻ من الأعمال، والأوقات، والأمكنة، والذوات، والأقوال، والنيات، فهي تابعة لمحبَّةِ الله ﷻ ومكمّلة لها.

والثالث: محَبَّة في الله، وهي مَحَبَّة الأنبياء والرسل وأتباعهم، وهي تابعة لِمَحَبَّةِ الله أيضًا ومكمّلة لها.

والرابع: المحبة مع الله، وهي الشركية، كمَحَبَّةِ المشركين لأوثانهم، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال الشيخ العثيمين: «فَدَلَّتِ الآية على أن محبة هؤلاء، وإن كانت مِنْ غَيْرِ مَحَبَّةِ العبادة، إذَا فَضَلَتْ عَلَى محبَّةِ الله صارت سببًا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يُهْمِلُ أوامر الله لأوامر والده؛ فهو يحب أباه أكثر من رَبِّه.

وما في القلوب، وإن كان لا يعلمه إلَّا الله، لكن له شاهد في الجوارح» اهـ[1].

فالمحبة الطبيعية -كما أشرت- قد يُلَابِسُها ما يحوّلها إلى المحبَّة المذمومة أو المحمودة، فالإنسان يُحِبُّ أَبَاهُ محبَّة طبيعية، وكذا ولده وزوجته، ولكنها إن تجاوزت الحَدَّ، وصار يطيع هؤلاء من دون الله ﷻ، ويترك أمر الله وراءه ظهريًّا، فإن هذه المحَبَّة زَاحَمَتْ مَحَبَّة الله ﷻ، فهي محبة شركِيَّة، لا يجوز للإنسان أن يقع فيها.

ومن يُحِبّ مُعَظَّمًا من المعظَّمين؛ من الملوك، والرؤساء، والمتبوعين، ونحو هؤلاء، وكان يتقرَّب إليه بفعل ما يُحبّه ذلك المحبوب، ولو كان مما يُبْغِضه الله ﷻ؛ فإن هذا من المحبَّة المُحَرَّمَة، وبِهَذَا نَعْلَمُ أن توحيد المحبة ألَّا يتعدد محبوبك في المحبة الخاصة، بل ينبغي أن يكون المُحِبّ متوجِّهًا لله

(١) «القول المفيد» (٢/٤٨-٤٩).

وحده، فلا يبقى في قلبه شيء يمكن أن يُصْرَف لغيره إلّا أن يكون تابعًا ومُكَمّلًا لمحبّة الله ﷻ، فهذا الحُبّ إذا كان بهذه المثابة صار غاية صلاح العبد ونعيمه وقُرَّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلَّا بِأَنْ يَكُونَ الله ورسوله أحَبَّ إليه مما سواهما، وأن تكون محبَّتُه لغير الله تابعة لمحبته الله تعالى.

وهذه المحَبَّة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النَّفْس والمال والولد، وتقتضي ذلًّا ظاهرًا وباطنًا وإخباتًا، وهذا أمْرٌ لا يصلح إلَّا لله ﷻ، وإلا كان العبد مشركًا بربِّه؛ لأن أصل الإشراك العملي بالله هو الإشراك في المحَبَّة، والمحَبَّةُ مع الله تنافي محبَّةَ اللهِ قَطْعًا، وذلك بأن تكون منازعة لمحبَّة الله ﷻ ومضادّة لها، ولا تكون تابعة لها[1].

وقد يدخل في ذلك محبة العشق -عشق الصور- الذي تُبْتَلَى به القلوب الفارغة مِنْ مَحَبَّةِ الله ﷻ، المُعْرِضَة عنه، المُتَعَوِّضة عنه بغيره؛ ولأن القلب إذا امتلأ من محبة الله تبارك وتعالى والشوق إلى لقائه دفع عنه ذلك محبَّة مرض العشق.

والمقصود: أن أصل التوحيد وروحه إخلاص المحَبَّة للمليك المعبود سبحانه، وذلك أصل التألّه والتَّعبّد له، بل هو حقيقة العبادة؛ فلا يَتِمّ التوحيد حتى تَكْتَمِلَ مَحَبَّتُنَا لربنا جل وعلا، وتكون هذه المحبة سابقة لجميع المَحَابّ وغالبة لها، ويكون الحُكْم لهذه المحبة على غيرها، وتكون مَحَابّنا الأخرى تابعة لمحبَّتِنَا لربنا ومعبودنا ﷻ، ومتفرِّعة عنها، وبهذا نكون قد أصلحنا القلوب، واستقامت على حالٍ مرضية لله ﷻ، فنُحِبّ ما يحب، ونبغض ما يبغض من الأشخاص والأعمال، ونوالي أولياءه، ونعادي أعداءه، وهذا هو كمال الإيمان، وبِهِ يَجِدُ الْعَبْدُ لَذَّةَ الإيمان، ويجد طعمه: «أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ»، فيكون أمره لله في كل أحواله[2].

---

(١) انظر: «جامع الرسائل» (٢/٢٥٥)، و«روضة المحبين» (ص٢٩٥-٢٩٦).

(٢) انظر: «القول السديد» (ص٢٠٣).

«أمَّا اتّخاذ الأنداد مع الله تعالى من المخلوقين فيحبّهم كحبّ الله، ويُقَدِّمُ طَاعَتهم على طاعته، ويَلْهَج بذكرهم ودعائهم، فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلَّقَ بغيره ممَّن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلَّقَ به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعَمَله، وستنقلب هذه المَوَدَّة والموالاة بغضًا وعداوة»(١).

قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وهكذا تتبرأ المعبودات من عابديها، ويتنصَّلون من عباداتهم، ويكفرون بهم، وبما كانوا يتقرَّبون به إليهم. وإذا نظر العاقل، وفحص بعقله، وقلَّبَ نَظَره؛ فإنه يجد أن الإنسان يحوي قدْرًا كبيرًا من المشاعر وأمورًا كامنة في نفسه لا بد من تصريفها، فالإنسان مثلًا في باب المحبة لا بُدَّ له من محبة وكراهية وبغض، «فإذا كان هذا المحبوب هو المحبوب الحَقّ الذي لا تنبغي المحبة إلّا له، ولا يُحِبّ غيرَه إلّا تبعًا لمحَبَّتِهِ لله؛ فهذا أسْعَدُ المُحِبِّين، وقد وضع الحبّ مَوْضِعَهُ، وتهيَّأَتْ نَفْسُه لكمالها الذي خُلِقَتْ له، والذي لا كمال لها بدونه بوجه»(٢)؛ فإنَّ هذا القلب قد رُكِّبَ تَرْكِيبًا خاصًا لأن يكون مُعَبَّدًا لله ﷻ، فإذا عَبَّدته ووَجَّهْتَهُ لِغَيْرِهِ شَقِي.

ولهذا قال ابن القيم: «في القلب شَعَث لا يَلُمّه إلّا الإقبال على الله، وفيه وَحْشة لا يزيلها إلّا الأُنس به في خَلْوته، وفيه حزن لا يذْهبه إلّا السرور بمعرفته، وصِدْق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكنه إلّا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد، لا يقف دون أن يكون هو

(١) «القول السديد» لابن سعدي (ص٢٠٣).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٥٤٨) بتصرف.

وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يسدّها إلّا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصِدْق الإخلاص له، ولو أُعْطِي الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا» اهـ[(١)].

هكذا رُكِّبَت هذه القلوب، فعَلَى الفَطِن أن ينظر في قلبه وحاله، ونَفْسه وعمله، وأن يُوَجّه ذلك جميعًا إلى ما فيه شفاؤه، وخَلَاص رقبته، وفَكَاكه من النار، فإذا حصل له ذلك تلاشت عنه تلك الأوهام الباطلة من المحبوبات التي لا تستحق أن يُصْرَف الهمّ إليها، وإلَّا بقي في قلبه حَزَازات وظلمة، ويجد فيه تشتيتًا وقَسْوَة، قد لا يعرف بعض الغافلين سببها، ولا يدرون كيف الخروج منها؛ ولذلك تجد مَنْ يشكو مِنْ قَسْوَةٍ في قلبه، وظُلْمة في نَفْسه، وحسرة يجدها تملأ جوانحه، ولا يدري سبب ذلك! كل شيء مُوَفَّرٌ لديه؛ المال، وألوان النعيم، ومع ذلك يجد قلبه مكروبًا مُنْقَبضًا حيث تقلّب، يسافر ليدفع همه والهَمّ يطارده، وإنه ليجده حيث توجّه قُبالة وجهه، وهذا يشكو منه الكثيرون، وهم بين مُقِلٍّ ومُكثر، فعلى قدر ما يحصل في القلوب من معرفة الله ومحبَّتِه تَنْقَشع تلك الغشاوات والظلمات، وهكذا فبقدر ما يقع من نقص يحصل لهم من الكَرْب، والاكتئاب، والحسرات، والأحزان، والضِّيق.

قال شيخ الإسلام: «فمَن أحبَّ شيئًا لغير الله، فالضررُ حاصلٌ له إن وُجِدَ أو فُقِد:

فإن فُقِدَ، عُذِّبَ بالفراق وتألَّم.

وإن وُجِدَ، فإنه يحصُلُ له من الألم أكثَرُ مما يحصُلُ له من اللذَّة؛ وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء، وكلُّ مَن أحبَّ شيئًا دون الله لغير الله، فإن مضرَّته أكثَرُ مِن منفعته.

فصارت المخلوقات وَبَالًا عليه إلّا ما كان لله وفي الله؛ فإنَّه كمالٌ وجمالٌ

---

(١) «مدارج السالكين» (١٦٤/٣).

للعبد؛ وهذا معنى ما يُروَى عن النبي ﷺ أنه قال: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ ومَا وَالَاهُ»[(١)]»[(٢)].

القسم الثاني: المحبة المشتركة:

وهي على أربعة أنواع:

الأول: «المحبة الطبيعية التي تكون تابعة لما يُلائِم العبد وما يوافقه من المطعومات، والمشروبات، والنكاح، واللباس، والمعاشرة، والمخالطة، وهذه إن أعانت على محبَّةِ الله وطاعته، وكانت مباحة دخلت في باب العبادات. وإن صدَّتْ عن ذلك، وتوسّل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيَّات، وإلا بقيت من أقسام المباحات»[(٣)].

وقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل[(٤)].

ولما سئل: مَنْ أحَبّ الناس إليك؟ قال: «عائِشَة»[(٥)].

الثاني: محبة الرَّحْمَةِ والإشفاق، كمحبة الوالد لولده. وهذه لا تستلزم التعظيم.

الثالث: محبة أُنْس، وأُلْفة، ومخالطة، ومشاكلة في الطبع؛ كمحبة المُشْتَرِكِين في صناعة، أو عِلْم، أو تجارة، أو سفر، أو مهنة، وهذه أيضًا لا تستلزم التعظيم، وقد يدخل تحت هذا النوع: محبة العِشْق؛ لأن سببه المُشَاكلة والمناسبة بين المُحِب والمحبُوب، وهي محبَّة مذمومة وضارة، وقد تدخل في النوع المختص بالله تعالى[(٦)]، فتكون مزاحمة لها.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/٢٩).

(٣) «القول السديد» لابن سعدي (ص٢٠٤-٢٠٥) بتصرف.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٣١)، ومسلم (١٤٧٤) من حديث عائشة ﵂.

(٥) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص ﵁.

(٦) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٦٤١).

وقد سمعنا أشياء عجيبة عن بعض هؤلاء؛ حيث يقول بعضهم لصاحبته: ليتني أحبّ الله كمحبَّتِك، وآخر يقول: يا ليتني أحب النبي ﷺ كمحبتك، وآخر يقول: إن دخل الجنة فلن يَنْعَم بها إلّا إذا كان هذا المحبوب معه.

الرابع: محبَّة إجلال وتعظيم لا عبادة؛ كمحبة الولد لوالده، ومحبة التلميذ لشيخه وأستاذه، ومحبة الإمام العادل، وذلك لا حَرَج فيه ما لم يُزاحِم محبّة الله ﷻ، قال الله تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، فلما غلوا في محبّة هؤلاء الأحبار والرهبان صار ذلك من قبيل الإشراك بالله جل وعلا.

وأشرف هذه الأنواع التي ذكرناها هي المحبة الخاصة التي تكون لله وما يتبعها من محبَّة له ومحبة فيه.

وأسْوَأ هذه الأنواع هي المحبَّة المزاحمة؛ وهي التي تُصْرَف لغير الله، ولا تَصْلُح إلّا لله ﷻ، وهي المحَبَّة الشركية، وتبقى المحبة الطبيعية في مرتبة بين هذا وهذا، لا تُحْمَد ولا تُذَمّ مِنْ حيْثُ هِيَ، وإنَّما يكون حُكْمها بحسب ما اتَّصلت به(١)، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: «القول المفيد» (٢/٤٥).

أقسام الناس في المحبة والإرادة والقدرة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أصل كل فعل وحركة في العالم من الحبّ والإرادة، فهو أصلُ كل فعل ومبدؤه»[١].

وقال: «وهنا انقسم الناس أربعة أقسام:

١ - قوم لهم قدرة، ولهم إرادة، ومحبة غير مأمور بها، فهم يجاهدون، ويستعملون جهدهم وطاقتهم؛ لكن لا في سبيل الله، بل في سبيل آخر: إما محرَّمة كالفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإما في سبيل لا ينفع عند الله، مما جنسه مباح، لا ثواب فيه؛ لكن الغالب أن مثل هذا كثيرًا ما يقترن به من الشُّبَه ما يجعله في سبيل الله، أو في سبيل الشيطان.

٢ - قوم لهم إرادة صالحة، ومحبة كاملة لله، ولهم قدرة كاملة، فهؤلاء هم سادة المحبّين المحبوبين المجاهدين في سبيل الله، لا يخافون لَومة لائم؛ كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة.

٣ - قوم فيهم إرادة صالحة، ومحبّة لله قوية، لكن قدرتهم ناقصة، فهم يأتون بمحبوبات الحق من مقدورهم، لكن قدرتهم قاصرة، ومحبتهم كاملة، فهو مع القسم الذي قبله... وفي مثل هؤلاء قال النبي ﷺ: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ أَقْوَامًا

(١) «جامع الرسائل» (٢/١٩٣).

مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: «وَهُمْ بِالمَدِينَةِ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[(١)]...

٤ - مَنْ قدرته قاصرة، وفيه من إرادة الباطل ما الله به عليم؛ فهؤلاء ضعفاء المجرمين، ولكن قد يكون لهم من التأثير بقلوبهم نصيب وحظّ مع أهل باطلهم، كما يُوجَد في العلماء، والعُبَّاد، والزَّاهِدِين من المشركين، وأهل الكتاب، ومنافقي هذه الأمّة ما فيه مُضاهاة لعلماء المؤمنين وعُبّادهم، وذلك أن الشيطان جعل لكل شيء من الخَلْق نظيرًا في الباطل، فإن أصل الشر هو الإشراك بالله، كما أن أصل الخير هو الإخلاص لله»[(٢)].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٣) -واللفظ له- من حديث أنس بن مالك ﷺ، ومسلم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٢) «جامع الرسائل» (٢/٢٨١-٢٨٤) بتصرف.

عَلَامَاتُ مَحَبَّةِ الرَّبِّ لِلعَبْدِ

من الناس مَنْ يُولَع بمحبَّة المخْلُوقين له، ويعمل الأعمال الكثيرة لجلب تلك المحبَّة، ويتصنّع لهم، ويتزيّن، ويعدِّد إنجازاته وأعماله، ثم لا يكون له مِنْ وَرَاءِ ذلك إلّا بغضهم ومقتهم.

ومنهم مَنْ يبادر الناس إلى محبته، مع أنهم لم يَرَوْه ولم يسمعوه.

والناس في ذلك أنواع متعددة، وأجناس مختلفة.

وإنما مرجع ذلك إلى أنَّ اللهَ تَعَالى إذا أَحَبَّ عَبْدًا أحَبَّهُ أهل السماء، ووُضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبْدًا أبغضه أهل السماء، ووُضِعَتْ له البغضاء في الأرض.

والعبرة بحب الله لعبده، لا بحبّ الناس له.

فإذا أقبلت تلك القلوب على الله، وأنِسَتْ بِذِكْرِهِ، وَسَعَتْ في طاعته ومرضاته، واشتاقت إلى لقائه، فلا تَسَلْ عَنْ سَعْدِهَا وهنائها في الدنيا والآخرة.

هذا، وتُعْرَف محبَّة الرب لعبده بعلامات، منها:

١ - حبّ العَبْد لطاعة ربه:

قال ابن أبي الحواري: «علامة حبّ الله حب طاعة الله -وقيل: حب ذكر الله- فإذا أحَبَّ اللهُ العبدَ أحبَّه، ولا يستطيع العبد أن يُحِب الله حتى يكون الابتداء من الله بالحبِّ لَهُ، وذلك حين عَرَفَ منه الاجتهاد في مرضاته»[(١)].

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٧)، والبيهقي في «الشعب» (٤١٥)، واللفظ له.

٢ - انزعاج القلب من التفريط:

فإذا فاته وِرْده من القرآن حَزِن، وإذا شَغَله مُهِم من أمر الدنيا تَحَسَّرَ على ما فاته من الذِّكر والعبادة، وإذا ذكر تقصيره في أمر الله ندم.

يقول حماد بن مسلم: «إذا أحَبَّ اللهُ عَبْدًا أكثر همَّه فيما فرَّط، وإذا أبغض عبدًا أكثر همَّه فيما قسمه له»(١).

٣ - تحقيق الأوصاف التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فوَصَف المحبوبين المحبّين بأنَّهم أذلّة على المؤمنين، أعِزَّة على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم؛ فإنَّ المَحَبَّةَ مستلزمة للجهاد؛ لأن المُحِبَّ يُحِبّ ما يُحِبّ محبوبُه، ويبغض ما يبغض محبوبُه، ويوالي مَنْ يُوَالِيهِ، ويُعَادِي مَنْ يُعَادِيه، ويرضَى لِرِضَاهُ، ويَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك، وهؤلاء هم الذين يَرْضَى الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم؛ إذ هم إنما يرضون لرضاه، ويغضبون لما يغضب له» اهـ(٢).

❊ ❊ ❊

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/٥٩٥)، و«تاريخ الإسلام» (٣٦/١٢٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٥٧-٥٨).

الطَّرِيقُ إِلَى تَحْقِيقِ مَحَبَّةِ الرَّبِّ لِلعَبْدِ

إنَّ حُبَّ الله لعبد من عباده لا شك أنه أمر عظيم، وفضل غامر جزيل، لا يعرف قدره إلَّا مَنْ عَرَفَ الله مَعْرِفَة صحيحة بأسمائه وصفاته، ونحن إذا أردنا أن نصل إلى شيء من ذلك فيجب علينا أن نتقرَّبَ إلى الله **أولًا** بالفرائض، **وثانيًا**: بالنوافل؛ لأن الله قد بَيَّنَ لنا الطريق كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

ومن كان بهذه المثابة عند ربه فما أسعده! وما أطيب عيشه!

ومن الأمور النافعة في هذا المجال: أن نتأمل القرآن، وما جاء في السنة النبوية، فقد بَيَّنَ الله لنا الأعمال التي يحبها أو يحب أهلها، وتلك التي يُبْغِضها، أو يبغض أهلها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، فَمِنَ المَعَانِي الَّتِي ذكرت في تفسير: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: أن الله يحبهم، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نادَى جبريل: إني قد أحببت فلانًا فأحبَّه، قال: فيُنادي في السماء، ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض، فذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]»[(١)]، والمعنى الآخر: هو أنه سيجعل لهم القبول في الأرض، فتحبهم القلوب[(٢)]؛ كما قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، فإنها تحتمل المعنيين: ألقى عليه محبة، بمعنى أنه أَحَبَّهُ، وألقى عليه محبة، أي: ما رآه أحد إلَّا أحبه[(٣)].

والقرآن يعبّر به بالألفاظ القليلة الدَّالَّة على المعاني الكثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَقَال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وكذلك أضداد هذه الأمور، وهي التي ذكر الله أنه يبغضها، أو يبغض أهلها، فإنه ينبغي أن نُجَانبها؛ لئلَّا يبغضنا الله ﷻ، فمن ذلك: قوله تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٨٥)، وصَحَّحه الترمذي، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٢٨)، وأصله في الصحيحين.

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/٦٤٠-٦٤٤)، و«زاد المسير» (٥/٢٦٦-٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/٥٢٦-٥٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/٢٦٩).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٥/٢٨٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، فالِاعْتِدَاء على الناس في أعراضهم وأموالهم ودمائهم، فكل ذلك مما يبغضه الله ﷻ.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وهذا يشمل الفساد بكل صُوَرِهِ وأشْكَالِهِ؛ فساد الأخلاق، وفساد العقائد، والفساد المالي، والفساد في البدع ومُحدثات الأمور، وما إلى ذلك.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، أي: كثير الكفران، كثير الآثام، مُقَارف لما يوجب الإثم. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وهو الذي يَتَكَبَّر ويتَعَالى عَلَى الناس، ويَفْتَخِر بما عنده من عَرَض أو حَسَب أو نَسَب. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وهو الفَرَح الذي يحمل على البَطر. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

* * *

عَلامَاتُ مَحبّةِ العَبْدِ لِرَبّهِ عَزّوَجَلّ

لما كانت محبة الله تعالى فرضًا إيمانيًا، ومرتبة دينية شريفة؛ كان ذلك مدعاة لأن يدعيها كل أحد، ومن هنا لَزِم بيان العلامات الدالة على تحقيق هذه المحبة، فمن ذلك:

أولًا: أن هذا المُحب لا بدّ أن يكون مطيعًا لربه، ومتّبعًا لنبيّه ﷺ.

وذلك برهان اشترطه الله ﷻ، وطالَبَ بِهِ أولَئِكَ الذين يَدّعُونَ محبته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فإذا كان العبد مُؤثرًا لمحابّ الله ﷻ، ومتّبِعًا للرسول ﷺ، وإن خالف ذلك هوَى نفسه، وشقّ عليها؛ كان ذلك من براهين صِدْق المحَبَّة، وقَدِ اقْتَضَتْ حكمة الربّ سبحانه إخراج العباد إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات، ومَحَاب النفوس، التي بإيثار الحق عليها، والإعراض عنها يتحقق حبهم له، وإيثارهم إيَّاهُ على غيره؛ ولذلك يتحَمَّل الواحد منهم المشاقّ الشديدة، وركوب الأخطار، واحتمال الملامة، والصبر على دواعي الغي والضلال، ويجاهدها، وبذلك يقوى سلطان المحبَّة، وتثبت شجرتها في القلب(١).

والطريق إلى الجَنَّة فيه ألوان المشقَّات والصعوبات، والشريعة قد رُكِّبت تركيبًا خاصًا على خلاف وِزَان داعية الهَوَى في النفوس؛ ولذلك إذَا الْتَبَس على الإنسان أمران، وشك في مراد الله ﷻ منهما، فإنَّ مِنْ طُرُقِ التَّرْجِيح: مخالفة هوى النفس.

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/١١٣-١١٤).

والمقصود: أنَّ العبد إذا آثَرَ مَا عند الله تبارك وتعالى، وقدَّم أمْره على محبوبات النفوس، وجاهد هذه النفس حتى قَوِيَ سلطان المحبَّة، فإنها بهذا تكون راسخة، مُخْرِجَة لألوان الثمرات الطيّبة، وبهذا يكون مُبَرهنًا على صدق محبته.

وعن الحسن البصري قال: «إن أقوامًا كانوا على عهد رسول الله ﷺ يزعمون أنهم يحبون الله، فأراد الله أن يجعل لقولهم تصديقًا من عمل، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية [آل عمران: ٣١]، كان اتِّبَاع محمد ﷺ تصديقًا لِقَوْلِهِم»(١).

وعن ابن جريج بمعناه(٢).

وقال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَنِ ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمَّدِية، فإنه كاذبٌ في دعواه في نَفْس الأمر حتى يتبع الشَّرع المحمَّدِي، والدين النَّبَوي، في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»(٣)... ثم قال آمرًا لكل أحد من خاصّ وعامّ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، أي: خالفوه عن أمره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، فَدَلَّ على أن مخالفته في الطريقة كُفْر، والله لا يُحِبُّ مَنِ اتَّصَف بذلك، وإن ادَّعَى وَزَعَم في نفسه أنه يحب الله» اهـ(٤)؛ ولهذا، فإنَّ «المُحِبَّ الصادق إن نَطَق نَطَق لله وبالله، وإن سكت سكت لله، وإن تَحَرَّكَ فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضاة الله»(٥).

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/٣٢٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦/٣٢٣).

(٣) ذكره بهذا اللفظ البخاري (٤/٥٠٢) معلقًا، وأخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة ﵂، وأخرجه بلفظ مقارب البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٢).

(٥) «مفتاح دار السعادة» (١/٤٨٩).

وقد قال بعض المتقدِّمين: «قِوام المحبة مُوَافَقَة الحبيب في جميع الأحوال»(١).

وسُئِلَ آخر عَنِ المَحَبَّةِ فقال: «هي ميلك إلى الشيء بكلِّيَّتِكَ مَحَبَّة له، ثم إيثارك له على نفسك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم عِلْمك بتقصيرك في حُبِّه»(٢).

ثانيًا: أن يُقبل على طاعة الله غير متثاقل، بل يُسَرّ عند أدائه لها.

فهذه هي حال المحبّين الصادقين، فهم يقومون بخدمة المحبوب، ويكون ذلك من أَسَرّ الأشياء إلى نفوسهم، ومِنْ ألَذّ الأمور إلى قلوبهم، ولا يرون ذلك مشَقَّة ولا تكليفًا(٣).

فالمحَبَّة هي «منتهى القُرْبة والاجتهاد، ولن يَسْأَمَ المُحِبّون من طول اجتهادهم لله ﷻ، يحبونه، ويحبّون ذكره، ويُحَبِّبُونه إلى خلقه، يمشون بين عباده بالنصائح، ويخافون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياء الله وأحِبَّاؤه وأهل صفوته، أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه»(٤).

وقد قال بعضهم: «المُحِبّ لا يجد مع حُبِّ الله ﷻ للدُّنْيا لذَّة، وَلَا يغفل عن ذكر الله طَرْفَة عين»(٥).

وقال آخر: «ما يكاد يمَلّ القربة إلى الله تعالى محِبٌّ لله ﷻ، وما يكاد يَسْأَم من ذلك»(٦).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٧).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١٦٥/٣).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (ص١٥٦).

(٥) المصدر السابق (ص٦٧٩-٦٨٠).

(٦) المصدر السابق (ص٦٨٠).

وقال آخر: «المُحِبّ للهِ طائر القلب، كثير الذِّكْر، متسبِّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنَّوَافِل دَوْبًا دَوْبًا، وشوقًا شوقًا»(١).

ثالثًا: أن يكون العَبْد حافظًا لحدود الله ﷻ.

فليس بصادق مَنِ ادَّعَى حُبَّه ولم يحفظ حَدَّهُ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ شَنِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ(٢)

كما قيل(٣):

شُغِفُوا بِحُبِّ اللهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ ... فَتَجَنَّبُوا لِوِدَادِهِ آثَامَا

وقال آخر(٤):

وَحُبَّانِ فِي قَلْبِي مُحَالٌ كِلَاهُمَا ... مَحَبَّةُ فِرْدَوْسٍ وَدَارِ غُرُورِ
وَمَنْ يَرْجُ مَوْلَاهُ وَيَرْجُ جِوَارَهُ ... يُسَابِقْ فِي الخَيْرَاتِ غَيْرَ فَتُورِ
وَمَا صَادِقٌ مَنْ يَدَّعِي حُبَّ رَبِّهِ ... وَأَمْسَى عَنِ اللَّذَّاتِ غَيْرَ صَبُورِ

وسُئِل بعضهم: ما عَلَامَة المَحَبَّة؟ فقال: «تَرْكُ مَا تُحِبّ لمَنْ تُحِبّ»(٥).

رابعًا: أن تحبّ ما يُحِبّه الله، وتبغض ما يبغضه.

فإنَّ «مَنِ ادَّعَى مَحَبَّةَ محبُوب، ثم سَخِط ما يحبه، وأحبَّ ما يُسْخِطه فقد شهد على نفسه بكذبه، وتمقَّتَ إلى محبوبه»(٦).

---

(١) المصدر السابق (ص٧٣٥).
(٢) «شعب الإيمان» (٤٩٠-٤٩٢)، و«تاريخ دمشق» (٣٧٩/١٣).
(٣) البيت ليحيى الرازي. «شعب الإيمان» (٤٨٦).
(٤) الأبيات لسعيد الجرجاني. المصدر السابق (٤٩٣).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٧)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/٦).
(٦) «زاد المعاد» (١٧٨/٤).

وقال أبو حازم: «شيئان إذا عَمِلت بِهِما أصَبْتَ بهما خير الدنيا والآخرة... تحمل ما تكره إذا أحَبَّه الله، وتكره ما تحب إذا كَرِهَهُ الله ﷻ»(١).

وقال بعضهم: «ليس من أعلام الحُبّ أن تحب ما يبغض حبيبك»(٢).

وقال آخر وقد سُئِلَ عن المحَبَّة: «أن تُحِبَّ مَا يحب الله في عباده، وتَكْرَهُ ما يكره الله في عباده»(٣).

خامسًا: الأُنْس بالله ﷻ.

فإنَّ هذا من علامات المحَبَّةِ، وهُوَ أنْ يحصل له «كمال الأُنْسِ بِمُنَاجَاةِ المحبوب، وكمال التَّنَعّم بالخَلْوة، وكمال الاستيحاش من كل ما يُنَغِّص عليه الخَلْوة، ومتى غلب الحُبّ والأُنْس صارت الخَلْوة والمُناجاة قَرَّةَ عَيْن تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحُبّ والأُنْس قلبه»(٤).

وبهذا يَعْرِف العبد حاله، ويختبر إيمانه ومحبته لله تبارك وتعالى إذا كان يطلب الأُنْس بملاقاة الناس، وخُلْطَتهم، والجلوس معهم، ويَجِد ضِيقًا وحَرَجًا إذا قام لله ﷻ في صلاة، فمثل هذا لم يكن صادق المحبة، وكذلك الذي يَتَبَرَّم مِنْ طُولِ الصَّلَاةِ، وينتظر بشَوْق سَلَام الإمام فإنه لم يصدق مع الله ﷻ في هذه المحبة، ومثله أيضًا الذي إذا خلا بربه يناجيه كان الدعاء أثقل شيء على نفسه، فإنه لم يصدق مع الله في هذه المحبة، وهكذا الذي يتبَرَّم من مجالس الذكر، ويستثقلها، ولا يأنس بذكر المحبوب سبحانه وتعالى؛ فإنه لا يكون بذلك صادقًا في هذه المحبة.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٢٤١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٠)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٦/٣٣٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٨).

(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (٤٤٣).

سادسًا: أن المحبة الصادقة تزيد بالعطاء، ولا تنقص بالمنع.

وقد سُئِلَ الفضيل بن عياض، قيل له: يا أبا علي، مَتَى يبلغ الرجل غايته من حُبِّ اللهِ تَعَالَى؟ فقال له الفضيل: «إذا كان عطاؤه ومنعُهُ إيَّاكَ عندك سواء فقد بَلَغْتَ الغاية مِنْ حُبِّهِ»(١).

وقد أخبرنا الله عن أقوام يعبدون الله على حرف، فإن أصابوا خيرًا اطْمَأَنّوا بِهِ، وإِنْ أَصَابَهُم ما يكرهون انقلبوا على أعقابهم، فليست هذه حال المحبّين.

وقد قال بعضهم: «حقيقة المحبَّة التي لا تزيد بالبِّر، ولا تنقص بالجَفْوة»(٢).

سابعًا: أنه لا يَثْنِيه لَوْم ولا عَذل عن سلوك مرضاة محبوبه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والمحبّ التامّ لا يُؤَثِّر فيه لوم اللّائِم وعذل العاذل، بل ذلك يُغْرِيه بملازمة المحبة؛ كما قد قال أكثر الشعراء في ذلك، وهؤلاء هم أهل المَلام المحمود، وهم الذين لا يخافون مَنْ يلومهم على ما يحبّ الله ويرضاه من جهاد أعدائه؛ فإنَّ المَلام على ذلك كثير. وأما المَلام على فِعْل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبَّه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا المَلام، بل الرجوع إلى الحَقّ خَيْر من التمادي في الباطل» اهـ(٣).

ثامنًا: كثرة ذكره سبحانه وتعالى.

وقد قال بعضهم: «الحبّ: اللزوم؛ لأن من أحب شيئًا أَلْزَم ذكرَه قلبَه؛ فمحبة الله تعالى لزومٌ لذكره»(٤).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١١٣) واللفظ له، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٢).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧٦).
(٣) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦١).
(٤) «شعب الإيمان» (٢/٢٣٨).

وقال مالك بن دينار: «علامة حبّ الله دوام ذكره؛ لأنَّ مَنْ أحَبَّ شيئًا أكثر ذكره»[١].

فهم «إن نطقوا فبذكره، وإن تَحَرَّكُوا فبأمره، وإن فرحوا فَلِقُرْبِهِ، وإن ترحوا فلعتبه؛ وقيل:

وَاللهِ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ إِلَّا وحُبُّكَ مَقْرُونٌ بِأَنْفَاسِي
وَلَا جَلَسْتُ إِلَى قَوْمٍ أُحَدِّثُهُمْ إِلَّا وَأَنْتَ حَدِيثِي بَيْنَ جُلَّاسِي»[٢]

وقد قال بعضهم: «المُحبّ لله تعالى طائر القلب، كثير الذكر، مُتَسبِّب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل»[٣].

وقد قيل: «إن المحبِّينَ للأحباب خدَّام»[٤]، فإذا سئِم البطَّالون من بطالتهم، فلا يسأم المحبّون من مناجاتهم وذكرهم.

وقال آخر: «مِنَ المُحَال أن تعرفه ثم لا تحبّه -أي: معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته- ومن المحال أن تُحِبَّه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثم لا يُوجِدُ لك طَعْم ذِكْرِهِ، ومن المحال أن يُوجِدُك طَعْم ذِكْرِه ثم لا يُشْغِلُك به عما سواه»[٥].

وهناك أمور أخرى تدل على صِدْق هذه المحبة؛ كمحبة لقاء الله تبارك وتعالى، وأن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنْتَهِكُون، ولحُقُوقِه إذا تَهَاوَن بها المُتَهَاوِنون، وأن يُحِبّ كلامه، وأن يَتَأَسّف على ما فاته مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وذِكْره، وأن يتقالّ ما يبذله في سبيل الله وفي طلب مرضاته، فهو لا ينظر إلى عمله إلّا بعين الازدراء.

---

(١) المصدر السابق (٤٩٩).
(٢) «المدهش» لابن الجوزي (ص٢٢٣-٢٢٤)؛ بتصرف.
(٣) «مجموع رسائل ابن رجب» (٣/٣٢٧).
(٤) المصدر السابق (٣/٣٢٦).
(٥) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٦٢).

الطَّرِيقُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المَحَبَّةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

أولًا: طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله الكريم ﷺ:

وقد عَرَفْنا أن المحبَّة هي حقيقة العبودية، وإنما يتحقق ذلك باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ «ولهذا جعل الله تعالى اتباع رسوله ﷺ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لمن ادَّعَاها، فجعل ذلك شرطًا لهذه المحَبَّة، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه، فلا يتحقق إلَّا به»[(١)].

ومعلوم في اعتقاد أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص؛ «يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فكُلَّما فَعَل العبد الطاعة محبَّة لله وخوفًا منه، وترك المعصية حبًّا له وخوفًا منه؛ قوي حُبّه له، وخَوْفه منه، فيُزيل ما في القلب مِنْ مَحَبَّة غيره، ومخافة غيره، وهكذا أمراض الأبدان؛ فَإِنَّ الصِّحَّة تحفظ بالمِثْل، والمرض يُدْفَعُ بالضِّدِّ، فصِحَّةُ القلب بالإيمان تُحْفَظ بالمِثْل، وهو ما يُورِث القلب إيمانًا من العلم النافع والعَمَل الصالح، فتلك أغذية له»[(٢)].

ثانيًا: تفريغ القلب من الاشتغال بغيره:

لأن هذا القلب وعاء، فإذا مُلِئَ بالِاشْتِغَالِ بغيره، وانصرف إليه لم يبق به محلّ للاشتغال بالله ﷻ، والإقبال عليه، ومحبَّته.

وقد قال بعضهم: «لا يُطمَع في لِين القلب مع فضول الكلام، ولا يُطمَع

---

(١) «مدارج السالكين» (٩٩/١) بتصرف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣٦/١٠).

في حبّ الله مع حب المال والشَّرَف، ولا يُطمَع في الأُنْس بالله مع الأُنس بالمخلوقين»[(١)].

وقال آخر: «سرورك بالدنيا أذْهَب سرورك بالله عن قلبك»[(٢)].

وسُئِلَ بعضهم: «بِمَ نَالَ أهل المحبةِ المحبةَ من الله ﷻ؟ قال: بالعفاف، وأَخْذ الكَفَاف»[(٣)]، أي: أنهم لم يتهافتوا على الدنيا، وذلك بأَخْذِ الكَفَاف منها، ولم تَتَوَجَّه قلوبهم إلى المخلوقين ليعطوهم ويمنحوهم، فكان ذلك هو العفاف.

ثالثًا: مجاهدة النَّفْس؛ بإيثار محابّه على محابِّك عند غلبة الهوى:

وعلامة هذا الإيثار شيئان:

الأول: فِعْل ما يُحِبّه الله، ولو كانت نَفْسك تكْرَهه.

والثاني: ترك ما يكرهه، ولو كانت نَفْسك تحبّه.

قال ابن القيم: «ما ابْتَلَى الله سبحانه عَبْدَهُ المؤمن بِمَحَبَّةِ الشهوات والمعاصي، ومَيْلِ نفسِه إليها إلّا ليسوقه بها إلى محبَّةِ ما هو أفضل منها، وخير له وأنفع وأدْوَم، وليجاهد نَفْسه على تَرْكِهَا له سبحانه، فتُورِثه تلك المجاهدة الوصولَ إلى المحبوب الأعلى، فكُلَّما نازعته نَفْسه إلى تلك الشهوات، واشتدَّتْ إرادته لها، وشوقه إليها؛ صَرَف ذلك الشوق والإرادة والمحبة إلى النَّوْع العالي الدائم، فكان طلبه له أشد، وحرصه عليه أتم» اهـ[(٤)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٠).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٤٥).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٧١).

(٤) «الفوائد» (ص١٦٠-١٦١).

رابعًا: التذلّل له، وإظهار المَسْكَنة والانكسار بين يديه سبحانه:

وذلك «أنَّ المُحِبَّ ذَلِيل بالذَّاتِ، وعلى قَدْرِ محبَّتِهِ يَكُونُ ذُلّه؛ فَالمَحبة قد أسِّست على الذِّلة للمحبوب»[(١)]، فـ «لا ينال رضا المحبوب، وقُربه، والابتهاج والفرح بالدُّنُو منه، والزُّلْفَى لديه؛ إلّا على جِسْر مِن الذِّلَة والمَسْكَنة، وعلى هذا قام أمْرُ المَحَبَّةِ، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلَّا بِذَلِكَ»[(٢)].

خامسًا: الحبّ في الله والبغض في الله:

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ ﷻ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[(٣)].

وقد سُئِلَ بَعْضُهم: «بماذا ينال العبد المحَبَّةَ؟ قال: بموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه»[(٤)].

والله يقول -كما في الحديث القدسي الصحيح-: «حقَّت مَحَبَّتي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحبَّتِي لِلْمُتزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحقَّتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَوَاصِلِينَ فِيَّ»[(٥)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٠٧/١) بتصرف يسير.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١٥٧/١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٧).

(٤) أخرجه السلمي في «طبقاته» (ص٣٥١).

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩/٥) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ، وصححه ابن حبان (٥٧٧)، والحاكم (١٦٩/٤-١٧٠)، وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٢١).

سادسًا: دوام ذِكْرِهِ بالْقَلْبِ واللسان، والجَوَارِحِ والحال:

«فالمحَبَّة تتشعب شُعَبها من دوام ذِكْر إحسان الله ﷻ، فَمَنْ ذَكَرَ رَبَّهُ على الدوام، وتذَّكر إحسانه إليه تَنَسَّم ريح المحبة عن قربه»[١]، وهكذا قراءة القرآن، والنظر في المصحف، والتدبر لمعاني كتاب الله، وقد رُوِي عن النبي ﷺ من حديث ابن مسعود ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي المُصْحَفِ»[٢]، «فالذِّكْر بجميع أنواعه هو باب المحَبَّةِ وشَارعها الأعظم، وصراطها الأقْوَم»[٣]، ونَصِيب العبد مِنَ المَحَبَّة على قدر نصيبه من الذِّكر.

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية سؤالًا: وهو أن العبد أحيانًا قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شَيْء يُحَرِّك القُلُوبَ؟ فأجاب بقوله: «قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كَثْرة الذِّكْرِ لِلْمَحْبُوبِ؛ لأَنَّ كثرة ذِكْره تُعَلِّق القلوب به...

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه... فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يُثِيرَ ذلك عنده باعثًا» اهـ[٤].

سابعًا: مطالعة آلائه، وبِرِّه، وإحسانه، ونعمه الظاهرة والباطنة:

العَبْد إذا تأمل أن المُنْعِم بالذات هو الله، وأنه لا مانح ولا مانع سواه،

---

(١) «شعب الإيمان» (٤٦٤) بتصرف.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٢٠٩) وقال: «غريب»، وابن عدي في «الكامل» (٢/٤٩٩) وقال: «منكر»، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/٨٩٠) وقال: «منكر»، وقال الذهبي في «الميزان» (٢/٢١٤): «باطل، وإنما اتخذت المصاحف بعد النبي ﷺ»، وأعله ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/١٨٥)، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (١١٢٣٥)، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٢)، وقول من حكم بضعفه أشبه بالصواب، والله أعلم.

(٣) «الوابل الصيب» (٩٤-٩٥) بتصرف.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١/٩٥-٩٦) بتصرف.

وأن ما عداه وسائط؛ اقتضى ذلك أن يتوجه بكُلِّيَّته نحوه، فلا يُحبّ أحدًا سوى الله تبارك وتعالى محبة تُزَاحِم محبَّته في قلبه، وإنما يُحب من أجله ويكره ما يبعده عنه؛ ولهذا كان حب النبي ﷺ مِنْ حُبِّ الله، ومِنْ هُنَا أيضًا كان حُبّ الأنصار آية على الإيمان، وكذا حُبّ الصالحين، فالحُبّ فِي اللهِ مِن ثمرات حب الله.

والعبد إذا تَأَمَّلَ القُلُوبَ وجدها مجبولة على محبّة مَنْ أحْسَن إليها، وإذا تأمّل في نَفْسه وجد كل فضل ونعمة من إحسان الله إليه، فجِبلَّته وفِطْرَته تقتضي محبّة الله، وتقديمها على محبة كل مَنْ سواه.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ؟»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسنه، وكذا حسنه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٤٠)، والألباني في «الصحيحة» (١٢٧)، وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (٧٧٨٧).

وروي من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأصْلُهُ في مسلم (٢٦٨٧)، وقد أخرجه أحمد (١٠٨/٥، ١٥٤)، وصححه ابن حبان (٢٢٦)، والحاكم (٢٤١/٤)، والذهبي، والألباني في «الصحيحة» (١٢٨، ١٢٩، ٨٥١).

وروي أيضًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، رواه الطبراني (١١٣٤٦/١٦/١٢). راجع: «جامع العلوم والحكم» (ص١٠٤٠)، و«الصحيحة» (١٢٨، ١٢٩، ٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥) واللفظ له، ومسلم ٧٥٨).

وقال تعالى -كَمَا في الحديث القدسي-: «يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي...» الحديث(١).

فإذا تأمَّل العَبْدُ في هذه المعاني انجذب قلبه لله ﷻ بكلِّيَّتِهِ، والله يقول للمسرفين المذنبين الذين اجترحوا السيئات: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٢).

ومِنْ رَحْمَتِهِ بعبده المؤمن حمايتُهُ له من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحمونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ»(٣).

وفي حديث آخر: «إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ ثُمَّ لَا يَضَعَ فِيهِمَا خَيْرًا»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥/٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه، وضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٦٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨١٤)، وصححه الحاكم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه (٤/٢٣١)، والذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (١/٤٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «صحيح الإسناد». قال المنذري في «الترغيب» (٢/٣١٦): «وفي ذلك نظر»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٦٨)، وفي الباب عن سلمان وجابر رضي الله عنهما.

فتأمَّل كَثْرة إفضاله وإنعامه على عبده، وقد قصَّ الله علينا في القرآن شَيْئًا كَثِيرًا من ذلك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۞ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٤-١٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٦-٦٧]، فالله ﷻ قد أخْبَرَنَا عن نِعَم كَثِيرة ظاهرة وباطنة يفيضها علينا، فإذَا تَأَمَّلها العبد كان ذلك من دواعي محبَّتِهِ لربه، وإقْبَالِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ، فالله هو الذي ابتدأنا برحمته من قبل أن نكون شيئًا مذكورًا، وخَلَقَنَا من تراب، ثم أسكننا الأصلاب، ونقلنا إلى الأرحام، ثُمَّ أَخْرَجَنَا إِلَى هَذِهِ الدّنيا أسوياء، وحَفِظنا في المَهْد أطفالًا، ورزقنا من الغذاء لبنًا، وكَفَلَنا في حجور الأمهات، وأَوْدَع في قلوبهنَّ شفقة ورحمة، وربَّانَا بأحسن التَّدْبِيرِ، وصَانَنَا من كل ما يشِيْننا، ومن كل نقص يَعِيبنا؛ فتبارك وتعالى ما أرحمه، وما أَلْطَفَهُ، ومَا أَكْرَمَه!!

«يا مختار الكون وما يعرف قَدْر نَفْسه، أما أسجد الملائكة بالأمس لك،

وجعلهم اليوم في خدمتك، لمَّا تكبَّر عليكم إبليس، وقد عَبَدَ ربه سنين؛ طَرَدَه، أفتُصَافِيه على خِلافه، وهو القائل قبل وجود أبيك للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾»(١).

يا أخي! اعرف قَدْر لُطْفِهِ بِكَ، وحفظهِ لَكَ، إنما نهاك عن المعاصي صيانة لك.

«اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشُكْرك لمن تعنيك نِعَمُه، وطاعتك لمن لا ترجو خيرًا إلّا منه... وارفع إليه يد الذُّل في طلب حوائج القلب تأتي وما تشعر»(٢).

عليك بحب «من إذا أطعته أفادك، وإن أتيته شاكرًا زادك، وإن عبدته أصْلَحَ قلبك وفؤادك»(٣).

والمقصود: أن الله ﷻ أهلٌ لأن يُحَبّ لسببين:

أولهما: نعماؤُهُ الباطنةُ والظاهرة التي لا تنقطع بمعاصي خلقه.

الثاني: أن له جَمالَ الذات، وجَمالَ الصفات، وجمال الأفعال.. له نعوتُ الجلال، وصفاتُ الكمال. أي: أنه أهلٌ لأنْ يُحَبّ بذاته.

ثامنًا: أن يعرفه، وأن يُطَالِعَ القَلْب أسماءَهُ وصِفَاته، ويَتَقَلَّب فِي رِيَاضِ هذه المعرفة؛ فـ «المعرفة تُثْمِرُ المَحَبَّة»(٤):

قال ابنُ القَيِّم: «إن أرض القلب إذا بُذِرَ فِيها خواطر الإيمان، والخشية، والمحبَّة، والإنابة، والتصديق، بالوعد، ورجاء، الثَّواب، وسُقيَت مرَّةً بعد مرَّة، وتعاهدها صاحبُها بحفظها، ومراعاتها، والقيام عَلَيْهَا أثمرت له كل

---

(١) «المدهش» (ص٢١٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤٩٤).

(٣) «التبصرة» لابن الجوزي (ص٦٢).

(٤) «مدارج السالكين» (٢/٢٨).

فعل جميل، ومَلَأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات» اهـ[١].

وقد قال بعضهم: «مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، ومَنْ أَحَبَّ اللهَ أَطَاعَهُ»[٢].

فمعرفة الأسماء والصفات، ودوام مطالعتها، وتقلّب الفكر في معانيها وآثارها هي العِرْفَان والعِلْم الإيماني، كما أنها من السماع القرآني؛ إذ لا تكاد آية تخلو من ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله ﷻ، «وكُل اسم وصفة من صفاته تستدعي محَبَّة خاصة»[٣]، وكُلَّمَا زَادَت مَعْرِفَة العبد بالأسماء والصفات، و«أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها؛ ازدادت محبّتُهُ للموصوف بها»[٤].

فإذا تأمَّل العبد هذه الأسماء، وما تدلّ عليه من الصفات بالتطابق والتضمّن والالتزام؛ عَرَفَ رَبَّه حق المعرفة، فأحبَّه حبًّا لا يماثله حُبّ، وانْقَادَت جوارحه بالطاعة والتذلل، وبذلك يكون عبدًا لله حقًّا.

قال ابن القيِّم: «لا ريب أن كمال العبودية تابعٌ لِكَمَالِ المَحَبَّة، وكَمَال المحبة تابع لكمال المحْبُوب في نفسه، والله سبحانه له الكمال المطلق التَّامّ من كل وجه، الذي لا يعتريه تَوَهّم نَقْص أصلًا، ومَنْ هذا شَأْنُه، فإن القلوب لا يكون شيء أحب إليها منه» اهـ[٥].

ومعرفة أسمائه تبارك وتعالى وصفاته تتضمَّن جميع دواعي المحبَّة لَهُ سُبْحانه، والتي يمكن أن نلخّص أسبابها في الأمور الآتية:

١ - أنَّ داعي الكَمَالِ والجلال موجود ومتحقق بهذه الأسماء والصفات، فالرَّبُّ ﷻ له الكمال، بل كلّ ما فُطِرَت القلوب على محبَّتِه من نعوت الكمال

(١) «طريق الهجرتين» (١/٣٧٩).
(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٢٣٦).
(٣) «طريق الهجرتين» (٢/٦٩١) بتصرف.
(٤) «مدارج السالكين» (١/٢٩٧).
(٥) «مفتاح دار السعادة» (٢/٥٠٦).

فالله هو المُسْتَحقّ له على أكمل الوجوه وأتمها، وكل ما في غيره من محبوب فهو منه سبحانه وتعالى، فهو المُسْتَحق لأن يُحَبّ على الحقيقة؛ لأن كماله ﷻ من لوازم ذاته[١].

٢ - دواعي الإحسان والإنعام، فالقلوب جُبِلَتْ عَلى حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إِلَيْهَا، وبُغْضِ مَنْ أَسَاء إليها، والله أعظم محسن، وقد سبق الكلام على هذا المعنى؛ فالله تبارك وتعالى بهذا الاعتبار مُسْتَحِقٌّ لِلْمَحَبَّةِ الكَامِلَة[٢].

٣ - داعي الجمال: «والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمالُ كلهُ له، والجمال كله منه، فلا يَسْتَحِقّ أن يُحَبَّ لذاته من كل وجه سواه»[٣].

والعباد يتفاوتون في محبّتهم له ﷻ بحسب تفاوتهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حبًا له؛ ولهذا كانت رسله ﷺ أعظم الناس حبًّا له، وكان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام أعْظَم حُبًّا لله تبارك وتعالى؛ ولهذا كان المُنْكِرون لأسمائه وصفاته مِنْ أجهل الخلق به، وهم في الحقيقة مُنْكرون لمحبّتِه[٤].

بل إنَّ «مَنْ صَحَّتْ له معرفة ربّه، والفقه في أسمائه وصفاته، عَلِم يقينًا أَنَّ المكروهات التي تُصِيبه، والمِحَن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح والمنافع التي لا يحصيها عِلْمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب»[٥]؛ ولهذا يكون دائمًا شاكرًا راضيًا مهما تقلَّبَتْ بِهِ الأيام، ومهما اختلفت عليه الأحوال؛ إذ لا يأتي من الحبيب إلّا الخير.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/٢٧٤).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٦٨٥).

(٣) «الجواب الكافي» (ص٥٣٣).

(٤) انظر: «الفتاوى» (١٠/٢٠٣ وما بعدها) و«طريق الهجرتين» (٢/٦٩٢).

(٥) «الفوائد» (ص١٣٣).

تاسعًا: مجالسة المحبين الصَّادِقِين، والتقاط أطايب كلامهم.

عاشرًا: المباعدة عن كل سبب يَحُول بين القلب وبين الله ﷻ:

وقد قيل لذي النون: متى يأنس العبد بربّه؟ قال: «إذا خافه أَنِسَ بِه، أما علمتم أنه مَنْ وَاصَلَ الذنوب نُحّيَ عَنْ باب المحبوب؟!»[١].

قد يُقَال: بأن المحبة لا يد للإنسان فيها؛ لأنه لا يملك قلبه، فكيف يُطَالَب بما لا يملك؟

والجواب: أن يُقَال بأن خطاب الشارع إذا تَوَجَّه إلى المُكَلَّف في أمر لا يدخل تحته قدرته؛ فإنه يتوجه إما إلى سببه، أو إلى أثره.

وفي هذا الموضع فإن الخطاب يَتَوجَّه إلى السبب؛ فإذا نظر العبد في مُوجِبَات المحبة والأسباب الجالبة لها؛ امتلأ قلبه بمحبة الله جَلَّ جلاله ولا بد.

وقد قال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: إنك لأحب إلي من كل شيء إلّا من نفسي. قال النبي ﷺ: «لَا والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ». قال: الآن، والله لأنت أحب إليَّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[٢]. فقد ازدادت محبة عمر للنبي ﷺ، وأقرَّه النبي ﷺ على أن الحب قد يَتَغَيَّر.

وربما تسمع عن شخص كلامًا وأنت تحبه فتكرهه، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب؛ فتعود محبتك إياه[٣].

* * *

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

(٣) انظر: «القول المفيد» (٢/١٨٠-١٨١).

ثَمَرَاتُ المَحَبَّة وَآثَارُهَا السُّلُوكِيَّة

أوَّلًا: أنها تبلِّغنا الدرجات العلى عند الله تبارك وتعالى:

كما جاء في حديث أنس ﷺ: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» فقال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أُحِبّ الله ورسوله، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»(١).

وقد عرفنا أنه لا بد من العمل والاتّباع مع ذلك، فلا تكفي دعوى المحبَّة.

ثانيًا: أنها تَقُودُ إِلَى طَاعَةِ اللهِ ﷻ:

وذلك أن القلب يكون مأسورًا لمن أحبّ، فلا يجد بُدًّا من طاعته والانقياد إليه؛ لأن «المحبة التامة هي مَيْلُ القلب بكلِّيَّتِهِ إلى المحبوب، فيكون ذلك حاملًا على الطاعة والتعظيم، وكلَّما كَان الميل أقْوَى كَانَتْ الطاعة أتمّ، والتعظيم أوْفَر»(٢).

فـ «الحبّ يُحرِّك إرادة القلب، فكُلَّمَا قَوِيت المحَبَّة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبَّة تامَّة استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوبات، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصَّلَها، وإِنْ كَان عاجزًا عنها، ففعل ما يقدر عليه من ذلك كان له كأجر الفاعل»(٣).

وقد قال بعضهم: «لو لم يكن لله ثَوَابٌ يُرْجَى ولَا عِقَاب يُخْشَى؛ لكان

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١٨٦/٢) بتصرف.

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٩٢/١٠).

أهلًا أن يُطَاعَ فلا يُعْصَى، ويُذْكَر فلا يُنْسَى، ... أمَا تسمع موسى عليه السلام يقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]»(١).

وقد تقدَّمَ أنَّ المحَبَّةَ الصحيحة هي التي تكون مع الخوف والرجاء، وأن العبد ينبغي أن يكون جامعًا بين المحبَّة والخوف والتعظيم والرَّجاء مع العمل الصالح.

وقال العز ابن عبد السلام: «محبة الله وسيلة إلى أن يعامله العبد معاملة المُحِبّ لحبيبه في المبادرة لطاعته، والمسارعة إلى كل ما يُرْضِيه، واجتناب كل ما يسخطه، والتَّحَرُّز من أسباب سخطه، والاحتياط لأسباب رضاه» اهـ(٢).

وبهذا يكون العبد مُتَصَبِّرًا عن معصية الله ﷻ، ومخالفة أمره، ومقارفة حدوده وانتهاكها؛ وذلك لأن «المُحِبَّ لمن يحبُّ مُطِيع، وكُلَّما قَوِي سلطان المحبَّة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة، وترك المخالفة أقوى، وإنما تَصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفَرْق بين مَنْ يحمله على ترك معصية سيِّدِه خوفُه مِنْ سَوْطِهِ وعقوبته، وبَيْنَ مَنْ يحمله على ذلك حبُّه لِسَيِّدِهِ... فالمحب الصَّادِق عليه رقيب من محبوبِهِ يَرْعَى قَلْبَه وجوارحه، وعلامةُ صِدْق المحبة شهودُ هذا الرقيب ودوامُه.

وها هنا لطيفة يجب التنَبّه لها؛ وهي أن المحبةَ المجرَّدَةَ لا تُوجِبُ هذا الأثر ما لم تقترن بإجلال المحبوب وتعظيمه، فإذا قارنها بالإجْلال والتعظيم أوجبت هذا الحياءَ والطاعةَ، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما تُوجِبُ نوعَ أُنْسٍ وانبساط وتَذَكُّرٍ واشْتِيَاق؛ ولهذا يتخلف عنها أثَرُهَا وموجَبُهَا، ويُفَتِّشُ العَبْدُ قلبَهُ فيَرَى فيه نوعَ محبَّة لله، ولكن لا تحمله على ترك معاصيه، وسبب ذلك تجرُّدها عن الإجلال والتعظيم، فما عَمَرَ القلبَ شيءٌ كالمحبة المقترنة بإجْلال

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣١٤).
(٢) «شجرة المعارف والأحوال» (ص٤٥-٤٦).

الله وتعظيمِهِ، وتلك مِنْ أفْضَل مواهب الله لعبده أو أفضلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

بل إنه يتلذذ بهذه الطاعة، والعمل بما يقرّبه إلى الله ﷻ، وهذه اللذة تزيد بحسب ما في القلب من المحبة، فلْيَزِن العبد إيمانه ومحبَّته لله بهذا الميزان، ولا شك أن العبادة التي يقوم بها العبد بدافع المحبَّة؛ فيها قوة، ونشاط، وهمّة، وإقبال نفس، وانشراح صدر، لا كحال المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يُرَاؤون الناس، فيكون العبد في حال لا يمكن أن يَمَلّ معها طاعة ربه[٢].

كما قال بعضهم: «ما كاد يَمَل القربة إلى الله تعالى مُحِبّ لله ﷻ، وما كاد يسأم من ذلك»[٣].

يقول ابن الجوزي: «قيل لعامر بن عبد قيس: أمَا تَسْهو في صلاتك؟ قال: «أوَحَدِيث أحبّ إلي مِنَ القُرْآن حتى أشتغل به؟!».

وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، ففزع لها أهل السوق، فما التفت[٤]. وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته، فإذا قام يصلي تكلّموا، وضحكوا؛ علمًا منهم أن قلبه مشغول[٥]، وكان يقول في مناجاته: إلهي! متى ألقاك وأنت عني راضٍ؟[٦]» اهـ[٧].

وكان الفضيل يقول: «إذا رأيتُ اللَّيلَ مُقْبِلًا فَرِحْتُ بِهِ، وقلتُ: أخْلُو

---

(١) «طريق الهجرتين» (٢/٥٩٠).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/٦٩٧).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص٧٣٥).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٩٢)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٥٨/١٣٧).

(٧) «المدهش» (ص٤٧٢).

بِرَبِّي، وإذا رَأيت الصبح أدركني استرْجَعْتُ كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني مَنْ يشغلني عن ربي»[١].

وبهذا نعلم أن المحبة الصادقة ترفع العبد المُحِبّ الصادق ليكون موافقًا لربه في محابِّه، فيحب ما يحبّ الله ﷻ، ويبغض ما يبغضه الله تبارك وتَعَالَى، ولو كان ذلك يخالف ويتنافى مع ما طُبِعَ عَلَيْهِ العَبْد؛ فإن هذه الكراهة لا تنافي محبَّتَه لها، كما يكره طبعه الدواء الكريه، وهو يحبه مِنْ وَجْهٍ آخر[٢].

وأخيرًا: «يا هذا! عندك بضائع نَفِيْسة: دموع ودماء، أنفاس وحركات، وكلمات ونَظَرات، فلا تبذلها فيما لا قَدْرَ له.

أيصلح أن تَبْكِي لفَقْدِ ما لا يَبْقَى، أو تَتَنَفَّس أَسَفًا على ما يَفْنَى، أو تَبذل مهْجَةً لصورة عن قليل تُمْحَى؟!... ويْحَك! دمعةٌ فيك تُطْفِئُ غضب ربك، وقطرةٌ من دم في الشهادة تمحو زَلَلَكَ، ونَفَس أَسَفٍ يَنْسِفُ ما سَلَف، وخطواتٌ في مرضاته تغسل الخطيئات، وتسبيحةٌ تغرس لك أشجار الخُلْد، ونَظْرَة بِعَبْرَةٍ تُثْمِرُ الزُّهْدَ في الفاني»[٣].

والخلاصة: أنه «إذا غُرِسَتْ شَجَرَةُ المَحَبَّةِ في القَلْبِ، وسُقِيَتْ بِمَاء المَعْرِفَة والإخلاص، وصُدِّقَتْ بِمُتَابَعَةِ الحَبِيب؛ أثْمَرَتْ أنْوَاع العبادات، وآتَتْ أُكُلَهَا كل حين بإذن ربها»[٤].

ثالثًا: أنَّ ذَلِكَ يُسَهِّل عليه الأُمور الشاقَّة:

فـ«المحبة كلما تمكَّنَتْ في القلب، ورسخت فيه كان أذى المحبّ في

---

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» (٢/٢٢٧)، وعزاه الزبيدي في «شرح الإحياء» (٦/٣٤٣) إلى «الحلية»، ولم أجِدْه.

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (٢/٥٨٣).

(٣) «المدهش» (ص٤٩٥) بتصرف يسير.

(٤) «مدارج السالكين» (٣/٩) بتصرف.

رضا محبوبِه مستحلًى غير مسخوط، والمحبّون يفتخرون عند أحبابهم بذلك، حتى قال قائلهم[(١)]:

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ ... لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى، الذي ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له وإحسان إليه؟!»[(٢)].

قال الحليمي: «فقد يُفْهَم من هذا أنَّ مَنْ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَى لم يَعُدَّ المصائب التي يقضيها عليه إساءة منه إليه، ولم يستثقل وظائف عبادته، وتكاليفه المكتوبة عليه، كما أن من أَحبَّ أحدًا مِنْ جِنْسِهِ لم يكد يُبْصِر منه إلّا ما يستحسنه، ويزيده إعجابًا به، ولا يصدق من خبر المخبرين عنه إلّا ما يتخذه سببًا للولوع والغلو في محبته»[(٣)].

وإذا حقَّقَ العبد ذلك، فإنه بهذا الاعتبار يرضى بأقدار الله ﷻ؛ حُلْوها ومرّها، «فإن المحب يتسلّى بمحبوبه عن كلّ مصيبة يُصَاب بها دونه؛ لأنه يرى محبوبه عِوَضًا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عِوَضًا منه، فكل مصيبة عنده هيِّنة إذا أبقَت عليه محبوبه»[(٤)].

لقد بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء، فوجدوا في التعذيب عُذُوبة؛ لعلمهم أنه مراد الحبيب...

فهذا سويد بن مَثْعَبَة، ضَنِي على فراشه فكان يقول: «والله، ما أحب أن الله نقصني منه قلامة ظُفْر»[(٥)].

---

(١) وهو ابن الدُّمَينة. «محاضرات الأدباء» (١٣٤/٢).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٩٢١/٢) بتصرُّف.

(٣) «شعب الإيمان» (١٩٦/٢). وقارن هذا النقل بما في «المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي (٤٩٨/١).

(٤) «طريق الهجرتين» (ص٤٩٥) باختصار وتصرف يسير.

(٥) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢٨٠/٨)، وأحمد في «الزهد» (ص٣٥٩)، وابن أبي الدنيا في «الرضا» (٧٨)، وفي «المرض والكفارات» (١٩٧).

تَعَجَّبُوا مِنْ تَمَنِّي الْقَلْبِ مُؤْلِمَهُ ... وَمَا دَرَوْا أَنَّهُ خَلْقٌ مِنَ الْأَلَمِ[(١)]

وأمر الحَجَّاج بِصَلْب أحد العُبَّاد وهو يُسَبِّح ويُهَلِّل، ويعقد بِيَدِهِ حَتَّى بلغ تسعًا وعشرين، فبقي شهرًا بعد موته ويده على ذلك العقد مَضْمُومة.

لَتُحْشَرَنَّ عِظَامِي بَعْدَمَا بَلِيَتْ ... يَوْمَ الحِسَابِ وَفِيهَا حُبُّكُمْ عَلِقُ[(٢)(٣)]

وقد قال عامر بن عبد الله: «أحبَبْت الله ﷻ حبًّا سهَّل عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني في كل قضية، فما أبالي مع حبي إيَّاهُ ما أصبحتُ عليه وما أمسيتُ»[(٤)].

رابعًا: أنها تورث الشَّوْق إلى لِقَاءِ الله ﷻ:

والفَرَحُ بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوَّة المحبة وضعفها؛ كما ذكر ابن القيم في كتابه «الروح»[(٥)].

وقد قال بعضهم: «الشوق هو المحَبَّة، مَنْ أَحَبَّ اللهَ اشتاق إلى لقائه»[(٦)].

وقال آخر: «بِقَدْرِ مَا يَصِل إلى قلب العبد من السرور بالله يشتاق إليه، وَعَلَى قدر شوقه يخاف من بُعْدِه وطَرْدِهِ»[(٧)].

خامسًا: أنها صلاح ما بينه وبين الخلق:

كما قال بعضهم: «ما أَقْبَلَ عَبْدٌ بقلبه إلى الله ﷻ إلّا أقْبَلَ اللهُ بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم»[(٨)].

---

(١) البيت ضمن قصيدة للشريف الرضي. «نزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار» (ص١٣٦).

(٢) «تاريخ دمشق» (٦٦/٦٥).

(٣) «المدهش» (ص٢٨٣) بتصرف يسير.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٧١)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخه» (٢٦/٢٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٨٩) واللفظ له.

(٥) «الروح» (٢/٧٣٢).

(٦) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٨).

(٧) ذكره البيهقي في «الشعب» (٤٥٨).

(٨) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٢٣٢) واللفظ له، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٢٧).

وقال آخر: «لا يُحْسِن عبد فيما بينه وبين الله تعالى إلَّا أحْسَنَ الله فيما بينه وبين العباد، ولا يُعوِّر فيما بينه وبين الله تعالى إلّا عوَّر الله فيما بينه وبين العباد، ولمُصَانَعَة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلّها»[(١)].

سادسًا: أنها تُورِث نعيم القلب وسرور النفس:

فـ «كلَّمَا كانت المَحَبَّة أكمل، وإدراك المحبوب أتم، والقرب منه أوفر؛ كانت الحلاوة واللذة والسرور والنعيم أقوى»[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يُنَاسِب هذه المحبَّة؛ ولهذا عَلَّق النبي ﷺ ما يجدونه بالمحبَّةِ؛ فقال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[(٣)] اهـ[(٤)].

واعلم أن «في القلب شَعَثًا لا يلُمُّه إلّا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلّا الأُنْس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلَّا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يُسْكِنه إلّا الاجتماع عليه، والفرار منه إليه، وفيه نيران حَسَرَات لا يُطْفِئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه، وفيه فاقة لا يُسَيِّرها إلّا محبته، ودوام ذكره، والإخلاص له، ولو أُعْطي الدنيا وما فيها لم تُسَدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[(٥)].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/٩٣١-٩٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٦) واللفظ له، ومسلم (٤٣) من حديث أنس ﷺ.

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٥٠).

(٥) «مدارج السالكين» (٣/١٦٤) بتصرف يسير.

وكان يحيى بن معاذ يقول: «هذا سروري بك خائفًا، فكيف سروري بك آمنًا؟! هذا سروري بك في المجالس، فكيف سروري بك في تلك المجالس؟! هذا سروري بك في دار الفناء، فكيف يكون سروري بك في دار البقاء؟!»[١].

وكان يقول: «أحلى العطايا في قلبي رَجَاؤُك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الساعات إليَّ ساعة يكون فيها لقاؤك»[٢].

قال إبراهيم بن أدهم: «لو علم الناس لذَّة حبِّ الله لقَلَّتْ مطاعمهم ومشاربهم وحرصهم»[٣].

سابعًا: تحقيق الحب في الله والبغض في الله:

فيوالي أولياء الله، ويعادي أعداءه، فإن أصل الموالاة المحبَّة، كما أن أصل المعاداة البُغْض، والمحب مِنْ حُبِّه لحبيبه يحب كلّ مَنْ يحبّه، ويواليهم، وينصرهم، كما يبغض أعداءه، ويتبرأ منهم[٤].

فلا يجتمع في قلب العبد محبَّة الله ﷻ ومحبة أعدائه من الكفار.

* * *

(١) «صفة الصفوة» (٩٧/٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٣٧/٢).

(٣) ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٨١/١٠).

(٤) انظر: «جامع الرسائل» (٣٨٤/٢).

مِنْ أَخْبَارِ أَهْلِ المَحَبَّة

١ - قال الفضيل بن عياض في مرضه الذي مات فيه: «ارْحَمْنِي بحبي إياك، فليس شيء أحَبَّ إِلَيَّ منك»[١].

وكان يقول: «كفَى بالله مُحبًّا، وبالقرآن مُؤْنسًا، وبالموت واعظًا، وكفَى بخشية الله علمًا، وبالاغترار بالله جهلًا»[٢].

٢ - ويقول آخر: «إنه ليمرّ بي أوقات أقول فيها: إنْ كَان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيِّب»[٣].

وقد قَدَّمْنَا بعض عبارات السلف ﷺ التي تدل على حالهم في هذه المرْتَبة.

وبالجملة فلا بد من التربية الإيمانية للقلب، فهي التي تحمله على حُسْنِ التوجه لبارئه وخالقه سبحانه، وهي التي تصحّح له هذه المعاملة.

هذا آخر ما أردنا إيراده من الكلام على هذا الباب الشريف، واللهَ أسأل أن يجعلنا من المحبين له؛ إنه قريب مجيب.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٩/٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٤٩).

(٣) «الوابل الصيب» (ص١١١)، و«إغاثة اللهفان» (١٤٧/١) و(٩٣٢/٢).

فهرس الموضوعات

مُقَدِّمة الطَّبْعَة الثانية ٥

مُقَدِّمة الطَّبْعَة الأولى ٧

مُقَدِّمَة في بَيَانِ مَنزِلَةِ القَلْبِ، وَأَهَمِّيَّةِ الأَعْمَالِ القَلْبِيَّة ١٧

توطئة ١٩

معنى القَلْبِ وحقيقتُه ٢٠

منزِلة القلب ٢٨

الموازنة بين القلب والسمع والبصر ٣٣

مُصلِحاتُ القلب ٣٦

مُفسِداتُ القلب ٤٧

كثرة مُفسِدات القَلْب ٥١

أحوال القلب ٥٣

المراد بأعمال القلوب ٥٧

أحكام الأعمال القلبيَّة مِن حيثُ الثوابُ والعقاب ٥٨

أهميَّة أعمال القلوب، والمفاضَلة بينها وبين أعمال الجوارح ٥٩

لزوم العناية بأعمال القلوب وأعمال الجوارح وأحوالُ الناس في ذلك ... ٧٤

تفاوتُ الناس في أعمال القلوب ٧٦

التلازُمُ بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح ٧٧

الإخلاص ٧٩

توطئة ٨١

معنى الإخلاص وحقيقته ٨٢

الفَرْق بين الإخلاص والصِّدْق، وبين الإخلاص والنُّصْح ٨٤

أهمِّيَّة الإخلاص ومنزلتُه ٨٧

الإخلاصُ في الكتابِ والسُّنَّةِ ٩٣

مراتِبُ الإخلاص ٩٥

دِقَّةُ الإخلاص ٩٧

ثمراتُ الإخلاص وآثارُهُ السلوكيَّة ١٠٥

الآثارُ المعجَّلةُ للإخلاص ١٠٦

الآثارُ الأُخْرَويَّةُ للإخلاص ١٢٦

عاقبةُ النيَّاتِ والمقاصِدِ السَّيِّئة ١٣١

الطريقُ إلى تحقيقِ الإخلاصِ ودَفْعِ الرياءِ ١٤١

مسألة: هل يكون إظهار العمل مُنافِيًا للإخلاص؟ ١٦٠

الأمور التي تنافي الإخلاص ١٦٤

أنواعُ العمل المقبول ١٦٥

أنواعُ العمل المردود ١٦٦

الرياء والسُّمْعة ١٦٩
أقسام التسميع ١٧٢
مِن أخبار المرائِين ١٧٧
العلامات التي تَدُلُّ على إخلاص العبد ١٨٠
مِن أخبار أهل الإخلاص ١٨٦
اليَقِينُ ٢٠٩
توطئة ٢١١
معنى اليقينِ وحقيقتُه ٢١٢
الفرقُ بين اليقين، والعلم والتصديق والثقة ٢١٥
أهميَّةُ اليقين ومنزلته ٢١٩
اليقين في الكتاب والسُّنَّة ٢٢١
مراتب اليقين ٢٢٣
مراتب الناس في اليقين ٢٢٥
اختبار اليقين ٢٢٧
الطريق إلى تحقيق اليقين، وكيفيَّةُ تحصيلِ أسبابه ٢٣٠
ثَمَرات اليقين ٢٣٦
الأمورُ التي تُنافِي اليقين ٢٥٨
مِن أخبارِ أهلِ اليقين ٢٥٩
التَّفَكُّرُ ٢٦٧

توطئة ٢٦٩
معنى التفكُّر وحقيقتُه ٢٧٠
الفرق بين التفكُّر والتذكُّر ٢٧١
أهميَّة التَّفَكُّر وفضلُه ٢٧٥
التفكُّر في الكتاب والسنة ٢٧٨
مجالات التفكُّر ٢٨٣
معوِّقات التفكُّر ٣٠١
الطريق إلى تحقيق التفكُّر ٣٠٥
ثَمَرات التفكُّر ٣٠٩
من أخبار أهل التفكُّر ٣٢٦
الخُشُوع ٣٣١
توطئة ٣٣٣
معنى الخشوع وحقيقتُه ٣٣٤
الفرقُ بين الخشوعِ وبين الإخباتِ والخضوعِ والضَّرَاعة ٣٣٧
أهميَّة الخشوعِ ومنزلتُهُ ٣٣٩
الخشوع في الكتاب والسنة ٣٤٤
دَرَجاتُ الخشوع ٣٥٠
مراتب الناس في الخشوع ٣٥٢
أنواع الخشوع ٣٥٦

الطريق إلى الخشوع ٣٥٩
ثَمرات الخشوع ٣٧٠
الأمور المنافية للخشوع ٣٧٥
مِن أخبار أهل الخشوع ٣٧٧
المُراقَبَة ٣٨٧
توطئة ٣٨٩
معنى المراقبة وحقيقتها ٣٩٠
منزلةُ المراقَبِة من أعمال القلوب ٣٩٣
المراقَبَة في الكتاب والسُّنَّة ٣٩٦
مَراتِبُ المراقَبة ٣٩٩
الطريق إلى تحقيق المراقبة ٤٠٦
ثَمَرات المراقبة ٤٢٤
مِن أخبار أهل المراقَبة ٤٣٤
الوَرَع ٤٣٧
توطئة ٤٣٩
معنى الوَرَع وحقيقته ٤٤٠
الفرق بين الوَرَع والزُّهد ٤٤٢
هل الورع أمر سلبي أو إيجابي؟ ٤٤٤
أهمِّيَّةُ الوَرَع ومنزلته ٤٤٥

الوَرَعُ في الكتابِ والسُّنَّة ٤٤٧
الأمور التي يدور عليها الوَرَع ٤٥٢
ما لا مَدخَلَ للورَع فيه ٤٥٥
مراتب الوَرَع ٤٥٨
مراتب الناس في الورع ٤٦١
فِقْهُ الوَرَع ٤٦٦
الوَرَعُ الفَاسِدُ ٤٧١
الطريق إلى تحقيق الوَرَع ٤٧٧
علامة أهل الوَرَع ٤٨٣
ثَمرات الوَرَع، وآثارُهُ السلوكيَّة ٤٨٤
مُفسِداتُ الوَرَع، والأمورُ التي تضادُّه ٤٩٢
أبواب الوَرَع ٤٩٦
أولًا: الورع في المنطق ٤٩٦
ثانيًا: الورع في المأكل والمشرب ٥٠٠
ثالثًا: الورع في المكاسب ٥٠٣
رابعًا: الأمور الدقيقة في الورع في المكاسب ٥١٣
خامسًا: الورع في الفتيا والكلام على الأحكام ومعاني القرآن ٥٢٣
سادسًا: الورع في النظر ٥٤١
سابعًا: الورع في السمع ٥٤٣

ثامنًا: الورع في الشَّم ٥٤٤
تاسعًا: نماذج متنوعة من أبواب شتى في الورع ٥٤٥
التَّوَكُّل ٥٥٣
توطئة ٥٥٥
معنى التوكُّل وحقيقته ٥٥٦
الفروقات في باب التوكُّل ٥٦٧
منزلة التوكُّل ٥٧١
التوكُّل في الكتاب والسنة ٥٩٤
التوكُّل إنما يكون على اللَّه وَحْدَهُ، دون أحدٍ سواه ٥٩٦
دَرَجات التوكُّل ٦٠٠
أنواع التوكُّل ٦٠٥
التوكُّلُ وفعلُ الأسباب ٦١٣
الأدلَّة على أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكُّل ٦٢٤
هَدْيُ السلفِ الصالحِ في التوكُّلِ وفعلِ الأسباب ٦٢٧
أقسام التوكُّل بالنظر إلى تعلُّقه بالأسباب ٦٣٢
أقسامُ الأعمالِ الصادرةِ عن العبد ٦٣٤
ما يُطْلَب معرفتُهُ في الأسباب ٦٣٨
ما يُطلَبُ توقِّيه في الأسباب ٦٤١
بعضُ مَظَاهِر ضعفِ التوكُّل ٦٤٣

الاسترقاء (طلب الرُّقْية)	٦٤٥
هل الرُّقيةُ تنافي التوكُّلَ؟ أو تَقدَحُ فيه؟	٦٤٧
الاكْتواء	٦٥١
حكم التداوي، وهل ينافي التوكُّل؟	٦٥٤
حكم التداوي بشيء محرّم	٦٥٥
التداوي وموضعه من الأحكام الخمسة	٦٥٦
التَّطَيُّر (التّشاؤم)	٦٥٨
حكم التطيّر	٦٥٩
هل التشاؤم من الطيرة الشّركية؟	٦٦٩
مَواطِن التوكُّل	٦٧٨
عِلَل التوكُّل	٦٨١
أحوال الناس في التوكُّل	٦٨٢
الطريق إلى تحقيق التوكُّل	٦٨٥
ثَمَرات التوكُّل	٧٠٤
مِن أخبار أهل التوكُّل	٧٢٥
المحبة	٧٢٩
توطئة	٧٣١
معنى المحبة وحقيقتها	٧٣٢
محبة الله	٧٣٥

منزلة المحبَّة	٧٣٦
المحبة في الكتاب والسنة	٧٤٠
المحبة وحدها لا تكفي	٧٤٢
المفاضلة بين الخوف والمحبة والرجاء	٧٤٤
درجات المحبَّة	٧٤٥
مراتب المحبة	٧٤٦
أنواع المحبة	٧٥٠
أقسام الناس في المحبَّةِ والإرادة والقدرة	٧٥٧
علامات محبَّة الربّ للعبد	٧٥٩
الطَّرِيقُ إلى تحقيق محبة الرَّب للعبد	٧٦١
علامات محبَّة العبد لربه عزّ وجلّ	٧٦٤
الطريق إلى تحقيق المحبة لله عزّ وجلّ	٧٧١
ثمرات المحبة وآثارها السلوكية	٧٨٢
من أخبار أهل المحبة	٧٩٠
فهرس الموضوعات	٧٩١